

قصص مثالية

تأليف

ميجل دي ثربانتس سابدرا

ترجمة

على عبد الرؤوف البمبي



Miguel de Cervantes
La aventura



المشروع القومي للترجمة

552

Novelas ejemplares

by Miguel de Cervantes Saavedra

تضم هذه المجموعة اثنتى عشرة قصة اعتاد الشُّراح تصنيفها إلى قسمين رئيسيين: قسم تسيطر عليه النزعة المثالية، وآخر يسيطر عليه التكنيك الواقعي. وعلى الرغم من أن الفاصل بين القسمين ليس واضحاً تماماً، فإنه يمكننا القول بأن الحكمة القصصية أكثر تعقيداً في القسم الأول الذى تنتمي شخصياته إلى الطبقة الأرستقراطية، ويتميز أسلوبه بالرصانة والرقى (وإن كان عارياً عن الحيوية)، كما يعتمد تطور الأحداث فيه على المصادفات الغريبة والحلول السارة غير المتوقعة. أما قصص القسم الثانى فتتميز ببساطة الحكمة والموضوع، وبالتوسع فى وصف الأجواء الاجتماعية وعرض مشاهد الحياة اليومية، كما تعتمد على لغة بسيطة سريعة الإيقاع مفعمة باللمسات الساخرة.

ومن أبرز قصص القسم الأول نذكر: «السيدة كورنيليا»، و«الفتاتان»، و«الإسبانية الإنجليزية» و«العاشق السخى». أما القصص المشبعة بخصائص القسم الثانى فهى: «رينكونيته وكورتاديو» و«زواج المصلحة»، و«المحامى المزجج»، و«حوار الكلبيين»، و«غيور إكستريمادورا».



قصص مثالية

تأليف

ميجيل دي ثريانتس سابدرا

ترجمة

على عبدالرءوف البمبى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٥٢
- قصص مثالية
- ميجيل دى ثريانتس سابيرا
- على عبد الرء وف البمبى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب

Novelas ejemplares
Miguel de Cervantes Saavedra

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلالية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel: 7352396 Fax: 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم المختلفة ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
7	● تقديم المترجم
21	● مقدمة المؤلف : إلى القارئ العزيز
25	١- العجربة
105	٢- العاشق السخى
155	٣- رينكونيته وكورتاديو
201	٤- الإسبانية / الإنجليزية
245	٥- المحامى المزجج
277	٦- نداء السدم
297	٧- غيور "إكستريمادورا"
335	٨- صاحبة السيادة : الخادمة
327	٩- الفتاتان
433	١٠- السيدة "كورنيليا"
473	١١- زواج المصلحة
489	١٢- حوار الكلبين

تقديم المترجم

على الرغم من أن "ثريانتس" يتربع فوق عرش الأدب الإسباني بلا منازع، ويعتبر أحد القمم الشامخة في الآداب العالمية، ولا يختلف اثنان على عبقرية الفذة في فن القص إلا أنه يكاد يكون مجهولاً في أدبنا العربي رغم مرور زهاء أربعة قرون على وفاته.. لقد كانت ترجمة الدكتور عبدالعزيز الأهواني للجزء الأول من "دون كيخوته" (المنشورة منذ حوالي خمسين عاماً في سلسلة "الألف كتاب" الرائدة) هي المحاولة الأولى لتعريف القارئ العربي بهذا الكاتب العملاق. وبعد ترجمة الأهواني الرائعة جفت الأقلام وطويت الصحف؛ إذ لم يجزؤ مغامر آخر على سبأ أغوار عالم ثريانتس الخصب، المحفوف بالعقبات والأخطار، للتقريب عن كنوزه واستخراج نفائسه... ونقول "مغامراً"؛ لأن هذا العالم تكتنفه صعوبات جمة حار في تفسيرها الشراح ولم يهتدوا إلى مغزى الكثير منها.

ولا تقف هذه الصعوبات عند حد اختلاف عصر المؤلف أو المناخ الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي عاش فيه، بل تمتد لتشمل أسلوبه المعقد وطبيعة أداة التعبير المستخدمة آنذاك؛ فلقد شهدت اللغة الإسبانية تطوراً ملموساً خلال تلك الحقبة الطويلة التي طوى فيها النسيان عدداً لا بأس به من الألفاظ والمصطلحات، وتغيرت فيها مدلولات عدد آخر لا يحصى من المفردات، ناهيك عن التراكيب اللغوية وشكل الكتابة والقواعد التي تحكم بناء الجمل، هذا بالإضافة إلى الأسلوب المتفرد للكاتب وتشبعه بالثقافة اليونانية واللاتينية، وإلى استخدامه للكثير من الاصطلاحات الكنسية والأحاجي اللغوية والتعابير المجازية... إلخ.

ومن هنا يتبين أن اقتحام مثل هذه النصوص - لاسيما إذا كانت لعبقري مثل ثريانتس - أشبه بتسلق جبل وعز غامض، حادّ وسامق، تحتاج كل خطوة فيه إلى الاستكشاف المستمر والحرص الدائم واليقظة التامة؛ لأن زلّة واحدة للقدم تعنى

السقوط من حائق .. ولعلنا بهذه الكلمات القصار نكون قد أشرنا - ولو من بعيد - إلى سر انصراف المترجمين العرب عن ثريانتس رغم أن الأسباب التي تجعله جديراً بالترجمة تفوق الحصر، ومنها :

أن كتاباته تضم ألفاظاً عربية الأصل وأحاديث عن المسلمين ودينهم وبعض عاداتهم ، وأنه ينطق بأمثال عامية وحكم ومواعظ ليست بعيدة عن تراثنا بل إن لتراثنا أثراً كبيراً في إذاعتها بين أهل إسبانيا ، ولقدرة أعماله على الإحياء وإثارة عواطف قرائها على اختلاف عصورهم وأوطانهم وحظوظهم من الثقافة ، ولأن أعماله تحوى بين جنبتيها نزعة إنسانية تجعلها تتجاوز حدود الوطن الإسباني وحدود عصرها لتصبح مشاعاً بين البشر جميعاً في كل عصر ومصر ، ولأننا نستطيع من خلال كتاباته (التي تتسم بالواقعية المضخمة بالمثالية) التعرف على قسط كبير من ملامح الحضارة الغربية في ذلك الحين (والإمبراطورية الإسبانية كانت الممثل الوحيد لها آنذاك) وعلى العلاقة الجدلية - أو التصادمية ، بمعنى أصح - بينها وبين الشرق الإسلامي ممثلاً في الإمبراطورية العثمانية ... إلخ.

المؤلف وعصره :

إذا أردنا الاقتراب من عالم ثريانتس الأدبي وفهم سر طيران إبداعه بجناحي الواقعية والمثالية فلا مفر من التعرف على حياته وعلى العصر الذي كان يعيش فيه ؛ لأن بين ثلاثتهم ارتباطاً وثيقاً .

إن حياة ثريانتس تشبه إلى حد كبير حياة بطله "دون كيخوته" ، مثيرة للأسى ومفعمة بالنوازل والحادثات ، تحلق في سماء الفروسية المترعة بالمثاليات ، لكنها سرعان ما تصطدم بأرض الواقع المخيبة للآمال .

وُلِدَ ميجيل دى ثريانتس سابدرا في قلعة هنارس أو "قلعة النهر" Alcalá de Henares عام ١٥٤٧ م ، وكان الابن الرابع من سبعة أبناء لأسرة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى. كان أبوه "رودريجو ثريانتس" طبيباً جراحاً ، وكان رزقه من مهنته ضئيلاً بحيث اضطره إلى الرحيل من بلدٍ إلى بلدٍ سعياً وراء القوت بما لم يتح لابنه استقراراً يمكنه من الدراسة المنتظمة ، وإنما هي فترات متفاوتة قضاها في أماكن

يختلف فيها بين بلد الوليد وبين الآباء اليسوعيين في إشبيلية أو تحت إشراف أستاذ له في مدريد أو خلال فترة قصيرة في جامعة شلمنقة .

وفي سنة ١٥٦٩ (أى وهو في الثانية والعشرين من العمر) بدأت - مع رحيله في حاشية الكاردينال "خوليو أكوابيا" إلى إيطاليا - صفحة جديدة من حياته مترعة بالبطولات ومعبرة بالمثاليات. التحق بعد وصوله إلى إيطاليا بالجندية ، وهي مهنة كان لها شرف وشأن عظيمان في عصره . وفي سنة ١٥٧١ اشترك - من على ظهر سفينة لا ماركيسا - في معركة "ليپانتو" الشهيرة ضد الأسطول التركي الذي لاقى هزيمة منكرة على يد نظيره الإسباني . وقد جرح في تلك المعركة وأصيبت ذراعه اليسرى بحيث تعطلت عن الحركة - وإن لم تقطع - طوال حياته بعدها . وكان دائم الفخر بهذه الإصابة ويعتبرها ساماً رفيعاً وشرقاً عظيماً في سبيل مجد إسبانيا والمسيحية ، ويقال إنه كان مريضاً وبه حمى ومع ذلك أبى إلا المشاركة في القتال طلباً للموت في سبيل الدين والوطن، لكن هذه الإصابة لم تقعه عن المشاركة في حملات حربية أخرى في نفاارين وتونس وباليرمو .

عاد بعد ذلك إلى إيطاليا حيث أتقن لغتها واطلع على كبار كتابها وتشبع بأجواء نهضتها وزار مدنها الرئيسية [وقد وصف هذه المدن وصفاً دقيقاً في العديد من قصص المجموعة التي بين أيدينا] . وبعد زيارته للمدن الإيطالية الهامة أبصر من نابولي (عام ١٥٧٥) عائداً إلى إسبانيا ، وكان يحمل توصيات مكتوبة من شخصيات إسبانية كبيرة في إيطاليا يأمل من ورائها أن يلقي في بلاده خيراً عميماً ، ولكن القراصنة من الأتراك هاجموا سفينته في عرض البحر وأسروه - هو ومن معه - ثم حملوهم إلى الجزائر؛ وهكذا أصبحت التوصيات التي كان يحملها مصدر شر له إذ غالى في فديته أسروه . ولما لم يتمكن أهله الفقراء من اقتدائه ظل في أسره أو استرقاقه لمدة خمس سنوات عانى فيها الكثير من الأهوال وتعرض للموت نتيجة لمحاولته الهرب أربع مرات واعترافه في كل مرة بالتخطيط للفرار، متحملاً بذلك المسئولية عن زملائه . وقبل قليل من ترحيله إلى القسطنطينية افتدته إحدى الجمعيات الخيرية المسيحية Los Padres Trinitarios ليعود إلى وطنه وهو في الثالثة والثلاثين من العمر .

والى هنا تنتهى المرحلة البطولية من حياته لتبدأ أخرى مليئة بالأشواق إذ لم يفده الماضى المشرف بشيء، ولم تغلح التوصيات ولا الإصابات الظاهرة والخفية ، وما

ليث أن وجد نفسه متعطلاً خالياً من العمل فقيراً، يطرق الأبواب فلا تفتح له ، ولم يبق أمامه إلا القلم يريد أن يعيش منه ، لكن شق القلم - كما يقول كاتبنا القدماء - أضيق من أن يسمح بالثراء .

وبعد فك إساره استقر في مدريد ثم تزوج (عام ١٥٨٤) بشابة من إحدى القرى تصغره بثمانية عشر عاماً كانت بمثابة هم جديد يضاف إلى همومه الثقالة . وفي العام التالي لزوجته نشر باكورة إبداعه القصصى " لا جالاتيا " لكنها لم تلق رواجاً ، ولم يظفر من ورائها بالعائد المادى المنشود .. وبعد سعى طويل وجد وظيفة خاملة بأجر زهيد تتمثل فى جمع القمح والأقوات للأسطول الإسباني ، وقد اقتضت مهام وظيفته (محصولاً) التنقل بين مدن الأندلس المختلفة ، كما تسببت فى دخوله سجن إشبيلية مرتين لأخطاء نسبت إليه فى تأديته لعمله وإن كان قد تبين فيما بعد براءته منها . وبعد إعفائه من هذه الوظيفة النكداء رحل فى سنة ١٦٠٣ إلى بلد الوليد (وكانت العاصمة وقتذاك) ، وهناك لاحقه السجن للمرة الثالثة للعثور على رجل مقتول أمام مسكنه ، لكنه لم يستمر فى الحبس طويلاً لثبوت براءته مما دار حوله من شبهات . ومن بلد الوليد شد الرحال مرة أخرى إلى مدريد ليقضى فيها بقية حياته وينشر الجزء الأول من "دون كيخوته" (عام ١٦٠٥) ، ويقال إنه حاول السفر مرة ثانية إلى إيطاليا بصحبة "كونت دى ليموس" لكن رغبته لم تتحقق ، كما باءت بالفشل أيضاً محاولة أخرى له للذهاب إلى العالم الجديد [وقد أصابه رفض السلطات الإسبانية لسفره إلى العالم الجديد - والذي كان مباحاً للبر والفاجر - بحزن عميق وأسى عميم] .

وفى السنوات الباقية من عمره توالى أعماله الإبداعية ما بين شعر وقصة ومسرح . ورغم الشهرة العريضة التى نالها بعد صدور الجزء الأول من "دون كيخوته" فإن آلامه لم تنلته بسبب المتاعب المادية والعائلية ولحسد أبناء مهنته وكيدهم له ، وحسبنا أن نعلم أن واحداً من هؤلاء المعاصرين له قد أخرج قصة جعلها الجزء الثانى من "دون كيخوته" وصاحب الجزء الأول مازال حياً يرزق ، وقد أدى هذا الاجترار الفاجر إلى إسراع كاتبنا بإخراج الجزء الثانى الحقيقى .

وإذا قارنا حياة ثريانتس بحياة المشاهير من معاصريه [أمثال : كيبيدو ، ولوى دى بيجا ، وكالدرون دى لا باركا] يملكنا الأسى لما عاناه من بؤس وحرمان فى سنى

نضجه ، ولما تعرض له من أهوال ومحن في ريعان شبابه. صحيح أنه اكتسب شهرة في أخريات حياته ، لكنها لم تخفف من عوزة ، ولم تضعه في المكانة التي يستحقها بين أدباء عصره ، وحسبنا في هذا المقام الإشارة إلى سخرية "لوبي دى بيجا" القاسية منه حين قال : لا يوجد بين الشعراء من هو أسوأ من ثريانتس ، ولا من بين الحمقى أحق ممن يثنى على "دون كيخوته" ، أو إلى هذا التشفى الواضح الذي ورد على لسان آخر : إذا كان ثريانتس يكتب من أجل كسب لقمة العيش فالأفضل أن يستمر فقيراً هكذا .

ورغم هذه السخریات والحظ المعاند لم تلن قناة كاتبنا ولم يخفت وهج إبداعه (بفضل روحه الوثابة وثقته في موهبته واعتداده الشديد بالنفس وتفاوله) وظل يكتب حتى وافته المنية عام ١٦١٦م.

لقد عابه معاصروه لأنه لم يحصل على شهادة دراسية ، ومع هذا فإن الدراسة المتأنية لأعماله تميّط اللثام عن عمق ثقافته وقراءته الواعية للتراث الإسباني وإنتاج مؤلفي عصر النهضة الكبار ، كما تبرهن على مطابقة "أيدولوجيته" للروح السائدة في القرن السادس عشر ، وخير دليل على ما تقدم إشاراته المستمرة إلى كل من أرسطو وأفلاطون وهوراسيو و"أريوستو" و"ليون إيبريو" ، فضلاً عن الكثيرين من الكتاب الإسبان. وعلى هذا فإن خلو سيرته الذاتية من شهادة مدرسية لا يعيبه في شيء لأنه - كما يقول المؤرخ والناقد الفذ "أميريكو كاسترو" - : «لم يكن مثل جاليليو أو ديكارت بل عبقرية من معدن آخر ، استطاع - بوعى وإدراك عميقين - هضم المكونات الأساسية لثقافة عصره واتخاذها متكا لصوغ أعماله الإبداعية».

وإذا كانت حياة ثريانتس موزعة بين شباب مفعم بالبطولة والمثاليات وبين نضج وهرم مترعين بالانتكاسات وخيبة الآمال فإن القرن السادس عشر الذي قضى فيه جل عمره قد بدأ بجملة انتصارات وانتهى بعدة هزائم وانكسارات.

لقد كانت إسبانيا حتى أواخر القرن الخامس عشر تتألف من ممالك متجاورة متنافرة ، وسادها التفرق السياسى والدينى واللغوى ما يقرب من ثمانية قرون (وهى فترة الوجود العربى على أرضها) ، وفى الربع الأخير من هذا القرن شهدت إسبانيا جملة من الأحداث غيرت وجهها التاريخى:

ففى عام ١٤٧٤م ارتبطت مملكتا «رغون، Aragón وقشتالة، Castilla بالزواج الذى انعقد بين ملك الأولى (فرناندو) وبين ملكة الثانية (إيسابيل) ، وهما اللذان عرفا بالملكين الكاثوليكين. قامت المملكتان بعد هذه الوحدة بالزحف على الجنوب والاستيلاء على آخر المعاقل العربية فى إسبانيا (مملكة غرناطة) عام ١٤٩٢ ؛ كما شاءت الأقدار أن تصل فى العام نفسه السفن الإسبانية بقيادة "كريستوفر كولمبس" (أو "كريستوبال كولون" ، كما يعرف فى الإسبانية) إلى الدنيا الجديدة، ثم تعود حاملة نبأ الاكتشاف العظيم الذى هز البلاد هزاً . وكان سقوط غرناطة واكتشاف العالم الجديد بمثابة حدثين خطيرين جعلتا إسبانيا تشرئب بعنفها للقيام بدور تاريخى لم تفكر فيه من قبل. وفى ذلك العام أيضاً طردت إسبانيا اليهود من أرضها بعد أن شاركوا بأموالهم فى فتح غرناطة ، فاكتملت بذلك وحدتها الدينية ، إلا قلة تكفلت بها محاكم التفتيش ، واكتملت لها معظم وحدتها السياسية إلا مملكة «نبرة» Navarra التى ستنصوى تحت لواء الوحدة بعد قليل (فى عام ١٥١٢) ، ولم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى أصبح العلم الإشباني يرفرف على أجزاء من العالم الجديد وعلى جزر فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وعلى مدن إيطالية.

ولما دخل القرن السادس عشر كانت الجيوش الإسبانية تغزو المغرب ذاته ، حيث دخلت وهران واحتلت مواقع فى طرابلس ومراكش. وكانت هذه الحملات تحت قيادة رجل من أكبر من عرفتهم إسبانيا من رجال الدين فى ذلك العصر (وهو أيضاً رائد "الحركة الإنسانية" فيها)، ونعنى به: الكاردينال "ثيسنيروس" Cisneros ، وفى هذا رمز صريح للدلالة على طابع القرن كله : الحرب والدين أو السيف والصليب.

وبعد الملكين الكاثوليكين اعتلى عرش إسبانيا (من ١٥١٧ إلى ١٥٥٦) ملك صار المثل الأعلى لهاتين القوتين ، فأصبح إمبراطوراً يجمع تحت حكمه إسبانيا والعالم الجديد وألمانيا والنمسا والبلاد الواطنة وبرجونيا وصقلية وسردينيا وأجزاء كبيرة من إيطاليا ، وأصبح يقاوم التوسع العثمانى فى أوروبا ويشن الغارات على تونس والمغرب الإسلامى كله ويثبت أقدامه فيه ، ويحارب المذهب المسيحى الجديد البروتستانتية التى روج لها "إيراسمو" Erasmo بكتاباتهِ وانتقاداتهِ الحادة للكنيسة الرسمية ولرجال الإكليروس] ... نعم أصبح كارلوس الخامس يحمل أضخم تاج فى أوروبا بل وفى

العالم بأسره ، وغدت إمبراطوريته مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس . وكان لهذا كله أثره في الأمة الإسبانية وفي الكنيسة وفي الناس على اختلاف مشاربهم .

وبعد "كارلوس الخامس" تولى ابنه "فيليب الثاني" الحكم (وعمر ثريانتس تسع سنوات) ليواصل ما بدأه أبوه ، ويمضى في حروبه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وينشئ المعبد المسيحى الضخم الذى يعتبر الأعجوبة الثامنة من أعاجيب الدنيا وهو دير الإسكوريال تخليداً لانتصاراته على فرنسا ، وينتصر على الأسطول العثمانى فى موقعة "ليبانتو" التى شارك فيها ثريانتس .

مات "فيليب الثاني" عام ١٥٩٨ وثرينانتس فى الحادية والخمسين ، ثم قُدِّر لكاثينا أن يعيش بعد حكم "فيليب الثاني" ثمانية عشر عاماً أخرى فى عصر "فيليب الثالث" الذى خلف أباه وبقي فى الحكم حتى عام ١٦٢١ . وقد شهد ثريانتس على عهد هذا الملك الأخير الانهيار السريع الذى كانت تسير نحوه إسبانيا بخطى حثيثة ، بل إنه شهد بوادر هذا الانهيار فى أيام "فيليب الثاني" نفسه ، شاهده ممثلاً فى تدمير الأسطول الإشباني على يد نظيره الإنجليزى عام ١٥٨٨ ، فانتهت بذلك أسطورة هذا الأسطول البحرى الذى لا يقهر (كما كانوا يلقبونه) . ولئن كان ثريانتس قد شهد انتصار هذا الأسطول على الأتراك فى معركة "ليبانتو" المذكورة فإن تفريط إسبانيا فى هذا النصر الغالى وعدم استثمارها له حفز الأتراك على العودة إلى تهديد البحر والبر من جديد . لقد رأى ثريانتس أيضاً فى عهد "فيليب الثاني" ثورات الأراضى الواطئة على إسبانيا تتصل ولا تنقطع ، ومن ورائها التهديدات الفرنسية والإنجليزية . كما شاهد كثيراً من المعازل الأفريقية التى احتلها الجيش الإشباني تسقط واحداً تلو الآخر ، وعاین فوق هذا وذاك الثورة داخل الأراضى الإسبانية نفسها تقوِّم بها تلك الجموع الصغيرة اليائسة من بقايا المسلمين والتى اعتصمت بالجبال [البشرات، ٨١-] pujarras متحدية سلطان الإمبراطورية ، (وإن كانت إسبانيا قد تمكنت فى النهاية من القضاء عليها وترحيل المورييسكيين من أرضها) .

أما فى عهد "فيليب الثالث" فقد لمس ثريانتس بنفسه فوضى الإدارة الداخلية وضعف النفوذ الخارجى بما أوشك معه أن ينطفئ مجد إسبانيا . وليس من شك فى أن هذا الانهيار السياسى والعسكرى والاقتصادى كان له أبلغ الأثر فى نفس ثريانتس وفى كتاباته أيضاً .

إنتاج ثريانتس الأدبي:

إبداع ثريانتس موزع بين الأجناس الأدبية الرئيسية في عصره: الشعر والمسرح والقصة، لكن شهرته قصاصاً طغت على الجانبين الآخرين وتسببت في عزوف الباحثين عنهما.

١ - اختلف النقاد في تقييم ثريانتس شاعراً؛ فبينما يذهب البعض إلى حد إطرائه والثناء عليه، نجد آخرين يقللون من شأن أعماله الشعرية. ولتوخى الحقيقة نقول إنه شاعر متوسط المستوى، وإن موهبته الشعرية لا ترقى إلى براعته النثرية المتمثلة في فن القص. وقد اعترف ثريانتس بقدراته المحدودة في هذا المجال حين قال في قصيدته الطويلة "رحلة إلى البرناس":

لا أكف عن العمل والمضايقة

لاجتلاء موهبتي شاعراً

وهي الملكة التي حرمتني منها السماء.

وجزء كبير من أشعار ثريانتس الغنائية (المتأثرة بنظائرها الإيطالية والإسبانية ، لاسيما بشعر جاريثيلا سودي لا بيجا) مدرج في أعماله القصصية حيث يشتمل "دون كيخوته" و "بيرسيليس" على بعضه ، بينما تحتوى "لا جالاتيا" و "قصص مثالية" على معظمه. كما أن له قصائد أخرى غير مدرجة في أعمال نثرية ، مثل: السونيت الساخر الذى يحمل عنوان "إلى جثة فيليب الثانى" Al túmulo de Felip II ، وقصيدة "رسالة إلى ماتيو باتكيث" ، وقصيدتان فى الأسطول الإشباني قبل نكبته وبعدها.. وله أيضاً عمل شعري منفرد عبارة عن قصيدة مطولة بعنوان "رحلة إلى البرناس" (أو "رحلة إلى وادى عبقر") صدرت عام ١٦١٤ فى مدريد، وفيها يتحدث عن شعراء عصره (واحداً بعد آخر) المجتمعين أمام أبولو - إله الشعر والجمال - بعد استعانة الأخير بهم للدفاع عن جبل البرناس ضد الشعراء الدخلاء الذين يريدون اقتحامه. وتكمن أهمية هذه القصيدة الطويلة - المكتوبة فى شكل ثلاثيات - فى اشتغالها على كثير من المقطوعات الشعرية التى تتناول جوانب عدة من حياة مؤلفها وتميط اللثام عن مدى ما كان يكابده فى خريف عمره من حزن وكآبة.

٢ - كانت الكتابة للمسرح خلال ذلك العصر تدر - علاوة على الشهرة - عائداً مادياً مجزياً، وتكفي الإشارة في هذا المقام إلى حظ لوبي الوافر منهما. وقد أدلى ثريانتس بدلوه في هذا الجنس الأدبي، لكنه لم يحظ فيه لا بالشهرة ولا بالمال.

أما بالنسبة للأعمال المسرحية التي كتبها فيمكن تقسيمها إلى مرحلتين مختلفتين : المرحلة الأولى وتتميز بالوفاء للقواعد الكلاسيكية (مثل : اقتصار المسرحية على خمسة فصول ، ووحدة الزمان والمكان، واستخدام لغة راقية رصينة) ، وقد كتب ثريانتس خلال هذه المرحلة العديد من المسرحيات التي عرضت في حياته ولاقت نجاحاً ، ولم يصل إلينا من إنتاج هذه المرحلة سوى عمليتين فقط ، وهما :
" معاهدة الجزائر El trato de Argel ، و " حصار نومانثيا " El Cerco de Numancia .

كان ثريانتس يتهكم خلال هذه المرحلة (كما جاء في الجزء الأول من " دون كيخوته ") من المسرح الشعبي للوبي دي بيجا الذي يتوخى البساطة والمرونة ، ناعثاً إياه بالابتعاد عن القواعد الكلاسيكية ، لكنه تراجع بعد عدة سنوات - إزاء النجاح الكبير للموجة الجديدة - عن أفكاره القديمة وأذعن في النهاية للتجديد الذي أحدثه "لوبي" لأن مرور الأيام - حسب قوله - كفيل بتغيير الأشياء وإنضاج الفنون . ومن ثم فقد جاء إنتاج المرحلة الثانية مواكباً لتيار التجديد ومرتبكاً بعباءته ، وهو عبارة عن "ثمان مسرحيات كوميدية" Ocho comedias ، وثمان لوحات شعبية ذات طابع فكاهي ساخر Ocho entremeses ، نشرت جميعها في سنة ١٦١٥ ولم تعرض على خشبة المسرح أبداً لموت صاحبها في العام التالي. ومن بين المسرحيات الثماني الكوميدية تبرز : "حمامات الجزائر" Los banos de Argel ويدرو دي أورديمالس" ، و" تاجر الأعراض المحظوظ " El rufían dichoso . أما اللوحات المسرحية الهزلية ، المكتوبة نثراً Entremeses ، فهي أكثر ما عرف من مسرح ثريانتس وحظى بالتقدير والثناء من جانب النقاد ؛ إذ اعتبرها الكثيرون من أهم آثار المسرح الإسباني على مر العصور. ويعتبر " لوب رويدا " Lope Rueda من أبرز الكتاب القدامى الذين ألفوا في هذا اللون المسرحي، ورغم هذا فإن مقطوعات ثريانتس الهزلية تفضل ما كتبه "رويدا" وتتفوق عليه في الحيوية وخفة الظل والسخرية اللاذعة. وهذه اللوحات (التي كانت تعرض خلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية الطويلة) عبارة عن

مسرحية قصيرة (من فصل واحد) ذات حدث بسيط وموضوع فكاهى يدور حول شخصيات شعبية محددة بدقة .

ومن أهم مقطوعات ثريانتس الثمانية نذكر : «قاضى الطلاق» ، El Juez de los divorcios ، «كهف شلمنقة» ، La cueva de Salamanca ، و «لوحة المعجزات» ، El retablo de las maravillas ، و «الحارسه اليقظة» ، La guarda cuidadosa . ويختلف مسرح ثريانتس عن مسرح لوبى دى بيجا فى أنه يركز على الجوانب النفسية للشخصيات وفحص دواخلها أكثر من اهتمامه بالحبكة الدرامية ، كما أن تطور الأحداث فيه يفترق إلى المهارة ، وإن كانت طبائع الشخصيات ورغباتها وأحاسيسها مرسومة بعناية وإتقان شديد .

٣ - بدأ ثريانتس مشواره الأدبى بقصة «لا جالاتيا» ، La galatea ، المنشورة فى سنة ١٥٨٥ ، وهى تنتمى للون قصصى يعرف "بقصص الرعاة" وتشتمل على كل عناصره تقريباً : مثالية المناظر الطبيعية والأجواء التى تدور فيها الأحداث ، والحب الأفلاطونى (على شاكلة León Hebreo) ، والنكبات العاطفية والعقبات الوعرة التى تعترض طريق المحبين ، ورتابة الأحداث لطول الحوارات السقيمة بين الرعاة ، والنهايات غير المتوقعة نتيجة تدخل السحرة ، ... إلخ .

وقصة ثريانتس لا تصيف جديداً فى هذا المجال ولا تعتبر من أفضل ما كتب فيه لأن أحداثها طويلة والشعر المدرج فيها زائد عن الحد وللصنعة المهيمنة على أسلوبها . ورغم ضالة القيمة الفنية لهذا العمل فإنه يكشف لنا عن جانب مهم فى التكوين الثقافى والأيدىولوجى للمؤلف ويتمثل فى : تشربه للأجناس الأدبية السائدة حينذاك وولعه بأفكار عصر النهضة واتجاهاته (مثل الأفلاطونية ، وتمجيد الطبيعة ، وإضفاء المثالية على عالم الرعاة...) ، ومن هنا يتضح أن مثالية ثريانتس تنهل من معين عالمى الفروسية والرعاة . ومما يدل على شدة تعلق ثريانتس بهذا اللون القصصى [رغم تهكمه الساخر فى أخريات حياته من العالم الخيالى الذى يصوره الكتاب للرعاة حين قال : "إنهم يقضون يومهم فى استخراج القمل والحشرات من أجسادهم وفى ترقيع ثيابهم المهلهلة"] ، أنه ظل يعد إلى ما قبل وفاته بقليل بإخراج جزء ثالث من القصة ، وأن رواية دون كيخوته تضم لوحات طبيعية مثالية على غرار الموجود منها فى قصص

الرعاة، وأن بطله دون كيخوته فكر - بعد عودته إلى قريته مهزوماً مكلوباً - في تطبيق الفروسية والاشتغال بالرعى.

وفي عام ١٦٠٥ صدر الجزء الأول "من دون كيخوته" بينما ظهر الجزء الثاني بعد عشر سنوات كاملة . ويدين ثريانتس - بشهرته الواسعة قصصاً - لهذه الرواية التي طبقت شهرتها الآفاق واعتلت عرش الفن الروائي في العالم أجمع . ولما كان الحديث عن هذه الرواية الخالدة يفوق حدود هذه الإطالة على الكنوز "الثرينانتسية" فإننا نحيل القارئ إلى المقدمة المركزة التي استهل بها الدكتور الأهواني ترجمته لها .

وفي عام ١٦١٣ شهدت الساحة الأدبية رائعة ثريانتس الأخرى التي تحمل عنوان "قصص مثالية" ، وفي مقدمتها يعلن على الملأ أنه أول من ألف قصصاً في اللغة الإسبانية، لأن الموجود منها قبله كان: إما مترجماً أو نابعاً من التراث الفلكلورى أو مستقى من الأدب الإيطالى "أما هذه - يقول ثريانتس - فتخصنى وحدى ، وليست مقلدة أو مستعارة ، فهي من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى ، وشئت بين ذراعى خيالى" . وإعلان المؤلف هذا ليس من قبيل الادعاء ولا يجافى الحقيقة لأن مصطلح "قصة" Novela كان يطلق حينذاك - طبقاً للمفهوم الإيطالى السائد - على "القصة القصيرة" فقط ، وعلى هذا فإن الموجود منها فى إسبانيا كان قبل ثريانتس إما ترجمات أو اقتباسات ملائمة للذوق المحلى ، ولهذا السبب نجد أن كثيراً من رجالات الأدب المنصفين قد اعترفوا - بعد قراءتهم لقصص مثالية - بأصالة ثريانتس فى هذا المجال حتى إن أحدهم (تيرسودى مولينا) أطلق عليه لقب بوكاشيو الإشبانى . وخير دليل على ريادة ثريانتس فى هذا اللون القصصى هو اقتفاء كتاب القرن السابع عشر لأثره ومحاكاتهم لفنه وأسلوبه ، بل إن البعض منهم لم يتورع عن استعارة عنوان "قصص مثالية" لإصداراته .

أما عن وصف المؤلف لمجموعته القصصية بـ "مثالية" فقد برره فى المقدمة المشار إليها على النحو التالى : "لأنها لا تخلو من الأمثلة والنماذج المفيدة ، ولو لم أكن حريصاً على عدم الإطالة فلربما أوضحت لك - موجهاً كلامه إلى القارئ - الثمرة اللذيذة العفيفة التى يمكن استخلاصها منها مجتمعة أو من كل واحدة منها على حدة" .

وعلى الرغم من تفسير الكاتب لمعنى كلمة "مثالية" التي اختارها وصفاً لهذه المجموعة فإن النقاد اختلفوا ما بين مؤيد ومعارض لما ذهب إليه : فالبعض منهم يعتقد أنها [إذا ما قورنت بمثيلاتها من القصص الإيطالية خالعة العذار ، كما في El Decamerón على سبيل المثال] ترمى حقاً إلى تنقية الروح من شائبها ، وتدعو إلى الطهارة والعفة ، وتنتصر للفطرة ، وتهدف - من خلال الأمثال والعظات - إلى تقويم السلوكيات والعادات الاجتماعية الخاطئة . أما البعض الآخر من النقاد فيرجع حرص ثربانتس في المقدمة على إبراز الهدف التربوي والأخلاقي للعمل إلى خوفه من محاكم التفتيش التي قد تعثر فيه على ما يتعارض مع العقيدة أو القيم الاجتماعية السائدة وقتذاك .

وتضم هذه المجموعة اثنتى عشرة قصة اعتاد الشراح تصنيفها إلى قسمين رئيسيين : قسم تسيطر عليه النزعة المثالية ، وآخر يسيطر عليه التكنيك الواقعي . وعلى الرغم من أن الفاصل بين القسمين ليس واضحاً تماماً فإنه يمكننا القول بأن الحبكة القصصية أكثر تعقيداً في القسم الأول الذي تنتمي شخصياته إلى الطبقة الأرستقراطية ، ويتميز أسلوبه بالرصانة والرفق (وإن كان عارياً عن الحيوية) ، كما يعتمد تطور الأحداث فيه على المصادفات الغريبة والحلول السارة غير المتوقعة . أما قصص القسم الثانى فتتميز ببساطة الحبكة والموضوع ، وبالتوسع في وصف الأجواء الاجتماعية المتدنية وعرض مشاهد الحياة اليومية ، كما تعتمد على لغة بسيطة سريعة الإيقاع مفعمة باللمسات الساخرة .

ومن أبرز قصص القسم الأول نذكر : "السيدة كورنيليا" ، و"الفتاتان" ، و"الإسبانية الإنجليزية" و"العاشق السخى" . أما القصص المشبعة بخصائص القسم الثانى فهى : "رينكونيته وكورتاديو" و"زواج المصلحة" و"المحامى المزجج" و"حوار الكلبين" و"غيور إكستريمادورا" .

والتصنيف السابق لقصص المجموعة لا يعتبر الوحيد بل إن هناك آخرين قد قسموها إلى ثلاثة أقسام : قسم واقعي ، وآخر مثالي ، وثالث بين بين (أى تختلط فيه الواقعية بالمثالية) .. ومن جانبنا نعتقد - كما سيتضح للقارئ - أنها جميعاً تركز على التكنيك الواقعي المشوب - فى عدد من القصص - بالمثالية ؛ لأن الأحداث فيها تدور داخل إطار جغرافى صارم وفى أزمنة محددة ، كما أن الشخصيات - حتى

الأرستقراطية منها - تنتمي إلى الشرائح الاجتماعية المعروفة آنذاك وقد زاد من التصاق هذه الشخصيات بأرض الواقع ولع المؤلف بوصف مظهرها الخارجى (من هيئة ولباس وسلاح وزينة ... إلخ) وتصوير ملامحها النفسية بما يتلاءم مع روح العصر وخصائصه . بالإضافة إلى الوصف الدقيق والمحايد للمناظر الطبيعية وللعادات الاجتماعية والدينية ، ووفرة الأمثال والحكم الشعبية ، وإشارات الكاتب المستمرة إلى الكثير من الشخصيات الحقيقية لذلك العصر ولأماكنه المعروفة ... إلخ.

ومن ثم فلن نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه المجموعة القصصية تعتبر كتاباً مفتوحاً للمؤرخين وعلماء الاجتماع .. أما الملمح المثالى فيها فيتوقف عند حد اعتماد تطور بعض الأحداث على المصادفات الغريبة والنهايات السعيدة غير المتوقعة والقصائد الشعرية المدرجة .

أما القصة الأخيرة لثريانتس فهي بعنوان "أعمال بيرسيليس وسيخيسموند" ، وقد كتب مقدمتها فى أيامه الأخيرة ولم تنشر إلا بعد وفاته . وهى عبارة عن سلسلة طويلة من المغامرات تقوم بها عدة شخصيات (ما بين رجال ونساء) ، وفيها يتعرض الأبطال لأخطار لا حصر لها ، وبعد تنقلهم بين العديد من البلدان يصلون سالمين إلى روما حيث يتزوجون . والقصة وإن كانت تبدو مثالية الطابع فإنها تحوى أبعاداً مجازية تختلف النقد فى تفسيرها .

ومن هذا العرض الموجز يتضح لنا أن حياة ثريانتس وأحداث عصره قد أثرا فى إشرافاته الأدبية تأثيراً بالغاً ، وحددا قسماً أيدولوجيته التى تطير بجناحى الواقعية والمثالية ، شأنها فى ذلك شأن سنى حياته التى امتزج شبابها بأهازيج البطولة الشخصية والفخر القومى ، وخالطت نضجها وشيخوختها كآبة الواقع وصرامته .. ياله من فارس كسير الجناح ، وياله من مشوار مكمل بالأسى والعبوس !

لو اخترنا للحظ العاثر أنموذجاً سيكون ثريانتس هو فارسنا المختار دون منازع : فى ركابه يمضى الإقدام والفداء ، ومن يراعه يسيل أدب طراز شهى ؛ ورغم هذا ينكره معاصروه ، وتتعاون البلايا والأرزاء - من كل لون وجنس - على تطويقه بأغلال البؤس والكران .. ألا يحق لنا ، إذن ، القول بأن روح كاتبنا المفعمة بالأمل هى التى خلصته من براثن القنوط ، وحولته من نكرة يبتلعها الفناء إلى قيمة خالدة يتيه

بانجابها الزمان ؟ فها هو دون كيخوته مازال حتى يومنا هذا - رغم قواه الخائفة وفرسه الهزيل وسلاحه المعطوب - يجوب أرجاء المعمورة بحثاً عن مظلمة يردّها أو ضعيف ينافح عنه أو جبار ينال منه .

وها هي قصصه المثالية التي نقدمها للقارئ العربي ، وفي واحاتها الاثنتى عشرة يجد الأريب بغيته ، والأديب متعته ، والناقد متسعاً للتظير واستخلاص النتائج ، والمؤرخ نجيمات تضيء تلافيف حولياته المعتمة ، وعالم الاجتماع صورة نابضة لحيوات تمرح بين جنبات ذلك العصر ، والأخلاقى نماذج لعظاته وعبره ...

على عبد الرؤوف البمبى

صناديد فى أكتوبر ٢٠٠٣ م

مقدمة

إلى القارئ العزيز

أرجو من القارئ الحبيب أن يستمبح لى العذر فى كتابة هذا التقديم لأننى مازلت أشعر بعدم الرضا عن الكلمات التى قدمت بها لدون كيخوته ؛ ومن ثم فما زالت تعاودنى الرغبة فى تكملتها بملحق. والذنب فى هذا كله - وأنا منه براء - يتحمله واحد من الذين أنعمت على الحياة بصادقتهم .. لقد أراد صديقى هذا رسم صورة شخصية لى لوضعها - كما جرت العادة - على الصفحة الأولى من هذا الكتاب ؛ ولو كان قد استعان فى ذلك بـ "دون خوان خوريجى" (١) لما بدرت منى أية شكوى ولتتمكن فى الوقت نفسه من إرضاء فضول البعض ممن يود التعرف على وجه وملامح ذلك الذى يتجاسر بعرض بنات أفكاره وثمره إبداعه على عيون الناس فى مشارق الأرض ومغاريها .. ومن أجل تلك الصورة أتقدم بما يلى من كلمات حتى توضع تحتها : "الذى ترونه أمامكم - بوجه عقابى ، وشعر كستنائى ، وجبهة ملساء عريضة ، وعينين بهيجتين ، وأنف ألقى (وإن كان متناسقا) ، ولحية فضية (كانت قبل عشرين عاماً ذهبية) ، وشارب طويل ، وفم صغير ، وأسنان لاهى بالكثيرة ولا بالقليلة (إذ لا يوجد لديه منها سوى ستة متناثرة فى أرجاء الفم وغير متقابلة) ، وجسد بين بين : لا هو بالضخم أو الصغير ، ولون نصر (كان قبل ذلك أقرب إلى البياض منه إلى الاسمرار) ، وظهر شبه مقوس وقدمين مثقلتين بعض الشيء - هو مؤلف لاجالاتيا" و "دون كيخوته دى لا منتشا" ، وهو الذى كتب - مقتفياً أثر ثيسار كابورالى دى بيروسا (٢) - "رحلة إلى وادى عبقر" ، وأعمالاً أخرى كثيرة

(١) Juan de Jáuregui y Aguilar (١٥٨٣ - ١٦٤١) : شاعر ورسام إسباني اشتهر بعدائه وخصومته لجميع شعراء عصره (المترجم)

(٢) Cesare Caporali de Perusa (١٥٣١ - ١٦٠١) : شاعر إيطالى ، من أهم أعماله "رحلة إلى البرناس" التى سار على نهجها مؤلفون كثيرون ومنهم ثريانتس فى عمله المشار إليه (المترجم)

ترتع - ربما دون اسم صاحبها - هنا وهناك ضالة عن القطيع. إنه يدعى "ميجيل دى ثريانتس سابدرا"، وقد ظل جندياً ومحارباً لفترة طويلة وأسيراً لمدة خمسة أعوام ونصف تعلم فيها الصبر على المكاره... وفى معركة "ليبانتو" البحرية تلفت يده اليسرى من جرأ طلقة مدفع (وبالرغم من أنها تبدو دميمة إلا أنه يراها مكتملة الحسن لأنها أصبحت هكذا فى مناسبة شريفة وملحمة رائعة قد لا وجود بمثلها الزمان) وهو يقاقل تحت الرايات المظفرة لابن شعاع الحرب كارلوس الخامس ، خلدت ذكره... إذا لم يتيسر لذلك الصديق - موضع الشكرى - قول أشياء أخرى عنى غير التى ذكرتها فإننى سأنصب من نفسى العديد من الأَشْهاد وسأسرُّ لهم بما يذيع اسمى فى العالمين ويثبت عبقريتى. نحن لا شك واهمون لو تصورنا أن المدائح تسوق حقائق لاشية فيها ؛ فالإطراء - مثل الهجاء - لا يعتمد على أرض صلبة أو قواعد رشيدة.

وبما أن هذه المسألة قد انتهت إلى لا شيء ، وظللت دون إطراء أو صورة فلا مناص إذن من الاعتماد - رغم تلغثى - على النفس ، لا من أجل سوق الحقائق التى يمكن أن تفهم - كما جرت العادة - من مجرد التلميح. وهكذا أتوجه إليك ثانية ، أيها القارئ الكريم ، لأخبرك بأن القصص التى أقدمها لك هنا لن تستطيع أن تطهو منها طعاماً^(٣) لأنها لا تحتوى على أرجل أو رؤوس أو أحشاء أو على شيء آخر من هذا القبيل ؛ ما أقصده هو أن طفرات الحب وتباريح العشق التى يمكن أن تجدها فى بعضها تمتاز بالعفة والاتزان ولا تتخطى المعيار المسيحى ، ومن ثم فإنها لن تستثير الغرائز ولن تجنح بخيال قارئها (سواء الذين يقرأونها بتمعن أو يمرون عليها مرور الكرام) عن جادة الصواب.

لقد اخترت لها عنوان "مثالية" لأنها لا تخلو من الأمثلة والنماذج المفيدة ، ولو لم أكن حريصاً على عدم الإطالة فلربما أوضحت لك الثمرة اللذيذة العفيفة التى يمكن استخلاصها منها مجتمعة أو من كل واحدة منها على حدة.

(٣) الكلمة الموجودة فى الأصل الإِسباني هى : pepito ria ، وهى عبارة عن طَبِيخ كان يتم إعداده من رقاب وأحشاء وأجنحة الطيور. (المترجم)

ما قصدت إلا وضع مائدة الألعاب هذه على خشبة مسرح جمهوريتنا لكي يتسلى بها ويلهو كل راغب دون أن تضيقه فخاؤها بأذى - لا فى الروح ولا فى الجسد - ؛ هذا لأن التمارين العفيفة الممتعة تنفع ولا تضر.

حقاً، لا يستطيع كائن من كان ، مهما تفاوتت الأمزجة والصفات ، قضاء وقته كله فى دور العبادة أو بين ترديد الأذكار أو ممارسة الأعمال المختلفة ؛ ومن هنا دعت الضرورة لوجود ساعات للترفيه والتسلية تنعم فيها الأرواح المجتهدة المحزونة بالراحة والبهجة .

فمن أجل الترويح عن النفس تصطف أشجار الحور ، ويتم الكشف عن الينابيع ، وتسوى المنحدرات وتزرع بالنباتات ، وتنشأ الحدائق . وأنا ، أيها القارئ الكريم ، لا أتورع عن التصريح لك بأنه لو خامرنى أدنى شك فى إمكانية إثارة هذه القصص لنوازع الشر فى نفوس قارئها لبادرت بقطع اليد التى كتبتها قبل أن يطلع عليها مخلوق . فسنوات العمر التى بلغت الثالثة والستين لا تحتل العبث أو الهزء من يوم النشور الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وانطلاقاً من هذا المقصد الذى وظفت من أجله عبقريتى لا أبالغ إن قلت إننى أول من كتب قصصاً باللغة الإسبانية لأن القصص الكثيرة التى طبعت بها وتجوب أنحاء البلاد مترجمة جميعها عن لغات أخرى ؛ أما هذه فتخصنى وحدي ، وليست مقلدة أو مستعارة ، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى وشئت وترعرعت بين ذراعى خيالى . ولو كان فى العمر بقية سأقدم لك بعدها "أعمال بيرسيليوس وسيكسيموندا" (٤) - وهو عمل يطاول ما جادت به قريحة "هليودورو" (٥) - مثلما سترى ، فى إيجاز مسهب ، مغامرات "دون كيخوته" وطرائف "سانتشو بانثا" ثم "أسابيع فى الجنة" .

كثير ما أعد به ، رغم قواى الواهنة ؛ لكن ، من ذا الذى يستطيع كبح جماح آماله ورغباته ؟ ... أود فقط توجيه عنايتك - أيها القارئ العزيز - إلى ما يلى : إذا كانت

(٤) نُشر هذا العمل عام ١٦١٧ ، أى بعد وفاة الكاتب (المترجم) .

(٥) هليودورو : Heliodoro : قصاص إغريقى كان يحتذى به ثريانس ويعتبره أنموذجه الأدبى (المترجم) .

الشجاعة قد وانتلى لإهداء هذه القصص إلى "كونت دي ليموس" (٦) فهذا لأنها تخفى في طياتها أضعاف ما تبدى . ولا يسعنى فى النهاية سوى الادعاء بأن يحفظك الله ، وأن يلهمنى الصبر كي أتحمّل بصدر رحب ما ستتقوله عنى السنة السوء...

(٦) "كونت دي ليموس" هو : "بديروفرناندث دي كاسترو" (١٥٧٥ - ١٦٢٢) ، الذى تولى حكم نابولى - نائباً عن الملك- فى الفترة من ١٦١٠ إلى ١٦١٦ ، وقد أهداه ثريانتس العديد من أعماله .
(المترجم)

الفجيرة

يبدو أن الغجر - ذكوراً وإناثاً - جاءوا إلى هذا العالم ليكونوا لصوصاً: فهم ينحدرون من أصلاب وأرحام لصوص ، يتربون بين اللصوص ، يتعلمون فن اللصوصية ، ويمارسون في النهاية - في كل وقت وتحت أى ظرف - ما يحيون لأجله . وشهوة السرقة عندهم لا تخبو جذوتها إلا مع انقزاع الروح من الجسد .. من بين هؤلاء كانت توجد فى وطننا غجرية شُمطاء ، بلغت من العمر أرذنه وانتهت بذلك صلاحيتها واستحقت الإحالة إلى التقاعد طبقاً لشرعة "كاكو" (١) . التقطت هذه العجوز طفلة أسمتها "بريثيوتا" (٢) ، احتضنتها على أنها حفيدتها، أشربتها خصال الغجر، وعلمتها فنون السرقة وكافة أساليب الغش والاحتيال . برعت "بريثيوتا" فى الرقص والغناء وتفوقت فيهما على جميع أفراد عشيرتها ، كما بزّت فى الجمال والفطنة والأدب سائر بنات قومها ؛ بل وكافة الشهيرات بتلك الصفات فى عصرها . لم تفلح قسوة الشمس ولا تيارات الهواء ولا رداءة الطقس - التى يتعرض لها الغجر أكثر من غيرهم - فى النيل من نضارة وجهها أو تشويه ودباغة بشرتها أو نعومة يديها ؛ وعلاوة على ما تقدم فقد كانت حصيفة ومهذبة للغاية وكأنها نشأت فى أرقى البيونات لا داخل مضارب الغجر . كانت تتمتع أيضاً بشيء من الملاحة والظرف ، لكن فى غير تهتك أو استهتار ، وتتميز بالعفة ، إذ لم تكن تجرؤ غجرية - شابة كانت أم عجوزاً - على ترديد الأغاني الهابطة الخليعة أو النطق بكلمة خادشة للحياء فى حضرته . عندما أدركت أنثى الصقر العجوز قيمة الكنز الذى بين يديها قررت تسريح فرخها من قفصه كى يسبح طليقاً فى الفضاء بعد أن علمته كيفية العيش معتمداً على مخالفه .

(١) يُقال إن "كاكو" هذا هو ابن Vulcano . وهو شخصية أسطورية يضرب بها المثل فى الإجرام بشئى أنواعه : السرقة والذهب وقطع الطريق والقتل والتخريب ... إلخ . وتقول الأسطورة إن زفيره كان ناراً ولهباً خالصين (المترجم)

(٢) "بريثيوتا" Preciosa من الأسماء الأعلام التى تستخدم أيضاً صفة ، وتُطلق فى الإسبانية على كل شئ جميل ونفيس (المترجم)

تعلمت "بريثيوتا" كمأ هائلاً من الأغاني الدينية والطقوس والأغاني الشعبية - لا سيما الرومانشية - التي كانت تصدح بها في ملاحاة منقطعة النظير. ولأن جدتها الداهية كانت متيقنة من أن تلك المواهب المصحوبة بجمال حفيدتها الفريد ستصبح خلال سنوات معدودات عوامل جذب سعيدة لكل ما من شأنه زيادة أرصدها، فقد حاولت بشتى الطرق دعمها وصقلها ، ومنها الاستعانة بعدد من الشعراء في تأليف الأغاني ؛ فمن المعروف أن هناك شعراء يتعاملون مع الغجر ويبيعون لهم أشعارهم مثلما يفعلون مع العميان الذين يدعون الإتيان بالمعجزات بهدف توسيع أرزاقهم : فعالمنا الذي اختلط فيه الحابل بالنابل قد تهبط فيه العبقرية دون سابق إنذار - تحت وطأة الجوع - على رءوس أناس لا هم في العير ولا في النفير.

ترتبت "بريثيوتا" في أماكن عدة من قشتالة ، ولما بلغت الخامسة عشرة أعادتها الجدة المزعومة إلى العاصمة ، إلى مضارب الغجر الواقعة في فضاء "سانتا باربرا" (٣) ، عازمة على ترويج بضاعتها في المدينة التي يباع فيها كل شيء ويشتري. دخلت بريثيوتا مدريد لأول مرة في عيد "سانتا آنا" (٤) - راعية المدينة وحاميها - وشاركت في رقصة تضم ثمان غجريات (أربع شابات ومثلهن عجائز) علاوة على غجري ضليع يقود الفرقة ، ورغم أنهم جميعاً كن في أوج نظافتهم وزينتهن بيد أن نظافة "بريثيوتا" سحرت العيون التي كانت تنظر إليها ... ومن بين نغمات الطبول ونقر الأصابع واللففات السريعة سرى حفيف الأصوات مشيداً بجمال وملاحاة الغجرية الصغيرة ، فتجمع الناس من كل حذب وصوب لرؤيتها. لكن إعجابهم بها تعاطم عندما أخذت تشدو بصوتها العذب الذي نال رضا واستحسان القائمين على الاحتفال واعتبروا غناءها بمثابة الدرة الثمينة على صدر أفضل رقصة قدمت. انتقلت الفرقة بعد ذلك لأداء رقصتها المصحوبة بالغناء في ساحة كنيسة

(٣) يقع فضاء Santa Bárbara في شمال مدريد بالقرب من البوابة المعروفة بهذا الاسم في نهاية شارع Hontaleza . وفي تلك المنطقة كان يوجد دير "سانتا باربرا" الذي تأسس عام ١٦١٢ م ، وعلى أنقاض الدير والكنيسة أقيم بعد ذلك مصنع لصهر المعادن، وعندما اختفى المصنع تحولت المنطقة إلى حي سكني . (المترجم)

(٤) صرح البابا "خوليو الثاني" عام ١٥١٠ بعيد "سانتا آنا" الذي يتم الاحتفال به في السادس والعشرين من شهر يوليو، ولم تكن "سانتا آنا" قديسة المدينة وراعيها فحسب ، بل كانت كذلك بالنسبة للعجر المقيمين بالمناطق المحيطة بها . (المترجم)

"سانتا ماريا" (٥) أمام صورة "سانتا آنا" ، وعندما جاء الدور على بريثيوتا تناولت دُفًا، وعلى نغمات جلاله غنّت الرومانث التالي ، وهي تدور حول نفسها دورات متسعة ، رشيقة ولطيفة :

شجرة رائعة فريدة
أُخِرَت ثمارها
سنوات عديدة
جلّلتها بالحداد ،
وتمكنت من جعل الرغبات
الشريفة الخالصة للقرين ،
تعصف بآمالها
العارية عن اليقين ؛
ومن تأخرها الطويل
تولد ذلك الكدر
الذى ألقى من المعبد
بالذكر الأشد صواباً وحنكة :
أينها الأرض الجدباء المقدسة
لقد تمخضت فى النهاية
عن كل هذه الوفرة
التي يحيا عليها العالم ؛
أنت دار لسك العملة
فيها تشكل القالب
الذى سكّت فيه
صورة الرب البشرية ؛

(٥) كنيسة "سانتا ماريا" من الكنائس القديمة جداً فى مدريد ، وتقع فى نهاية شارع "ألمودينا" ؛ وكانت فى ذلك العصر المكان المفضل لإقامة الاحتفالات الدينية والمناسبات السياسية الهامة . ويذكر أن الإمبراطور فيليب الثانى توجه - عند دخوله مدريد فى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٥٦٩ م - لأداء القداس فى هذه الكنيسة بصحبة الكاردينال "إسبينوسا" ، وكانت مناسبة احتفالية ضخمة حضرها البارزون من رجال الكهنوت علاوة على الشخصيات الهامة فى الإمبراطورية . (المترجم)

يا أما لابنة
استطاع الرب من خلالها
تسطير عظيم قدرته
على صفحة الزمان الأبدية .
إلى ساحتك وساحتها
أنت ، يا أنا الملاذ
حيث تتجه أرزاونا
باحقة عن العلاج ،
على نحو ما ، لا شك عندي ،
لك في إمبراطورية الحفيد
للرحمة والعدالة
حصّة لا يستهان بها .
لأنك في القصر الأعظم
تشاركين ، لابد أن بصحبتك هنالك ،
عن بكرة أبيهم
آلافاً من الأقارب .
يالك من ابنة ، ياله من حفيد
وياله من صهر ! في الانتصار
لقضية الحق والعدالة
منجم ثرّ لا ينضب .
أنت الآن إلى جوار
الرب المبدد للوحشة
تنعمين بجلال
بالكاد أتخيله .

أعجب الحاضرون بشدوها ، وتناثرت حولها التعليقات : منهم من قال : " بوركنت ،
أيتها الفتاة " ! ، بينما عبّر آخرون عن أسفهم قائلين : " واحسرتاه على الشابة
العجربة ! لا تستحق أن تكون كذلك ، بل ابنة لسيد عظيم " . وفريق ثالث كان أشد

فظاظة حين ردد : "دعوا الصبية تكبر لتصبح على شاكلة ذوبها . نقسم أن بداخلها تتخلق حالياً شبكة مفعمة بالعقد لاصطياد القلوب الولهانة" . ولم يعد المقام رجلاً أشيب تخلقى عن وقاره عندما شاهدها ترقص بخفة ليغازلها قائلاً : "هلمى ، يابنية ، هلمى . ادعسى ، يا حبيبى ، ذرات التراب الدقيقة تحت قدميك" ، فردت عليه دون أن تمسك عن الرقص : "وسأدعس معك كلماتك السالخة" .

انتهى عيد "ساننا آنا" الذى رجعت منه بريثيوثا إلى مضارب العجر منهكة بعض الشيء ، لكنها خفت وراءها أثرًا طيبًا فى النفوس ، وأصبح الناس فى المدينة يتحدثون فى حلقات عن جمالها وصرامتها واستقامتها . بعد مضى خمسة عشر يوماً عادت ثانية إلى مدريد بصحبة ثلاث فتيات وهن مستعدات بالدخول وبرقصة جديدة وأغانٍ رومانسية وأخرى قصيرة مبهجة لكنها عفيفة ؛ هذا لأن بريثيوثا لم تكن تسمح لمن يرافقها بالغناء الهابط الخليع الذى لم تقر به أبداً ؛ ولهذا نالت إعجاب الجميع وأصبحت محطاً لأنظارهم . لم تكن عين العجربة العجوز تغفل عنها لحظة واحدة - كأنها "أرجوس" (٦) - خوفاً من قيام أحدهم باختطافها : كانت تنادىها بحفيدتى فترد عليها الصبية بجدتى .. شرعن فى الرقص فى الجانب الظليل من شارع طليطلة ، ولم يكن يبدأن حتى أخذت العجوز فى الطواف على الحلقة لتلقى إحسانات المتفرجين التى كانت تنهمر عليها - فى شكل فلوس وأنصافها (٧) - كالمنطر، ذلك لأن الجمال الأخاذ يجبر الإحسان النائم على الاستيقاظ . وعندما انتهت الرقصة قالت بريثيوثا :

- لو أعطانى كل واحد منكم فلساً سأغنى منفردة رومانثاً رائعاً للغاية يتناول قداس الرحيل الذى أدته صاحبة الجلالة الملكة "مارجريت" قبيل مغادرتها "بلد الوليد" إلى "سان يورنتى" . إنه رومانث مشهور، من تأليف شاعرٍ فحل ، مكانته بين زملائه مثل مكانة قائد الفرقة بين الجنود .

لم تكذ تنهى جماتها الأخيرة حتى رد عليها المتحلقون فى صوتٍ واحدٍ :
- هيا ، يا بريثيوثا ، غنى ولك ما تطلبين .

(٦) "أرجوس" Argos : شخصية أسطورية ترى فى جميع الاتجاهات ، ويقال إنها كانت مزودة بمائة عين .
(المترجم)

(٧) الفلوس (مفردهما : فلس) : عملة نحاسية قديمة . (المترجم)

وهكذا انهمرت الفلوس عليها كقطع الثلج الصغيرة لدرجة أن العجوز كانت بحاجة إلى أكثر من يدين لالتقاطها . بعد جمع المحصول قرعت بريثيوتا الدفّ وعلى نعماته السريعة الملائنة غنّت ما يلي :

إلى قُدّاس الرحيل خرجت
ملكة أوروبا العظيمة ،

فى الاسم والقدر

جوهرة غالية ثمينة .

تتجه إليها العيون

فتخطف ألباب الناظرين

المعجبين بورعها ،

ببهائها وموكبها الفخيم .

ولبيان أنها قطعة من السماء

تشغل الأرض بحذاقيرها ،

على يمينها كانت "شمس النمسا"

و"الصباح الندى" على يسارها .

خلف ظهرها يتبعها

"فلك الزهرة" بازغاً

فى غير مواعده ، ليل النهار

تبكيه الأرض والسماء .

لو كانت السماء تحظى

بعربات مضيئة من النجوم ،

فهناك عربات أخرى تزين

النجوم الحية سماءها .

"زحل" العجوز هنا

يصقل لحيته ويجدد لها ،

ورغم تأخره ، إلا أنه يمضى رشيقاً ،

فالبهجة تشفى من النقرس .

الإله الثرثار يلقى
بكلام معسول مداهن ،
يرصع "كيوبيد" شفرات متنوعة
باللآلئ والياقوت الأحمر.
هناك يمضى "مارس" الغضوب
فى هيئة طريفة نادرة
أكثر حيوية من شابٍ رشيق ،
تعلوه الدهشة من ظله .
إلى جوار "بيت الشمس"
يمشى "جوبيتر" ؛ لا يوجد شيء
محال على الحظوة
القائمة على قواعد حصيفة .
يختال "القمر" على حدود
إلهات عديدة من البشر ؛
"فينوس" عفيفة ، تتراءى فى جمال
اللواتى صاغتهن يد القدر.
أطياف صغيرة لـ "جانيميدس" (٨)
تغدو ، تروح وتعبر
هذا المجال الأسطورى
بأحرمة مزركشة بمسامير ذهبية .
ولكى يتم إعجاب الجميع
ويكتمل ذهوله ، لا يوجد شيء
قد يتصوره الخيال
إلا وهو موجود بسخاء بالغ.

(٨) "جانيميدس" Ganimedes : أمير طروادى (من طروادة) يتفوق بجماله الفذ على سائر الكائنات البشرية . (المترجم)

"ميلان" بأقمشتها الوثيرة ،
الهند بلآلئها المثيرة ،
ويعطرها شبه جزيرة العرب
يخطرُن هنالك في مشهد عجب .
مع أصحاب النوايا السيئة
يمضى الحسد بأنبيائه القواطع ،
بينما تعشش الطيبة في صدر
الإخلاص الإسباني .
فرحة العالم بأسره ،
هاربة من الضيق والكدر ،
تجوب الشوارع والميادين ،
متجاسرة على حافة الجنون .
بآلاف التسابيح الخرساء
أنطق الصمت الأفواه ،
يردد الفتيان
ما لهجت به ألسن الرجال .
صوت ينادى: "أيتها الكرمة الخصيبة
ازدهري ، ارتقى ، عانقى وداعبى
دردارك الحقل
لتصبحى لألف قرن ظلاً
لعظمتك ومجدك ،
لخير إسبانيا وشرفها ،
لنجدة الكنيسة ودعمها ،
لدهشة دار الإسلام وعجيبها" (١) .

(١) فى النص الأصلى (الإسباني) توجد كلمة " محمد " (صلى الله عليه وسلم) ، وقد أثّرنا فى الترجمة استبدال دار الإسلام بها ؛ لتفادى الزج باسم خاتم المرسلين فى سياق لا يليق بمكانته السامية .
(المترجم)

صاح لسان آخر مُشدّاً :
"انعمى بالحياة ، أيتها الحمامة البيضاء ،
لتلدى لنا من صُلب تاجين صقوراً جارحة
بدلاً من الأولاد ،
يفزعون من الهواء
الخطّافين الهائجين ؛
وينشرون أجنحتهم
على الفضائل الرعيدة" .
لسان ثالث ، أكثر فطنة ومهابة ،
أشدّ حدّةً وغرابة ،
قال ، ساكباً البهجة
من الفم والعينين :
هذه الدرة التى أنعمت بها علينا ،
عرق اللؤلؤ للنمسا ، وحيدة فريدة ،
عليها تتحطم آلات الحرب
وتتهشم النوايا الخبيثة ،
تنسكب منها الآمال والأحلام
وتنمحي أمامها الرغبات الأثيمة ،
إنها تبعث المخاوف
وتجهض الأمهات الحوامل" .
فى أثناء هذا وصلت إلى معبد
"فينكس" المقدس الذى قضى نحبه
فى روما محترقاً ، لكنه ظل حياً
من خلال شهرته ومجده .
إلى رحيق الحياة ،
إلى راعية السماء ،
إلى من بتواضعها تدعس الآن

النجوم تحت قدميها .
إلى الأم والعذراء معاً ،
إلى "الابنة" وزوجة الإله ،
تتجه "مارجريت" بالصلاة
وهي جاثية على ركبتيها :
"أقدم لك ما وهبني إياه ،
أيتها اليد المعطاة ،
لو غاب إحسانك ومعروفك
يطفح البؤس دائماً والشقاء .
من فاكهتي ها هي الباكورة
أقدمها لك ، أيتها العذراء الجميلة :
أنت الراعية لأولئك وهؤلاء ،
تتلقفهم ، تحمينهم وتدفعينهم إلى الأمام .
أعهد بك إلى أبيك وأوصيه بك ،
"عملاق بشرى" ، يحنى ظهره
ثقل ممالك كثيرة
وبلادٍ جدٌ سحيقة .
أعرف أن قلب الملك
فى يد الرب يقطن ،
وأن كافة طلباتك - أيتها الرحيمة -
تلقى من الرب استجابة" .
عندما انتهت هذه الصلاة
تلتها أخرى مشابهة تغنت بها
الأناشيد والأصوات التي توحى
بأن "المجد" على الأرض مائل .
اختتمت الطقوس
بالمراسم الملكية ،

وإلى أدراجها عادت
صاحبة المنزل العلية^(١٠).

لم تكذب بريثيوثا تنتهي من غنائها حتى دوى التصفيق وتعالّت هتافات الجمهور في صوتٍ واحدٍ :

- عودى للغناء فالفلوس معنا كثيرة ولن نضن بها عليك .

كان حاضراً هناك ما يزيد عن مائتي شخص يشاهدون الرقصة ويستمعون إلى الغناء . تصادف هذا المشهد مع مرور أحد ضباط المدينة برتبة ملازم ، ولما رأى الجماهير المحتشدة سأل عن السبب فأخبروه أنهم يستمعون لغناء شابة عجيبة جميلة . اقترب الملازم بدافع حب الاستطلاع ، ولما كان المقام لا يتناسب مع طبيعته الجادة لم يستمع للرومانث حتى آخره ، لكنه أمر خادمه - لشدة إعجابه بالفتاة - بالذهاب إلى العجربة العجوز ليطلب منها زيارة الضابط في بيته مع فرقته لكي تستمع إليها زوجته "دونيا كلارا" . نفذ الخادم أمر سيده فأبلغته العجوز أنها والفرقة رهن إشارته . انتهين من الرقص والغناء ، وأثناء انتقالهن إلى مكان جديد اقترب منهن أحد الوصفاء الشبان ثم اتجه نحو بريثيوثا وسلمها ورقة مطوية قائلاً لها :

- غنى الرومانث المدون في هذه الورقة ، وسأمدك - من وقت لآخر - بقصائد أخرى ستجعل منك أشهر وأفضل مغنية رومانث في العالم .

- سأحفظه عن طيب خاطر ، وأرجو ألا تنقطع إمدادتك بشرط أن تكون عفيفة ؛ ولو أردت لها مقابلاً سيكون الحساب بعد كل مجموعة من اثنتي عشرة قصيدة : أي بعد غنائها لأن مجرد التفكير في ثمنها مقدماً أحد ضروب المستحيل .

- سأكون سعيداً - رد عليها الوصيف - بأى مبلغ أتلّقه منك ؛ وعلاوة على هذا لو تبين أن الرومانث ردىء أو غير عفيف لن يدخل ضمن الحساب .

(١٠) الرومانث الذى بين أيدينا حافل بالعديد من الرموز : "فلك الزهرة" يرمز إلى الأمير "دون فيليب" (المولود بمدينة بلد الوليد فى الثامن من (أبريل عام ١٦٠٥) ؛ و "شمس النمس" يقصد بها "فيليب الثالث" ؛ و "الصباح الندى" يرمز إلى الأميرة "دونيا آنا" (المولودة ببلد الوليد فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٦٠١) ؛ و "مارجريت" هى "مارجريت النمسوية" زوجة فيليب الثالث وابنة الأرشيديوق "دون كارلوس" ، أما "جوييتر" فيقصد به "دوق ليرما" ... إلخ .

- أنا وحدى المعنية بالانتقاء وتحديد المناسب من عدمه - ردت عليه .

وفى أثناء سيرهن فى الشارع سمعن أصوات رجال تنادى عليهن من خلف قضبان إحدى الدوافذ. أطلقت بريثيوثا من القضبان فشاهدت صالة فاخرة الأثاث منعشة الهواء ويدخلها رجال كثيرون : بعضهم يتسلى بالألعاب المختلفة ، والبعض الآخر يذرع الصالة جيلة وذهاباً .

- أتريدون أن أقوم بتوزيع ورق اللعب عليكم أيها "الثادة" ؟ [نطقت بريثيوثا "السين" ثاءً فى الكلمة الأخيرة لأنها غجرية ، والفجر اعتادوا ذلك رغم أنه ليس متأسلاً أو طبيعياً فيهم] (١١) .

على صوت بريثيوثا العذب ووجهها المضى أمسك اللاعبون عن اللعب والمتجولون عن السير ، واتجهوا جميعاً صوب النافذة لرؤية الفتاة التى سمعوا عنها قبل أن يشاهدوها . قالوا لها :

- ادخلى ومعك زميلتك لتوزعى علينا ورق اللعب ولكِ حصّة معتبرة فى مكسب الفائز سعيد الحظ .

- سأدخل لو عاهدتمونى على التزام الأدب وعدم الإتيان بما يחדش الحياء .

- يمكنك الدخول يا صبية - قال أحدهم - وأنت مطمئنة إلى أنه لن يمس واحد من الموجودين شعرة من حذائك . أقسم على هذا بشرفى كرجلٍ ويشرف شارة الفروسية التى أضعها على صدرى . (نطق بالجملة الأخيرة وهو يضع يده اليمنى على شارة أخوية قلعة رباح المقدسة) .

- إذا شئت الدخول يا بريثيوثا فهنيئاً لك - قالت واحدة من الغجريات الثلاث المصاحبات لها - ؛ أما فلن أضع قدمى فى مكان يعج بالرجال .

- اسمعنى يا "كريستينا" - ردت عليها بريثيوثا - ، ما عليك توخى الحذر منه بالفعل هو الانفراد برجل واحد وفى مكان منعزل لا بجماعة من

(١١) من سمات اللهجة المحلية لسكان "أندلوثيا" (جنوب إسبانيا) نطق حرف "السين" "ثاءً" ، و"الثاء" "سيناً" . وهذه الخاصية اللغوية متأصلة وغير مصطلعة فى أهل الجنوب ، لكنها ليست كذلك عند الفجر (كما يفهم من إشارة المؤلف) . (المترجم)

الرجال ، لأن كثرتهم تجعلك فى مأمن من تريضهم بك . وشيء آخر يجب ألا يغيب عن بالك : أن المرأة الحريصة على شرفها بوسعها الحفاظ عليه حتى لو كانت بين فرقة كاملة من الجنود . صحيح أن الابتعاد عن مواطن الخطر مطلوب ، وأن على المرأة تفادى المواقف التى تجعلها لقمة سائغة فى فم الغير ؛ لكن الخطر يكمن فى المواقف السرية المشبوهة لا فى المعلنة على رءوس الأشهاد .

- لندخل إذن يا بريثيوتا .. قالت كريستينا - ، فأنت أفقه من حبر علامة .
حمستهن العجوز فدخلن ؛ وفور دخول بريثيوتا لمح فارس قلعة رياح الورقة المطوية فى صدرها فاقترب منها واستلها بخفة . صاحت فيه عندئذ :
- آى ، لا تأخذها بالله عليك ، إنها لرومانث أعطوه لى منذ قليل ولم أجد وقتاً لقراءته .

- وتعرفين القراءة أيضاً ، يابنية ؟ - سألها أحدهم .
- وتكتب كذلك - ردت العجوز - ؛ لقد ربيت حفيدتى كما لو كانت ابنة معلم .

بسط الفارس الورقة فوجد بين طياتها إسكودو ذهبياً . قال :
- بالفعل ، الخطاب يحتوى على الأجرة ؛ مَدَى يدك ، يا بريثيوتا ، وتناولى الإسكودو الموجود بداخله .

- كفى - قالت - ، لقد عاملنى الشاعر كأننى فقيرة معدمة . غريب أمر هذا الشاعر ! ومع هذا فلو كانت الأمور ستسير على هذا المنوال فأهلاً بأغانيه ؛ بل إنى أتوسل إليه راجية أن يقدم لى مجموعات الرومانث بأكملها ، واحدة تلو أخرى ، ومن جهتى فلن أدخر وسعاً فى جس نبضها وإذا وجدتها صلبة سأتلقها عندئذ بكل طراوة وليونة .

أعجب الحاضرون بكلام العجيرة الصغيرة ويكياستها وظرفها .
- اقرأ ياسيدى - أردفت بريثيوتا - بصوت عالٍ ؛ لننظر ما إذا كانت إجابة الشاعر ترقى إلى مستوى كرمه .

قرأ الفارس ما يلي :

أيتها الغجرية الصغيرة ، جمالك الأخاذ
ينتزع التبريكات من الأفواه :
ولما يحتوى عليه تكوينك من حجر
أطلقوا عليك بريثيوتا (١٢) .
هذه حقيقة لاشية فيها ،
سترين إذا نظرت إلى وجهك
أن الجمال صنو دائم
للصدود والإباء .
مثل القيمة المتعاطمة
تكبرين فى خيلاء ،
وهذا يستدعى الخوف
على سنوات عمرك الغض ؛
"الباسيليسكو" (١٣) الذى ينمو
بداخلك ، يغتال ناظرأ ،
والهيمنة الإمبراطورية ، رغم لدانتها ،
نراها مستبدة طاغية .
بين أنياب الفقر وفى ظل المخيمات ،
كيف يولد مثل هذا الجمال ؟
أو ، كيف ربي تلك الجوهرة
منثنارس (١٤) المتواضع ؟
لهذا سيكون شهيراً وبالنفس أكثر اعتداداً

(١٢) إذا جاءت كلمة بريثيوتا تالية (نعتاً) لكلمة حجر فإنهما يعنيان "الأحجار الكريمة" . (المترجم)

(١٣) "الباسيليسكو" Basilisco : أفعوان خرافى يقتل بمجرد النظر . (المترجم)

(١٤) "منثنارس" Manzanares : النهر الوحيد الذى يمر بالعاصمة مدريد ، وقد وصفه المؤلف بالتواضع لقلة المياه التى تجرى به . والشعر الإسباني - لا سيما فى العصر الذهبى - حافل بالعديد من القصائد التى تسخر من النهر وتتهكم من ندرة مياهه . (المترجم)

لو قارناه بـ بريثوثا
نهر التَّاجِه المذهب
لفيضانِ الماء عن شطآنه .
تنبِّين بحسن الطالع
وتجعلينه سقماً بعد ذلك ؛
سويّاً ، وفي طريق واحد
لا يَمْضى مقصدك وجمالك
فى النظر إليك أو تأملك
يتربص خطر داهم ،
نواياك تستمِيح له العذر ،
ومن جمالِك ينبعث الموت .
يقولون إنهن ساحرات
سائر بنات قومك :
لكن سحرك ياصبية
أشدَّ وقَعاً ومصادقية ؛
لأنك بحمل الأسلاب
من كافة الناظرين إليك ،
جعلت ، آه ياصبية !
السحر كامناً فى عينيك .
إلى الأمام قدماً تدفعك قواك ،
فأنت راقصة محط إعجابنا
تجهزين علينا بسهام لحظك ،
وتستولين على الأفئدة بجمالِ شذوك .
لمئات ألوف أشكال السحر :
كلام ، صمت ، غناء ، نظرات ،
نناشدك الاقتراب أو الاحتجاب
لأنك توجِّجين نيران الحب فى القلوب .

على القلب الأكثر كمالاً
تملكين الولاية والزمَام ،
وعلى هذا خير شاهد
قلبي السعيد في جنانك .
"بريثوثا" يَا أَيْقُونَةَ الحب ،
يكتب هذا بكل تواضع وخنوع
من يموت لأجلك ويحيا ،
بانساً رغم أنه عاشق .

- تنصدر البيت الأخير - عقت بريثوثا - كلمة "البائس" بما لها من دلالات
سلبية . ومن وجهة نظري فإنه لا يليق بالمحبين وصف أنفسهم بالبؤس لأن الحب
والبؤس نقيضان لا يجتمعان .

- من علمك هذا ، يا صبية ؟ - سأل أحدهم .

- وهل على انتظار أحد كي يعلمه لي ؟ أليس لي عقل ؟ ألم أكمل الخامسة عشرة من
عمرى ؟ وفوق هذا فليست كتعاء ولا عرجاء ولا سقيمة الإدراك . عبقرية الغجر
تمضي في اتجاه مخالف لبقية البشر : دائماً يسبقون أعمارهم ، لا يوجد غجري
مغفل ، ولا غجرية خرقاء ؛ وبما أن بقاءهم على قيد الحياة مرهون بحدة الذكاء
والمكر والخداع فإنهم يشحذون قريحتهم كل آن ولا يتركون الصدا يعلوها بأي شكل
من الأشكال . ألا ترون هؤلاء الفتيات - صديقاتي - اللائذات بالصمت ، الفاغرات
الأفواه كأنهن بلهاوات ؟ جربوا وضعوا أصابعكم في أفواههن وسترون إلى أي حد
سيضطبقن ، تحسسوا ضروس عقولهن وستشاهدون الأعاجيب . إدراك فتياتنا في
الثانية عشرة يضارع إدراك غيرهن في الخامسة والعشرين ، ذلك لأن معلمهن
ومؤدبهن هو الشيطان نفسه - علاوة على الخبرة - وهما يعلمان في ساعة ما
يحتاج تعلمه إلى سنة .

سيطر الوجوم على الحاضرين لما سمعوه من الغجرية الصغيرة ، وتبارى اللاعبون
في إعطائها بعضاً من مكاسبهم ، ولم يبخل عليها كذلك غير المشاركين في اللعب .
تلقى كيس العجوز ثلاثين ريالاً ، وعندئذ انفجرت أساريرها وبدت أشد ابتهاجاً من

"عيد الزهور" ، وقبل قيامها باقتياد نعاجها إلى بيت الملازم وعدت أولئك السادة الكرام بالعودة يوماً آخر بقطيعها لإدخال السرور عليهم .

كانت امرأة الملازم (دونيا كلارا) على علم مسبق بالزيارة ، ولذا كانت تنتظرهن على أحرّ من الجمر بصحبة جارة لها وقد التفت حولهما الخادمت والوصيفات اللاتي تجمعن هنالك لرؤية بريثيوثا . عندما تخطت العجريات عتبة البيت بدت بريثيوثا وسطهن كأنها وهج شعلة عظيمة بين أضواء أقل سطوعاً . وهكذا جرى الجمع نحوها : البعض يعانقها والبعض الآخر يتأملها مفتوناً ؛ فهؤلاء يباركنها وأولئك يثنين عليها ويمتدحنها . قالت "دونيا كلارا" :

- هذا ما يصدق عليه المثل القائل : شعر من ذهب ، وعينان من زمرد .

كانت الجارة - مختلجة الأعضاء والمفاصل - تدقق النظر فيها من أسفلها إلى أعلاها . استرعى انتباهها خال صغير على ذقن الفتاة فلم تتمالك نفسها وعبرت عن إعجابها بصوت عالٍ :

- آى ، ياله من خال ! فى هذه الشامة تتعثر كافة العيون ولا تستطيع النظرات تجاوزها بسهولة .

كان موجوداً على مقربة منها الطواشى ^(١٥) (خادم دونيا كلارا ، وهو رجل مسن ذو لحية طويلة) فعلق على ملاحظتها قائلاً :

- أتسمين هذه شامة ، ياسيدتى ؟ ورغم أننى لا أفقه كثيراً فيها إلا أنها لا تبدو شامة عادية ، بل جدّاً للرجبات المتأججة . يالله ، كم هى جميلة ! لو كانت مصنوعة من الفضة أو الحلوى لما بلغت ما هى عليه الآن . أتعرفين قراءة الكف يا صبية ؟

- بثلاثة طرق أو أربع - أجابته بريثيوثا .

- وهل هناك غيرها ! - ردت دونيا كلارا - ، استحلفك بحياة الملازم زوجى ، أقرئني لى ، يافاتة من الذهب ، من الفضة الخالصة ، من اللؤلؤ ، من الزمرد

(١٥) الطواشى : العبد الخصى الذى يلازم النساء عند خروجهن من البيت ، ويتولى خدمتهن بداخله .
(المترجم)

والياقوت ، بل ياقطعة من السماء ؛ ولا أدري ما يمكننى مناداتك به بعد ذلك .

عندئذ تدخلت العجوز قائلة :

- سلمى راحتك للفتاة وأعطيتها نقوداً كي تستخدمها فى الإشارة عليها بعلامة الصليب ، وسترين كم الرؤى التى ستنهال عليك ، إنها تفقه فى لوحة الحظوظ أكثر مما يعرفه دكتور فى الطب .

مدت امرأة الملازم يدها إلى جيبها وفتشت فيه فلم تخرج بفلس واحد . طلبت ريع ريال من خادماتها فلم تجد ريحه مع واحدة منهن ، ولا مع الجارة أيضاً .

كانت پريثيوثا ترقب عن كثب ما يجرى فانبرت قائلة :

- مهلاً ، سيداتى الفضليات ، الإشارة بعلامة الصليب محمودة بأية قطعة نقدية ، لكن الذهب يأتى فى المرتبة الأولى ومن بعده الفضة ؛ أما العملة النحاسية فإنها ، على الأقل فى قراءاتى ، تقوض الحظ وتفت فى عضده ، ومن ثم فإننى جدٌ راغبة فى استخدام إسكودو ذهبياً فى الإشارة بالصليب الأول ، فإن تعذر فبريال صحيح ، فإن تعذر فبنصف ريال وهذا أضعف الإيمان . أنا ، أيتها المحترمات ، مثل سدة الكنيسة : كلما ثمن القربان كلما أجزل الثواب .

التفتت الجارة إلى الخادم وسألته :

- ألا أجد معك نصف ريال يا " كونتريراس " ؟ أعره لى ، وسأرده لك فور عودة الدكتور زوجى .

- نعم لى - أجاب الخادم - ، لكنه مرهون بائنين وعشرين مرابطياً (١٦) قيمة العشاء الذى تناولته ليلة أمس . أعطنى قيمة الرهن وسأحضر لك نصف الريال قبل أن يرتد إليك طرفك .

(١٦) المرابطى : مسكوكة عربية قديمة كانت متداولة فى عهد المرابطين خلال وجودهم بالأندلس .
(المترجم)

- ما عهدناك إلا وقحاً يا كونتريراس - قالت دونيا كلارا - ، لا نملك نصف ريال وتطلب اثنين وعشرين مرابطياً . امش من هنا .

عندما لاحظت إحدى الفتيات الموجودات إفلاس الدار وشدة جذبها سألت بريثيوثا :

- اسمعى ، يا صبية ، أيلصح كُشتبان (١٧) من الفضة لرسم علامة الصليب ؟

- فى الماضى - ردت بريثيوثا - كانت كشتبانات الفضة تستخدم فى رسم أفضل الصلبان فى العالم ، ما دامت عديدة .

- لى فقط واحد منها - ردت الفتاة من فورها - ، إذا كان يفى بالغرض فأليك به ، شريطة أن تقرأنى لى طالعى أيضاً .

- بكُشتبان واحد قراءات متعددة للكف ! - تعجبت الفجرية العجوز - . انتهِ سريعاً يا حفيدتى ، لقد أمسى النهار وظلام الليل يقترب .

أخذت بريثيوثا الكُشتبان ومعه يد زوجة الملازم ثم قالت :

- أيتها الجميلة المتأنقة ،

يامنُ يداها من الفضة الخالصة ،

يهواك زوجك أكثر

من عشق ملك البشرات لإمارته .

أنت حمامة وادعة ؛

وعندما يسأورك الغضب

تبددين مثل لبؤة "أوران" ،

أو مثل فهد "أوكانيا" .

لكن الغضب الذى انتابك

فى لحظة ينفك عنك ،

لتصبحى قطعة حلوى ،

أو نعجة أليفة مسالمة .

(١٧) الكُشتبان : قمع الخياط . (المترجم)

تتشاجرين كثيراً وفي الطعام زاهدة :
تسيطر عليك بعض الغيرة
مما إذا كان المَلازم عابثاً ،
وبالعصا تريدان إخافته .
أحبك عندما كنت آنسة
أحد أصحاب الوجوه الصفيقة ؛
ما يجره الوسطاء من سوء
يفوق ما عصفت به اللذات .
لو اخترت الدير بعدها
لأصبحت اليوم رئيسته ،
فمن صفات رئيسة دير الراهبات
تجمعت فيك ما يزيد عن أربعمائة .
لا أود الإفصاح عما أراه ...
لضالة أهميته ؛ يا للهول :
ستصبحين أرملة ، علاوة على مرة ثانية ،
ومرتين مثلهما ، تكونين متزوجة .
لا تبكى أيتها السيدة ؛
فنحن معاشر العجريات
لا ننطق دوماً بالأخبار الطيبة ؛
كفكفى دمعك واصمنى .
لأنك ستقضين نحبك أولاً
قبل السيد المَلازم ، يكفيك هذا
للعلاج من ضر الترمل
الذى يمسك بخناقك .
عما قريب ، سترثين دون شك ،
ثروة عظيمة هائلة ؛
سترزقين بابن كاهن ،
خامل الذكر في الكنيسة .

يستحيل أن تكون من طليطلة .
ابنة شقراء وبيضاء
سيهيك الرب ، لو كانت متدينة
ستصبح راهبة ذات منزلة .
لو لم يمت زوجك
فى غضون أسابيع أربعة ،
سترينه مأموراً قضائياً
على برغش ، وربما شلمنقة .
لديك خال ، ما أروعه !
آى ، يسوع ، ياله من قمر وضاء !
يالها من شمس ، تضىء هنالك فى الجهة المقابلة
من سطح الأرض الوديان المظلمة !
أكثر من ضريرين لرؤيتك
يدفعون ما يزيد عن فلوس أربعة ،
الآن وأنت غنية موسرة !
يالها من مزحة رائعة !
توخى الحذر من السقطات ،
على الظهر بصفة خاصة ؛
لأنها عادة ما تكون خطيرة
فى الهوانم المتأنقات .
مازال فى جعبتى الكثير ؛
لو انتظرتنى يوم الجمعة
سأسمعك فيضاً منه ، بعضه يسر خاطر ،
وأغلبه كوارث ومحن .

عندما انتهت بريثيونا تأججت الرغبة لدى الحاضرات لمعرفة حظوظهن ؛ لكنها
أمهلتهم إلى يوم الجمعة ، فوعدنها بالانتظار فى الموعد المحدد ومعهن ريبالات من
الفضة للإشارة بعلامة الصليب .

فى تلك الأثناء وصل السيد الملازم فحكين له عن أعاجيب الغجرية الصغيرة ؛ جعلها ترقص بعض الوقت وتؤكد من صدق ثنائهن عليها. دس يده فى جيبه - كأنه سيتحفها بشيء - ، لكنه بعد أن فتش فيه عدة مرات وقلبه بطناً لظهر أخرجها فى النهاية خاوية الوفاض . قال :

- ياإلهى ، لا يوجد فلّس واحد معى أعطها يا "دونيا كلارا" ريالاً وسأرده لك فيما بعد .

- ياله من طلب ! - ردت عليه - لقد حاولنا تجميع نصف ريال وباءت المحاولة بالفشل وتأتى الآن لطلب ريال صحيح !

- أعطها إذن سروراً قديماً أو شيئاً آخر مما عندك ، عندما تعود بريثيوثا لزيارتنا فى يوم آخر سنجزل لها العطاء .

ردت "دونيا كلارا" على الفور :

- مادامت ستعود مرة أخرى فلنرجئ العطية لحين عودتها .

- إذا لم تقدموا إلى شيئاً لن أحلّ بهذه الدار ثانية ، ولن أتطوع بخدمة كبراء القوم أمثالكم حتى أوفر على نفسى عناء انتظار المقابل لمجهودى . مد يدك للرشاوى ياسيادة الملازم ، ارتش وستجد المال متوافراً لديك ، ولا داعى للتمسك بأهداب الفضيلة فتقضى نحبك جوعاً . لقد تناهي إلى سمعى هنا (وأعلم - رغم ضلالة سنى - أنها أقوال لا تمت إلى الحسن بصلة) أن الوظائف تفيد فى استخراج المال اللازم لرشوة القضاة من أجل الحصول على منصب أعلى .

- هذا ما يقوله ويفعله أصحاب الضمانر الخربة - رد الملازم بحدة - لكن الأداء الجيد للعمل هو الذى يرقى بصاحبه لا الرشوة والمحسوبية .

- تتحدث بشفافية ومثالية ياسيادة الملازم - قالت بريثيوثا - وكأنك لا تعيش فى عالمنا هذا .

- تعرفين الكثير ياصبية - قال الملازم - سأرفع أملك إلى صاحبي الجلالة لأن مكانك الطبيعى عندهما .

- لأصبح مهرجاناً هناك - ردت بريثيوثا - ؛ هذا ضد طبيعتي ، ولو فعلته خسرت كل شيء . لو أراداني مستشارة فليعجلاً بحملتي إلى هناك ، علماً بأن الفلاح في غالبية القصور يكاد يكون حكرًا على المهرجين دون الحكماء . حالي يرضيني هكذا : غجيرة فقيرة ، وليمض الحظ السعيد هانئاً إلى حيث شاءت له الأقدار .

- حذار ، أيتها الصبية - تدخلت العجوز - ، لا داعي للتمادي ؛ لقد تحدثت كثيراً ويبدو أنك تعلمين أكثر مما علمته لك . لا تسترسل في العميق من الأفكار حتى لا يوردك لسانك مورد الهلاك . تحدثي فيما يناسب سنك ولا تدسي أنفك فيما عظم من الأمور حتى لا تسقطي على أم رأسك من حلق .

- اللعنة ! - قال الملازم - ، إبليس نفسه يتلبس أجساد هؤلاء الغجريات .

أدت الغجريات التحية ، وعندما هممن بالانصراف قالت فتاة الكشتبان :

- اقرئي لي طالعي يا بريثيوثا أو ردى على كشتباني لأنني أعمل به .

- اعتبريني قرأته لك - ردت بريثيوثا - ، عليك بشراء آخر أو الامتناع عن التطريز حتى يوم الجمعة القادم لأنني سأعود فيه وأمطرك بوابل من الأخبار السعيدة والمغامرات التي لا نظير لها في كتب الفروسية .

مشين ، انضممن بعد ذلك - توخيا للأمن والسلامة - إلى طابور الفلاحات وفتيات الخدمة اللاتي يغادرن مدريد عادة ساعة صلاة المغرب في طريقهن إلى بيوتهن بالقرى المجاورة . (هذا لأن الغجيرة العجوز كانت تعيش في رعب مستمر من احتمال السطو على بريثيوثا واختطافها علوة) .

ذات صباح ، وهن في الطريق إلى مدريد لممارسة نشاطهن في جمع الجباية (١٨) شاهدن - في وادٍ صغير يبعد عن المدينة حوالي خمسمائة خطوة - فتى رشيقاً بهي

(١٨) لكلمة الموجودة في النص الأصلي garrama ، غرامة ، (وهي كلمة عربية كما نرى) ، وكانت تستخدم في عصر المؤلف للإشارة إلى الجزية التي يدفعها المسلمون لأمرائهم المسيحيين (وسبحان مغير الأحوال) . (المترجم)

الطلعة واقفاً في منتصف الطريق بكامل عدته الحربية . كان يحمل سيفاً ودرقة يلمعان بشدة وكأنهما - على رأى القائل - جذوة من الذهب ، ويضع فوق رأسه قبعة يتدلى منها شريط جميل ومزدانة بريش متعدد الألوان . تلكأت الغجريات لرؤيته وأنعمن فيه النظر مبهورات من وقوف شاب جميل مثله فى ذلك المكان وفى تلك الساعة من الصباح .

اقترب منهن وتحدث إلى الغجرية العجوز قائلاً :

- أستحلفك بحياتك ، أيتها الصديقة ، أن تتكرمى وتعطينى الفرصة لأحدثك أنت و " بريثيوتا" على انفراد بكلمتين لصالحكما .

- إذا لم نبتعد كثيراً أو نتأخر فعلى الرحب والسعة - ردت العجوز .

نادت على حفيدتها ، ثم انتحوا جانباً لمسافة عشرين خطوة . وهكذا - وهم وقوف - أخبرهما الفتى بما يلى :

- لقد مَلَّكَ على زمام نفسى جمال بريثيوتا وحصافتها فبذلت قصارى جهدى لأتخلص من إسار هذا الهوى حتى لا أتلظى بنيرانه ؛ لكننى فشلت فى النهاية ولم أستطع التملص منه وأصبحت أكثر رضوخاً واستسلاماً عن ذى قبل . أنا ، ياسيديتى - وسأظل أناديكما هكذا إذا حققت السماء ما أصبو إليه - فارس كما تريان (وأزاح عندئذ عباءته فأبان على الصدر شارة للفرسية تعتبر من أفضل الشارات فى إسبانيا) ؛ أنا ابن فلان - ولاحترامى الشديد له لا أعلن الآن عن اسمه - ؛ أنا ابنه الوحيد الذى أوصى له بثرواته وأملاكه العريضة . والذى هنا فى العاصمة ، تقدم لمنصب كبير ، وينتظر قرار الملك الذى سيكون فى صالحه دون شك باستقراء كافة الدلائل . واعتماداً على هذه الصفة وتلك النبالة - ومن واجبي التطرق إليهما بتوسع فيما بعد - تنتظرني مكانة عظيمة أود أن أرفع إليها أصول بريثيوتا المتواضعة وأجعلها مساوية لى وزوجة . أنا لا أطلبها للسخرية منها لأن الحب الذى أكنه لها لا يخامرهُ أدنى شعور بالاستهزاء ، بل أريد خدمتها بالطريقة التى تعجبها ، فأرادتها هى إرادتى . ستكون روحى لها بمثابة الشمع الذى تطبع عليه كل ما يحلو لها ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا

الختم والإبقاء عليه أبد الدهر سيكون مثل المنحوت على الرخام ، بصلابته التي تقاوم تواتر الأزمان . لو صدقتما كلامى سأوصد كافة الأبواب فى وجه أى تردد أو انتظار ، أما إذا تطرق إليكما الشك فستظل ربيكما تنغص على حياتى . اسمى كذا - وأخبرهما به - ، وقد حدثكما عن والدى . الشارع الذى نقطن فيه وعنوان بيتنا هو كذا وكذا ، ولدينا بالطبع جيران يمكن سؤالهم ، بل بإمكانكما سؤال من ليسوا لنا بجيران لأننا غير مجهولين ومعروفون فى كل أنحاء المدينة وفى ردهات القصر الملكى ذاته . أحضرت لكما مائة إسكودو ذهبية عربوناً لنيتى الحسنة وفاتحة لما أفكر فى تقديمه لكما بعد ذلك ، فمن يحب لا يضن بماله وضياعه على واهبة الروح .

كانت بريثيوتا تصغى باهتمام بالغ لحديث هذا الفارس الشاب ، ولا بد أنها صدقت كل كلمة تفوه بها . وفور انتهائه من حديثه انجذبت نحو جدتها قائلة :

- معذرة ، يا جدتى ، لو سمحت لنفسى بالرد على هذا الصَّب العاشق .

- لك ما تريدين يا حفيدتى ، فأنتِ أهل لجميع المواقف .

قالت بريثيوتا:

- أنا ، ياسيدى الفارس ، رغم كونى غجرية فقيرة ، متواضعة النشأة إلا أن خيالى الخصب الموجود هنا بداخل رأسى يحملنى إلى أجواء بعيدة وأشياء عظيمة . أنا لست ممن تحركهم الوعود ولا تضعفهم الهبات ولا تحنيهم العواصف ولا تقض مضاجعهم كلمات الحب المعسولة ، ومع أننى سأتم الخامسة عشرة فى سان ميجيل القادم - طبقاً لحساب جدتى - إلا أننى أفكر مثل الطاعنين فى السن وأصل بعقلى إلى أبعد مما تسمح به سنوات عمرى ، وهذا مرده للفطرة أكثر من الخبرة . وبهذه وتلك معاً أدرك أن نزوات العشق فى المحبين الجدد مثل الشطحات السائبة التى تجعل الإرادة تثب من مكمنها لتتخبط فى غيِّها وتنساق دون روية خلف رغبتها ، متوهمة أنها ستدرك النعيم المقيم فى حين أنها ستتلظى بالهموم والأحزان . وعندما تظفر ببغيتها سرعان ما يفتر حماسها ويتراجع لامتلاكها للشيء المرغوب فيه ، وربما لو فتحت عينيها على صوت العقل لأدركت حينذاك

أنها تبغض ما كانت تتقبل في محرابه . لقد جعلنى الخوف مما تقدم ذكره شديدة التحفظ لدرجة عدم تصديق أية كلمة والارتياح فى كثير من الأفعال . أنا لا أملك سوى جوهرة واحدة : العذرية وما تستوجبه من عفة ، وهى عندى أغلى من الحياة ذاتها ، ومن ثم لا ينبغي التفريط فيها مقابل الوعود أو الهبات لأنها لو أصبحت فى النهاية قيد البيع أو الشراء فقدت ما لها من قيمة ، ولذا فلن تسلبها منى المكائد ولا النزوات الطائشة : فأنا أفضل الذهاب سليمة معها إلى القبر - وربما إلى السماء - على جعلها عرضة لخطر الدُغس أو العبث من جانب الأشواق المتأججة والخيال الحالم . يمكن تخيل العذرية - مع الفارق الكبير فى التشبيه الذى ينتقص من قدرها - وردة رقيقة يانعة . لو قطفت من على غصنها الرطيب ، فيالسهولة وسرعة ذبولها ! يلمسها هذا ، وذاك يشمها ، وثالث يعبث بأوراقها ، وتكون المحصلة : ضياعها بين الأصابع الخشنة القاسية . إذا كنت قادمة ، أيها السيد ، من أجل هذه الدرة ، فلن تحملها إلا مغולה بقيد الزواج ، إذ لو كان على العذرية الانحناء فلا ينبغي أن يكون إلا لهذا النير المقدس ، لأنها لن تصبح مفقودة عندئذ ، بل مستخدمة فيما خلقت من أجله وفيما أحله الرب من بهجة . إذا كنت تنوى الزواج بى ، سأكون حليلتك ؛ لكن هذا لن يتم إلا بشروط واختبارات مسبقة : يجب التأكد أولاً مما إذا كنت بالفعل ذلك الشخص الذى تدعيه ، وبعد التحقق من هذا عليك ترك منزل والديك والانتقال للعيش معنا فى مضاربنا ، وارتداء ملابسنا ، والدراسة سنتين فى مدارسنا ؛ وخلال هذه الفترة ستعرفنى أكثر ، كما سأعرفك . فى نهاية السنتين ، إذا أعجبتك خصالى وأعجبتنى خصالك أصبح زوجتك . وإلى أن يحين ذلك الوقت يجب أن تعاملنى كأخت لك ، وأنا من جهتى سأخدمك بعينى . ضع فى اعتبارك أن فترة الخطبة هذه يمكن أن ترد إليك رشداً المسلوب حالياً - أو المشوش ، على الأقل - وتجعلك تولى الأوبار مما تتعقبه الآن بإصرار . وكما يقال : فإن استرداد الحرية السلبية بتوبة نصوح يعفى من الذنوب الثقال . إذا كنت بهذه الشروط مستعداً للتطوع جندياً فى ميليشياتنا ، فالقرار لك ؛ أما الإخلال بواحد منها فيعنى الفراق بينى وبينك .

بُهِتَ الفتى وأُطْرُقَ إلى الأرض في ذهول محاولاً التفكير فيما سيجيب به ، ولما لاحظت بريثيوتا ذلك واصلت حديثها قائلة :

- التفكير في هذه المسألة الخطيرة يتطلب وقتاً طويلاً لا يتسع له المقام . عدُ إلى المدينة وتدبر على مهل ما يناسبك ، وعندما تستقر على رأى يمكنك مقابلتى فى هذا المكان أثناء ذهابى إلى مدريد أو عودتى منها .

أجاب الفتى المهذب قائلاً :

- عندما أنعمت على السماء بنعمة حبك عقدت العزم ساعتها على الإتيان بكل ما يعن لك ؛ لكن لم يدر بخلدى إطلاقاً أنك ستقدمين على طلب شيء كهذا؛ ومع ذلك ، ولأن هواى يوافق ما تُمليه إرادتك ، بإمكانك اعتبارى غجرباً من هذه اللحظة ، وبوسعك اختبارى كافة ما شئت وستجدينى على العهد قائماً فى ثبات . كما يمكنك من الآن تحديد موعد تغيير لباسى هذا لأننى بصدد الذهاب إلى "فلاندى" (Flandes) (١٩) وسأنتهز الفرصة لتغيير مسار رحلتى التى ستبدأ بعد ثمانية أيام دون علم والدى . سأقضى هذه الأيام فى المدينة دون إثارة الشبهات ، وسأرحل مع الذاهبين إلى الحرب لكننى سأخدعهم فى الطريق وأغير وجهتى . كل ما أرجوه منك خلال هذه الفترة - إن جاز لى التجاسر وطلب شيء منك - هو التعجيل بالسؤال عنى وعن أهلى اليوم أو غداً ، وعدم الذهاب بعد ذلك لأبعد عن مدريد لأنى أخاف أن تواتيك فرصة عرض آخر فتتصرفين عنى وتتركينى أزفر الحشرات .

- أما هذا فلا ، ياسيدى العاشق - ردت بريثيوتا - ، اعلم أننى مثل الطائر الذى يريد التمتع بحريته بعيداً عن طوفان الغيرة الحمقاء ، وعليك أن تفهم أننى لست بصناعة تباع وتشترى فى الأسواق ، ومن ثم فأول درس يجب أن تعيه هو ضرورة الثقة المطلقة بى ، فالمحبون الذين يستهلون سيرتهم بالغيرة إما أن يكونوا سُدجاً أو مغفلين بسطاء .

(١٩) يشير الكاتب هنا إلى حروب "فلاندى" الطويلة التى جرت وقائعها بين عامى ١٥٦٧ و ١٦٥٩ .
(المترجم)

علقت العجورية العجوز على كلام حفيدتها بقولها:

- إبليس نفسه هو الذى يسكن جوانحك أيتها الفتاة : تفوهين بأشياء لا تخطر
ببال طالب علم فى شلمنقة ! تتكلمين بعمق فى الحب والغيرة والثقة بالآخر:
ألا ترين أنك بهذا تدفعيننى إلى الجنون وتجعيننى كالطرشاء فى الزفة أو
مثل شخص ممسوس يتشوق باللاتينية دون أن يعرفها ؟

- صه ، يا جدتى ، واعلمى أن ما سمعته منى حتى الآن مجرد سفاسف وقشور
، مقارنة بما ينطوى عليه صدرى من عظام الأمور .

ما سمعه الفتى كان بمثابة إضافة المزيد من الحطب إلى النيران المستعرة فى
قلبه . تواعدا فى النهاية على اللقاء بالمكان ذاته بعد ثمانية أيام : لكى يخبرها بعدها
بقراره النهائى ، ولكى تتأكد خلالها من المعلومات التى أدلى بها عن نفسه . أخرج
الفتى كيساً من الاستبرق وأعطى المائة إسكودو المشار إليها للعجوز ؛ لكن بريثيوثا
طلبت منها ردّها إليه وعدم قبولها بأى شكل من الأشكال ، فما كان من العجوز إلا أن
سلقتها بلسانها الحاد على النحو التالى :

- "نقطينى" بسكوتك ، يا صبية ، فأبلغ دليل على استسلام هذا السيد هو
تنازله عن سلاحه ، واليد العليا تحت أى ظرف من الظروف خير من اليد
السفلى ، وهى علامة ناصعة على أريحية صاحبها وسخائه . ولا تنسى
المثل القائل : "إلى الله أبتهل ، وبالعمل الشاق أشتغل" . هذا بالإضافة إلى
أننى لا أريد أن تفقد العجريات بسببى شهرتهن التى اكتسبها طوال قرون
عديدة فى أنهن جشعات ونهازات للفرص . أتريدين منى رفس مائة إسكودو
من الذهب الخالص قد يستعملها الموسرون فى تطريز تنورة لا تساوى
ريالين وأجدها ماثلة أمامى وكأن "طاقة" القدر قد فتحت لى ؟ وإذا سقط
لجرم ما واحداً من أبنائنا أو حفدتنا أو عشيرتنا فى يد العدالة ، فهل سيشفع
له القاضى وكتائب العدل كما ستشفع هذه النقود عندما تصل إلى كيسيهما ؟
لقد كنت ، لثلاث مرات ، على وشك امتطاء حمار فى طريقى إلى الجلد ،
على ثلاث جرائم مختلفة ، وخلصتنى من الأولى "فازة" من الفضة ،
ومن الثانية عقد من اللؤلؤ ، ومن الثالثة أربعون ريالاً غيرتها أنصافاً

وخسرت في التغيير عشرين ريالاً أخرى أخذوها عمولة . يا حفيدتي ، إننا نمارس مهنة محفوفة بالمخاطر ، مفعمة بالعثرات والمكدرات ، ولا توجد دفاعات تحميها وتقيّلنا من عثراتنا سوى أسلحة " فيليب " العظيم التي لا تقهر : فبواسطة " دبلون " (٢٠) ذى وجهين يبش لنا نائب القاضى العبوس وكل زبانية الموت الذين يكثرون لنا عن أنيابهم ويسلخون جلودنا ويبتزوننا أكثر من قطاع الطرق ؛ ومهما شاهدونا حفاة وعراة مترعين بالنوائب لا يعتبروننا أبداً فقراء ، فهم يقولون إننا مثل صديري سكان بلمونت من الجباتشو (٢١) : ممزق وملطخ بالشحوم لكنه مكتظ بالنقود .

- كفى ، يا جديتي ، فأنت لديك من الأسباب للاحتفاظ بالنقود ما يفوق الأباطرة . احتفظي بها ، مع تمنياتي بحسن الاستفادة منها . ادفنيها في مكان آمن مع الابتهاال للرب بألا تعود لرؤية ضوء الشمس ثانية ، وألا تدعوك ضرورة لاستخراجها . أما بالنسبة لزميلاتي فأرى أن الواجب يقتضى إعطاءهن شيئاً ، فقد تحملن طول الانتظار ولا بد أنهن غاضبات .

- لن يروا وميضها - ردت العجوز بحدة - . سيتكرم هذا السيد المعطاء بتفتيش حافظته علّه يجد عملات فضية أوزعها عليهن ، فهي وإن كانت قليلة إلا أنها ستدخل السرور عليهن جميعاً .

- نعم معي - رد الفتى العاشق .

استخرج من حافظته ثلاثة ريالات قامت العجوز بتوزيعها على العجريات الثلاث ففرحن بها فرحاً يفوق حبور ممثل كوميدى انتصر على منافس له وكافأه الجمهور بالهتاف والتصفيق الحاد .

(٢٠) "دبلون" Doblón : دوقية (مسكوكة ذهبية) تحمل نقوشاً على كلا وجهيها ، وكانت تسك في عصر الملكين الكاثوليكيين ، وظل يسكها بعدهما في القرن السادس عشر الميلادي كل من الإمبراطور كارلوس الأول وفيليب الثاني . (المترجم)

٢١ - "جباتشو" gabacho : لقب تحقيرى للفرنسيين الذين يسكنون بعض القرى الموجودة في جبال البرانس . (المترجم)

لقد اتفقا - باختصار ، وكما وردت الإشارة - على اللقاء بعد ثمانية أيام ، وعلى تسمية الفتى العاشق: "أندريس كاباييرو" (٢٢)، إذ يوجد من بين الغجر أيضاً من يتحلى بهذا اللقب.

لم يجرؤ أندريس (وسنشير إليه من الآن فصاعداً بهذا الاسم) على معانقة بريثوثا، واكتفى بتشييعها بروحه - إن جاز لنا استخدام هذا التعبير - ، ثم يم وجهه شطر مدريد وتبعته الغجريات وهن فى غاية السرور. ولدماثة الفتى اهتمت بريثوثا - من منطلق الاستلطاف لا الحب - بالتحقق من المعلومات التى ساقها عن نفسه. دخلت مدريد ، ويعد اجتيازها لعدة شوارع رأها الوصيف الشاب الذى أهداها القصيدة والإسكودو فاتجه نحوها ونادى عليها :

- أنعم الله عليك بالخير ، يا بريثوثا: هل قرأت القصيدة التى سلمتها لك منذ عدة أيام ؟

- قبل أن أجيب بنعم أو بلا ، أستحلفك بحياة من تحب أن تخبرنى بالحقيقة .
- أحلف بكل الأيمان المغلظة أننى سأكون صادقاً ولن أخفى عنك شيئاً ولو كلفنى الصدق حياتى.

- ما أريد معرفته يتضمنه السؤال التالى: هل أنت ، حقا، شاعر ؟
- لو كنت كما تقولين ، فمن حسن طالعى. أود أن تعرفى أن لقب الشاعر لا يستحقه إلا القليلون فقط ، وأنا - بحمد الله - لست منهم ، بل مجرد هاوٍ للشعر. ومع هذا أنا على استعداد لبذل قصارى الجهد حتى لا تلجئى لغيرى. ما أعطيته لك هو من نتاج قلمى وما سأقدمه لك الآن أيضاً ، ورغم هذا لست شاعراً ، لا قدر الله.

- هل الشاعر سىء لهذه الدرجة ؟ - سألت بريثوثا.

(٢٢) "كاباييرو" caballero ، تعنى فارس ، ولا يقتصر معنى الفروسية فيها على الصفة الحربية بل يمتد إلى كل ما هو جميل من الأخلاق والشمال مثل الرجولة والمروءة والنبيل والترفع عن الدنيا ... إلخ ، ومن هنا تكمن المفارقة فى خلق المؤلف لهذا اللقب على من سيكون غجرياً أو الإشارة إلى أن بعض الغجر يطلقون به . (المترجم)

- ليس سيئاً - رد الوصيف الشاب - لكن ملكة الشعر الخالصة لا تتوفر لدى رغم إجادتي . فالشاعر الحق يصنع من اللغة جواهر نفيسة ، ولا يهبط عليه الإلهام على مدار الساعة ، ولا يعرض موهبته على الرائج والغادى ، بل فى الوقت والمكان المناسبين . الشعر ، يا صغيرتى ، مثل أنسة حسناء ، طاهرة الذيل ، عفيفة ، حصيفة ، حادة ومحتجبة عن العيون . الشعر توعم للوحدة : ترفه عنه الينابيع ، تسليه المروج ، تمحو غضبه الأشجار ، تبهجه الأزاهير ، وفى النهاية يتلذذ به ويعب من صفائه كل طاعم وشارب .

- أيتحلى الشاعر بهذه الصفات كلها ، مع أنهم ينعوتونه بالفقر والميل إلى التسول ؟
- فيما مضى كان الوضع مختلفاً تماماً ، فآنذاك لم يكن يوجد شاعر واحد فقير ، بل يعيشون جميعاً هانئين فى كنف عبقرية الشعر التى لا تتاح إلا لعددٍ من المصطفين لكن ما الذى دفعك لطرح هذا السؤال ؟

- دفعنى إليه علمى بأن كافة الشعراء معدمون ، ولذا تملكتنى الدهشة عندما عثرت على ذلك الإسكودو الذهبى قابعاً فى طيات قصيدتك ؛ لكن بعد أن عرفت منك الآن أنك لست بشاعر وإنما مجرد هاوٍ فإننى أرجع هذا التصرف من جانبك لاحتمال غناك ، وإن كان هذا موضع شك أيضاً لأن هوايتك فى تأليف القصائد كقيلة بإنضاب معين أية ثروة قد تكون لديك ، إذ لا يوجد شاعر - حسبما يقال - يعرف الحفاظ على ما لديه من أموال وعروض ، ناهيك عن الحصول على ما لا يمتلكه .

- أنا لست من هؤلاء : أقرض الشعر ولست غنياً ولا فقيراً ، أى بين بين ، كحال أهل جنوة مع ضيوفهم : لا هم بالبخلاء ، ولا بالكرماء ؛ ومن هنا فبوسعى تقديم إسكودو أو اثنين لمن أريد . مدى يدك - أيتها اللؤلؤة الغالية - لتأخذى القصيدة الثانية ومعها الإسكودو الثانى ، ولا تشغلى بالك بما إذا كنت شاعراً من عدمه . أريد فقط أن تكونى على ثقة من أن الذى يفعل هذا معك يتمنى لك كل ما فى هذا العالم من خير .

أعطائها ورقة مطوية ، فتحسستها بريثيوناً وعثرت على إسكودو بداخلها . قالت له :

- لا بد أن تتمتع هذه الورقة بعمرٍ مديد لأن بها روحين : روح الإسكودو وروح

الشعر. ليعلم السيد الوصيف أنني لا أحب أرواحاً كثيرة معي : إذا لم يسترد الأولى فلا داعي للحزن إن ردت إليه الثانية. يسرني التعامل معك كشاعر لا متصدق ، وبهذا الشكل ستمتد صداقتنا وتدوم ؛ فالحياة ممكنة بدون الإسكودو مهما كانت الحاجة إليه ، لكنها شبه مستحيلة إذا خلت من الرومانث.

- لك ما تريدن. احتفظي بالروح الكامنة في الورقة وناوليني الإسكودو لأنني عازم على الاحتفاظ به - بعدما لمسته يدك - كرقية لسنوات عمرى الباقية.

أخرجت بريثيوثا الإسكودو من الورقة ودست القصيدة في جيبها لأنها لم ترد قراءتها في الشارع. ودعا الوصيف الشاب ومضى في طريقه مسروراً ، معتقداً من حديثها الودى أنها وقعت في غرامه. مضت العجربة في طريقها دون أن تتوقف للرقص في أى مكان لأنها كانت متجهة للبحث عن منزل والد أندريس ، وبعد وقت قصير وجدت نفسها في الشارع الذى تبحث عنه : مشت حتى منتصفه ورفعت رأسها فرأت - حسب الوصف - شرفات من الحديد المذهب ؛ كما شاهدت بداخل إحداها فارساً ذا مهابة ووقار فى الخمسين من العمر يرتدى ملابس حربية مزدانة على الصدر بشارة ملونة للصليب. التقت نظرتها بنظرة الفارس الذى نادى عليهن :

- اصعدن ، يافتيات ، وستجدن ما تطلبن من الصدقات .

دخل الشرفة ، على صوته ، ثلاثة فرسان آخرون بينهم العاشق أندريس الذى امتقع لونه فور رؤيته " بريثيوثا " وكان على وشك فقدان الوعي للمفاجأة غير المتوقعة التى اصطدمت بها عيناه. صعدت العجريات فيما عدا العجوز التى فضلت البقاء فى الدور الأرضى للاستفسار من الخدم عن حقيقة أندريس .

عندما دخلت العجريات القاعة وجدن الفارس المسن يقول للآخرين :

- لاشك أن هذه هى العجربة الفاتنة التى تجوب مدريد ويتحدث عنها الجميع .

- إنها هى - أجاب أندريس - ، أجمل مخلوقة رأتها العين .

- هذا ما يدعونه - قالت بريثيوثا التى استمعت لحوارهما السابق أثناء دخولها

- لكنهم مخدوعون فى نصف الحقيقة على الأقل : جميلة نعم ؛ أما رائعة الجمال - كما يقولون - فهذا محض افتراء .

- وحياة ابني "دون خوانيكو" (٢٣) - رد الفارس العجوز - أنت في الحقيقة أكثر جمالاً من الوصف وأشد فتنة.

- ومن يكون "دون خوانيكو" هذا ؟ - سألت بريثيوتا .

- هذا الفتى الواقف إلى جوارك - أجاب العجوز.

- لقد حسبت أن صاحب السعادة يحلف بحياة طفل لا يتعدى الثانية من العمر. ياله من "دون خوانيكو" وبالطوله الفارع ! أظنه الآن متزوجاً، وإن لم يكن فلن تمض - كما تشير خطوط جبهته - ثلاث سنوات حتى يكون كذلك وعلى هواه ، هذا إذا لم يطرأ عارض جديد خلال هذه المدة يجعله يغير رأيه أو يفقد هواه .

- أتفقه الغجرية أيضاً في لوحة الحظوظ ؟ - سأل أحد الحاضرين .

كانت الغجريات الثلاث اللاتي جلن معها قد انتحين - أثناء ذلك - ركناً من الصالة وأخذن في التهامس ، ملتصقات الرؤوس - حتى لا يسمعهن أحد. قالت كريستينا لزميلتيها :

- ألا تعرفان هذا الفارس ؟ إنه الذي أعطنا الريالات الثلاثة صباح اليوم .

- إنه هو - ردت الأخريات - ؛ لكن حذار من التفوه بكلمة أو التطوُّع بالفتنة عليه إذا لم يقدم هو أولاً على ذلك : ربما يكون راغباً في التستر .

بينما كان هذا الحديث الجانبي يدور بين الفتيات الثلاث أجابت بريثيوتا على سؤال الحظوظ قائلة :

- ما أراه بعيني أخمنه بإصبعي : أرى أن السيد "دون خوانيكو" متيماً بعض الشيء ، مندفعاً وعجولاً ، متسرعاً في الوعد بأشياء تبدو مستحيلة ؛ أتضرع إلى الرب ألا يكون كذوباً لأن آفة الكذب مفسدة لكل شيء . إنه يتأهب للقيام برحلة إلى مكان بعيد جداً ؛ واحد يفكر في الطعم والآخر فيمن

(٢٣) "خوانيكو" تصغير للاسم العلم Juan ، خوان ، . (المترجم)

سُيَسَّرَ له ؛ العبد يرتب والرب يدبر ؛ ربما يظن أنه ذاهب إلى Ónez فيجد نفسه في Gamboa (٢٤) .

- لقد أصبت كبد الحقيقة في كثير مما قلته عنى ؛ لكنك جافيتها بادعائك كذبي لأننى أتحرى الصدق فى جميع المواقف مهما كانت العواقب . أصبت فى خبر سغرى لأننى بالفعل راحل إلى "فلاندى" - خدمة للرب - خلال أربعة أو خمسة أيام ، ومع أنك تلقين بظلال الشك على مسار هذه الرحلة إلا أننى أود ألا أصطدم بأية بليّة تعرقل طريقى .

- مهلاً ، أيها السيد - ردتْ بريثيوثا - وتوجه إلى السماء بالدعاء لكى تكلل مساعيك بالنجاح . واعلم أننى لا أفقه شيئاً فيما يردده لسانى ، ولا يعد من قبيل الإعجاز إذا تمخض الكلام الكثير عن الإصابة فى أمر من الأمور . ما أردت بكلامى أنسابق سوى تهديتك وإقناعك بالبقاء مع والديك لرعايتهما فى الشيخوخة ؛ فأنا لا أحبذ عدوى الرّواح إلى فلاندى والعودة منها ، لاسيما للشباب الغضّ من أمثالك . اصبر حتى تشب قليلاً عن الطّوق لتتمكن من تحمل أعباء الحرب ومخاطرها ، ولديك منها ما يكفى وزيادة وأنت قابع فى أعماق دارك : فمعارك الهوى تحرق بك من كل جانب . اهدأ ، أيها المفزع المستثار ، وعليك بالنظر أولاً فى أمر زواجك وفى إعطائنا صدقة ، حباً فى الله وفداء لك ، لا يساورنى أدنى شك فى طيب منبتك . ولو خاب ظننى واجتمع إلى عراقاة الأصل صدق الطوية لغنيّت ساعتها ابتهاجاً بالهزيمة فيما وصمتك به

- أخبرتك من قبل - قال "دون خوان" أو "أندريس كاباييرو" المنتظر - إنك محقّة فى كل شيء فيما عدا هاجس الخوف من عدم صراحتى وسلامة نيتى ؛ وأنت بلا شك مخدوعة فى هذا المنطق . كلمتى فى الخلاء أحافظ عليها - دون حاجة إلى توجيه من أحد - فى المدينة أو فى أية بقعة أخرى على ظهر الأرض : إذ لا يمكن لمن تخالط روحه آفة الكذب الادعاء

(٢٤) Ónez , Gamboa كانتا إمارتين فى "بينكايا" وظلنا لفترة طويلة منفصلتين عنها ، وعندما تولى الملك إنريكي الرابع الحكم عهد بهمة ضمهما إلى مملكته إلى "دون بدرو فرنانديث دى بلاسكو" (كونت Haro) . (المترجم)

للفروسية بنسب. سيعطيك والذى صدقة تقريباً إلى الله ومحبة لى ، فما كان
معى هذا الصباح قدمته لبعض السيدات ، ولروعة جمالهن وعذوبة ألسنتهن
- لاسيما إحداهن - لم يبق فى كيسى فأس واحد.

عندما سمعت كريستينا هذا قالت لزميلتيها :

- أعدم روحى لو لم يكن يقصد ثلاث الريالات التى وزعها علينا هذا الصباح!
- استنتاجك فى غير محله - همست واحدة من الاثنتين - لأنه تحدث عن
سيدات وألسنا كذلك ؛ وبما أنه يتحرى الصدق فيما يقول - كما سمعنا -
فإنه يعنى ما قاله.

- إنها كذبة بيضاء كما يقولون - ردت عليها كريستينا - : لا تضر أحداً
وذات نفع لناطقتها . ومع هذا لا أرى أنهم سيجودون علينا بفلس إلا إذا طلبوا
منا الرقص .

صعدت الغجرية أثناء ذلك ونادت :

- هيا ، يا حفيدتى ، لقد أمسى النهار وأماننا الكثير مما يجب عمله وقوله .
- ماذا هناك ، يا جدى ؟ ابن أم ابنة ؟
- إنه ذكر جميل الخلقة . تعالى وستسمعين إلى حقائق مذهشة .
- تضرعى إلى الخالق ألا أموت من شدة الانفعال .
- سنتحدث على مهل وبكل روية . لقد كان وضئاً طبيعياً حتى الآن ، والأمير
الوليد مثل الذهب (٢٥) .

- هل وضعت إحدى السيدات مولوداً ؟ - سأل والد أندريس .
- نعم ، ياسيدى - أجابته العجوز - ؛ لكن هذا الأمر سرى للغاية ولا يعرف
خبيرته إلا أنا وحفيدتى بالإضافة إلى شخص آخر لا يمكن إمالة اللثام عنه .

(٢٥) لجأت العجوز وحفيدتها (المزعومة) إلى التورية والتعمية فى حديثهما حتى لا يفتضح سرهما ، وقد
تحقق لهما ما أرادتا حسبما يتضح من التعليقات التالية للحاضرين والتى تنم عن الجهل التام بالمغزى
الحقيقى للحوار بين الغجريتتين . (المترجم)

- ولا نريد معرفة شيء عنه هنا - تدخل أحد الحاضرين - . تعيسة تلك ومحزونة التي تضع على ألسنتكن سرها وتستجير بحماكن لشرفها .

- لسنّا جميعاً سيئات - ردت بريثيونا بانفعال - ، وربما توجد من بيننا من هي أحفظ للسر من أطول رجل بهذه القاعة . نحن لا نستجدي ، ولسنّا لصات أو متسولات .

- لا تغضبى ، يا بريثيونا - قال والد أندريس - ، فأنا لا أعتقد أن مثلك يحوى بين جنبيه مثقال ذرة من سوء . وجهك خير دليل على حسن طبيعتك . أستحلفك بحياتك أن ترقصى لنا قليلاً مع زميلتيك ، فلدَى هنا دبلون من الذهب لا يستحقّه أحد غيرك .

قالت العجوز فور سماعها لهذا العرض المغرى :

- هيا ، يابنات ، تحزمن وأمتعن هؤلاء السادة .

أخذت بريثيونا الصناجات ، والتفت حولها زميلاتها وانتظمن فى الرقص . كانت أربطة الأحزمة المتدلية على خواصرهن تتطاير وتنثنى تبعاً لدورانهن الرشيق حول أنفسهن ، وخلف أرجلهن كانت تجرى ملثاة عيون الحاضرين ، خاصة عيني أندريس اللتين كانتا معلقتين بقدمى محبوبته وكأنهما تبصران مركز فردوسه ؛ لكنهما سرعان ما تعكرتا وتحولت الجنة إلى جحيم عندما سقطت فى إحدى اللفات السريعة ، القصيدة التى أعطاها الوصيف لبريثيونا فتلقفتها يد قاسية لا تعباً بمشاعر العجريات وقرأت على الفور ما يلى :

- عندما تقرر "بريثيونا" الدف

وتجرح الهواء الخامل بنغمه العذب ،

تنثال اللآلى من بين يديها ،

ومن فمها تنسكب الأزاهير .

من حلاوة أعمالها الخارقة ،

المفعمة بالصفاء والعفة والحيوية ،

تصاب الروح بالذهول ، الرزانة بالجنون ،

وتطاول شهرتها السماء العالية .

بأدق شعرة من جدائلها مُعلّقة
ألف مهجة ، وتحت قدميها يلقى
"كيوييد" بسهامه مستسلماً.

عمياء ويشموسها الجميلة
تضيء ممالك الحب وتمسك بقواعدها ،
وما أظن أن جعبتها فرغت من المعجزات.

- تفوح من هذا انسونيت رائحة شاعر أصيل - قال الذي قرأه .

- ليس شاعراً - ردت بريثيوثا - بل وصيفاً في غاية التهذيب والدماثة.

(أنعمي النظري يا بريثيوثا فيما جرى على لسانك وفيما سينطق به لأنه ليس
ثناءً على الوصيف بل رماحاً ماضية تخترق حشاشة قلب أندريس . إذا كنت لا
تصدقين ، يا صبية ، أرجعي رأسك إذن وستجدينه طريقاً على كرسي ، تدور به
الأرض ، يتصيب عرقاً كعرق من يعانى سكرات الموت . ألم تضعي في اعتبارك ، يا
أنسة ، أنه يجبك لدرجة الجنون ، وأن أي تهاون - ولو طفيف - من جانبك يقض
مضجعه ويصيبه في مقتل ! تقدمي منه بضع خطوات واسري في أذنه بكلمات
موجهة مباشرة إلى القلب لكي تعيده من إغماءته . احضري كل يوم سونيئات في
إطرائك وسترين شدة وقعها عليه) .

وكما أسلفنا القول فهذا بالضبط ما حدث : تملكث "أندريس" أثناء سماعه للسونيت
آلاف من خيالات الغيرة المفزعة . لم يكن قد فقد الوعي كلية ، بل امتقع لونه بشكلٍ
لافتٍ للنظر مما جعل والده يسأل :

- ماذا جرى ، يا بني ؟ أراك ممتقع اللون وعلى وشك الدخول في إغماءة .

- دعنى - قالت بريثيوثا - أسر في أذنيه ببضع كلمات ، وسترى كيف
يثوب إلى رشده سريعاً .

اقتربت منه ، وقالت له محركة بالكاد شفيتها:

- يالها من بداية رائعة لغجري المستقبل ! أيمكنك يا أندريس تحمل عذاب
الخنق وأنت لا تقوى على ورقة ؟!

قالت له هذا وأشارت عدة مرات بعلامة الصليب على موضع قلبه ثم ابتعدت. أخذ أندريس شهيقاً عميقاً ثم زفرَ ببطء متظاهراً بأن كلمات بريثيوتا قد شفته من وعته.

تلقت بريثيوتا ، فى النهاية ، " دبلون " الذهب فسلمته من فورها إلى صويحباتها وطلبت منهن توزيعه عليهن بالتساوى .. أصرَ والد أندريس على معرفة كلمات الرقية التى استخدمتها فى علاج ابنه ، وأبدى رغبته فى تدوينها . ردت عليه قائلة إنها ستطلعهم عليها بكل سرور ، لكنها حذرتهم من عدم أخذ كلماتها - التى قد تبدو تافهة - على محمل السخرية لأن فائدتها فى الوقاية من أوجاع القلب ودوار الرأس مؤكدة . وبعد هذا التحذير رددت على مسامعهم الآتى :

"أيتها الرأس ، أيتها الرأس ،

تماسكى ، لا تتزعزعى ،

واستمدى دعامتين

من الصبر اللودعى .

انشدى

الثقة

الجميلة

لا تميلى

نحو الخواطر الدنيئة

ستبصرين رؤى

تطاول المعجزات

الرب فى المقدمة

و "سان كريستوبال" من الجبابرة" .

- بنصف هذه الكلمات - أردفت بريثيوتا - ، مع الإشارة بعلامة الصليب عدة مرات على محل قلب الشخص المصاب بدوار الرأس ينهض سليماً معافى كالحصان .

بهتت العجوز عند سماعها كلمات الرقية وفهمها لخدعة ، كما اعترى أندريس الذهول من قدرتها الفائقة على التصرف وعبقريتها الحادة . تركت لهم بريثيوتا السونيت ولم تطالب به حتى لا تزيد الطين بلة : إذ كانت تدرك بفطرتها - دون تعلم - ما يعنيه إذكاء نيران الغيرة فى نفوس المحبين الخانعين .

استأذنت الغجريات ، وعندما هممن بالانصراف قالت بريثيوتا لدون خوان :

- جميع أيام هذا الأسبوع مباركة للسفر ، ولا يوجد بينها يوم واحد مشلوم .
تنتظرك حياة عريضة ، لذیذة ومفعمة بالحرية ، فعجل بالرحيل قدر ما
تستطيع طالما قررت اتخاذها .

- حياة الجندية لا تتسم بالحرية المطلقة كما تظنين - رد عليها " دون
خوان " - بل إن أهم بنودها يكاد يكون مقصوراً على ما فيها من قيود ،
ومع هذا سأعمل بمشورتك .

- الأفضل - قالت بريثيوتا - الاعتماد على ما يهديه إليك تفكيرك ، تصحبك
السلامة ، ذهاباً وعودة ، لأن مثلك يستحقها .

أدخلت الكلمات الأخيرة السرور على أندريس ، كما مضت الغجريات ووجوهن
مشرقة بالبهجة .. فمن بعد ذلك بتبديل " دبلون " الذهب إلى وحدات نقدية أصغر
ووزعنها بينهم بالتساوى ، باستثناء العجوز التي تزيد حصتها دائماً بمقدار النصف
عن الأخريات نظراً لكبر سنهما ولأنها ضابطة إيقاع أنشطتهن حتى ما يتعلق منها
بالاحتياال والخديعة .

وفى صبيحة أحد الأيام ظهر " أندريس كاببيرو " - بمفرده ، دون خادم - على
ظهر بغلة مكررة فى مكان اللقاء الأول . استقبلته " بريثيوتا " وجدتها - اللتان كانتا
تنتظرانه هنالك ، حسب الاتفاق - بحفاوة بالغة . استحثهما على اقتياده إلى وكر
الأخوية قبل أن يتقدم النهار ويتنبه رفاقه فى السفر لغيابه فيجدوا فى طلبه .. رجعتا
معه ، وبعد وقتٍ قصير تراءت لهما الأكواخ الصفيح .

أدخلا أندريس أكبر كوخ فى المعسكر ، وعلى الفور حضر لرؤيته حوالى اثنى عشر
شاباً رشيقاً كانت الغجرية العجوز قد أبلغتهم نبأ الوافد الجديد الذى سينضم إليهم ،
لكنها لم تنبس ببنت شفة عن السر الكامن فى صدرها وتحافظ عليه - ومعها بريثيوتا
وأندريس - بداءه وحكة منقطعتى النظير . عندما شاهدوا البغلة انبرى أحدهم قائلاً :

- يمكننا بيع هذه فى سوق الخميس بطليطنة .

- أما هذا فلا - رد أندريس - فهى مكررة وسيتعرف عليها بسهولة كل
البغالين الذين يجوبون إسبانيا .

- بالسلامة نيتك ، ياسيد أندريس ! - أضاف غجرى آخر - لو كانت هذه البغلة تحمل جميع العلامات التى يمكن اختراعها إلى يوم القيامة فباستطاعتنا تغيير شكلها بحيث لا تتعرف عليها أمها التى ولدتها أو صاحبها الذى رباها .

- ومع هذا - رد أندريس - ينبغي هذه المرة تنفيذ ما أراه ، ألا وهو قتلها ودفنها بمكان آمن لا تظهر فيه حتى عظامها .
تدخل عندئذ غجرى ثالث قائلاً :

- ذنبٌ عظيم ! أتزهق روحاً بريئة ؟ لا يقول بمثل هذا الصالح أندريس ، بل يتفضل بعمل شيء آخر: يتأملها جيداً ، على مهلٍ ، حتى تنطبع صورتها وكل علاماتها فى ذاكرته ، وبعد ذلك يتركها لى ، ولو عرفها بعد ساعتين من الآن فلتنبج على الكلاب مثل زنجى أبى .

- ما زلت أصرُ - قال أندريس - على ضرورة مغادرة البغلة للحياة مهما اجتهدتم فى سوق التأكيدات بتغيير هيئتها . أخاف اكتشافها إذا لم يوارها التراب . لو كنتم تفعلون هذا طمعاً فيما ستريحونه من وراء بيعها فأنا لم أت عارياً تماماً (خاوى الوفاض) إلى هذه الأخيرة بحيث لا يمكننى تقديم ما يزيد على أربعة أمثال ثمنها رسم دخول (٢٦) إلى مضاريكم .

- إذا كان هذا ما يريده السيد أندريس - قال أحدهم - فلتمت المسكينة إذن دونما ذنب أو جريرة ، ويعلم الله مدى أسفى على مصيرها الظالم ، فهى ماتزال غضة فتية : لم يذهب نور بصرها (وهذا شيء غير معتاد فى البغال المخصصة للإيجار) رغم غشيانها المستمر للطرق ، ولم تظهر على خاصرتيها أية بثور أو تقرحات تحت المهازين .

أجلوا موت البغلة لحلول الليل ، وفيما بقى من النهار أقاموا احتفالاً بمناسبة تعميدهم أندريس غجرىاً: أخلوا أفضل كوخ عندهم ، ونظفوه من المخلفات ثم زينوه بالأغصان

(٢٦) فى زمن المؤلف (وفى العصور السابقة واللاحقة أيضاً) كانت تُحصل على بوابات المدن - خاصة الكبيرة - رسوم دخول على البضائع والأفراد ، كما كان يتم فى بعض الأحيان تحصيل رسم مغادرة كذلك . (المترجم)

ونباتات السُعد العطرة . أجلسوا أندريس على نصف جذع شجرة سنديان وهو بمسك مطرقة بإحدى يديه ، وبالأخرى كماًشة ؛ وعلى نغمات دُفّين شرع فى قرعهما غجريان جعلوه يثب "متشقلباً" مرتين فى الهواء . قاموا بعد ذلك بتعرية أحد ذراعيه ورسما عليه وشماً خفيفاً بنبتة من شجر الزيتون ثم لقّوه بشریط جديد من الحرير .

شهدت بريثيوثا جميع وقائع الاحتفال بصحبة غجريات أخريات - شابات وعجائز - كان البعض ينظر إليه مفتوناً والبعض الآخر بحب وشغف ، ذلك لأن وسامة أندريس كانت كفيلة بسحر أبواب الجميع حتى الغجريات .

عندما انتهت مراسم الاحتفال تقدم غجرى طاعن فى السن وأخذ بريثيوثا من يدها ثم وقف معها قبالة أندريس وألقى بالكلمات التالية :

- هذه الفتاة ، التى تعد بحق أيقونة الجمال الغجرى فى طول البلاد وعرضها ، نقدمها لك كزوجة أو صديقة ، وفى كلتا الحالتين لك عليها ما شئت من السلطان ؛ هذا لأن الحرية المطلقة لحياتنا لا تبعاً بأغلال التصنع أو المراسم والطقوس المضجرة .. تأملها جيداً ، وانظر فيما إذا كانت تعجبك ، إذا رأيت فيها شيئاً لا يروقك فإليك عنها واختر غيرها من بين الحاضرات هنا . من تختارها سنعطيكها لك ، لكن يجب أن تعلم أن التى سيستقر عليها رأيك الآن لا يمكنك استبدالها بعد ذلك أو الجمع بينها وبين أخرى ، متزوجة كانت أم آسنة . نحن نحافظ على قانون الصداقة ولا نتخطاه : لا يرتع أحدنا فى حمى غيره ، ونعيش - بهذا الشكل - متخففى الكواهل من وباء الغيرة البغيض . بيننا - رغم انتشار غشيان المحارم - لا توجد حالة خيانة واحدة . لا نذهب للعدالة طلباً للقصاص عند اكتشاف خيانة الزوجات أو الصديقات لأننا القضاة والجلادون : نقتلن دونما عناء وندفن جثثهن فى الجبال والفلوات مثل الحيوانات الضارة ، مطمئنين لعدم سعى قريب للأخذ بثأرهن أو مطالبة الآباء بدمائهن . وتحت وطأة الخوف من هذا المصير يتوخين العفة ، ونعشب نحن بالتالى - كما سبق وذكرت - مطمئنين مرتاحى البال . قليل مما نملكه ليس مشاعاً بين الجميع ، وفى مقدمته تأتى الزوجة والصديقة . لا يوجد بيننا طلاق أو انفصال اللهم إلا ما تحتمه الشيخوخة أو الموت . من لديه امرأة عجوز ، بإمكانه - لو أراد - تغييرها

بأخرى تناسب طموحات سنّه. بهذه اللوائح والأعراف ، وبغيرها ، نحافظ على كيائنا ونعيش سعادة.. نحن سادة الفياق والقفار والأراضى المزروعة، الغابات والأحراج ، الجبال ، الينابيع والأنهار: الجبال تقدم لنا حطبها مجاناً، والأشجار فاكهتها ، ومزارع الكروم عندها ، والبساتين خضرواتها ، والينابيع ماءها ، والأنهار أسماكها ، والقمم العالية ظلالها ، والعواصف هواءها المنعش ؛ ومن الأحراش والغابات نتزود باللحوم ، ومن الكهوف نتخذ البيوت. بالنسبة لنا : اكفهرار السماء وعبوسها نسائم عيلة ، الثلوج راحة من العمل ، المطر استحمام ، الرعود موسيقى جيّاشة ، العواصف والبروق فئوس قواطع. الأرض الصلبة - بالنسبة لنا - حشيات وثيرة من ريش النعام ، وجلودنا المدبوجة بمثابة الدروع الواقية . خفة حركتنا لا تعوقها الجداجد (٢٧) ولا توقفها الوهاد ولا تصدها الحوائط. عزائمنا لا تثنيها القيود، لا تفت في عضدها "لاس جاروتشاس" (٢٨)، لا يغرقها الخنق ولا تروضها المهور الخشبية (٢٩). ننقل في سهولة ويسر من قول "لا" إلى "نعم" أو العكس ، تبعاً للظروف ولما تمليه المصلحة ؛ هذا لأن قيمتنا الحقيقية نستمدّها من الاستشهاد لا من الجلوس على كرسى الاعتراف.. من أجلنا تربي المطايا وحيوانات الجرّ في المزارع والحقول ؛ وفي المدينة تخاط من أجلنا الجيوب في الملابس. لا يوجد من بين العقبان أو الطيور الجارحة الأخرى من يتفوق علينا في الانقضااض على الفريسة عند سنوح الفرصة؛ وعلاوة على هذا وذاك نتمتع بالمؤهلات والمهارات العديدة التي تكفل لنا الخواتيم السعيدة : فنحن في السجن نغنى ، على مهر التعذيب نصمت ولا نقول آه ، بالنهار نعمل وبالليل نسرق ، أو بمعنى أصح : نحصر على ألا يعيش أحد قرير العين مطمئنا على ثروته. لا يتعبنا الخوف من فقدان الشرف ولا يؤرقنا الطمع في الارتقاء به ؛ لا نأوى قطاع الطرق ولا نبكر

(٢٧) الجداجد (جمع جُدد) : صراصير تطير في الظلام . (المترجم)

(٢٨) Las garruchas : التعذيب بـ "الجاروتشا" يتمثل في تعليق الشخص من رجليه مع وضع أحمال ثقيلة على ظهره وساقيه . (المترجم)

(٢٩) Potro : آلة تعذيب خشبية على شكل مهر. (المترجم)

إلى المحاكم لتقديم العروض؛ لا نخالط عليّة القوم ولا نطلب معروفاً من أحد. نفضل أكواخنا الصفيح ومضاربنا المتنقلة على العيش فى أفخم القصور. لا نقايض ما حبتنا به الطبيعة من جروف عالية وقمم صخرية مثلجة ومروج ممتدة وغابات كثيفة بالحجرات الضيقة حتى لو كانت فى "فلاندى" ذاتها. فى الفلك نحن علماء بالفطرة ؛ ننام غالباً فى الخلاء تحت سماء مكشوفة ، نرقب النجوم على مدار الساعة ونعلم ما يخص منها الليل وما يتبع النهار. نشاهد كيف يزوى السحر النجوم ويمحوها من السماء، وكيف تمتد بعده يد الصبح لتبهج الهواء وتبرد الماء وترطب أديم الأرض ، ثم تأتى الشمس لتذهب القمم وتمشط الجبال (كما يقول أحد الشعراء) ، لا نخشى البرودة عندما تجرحنا بأشعتها المائلة ، ولا نرهب الاحتراق بقرصها عندما تتوسط كبد السماء: فأرادتنا واحدة فى مواجهة الشمس أو الجليد، الخصوبة أو الجذب. نحن - باختصار - أناس نعيش من كدنا وعرقنا ، دون الدخول فى متاهة المثل القائل : "كنائس أو بحار أو أمور سلطانية (سياسية) " .. لدينا كل ما نريده لأننا نرضى مسرورين بما تحت أيدينا. أخبرتك بكل هذا ، أيها الفتى الكريم ، حتى تكون على علم بما أنت مقبل عليه من حياة وما يتعين عليك التصرف بموجبه ومن خلاله ، وأنا لم أقدم لك إلا طرفاً منه وبإيجاز شديد ، إذ هناك أمور أخرى كثيرة سنكتشفها أنت وحدك بمرور الأيام ، وهى لا تقل خطراً وأهمية عما سمعته أذنالك .

سكت العجوز عند هذا الحد ، فما كان من المستجد إلا الإعراب عن سروره بتلك اللوائح والأعراف الجديرة بالثناء ، وعن عزمه على ترسم خطاها واتباع منهاجها القائم على الحكمة والقواعد الرشيدة ، وعن أسفه العميق لتأخر معرفته لهذا النمط السعيد من العيش. كما أعلن تنازله منذ تلك اللحظة عن صفة الفروسية وعن الخيلاء بأصوله العريقة ، وأنه يضعهما راضياً مختاراً تحت نير هذه الحياة أو - بمعنى أصح - تحت القوانين والنظم التى توجه دفتها ، وذلك فى مقابل إنعامهم عليه بپريثيونا الرائعة التى يتخلى من أجلها عن العروش السامقة والإمبراطوريات العريضة .

ردت بريثيوثا على ما تقدم بقولها :

- إذا كان هؤلاء السادة المشرعون قد وجدوا في لوائحهم ما يخول لهم تقديمي إليك طالما صادف هذا هوى في نفسك ، فإن قانون إرادتي - وهو أقوى من سائر القوانين - يأبى على الانصياع لما ذهبوا إليه إلا بالشروط التي اتفقنا عليها سوية قبل مجيئك إلى هذا المكان ؛ ومن ثم يتعين عليك البقاء في مضاربنا سنتين كاملتين قبل ابتنائك بي لكي لا تتدم بعد ذلك على نزقك ولا ألن تسرعى الذى غرر بي . الشروط تحطم إसार القوانين ، وأنت تعرف جيداً ما اتفقنا عليه : لو قبلتها ربما أكون لك وتكون لى ، أما إذا كانت الشكوك مازالت تساورك فهى بخلتك لم تمت بعد ، ولم يمس طاقمها ، ونفودك ستعود إليك كاملة غير منقوصة . أما بالنسبة لغيابك فإنه لم يطل ولم يستغرق حتى الآن إلا شطراً من النهار ، وما تبقى منه يمكنك استغلاله فى التفكير بروية فيما يناسبك .. بإمكان هؤلاء السادة تسليمك جسدى ، أما روحى ، فكلا وألف كلا ، لأنها ولدت حرة وستظل كذلك طيلة الوقت الذى أريده . لو بقيت سأحترمك كثيراً وأقدرك ، ولن أنتقص من قدرك هذا لو قررت العودة . أنا على يقين من أن رغبات المحبين تجرى دائماً ملتائة دون عنان حتى يلجمها ويكبح جماحها صوت العقل أو خيبة الأمل ، وأنا لا أريد أن يكون حالى معك مثل الصياد مع الأرنب البرى : يظل يطارده بحمية واندفاع حتى يوقعه فى شركه ، وبعد أن يمسه به يتركه ليجرى وراء آخر يفر منه . غالبية العيون لا تميز عند النظرة الأولى بين صفرة النحاس والذهب ؛ لكنها لو أنعمت قليلاً فيهما لأدركت الفارق بين الأصلى منها والمزيف . وهذا الجمال الرائع الذى تنعتنى به وتدعى أنه عندك أعلى من الشمس منزلة وأعلى من الذهب قيمة ، ما الذى يدرينى أنك لن تراه على القرب وهما ، وأنه بعد اللمس مصطنع وغير حقيقى ؟ أعطيك سنتين لتراجع فيهما نفسك وتختار الأفضل لك ، لأن رباط الزواج المقدس لا فكاك منه إلا بالموت ، ولذا يجب أن يكون مسبقاً بوقت كافٍ يسمح بالنظر ثم إعادة النظر لاكتشاف ما به من عيوب ومحاسن . أنا لست ممن ينصاع للمبدأ الهمجى المتجبر الذى أقره أهلى هؤلاء بشأن الانفصال

عن النساء أو معاقبتهن بالطريقة التي تحلو لهم ؛ وبما أنني لا أفكر في الإتيان بشيء يستوجب العقاب ، لا أريد اتخاذ شريك يتركني وقتما يشاء .

- لديك كل الحق فيما تقولينه يا بريثيوثا - قال أندريس معقباً - ، وإذا أردت أن أهدئ من روعك وأبدد مخاوفك بالحلف على التزام كل الضوابط التي تريدها ولا أخرج عنها قيد أنملة فأختار نوع القسم الذي تريدين أو أى ضمان آخر وستجدينى رهن إشارتك .

- نادراً ما يفى الأسير بالآيمان المغلظة أو بالعهود التي يقطعها على نفسه لكي يردوا عليه حريته - قالت بريثيوثا - ، وما أظن أن الأمر يختلف بالنسبة للعاشق: إنه ، من أجل إشباع رغبته ، على استعداد للوعد بأجنحة "ميركوريو" (٣٠) وأشعة "جوبيتر" (٣١) - كما وعدنى ذات مرة أحد الشعراء- ، وعلى الحلف بنبع "إستخيا" (٣٢) . لا أريد منك أيماناً ولا وعوداً ، ياسيد أندريس ، بل ادخار كل هذا لفترة التجربة والاختبار التي سأتولى فيها مهمة الدفاع عن نفسى ضد أية بادرة إهانة من جانبك .

- لك ما تريدين - أجاب أندريس - ؛ لكن لى طلباً واحداً عند هؤلاء السادة أصدقائي : إعفائي من ممارسة النشل لمدة شهر على الأقل ، لأن ذلك يتطلب - حسبما أعتقد - دروساً كثيرة .

- لا عليك ، يابنى - قال الغجرى العجوز - ، فنحن سنتكفل بتدريبك التدريب الكافى حتى تصبح مثل الصقر فى المهنة ، وعندما تتقنها ستشعر بلذة عارمة وستلحق أصابعك بعد كل عملية نشل تقوم بها . لا توجد متعة تعدل الخروج صباحاً صفر اليدين والعودة ليلاً محملاً بالعديد من الأشياء .

(٣٠) ميركوريو Mercurio : هو رسول الآلهة فى الأساطير الإغريقية أو الملك المكلف بحمل الأرواح إلى أعلى عليين . (المترجم)

(٣١) جوبيتر Júpiter: من أهم الآلهة اللاتينية ، ويتولى شأن التصرف فى الظواهر المناخية مثل الضوء والأشعة والرعد والأمطار... إلخ . (المترجم)

(٣٢) إبتخيا Estigia: فى التراث الغربى نبع سام يندفق من صخرة وتتوارى مياهه بسرعة تحت الأرض . ويقال إن درجة تركيز السم به تصل إلى حد صهر المعادن والخزف ، وإنه فرع لنهر فى الجحيم . (المترجم)

- قد يعود البعض ولا يحمل على ظهره سوى آثار السياط ، كما شاهدت -
قال أندريس .

- نحن لا نلهو ولا نلعب - رد العجوز - ، وكل نشاط في هذه الحياة محفوف
بجملة من المخاطر ، وما يخص النشل منها يتمثل في التجديف علي السفن
والجلد ، وأحياناً الشنق ؛ لكن هذا لا يعنى التوقف عن العمل ، إذ لا يعقل أن
تكف السفن عن الإبحار لأن إحداها تعرضت للغرق أو داهمتها عاصفة
هوجاء . وهل يقلع الناس عن الانخراط في سلك الجندية لأن الحروب تآكل
الرجال والخيول ؟ قَدَرْنَا يزداد علواً كلما كثرت آثار سياط العدالة على
ظهورنا ، فهي عندنا أفضل من النياشين وشارات الفروسية على الصدور ..
خلاصة القول إن كراهيتنا الشديدة للجلد على الظهور أو لضرب صفحة
المياه بالمجاديف لا تدفعنا ، ونحن في ريعان الشباب ، إلى النكوص على
أعقابنا يائسين عند ارتكاب الجرائم الأولى . استرح الآن في العش تحت
أجنحتنا يابنى ، وثق تماماً أننا لن نطلقك للطيران إلا في الوقت المناسب
والى حيث لا تعود إلا والفريسة بين مخالبك . وكما أخبرتك آنفاً : لن تقاوم
- من فرط المتعة واللذة - لعق أصابعك بعد كل سرقة .

- وبمثابة التعويض من جهتي - قال أندريس - عما كان بإمكانى سرقته
خلال فترة التدريب ، أود توزيع مائتي إسكودو على كافة الموجودين
بالمضارب .

فور انتهائه من هذا التصريح اقترب منه شباب الغجر وحملوه على الأعناق
وأخذوا يهتفون : " يعيش ، يعيش أندريس العظيم ! تحيا بريثيوتا ، حبيبته
وجوهرته المصونة ! " .

لم تقف العجريات مكتوفات الأيدي بل فعلمن الشيء نفسه مع بريثيوتا دون أن
يخلو المشهد من الغيرة التى كانت تتليس " كريستينا " وأخريات غيرها ؛ فالغيرة
تعش أيضاً فى مخيمات البرابرة وأكواخ الرعاة مثلما تسكن قصور الأمراء ، ورؤية
الجار ينعم بما يبدو لى أنه لا يستحقه أكثر منى تتعب وتضنى .

بعد انتهاء الحفل الرائع بالوافد الجديد أقبلوا على تناول غذائهم بشهية ونهم ، ولما فرغوا منه وزعوا مائتي الإسكودو بينهم بالعدل والقسطاس لتنهال المدائح من جديد على أندريس و بريثيوثا .

ولمّا جَنَّ الليل ذبحوا البغلة ودفنوها في مكانٍ آمنٍ ، كما دفنوا معها - مثلما يفعل الهنود مع موتاهم - طاقمها المكون من سرج ومهمازين وخطام ورسن . أُعجب أندريس بما سمعه ورآه من إشراقيات الغجر ، وعزم على اتباع سبيلهم مع التخلّي تماماً عن عاداته القديمة أو التخفف - على الأقل - منها قدر استطاعته ، وإن كان قد عقد النية في الوقت نفسه على التملّص - بمساعدة حافظة نقوده - من ارتكاب الأفعال الظالمة التي يأمرونه بها .

رجاهم أندريس في اليوم التالي تغيير محل إقامتهم والابتعاد عن مدريد حتى لا يتعرف عليه أحد لو ظلّ بالقرب منها . أخبروه أنهم كانوا قد قرروا قبل حضوره الذهاب إلى جبال طليطلة لممارسة نشاطهم في المناطق المحيطة بها .

للموا حاجياتهم وحملوها على الدواب والعربات ثم قدّموا لأندريس جحشاً ليركبه ، لكنه أبى وفَضَّل السير على قدميه ليتعهد الجحش الذي تَمَتَّطِيهِ بريثيوثا ؛ وهكذا سارت المحبوبة مزهوةً بتابعها الأنيق الرشيق ، وهو مغتبط برؤية من نصبها قلبه مليكة لمشيلته تمضي إلى جواره .

[آه ، أيتها القوة القاهرة لما يسمونه بـ " معبود المرارة العذب " (والتسمية من بذات أفكارنا) . بأيّ منطق تخضعيننا ، وتعامليننا بغير احترام ؟ فهذا أندريس - الفتى الرزين والفارس المغوار الذي قضى شطراً كبيراً من حياته بالعاصمة يتقلب بين أحضان النعيم - قد تحول من النقيض إلى النقيض بين عشية وضحاها : خدع خدمه وأصدقاءه ، أطاح بآمال والديه فيه ، ترك الطريق إلى " فلانديس " حيث كان باستطاعته التعبير عن نفسه وتسجيل المزيد من صفحات المجد والفخار في سجل آبائه وأجداده ، وكل هذا في مقابل الركوع تحت قدمي فتاة والعمل سائساً لها . صحيح أنها رائعة الجمال ؛ لكنها عجربة . إنها حقاً لإحدى معجزات الجمال تلك المتمثلة في القدرة على إخضاع الإرادة العصية الشاردة وإحضارها قسراً لترتمي تحت قدميه] .

بعد أربعة أيام من السير المتواصل ألقوا بعضا الترحال عند قرية تبعد فرسخين عن طليطلة . وقبل أن ينصبوا عششهم وخيامهم سلموا عمدتها بعض المشغولات الفضية كضمان على عدم مزاولتهم لأنشطتهم بالقرية أو المنطقة التابعة لها .. انتشروا بعد ذلك في جماعات لممارسة نشاطهم في كافة الأنحاء التي تبعد عن مضاريهم بمسافة لا تقل عن أربعة فراسخ أو خمسة .. انضم أندريس إلى إحدى المجموعات وذهب معها ليتلقى درسه العملى الأول فى النشل ؛ ورغم أنهم لقنوه العديد من الدروس إلا أنه لم يستوعب واحداً منها ؛ وفى مقابل هذا كانت كل عملية نشل ينفذها أساتذته تحز فى نفسه وتوجهه فى الصميم ، وغالباً ما كان يرق لدموع المخدوعين ويرد إليهم - من ماله الخاص - ما سلبه زملاؤه منهم . يئس منه الغجر وأفهموه أن سلوكه هذا يناقض قوانينهم ولوائحهم التى تنص على بكل حزم أية بادرة إحساس بالشفقة ، لأنها لو تسالت إلى قلوبهم ستطمس هويتهم ولن تقوم لهم بعدها قائمة .

عندما أدرك أندريس قنوطهم منه أخبرهم برغبته فى ممارسة النشل بمفرده دون وصاية من أحد ، فهو لا تنقصه الخفة ليهرب أو الحافز ليسرق ، وبهذا الشكل يتحمل وحده نتيجة عمله : خيراً أو شراً .

عَبثاً حاول الغجر إقناعه بالعدول عن رأيه : أفهموه أنهم يتعرضون فى عملهم هذا لمواقف تحتاج - سواء بالنسبة لإنجاز المهمة أو للدفاع عن النفس - لمعونة الغير ، وأن شخصاً بمفرده لا يستطيع القيام بمهام ذات شأن ؛ لكنه أصر - رغم الحجج الكثيرة التى ساقوها - على الانفصال عن المجموعة لتبنيته النية على شراء أية سلعة وادعاء سرقتها ، وبهذا الشكل يتخفف قدر استطاعته من عبء تأنيب الضمير .

بعد تنفيذ أندريس لحيلته نلقت منه الأخوية فى أقل من شهر ما يفوق جملة ما أحضره أربعة من أمهر لصوصها . كانت بريثيوتا شديدة الزهو باستواء عود خطيبها الغض على ساقه وتحوله إلى لص بارع ؛ ومع هذا كان يقلقها ويقض مضجعها الخوف من إيقاعهم به ذات يوم وتجريسه . لم تكن ترضى له بهذا المشهد المخزى ولو فى مقابل كنوز "فينيسيا" جميعها . (لا بد أن هذا الشعور الطيب من جانبها كان مبعثه تفانيه فى خدمتها والهدايا الكثيرة التى تتلقاها منه) .

أمضوا فى نواحي طليطلة ما يزيد على الشهر بقليل ، ولما حلت البرودة بانقضاء سبتمبر شدوا الرحال ويمموا شطر إقليم "إكستريمادورا" المشهور بدفئه وغناه . كان

أندريس يتبادل أحاديث الغرام العفيفة مع بريثوثا، وشيكاً فشيكاً أخذت الفتاة تتعلق به وتفتن بأدبه الجم ومعاملته اللطيفة. أما كأس الهوى الذى كان مترعاً عنده وليس بحاجة إلى المزيد فقد فاضت حوافه بفعل طهارة حبيبته وفطنتها ومتعة النظر إليها عن قرب.. كان يلتفت إليه الأنظار فى أى مكان يحلون به: فهو يعدو ويقفز كالظباء، يلعب الصولجان والكرة بخفة ومهارة، يرمى الزانة بقوة وإتقان لا نظير لهما..

خلاصة القول أن شهرته حُلقت فى مدة وجيزة - بالتوازي مع شهرة خطيبته - فى جميع أجواء "إكستريمادورا"، وأن الناس فى كل مكان كانوا يتحدثون عن رشاقتها ومهارة الغجرى أندريس كاباييروا وعن ظفره ومواهبه، وعن جمال وسحر الغجرية الصغيرة. ومن هنا حرص سكان الإقليم - سواء فى المدن أو القرى أو النجوع - على توجيه الدعوة إليهما لإضفاء البهجة والحبور على أعيادهم الدينية أو احتفالاتهم الخاصة. وهكذا بدأ الغنى والازدهار يدبّان فى أوصال مخيمات الغجر وترتفرف فوقها أجنحة السعادة، بينما اكتفى العاشقان بتبادل النظرات.

عندما كانت خيامهم منصوبة - فى إحدى المرات - بين أشجار البلوط فى مكان بعيد بعض الشيء عن الطريق العمومى سمعوا، ذات ليلة، فى منتصفها تقريباً، نباح الكلاب يتعالى بإصرار وحمية أكثر من المعتاد. خرج بعض الأفراد - بينهم أندريس - لاستطلاع الخبر، فوجدوا شاباً يرتدى ملابس بيضاء يحاول إبعاد الكلاب عنه والتخلص من اثنين منهم تمكنا من الإمساك بإحدى ساقيه. هرعوا إليه وبعد تخليصه سأله أحدهم:

- ما الذى رمى بك إلى هذا المكان البعيد عن الطريق وفى تلك الساعة؟
أجبت لتسرقنا؟ لو كنت قادماً لهذا الغرض فنعم الاختيار.

- ما قدمت للسرقة - أجاب العضوض - ولا أدري ما إذا كنتُ أسير على الطريق أو خارجه، وإن تبين لى الآن أننى ابتعدت عنه بالفعل؛ لكن، بركم أيها السادة، ألا يوجد خان قريب من هنا أوى إليه هذه الليلة لأضمد الجراح التى أحدثتها كلابكم؟

- لا يوجد بالجوار خان واحد نذكُّك عليه - أجاب أندريس - لكن مادام الأمر يتعلق بالليلة ومداداة جراحك فلن نعجز عن توفير فراش مريح لك داخل مخيمنا. تعال معنا، فنحن معاشر الغجر نعرف أيضاً الرحمة.

- يرحمكم الله أيها السادة - رد الشاب - ، احملوني إلى حيث تريدون لأن
آلام ساقى أنهكتنى .

اقترب منه أندريس وعجى آخر - فمن بين الشياطين يوجد من هو أسوأ من
الآخر ، ومن بين حشد الرجال الأشرار يمكن العثور على واحد طيب - وتعاوننا سوياً
على حمله .

كانت الليلة صافية مقمرة مما جعلهم يرونه بوضوح : كان شاباً جميل الخُلق ،
رشيق القد ، يرتدى ملابس بيضاء من الكتان . فور وصولهم به إلى كوخ أندريس
أضاءوا المصباح وأوقدوا النار وأرسلوا فى طلب جدة بريثيوتا التى حضرت على
جناح السرعة لتطيبه . انتزعت العجيرة العجوز بعض الشعور من الكلبين العاقرين
وقلتهم فى الزيت . غسلت باللبىذ مكان العضتين على الساق اليسرى ووضعت فوقهما
الشعور المقلية فى الزيت ثم أضافت قليلاً من نبات القرمآن المطحون . قامت بعد ذلك
بإحكام ربط الجرحين بقطعة قماش نظيفة ثم أشارت عليهما بعلامة الصليب . ولما
فرغت من عملها قالت :

- نم أيها الصديق ، وستصبح بعون الله وكأن شيئاً لم يكن .

كانت بريثيوتا تسترق النظر إلى الشاب أثناء قيام جدتها بتطيبه ، ولم يمسك هو
الآخر عن إنعام النظر إليها . استرعى هذا انتباه أندريس ؛ لكنه أرجعه إلى جمال
بريثيوتا الخلاب الذى يستولى على العيون ويجبرها على التوجه إلى صاحبتة .
المهم أنهم فى النهاية تركوا الشاب بعد تضميد جراحه ليستريح فوق سرير من القش
الجاف وآثروا عدم إزعاجه فى تلك الظروف بالسؤال عن هويته أو وجهته أو أى
شئ آخر .

أخذت بريثيوتا أندريس من يده وانتحت به جانباً فور ابتعادهما عن الكوخ لتقول له :

- ألا تذكر تلك الورقة التى سقطت منى عندما كنا نرقص أنا وزميلاتى فى
بيتكم ، واغتنظت بسببها ؟

- نعم أذكرها . لقد كانت تحوى على "سونيت" لا بأس به ، يمتدح جمالك .

- لا تنزعج إذن لو علمت أن الذى ألف هذا السونيت هو الشاب المعضوض الذى تركناه راقداً فى الكوخ. لاشك أنه هو ، فقد كلمته فى مدريد مرتين أو ثلاثا سلمنى خلالها قصيدة أخرى رائعة. إنه يعمل وصيفاً فى مدريد ، لا لرجل عادى بل لأحد الأمراء على ما أظن. إنه - حقاً - شاب مهذب ، راجح العقل وفى منتهى العفة ، ولا أدرى ما الذى ساقه إلى هذا المكان.

- وما ظنك أنت ، يا بريثيوثا ؟ لم يأت بهذا الشاب فى ثياب الطحان إلى هنا إلا الذى أحضرنى قبله وجعلنى غجرياً . لقد بات واضحاً للعيان أن من دواعى سعادتك رؤية نفسك محاطة بالعديد من المعجبين الخانعين. لو كنت فعلاً هكذا ، اقتلبنى أولاً ثم ألحقى بى هذا الآخر ؛ هذا إذا لم تكونى تضميرين التضحية بنا سوياً على عتبات وهمك ، حتى لا أقول جمالك.

- عفوك ياإلهى ! - قالت بريثيوثا - أيمكن أن يصل بك الطيش إلى هذا الحد وأن تجعل سمعتى وآمالك فى مهب الريح معلقتين بخيط رفيع ! لقد تمكن سيف الغيرة الصلد من اختراق روحك فى سهولة ويسر. قل لى ، ياأندريس ، هل قلبت النظر ووجدت شائبة اصطناع أو خداع فيما أخبرتك به ؟ ألم يكن بمقدورى الصمت وإخفاء حقيقة هذا الشاب ؟ أم تظننى - على سبيل المصادفة - حمقاء لدرجة إعطائك الفرصة كي تضع طبيتى وحسن نيتى موضع الشبهات ؟ اصمت ياأندريس ، بالله عليك ، وحاول من الآن وحتى انبلاج الصباح اقتلاع هذه الوسوس والأوهام من صدرك ، ربما يكشف لك عقلك عن بطلان هواجسك. ولكى أرضيك وأقطع دابر الشك عندك - مادامت المسألة قد وصلت إلى الحد الذى يستدعى استرضاءك - أطلب منك طرد هذا الشاب دون انتظار للبحث عن الدوافع التى ألقت به إلى هذا المكان. اطرده ولن يمانعك أحد ، فجميع من بالمخيم لا يعصون لك أمراً . ولو فرضنا أن هذا لن يحدث أتعهد لك بعدم مغادرة مسكنى من هذه اللحظة وألا أمكنه من رؤية ذيل ثوبى ، لا هو ولا غيره ممن لا تروك رؤيتهم لى . أتعرف ياأندريس أنه لا يحزننى البتة رؤيتك غيوراً ؛ لكن يحز فى نفسى ويوجعنى كثيراً أن أخالك نزقاً أو غير بصير.

- إذا لم يعترني الجنون - رد أندريس - فأى عارض آخر يُعد نافهاً أو لا وجود له نظراً لما يمكن أن تحدثه الغيرة المريرة القاسية من أضرار جسيمة. ورغم كل هذا فلا مانع لدى من مسأيرتك ومحاوله الوقوف - إن تيسر هذا - على حقيقة ما يريد هذا الوصيف الشاعر ، وإلى أين هو ذاهب وعن ماذا يبحث ؛ فبالإمكان التقاط خيط قد يظهر منه على حين غفلة يقود إلى استخراج البكرة المخبوءة ، وإن كنت أخشى أن تطوفنى بلقائفها .

- الغيرة على ما أظن - قالت بريثيوتا - لا تترك العقل حراً طليقاً لكي يزن الأمور بميزانها الصحيح ، فالغيورون ينظرون دائماً من خلال عدسات مكبرة بعيدة المدى تجعل الأشياء الصغيرة كبيرة والقزمة عملاقة ، وتقلب الشكوك حقائق. أستحلفك بحياتي وحياتك، يا أندريس ، أن تتصرف في هذا الأمر وفي كل ما يعن لنا من أمور بحكمة وروية ، لو فعلت هذا فأنا على يقين من أنك ستسلم وتقر - دون تحفظات - بعفافي وصونى ومصداقيتى .

ودعته بريثيوتا بعد ذلك وعادت إلى كوخها بينما ظل هو منتظراً (عكر المزاج ، تتناوشه آلاف التخيلات السقيمة) انبلاج الصباح ليتلقى اعترافات الجريح. لم يستطع تخيل سبب آخر لمجىء ذلك الوصيف سوى افتتاحه بجمالها ، فاللص يتصور الناس جميعاً على شاكلته. ومن جهة أخرى ، بدا له أن اجتهد بريثيوتا فى استرضائه بهذا الشكل يجبره على العيش هائناً قرير العين وعلى أن يسلم ، مطمئناً ، دقة حظه إلى يدها الأمانة .

أخيراً طلع النهار، ومع طلعه اتجه أندريس إلى كوخ المعضوض وأخذ يطره بوابل من الأسئلة: عن اسمه ووجهته ومغزى سيره فى وقت متأخر من الليل بعيداً عن الطريق العمومى ، وإن كان قد سألته أولاً عن حاله وآلام جراحه . أجابه الشاب عن السؤال الأخير قائلاً : إنه بخير ولم يعد يشعر بأى ألم مما يجعله قادراً على مواصلة طريقه . أما بالنسبة لاسمه ووجهته فلم يجب بأكثر من أنه يدعى "ألونسو أورتادو" ، وأنه ذاهب فى مهمة إلى "نويسترا سنيورا دى لا بينيا دى فرنسا" (٢٣) ، وأن حرصه

(٢٣) يقع هذا المكان بين مدينتى "شلمنقة" و "نيوداد ريال" ، وقد أطلقت عليه هذه التسمية عام ١٤٩٠م عندما عثر فيه على تمثال مهيب للعدراء Nuestra Senora ، وقد أقيمت كنيسة فى موضع اكتشاف التمثال ثم ألحق بها بعد ذلك دير للرهبان من طائفة "الدوميكان" . (المترجم)

الزائد على الوصول بسرعة إليها هو الذى اضطره إلى السير ليلاً ، ولهذا السبب ضل الطريق واقتادته قدماءه إلى هذا المخيم حيث هاجمته الكلاب وأحدثت به ما شاهدوه بأعينهم .

بدا واضحاً لأندريس شدة زيف هذه التصريحات الملفقة ، ومن ثمَّ عادت الهواجس لتؤرق روحه من جديد . قال له منفِعلاً :

- يا أخى ، لو كنت أنا القاضى وجلت إلى ساحتى مُتَّهماً بجرم ارتكبته ووجَّه إليك ممثلو الادعاء الأسئلة التى طرحتها عليك الآن ، فإن إجاباتك الحالية ستضطرني لأن أمرهم بتكثيف الضغط عليك بالقيود والحبال . لا يهمنى معرفة من تكون ولا حتى اسمك أو وجهتك ، إنما أريد أن تسمع منى هذه النصيحة : إذا كنت بحاجة إلى الكذب فافعل بشكل لا يسترعى الانتباه . تدعى أنك ذاهب إلى " بينيا دى فرنسا " بينما هى وراءك بما لا يقل عن ثلاثين فرسخاً ، وأنتك تسير ليلاً لضيق الوقت بينما تترك الطريق وتتخبط فى الغابات بين أشجار البلوط حيث لا توجد دروب ولا حتى مسالك . لكن ألا يستحق تنبيهك إلى خطئك الاعتراف ولو بحقيقة واحدة ؟ أأست - على سبيل المصادفة - ذلك الوصيف الذى رأيته عدة مرات فى مدريد ؛ ذلك الشاعر المشهور الذى أَلَّف قصيدتين فى غجرية حسناء كانت تجوب شوارع العاصمة منذ بضعة أشهر ؟ أخبرنى بالحقيقة ، وأعدك بحفظ السر وعدم البوح به . لو لم تعترف لى بأنك الشخص الذى أحدثك عنه فإن تبرح هذا المكان ، لأن الوجه الذى أراه أمامى هو نفسه الذى شاهدته من قبل فى مدريد . لقد حملنى ذبوع صيئك وغبابة أمرك على التدقيق فىك وقتها ، وهكذا انطبعت صورتك فى مخيلتى ، ومن ثمَّ لم أجد صعوبة فى التعرف عليك فور رؤيتك رغم تخفيك فى هذه الثياب . لا ترتبك ، تشجع ولا تظن أنك بين برائن مجموعة من اللصوص ، بل فى ملجأ آمن يعرف الذود عنك وحمائتك من العالم بأسره . اسمع ، نفسى تحدثنى بشيء ، ولو صدق حدسى يكون حسن طالعك هو الذى جعلك تعثر فى : أظن أنك وقعت فى غرام بريثيوثا - تلك الغجرية الجميلة التى كتبت فيها شعراً - ولذلك أتيت للبحث عنها ، ومثل هذا الأمر لا يعيبك بل يزيد من قدرك ، فأنا - رغم

عجريتى - قد علمتنى التجارب أن يد الحب تفعل الأعاجيب بمن يقعون تحت إمرتها أو يتقلبون فى ساحتها. لو كان ظلى فى محله - وأعتقد أنه كذلك - فالعجربة المقصودة موجودة هنا.

- أعرف أنها هنا لأننى رأيتها ليلة أمس - قال المعضوض ، ويقول هذا امتنع لون أندريس وتأكدت شكوكه - ؛ لكننى لم أجرو على الكشف لها عن شخصيتى حتى لا تتفاهم الأمور.

- أنت إذن الشاعر الذى أعنيه .

- نعم أنا ، فلم يعد بالإمكان الإنكار. ربما ينتظرنى الخير فى المكان الذى حسبت أننى ضعت فيه ، هذا إذا سلمنا جدلاً بأن فى الغابات يمكن أن يتوافر الأمان أو الترحاب فى الجبال.

- يتوافر بالتأكيد - قال أندريس - ، وعلى وجه الخصوص فى مضارب الغجر . والآن بوسعك أيها السيد - انطلاقاً من الثقة المتبادلة - الإفصاح عن مكنون صدرك وستجدنى نعم الناصح الأمين. العجربة قريبتى ، وولايتى عليها تخول لى أن أفعل بها ما أريد. لو كنت تريدها زوجة لا يسعنا إلا مباركة اختيارك ، ولو أردتها خليفة فلن نمانع مادامت حافظتك عامرة بالنقود ، فالجشع يعتبر إحدى شيمنا الأصيلة.

- المال موجود والحمد لله - رد الشاب - ، ففى كُمى قميصى هذا توجد أربعمائة إسكودو ملفوفة حول ساعدى.

نزل هذا الخبر على أندريس كالصاعقة ، إذ تصور أن الشاب لم يحضر معه كل هذا المبلغ الضخم إلا لاستهواء حبيبته أو لشرائها ؛ ومع هذا تمالك نفسه ليواصل معه الحديث وإن كان بلسان متلعثم مرتجف :

- إنه حقاً لمبلغ كبير. لم يبق إذن إلا الكشف عن هويتك والشروع فى العمل.. الفتاة ليست بلهاء وستسعد أياً سعادة بالافتتان بشاب مثلك.

- آه ، يا صديقى ! - قال الشاب - . أود أن تعرف أن القوة القاهرة التى أجبرتنى على ارتداء هذه الثياب المستعارة لا صلة لها بالحب الذى تتفنن

فى الحديث عنه ، ولا حتى بالرغبة فى بريثيوتا؁ فالعاصمة مدريد تعج بالفائدات اللاتى بأسرن القلوب ويخطفن الألباب ، وجمال قريبك وإن كان يبرزهم جميعاً إلا أنه فى نهاية المطاف على غجربة. ما ألقى بى إلى هذا المكان فى هذه الثياب ، سائراً على قدمى ومعضوضاً من الكلاب ليس سببه الحب ، بل طامة كبرى ومصيبة عظيمة هبطت على أم رأسى .

استعاد أندريس بعد سماعه الكلمات السابقة قواه الخائرة ، وبدا له أن الأمور تمضى فى اتجاه مغاير لما ذهب إليه تفكيره ، وللهفته الشديدة للخروج من تلك البلبلة عاود الضغط على الشاب لكى يكشف عن أبعاد نكبته ، وقد تحقق له المأمول لأن المعضوض واصل حديثه قائلاً :

- فى مدريد كنت أعمل وصيفاً لأحد حاملى الألقاب الذى لم يكن يعاملنى بهذه الصفة ، بل كفر من أهل بيته . كان لسيدى هذا ابن وحيد يماثلنى فى العمر ويشبهنى فى معظم الصفات ، ومن ثم فقد كانت تربطنى به علاقة أخوة وصداقة . حدث أن أحب هذا الابن فتاة من أحد البيوتات العريقة ، وكان من الممكن أن يختارها عن طيب خاطر لتكون زوجته لو لم يكن قراره متوقفاً - كالحال فى الأبناء المؤدبين الذين لا يفعلون شيئاً إلا بموافقة أولياء أمورهم - على تصريح والديه اللذين كانا يرغبان فى تزويجه من عروس تنتمى لطبقتهم الاجتماعية الراقية . المهم أن صديقى هذا وابن سيدى كان يتودد إلى فتاته سرا ، بعيداً عن كافة العيون فيما عدا عيني هاتين اللتين شهدتا محاولاته المتكررة لإرضائها . وذات ليلة، يبدو أن القدر المشئوم قد اختارها لحدوث المصيبة التى ألخص لك وقائعها على النحو التالى: فى أثناء طوافنا بشارع تلك الفتاة لمحنا رجلين ، حسنى المظهر ، يحومان حول بيتها . أراد صديقى معرفة من هما ، ولم يكذب بخطو بضع خطوات - وأنا إلى جواره - حتى امتشق كل واحد منهما حساماً بيد وبالأخرى أشهر مسدسه واتجها نحونا . اضطررنا اضطراراً لفعل الشيء نفسه لتجرى معركة لم تدم طويلاً ؛ هذا لأن روحى الخصمين فارقنا جسديهما سريعاً من جراء طعنيتين : سدت الأولى بسيف صديقى المدفوع بالغيرة ، بينما وقع على عاتقى الثانية دفاعاً عن النفس ؛ وهكذا

انتهى المشهد بسرعة نادرة وغير معهودة . بعد انتصارنا الذى لم نكن نريده ولا نطمح فيه عدنا أدرأجنا إلى البيت وأخذنا - دون أن يشعر بنا أحد - ما طالته أيدينا من نفود ، ثم غادرناه ولجأنا إلى دير "سان خيرونيمو" للاحتباء به ، فى انتظار ما سيسفر عنه التحقيق عندما تكتشف الجريمة فى الصباح . علمنا بعد ذلك أن المحققين لم يستدلوا على أى أثر للجناة ، وعندئذ نصحنا الرهبان بالعودة إلى البيت حتى لا يثير غيابنا الشكوك .. اقتنعنا بوجهة نظرهم ، وحين هممنا بالانصراف علمنا أن قضاة العاصمة احتجزوا الفتاة ووالديها وخدمهم للاستجواب ، وأن خادمة الفتاة أخبرتهم أن صديقى كان يحوم ليل نهار حول بيت سيدتها . قامت قوات الشرطة - بناءً على هذه القرينة - بمداومة المنزل للقبض علينا فلم تجد سوى آثار هرونا مبعثرة فى أرجاء المكان ؛ وبهذا الشكل أدركت العاصمة بأسرها أننا منفذوا الجريمة التى راح ضحيتها رجلان من عليا القوم .. ظللنا مختبئين خمسة عشر يوماً ، وفى نهايتها ارتأى صديقى الكونت والرهبان ضرورة مغادرتنا للدير : بصحبة أحدهم خرج زميلى متخفياً فى ثياب كاهن قاصدين إقليم "رغون" . كان ينوى مواصلة الهرب إلى إيطاليا ثم إلى "فلاندس" حيث يمكنه متابعة تطور الأحداث من بعيد . لم أشأ مرافقته حتى لا أربط مصيرى بمصيره ، ولذا أخذت طريقاً مغايراً : فى ثياب خادم قسيس خرجت - على قدمى - بصحبة راهب آخر ظل ملازماً لى حتى وصلنا إلى "طلبيرة" ومنها سرت بمفردى خارج الطريق العمومى حتى وجدت نفسى داخل هذا الدغل من أشجار البلوط حيث جرى لى ما عاينتموه . وإذا كان قد ورد على لسانى ذكر "بينيا دى فرنسا" فهذا لأننى أردت الإجابة بشيء عما سألتنى عنه ؛ فأنا لا أعرف حقيقة موقعها بالتحديد ، وغاية علمى بها أنها تقع خلف مدينة "شلمنقة" بمسافة كبيرة .

- إنها بالفعل هكذا - رد عليه أندريس - لو سرت فى الطريق العمومى ستجدها على يمينك بعد حوالى عشرين فرسخاً من هنا (٣٤) .

(٣٤) بيدرو أن أندريس ليس متأكداً من المسافة التى تفصله عن "بينيا دى فرنسا" ، فهو يقول هنا إنها حوالى عشرين فرسخاً بينما صرح قبلها أنها تزيد عن الثلاثين . (المترجم)

- لا أنوى الذهاب إليها - قال الشاب - بل إلى إشبيلية لمقابلة تاجر إيطالى من جنوة تربطه صداقة حميمة بالكونت قريبي ، وهو متخصص فى تجارة الفضة التى يرسل منها شحنات ضخمة وبصفة دورية إلى مسقط رأسه . أمل أن يخبئنى فى أحد الصناديق لأتمكن من الوصول إلى ميناء قرطاجنة (فى مملكة مرسية) ، ومنه إلى إيطاليا على متن سفينة من السفينتين المنتظر قدومهما قريباً إلى هذا الميناء لتحميل شحنات الفضة .. هذه هى حكايتى باختصار ، أيها الصديق ، وهى كما ترى مترعة بالمأسى والمصائب ولا تمت بصلة إلى لواعج الحب أو تباريح الهوى . ومن هنا إلى إشبيلية أتعشم أن يقبلنى هؤلاء السادة الغجر ضمن قافلتهم إن كانوا قد أزمعوا الرحيل إليها ، فأنا أظن أن السفر بصحبتهم سيبدد الخوف الذى يقض مضجعى وسيجعلنى أشعر بالأمان .

- لست أدرى إذا كان الغجر بمخيماً سيشدون الرحال فى القريب العاجل إلى "أندلوثيا" أم لا ؛ لكنى أعتقد أننا سنمر بعد يومين على مخيم آخر للغجر ذاهب إلى هناك ولا أظن أنهم سيمانعون فى انضمامك إليهم مادمت ستعطيتهم فى المقابل بعض ما لديك من مال .

تركه أندريس وعاد إلى الغجر ليخبرهم بحقيقة الشاب وبرغبته فى البقاء معهم للسفر إلى إشبيلية نظير مبلغ كبير من المال . رحب الجميع به فى المخيم فيما عدا بريثيوثا وجدتها . لم تفصح الأولى عن سبب رفضها ، أما الجدة فقد أرجعت استحالة اقترابها من إشبيلية أو نواحيها إلى مزحة من النوع الثقيل جرت منذ عدة سنوات مع صانع قبعات وأعطية للرءوس مشهور بتلك المدينة ويدعى " تريجيوس " (٣٥) . قالت إنها جعلته يدخل نفسه - عارياً كما ولدته أمه وعلى رأسه إكليل من أفرع شجر الصفصاف - فى خابية كبيرة مملوءة عن آخرها بالماء فى انتظار انتصاف الليل لكى يخرج من محبسه ويحفر بهمة لاستخراج كنز عظيم كانت العجوز قد أوهمته بأنه مدفون فى أحد أركان بيته ولا توجد طريقة لاستخراجه سوى الموصى بها .

(٣٥) تحقق النقاد والمؤرخون من شخصية " تريجيوس " هذا ، وأثبتوا أنه كان يعيش فعلاً فى مدينة إشبيلية ويمارس صنعة المذكورة بها عام ١٥٩٩ م . (المترجم)

عندما سمع صانع القبعات أجراس الكنيسة تعلن انتصاف الليل ، دفعته لهفة الخروج في الوقت المناسب إلى الارتطام بأحد جوانب الخابية فسقطت وهو بداخلها على الأرض. تناثرت الخابية أشلاءً مفرّغة محتواها على الأرض و " تريجيوس " وسط الماء يسبح مشوشاً - من هول السقطة ومن آلام الرضوض التي أحدثتها الشظايا بجميع أجزاء جسده - ويصرخ مستغيثاً لينقذوه من الغرق.

حضرت زوجته على الصراخ ولحق بها الجيران وبأيديهم القناديل فوجدوه منهمكاً في تأدية حركات العائم : يشهق ويزفر بعمق ، يجرجر بطنه على الأرض وهو يحرك بأقصى سرعة ساعديه ورجليه وينادى بأعلى صوته : " النجدة ، النجدة ، إني أغرق " .. لقد بلغ به الذعر مبلغاً جعله يتصور أنه يغرق بالفعل. أمسكوا به وانتشلوه من بين براثن ذلك الخطر ، وعندئذ ثاب إلى رشده وقص عليهم تعليمات الغجرية. ومع أنهم أخبروه أنها مجرد مزحة سخيفة إلا أنه نهض من فوره وشرع يحفر بهمة في المكان الموصى به ، ولو لم يتداركه أحد الجيران ويمنعه بالقوة من مواصلة الحفر في الأساسات لانهار البيت بكامله فوق رؤوسهم جميعاً. انتشرت أنباء تلك الواقعة في كافة أنحاء المدينة لدرجة أن الصبيان كانوا يشيرون إليه بأصابعهم حين يرونه ويتعجبون من حمقه ومن شدة دهائى وخبثى.

ما روته الغجرية العجوز كان عذراً أكثر من مقبول لعدم الذهاب إلى إشبيلية ؛ ومن جهة أخرى فقد أسال المبلغ الكبير الذى يحمله الشاب لعاب الغجر ، ومن ثم فقد أعربوا دون تردد عن الترحيب به ضيقاً على مخيمهم ، وأبدوا استعدادهم لضمان سلامته وإخفائه طيلة الوقت الذى يريده ، بل إنهم تطوعوا بتغيير مسار رحلتهم والانحراف جهة اليسار لاختراق إقليم " لامنتشا " والوصول به إلى مملكة مرسية.

نادوا بعد ذلك على الشاب وأخبروه بما سيفعلونه من أجله ، فشكرهم على حسن صنيعهم وأعطاهم على الفور مائة إسكودو لاقتسامها فيما بينهم.

كان لهذه المنحة مفعول السحر فى نفوس الغجر فأصبحوا يعاملونه بكل لطف ولين ولا يدخرون وسعاً فى العمل على راحته .. أما بريثيوتا فلم تكن مستريحة لوجود هذا الشاب الذى تبين أنه يدعى " دون سانتشو " ، لكن الغجر أطلقوا عليه " كليمنتي " وظلوا ينادونه به . أندريس أيضاً لم يسر كثيراً ببقاء كليمنتي لاعتقاده أنه لم يبرأ تماماً من إعجابه القديم ولم يتخلص من كافة رواسبه . كان كليمنتي من الذكاء بحيث أدرك

ما يعتمل في صدر أندريس ، ومن ثم فقد انتهاز فرصة حديث مطول معه ليصرح له وسط الكلام بأن غاية همه هو الذهاب إلى مملكة مرسية ليستقل من مينائها في قرطاجنة سفينة من السفينتين المتجهتين إلى إيطاليا. ومع هذا لم يسكن روع أندريس ولذا حرص على أن يكون زميله المصاحب له في الحلّ والترحال حتى لا يغيب عن عينيه ويستطيع مراقبة حركاته وسكناته. شكر له كليمنتي هذا الصنيع دون أن يفتن إلى دواعيه. المهم أنهما أصبحا متلازمين منذ تلك اللحظة : كانا ينفقان بسخاء ويتصدقان عن سعة، يشتركان معاً في الرقص وفي مسابقات العدو والوثب ورمى الزانة التي أظهرها فيها براعة منقطعة النظير ، ولهذه الأسباب مجتمعة هفت إليهما قلوب الغجريات واستأثرا باحترام رجالهن.

تركوا إقليم "إكستريمادورا" ودخلوا إقليم "لامنتشا" ، وبين توقف وسير على الطريق المؤدى إلى مملكة مرسية أخذوا يقترّبون منها رويداً رويداً . وفي جميع القرى والأماكن التي يمرّون بها كانت المسابقات تعقد (في لعب الكرة والمبارزة بالشيش والعدو والقفز وبقية ألعاب القوى التي تتطلب مهارة وخفة) التي بات الفوز فيها حكراً على أندريس وكليمنتي (مثلما كانت من قبل حكراً على أندريس) .. لم يجد كليمنتي طوال تلك الفترة التي زادت عن شهر ونصف أية فرصة (والحق يقال إنه لم يسع أيضاً لاختلاقها) للكلام مع بريثوثا أو التوجه إليها بالحديث. وبينما كانت واقفة ذات يوم مع أندريس نادى عليه الأخير عندما شاهده يمر على مقربة منهما. لبي كليمنتي النداء ، وعندما وصل إليهما قالت له بريثوثا:

- عرفتك ياكليمنتي أول مرة رأيتك فيها داخل مضارينا وتذكرت أشعارك التي كتبتها لي في مدريد، وإذا كنت لم أقل عنك كلمة ساعتها فهذا لأنني لم أكن أعرف ما وراءك. آلمني في الصميم خبر نكبتك وإن كان قد أعاد الطمأنينة إلى قلبي الذي سيطر عليه الفرع لاعتقاده أن بإمكان "دون سانتشو" انتحال شخصية أخرى مادام "دون خوان" قد تحول قبله إلى أندريس. دفعني لقول هذا علمي من أندريس أنه كشف لك عن حقيقته وعن الدافع لاتخاذ حياة الغجر ، ويبدو أنه أطلعك على سرّه ليستطيع التشاور معك وتبادل الأفكار حول هذا الموضوع. لا تظن ياكليمنتي أن معرفتي السابقة بك ضاعت هباءً ، يكفي أن احترامي لك وما أثبتت به عليك كان

سبباً فى بقائك بين ظهرانينا ، وإنى لأضرع إلى الله بأن توفر لك الإقامة فى مضاربنا الحماية التى تنشدها وتحقق من خلالها أمانيك وما تسعى جاهداً إليه . وفى مقابل هذا الشعور الطيب من جانبى أتوسل إليك ألا تسفه أحلام أندريس وألا تعكر عليه صفو استمرار وضعه الحالى ، فأنا رغم اعتقادى أن إرادته تزرع مستكنة تحت أقفال إرادتى إلا إنه يحزننى أن أرى منه بادرة - ولويسيرة - تتم عن إحساسه بالندم .

قال كليمنتى عندئذ :

- لا تظنى ، أيتها الجوهرة الفريدة ، أن أندريس كشف لى عن هويته لتخاذل اعتراه : هذا لأننى الذى تعرفت عليه أولاً ، ومن عينيه قرأت ما يرمى إليه . أنا الذى بادرت بإخباره من يكون ، وتكهنت بالغل الذى يطوق إرادته ، وقد تصرف هو طبقاً لما يمليه العقل والمنطق وأصدقنى الجواب ، فما كان منى إلا أن قمت - وهو على هذا خير شاهد - بالثناء على قراره واختياره . أنا - آه ، يا بريثيوثا ! - لست من السذاجة بحيث لا أدرك إلى أى مدى يمكن أن تتسع سطوة الجمال ونفوذه ؛ وجمالك يعتبر - لتجاوزه أقصى الحدود الممكنة للجمال - أشد الأعذار قبولاً لارتكاب أعتى الأغلاط ، هذا إن حق لنا إطلاق لفظ أغلاط على التصرفات التى تفرضها الأسباب القهرية .. أشكر لك ، ياسيدتى ، ما قلته فى حقى ، ولا أملك الآن لرد هذا الجميل سوى أخلص الأمانى بالخاتمة البهيجة لقصة حبكما المعقدة ، وأن تسعدى بأندريس كما يسعد بك فى ظل موافقة ورضا والديه ؛ فتزواج الجمال بنظيره يعنى إمداد العالم بأجمل الأفراخ (الأطفال) ، وهكذا تنعم الطبيعة بما تنشده من حسن وبهاء . هذا ما أتمناه لكما يا بريثيوثا ، وهذا ما سأقوله دوماً لأندريس ، ولن يرد على لسانى شىء يعكر صفو نواياه الرائعة الراسخة .

ساور الشك أندريس فى كلام كليمنتى السابق ، ولم يعد يدرى إذا كان قد تفوه به من منطلق هيامه أم من منطلق فطنته وتهذيبه ، ذلك لأن آفة الغيرة الجهنمية غاية فى الدقة بحيث تلتصق بذرات أشعة الشمس ، وعندما تسقط هذه الذرات على الشىء المحبوب تصيب من يقترب منه بالإجهاد والقنوط . ورغم ما تقدم ذكره إلا أن غيرة أندريس لم يكن لها ما يبررها ؛ لكن هذا هو حال العاشقين الذين يعتبرون أنفسهم

تعساء دائماً طالما أنهم لم يظفروا بما يلهثون وراءه . خلاصة القول أن أندريس وكليمنتي أصبحا زميلين وصديقين عزيزين ، وهذا بفضل نوايا كليمنتي الحسنة وخفر بريثيوتا اللذين تكفلا بواد أية فرصة يمكن أن توظف الغيرة في صدر حبيبها .

كانت موهبة الشعر ترفرف بجناحيها على كليمنتي (كما تشهد بذلك القصيدتان اللتان أهداهما لبريثيوتا) وتداعب أندريس من عل ؛ لكن الاثنين كانا مغرمين بالموسيقى وعازفين ماهرين على آلاتها . ذات ليلة ، بينما كان أندريس جالساً على جذع شجرة فكّين وكليمنتي على جذع شجرة بلوط ، ساهرين يتجاذبان أطراف الحديث في مخيمهم المنسوب بوادٍ يبعد أربعة فراسخ عن مرسية ، دعاهما صمت الليل وسكونه إلى أن يمسك كل منهما بـ " جيتار " والتغنى - على التوالي - بهذه الأشعار :

أندريس

تأمل ، ياكليمنتي ، الطُّرحة المنجومة

التي ينافس بها النهار

هذه الليلة الباردة

في ترصيع السماء بالأضواء المتأللة

لو شحذت قريحتك البارعة ،

لرأيت على هذا الأنموذج ،

ذلك الوجه يظهر

على ديباجة الجمال الأمثل .

كليمنتي

على ديباجة الجمال الأمثل

حيث توجد بريثيوتا الشهيرة ،

العفة الأثيرة

في سخاء تنقى وتطهر ،

لو اتسعت لمثلها جنبات كائن حي ،

لن توفيهما حقها من المديح عبقرية بشرية

ما لم تطلق لنفسها العنان
لتخوض فى الأعلى ، فى الغرائب والأعاجيب .

أندريس

لا يخوض فى الأعلى ، فى الغرائب والأعاجيب
إلا أسلوب لم يطرق بعد ،
ممتداً إلى عنان السماء ،
فى صراط لم يشهده العالم أجمع ،
اسمك ، آه يا بريثوثا ! ،
يثير الدهشة والفرح والإبهار ،
أتمنى أن تحمله الشهرة
إلى السماء السابعة .

كليمنتي

حملهُ إلى السماء السابعة

مناسب وعادل ،
فعندما يتردد هنالك
يفيض الحبور على ما تحتها من سماوات ،
وفى الأرض أينما يسمع صداه ،
تنساب المتعة
موسيقى فى الآذان ،
سكينة فى الأرواح ونعيماً فى الحواس .

أندريس

سكينة فى الأرواح ونعيم فى الحواس
هكذا الإحساس عندما تصدح بالغناء
جنّة البحر ، التى تسجر الأبواب
وتخدّر الجفون الأشدّ سهاداً
هكذا تكون بريثوثتى ،

جمالها بعيض ما عندها :
عطيتى اللذيذة ،
إكليل للملاحة ، إجلال للحماسة .

كليمنتي
إكليل للملاحة ، إجلال للحماسة
تكونين ، غجرية جميلة ،
نضارة الصباح ،
فى الصيف القانظ النسائم العليلة
شعاع به يحول الحب الأعمى
برودة الصدور إلى غليان القدور
القوة التى صاغتها على هذا المذوال
تميت برفق وتبعث السرور .

لم يكن يبدو أنهما سينتهيان سريعاً لو لم يسمعا صوت بريثيوثا يجلجل خلف
ظهريهما . توقفا وأصاخوا السمع للقصيدىة التى تتدفق على لسانها العذب . ولأن
موضوع القصيدة كان مناسباً للموقف ويعتبر رداً على أشعارهما السابقة ، فلا أدري إذا
كانت مرتجلة أم أنها حفظتها من قبل عن شاعر آخر . وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فها
هى القصيدة التى تغنت بها :

- فى قضية الحب تلك
التي نلهو بها ونتسلى ،
عفا فى لحسن طالعى
أعلى شأناً من جمالى .
فالنبتة الأشد ضعفاً
لونمت فى استقامة دون اعوجاج ،
بفضل الله أو الطبيعة
سترقى يوماً إلى عنان السماء .
معدنى النحاسى المتواضع
مادامت العفة طلاءه

لم تعد تنقصه الأمانى
ولا هو بحاجة إلى الثروات.
لا يسبب لى أدنى كدر
ألا يهوانى أحد أو يقدرنى حق قدرى
لأننى على يقين أن الذى صاغنى
هو نصيبى وحظى الأسعد.
أهتدى بما هو مكنون بداخلى
لأنه إلى جادة الصواب سيرشدنى
وليس لى بعد ذلك الاعتراض
على تدبير السماء وما تخطه الأقدار.
ليتنى أعرف وأتحقق
مما إذا كان بمقدور الجمال
حملنى إلى القمة العالية
حيث تشرئب النفس إلى المنزلة السامية .
إذا كانت الأرواح فى الخلق متساوية ،
فلن تعجز الكائنة فى صدر الفلاح
عن الرقى فى الفضل والقيمة
إلى مصاف أرواح الأباطرة .
أحس بأن روحى توافة
للسمو إلى الدرجة العلية
والحب والجلال
على مقعد واحد لا يستويان .

عندما انتهت بريثوثا نهضا لاستقبالها ، وأمضى ثلاثتهم بعض الوقت فى تبادل
الأحاديث المترنة المتعلقة . ومن مداخلات بريثوثا التى تنم عن الفطنة والعفة وحدة
الذكاء وضح لكليمنتى سر تمسك صديقه بها والتمس له العذر فيما عقد عليه العزم ،
وقد كان حتى تلك اللحظة متحيراً من مسلكه هذا ويظنه استجابة لطيش الشباب لا
لنداء العقل والحكمة .

للملأوا حاجياتهم فى صباح اليوم التالى ويمموا شطرقرية من أعمال مرسية ولا يفصلها عنها سوى ثلاثة أميال ، وبها حلت بأندريس كارثة كادت تودى بحياته .. حدث بعد قيامهم - كما جرت العادة - بتقديم عدد من الأكواب والتحف الفضية لإقامة مضاريهم بالقرية أن توجهت مجموعة تضم بريثيوثا وجدتها وكريستينا وغجريتين أخريين علاوة على أندريس وكليمنتي إلى خان أرملة غنية لها ابنة وحيدة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً على الأكثر وتدعى "خوانا" . كانت الفتاة قليلة الحياء بعض الشيء ولا تنعم بحظ من الجمال ، وفوق هذا عجفاء ولذا استحققت بجدارة لقب "كاردوتشا" (٣٦) الذى أطلقوه عليها..حين شاهدت الفتاة العجبر يرقصون عشقت أندريس وجن جنونها به . زين لها الشيطان ضرورة الانفراد به للإفصاح عما يعتمل بصدرها من أشواق ولطلب الزواج منه ، إذ كانت تنوى المضى قدماً فى تنفيذ رغبتها رغم أنف أهلها ؛ وهكذا انتهزت فرصة دخوله الحظيرة لإحضار جحشين منها وتسالت خلفه لتعرض عليه دون مقدمات - خوفاً من اقتحام أحد خلوتها - ما يلى :

- أندريس (نادته باسمه مجرداً) ، أنا آنسة غنية ، وحيدة أُمى التى تمتلك هذا الخان فضلاً عن مزارع عديدة من الكروم وبيتين آخرين . أرغب فى الزواج منك لو وافقت . أريد الرد حالاً إن تيسر ، أما إذا كان حياؤك يمنعك الآن من التصريح بالموافقة فإننى سأعتبر اختيارك للبقاء وعدم الرحيل بمثابة موافقة ضمنية ، وثق تماماً أنك لن تندم طيلة حياتك على اتخاذك مثل هذا القرار الإيجابى .

بُهِت أندريس من جرأة الفتاة ورعونتها ، وفضلَ الإجابة عليها بالسرعة التى تنشدها :
- أنا ، أيتها الفتاة ، عازف عن الزواج ، وحتى لو لم أكن كذلك فنحن معاشر العجبر لا نتزوج إلا فيما بيننا . أما المعروف الذى تتفضلين به على ولا أستحقه فلا أملك حياله سوى التوجه إلى الله بالدعاء لكى يجزلك عظيم ثوابه .

(٣٦) "كاردوتشا" Carducha تعنى ممسطة أو مندفة من الحديد . (المترجم)

صعقتها إجابة أندريس وكانت على وشك الرد عليه لو لم تدخل عليهما الحظيرة طائفة من الغجريات. انسحبت وهي تشتاط غضباً وفي نيتها الانتقام للإهانة ..

أملت الحكمة على أندريس ضرورة الفرار على جناح السرعة وحثّ جن سليمان على حمله إلى أرض غير الأرض لأنه قرأ في عيني "كاردوتشا" عزمها على تسليم نفسها له حتى بدون عقد زواج ؛ ومن ثم فقد أزمع ترك ساحة النزال والنكوص على عقبيه مولياً الأدبار.. طلب من قومه في تلك الليلة ضرورة مغادرة المكان ، فلم يعصوا له - كالعادة - أمراً. وعلى هذا استعدوا صبيحة اليوم التالي للرحيل بعد استردادهم للرهن الذي قدموه نظير إقامتهم بتلك القرية المشلومة .

ولما أبصرت "كاردوتشا" أحلامها تتهاوى ورغباتها تتبخّر برحيل أندريس قررت العمل على إبقائه بالقوة مادامت لم تستطع بالطرق الودية. وهكذا استعانت بكل ما أسعفها به خيالها المريض وهذتها الحيلة إلى دسّ بعض حليها (خرز ، دبابيس وخلخالين من الفضة) في رحل أندريس. لم يكد الغجر يغادرون الخان حتي زعقت بأعلى صوتها متهمة إياهم بسرقة أغراضها الشخصية ؛ وعلى صراخها تجمع رجال العدالة وجميع من بالقرية من سكان.

أمسك الغجر عن السير ، وأقسموا جهد أيمانهم بالبراءة وطهارة اليد ، كما أعربوا عن استعدادهم لتفتيش رجالهم وكافة متعلقات المخيم. اغتمت الغجرية العجوز لخوفها من أن تظهر عملية التفتيش حاجيات بريثوثا الخاصة وملابس أندريس وقد اجتهدت في إخفائهما عن كافة العيون .. كانت "كاردوتشا" تنتظر متوثبة ، وعندما وصلوا إلى الرّحل الثاني طلبت من المفتشين السؤال عن صاحبه لأنها رأت مرتين ذلك الرّاقص الرشيق يتسلل خارجاً من غرفتها ومن المحتمل أن يكون هو الفاعل . عندما أدرك أندريس أنها تقصده ضحك قائلاً:

- أيتها الأنسة الموقرة ، هذا هو رحلي وهذا حماري ، لو عثرت على ما ينقصك سأعوزك بسبعة أمثاله نقداً وسأقبل بصدري رحب العقوبة التي يوجبها القانون على اللصوص.

قلب مسئولو العدالة رحل أندريس ، وما هي إلا لحظات حتى عثروا على المسروقات. ألجمت الدهشة لسان أندريس وبدأ مثل تمثال من الحجارة الصماء.

- ألم تكن شكوكى فى محلها ؟ - قالت كاردوتشا فى نبرة تهكم - من كان يظن أن هذا الوجه البريء يخفى وراءه لصاً مخضرمًا !

انبرى العمدة - الذى كان حاضراً - فى سب أندريس وبقية الغجر بأقذع الشتائم ونعتهم باللصوصية وقطع الطريق . لم يكن أندريس قد أفاق بعد من دهشته ، وظل مطرقاً يفكر دون أن يفطن إلى الخديعة . تقدم ابن أخت العمدة - وهو شرطى عبوس متين البنيان - ليدلى بدلوه هو الآخر . قال :

- ألا ترون ما حل بهذا الزنيم حين بانته فعلته الكريهة ؟ ومع أننا ضبطناه متلبساً أراهن على أنه لن يتورع عن الحلف بأغلظ الإيمان نافياً التهمة عن نفسه ؛ ما خلق هؤلاء إلا للعمل على مجاديف السفن . أليس من الأفضل لمثل هذا الوغد الخدمة على سفن صاحب الجلالة بدلاً من التسكع بالرقص وممارسة هوايته فى النشل هنا وهناك ؟ إن شرف الجنديّة يحتم على أن أصفه صفة تكومه تحت قدمي .

قال ذلك ثم رفع - دون مقدمات - كفه الضخم وهوى به على وجه أندريس الذى أعادته اللطمة من شروده وجعلته يتذكر أنه "دون خوان" الفارس المقدم ، لا ذلك الغجرى المدعو "أندريس كاباييرو" . هجم حانقاً على الشرطى ، وفى طرفه عين امتدت يده لتستل سيف غريمه من غمده وتطعنه به طعنة أسقطته على الأرض ميتاً .

حدث هرج ومرج شديدان : تكهرب العمدة (خال القتيل) ؛ سقطت پريثيوثا مغشياً عليها وأريكت بإغمائها حبيبها ؛ أخرج الناس أسلحتهم وطاردوا القاتل .. زادت البلبلة ؛ تعالى الصياح ؛ ولانشغال أندريس بپريثيوثا أهمل الدفاع عن نفسه ، وشاء حظه العائر ألا يكون كليمتى حاضراً لأنه كان قد سبقهم إلى الخروج ومعه بعض الحاجيات .. تكاثرت المتحمسون على أندريس المرتبك وأوقعوا به فى النهاية وقيده بسلاسل غليظتين . لو لم تكن القرية واقعة فى دائرة مرسية القضائية لأشفى العمدة غليله وشنق القاتل بيديه . لكنهم لم يحملوه إلى مرسية فى اليوم نفسه بل فى اليوم التالى ، وخلال تلك الفترة التى ظل فيها محجوراً بالقرية ذاق - على يد العمدة المتوثب وزبانيته وكافة السكان - شتى صنوف التعذيب والإهانات .. قبض العمدة

على من طالته يده من الغجر بينما تمكن آخرون (من بينهم كليمنتي الذي خاف من
افتصاح أمره لو أمسكوا به) من الفرار بجلودهم ..

فى اليوم التالى ، وفى حراسة العمدة ومساعديه ومتطوعين مسلحين ، اتجهت إلى
مدينة مرسية قافلة (٣٧) تضم المقبوض عليهم من الغجر تتوسطهم بريثيوتا وأندريس
الذى كان ممتطياً حماراً ومطوّقاً بالأغلال والسلاسل. خرجت المدينة عن بكرة أبيها
لرؤية السجناء بعدما وصلها خبر جريمتهم ، ولم يشاهد فرد فيها جمال بريثيوتا إلا
ولهج بالثناء على قدرة الخالق وبديع صنعه .. دفع الفضول امرأة القاضى لرؤية الفتاة
التي يسبح الناس بحمد جمالها ، ومن ثم فقد طلبت من زوجها عدم الزج بها فى
السجن مع الآخرين وإحضارها إلى بيته .. حبسوا أندريس فى زنزانة ضيقة مظلمة
تصور أنه لن يخرج منها إلا إلى مثواه الأخير فى لحدٍ تحت الأرض. حملوا بريثيوتا
وجدتها إلى امرأة القاضى التي استقبلت الفتاة بقولها:

- لديهم كل الحق فى الإشادة بهذا الجمال الرائع .

احتضنتها زوجة القاضى وظلت تحديق فيها لفترة طويلة ، ثم التفتت إلى جدتها
وسألتها عن عمرها:

- خمسة عشر عاماً - أجابت العجوز - ، قد تزيد شهرين أو تنقص مثلهما .

- إنه عمر ابنتى كوستانثا لو كانت على قيد الحياة . آى ، صديقتى ! لقد
أثارت هذه الفتاة شجونى وجددت أحزانى - قالت زوجة القاضى .

أخذت بريثيوتا يديها وغمرتهما بالقبلات راجية متوسلة :

- سيدتى الفاضلة ، الغجرى السجين لا ذنب له ، الآخر هو الذى استثاره :
ناداه باللص وهو ليس كذلك ، صفعه على وجهه فتحركت نخوته ولم
يتمالك نفسه . استحلفك بالله ياسيدتى أن تطلبى من القاضى تأجيل
محاكمته وعقابه . إذا كان لجمالى شفاعة عندك لا تجعله يعجل بالخلاص
منه لأن حياتى مرتبطة بحياته . كان سيصبح زوجى لولا بعض العوائق

(٣٧) قافلة Cáfila من المفردات العربية التى احتفظت بها اللغة الإسبانية ، وقد استخدم الكاتب الكثير من
هذه المفردات فى جميع أعماله مما يشير إلى ذبوعها فى عصره ، ولذا نوجه عناية الدارسين إلى
أهمية هذه الظاهرة فى مؤلفات كاتب كبير مثل ثريانتس . (المترجم)

التي منعنا حتى الآن من تتويج تعاهدنا بالزواج. لاشك أنك تعرفين ،
ياسيدتي ، معنى الحب ولوعة الفراق ، فأنت زوجة وكنت خطيبة ، ولذا
ستأخذك الشفقة بي لو عرفت أنني أحب السجين حباً طاهراً عفيفاً .

كانت بريثيوتا تقول لها هذا وهي متشبثة بيديها ، تحمق فيها والدموع تنساب
بغزارة من مقلتيها ؛ ولم تكن امرأة القاضي أقل منها تشبثاً وتحديقاً ودموعاً . فوجئ
القاضي عند دخوله عليها بهذا المشهد الحزين الباكي وبجمال العجيرة الصارخ
فاعترته الدهشة. سأل عن سر هذه المناحة ، فما كان من بريثيوتا إلا أن تركت يدي
امرأته لتمسك بقدميه وهي تقول له :

- الرحمة ياسيدتي ، الرحمة ! لو ماتت العجيرة ستقبض روجي معه إلى بارئها .
إنه بريء . أنا المذنبة ، وإذا لم تستطع محاكمتي بدلاً منه فلترجئ النظر في
قضيته لعل السماء تأتي بالفرج ونتمكن من الاهداء إلى الوسائل الناجعة
لتبرئته .

تجددت دهشة القاضي من جراء كلامها الرشيد الموجه ، ولو لم يتمالك نفسه
لاعتراه الضعف وشاطرها البكاء . كانت العجيرة العجوز مطرقة الرأس ، تناوشها
الأفكار ، وبعد كثير من إعمال الفكر والتدبر خرجت من صمتها المطبق بقولها :

- على رسلكم أيها السادة ، فلربما كان بوسعي - رغم احتمال خطورته على
حياتي - تحويل هذا البكاء المر إلى بهجة وسعادة .

خرجت متعجلة وتركت الحاضرين مشوشين ، يضربون أخماساً في أسداس . لم
تكف بريثيوتا عن البكاء والتوسل بإرجاء محاكمة أندريس ، وفي نيتها إبلاغ والده بما
حدث واستعجال قدومه .. عادت العجوز وهي تتأبط صندوقاً صغيراً وطلبت الانفراد
بالقاضي وزوجته لاطلاعهما على سر خطير . ظن القاضي أنها تريد الكشف عن
بعض المسروقات التي تفيد في نظر قضية السجين ، وما إن خلت بهما العجوز في
غرفة مستقلة حتى جثت على ركبتيها أمامهما وقالت :

- إذا لم يكن السر الذي أبوح به الآن يستحق إعفائي من الجرم الذي اقترفته
ذات يوم فأنا على أتم الاستعداد لقبول العقوبة التي ترونها ؛ لكن قبل هذا ، ألا يمكنكما
التعرف على محتويات هذا الصندوق ؟

وضعت الصندوق الخاص بـبريثوثا بين يدي القاضي ، وعندما قام بفتحه لم يجد سوى بعض الحلوى الصغيرة التي تخص البنات حديثات العهد بالولادة . لم يظن إلى العلاقة بين محتوياته وبين السر الذي تتحدث عنه . نظرت إليها زوجته ولم تدرك هي الأخرى ما وراءها من أسرار ، ولذا لم تعلق على ما رآته بأكثر من الآتي :

- إنها تخص طفلة صغيرة .

- إنا حقاً كذلك ياسيدتي - ردت العجوز - ؛ لكن عن أية طفلة تتحدث هذه الورقة المطوية ؟

تناولها القاضي بسرعة وقرأ ما يلي :

"اسم الطفلة : دونيا كوستانثا دي أنثيدو إى دي مينيثيث . الأم : دونيا جيومار دي مينيثيث . الأب : دون فرناندو دي أنثيدو ، فارس أخوية قلعة رباح . اختفت الطفلة من بيت أبيها ومعها صندوق حلّيتها يوم صعود الرب ، فى الثامنة صباحاً ، عام ألف وخمسمائة خمس وتسعين" .

تعرفت امرأة القاضي - فور سماعها للمدون فى الورقة - على الحلوى الصغيرة . رفعتها عندئذ إلى فمها وراحت تقبلها آلاف المرات ، ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها . خف القاضي لنجدتها ونسى سؤال العجربة عن ابنته ، وعندما ثابت الزوجة إلى رشدتها سألت :

- أينها المرأة الطيبة والملاك الهابط من السماء ، أين صاحبة هذه الحلوى ؟

- وأين ستكون ياسيدتي ؟ - ردت العجربة - إنها هنا ، فى بيتكم : العجربة الصغيرة التي انتزعت منكم الدموع هي صاحبة الحلوى وابنتكم دون أدنى شك ، لقد سرقته من بيتكم فى مدريد فى التاريخ الموضح بالورقة .

حين سمعت هذا السيدة المضطربة المشوشة قفزت حافية إلى الصالة حيث تركت بريثوثا فوجدتها محاطة بوصيفات البيت وخادمانه ، مازالت تبكى . اقتربت منها ، ودون أن تنطق بكلمة كشفت - فى لهفة - عن صدرها وبحثت تحت نهدها الأيسر عن علامة صغيرة ، على شكل شامة بيضاء كانت مولودة بها ، فوجدتها فى مكانها كبيرة ومنبسطة بفعل مرور الزمن . قامت بعد ذلك - وباللهفة نفسها - بخلع الفردة

اليمنى من حداثها فكشفت عن قدم من الثلج والعاج ورأت فيه ما كانت تبحث عنه :
لحمة تصل بين الإبهام والسبابة كانوا قد تركوها هكذا ، دون إزالة ، حرصاً منهم
على عدم إيلاهما بجراحة فى تلك السن الصغيرة .. من توافر كل هذه الأدلة (الشامة ،
اللحمة ، الحلى الصغيرة ، اعتراف العجربة ، الورقة التى تشير إلى تاريخ سرقتها ،
وفوق هذا وذاك الإحساس بالفزع والنشوة عند رؤيتها) وقر فى قلب امرأة القاضى
وعقلها أن پريثيوتا هى ابنتها دون شك ؛ وهكذا قامت على الفور باحتضانها والعودة
بها إلى حيث ينتظر القاضى والعجربة العجوز.

مشت پريثيوتا مع امرأة القاضى ذاهلة : من التفتيش الغريب الذى خضعت له ،
ومن تأبطها لذراعها ، ومن غمرها بآلاف القبلات . وصلت "دونيا جيومار" بالحمولة
الرائعة الجميلة إلى زوجها وألقتهما بين ذراعيه قائلة :

- استلم ابنتك "كوستانثا" . إنها هى ، لا جدان ، لا يخامرني أدنى شك فى
تلك الحقيقة لأننى شاهدت الإصبعين الملتصقين وشامة الصدر ، ناهيك عما
تحدثنى به نفسى منذ اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليها .

- لا أشك فى هذا - أجاب القاضى وپريثيوتا بين ذراعيه - فقد خامرنى
الإحساس نفسه ، لكن كيف يمكن للعديد من البراهين والأدلة القطعية
الاجتماع فى وقت واحد ، ألا يعتبر هذا من قبيل المعجزات ؟

أشكل على جميع أهل الدار وطفقوا يسألون بعضهم البعض عن حقيقة ما يجرى
حولهم ، لكن تفسيراتهم كانت جميعها طائشة ومجافية للصواب . أكان باستطاعة أحد
تصور أن تلك العجربة الباكية ما هى إلا ابنة صاحبى الدار ؟ !

طلب القاضى من امرأته وابنته والعجربة العجوز كتمان السر حتى يتولى هو
الكشف عنه ، كما هدأ من روع العجوز وأخبرها بتغاضيه عن الضر العميم الذى
ألحقته به نتيجة لسرقتها حشاشة قلبه ، لأنه وإن كان بالغاً إلا أن الفرحه بعودتها إليه
قد تعدله ، لكنه وبخها على تزويجها من عجربى لص وقاتل وهى تعلم طيب مبيتها
وعراقة أصلها .

- آه ، ياسيدى - قالت پريثيوتا - ، ما هو بلص ولا عجربى ، وإن كان قاتلاً
فلأن الآخر هو الذى اعتدى على شرفه ودفعه دفعاً لرد اعتباره .

- كيف لا يكون غجريا ، يابنتى ؟ - سألت "دونيا جيومار" .

تصدت الغجرية العجوز للإجابة وروت بإيجاز حكاية "أندريس كاباييرو" وقالت إن اسمه الحقيقي "دون خوان دى كاركامو" ، ابن "دون فرانثيسكو دى كاركامو" ، وأنه مثل أبيه فارس فى أخوية "سنتياجو" المقدسة ، وأنها مازالت تحتفظ بملابسه الأصلية. كما أشارت إلى الاتفاق المبرم بين بريثيوثا وبين "دون خوان" بشأن فترة الاختبار التى تمتد سنتين ، وعلى ضوءها يقرران الزواج من عدمه. ولم تغفل إبراز عفة الاثنين وطهارتهما وسعة ثراء "دون خوان" وكرم أصله.

أثارت القصة دهشتها مثلما أثارتها من قبل كيفية العثور على ابنتهما. أمر القاضى العجوز بإحضار ملابس "دون خوان" . خرجت ثم عادت بصحبة غجرى آخر يحمل الملابس.

فى الفترة التى قضتها العجوز بالخارج لإحضار الملابس تلقت بريثيوثا من والديها أسئلة لا تحصى. كانت إجاباتها الفطنة الذكية كفيلة بأن تجعلهما يحبانها ويتعلقان بها حتى ولو لم يكتشفا أنها ابنتهما. سألاها - على سبيل المثال - عن شعورها تجاه "دون خوان" فقالت إنها تقدر فيه سلوكه الرشيد وتفانيه فى خدمتها وتحولّه (على ما فيه من إهانة لشخصه الكريم) إلى غجرى من أجل إرضائها ، وبرغم كل هذا فإنها ستدعن ممتنة لإرادة والديها ولما يقررانه بشأنها.

- كفى يا بريثيوثا يابنتى - قال أبوها - أريد أن تحتفظى بهذا الاسم تخليداً لذكرى فقْدك والعثور عليك ، ولن أدخر وسعاً من جهتى لتعويضك عما فاتك.

تنهدت بريثيوثا ، فأدركت أمها - بحسها الأنثوى - أنها تنهيدة حب لدون خوان ، وعندئذ قالت لزوجها :

- إذا كان "دون خوان" سيداً من السادة ويحب ابنتنا بهذا الشكل ، فما المانع من تزويجها له ؟

رد عليها القاضى بقوله :

- أتريدى أن نفقدها ثانية يوم عثورنا عليها ؟ دعينا نستمتع بها لبعض الوقت. لو زوجناها الآن لن تكون لنا ، بل لزوجها.

- معك الحق كله - قالت زوجته - لكن مرّ - على الأقل - بإخراج "دون خوان" ، لا بد أن المسكين يعاني داخل زنزانه كريهة.

- صدقت يا أمّاه - قالت بريثيوثا - ، فلن يُنزلوا لصاً قاتلاً ، وفوق هذا غجرياً ، إلا أحقر المنازل وأبشعها.

- سأذهب لرؤيته بحجة أخذ اعترافه - قال القاضي - ، وإياكم وإفشاء مضمون هذه القصة قبل أن آذن لكم.

عانق ابنته ثم ذهب إلى السجن ، دخل بمفرده زنزانه "دون خوان" فوجده مقيد اليدين والرجلين بالسلاسل والأصفاد والطوق الحديدي مازال جاثماً حول رقبته .. كانت الزنزانه مطبقة الظلام فأمر - حتي يراه - بفتح كوة عالية كانت بها. عندما شاهده على الضوء الخافت المتسلل من الكوة قال له :

- كيف حال الزنزانه الطيبة ؟ لو حبست فيها الغجر الموجودين بإسبانيا لتخلصت منهم جميعاً دون جهد أو عنّت مثلاً أراد "نيرون" أن يفعل بمدينة روما. اعلم ، أيها اللص القاتل ، أنني قاضي المدينة وقد أتيت لأعرف منك إذا كانت إحدى الغجريات التي قدمت معكم هي فعلاً زوجتك.

حين سمع هذا أندريس ظنّ أن القاضي وقع في غرام بريثيوثا ، هذا لأن الغيرة كائن دقيق بإمكانه التسلل إلى بقية الأجساد دون تحطيمها ، والحلول بها دون تفتيتها ، ورغم هذا أجابه:

- لو قالت إنها زوجتي فهي صادقة ، ولو قالت غير هذا فهي أيضاً صادقة ، فمن المستحيل أن يجرى الكذب على لسان بريثيوثا.

- أهى صادقة إلى هذا الحد ؟ - سأل القاضي - أليس هذا بكثير على غجرية مثلاً ؟ حسناً ، أيها الفتى ، لقد أخبرتني أنها زوجتك لكنها لم تعطك يدها ، ولذا طلبت مني إتمام زواجكما بعدما أيقنت أنك ستموت عقاباً على جريمتك. يبدو أنها تريد أن تنعم بشرف الترمّل من لص كبير مثلك.

- أتوسل إليك أن تلبى رغبتها ، فلو تزوجتها سأرحل سعيداً إلى العالم الآخر.

- أحبها كثيراً ؟

- نعم - أجاب السجين - وإن كانت كلمة كثيراً لا تفي بالمعنى هنا . حقاً ، أيها القاضي ، إن نهايتي غدت وشيكة . لقد قتلت ذلك الشرطي الذي اعتدى على شرفي ، ولا أنكر هيامي بتلك العجربة ، ولذا سأموت راضياً مسروراً لو فارقت الحياة ونحن موثقون برباط الزواج المقدس الذي ستباركه السماء دون شك ، لأن كلينا حافظ بعفة وطهارة وإخلاص على ما سبق وتعاهدنا عليه .

- سأجعلهم - قال القاضي - يحضرونك هذه الليلة إلى بيتي لأزوجه ، وغداً في منتصف النهار ستكون معلقاً في حبل المشنقة ، وبهذا الشكل أكون قد أوفيت للعدالة حقها ونفذت - في الوقت نفسه - رغبتكما .

- شكره أندريس ، وعاد القاضي إلى بيته ليخبر زوجته بما فعله مع السجين وبأشياء أخرى ينوي إخراجها إلى حيز التنفيذ .

روت بريثيوناً لأوها - خلال الوقت الذي تغيبه القاضي - تفاصيل كثيرة عن حياتها السابقة ، وكيف أنها ظلت تعتقد طوال تلك السنوات أنها عجربة وحفيدة للعجوز ، وأنها رغم هذا كانت حريصة على تغيير الصورة الكريهة التي يخبزها الناس في مخيلتهم عن العجرب .

سألتها والدتها إذا كانت تحب فعلاً " خوان دي كاركامو " . أجابتها - خجلة ، مطرقة الرأس - إن اهتمامها بتحسين وضعها الاجتماعي والمعيشي بالزواج من فارس حسيب نسيب مثل دون خوان جعلها تنظر إليه بعين الرضا ، خاصة بعد التجربة التي أثبتت لها حسن شمائله وعفته في التعامل ؛ ومع هذا فلن تتعارض إرادتها بأي حال - كما سبق وأعلنت - مع إرادة والديها ، وإنما ستقبل راضية ما يقرانه بشأنها .

حلّ المساء ، وفي حوالى العاشرة أخرجوا أندريس من السجن بعد أن نزعوا الطوق الحديدي من على رقبته ، وإن كانوا قد تركوا سلسلة كبيرة تبدأ من رجليه وتلتف حول جسده بأكمله . وصل على هذه الصورة - دون أن يراه أحد سوى الذين أحضروه - إلى دار القاضي حيث أدخلوه في هدوء وحذرٍ إحدى الغرف ثم تركوه فيها وحيداً وانصرفوا . دخل بعدهم بفترة وجيزة قسيس وطلب منه الاعتراف لأنه سيلقى حتفه في اليوم التالي . رد عليه أندريس :

- سأعترف عن طيب خاطر ، لماذا لا تزوجونني أولاً ؟ فأنا - وأأسفاه - لن أنعم مثل بقية الأزواج بليلة دخلتي .

نصحت "دونيا جيومار" زوجها بعدم التمادي في ترويعه حتى لا يودى الفزع بحياته. عمل القاضى بمشورتها ودخل على القسيس ليطلب منه عقد قران السجين على پريثيوثا أولاً ثم يتلقى اعترافه بعد ذلك ، كما أوصاه بالدعاء الخالص له لأن رحمة الله واسعة وفي كثير من الأحيان تغمر بفيضها العباد فى أوقات اليأس والقنوط التى جفّ فيها نبع الأمل.

خرج أندريس إلى الصالة حيث ينتظر القاضى وزوجته وپريثيوثا وخادمان آخران من العاملين بالببيت .. حين رآته پريثيوثا مطوّقاً بالسلسلة الضخمة ، صاحب الوجه وعلى عينيه آثار الدموع ، وضعت يدها على قلبها وألقت بنفسها بين ذراعى أمها التى كانت واقفة إلى جوارها. احتضنتها الأم وقالت لها:

- عودى إلى رشديك يا صبية ، لا تنزعجى لأن ما تريه سيتساقط عليك فى النهاية رطباً جنيّاً.

لم تجد العزاء والسلى فى كلمات أمها لجهلها بمغزاها .. كانت الغجرية العجوز مشوشة مضطربة، وباقي الحاضرين ينتظر على أحرّ من الجمر ما سيسفر عنه هذا المشهد الرهيب.

تدخل القاضى قائلاً :

- نيافة الضابط القسيس ، هذا الغجرى وهذه الغجرية هما اللذان ستولى عقد قرانهما.

- لا يمكننى القيام بهذا العمل ما لم تُستوفَ الإجراءات الضرورية لذلك. فأين إعلان الكنيسة برغبتها فى الزواج ؟ وأين تصريح رئيسى بعقد القران ؟

- لقد فاتنى هذا - أجاب القاضى - لكنى أعدك بأن أجعل القاضى الكنسى يزودك فيما بعد بالمستندات اللازمة.

- قبل رؤيتها لا يمكننى عمل شئ - ردّ القسيس الضابط - ومن ثمّ ليأذن لى السادة الحضور بالانصراف.

ودون إضافة كلمة أخرى ، حتى لا تحدث فضيحة ، خرج من الدار لا يلوى على شئ وتركهم فى حيص بيص .

- خيراً فعل أبونا - قال القاضى - ربما شاءت العناية الإلهية إطالة فترة تعذيب أندريس لأن الإعلان عدة مرات فى الكنيسة عن رغبة شخصين فى الزواج يتطلب وقتاً ليس بالقصير ، وطول الوقت يتمخض عادة عن نهاية سعيدة للأحداث المريرة ، لكن ما يهمنى الآن هو معرفة رد أندريس على ما يلى : لو كان زواجه سيتم فى ظروف عادية دون مسلسل الرعب هذا ، فهل كان سيسعد به أكثر لو كان "أندريس كاباييرو" أو "دون خوان دى كاركامو" ؟

حين سمع أندريس اسمه الحقيقى رد قائلاً :

- بما أن بريثيوثا قد تجاوزت حدود الصمت وكشفت عن هويتى ، فلا مفر من الاعتراف بأننى سأكون فى كلتا الحالتين راضياً وسعيداً بقسمة السماء مادامت ستبلغنى منتهى أملى .

- لا يسعنى إزاء هذه الروح الأبوية الشريفة - قال القاضى - إلا أن أعدك يا "دون خوان دى كاركامو" بالزواج فى حينه من بريثيوثا ، وأن أعلن عن قبولى بتسليمك الآن أغلى جوهرة فى حياتى ، وعليك أن تقدرها حق قدرها لأننى أعطيك من خلالها "دونيا كوستانثا دى مينيثيث" ابنتى الوحيدة ، فهى وإن كانت تعدلك فى الحب فإنها لا تقل عنك أصلاً ولا نسباً .

دهش أندريس لما سمع، لكن "دونيا جيومار" قصت عليه بإيجاز حكاية ضياع ابنتها والعثور عليها، فضاعفت القصة من دهشته الممزوجة هذه المرة بالفرحة الغامرة .. عانق حمويه مخاطباً إياهما بوالدى وسادنى ثم قبل يد بريثيوثا وطلب - والدموع تنهمر من عينيه - موافقتها على الزواج منه .

انفرط السر ، وخرج النبأ من الدار بخروج الخدم الذين شاهدوا ما جرى . عندما عرف العمدة - خال القتل - أدرك أن جميع طرق الانتقام قد سدت فى وجهه لأنه من غير المعقول التوجه إلى العدالة بطلب القصاص من صهر القاضى .

ارتدى "دون خوان" ملابسه الأصلية التى أحضرتها الغجرية ، وتحول السجن والأغلال الحديدية إلى حرية وأساور ذهبية ، كما تحول حزن الغجر السجناء إلى

فرحة لأنهم استردوا - بكفالة - حريتهم فى اليوم التالى .. تلقى خال القتيل وعداً بألفى دوكاندوس مقابل تنازله عن الدعوى والعفو عن "دون خوان" . لم ينس الأخير فى غمرة الأحداث المتلاحقة زميله كليمنتى وأرسل فى طلبه ؛ لكنهم لم يعثروا له على أثر حتى جاءهم بعد أربعة أيام خبر يفيد ركوبه من ميناء قرطاجنة سفينة من السفينتين المنطقتين صوب إيطاليا .

قال القاضى لدون خوان إن خبراً مؤكداً وصله يفيد بتعيين والده قاضياً على مرسية ، وسيكون من الأفضل انتظاره للحصول على موافقته ومباركته لعقد القران .

ردّ عليه "دون خوان" قائلاً إنه لا يستطيع الاعتراض على ما يراه أو عصيان أوامره ؛ لكن تباريح الهوى أضلت فؤاده وجعلته لا يقوى على الانتظار .

استخرج القاضى تصريحاً من الأسقف بعمل إعلان واحد فى الكنيسة عن الزواج بدلاً من الإشهارات المتعددة المتعارف عليها .. ولأن القاضى كان محبوباً جداً فى المدينة فقد وعده أهلها بإقامة احتفال ضخم يوم الزفاف يتضمن الصواريخ النارية ومصارعة الثيران والعديد من الألعاب مثل لعبة التحطيب . ظلت الغجرية العجوز فى الدار لأنها لم ترد مفارقة حفيدتها بريثيوثا .

وصلت أخبار عقد قران الغجرية الصغيرة إلى العاصمة ، وعندئذ أدرك "دون فرانثيسكو دى كاركامو" أن ابنه هو العريس وأن بريثيوثا الغجرية الجميلة هى العروس . غمرته الفرحة لأنه كان قد تصور ضياع ابنه لعدم ذهابه مع رفاقه إلى "فلاندى" ، ومن جهة أخرى فقد حمله الجمال الباهر للعروس ومكانة صهره المرموقة على الصفح عن الهفوة التى بدرت من ابنه .. عجل بالرحيل لكى يرى فلذة كبده وزوجته ، ولم تكد تمر عشرون يوماً حتى كان فى مرسية . ويقدموه تجددت الأفراح وأقيم حفل الزفاف ، وامتدت المسامرات والحكايات ، وعلى طريقتهم احتفل شعراء المدينة - التى تحفل بالعديد من المجيدين - بالحدث السعيد والفريد .

ومن بين هؤلاء نخص بالذكر "دل بوثر" (٣٨) الذى كتب قصيدة عصماء تخلد شهرة بريثيوثا أبد الدهر.

نسبنا الإشارة إلى أن الابنة الولهانة لصاحبة الخان قد أماطت اللثام عن كيدها للغجرى أندريس ، واعترفت للعدالة بذنبها وهيامها الشديد الذى دفعها لانتهامه ظلماً بالسرقة ؛ لكنها لم تنل أية عقوبة على جريمتها لأن الفرحة الغامرة بالعثور على الزوجين السعيدين كانت قد طمست على شهوة الانتقام وأرخت العنان للرحمة والتسامح.

(٣٨) أثبت اللقاد وجود هذا الشاعر (فرانيسكو دل بوثر) فى مدينة مرسية خلال عصر ثريانتس ، إذ ذكر أحدهم أنه قام فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٠٢م بإجازة أحد الأعمال المسرحية للكاتب "لوى دى بيجا . - (المترجم)

العاشق السخي

وَبِح لكَ ، أَيْتَهَا الْأَطْلَالُ الْحَزِينَةُ لَنِيْقُوسِيَا الْمُنْكَوبَةِ ، إِلَى الْآنَ لَمْ تَجِفْ دِمَاءَ
مَحَارِبِيكَ الْأَشَاوُسَ تَعْسَاءَ الْحِظْ ! لَوْ كُنْتُ تَلْعَمِينَ بِمَا تَفْتَقِدِينَهُ مِنْ حَسٍّ وَمَشَاعِرٍ ، فِي
هَذِهِ الْوَحْدَةِ الَّتِي تَلْفَنَا وَتَوْلَفْ بَيْنَنَا ، لَاسْتَطَعْنَا سَوِيًّا رِثَاءَ مَصَائِبِنَا ، وَلَرَبَّمَا وَجَدْتُ فِي
الصُّحْبَةِ مَا يَسْرَى عَنَا وَيُخَفِّفُ عَذَابَنَا • قَدْ يَرَاوِدُكَ الْأَمَلُ ، أَيْتَهَا الْأَبْرَاجُ الْمُتَهْدِمَةُ ، فِي
إِمْكَانِيَةِ الْارْتِفَاعِ ثَانِيَةِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ وَتَجَاوِزِ الظُّرُوفِ الَّتِي حَرَمْتُكَ مِنْ فُرْصَةِ
الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِكَ ، لَكِنْ مَحْنَتِي لَيْسَ لَهَا مِثِيلٌ ؛ فَهَلْ هُنَاكَ مِنْ خَيْرٍ يُمْكِنُنِي أَنْتَظَرَهُ
وَسَطَ هَذِهِ الضَّائِقَةِ الْكَرِيهَةِ الْمُحْدَثَةِ بِي حَتَّى لَوْ قُدِّرَ لِي الْعُودَةُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كُنْتُ
عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ ؟ وَهَذَا هُوَ سَرَّ بِلَوَايَ : فِي الْحُرِيَةِ مَعْدُومِ الْحِظْ ، وَفِي أَغْلَالِ الْأَسْرِ لَا
أَشْمَ رِيحِهِ وَلَا أَمَلٍ لِي فِيهِ .

بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ كَانَ يَتَفَوَّهُ أَسِيرٌ مُسِيحِيٌّ وَهُوَ يَنْظُرُ مِنْ عَلَى سَفْحٍ إِلَى أَسْوَارِ
" نِيْقُوسِيَا " الْمَخْرِبَةِ ، وَهَكَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ مَعَهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ قَادِرَةً عَلَى فَهْمِهِ وَالتَّجَاوُبِ
مَعَهُ ، وَهَذَا هُوَ حَالُ الْمَكْرُوبِينَ حِينَ يَسْتَسْلِمُونَ لَشَطْحَاتِ الْخِيَالِ فَيَأْتُونَ بِمَا لَا يَقْرَهُ
عَقْلٌ وَلَا يَسْتَوِي مَعَ الْمَنْطِقِ الْقَوِيمِ .

وَفِيمَا هُوَ غَارِقٌ فِي مَنَاجَاتِهِ وَبَثَّ شِكْوَاهُ خَرَجَ مِنْ إِحْدَى الْخِيَامِ الْأَرْبَعَةِ الْمَنْصُوبَةِ
فِي الْمَعْسَكِ فَتَى رَشِيقَ الْقَدِّ حَسَنَ الْمَظْهَرِ يَرْتَدِي ثِيَابًا تَرْكِيَّةً وَاقْتَرَبَ مِنَ الْمَسِيحِيِّ
قَائِلًا لَهُ :

- أَرَاهَنَ ، يَا صَدِيقِي " رِيكَاردو " RICARDO ، أَنْ هَذَا يَثِيرُ لَوْعَتِكَ وَيَشْحَذُ
تَأْمَلَاتِكَ .

- نَعَمْ يَثِيرُهَا - أَجَابَ الْأَسِيرُ ، " رِيكَاردو " - لَكِنْ مَا الْفَائِدَةُ الَّتِي تُرْجَى مِنْ
وَرَاءِ هَذَا وَكُلِّ مَكَانٍ أَحُلُّ بِهِ لَا سَبِيلَ لِي فِيهِ إِلَى الرَّاحَةِ وَالطَّمَانِينَةِ ، وَتِلْكَ
الْأَطْلَالُ الْمَائِلَةُ أَمَامِي تَزِيدُ مِنْ هَمِّي وَشَجْوَى ؟

- أَطْلَالُ نِيْقُوسِيَا تَقْصِدُ ؟ سَأَلَ التَّرْكِي .

- وَهَلْ هُنَاكَ غَيْرُهَا وَالْعَيْنُ لَا تَبْصُرُ فِي الْمَكَانِ سِوَاهَا ؟

- عليك، إذن، بذرف الدموع مدراراً إذا استسلمت لهذه الهواجس؛ فقد رأيت هذه الجزيرة القبرصية، طوال السنتين اللتين قضيتهما فيها، ترقل في ثياب الدعة والطمأنينة وينعم قاطنوها بكل ألوان البهجة والسرور؛ لكنهم الآن تفرقوا أيدي سباً ما بين أسير تعس ومنفى هائم على وجهه في بلاد الله الواسعة بعيداً عن أرضه وخلانه، أبعد هذا يمكن تفادى غصة الألم من جرّاء هذا الواقع البائس وتلك المحنة الدامية ؟ لكن دعنا من هذه الأنواء التي لا قبل لنا بها، وهيا بنا ندلف إلى همومك التي لا بد أن لها مخرجاً ، ولذا أتوسل إليك - من منطلق رباط الصداقة ومما يحتمه واجب الانتساب لموطن واحد والترعرع سويًا في مرحلة الصبا - لكى تطلعنى على سر حزنك العميم، وإن كان الأسر في حد ذاته كفيلاً بجلب الهم والضيق لأسعد القلوب في العالم، لكننى أعتقد أن معين تعاسك يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك لأن الهمم الوثابة - مثل همتك - لا تعرف الاستسلام أو الخور في الأزمات الطارئة الشائعة بل تتجاوزها في صمود وتحّد: يحملنى على هذا الاعتقاد علمى أنك لست فقيراً يصعب عليك الوفاء بما طلبوه ثمناً لحريتك، كما أنك لست نزيلاً بأبراج البحر الأسود شأن الأسرى ذوى المراتب العالية والمقام الرفيع الذين لا يستردون حريتهم إلا متأخراً أو يفقدونها إلى الأبد ، وبناء على ما تقدم فأنت لم تفقد الأمل في استرداد حريتك السلبية، ومع هذا أجذك مستسلماً يائساً تيكى حظك العاثر مما يعنى أن مصدر همومك يعود لشيء آخر غير الحرية الضائعة، ومن ثم أتوسل إليك أن تحيطنى علماً به، ولن أدخر وسعاً فى مد يد العون لك وربما ساعدتنى فى هذا تلك الثياب البغيضة التى أرتديها. أنت تعرف - يا ريكاردو - أن مولاي هو قاضى المدينة، وهو بمثابة المطران فى المدن المسيحية. تعرف أيضاً منزلتى عنده وأنه لا يرد لى طلباً أو نصيحة. وفوق هذا وذاك فأنت لا تجهل رغبتى المتوقدة فى الخلاص مما أنا فيه حتى لا يدركنى الموت وأنا على هذه الحالة، وتعلم مدى شوقى للاعتراف تكفيراً عن خطاياى ولنشر الدين المسيحى بأعلى صوتى، هذا الدين الذى انتزعت منه انتزاعاً وأنا غض الإهاب قاصر الإدراك ، وإن كنت متأكداً

من أن مثل هذا الاعتراف سيكلفني حياتي، ومع هذا فأنا على استعداد للتضحية بالجسد إنقاذاً لروحي . أريد بما سرده عليك جعلك تثق بي وتأمين جانبي ولكي أدخل في روعك أن صداقتي لك يمكن أن تكون ذات نفع . وللاهتمام لأنجع الوسائل والحلول لنكبتك من الضروري التعرف أولاً على أسبابها ، شأنها في ذلك شأن الطبيب الذي يحتاج لمعرفة موطن العلة كي يتمكن من وصف العلاج المناسب ، وكن على يقين من أنني سأطوى سرك في أغوار الصمت .

ظل "ريكاردو" صامتاً إلى أن اضطره الإلحاح أخيراً إلى الإجابة بهذه الكلمات:

- آه ، يا صديقي "محمود" !- هكذا كان يسمى التركي - لقد أصبت كبد الحقيقة في تقديرك لأبعاد نكبتي، لكنها مثل الداء العضال الذي يستعصي على أمهر الأطباء، وأكثر من هذا فأنا على قناعة تامة بأن العالم بأسره لو علم بمصدرها لن يقدر أحد فيه على الاهتمام إلى العلاج الناجع، فضلاً عن مجرد التخفيف منه . ولكي تقنع بهذه الحقيقة سأقص عليك بإيجاز أسباب بلوأي، وقبل التسلل إلى تلك المتاهة المستغلقة لأرزائي أريد أن تخبرني أولاً بسر أمر مولاي "حسان باشا" بضرب الخيام في هذا المعسكر قبل دخوله "نيقوسيا" التي عين عليها والياً أو باشا، كما يطلق الأتراك على ولايتهم .

- سأجيب باختصار على استفسارك - قال محمود - اعلم أنه جرت العادة بين الأتراك أن الوالي المعين على إحدى الولايات لا يدخل العاصمة التي يقطنها سلفه إلا بعد خروج الأخير منها ، وذلك لإفساح المجال أمام الوالي الجديد كي يقوم بعملية جرد- في حضرة القاضي - للفترة التي قضّاها سلفه في الحكم، وبينما يقوم الباشا الجديد بهذه المهمة ينتظر القديم نتيجة الجرد الذي يجري دون استطاعته توجيهه أو التدخل فيه- سواء عن طريق الأصدقاء أو الرشاوي - هذا إن لم يكن قد أحكم مسبقاً تدبيره واستعد لذلك . وبعد إتمام الجرد تسجل نتيجته في "كشف حساب" ويوضع في مظهر وف يتم غلقه بعناية وختمه ثم يسلم للوالي الراحل لكي يقدمه بدوره إلى الباب

العالى التركى [وهو شىء أشبه بالمجلس الأعلى للبلاط الملكى] حيث يتم عرضه على لجنه تتألف من الباشا الوزير ومساعديه الأربعة [وهى تماثل المجلس الملكى المكون من رئيس ومساعدين] لكى تتخذ قراراً بشأن عقابه أو مكافأته تبعاً للتقرير الوارد بكشف الحساب ، وإذا اتجهت النية لإدانته فإنه يستطيع بالمال افتداء نفسه من العقاب . وإذا لم يكن مذنباً ولا يستحق فى الوقت نفسه المكافأة - كما يحدث عادة - فإنه يتمكن بالهدايا والرشاوى من الحصول على المنصب الذى يروق له ، ذلك لأن المناصب والوظائف الهامة لا تمنح استناداً إلى الكفاءة بل فى مقابل ما يقدم من مال: كل شىء يباع ويشتري . من بيدهم تقليد المناصب يسرقون الطامعين فيها ، والمال الناجم عن هذه العملية يستخدم فى شراء منصب آخر يدر عائداً أكبر . على هذه الوثيرة تمضى الأمور فى تلك الإمبراطورية العنيفة المتوحشة ؛ والعنف سمة من سمات فناء الدول وقصر آجالها . إن القائمين على تلك الإمبراطورية هم السبب فيما نحن فيه من مصائب ، ولذا أعتقد أنهم يحملون أوزارنا على أكتافهم .. ما أريد قوله إن هؤلاء الذين يتطاولون بوقاحة على الرب دون رادع يردعهم قد جروا أمثالى إلى فلكهم بيد أن الرب مطلع على السرائر ولن يخذلنى أو ينسانى . ولهذا السبب الذى قدمته لك ظل مولاك (حسّان باشا) منتظراً فى هذا المعسكر أربعة أيام ، وإذا كان والى نيقوسيا المخلوع لم يغادرها بسرعة كما ينبغى فهذا يعود بالتأكيد لشدة سوءه ومن هنا لزمه كل هذا الوقت لتدبير أموره قبل القيام بعملية الجرد المنتظرة ، لكنه لن يتأخر - على أى حال - عن الخروج اليوم أو غداً والتوجه للإقامة فى عدد من الخيام المضروبة خلف هذا المرتفع الذى لم تشاهده ، ويعدها سيدخل مولاك المدينة .

- اسمعنى إذن - قال " ريكاردو " - وإن كنت لا أدرى هل سأستطيع حقاً الوفاء بما وعدتك به من سرد حكايتى بالإيجاز المطلوب ؛ ذلك لأنها فى غاية الطول ومتشعبة وتحتاج لفيض من الكلمات ، ومع هذا سأبذل قصارى جهدى فى الإلمام بأطرافها بقدر ما يسمح به الوقت ، وقبل أن أبدأ دعنى

أسألك إذا كنت قد سمعت في "ترابانا" TRAPANA (١) عن أنسة طبقت شهرة جمالها آفاق "صقلية"؛ أنسة تلهج الألسن بذكر محاسنها ويتناقل القصص والداني خبر فتنتها التي لم ير لها مثيل لا في الماضي أو الحاضر ولا يتوقع أن تتمخض الأجيال القادمة عن واحدة تضارعها. فتاة تغنت قصائد الشعراء بجدائلها الذهبية وخديها المتوردين وأسنانها اللؤلؤية وجيدها المرمري، وشبهت عينيها بشمسين نيرتين وشفثيها بالياقوت، وأفاضت في الإشادة بتناغم وتناسق كل ملمح فيها وبنعومة امتزاج الألوان الطبيعية المتقنة التي تنعكس على محياها، ولا تجد فيها عيون القادحين والحساد عيباً ولا خللاً. إن لم يكن قد تناهى إلى سمعك، يا محمود، خبرها فيما إنك لا تعي قولي أو أنك أمضيت الوقت في ترابانا عبثاً وكنت فاقداً للإدراك بحيث لا تعرف حدثاً في غاية الأهمية مثل هذا.

- أوصاف الجمال الصارخ التي ذكرتها تنطبق على "ليونيسا" (LEONISA) ابنة "رودولفو فلورنسيو" لا أعرف من تكون لكنها الوحيدة التي تشتهر بما تقول.

- آه يا صديقي محمود! إنها الباعث الوحيد لكل أفراسي وأتراسي هي - وليست الحرية الضائعة - التي ذرفت من أجلها عيناى الدموع مدراراً وستظل تنهمر بلا انقطاع، ومن أجلها تحرق زفراتي الهواء، وأتعبت توسلاتي السماء وأذان السامعين، هي التي جعلتك تصمنى بالعتة أو، على الأقل، بضعف الإرادة وخور العزيمة. "ليونيسا"، وحشى المفترس وبالنسبة لغيري الحمل الوديع، هي التي ألقت بي إلى التهلكة وأوردتني هذا المورد البائس. اعلم، يا صديقي، أنني منذ نعومة أظفاري أو، على الأكثر، منذ أن بدأت أعي لم أحبها فحسب بل تقانيت في عبادتها وبذلت لها خانعاً مهجتي بشكل لم يعهده معبود في الأرض ولا في السماء. عرف والداها وأهلها شدة هيامي بها ولم يمانعوا لثقتهم في غايته النبيلة الموقرة، وهكذا

(١) "ترابانا" Trapani تقع في الطرف الغربي من جزيرة صقلية، وكان في ذلك الوقت ميناء تجارياً هاماً.
(المرجم)

فقد حاولوا مراراً توجيه نظرها إلى وإقناعها بقبولى زوجها لها . لكن عينيها كانتا تلهثان خلف "كورنيليو" ، ابن "أسكانيو روتولو" ، وأنت تعرفه جيداً: فتى ممشوق القدّ ، "دون جوان" ، حسن الهندام، رخو اليدين، مسترسل الجداول، مخنث الصوت ومعسول الكلمات، إنه - باختصار - مثل تمثال مصنوع من الحلوى والعنبر ويرتدى أفخر الثياب الموشاة بالقصب . استنكفت مدّ ناظرها إلى وجهى الأقل صقلاً وبهاءً من وجه "كورنيليو" ، ولم يدر بخلفها شكر إخلاصى وخدماتى العقيمة الدائمة، وقابلت مشاعرى نحوها بالازدراء والكراهية . أدّى نفورها منى وميلها - وإن كان شريفاً - إلى "كورنيليو" إلى إثارة غضبى وتفجير ينابيع الغيرة فى صدرى ، ولك أن تتصور مدى وقع هذين الشعورين على النفس ! بارك والداها ميلها إلى "كورنيليو" على أمل أن يجرّه جمالها الفتان إلى الزواج منها، وبهذا الشكل يكسبان صهرًا أوسع ثراءً منى . إنه هكذا حقاً، لكنه لا يدانينى فى المكانة ولا فى المشاعر السامية التى أحملها بين جوانحى ولا فى الشجاعة أو الرجولة . المهم أننى فى تلك الأثناء علمت أن "ليونيسا" وأبويها و"كورنيليو" ووالديه قد تواعدوا للذهاب - بصحبة أقاربهم وخدمهم - فى يوم من أيام شهر مايو الماضى [وقد مرّ عليه الآن سنة وثلاثة أيام وخمس ساعات] إلى حديقة "أسكانيو" ، التى تقع فى طريق "لاس ساليناس" القريب من البحر، بغرض النزهة والتسلية .

- أعرف هذا المكان جيداً - قال محمود - ، فقد أمضيت فيه أوقاتاً هنيئة لما يزيد عن أربعة أيام . استمر يا "ريكاردو" .

- فور معرفتى للخبر ماجت روحى واضطربت وسيطر عليها الغضب والغيرة بشكل أفقدنى توازنى - كما ستدرك مما أقصه عليك - إذ سارعت بالذهاب إلى تلك الحديقة التى كانت تكتظ بجموع غفيرة من البشر، ووجدت "ليونيسا" وحبيب القلب جالسين فى ركن قصى تحت شجرة جوز . لا أدري من منهما رآنى أولاً، كل ما أتذكره أن عيني غامتاً عندما التقت بنظرته وبقيت صامتاً بلا حراك كتمثال . لم يتوان السخط فى إيقاظ الغضب، والغضب فى إثارة الدم فى العروق ، والدم فى إذكاء روح الهياج

والثورة، والهياج والثورة فى تحريك اليدين واللسان، وإن كانت اليدين قد أصيبتا بالشلل من جراء جمال الوجه المائل أمامى . لكن اللسان هتك ستر الصمت بهذه الكلمات: "سعيدة أنت، يا عدوة راحتي اللدود، بإضفاء الراحة الغامرة على من سيكون السبب فى تقرح عيني بالنحيب المؤلم المستمر . هلمى ، هلمى ، أيتها القاسية ، اقتربى قليلا لتلقى حول هذا الجذع الخامل الذى ينشدك أفرعك الدقيقة، مشطى أو جللى بالأساور جدائل "جانيميدس" (٢) الجديد الذى يتحرق شوقاً إليك ؛ تلمصى الآن من السنّى الفاتنات لهذا الشاب الذى تتأملين، لأن فقدانى الأمل فى الوصول إليك جعلنى أمقت الحياة التى أعيشها . أتحسبين - أيتها الأنسة المتعجرفة، سقيمة الخيال - أنك فوق المعمول به فى العالم أجمع من قوانين وأصول ؟ أنظنين أن هذا الفتى المتعالى بثروته، المتكبر ببهاء طلعه، الأخرق بسنوات عمره القصير، المتواكل على حسبه ونسبه، بإمكانه صيانة العهود وتقدير ما بين يديه من كنز ثمين ، أو أنه يعى ما يدركه الناضجون الذين عركتهم خبرات السنين الطوال ؟

لا تحسبى شيئاً من هذا لأنه لا يحوى بين جنبيه مثقال ذرة من خير هذا العالم، بل ترهات وأوهام برّاقة لا يخدع بها سوى نفسه . ففي السنوات القصار يكمن السقم؛ وفى الأغنياء الخيلاء؛ وفى المتكبرين الزهو؛ وفى الجمال الازدراء؛ وفى كل ما تقدم تكمن الحماقة وهى رأس الشرور ومنبت الآثام . وأنت، أيها الفتى، الذى يوهمك خيالك السقيم بأحقيتك فى الحصول على عطية أولى بها هيامى من حاجتك لإزجاء أوقات فراغك، لماذا لا تنهض من على بساط الورود حيث تقبع وتأتى لتقتلع مهجتى التى تمقتك مقتاً شديداً ؟ .. لا أطلب منك هذا لشعورى بالإهانة مما تفعل، بل لأنك لا تستطيع تقدير المنّة التى حباك بها حسن الطالع؛ ومن الواضح استهانتك بها إذ لا تحرك ساكناً للدفاع عنها حتى لا تتلف زينتك ولا تبعثر جمال

(٢) يدعى "أوفيد" وبعض الشعراء أن عقاباً اختطف "جانيميدس" من على الأرض وحمله إلى السماء ليكون ساقياً للآله جويتر بدلاً من Hebe ابنة Iuno ، بينما يرى "أبولونيوس" Apolonio أنه ذهب إلى السماء لى يلعب فيها ويظل حياً بين الآلهة . (المترجم)

هندامك . اغرب عن وجهي وعد إلى بيتك كي تتسلى هناك بين وصيفات أمك، وحيث يمكنك العناية بجذائك ويديك المدرتين على العبث بخيوط الحرير بدلاً من الإمساك بالسيوف البواتر" .

مع كل هذا السيل من الشنائم لم ينهض "كورنيليو" من المكان الذي وجدته جالساً فيه، بل ظل قابلاً ينظر إلى مسلوب اللب دون أن يحرك ساكناً؛ وعلى الأصوات المرتفعة التي كُت له بها ما سمعته أذنك ، أخذ الموجودون بالحديقة يتقاطرون لسماع إهانات أخرى وجهتها لكورنيليو الذي تشجع وحاول النهوض لأن المتحلقين أو غالبيتهم كانوا من بين أقرائه وخدمه وأصدقائه، لكنني سحبت سيفي من غمده قبل أن يستوى على قدميه وأشهرته، ليس في وجهه فقط بل في وجوه الحاضرين جميعاً . لم تكذ "ليونيسا" تلمح بريق حسامي حتى راحت في إغماءة بلا قرار، مما أثار حفيظتي وفجر هياجي . لا أدري ما إذا كان الكثيرون المتعلقون حولي كانوا يحاولون فقط الدفاع عن أنفسهم كمن يتحرزون من مخبول هائج مغتاظ أم أن حسن طالعي أو العناية الإلهية هي التي أرادت الحفاظ على وإبقائي لمكدرات مستقبلية أنكي وأقسي . هذا لأنني أئخنت بالجراح سبعة أو ثمانية ممن كانوا في متناول يدي . نفع "كورنيليو" شدة حرصه وخفته، إذ أخذت قدماه المشحونتان بهما تسابقان الريح فراراً من بطشي . أسعفتني الحظ - وأنا بين برائن هذا الخطر الداهم، محاط بأعدائي الذين يحاولون الانتقام لما أنزلته بهم من خسائر - بطوق نجاة كان من الأفضل لي التخلص من الحياة هناك بدلاً من فقدانها الآن بسببه آلاف المرات كل ساعة، إذ ظهرت في الحديقة بغلة أعداد كبيرة من قراصنة "بنزرت" (٣) الأتراك كانوا على متن سفينتين راسيتين على مقربة من الشاطئ وقد نزلوا إلى البر دون أن يحس بهم حراس أبراج المراقبة البحرية أو يكتشفهم العسس المكفون بالتصدي للمتسللين إلى المدينة . حين شاهدتهم خصومي تركوني وحيداً ولاذوا بالفرار . لم يتمكن الأتراك إلا من أسر ثلاثة من جملة من

(٣) "بنزرت" : ميناء على الساحل الشمالي لتونس . (المترجم)

كانوا بالحديقة، فضلاً عن "ليونيسا" التي لم تكن قد أفادت بعد من الإغماء التي راحت فيها . أما أنا، فلم يتمكنوا من القبض علىّ إلا بعد أن أصابوني بأربعة جراح مختلفة الأشكال والأحجام كنت قد انتقمت لهم مسبقاً بطرح أربعة منهم على الأرض فاقدى الحياة . وكعادة الأتراك، فقد كان هجومهم خاطفاً ، وغير مسرورين بنتائجه انسحبوا إلى سفينتيهما وانطلقوا بهما مسرعين إلى عرض البحر، وخلال فترة وجيزة وصلوا إلى جزيرة " فبيانة" (٤) . تمهلاً لحصر ما لديهم من رجال، ولما وجدوا أن عدد قتلهم وصل إلى أربعة من خيرة القراصنة المهرة المدربين عزموا على الانتقام منى، وهكذا أمر ريس البارجة (القبطان) بإنزال خشبة الشراع المثلث لكى يشنقوني عليها .

إلى كل هذا كانت تنظر "ليونيسا" التي - بعد أن أفادت من الإغماء الطويلة ووجدت نفسها فى قبضة القراصنة - أخذت الدموع تنسال من عينيها بغزارة وترتجف يداها الرقيقتان، دون أن تنبس ببنت شفة . كانت تركز انتباهها - صامتة - فيما يقوله الأتراك فى محاولة منها لفهمه . لكن واحداً من المسيحيين العاملين بالتجديف أخبرها، فى لكنة إيطالية، أن الرئيس أمر بشنق ذلك المسيحى - مشيراً إلى - لأنه أودى بحياة أربعة من خيرة جنود البارجتين قبل تمكنهم من إلقاء القبض عليه . حين سمعت "ليونيسا" هذا وأدركت فحواه أخذتها - لأول مرة - الشفقة بى وطلبت من الأسير المسيحى إبلاغهم بضرورة نبذ فكرة شنقى لأنهم لو فعلوا يكونون قد أهدروا أموالاً طائلة تنتظرهم من فديتى، ومن ثم فإن عليهم العودة إلى "ترابانا" لطلب الفدية هناك . ومما يزيد من تعاستى الآن أن تلك المرة كانت الأولى، وربما الأخيرة، التى أظهرت فيها معذبتى حذبها على وأخذتها الشفقة بى . وما إن سمع الأتراك كلام الأسير المسيحى حتى صدقوه، وعندئذ أزاحت المصلحة شهوة الانتقام لديهم وحلت محلها . فى صباح اليوم التالى، رفعوا راية السلام البيضاء ويمموا شطر "ترابانا" ثانية .

(٤) جزيرة " فبيانة" أو " فبيجنانة" Favignana تقع بالقرب من الساحل الغربى لجزيرة صقلية .
(المترجم)

قضيت تلك الليلة والآلام التي لا تخطر ببال تهتصرني، ولم يكن مبعثها ما أعانيه من جراح بل من استحضاري للخطر الداهم الذي يحدق بعدوتي اللدود وهي بين برائن أولئك البرابرة المتوحشين .

عادت السفينتان - كما ذكرت - إلى المدينة، ودخلت إحداهما الميناء بينما ظلت الأخرى منتظرة في عرض البحر . تجمع المسيحيون من كل حدب وصوب حتى امتلأ بهم الميناء والساحل ، و " الحليوة " " كورنيليو " كان يرقب من بعيد ما يدور على ظهر السفينة . جاء بعد ذلك وكيل أعمالى (القهرمان الخاص بى) ليتفاوض بشأن فك أسرى، وعندما التقيت به طلبت منه نسيان أمرى تماماً والعمل على إطلاق سراح " ليونيسا " حتى لو كلفه هذا تبديد كل ممتلكاتى، كما أمرته بالعودة إلى اليايسة ليطلب من والدى " ليونسيا " إلقاء مسئولية تخليص ابنتهما من الأسر على عاتقه وألا يشغلا بالهما بهذا الأمر . طلب الرئيس الأكبر - وهو يونانى مرتد عن المسيحية يدعى " يوسف " - ستة آلاف "إسكودو" (٥) فى " ليونيسا " وأربعة آلاف أخرى مقابل فك أسرى، وأضاف محذراً بعدم تسليم أحدنا دون الآخر . علمت بعد ذلك أنه طلب هذا المبلغ الكبير لشدة ولعه بليونيسا ولعزوفه عن التفریط فيها آملاً أن تكون من نصيبه عند اقتسام الغنيمة مع قبطان السفينة الأخرى، فقد أضمر التنازل عنى بالإضافة إلى ألف "إسكودو" يدفعها من جيبه للقبطان الثانى مقابل الاحتفاظ بليونيسا . لم يحرك والدا "ليونيسا" ساكناً اعتماداً على الوعد الذى قطعه وكيل أعمالى على نفسه؛ و" كورنيليو " من جهته لم يكلف نفسه عناء تحريك شفثيه بكلمة واحدة فى صالحها . وهكذا وبعد الكثير من المساومات والأخذ والرد عرض وكيل أعمالى دفع خمسة آلاف إسكودو مقابل إطلاق سراح " ليونيسا " وثلاثة آلاف أخرى فدية لى .

قبل يوسف العرض مرغماً لأن زميله وجنوده جميعاً وافقوا عليه وأعلنوا رضاهم به . ولما كان هذا المبلغ الكبير ليس جاهزاً مع وكيل أعمالى فقد

(٥) "الإسكودو" Escudo عملة ذهبية قديمة (المترجم) .

طلب إمهاله ثلاثة أيام لجمعه، وفي نيته التصرف في كل ممتلكاتي لتدبير المال اللازم . فرح يوسف وتهللت أساريره لاعتقاده أن الفرصة أصبحت سانحة لإفساد الأمر برمته خلال هذه الفترة. أخبر الحاضرين أنه عقد العزم على العودة إلى جزيرة "فببانية" لقضاء ثلاثة أيام المضروبة للمهلة هناك والرجوع ثانية فور انتهائها لاستلام النقود . لكن القدر العاتى، الذى لا يمل من تسديد الضربات إلى، جعل الجندى التركى، المكلف بمراقبة أعالي البحر، يكتشف قدوم ست سفن شراعية لاتينية، وتوقع - صادقاً فى ظنه - أن تكون تابعة لأسطول مالطة أو للقطع البحرية الصقلية . هبط مسرعاً ليعلن النبأ، وفى لمح البصر صعد السفينة الأتراك الذين كانوا على البر تاركين ما بأيديهم من إعداد طعام أو غسل ثياب؛ وبسرعة خاطفة رفعوا المراسى وفتحوا الأشرعة للهواء وأعملوا المجاديف ووجهوا الذفة صوب بلاد البربر، وفى أقل من ساعتين كانت السفن اللاتينية قد اختفت من أمام نواظرهم . وهكذا ذهب عنهم الخوف الذى ارتعدت له فرائصهم من قبل وعاودتهم الطمأنينة خاصة بعدما استنبروا بالجزيرة واحتموا بظلمة الليل الذى اقترب . ولك أن تتصور حالى، يا صديقى محمود، فى تلك الرحلة المعاكسة لأحلامى والمخيبة لآمالى، عندما وصلت السفينتان ظهر اليوم التالى إلى جزيرة "بننتالية" ونزل منهما الأتراك للتزود بالمؤن، وعندما شاهدت الرئيسين يهبطان إلى البر لتوزيع الغنائم بينهما. كل حدث من هذه الأحداث كان بمثابة احتضار بطيء وطويل بالنسبة لى . عندما جاء الدور علينا فى القسمة - أنا و "ليونيسا" - قدمنى يوسف علاوة على ستة مسيحيين آخرين [أربعة للعمل على المجاديف بالإضافة إلى شابين جميلين] إلى قبطان السفينة الأخرى (ويدعى " فتح الله ") مقابل احتفاظه بليونيسا؛ وقد أثلجت هذه القسمة صدر الأخير. كنت أشاهد ما يجرى أمامى، وبالرغم من معرفتى لما يفعلون إلا أننى لم أفهم حديثهم ولم أفطن إلى ما اتفقوا عليه إلا بعد أن اقترب فتح الله منى وقال لى بلكنة إيطالية : " يا مسيحي ، أنت الآن ملكى، تنازلوا عنك مقابل ألفى إسكودو ذهباً؛ لو أردت استرداد حريتك يلزمك تسديد أربعة آلاف، وإلا ستظل رهين

الأسر حتى تقضى نحبك هنا" . سأله إذا كانت المسيحية أيضاً من نصيبه ، فأجابنى بالنفى لأن يوسف احتفظ بها بقصد تحويلها للإسلام والابتناء بها . وبالفعل كانت هذه الحقيقة لأن أحد الأسرى العاملين بالتجديف والعارفين باللغة التركية سمع تفاصيل الاتفاق بين يوسف وفتح الله وأخبرنى بها .

ناشدت مولاي البحث عن وسيلة للاحتفاظ بالمسيحية ووعده بعشرة آلاف إسكودو من الذهب الخالص فدية لها . أخبرنى بصعوبة ذلك لتمسك يوسف بها ، لكنه قال إنه سيجرب معه التلويح بالمبلغ الكبير المرصود لفديتها لعله يثنيه عن قراره بشأنها . بعد فشل محاولته أمر طاقم سفينته بسرعة الصعود إليها لأنه ينوى الذهاب إلى موطنه في " طرابلس " البربرية . قرر يوسف - في الوقت نفسه - التوجه إلى " بنزرت " ؛ وهكذا صعد الأتراك إلى السفينتين بسرعتهم المعهودة عند اكتشافهم سفناً معادية أو مراكب يريدون مباغتتها والاستيلاء عليها . أدى تغير الجو وتجمع نذر عاصفة في الأفق إلى زيادة إيقاع سرعتهم . كانت ليونيسا على اليابسة ، لكنها لم تكن في مكان أستطيع رؤيتها فيه ، ولما اتجهت نحو البحر وشرعت في الصعود إلى سفينتها التقينا . كان سيدها الجديد وغرامها المنتظر يمسك بيدها ، وعندما دلفت إلى السلم التفتت لتنظر إلى . لم تنزل عيناى من عليها ؛ كانتا تنظران إليها بحنان وألم بالغين ، وفجأة - دون أن أدرى كيف - حجبت نظرتى غمامة من الدموع ، ولما توارت غبت عن الوعي وسقطت ممدداً على الأرض . علمت بعد ذلك أن ليونيسا جرى لها الشيء نفسه ، فقد شاهدها وهي تسقط من على سلم السفينة إلى البحر ، وعندئذ ألقى يوسف بنفسه خلفها وانتشلها من الماء . أخبرونى بهذا فى سفينة مولاي التى حملونى إليها وأنا فاقد الوعي ؛ لكننى بعد أن أفقت من الإغماء ووجدتنى بدونها وحيداً على السفينة بينما تأخذ الأخرى اتجاهها مغايراً وتبتعد عنا حاملة على متنها نصف مهجتى - أو على الأصح ، مهجتى كلها - أصابنى الهلع والكدر من جديد ، وعادوت لئن حظى وتمنى الموت بأصوات عالية . حين سمعنى مولاي وأنا أهذى وسط هذه المشاعر الأليمة انتابه الغضب وتوعدنى وهراوة غليظة فى يده بسحق عظامى إن لم ألزم الصمت . كبحت جماح

دموعى وابتلعت زفراتى الحارة معتقداً أن شدتها ستمزق جزءاً منى لتفسح المجال لخروج الروح التى كنت شغوقاً بتركها لهذا الجسد البائس ، لكن الحظ العاثر - وكأنه لم يكتف بـالقائى فى هذا المأزق الخطير - أطاح بكل شىء وسلبنى ما تبقى من أمل فى الخلاص ، إذ كُشِرت العاصفة عن أنيابها بغتة وأخذت الرياح التى كانت تهبّ على مقدمة السفينة خلال ذلك الوقت من الظهيرة فى الاستسعاد والتنامى بحمية منقطعة النظير وأصبح من الضرورى تحويل الدُفّة إلى الاتجاه المعاكس وترك السفينة تجرى حيث شاءت لها الأمواج . عزم القبطان على الاقتراب من شمال الجزيرة والاحتماء بها ، لكن الرياح تجرى بما لا تشتهى السفن ؛ لأنها زمجت غاضبة وما أبحرناه فى يومين كاملين رجعناه فى أقل من أربع عشرة ساعة ، ووجدنا أنفسنا على مسافة ستة أو سبعة أميال من الجزيرة التى شددنا منها الرحال وعلى وشك الاصطدام بصخور عالية كنا نشاهدها على مرمى البصر ودون أمل على الإطلاق فى الفرار من براثن موت محقق . وعلى مقربة رأينا سفينة "ليونيسا" وجميع من فيها من أتراك وأسرى على المجاديف يبذلون قصارى جهدهم للتخفيف من اندفاعها نحو الصخور . جهد مماثل كان يبذله رجال سفينتنا لكن بفاعلية أكبر على ما يبدو لأن رجال السفينة الأخرى نال منهم التعب وإصرار الرياح والعاصفة فاستسلموا وتركوا المجاديف مما جعل السفينة تندفع نحو الصخور وترتطم بها - أمام أعيننا - ارتطاماً هائلاً تطايرت على إثره أشلاؤها . كان الليل قد أرخى سدوله ، ومن هول صراخ المفقودين ومن الفزع واليأس اللذين تسربا إلى من كانوا على سفينتنا ضاعت تعليمات قبطاننا سدى ولم تجد أذاناً صاغية ؛ الشىء الوحيد الذى جال بخاطر الجميع هو محاولة تعديل وضع السفينة بجعل مقدمتها فى مواجهة الرياح وإلقاء المرساتين فى الماء لعلهم بهذا يبعدون لبعض الوقت شبح الموت الذى يطاردهم . وبالرغم من أن الخوف من الموت كان هو الشعور المسيطر على الجميع إلا أننى كنت منشراح الصدر ؛ إذ كان يحدونى الأمل فى لقاء من رحلت منذ قليل إلى جنبات العالم الآخر ، ولذا فكل دقيقة كانت تتأخرها السفينة عن الغوص فى

الأعماق أو الارتطام بالصخور كانت بالنسبة لى دهرًا من العذاب المرير .
كنت أرقب الأمواج العالية الهوجاء وهى تندفع نحو السفينة وتمر فوق رأسى
علنى أرى بين برائثها جثة "ليونيسا" التعيسة .

آه ، يا محمود !، لا أريد التوقف الآن لأصف لك بالتفصيل مشاعر الهلع
والخوف والجزع والرعبة التى أَلَمَّتْ بى فى تلك الليلة الليلية الطويلة حتى لا
أنكث بعهدى السابق لك من عرض أبعاد محنتى بإيجاز . يكفى إخبارك
بأنها كانت جِمة لا يطبقها بشر لدرجة أن الموت لو كان قد تسال معها لما
وجد أدنى عنت فى سلب ما بقى لدى من حياة .

جاء النهار حاملاً معه بوارد عاصفة أشد هياجاً من التى مضت ، جعلت
السفينة تنحرف بشدة وتبتعد كثيراً عن الصخور إلى أن وصلت إلى أحد
أطراف الجزيرة ؛ ولما وجد الأتراك والمسيحيون العاملون على المجاديف أن
الفرصة أصبحت سانحة للالتفاف حولها عاودهم الأمل واستعادوا نشاطهم
من جديد ، ولم تكد تمضى سويعات ست حتى استطعنا الالتفاف حول هذا
الطرف من الجزيرة ، وهناك وجدنا البحر أملس كالحرير وهادئاً مما ساعد
على إيجابية عمل المجاديف . وبعد الاحتماء بالجزيرة وجد الأتراك متسعاً
من الوقت للنزول إلى اليابسة للبحث عما تبقى من حطام السفينة التى
ارتطمت الليلة الماضية بالصخور ، لكن السماء استنكتت - كديدها معى -
التخفيف عنى والتفريج عن همى برؤية جسد ليونيسا بين ذراعى حيتى
ولو كان جثة هامدة وموزعاً إلى أشلاء ، فقد كان هذا بمثابة كسرٍ لطوق
الطالع التعس المستحيل الذى لازمنى وبدد نواياى الحسنة فى الانفراد بها
وهى على قيد الحياة ، ولذا ناشدت واحداً من المسلمين كان يهيمُ بالنزول
إلى البر بالبحث عنها بين الحطام الذى حمله اليمُ إلى الشاطئ ؛ لكن السماء
أنكرت على هذا أيضاً - كما سبق وأخبرتكم - لأن الرياح نشطت من عقالتها
مجدداً فى تلك اللحظة مما جعل الاحتماء بالجزيرة أمراً لا جدوى منه .
حين أحس "فتح الله" بهذا لم يرد معاندة سوء الحظ الذى يتعقبه وأمر بنشر
الشرع الأمامى قليلاً ؛ جاعلاً مقدمة السفينة فى اتجاه البحر ومؤخرتها فى
اتجاه الريح ؛ وبعد إمساكه بالدفة ترك السفينة تنطلق صوب البحر الخصم

وكله أمل فى عدم الاصطدام بعائق يفسد عليه الطريق . كانت المجاديف على جانبى السفينة تعمل بحركات توقيعية متساوية وكل رجل فيها مستقر فى مكانه ، سواء على المقاعد أو بالقرب من الفتحات والمزاغل لِسدها ؛ ولا يظهر منهم سوى قائد فريق التجديف الذى احتاط بربط نفسه فى العمود الموجود بين مؤخرة السفينة وصفى المجاديف . كانت السفينة تنزلق بسرعة على صفحة الماء وخلال ثلاثة أيام بلياليها مررنا من بعيد على "ترابانا" و "ميلاثو" (٦) و "باليرمو" إلى أن دخلنا مضيق "مسينا" وسط دهشة من كانوا على متن السفينة ومن كانوا على اليابسة يتطلعون إلينا .

خلاصة القول، حتى لا أطيل عليك فى حكاية تفاصيل العاصفة الهوجاء التى داهمتنا، إننا وصلنا بعد لآى منهكين جوعى إلى طرابلس "البربرية" حيث لم يمهل مرض الجنب سيدى ليقدم كشفاً بغارته وما حققه فيها من أسلاب وغنائم - وللملك فيها الخمس كما جرت العادة لديهم - إذ برحت به الآلام ولم تكد تمضى ثلاثة أيام حتى فاضت روحه لتأخذ مكانها فى سقر. وزعت ثروة "فتح الله" بالتساوى بين والى "طرابلس" وصاحب الموتى الذى يمثل الباب العالى هناك، وهو - كما تعرف - يرث من لا ورثة له ؛ وكنت من نصيب والى "طرابلس" الذى وصله بعد خمسة عشر يوماً أمر تعيينه على جزيرة قبرص ، وأتيت معه إلى هنا راسفاً فى أغلال العبودية دون أن أحاول افتداء نفسى من الأسر علماً بأنه أعرب لى مرات عديدة عن رغبته فى إطلاق سراحى مقابل فدية لأنه علم بأهميتى من رجال فتح الله، لكننى لم أستجب له وقلت له إنهم خدعوك بمبالغتهم فى تقدير منزلتى وإمكانياتى المادية . ولو أردت أن أقضى إليك - يا محمود - بما يعتمل فى صدرى سأعترف لك بأننى لا أود العودة إلى أية بقعة على ظهر الأرض أجد فيها ما يسرى ويخفف عنى ؛ وعلى خلاف هذا ، أتوق باقترانى بحياة الأسر أن تلاحقنى دائماً وأبداً أحزان وذكريات موت "ليونيسا" حتى تصبح

(٦) ميلاثو أو MILAZZO: ميناء على الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة صقلية . (المترجم)

جزءاً منى . ولو كانت الآلام المستمرة تقضى - حقاً - قضاءً مبرماً على من يكابدها ، فإن الآلى لن تتمكن من الانحراف عن هذه الجادة لأننى أفكر فى إطلاق العنان لها حتى تنال فى بضعة أيام من الروح البائسة التى ترفرف بين جنبى رغماً عنى .

آه ، يا أخى محمود !، هذه هى حكايتى التعيسة ، وهذا سر زفرائى ودموعى ؛ ولتحكم أنت إن كان كافياً لانتزاعها من أعماق حشايتى وضخها فى جفاف صدرى الموجوع . ماتت "ليونيسا" ومعها دفنت آمالى التى كانت تتغذى حال حياتها على شعيرة رفيعة . أما الآن ، أما الآن

وعند وصوله إلى "أما الآن" التصق لسانه بسقف حلقه ولم يقو على إضافة كلمة أخرى أو إمساك الدموع التى أخذت تنسال - كما يقال - خيوطاً غزيرة على وجهه حتى بللت الأرض من تحته . كان محمود شاهداً ، ولما مرت فترة التوقف التى تسببت فيها الذكرى المتجددة للقصة المريرة حاول التخفيف بكل ما فى جعبته من وسائل عذاب عن "ريكاردو" لكن الأخير قاطعه قائلاً :

- ما عليك أن تفعله ، يا صديقى ، ونجتهد فيه هو إرشادى إلى ما يستوجب غضب وسخط مولاي وكل المحيطين بى لكى أفعله بغرض شحن قلوبهم بالعداوة والبغضاء وجعل هؤلاء وأولئك لا يدخرون وسعاً فى الإساءة إلى والتكيل بى ؛ وبهذا الشكل تتجمع الآلام والكروب ويتراكم بعضها فوق بعض وأبلغ فى أمد قصير مرادى فى التخفف من عبء الحياة .

- الآن - قال محمود - تحققت من صدق المثل القائل بأن حرارة الكلام مرهونة بكم المشاعر التى يعتمل بها صدر الإنسان ، مع أن الأحاسيس قد تلجم فى بعض الأحيان اللسان ؛ وفى كافة الأحوال - سواء كان ألمك هو الذى يفجر كلماتك أو كانت هى التى تسبقه وتتفوق عليه - لابد أن تعتبرنى صديقك الصدوق وناصحك الأمين . وبالرغم من أن حادثة سنى وارتدائى لهذا الزى قد يغريان بفقدان الثقة فيما أعدك به إلا أننى سأحاول بشتى السبل تبديد تلك المخاوف والشكوك ؛ ومع أنك لا تريد قبول نصحى ولا يدى الممتدة إليك فلن أترجع عن عمل ما يناسبك ويخرجك من ورطتك ،

مثلاً يحدث بالضبط مع المريض الذى يطلب ما يمنعه عنه ويقدمون إليه ما يرفضه . اعلم أنه لا يوجد فى طول هذه المدينة وعرضها رجل - دون استثناء لمولاك القادم واليا عليها - يدانى القاضى نفوذاً وسلطة؛ وانطلاقاً من هذه الحقيقة التى لا مرأى فيها لا أبالغ إن صرحت لك بأننى الأعلى مقدرة فيها ، هذا لأن سيدى لا يرفض لى طلباً ولا يرد لى مشورة نظراً لمكانتى السامية عنده . أقول لك هذا كى تنعم فيه النظر وتلزم جانبى ، سيفصح لنا الزمن عما يجب عمله لصالحنا نحن الاثنين : لجلب السلوى لك إن أردتها أو أمكنك تقبلها ، وللخروج - بالنسبة لى - من هذه الحياة إلى ما هو أفضل، منها أو - على الأقل - إلى مستقر آمن لروحي عندما تحين ساعتى .

- أشكر لك ، يا محمود ، عرض الصداقة هذا ، وإن كنت على يقين بأنك مهما فعلت فإن تستطيع تحقيق شيء ذى نفع لى ، لكن دعنا الآن من الكلام وهلم بنا إلى الخيام لأنى أشاهد لمة كبيرة قادمة من المدينة وأغلب الظن أنها الحاشية المصاحبة للوالى المخلوع فى طريقها إلى مقر إقامتها بالمعسكر المضروب لها حتى يتسنى لسيدى دخولها وإعداد مسكنه الجديد بها .

- هيا بنا، إذن ، يا "ريكاردو" لتشاهد مراسم حفل الاستقبال الذى سيعجبك دون شك .

- على بركة الله يا محمود، ربما أحتاج إليك لو افتقدنى الجندى المكلف بحراسة الأسرى، وهو قرصان كافر قاسى القلب لا يعرف الرحمة .

أمسكا عن الحديث ووصلا إلى مضارب الخيام مع وصول الباشا القديم وخروج الجديد لاستقباله على باب الخيمة .

كان على باشا [الوالى المخلوع] قادماً بصحبة جميع رجال الإنكشارية حامية نيقوسيا بعد سقوطها فى أيدي الأتراك ، ويصل تعدادها إلى حوالى [خمسمائة] . تراصت الحامية فى صُفين على باب خيمة الوالى الجديد حسان باشا : صف يحمل البنادق والآخر سيؤفا مسئلة من أعمادها . أدى على باشا التحية منحنيًا لحسان ، وردَّ عليه الأخير تحيته بانحناءة أقل . دخل على بعد ذلك الخيمة الكبيرة ؛ وقَدَّم الأتراك

لحسان جواداً قوياً مطهماً بأفخر السروج ليركبه ثم طافوا به على الخيام التي تعالت منها الأصوات والصرخات لتملاً المعسكر والقضاء المحيط به هاتفة باللغة التركية : "يعيش السلطان سليمان، يعيش حسان والى السلطان" . كرروا الهتافات ، رافعين فى كل مرة صراخهم وجوارهم بصورة أشد ، وبعد إتمام الطواف بجميع بقاع المعسكر أعادوه إلى الخيمة التي كان ينتظر فيها على باشا بصحبة القاضى ، ثم اجتمع ثلاثتهم لمدة ساعة .

أخبر محمود "ريكاردو" أنهم انفردوا ببعضهم ليتفقدوا على كيفية إنجاز المشروعات التي بدأها على فى المدينة ولم تنته . بعد فوات ما يزيد قليلاً عن ساعة خرج القاضى إلى باب الخيمة ونادى بأعلى صوته - باللغة التركية أولاً ثم العربية ثم اليونانية - قائلاً : من له حاجة أو مظلمة عند الوالى القديم يمكنه التقدم للمطالبة بها دون خوف أو رهبة لأن حسان باشا المعين من قبل الباب العالى والياً على قبرص يكفل العدالة لكل ذى حق . عند سماع هذا التصريح أخلى رجال الإنكشارية الباب أمام الراغبين فى الدخول . استأذن محمود فى إدخال "ريكاردو" معه ، ولما كان الأخير أحد موالى الوالى الجديد فقد صرح له بالدخول .

دخل لطلب العدالة مسيحيون يونانيون وبعض الأتراك ، وكانت مطالبهم تافهة استوفاهما لهم القاضى فى الحال بدون محلفين أو سماع لدفاع ، هذا لأن كافة القضايا عندهم - ماعدا الزوجية منها - تنظر ويفصل فيها على الفور استناداً إلى وجهة رجل كفاء لا إلى قانون محدد . ومن بين هؤلاء البرابرة - وهم كذلك بالفعل فيما يخص تلك المسائل - فإن القاضى هو المخول بالنظر فى كافة القضايا التي تعرض عليه فى لحظة ليصدر فيها حكمه فى أقل من طرفة عين ، ولا يستطيع أحد الاستئناف أمام هيئة قضائية أخرى (٧) .

وفى أثناء شغلهم بهذا دخل الحاجب ليعلن أن بالباب يهودياً يريد بيع مسيحية رائعة الجمال . أذن له القاضى بالدخول وعندئذ خرج الحاجب ثم عاد بصحبة

(٧) لاشك أن المؤلف إما أن يكون على جهل تام بمنهاج وإجراءات وأسس القضاء فى الإسلام ، أو أنه يحاول خيبت الليل منه ؛ ولذا جاء رأيه هذا مجافياً للحقيقة . (المترجم)

يهودى وقور يمस्क بيد امرأة ترتدى ثياباً بربرية محتشمة موشاة بالقصب تبرز أفخر ما تتحلى به مسلمات أغنى بيونات فاس والمغرب اللاتى تتميزن من بين كافة نساء شمال إفريقيا - دون استثناء للجزائريات بلآلهن التى لا تحصى - بولعهن الشديد بالملابس الفاخرة المرصعة بالأحجار الكريمة . كان وجهها مغطى بخمار قرمضى ، وعلى عرقوبها يتأرجح خلخالان لا تخطيء العين فى أنهما من الذهب الخالص ، وتحت كمى قميصها الحريرى الرقيق الشفاف تلمع أساور ذهبية مرصعة باللؤلؤ . لقد كانت - باختصار - ترتدى ثياباً فاخرة ، مزينة - فى تناسق خلاب - بالأحجار النفيسة .

سر القاضى وصاحبه بجمال الطلعة وبراعة الاستهلال، وقبل أن يتفوهوا بكلمة أو يتوجهوا بسؤال أمروا اليهودى برفع الخمار من على وجهه المسيحية . امتثل لأمرهم وكشف عن وجه أعشى بريقه أبصار الحاضرين وأسعد قلوبهم، كالشدهس التى تتراءى للعيون العاشقة لها بين طيات السحب الكثيفة بعد ظلمة مطبقة . لكن وقع النور الرائع الوضاح الذى كشفت عنه الحجب لم يؤثر فى أحد مثل تأثيره فى الموجوع "ريكاردو" لأنه لم يكن سوى نور حبيبته القاسية ليونيسا التى جرت دموعه أنهاراً حسرة على موتها . بهت على باشا وظل مسلوب اللب مستسلم القلب بعد النظرة الفجائية التى وجهها لجمال المسيحية الفريد، وبالكيفية نفسها وبالجرح ذاته أصيب قلب حسان باشا، ولم يسلم القاضى أيضاً من سهام الحب الجارحة وظل يحملق فاقد الوعى فى مفاتن ليونيسا . ولتأجج وهج قوى الحب القاهر، تولد فى قلوب ثلاثتهم فى آن واحد أمل راسخ فى إمكانية امتلاكها والاستمتاع بها؛ وهكذا ودون رغبة فى معرفة كيف ولا أين ولا متى وقعت فى يد اليهودى، سألوه عن المبلغ المطلوب فيها .

طلب اليهودى الجشع ألفى اسكودو ذهبية، ولم يكد يتم كلامه حتى أخبره على باشا بموافقته وطلب منه مرافقته إلى خيمته لينقده إياها ؛ لكن حسان باشا، الذى بدا وكأنه لن يفرط فيها ولو أضاع من أجلها حياته ، رفع صوته قائلاً :

- أنا أيضاً على استعداد لدفع ما طلبه اليهودى، ولا أقصد بهذا التعدى على حق على باشا أو منافسته بل لأحقية السلطان وحده فى الظفر بهذا الجمال؛ ومن ثم أعلن على الملأ أنني أشتريها له؛ ولننظر الآن من سيجرو على انتزاعها منى .

- أنا بها أولى - رد على بحدّة - لأننى للغرض نفسه أشتريها، ولأننى ذاهب بعد أيام قلائل لتقديم كشف حساب للباب العالى ولذا فمن المناسب أن أكون المنوط بتوفير سبل الراحة لها لحين حملها بعد ذلك إلى القسطنطينية لكي أكسب رضا عظمتها، فأنا، يا حسان، قد أصبحت، كما ترى، رجلاً عادياً، دون ولاية أو وظيفة، ومن حقى استخدام كافة الوسائل للحصول على غيرها؛ أما أنت فقد أمنت نفسك لثلاث سنوات قادمة وستبدأ من اليوم تولّى سلطة مملكة قبرص الغنية . لهذه الأسباب مجتمعة ولأسبقيتى فى شراء الأسيرة أطلبك بالتعقل وتركها لى .

- إننى أستحق - رد حسان - الشكر العميم لاجتهادى فى شرائها دون مطمع فى مقابل أو انتظار لقضاء مصلحة، أما بالنسبة لمسألة تدبير سبل الراحة لها فإننى سأجهز سفينة عظيمة تحملها وحدها ولن يرافقها سوى موالى وطاقم الخدمة .
تغير وجه على ؛ انتفض واقفاً ثم استل سيفه وصاح قائلاً :

- بما أننى أريد حمل هذه المسيحية وتقديمها للسلطان ولأننى تقدمت أولاً لشرائها أطلبك - من منطلق العدل والحكمة - بنسيان أمرها؛ لو راودتك نفسك بغير هذا سيتكفل السيف الذى أقبض عليه بالدفاع عن حقى ووأد تطاولك .

أما القاضى الذى كان يقظاً لكل ما يدور حوله ولا يقل عن الاثنين تلظياً لشدة خوفه من ضياع المسيحية منه ، فقد اختمرت فى رأسه فكرة يستطيع بمقتضاها إخماد النيران المندلعة والظفر فى الوقت نفسه بالأسيرة دون إثارة الشبهات حول مقصده الخبيث ؛ وهكذا فقد نهض واقفاً وحال بين الخصمين المتواجهين صارخاً فيهما :

- هدى من روعك يا حسان، وأنت يا على أمسك عليك نفسك؛ أنا هنا ولن أعدم وسيلة لرأب الخلاف بينكما وتحقيق أهدافكما فى خدمة الباب العالى .
أذعنا لكلامه؛ ولو أمرهما بما هو أعظم لفعلا .. كثير من التجلّة يكنها أهل تلك الطائفة المعيبة لشيوخهم . تابع القاضى كلامه :

- نقول يا على إنك تريد هذه المسيحية للباب العالى، ويدعى حسان الشىء نفسه، وتستند فى أحقيتك بها إلى أسبقيتك فى تقديم ثمنها ، وحسان

ينازعك هذا الحق • وبالرغم من أن حساناً لا يستطيع تعضيد دعواه إلا إننى أجده متساوياً معك فى الحق لتزامن نوايا كما فى شراء الأسيرة للغرض ذاته ؛ تمتاز عنه فقط بأسبقية الإعراب عن رغبتك وإن كان هذا لا يعنى الإطاحة كلية برغبته الحميدة ؛ وبعد الإحاطة بملاسات القضية أرى أن حلها الأمثل كالتالى: تشتركان فى شراء الأسيرة وتتركان أمر التصرف فيها للباب العالى لأنها اشترت من أجله ، ومن هنا عليك يا على تسديد نصف ثمنها وحسان النصف الثانى وتبقى الأسيرة فى حوزتى حتى أرسلها معززة مكرمة - باسميكما - إلى الباب العالى ، ولأن من واجبى المساهمة بشيء ما دمت حاضراً فسأتطوع بإرسالها على نفقتى الخاصة محاطة بأسمى آيات التبجيل والتكريم الواجبة لشخص المرسل إليه ، وأعدكما بكتابة كل ما جرى هنا للباب العالى وإبراز حرصكما على التفانى فى خدمته .

أسقط فى يدى العاشقين التركيبين ولم يجروا على مخالفته، ومع أنهما لم يتمكنوا من تحقيق ما يصبوان إليه من هذا الطريق ولم يكن أمامهما غير موافقة هوى القاضى إلا أن كلا منهما لم يفقد الأمل فى الاهتداء إلى وسيلة أخرى لإشباع رغباته المتأججة • فكر حسان - الذى سيبقى فى قبرص والياً - فى إمطار القاضى بوابل من العطايا تننيه عن عزمه وتجبره على تسليم الأسيرة له . وعلى بدوره ، لمعت فى رأسه حيلة محكمة اعتقد أنها ستوصله لا محالة إلى الظفر ببغيته . ولما اطمأن كل منهما لفاعلية التدبير الذى أضمره لتحقيق غرضه أقدما - طواعية ودون تكلؤ - على تنفيذ حكم القاضى ، إذ سلما له الأسيرة بعد تسديد ثمنها مناصفة بينهما . قال اليهودى إن الثوب والحلى لا يندرجان فى الصفقة لأنهما كلفاه ما لا يقل عن ألف إسكودو . لم يكن اليهودى يكذب لأن خصلات شعرها المنسابة على ظهرها أو الملفوفة على جبهتها كانت مجدولة - فى روعة وإتقان بالغين - بعناقيد من اللؤلؤ . كما كانت الأساور والخلخالان مطعممة أيضاً بفصوص كبيرة من اللؤلؤ . أما الثوب الحريرى الأخضر السادة الذى يغطيها من الرأس حتى أخمص القدمين فقد كان مشغولاً بصفائر ذهبية : ونظراً لفخامة الثوب وكَم الأحجار الثمينة فقد بدا واضحاً للعيان تفاهة المبلغ الذى طلبه اليهودى فيهما . بادر القاضى - حتى لا يكون أقصر

باعاً من صاحبيه - بعرض تسديد قيمة الثوب والجواهر لكي تظهر الأسيرة أمام السلطان بنفس صورتها الحالية . قبل غريماء عرضه بامتنان وفي مخيلة كل منهما أن الأسيرة وما عليها سيولان إليه فى نهاية المطاف .

تبقى الإشارة إلى إحساس "ريكاردو" وهو يرى حشاشة قلبه قيد البيع والشراء، والخواطر التى اعتزته آنذاك ، والمخاوف والآلام التى اهتصرته وهو يشاهد - مغلول اليدين - الضياع المؤكد لكنزه الثمين ساعة العثور عليه . اختلط عليه الأمر فلم يعد يدري إن كان نائماً أو مستيقظاً؛ لم يصدق ما تراه عيناه إذ تصور استحالة أن يجدا أمامهما - هكذا بغتة - من ظن أنه أطبقهما عليها إلى الأبد . اقترب وسط هذه المشاعر التى تصطرع فى نفسه من صديقه محمود وسأله:

- ألا تعرفها، يا صديقى ؟

- لا أعرفها .

- اعلم، إذن ، أنها ليونيسا .

- ماذا تقول، يا ريكاردو ؟

- ما سمعته أذنالك .

- اصمت، إذن ولا تُفصح عن هويتها - قال محمود - يبدو أن الأقدار قد صالحتك لأنها ستكون فى حوزة مولاي .

- ألا ترى أنه من الصواب الوقوف بمكان ترانى فيه ؟

- لا تفعل - أجاب محمود - حتى لا تضطرب عند رؤيتك وعندئذ تخور قواك ويكشف المستور، واجتهد فى عدم الإتيان بإشارة تنم عن معرفتك إياها لأنك لو ارتكبت هذه حماقة ستفسد على تدبيرى .

- سأنفذ تعليماتك وأتبع نصائحك .

اجتهد بعد ذلك فى تفادى التقاء نظرتيه بعينيها اللتين ظلنا طوال المشهد السابق مسمرتين فى الأرض وماقيهما مغرورقتان بالدموع . اقترب منها القاضى وأمسك بيدها ثم أسلم قيادها لمحمود أمراً بإياه باصطحابها إلى المدينة وتسليمها لسيدته حليلة مع توصيتها بإكرام وفادتها ومعاملتها المعاملة اللائقة بجارية الباب العالى . انصرف

محمود لشأنه وترك "ريكاردو" يتتبع بعينه نجمته الشاردة إلى أن توارت خلف سحابة أسوار نيقوسيا . اقترب "ريكاردو" من اليهودى وسأله عن المكان الذى اشترى منه الأسيرة المسيحية وعن كيفية وقوعها فى يده ؛ أخبره اليهودى أنه اشتراها من بعض الأتراك فى جزيرة "بنتنالية" ، ولم يكمل حديثه لأن نداء صدر إليه من الوالدين _ الجديد والمخلوع - اللذين كانا يريدان الاستفسار عما أراد "ريكاردو" سماعه ، ولذا فقد تركه واتجه إليهما . فى الطريق إلى المدينة انتهز محمود الفرصة وسأل ليونيسا - باللغة الإيطالية - عن المكان الذى تنتمى إليه . أجابته "ليونيسا" إنها من "تراباننا" . سألها ثانية إذا كانت تعرف فى تلك المدينة نبيلاً ثرياً يدعى "ريكاردو" ، تنهدت بحرقة وقالت :

- نعم أعرفه ، لسوء حظى .

- لسوء حظك ، كيف ؟

- لأن إصراره على اقتحام حياتى هو السبب فيما أنا فيه .

- وعلى سبيل المصادفة ، ألا تعرفين بالمدينة ذاتها شاباً حسن الهندام ، بهى الطلعة ، وشديد الحرص والخوف على نفسه ، له أبوان ثريان ثراء فاحشاً ، يدعى "كورنيليو" ؟

- أعرفه هو الآخر ، لكن من أنت أيها السيد كى تعرفهما بهذا الشكل وتسألنى عنهما ؟

- أنا من مواليد "باليرمو" وبعد سلسلة من الأحداث وجدت نفسى فى هذا الزى المختلف عما اعتدت ارتدائه ، وأعرفهما لأنهما كانا فى حوزتى منذ أيام قلائل : "كورنيليو" أسره نفر من "طرابلس" البربرية ثم باعوه لرجل تركى من "رودس" أحضره مع بضائعه إلى هذه الجزيرة ، وقد عهد إليه بجميع ممتلكاته .

- إنه يعرف كيف يحافظ جيداً عليها مثل حرصه على ماله ؛ لكن أخبرنى أيها السيد كيف ومع من أتى "ريكاردو" إلى هذه الجزيرة ؟

- أتى مع قرصان قال إنهم أوقعوا به فى حديقة على ساحل "تراباننا" ، كما أفاد عن أسر آنسة معه ، لكنه لم يفصح عن اسمها . أمضى هنا عدة أيام

برفقة مولاه الذى كان فى طريقه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ، ولما حان موعد السفر مرض "ريكاردو" مرضاً أقعده عن النهوض ولم يعد فى حالة تسمح له بالرحيل ، عندئذ تركه لى سيده - بعدما عرف أننى من بنى وطنه - لكى أشرف على علاجه وعهد إلى بأمر الاحتفاظ به لحين عودته من رحلته أو إرساله على العنوان الذى سيخبرنى به إذا قرر الاتجاه من الأراضى الحجازية إلى القسطنطينية . لكن "ريكاردو" لم يسلم من الداء وقضى نحبه فى أيام قلائل وكان يهذى وهو فى سكرة الموت ويغمغم باسم "ليونيسا" ويقول إنه يحبها أكثر من حياته وروحه . ذكر أيضاً أن تلك الأنسة غرقت بعد ارتطام السفينة التى كانت تقلها بشواطئ جزيرة "بنتنالية" . البائس ظل يبكيها ويتحسر عليها حتى أودت الأحزان بحياته فى النهاية ؛ لأننى - والحق يقال - لم ألاحظ عليه أعراض علة جسمية وأغلب الظن أن آلام الروح هى التى عجلت بنهايته المفجعة .

- هذا الشاب الذى تتحدث عنه (كورنيليو) ، ألم يذكر ذات مرة فى الأحاديث التى جرت بينكما ، وأظنها كثيرة ومطولة لانتسابكما إلى موطن واحد ، عن كيفية وقوع "ريكاردو" و "ليونيسا" فى الأسر ؟

- نعم تكلم ، وسألتنى إذا كانت قد نزلت بهذه الأرض مسيحية تدعى "ليونيسا" أوصافها كذا وكذا لأنه ينوى شراءها إشباعاً للنزوة ألّمت به فى الماضى ، ولأن الثمن الذى سيطلبه مالکها لن يزيد بأى حال عن ثلاثمائة أو أربعمائة إسكودو خاصة إذا تبين له أنها ليست غنية كما ظن فى البداية وبعد أن يكون قد قضى وطره منها وزهدها .

- لا بد أنها نافهة جداً إذ لا تتجاوز قيمتها أربعمائة إسكودو ، "ريكاردو" أشد أريحية إذن وأكثر شجاعة وسخاء وأعظم قدراً : غفر الله لمن كانت سبباً فى هلاكه ، أى لى أنا لأننى التعيسة التى بكى موتها ، ويعلم الله كم كنت سأسدد دين الشقاء الذى كابده من أجلى لو ظل على قيد الحياة . أنا - أيها السيد - كما سبق وأعلنت ، من لم يقدرها "كورنيليو" حق قدرها وركاها "ريكاردو" بحرقة ، وقد تعاورتنى أحداث جسام حتى أوصلتنى لهذا الوضع

البائس ، وبالرغم من خطورته إلا أنني مازلت - بفضل الله وعنايته - محافظة على شرفى وطهارتى ، وهذا مصدر سعادتى الوحيد وسط محيط تعاستى وشقائى . الآن ، لا أدري أين أنا ، ولا من هو مولاي ، أو إلى أين يمضى بى حظى العاثر ، ولذا أتوسل إليك بحق الدم الذى يجرى فى عروقك - أن تمد لى يد العون وترشدنى فيما يعن لى من أمور لأنها من كل لون وجنس، وكثرتها تشوش عقل اللبيب وتثير الحيرة فى كيفية التعامل معها .

أجابها محمود قائلاً إنه سيبذل قصارى جهده ولن يدخر وسعاً فى خدمتها ونصحها وتقديم العون لها، وأخبرها بما دار فى خيمة الوالى الجديد وبالخلاف الذى دب بينه وبين الوالى القديم بسببها، وكيفية انتقالها إلى عهدة سيده القاضى تمهيداً لإرسالها إلى السلطان سليم الثانى بالقسطنطينية ؛ كما حاول طمأننتها قائلاً إنه رغم ضعف مسيحته إلا أن أملاً كبيراً يراوده فى الرب الحقيقى بإسباغ نعمته عليها وتخليصها من هذا المأزق ، ونصحها بالتودد إلى حليلة -زوجة القاضى - التى ستظل فى كنفها لحين سفرها إلى القسطنطينية وأخبرها بطباعها وأقصر الطرق للوصول إلى قلبها ؛ وظل يوصيها بأشياء أخرى حتى وصلا إلى البيت وعندئذ سلمها لزوجة القاضى بعد إبلاغها برسالة سيده وتعليماته .

استقبلتها المسلمة استقبالاً حسناً ورحبت بها حين شاهدت جمالها الفتان وثيابها الأنيقة الرائعة . عاد محمود إلى المعسكر ليقص على "ريكاردو" ما جرى بالتفصيل مع "ليونيسا" فى الطريق إلى بيت القاضى، وعندما وصف له مشاعرهما نحوه بعد سماعها خبر موته المختلق اغرورقت عيناه بالدموع . كما أخبره باختلاقه لقصة أسر "كورنيليو" ليتعرف على رد فعلها ، وأنها تحدثت عنه بفثور وكثير من الغمز واللمز . أثلج كل هذا صدر "ريكاردو" الذى التفت إلى محمود قائلاً له :

- جعلتنى أتذكر - يا صديقى محمود - حكاية قصها على والدى ، وأنت تعرف ما كان يتمتع به من كياسة وسعة أفق ، وسمعت عن تكريم الإمبراطور "كارلوس الخامس" له نظراً لتفانيه فى خدمته ولوفائه بالمسئوليات الجسام فى جميع الحروب التى خاضها إلى جواره . أخبرنى

والدى أن الإمبراطور ، بعد هجومه المظفر على تونس واستيلائه عليها بأسطوله البحري ، كان جالساً ذات يوم داخل سرادقه عندما ساقوا إليه أسيرة مسلمة رائعة الحسن والجمال . كانت أشعة الشمس تتسلل من بعض فتحات السرادق ولما دخلت الأسيرة وسقطت تلك الأشعة على جدائلها امتزج لونهاها ولم يعد بالإمكان التمييز بين شقريتيهما ؛ وهذا أمر غريب فى المسلمات المعروفات بالشعر الأسود الفاحم . كان حاضراً بالسرادق إلى جوار الإمبراطور عدد غير قليل من الفرسان والنبلاء الإسبان ، من بينهم شاعران مطبوعان : أحدهما أندلسى والآخر قطلونى . ولما شاهدها الأندلسى أكبرها وفجر جمالها ينباع الشعر على لسانه فطفق ينشد فيها على طريقة التوشيح ، ولما وصل إلى نهاية البيت الخامس أرتج عليه ولم يكمل الأنشودة لعصيان قافيتها وصعوبتها على الارتجال ؛ لكن الآخر ، الذى كان إلى جواره منصتاً ، حين لاحظ توقفه وكأنهم سرقوا من على لسانه النصف الباقي من الأنشودة تدخل وأكملها دون تغيير فى الوزن والقافية . جالت هذه الحكاية بخاطرى حين وقعت عيناي على ليونيسا وهى تتهادى إلى خيمة الباشا ، وجمالها الأخاذ لا يكسف أشعة الشمس فحسب بل سماء بكامل نجومها .

- مهلاً ، يا صديقى ريكاردو توقف ولا تتقدم خطوة أخرى لأنى أخشى عليك تجاوز الحد فى الفناء على جمال محبوبتك وبشكل تبدو فيه وكأنك لست مسيحياً بل صباً متهاكاً . أعد على أبيات هذه الأنشودة حتى ألتقط أنفاسى ، وبعدها نواصل الحديث فيما هو أجدى وأنفع .

- بكل سرور يا صديقى محمود . ها هى الأبيات العشرة التى ارتجلها الشاعران :

مثلما تشرق الشمس ،
صبيحة يوم صافٍ ،
وعلى غرة تأخذنا ،
ويطلعتها تخطف منا
الأبصار ، وتهدهدها .
درة من ياقوت أملس ،
لا تسمح بلمش أو بعقص ،

هكذا منها الوجه ،

رمح محمد بنصله الصلب

يفلق أحشائي ويمزقها .

- وَقَعَ هذه الأبيات يُسعد القلب وَيُشَفِّف الآذان ؛ يبدو أنك خلقت من أجل إنشاد الشعر لأن إنشاده وتأليفه يتطلبان مهجاً رفيقة مفعمة بالآشواق .

- إن رثاء الأحوال يا صديقي مثل التغنى بالقصائد لأن كليهما أشعار ؛ لكن دعنا من هذا وأطلعني على ما يدور بخلدك لحل مشكلتنا ، لقد كنت حاضراً ولم أفهم كلمة مما دار بين الواليين في الخيمة ، وفي أثناء غيابك أفهمني مولى لسيدى - وهو مرتد من "فينسا" يعرف التركية - تفاصيل الحوار بينهما ، وما علينا الآن عمله قبل أى شىء آخر يتمثل فى البحث عن وسيلة للحيلولة بين "ليونيسا" والوقوع فى يد السلطان التركى .

- يجب السعى أولاً لنقلك من ملكية حسان إلى حيازة سيدى القاضى ، وبعدها نفكر سوياً فى الحلول المناسبة .

وفى أثناء حديثهما هذا قَدِمَ الحارس المكلف بأسرى حسان باشا المسيحيين واقتاد "ريكاردو" . رجع القاضى بصحبة الوالى الجديد إلى المدينة ، وفى أيام قلائل انتهى من إعداد كشف الحساب الذى وضعه فى مظروف ثم سلمه بعد غلقه وختمه - لعل باشا كى يحمله إلى القسطنطينية . طلب على باشا من القاضى توخى السرعة فى إرسال الأسيرة إلى الباب العالى ومعها كتابه الذى وعد به حتى يتمكن من تحقيق ما يصبو إليه قبل فوات الأوان . وعده القاضى اللئيم المتيم بتنفيذ طلبه فى أقرب فرصة . انصرف على مفعماً بالأمال الخادعة التى لا يخلو منها أيضاً قلب حسان ، ونجح محمود فى مسعاه ونقل "ريكاردو" لحيازة سيده . كانت رغبة "ريكاردو" فى رؤية "ليونيسا" تزداد بمرور الأيام وتقض عليه مضجعه . غير "ريكاردو" اسمه واستبدله بـ "ماريو" لتفادى سماع "ليونيسا" لاسمه الحقيقى قبل رؤيتها له ، ولم يكن لقاؤها بالأمر الهين ذلك لأن المسلمين شديداً الغيرة على نسائهم اللاتى يغطين وجوههن فى حضرة الغرباء ، وإن كن لا يعبان بتنفيذ هذا الالتزام أمام الأسرى المسيحيين ، وربما يرجع هذا لاعتبارهم ناقصى الرجولة .

ذات يوم ، تقابلت حليلة مع "ماريو" ودققت فيه النظر فانطبعت عندئذ صورته في قلبها . فارنت بين فتوته وبين وهن ذراعى زوجها فمالت إليه وكلفت به . أسرت بمكنون صدرها إلى "ليونيسا" التى أحببتها لجمالها وخبرها وحسن تصرفاتها ، وكانت تعاملها باحترام جم على اعتبار أنها جارية السلطان المعظم ، أخبرتها أن زوجها أحضر إلى الدار أسيراً مسيحياً جميلاً الطلعة حلو الشمائل لم تقع عيناهما من قبل على رجل مثله ، وعلاوة على هذا فهم يقولون عنه إنه عريق الأصل ومن مسقط رأس محمود ، ولا تدرى كيف تطلعه على مكنون صدرها دون أن تجعله يحقرها أو يستصغر شأنها لعرض نفسها عليه . سألتها "ليونيسا" عن اسمه فقالت لها "ماريو" ؛ عندئذ أجابتها "ليونيسا" قائلة :

- إن كان رجلاً أصيلاً نسياً ومن المكان الذى أخبروك به فلا بد أننى أعرفه ، وإن كنت لا أذكر أحداً بهذا الاسم فى "ترابانا" ، وعلى أى حال دعينى أراه وأكلمه وساعتها سأتيك بالخبر اليقين وأعرفك بما يمكن انتظاره منه .

- لك على هذا - قالت حليلة - عندما يذهب القاضى لأداء صلاة الجمعة بالمسجد سأذن له بالدخول هنا حتى تتمكنى من التحدث إليه على انفراد ، ولو وجدت الفرصة سانحة للتلميح له برغبتى فافعلى بحذر وكياسة .

لم تكد تمضى ساعتان على هذا الحوار بين حليلة وضيفتها حتى نادى القاضى على محمود و "ماريو" وكاشفهما بأمر مشابه : لقد أقضى العاشق العجوز بلواعجه لموليه وطلب منهما إهداء النصيح فى كيفية التمكن من الاستمتاع بالمسيحية والوفاء - فى الوقت نفسه - بعهدده فى إرسالها إلى الباب العالى ، كما اعترف لهما بتفضيله للموت آلاف المرات على تسليمها طاهرة الذيل للسلطان . أفصح لهما رجل الدين المسلم عن رغبته ، وأخذ كل طرف منهما يفكر لحسابه الخاص . أقنعاه بضرورة قيام "ماريو" - لأنه من بلدها وأقدر الناس على التعامل معها رغم عدم معرفته السابقة بها - بمفاتحتها فى الأمر ونقل رغبة سيده إليها ، فإن لم تستجب وترضخ يستخدم عندئذ القوة معها ، وساعتها لن يجبرها أحد منه لأنها فى حوزته ونزيلة داره . وبعد أن يقضى منها وطره يدعى موتها ، وبهذا الشكل يتحلل من التزام إرسالها إلى القسطنطينية . سر القاضى بنصيحتهما وحملته البهجة المتخيلة على وعد محمود

بالحرية والتوصية له بنصف ثروته بعد مماته ، كما وعد "ماريو" بالعتق وبالأموال الكثيرة التي تساعد على العودة إلى وطنه غنياً مكرماً . إذا كان القاضي سخياً فيما وعدهما به ، فإن الأسيرين كانا أسخى منه عندما أوهماه بإمكانية الارتقاء إلى القمر المنير في عليائه ، ولقد طلبا منه - من أجل تحقيق رغبته - ضرورة عمل الترتيبات المناسبة ليتم اللقاء بين "ماريو" و "ليونيسا" دون أية منغصات .

- سأتكفل بهذا الأمر - قال القاضي - سأرسل حليلة إلى بيت أبيهما (وهما مسيحيان من أصل يوناني) لقضاء بضعة أيام هناك ، وفي أثناء غيابها سأمر البواب بالسماح لماريو بدخول البيت وقتما يشاء ، ومن جهة أخرى سأخبر "ليونيسا" أن بوسعها الجلوس إلى ابن بلدها والتحدث معه كلما رغبت في ذلك .

وهكذا بدأ الحظ يبتسم لريكاردو وتهب الرياح لصالحه بعد طول غياب وإن كان لا يدري ما ستسفر عنه المحاولة .

بعد اختصار الأفكار في ذهن كل طرف من الأطراف الثلاثة كانت حليلة - لطبيعتها النسوية وشدة تهالكها في إشباع رغبتهما - هي الأسبق في إخراجها لحيز التنفيذ . أخبرها القاضي في ذلك اليوم بإمكانية الذهاب لبيت أبيهما للاستراحة والاستجمام الوقت الذي تريده . ولما كانت مفعمة بالآمال العريضة التي منتها بها "ليونيسا" للانتقال إلى الفردوس الأعلى فقد أجابته بعدم رغبتها في الذهاب حالياً ، وبأنها عندما تحس بالحاجة للترويح عن نفسها بالذهاب إلى بيت والديها ستحيطه علماً بذلك وساعتها ستصطحب معها "ليونيسا" .

- أما هذا فلا - رد القاضي بحدة - فهي جارية الباب العالي ولا ينبغي أن يراها أو يتحدث معها أحد قبله ، خاصة إذا كان هذا الأحد مسيحياً ، وأنت تدركين تمام الإدراك أنها فور وصولها للسلطان ستعتنق الإسلام - طوعاً أو كرهاً - وتصبح تركية .

- ستكون معي ، وإن تتعرض لأي خطر نتيجة لوجودها في بيت أبوي لأنني أتعامل معهما وأتحدث إليهما دون أن يؤثر هذا على صدق إسلامي ؛ وبالإضافة إلى ما تقدم فإنني لا أنوى البقاء مدة طويلة عندهما ولن تزيد

إقامتى فى ضيافتهما عن أربعة أيام أو خمسة لأن حبى الشديد لك وشغفى
الجم بك لا يسمحان بفراقك أكثر من ذلك .

لم يتماد القاضى فى اعتراضه حتى لا يثير شكوكها فيما حزم عليه أمره .

جاء يوم الجمعة الموعود وانصرف القاضى إلى المسجد ليمكث فيه ما لا يقل عن
أربع الساعات ؛ وفور تخطيه لعتبة الدار أمرت حليلة بإحضار "ماريو" . لم يسمح له
القرصان المسيحى المكلف بحراسة بوابة الفناء بالدخول إلا بعد سماعه لصوت
حليلة، وهكذا دخل "ماريو" مشوشاً يرتعد فرقاً وكأنه مقبل على الاتهام بكنية من
جيش الأعداء .

كانت "ليونيسا" على الهيئة ذاتها وبالثياب نفسها التى دخلت بهما خيمة الباشا
جالسة عند مطلع سلم رخامى كبير يفضى إلى ممرات جناح الحريم . كانت رأسها
منحنية ومستقرة على كفها الأيمن الذى يعتمد ذراعه على ركبته ، وعيناها تتطلعان
إلى الجهة المقابلة للباب الذى دلف منه ماريو ؛ وبهذا الشكل فإنها لم تره عندما توجه
إلى حيث تجلس . مسح "ريكاردو" بعينه أرجاء المكان الصامت صمتاً أخرس مهيباً
حتى استقرنا أخيراً على البقعة التى تجلس فيها "ليونيسا" . حين أحس بأن عشرين
خطوة ، أو ما يزيد قليلاً ، تفصله عن مصدر سروره وسعاده ، وأنه أسير تقيض يد
غريبة على مفتاح مجده ، انبثقت فى رأسه على التوافكار متناقضة وخواطر أجمته
وأبهجته فى آن واحد . كان يتحرك آلياً ونفسه تصطرع بهذه الأشياء ، رويداً رويداً ،
بسرور وألم ، خائفاً يترقب ، حينما التفتت "ليونيسا" بغتة والتقت عيناها بنظرته
الفاحصة المتمعة . تباينت أحاسيس كل منهما عند التقاء النظرات . توقف
"ريكاردو" ولم يقو على إضافة خطوة أخرى إلى الأمام ، أما "ليونيسا" التى كانت
تعلم بخبر موته من محمود فقد انتابها ذعر شديد ، ودون أن يطرف لها جفن أو تدبر
ظهرها له ارتقت متقهقرة أربع درجات أو خمساً من السلم وأخرجت من صدرها
صليباً صغيراً وراحت تقبله بلا انقطاع بينما تشير على نفسها مرات ومرات بعلامة
الصليب وكأنها أمام شبح أو كائن لا ينتسب لهذا العالم .

ثاب "ريكاردو" إلى رشده وفهم الدافع الحقيقى لذعر "ليونيسا" منه ، ولذا قال لها:

- يؤسفنى عدم صدق خبر موتى الذى سمعته من محمود لأنه حرك الآن
مخاوفك منى . هدئى من روعك ، اهبطى وتسلحى بالشجاعة لفعل ما لم

تفعلية من قبل ، وهو الاقتراب منى ، تعالىً وسترين أننى لست شبحاً . أنا " ريكاردو " يا " ليونيسا " ، " ريكاردو " الذى أصابه ما لا تتصورين من ضرر .

وضعت " ليونيسا " إبهامها على فمها المغلق ، وفهم " ريكاردو " من الإشارة ضرورة الإمساك عن الكلام أو خفض الصوت على الأقل . تسلح ببعض العزم واقترب لمسافة أتاحت له سماع هذه الكلمات :

- اخفض صوتك يا " ماريو " فهذا هو اسمك هنا ولا تتفوه بكلمة خارج نطاق ما أنا مقبلة عليه حتى لا يكون حديثنا - لو سمعه أحد - سبباً فى الفراق ثانية . حليلة ، وأعتقد أنها تسترق السمع ، ذائبة فى هواك وقد جعلتنى سفيرة لغرامها . إذا كنت لا تمنع فتحرراً ألا يتعدى هذا نطاق المتعة الجسدية وألا يكون له تأثير على الروح ، أما إذا أبيت فعليك التظاهر بالموافقة لأنه من العته جرح كرامة امرأة كشفت النقاب عن لواعجها وأشواقها الملتهبة .

أجابها " ماريو " :

- لم أتصور مطلقاً ولم يدّر بخلدى ، أيتها الجميلة " ليونيسا " ، أن تطلبى شيئاً يشق على تلبيةه ، لكن ما تطلبينه قد خيب ظنونى . هل إرادة الإنسان تافهة إلى الحد الذى يمكن فيه للآخرين تحريكها والعبث بها كيفما شاءوا ؟ أو أنه من السهل على رجل مكتمل الرجولة ومحترم التظاهر فى أمور جليلة وخطيرة ؟ لو كنت تعتقدين فى إمكانية أو ضرورة القيام بمثل هذه الأمور ، فافعلى ما يحلو لك لأنك مليكة مشيئتى ، وإن كنت لا تعرفينها بالقدر الكافى ولن تدركى بالتالى ما يناسبها . وحتى لا تدعى أننى عصيتك فى أول شيء تأمريننى به سأخالف طبيعتى وألبى رغبتك وأتظاهر بقبول مراودة حليلة حتى لا أحرم من متعة رؤيتك ، ومن ثمّ يمكنك صياغة الإجابات التى تروك ، وأنا من موقعى هنا أبصم مقدماً عليها . وفى مقابل هذا الذى أفعله من أجلك - وهو أقصى ما يستطيع من وجهة نظرى - أرجوك وأستحلفك بالروح التى وهبتها لك مرات عديدة وعلى استعداد

لأن أهبها لك من جديد ، أن تقصى على بإيجاز كيف انتقلت من يد القراصنة إلى ملكية اليهودى الذى باعك مؤخرًا.

- حكايتى المأساوية تحتاج لفرط ما بها من أحداث لوقت طويل ، ومع هذا سأقص عليك أهمها . تعرف أنه فى نهاية اليوم الذى افترقنا فيه أعادت الرياح الهوجاء سفينة يوسف إلى جزيرة "بنتنالية" حيث شاهدنا سفينتك هى الأخرى هناك ، لكننا لم نتمكن من تفادى الصخور واصطدمنا بها . عندما أيقن يوسف من هلاكنا المحقق أفرغ بمهارة فائقة برميلين من الماء وأحكم غلقهما ثم ربطهما ووضعنى فوقهما ، تجرد بعد ذلك من ثيابه وأخذ بين ذراعيه برميلاً آخر وربط نفسه بطرف حبل وثبت الطرف الآخر فى برميلي . قفز إلى البحر غير هيّاب وحاول جذبى وراءه . لم تكن لدى الشجاعة لإلقاء نفسى مما حدا بتركى كان حاضراً لدفعى خلفه إلى البحر حيث سقطت فاقدة للوعى ولم أفق إلا عندما وجدت نفسى على البر بين تركيبين منكفئة على وجهى وأفرغ من جوفى كميات كبيرة من الماء الذى ابتلعته . فتحت عيني مذهولة فزعة ووجدت يوسف إلى جوارى وقد تمزقت رأسه إرباً . علمت بعد ذلك أنه عندما اقترب من الشاطئ الصخرى ارتطمت رأسه به ولقى مصرعه فى الحال . أخبرنى التركيان أنهما جذبانى من طرف الحبل الذى كان ملفوفاً حول وسط يوسف وأخرجانى إلى البر وأنا شبه ميتة . لم ينج من سفينة الموت التعيسة غير ثمانية أفراد .

مكثنا فى الجزيرة ثمانية أيام بلياليها عاملنى الأتراك خلالها وكأننى أخت لهم . ظللنا مختبئين فى مغارة لخوفهم من الوقوع فى أسر الحامية المسيحية المكلفة بحراسة الجزيرة ، ولم تكن نقتات إلا على ما تقذف به الأمواج من خبز السفينة الغارقة ويتسلل الأتراك فى جنح الظلام لجمعه من على الشاطئ . شاء حظى العاثر أن يموت قائد الحامية المسيحية بعد عدة أيام من احتمالنا بالمغارة مما أدى إلى هرب أفراد القوة التى لم يبق منها سوى عشرين جندياً . عرفنا هذه المعلومات من أحدهم ، وهو فتى تمكن الأتراك من أسره أثناء قيامه بصيد المحار من البحر . بعد ثمانية أيام شاهد الأتراك

سفينة تجارية للمسلمين تقترب من الشاطئ وعندئذ خرجوا من مكنهم وراحوا يرسلون بالإشارات التي تمكن الآخرون من التقاطها وفهمها نظراً لقرب المسافة . قصوا عليهم تفاصيل كارثتهم فاستقبلوهم بالترحاب علي متن سفينتهم التي كانت تقل تاجراً يهودياً ثرياً يحمل منسوجات وفرشاً وحاجيات أخرى ليبيعهما في الغرب . غيرت السفينة اتجاهها لتنتقل الأتراك إلى " طرابلس " وفي الطريق اشتراني منهم اليهودي بألف إسكودو، وهو مبلغ كبير حمله على دفعه وقوعه في غرامى، كما اتضح لى فيما بعد .

بعد وصول الأتراك إلى " طرابلس " استأنفت السفينة رحلتها، وعندها حاول اليهودي - بوقاحة - الإيقاع بى . قاومته بشراسة ورددت على رغباته الخرقاء بما تستحق ، ولما يس من الظفر ببغيته قرر التخلص منى فى أول فرصة تتاح له . عندما علم بوجود الباشا على والباشا حسان على أرض هذه الجزيرة وأدرك أنه يستطيع أن يبيع لهما بضاعته بغالى الثمن أحجم عن الذهاب إلى جزيرة " إكسيو " الكبيرة ليعرضنى هناك وقرر المجيء إلى هنا وألبسنى على النحو الذى تراه الآن لكى يغريهما بشرائى . وهذا ما حدث، لكن ما يقلقنى ويقض مضجعى أنهما اشتراني لحساب الباب العالى وتعهّد القاضى بإرسالى إليه .

لقد علمت بخبر موتك الزائف، ولن تصدق إن قلت لك إن هذا الخبر الذى زلزل كيانى قد أثار حسدى أكثر من حسرتى عليك ، ولا يعود هذا لإضمارى الشر لك أو الجحود أو نكران جميل بل لتمكنك من التخلص من مأساة حياتك .

- لا تتفوهى بمثل هذا الكلام يا سيدتى - أجاب ريكاردو - لأن الموت كان سيحرمنى من رؤيتك التى لا يعادلها شىء آخر فى هذه الحياة . لقد كلفنى القاضى - الذى انتقلت إلى ملكيته بعد المرور بسلسلة من الأحداث لا تقل خطراً عما عانيت منه - بالمهمة نفسها التى أرسلتك حليلة من أجلها : أى أنه جعلنى سفيراً لغرامه . قبلت المهمة على مضض ، لا بقصد إشباع

نهمه بل لأتمكن من الجلوس إليك وتجادب أطراف الحديث معك . ألا ترين عبث الأقدار ، يا ليونيسا ، حينما ترسلك للوساطة في طلب المستحيل منى ، وعندما تلقى - فى الوقت نفسه - على عاتقى بأمر لم يخطر لى أبداً على بال وأنا على أتم الاستعداد لبذل حياتى ثمناً لتفاديه ؛ ورغم كل هذا فأنا مدين لهذا القدر لأنه أتاح لى فرصة لقائك .

- لا أدرى ماذا أقول لك ، يا "ريكاردو" ، لأننى لا أدرى باباً لهذه المتاهة التى أوقعنا فيها قدرنا العاتى ؛ ما يدور بخاطرى الآن يتلخص فى ضرورة اللجوء فى موقفنا الحالى إلى أساليب المراوغة والخداع البعيدة كل البعد عن أخلاقياتنا وما درجنا عليه ؛ وبناءً على ما تقدم سأنقل لحليمة ما يجعلها تبصر وتتظنر ولا تفقد الأمل . ومن جانبك تستطيع إخبار القاضى بما يسليه ويخدعه ويحافظ فى الوقت نفسه على شرفى الذى أضعه أمانة فى عنقك ، وعليك أن تعلم أنه حقيقة مثل ضوء النهار ولم ينل منه مخلوق بالرغم مما قد تلقىه من ظلال للشك كثرة الدروب والأهوال التى تجشمتها . ستتعهد بيننا اللقاءات وتسهل ، ومن كل شغاف قلبى يسعدنى تلبيةها لكن بشرط ألا تدفعك طموحاتك المعلنة على ارتكاب حماقة من أى نوع لأننى سأتركك ساعتها إلى غير رجعة . لا تظن أن قيمتى قد هبطت وبإمكانك الحصول فى الأسر على ما لم تستطعه أيام الحرية : فأنا - بعون السماء - مثل النصار كلما ازداد صقله كلما تضاعفت طهارته ونقاوته . يكفىك من الآن - ويجب أن يكون هذا مدعاة لسرورك - أننى لم أعد أشعر بالسأم من رؤيتك كما اعتدت فى الماضى حين كنت أجذك سالخاً وقحاً متظاهراً بما ليس فيك . لا أستنكف الآن عن الاعتراف بأننى كنت مخدوعة وأن التجارب قد أزاحت الغشاوة من على عيني . امض على بركة الله ، فليشدة ما أخشاه أن تكون حليمة قد سمعت ما دار بيننا من حديث ، وهى تلم بطرف من اللغة الإسبانية أو على الأقل بخليط اللغات الذى يستخدمه ويفهمه الجميع هنا .

- لا فض فوك ، يا سيدتى ، وأشكرك لمراجعة أفكارك السابقة عنى ولتفضلتك بالتنازل والسماح لى برويتك ، وكما أشرت آنفاً فلربما تفصح التجارب عن

بساطتى وتواضعى وتذللنى فى هواك ، وحتى لا تتعالى وتضعى العراقيل التى تعطل التعامل بيننا وما يستوجبه من لقاء ، أعدك بأننى سأكون شريفاً ومهذباً بشكل لا يمكنك تخيله . أما بالنسبة لما سأنتقله للقاضى ، فاطمئنى وقرئ عينا ، ولا تنسى فعل الشئ نفسه مع حليلة . ما أريد أن تعرفيه الآن هو أننى بعد رؤيتك أصبح يراودنى أمل كبير فى اقتراب حصولنا على الحرية المنشودة . أتركك فى رعاية الله وحفظه ، وفى المرة القادمة سأقص عليك كيف ألفت بى المقادير إلى هذه الجزيرة بعد تركك ، أو - على الأصح - بعدما أبعدونى عنك .

افترقا والبهجة ترفرف بجناحيها فوقهما : سعدت "ليونيسا" بسلوكيات "ريكاردو" المهذبة ، وأثلجت صدر الأخير الكلمات الرقيقة التى نطقت بها محبوبته .

كانت حليلة عاكفة فى جناحها الخاص تدعو الله بأن يكُلَّ مساعى "ليونيسا" بالنجاح ، بينما كان القاضى فى المسجد مشغول الفكر يبنى نفسه بالرد المنتظر من عبده "ماريو" بعد لقائه بليونيسا والذى هيا له محمود - تنفيذاً لأمر سيده - الجو المناسب رغم وجود حليلة بالبيت . أذكت "ليونيسا" نيران الرغبة الخرقاء فى نفس حليلة وأفعمت صدرها بالآمال العريضة عندما أخبرتها بموافقة "ماريو" ، لكنها طلبت منها الانتظار شهرين حتى يحقق لها "ماريو" ما يتحرق إليه شوقاً أكثر منها ؛ ذلك لأن "ماريو" كان قد نذر الانقطاع لعبادة ربه طوال هذه المدة من أجل أن ينعم عليه بالخلاص من الأسر . سعدت حليلة بموافقة "ماريو" وباعتذاره المسبب وأعلنت استعدادها لعتقه قبل اكتمال مدة اعتكافه إذا لبى رغبته ؛ ولهذا فقد طلبت من "ليونيسا" إقناعه بالتحلل من نذره لأنها ستدفع للقاضى كل ما يطلبه فيه من مال .

قبل أن يرد "ريكاردو" على سيده تشاور مع محمود ، واتفق الاثنان على نصحه بالتعجيل بحملها إلى القسطنطينية ، وفى الطريق يحقق ما يصبو إليه ؛ ولكى يعفى نفسه من مسئولية تسليمها للباب العالى يقوم بشراء جارية أخرى ويدعى أثناء الرحلة أن "ليونيسا" مرضت مرضاً شديداً ، وفى إحدى الليالى يقوم بإلقاء الجارية فى البحر متظاهراً أنها "ليونيسا" التى فارقت الحياة ؛ ويمكن إتمام هذا الأمر بسهولة دون اكتشاف مخلوق ، وبهذه الطريقة يتحلل من الوفاء بالتزامه أمام الباب العالى . أما بالنسبة لمسألة دوام استمتاعه بالأسيرة فإنهما سيهتديان إلى حيلة مناسبة . أعمى

القاضي العجوز البائس هيامه وشدة شغفه ، ولو قصاً على مسامحه آلاف الترهات الأخرى لسارع إلى تصديقها ما دامت ستوصله في النهاية إلى مبتغاه ؛ وقد كانت كذلك حقاً لأن الناصحين كانوا قد أضمرنا الاستيلاء على السفينة وقتله عقاباً على رغباته الآثمة . تطرق القاضي بعد ذلك إلى مشكلة أخرى حسبها شديدة الخطورة ، إذ أشار إلى أن حليلة لن تدعه يذهب بمفرده إلى القسطنطينية وستصر على مرافقته ، لكنه بادر بحلها مقترحاً إمكانية استبدال الجارية المزعم شراؤها بزوجته ، لقموت بدلاً من "ليونيسا" . راقّت له الفكرة وانفجرت أساريه لأن رغبته في التخلص منها كانت أشد من رغبة الموت ذاته .

شهد له الناصحان (محمود وريكار دو) بعبقرية الفكرة التي وردت ببساطة على ذهنه ؛ وفي اليوم نفسه أخبر القاضي زوجته بعزمه على شد الرحال إلى القسطنطينية لتقديم المسيحية للسلطان التركي الذي لن يبخل عليه بمكافأة سخية مثل التعيين قاضياً للقضاة على حاضرة كبيرة في حجم القاهرة أو القسطنطينية ذاتها . أثنت حليلة على قراره الصائب معتقدة أنه سيرتك "ماريو" لكنها ما لبثت أن عدلت عن رأيها ونقض ما سبق وأبرمته عندما تشبث القاضي بحاجته إلى مرافقة "ماريو" ومحمود معاً . وبعد أخذ وردّ أعلنت في النهاية أنها لن تدعه يذهب لأي مكان ما لم تكن بصحبته . ابتهج القاضي لقرارها الأخير لأنه كان قد عقد العزم على التخلص من حملها الباهظ الذي يطوق عنقه .

وفي تلك الأثناء لم يكف حسان باشا عن حث القاضي على تسليمه الأسيرة المسيحية عارضاً عليه في المقابل قناطير مقنطرة من الذهب ومذكراً إياه بإعطائه "ماريو" مجاناً وفديته لا تقل عن ألفى إسكودو . ويقصد تشجيعه وتسهيل الأمر عليه اقترح الفكرة التي اختمرت في ذهن القاضي من قبل ألا وهي التظاهر بموت الأسيرة عندما يرسل الباب العالي في طلبها . وهكذا فقد تضافرت عدة عوامل جعلت القاضي يعجل بالرحيل : تلبية لنداء الرغبة المتوقدة لديه ، وللفرار من ملاحقة حسان ومن مطاردة زوجته حليلة التي كانت هي الأخرى تنسج آمالاً مزيفة في الهواء . وفي عشرين يوماً فقط جهز القاضي سفينة شراعية بسارينين^(٨) وعلى متنها أطواق نجاة

(٨) نوع من السفن ، مزوّد بعشرة مجاديف أو اثني عشر ، ولكل مجداف مقعد لجلوس صاحبه . ويحتوي أيضاً على سارينين وعدّة أشرعة . (المترجم)

ممتازة وبحارة مسلمون بالإضافة إلى عدد من اليونانيين المسيحيين . حمل القاضى كل ثروته إلى السفينة ، ولم تترك حليلة بالبيت شيئاً ذا نفع وطلبت من زوجها السماح لأبويها بمرافقتها لزيارة القسطنطينية . لقد كانت تضمر فى نفسها فكرة مشابهة لما بيت عليه محمود النية : الاستيلاء على السفينة فى الطريق بمعاونة أهلها وحبيبيها ، لكنها أرجأت اطلاعهم على مكنون صدرها لما بعد إبحار المركب . كانت تريد الذهاب إلى أية أرض مسيحية والعودة سيرتها الأولى والزواج من "ماريو" ، إذ اعتقدت أنه لن يمانع عندما تصبح مسيحية مثله وتحت يدها أموال طائلة .

خلال فترة الإعداد للسفر التقى "ريكاردو" بمحبوبته للمرة الثانية وأطلعها على تدبيره ، كما أطلعه بدورها على نوايا حليلة التى تحدثت معها ، واتفق الاثنان على كتمان السر وعدم البوح به انتظاراً ليوم الرحيل . عندما أشرقت شمس اليوم الموعود أقبل حسان محاطاً بجنوده لمرافقتهم إلى الميناء ، ولم يتركهم إلا بعد نشر القلوع ، ولم ينزل عينيه من على السفينة حتى توارت فى عرض البحر ، ويبدو أن الزفريات الحارقة التى كان يرسلها العاشق المسلم وهو يرى السفينة تبتعد حاملة مهجته عبأت القلوع بلفحها وجعلتها تندفع مسرعة إلى الأمام . كان الباشا قد فكر طويلاً وأمعن التفكير فى وسيلة تقربه من المراد وتطفئ لهيب أشواقه حتى لا يموت متلظياً بها . هذه تفكيره إلى إعداد سفينة أخرى كبيرة بها سبعة عشر مقعداً ، جعلها على أهبة الاستعداد فى مرفأ بعيد ، ووضع على متنها خمسين جندياً من خيرة أتباعه وخصائمه وأغدق عليهم العطايا وأسرف لهم فى الوعود . لم تكد سفينة القاضى تتوارى من أمام عينيه حتى شرع فى تنفيذ مخططه وأعطى الأمر لرجال الخمسين بالإقلاع ومهاجمة سفينة القاضى فى عرض البحر وإعمال السيف فى رقاب من عليها باستثناء الأسيرة المسيحية ؛ لأنه يريد لها وحدها ولا يطمع فى شيء سواها ، ومن ثم فإنه يتنازل لهم مقدماً عن الأسلاب الأخرى التى لا تقدر بثمن . كما أمرهم بإغراق سفينة القاضى بعد ذلك والتأكد من استقرارها فى الأعماق بشكل لا يبقى معه أثر يستدل منه على مكان فقدانها . أيقظ الصيد الثمين عزائم رجال حسان وألهب حماسهم ضعف المقاومة المنتظرة من بضعة أفراد عزّل لا يتوقعون هجوماً من أى نوع فى حالتهم تلك .

مرَّ يومان على سير السفينة حسبهما القاضى قرنين من الزمان ، ذلك لأنه أراد تنفيذ الخطة من أول يوم ، لكن "ريكاردو" ومحمود أشارا عليه بضرورة التظاهر أولاً

بمرض "ليونيسا" والانتظار عدة أيام بعدها وذلك لإضفاء المصادقية على خبر موتها. أما هو ، فقد كان يريد إعلان نبأ موتها فجأة ليعجل بالخلاص من زوجته وإخمد اللهب الذي يأكل أحشائه رويداً رويداً ، لكنه لم يجد في النهاية بداً من النزول على رغبة ناصحيه وقبول مشورتهم .

وأثناء جريان السفينة في عرض البحر أفصحت حليلة عن نواياها لكل من محمود و "ريكاردو" فما كان منهما إلا أن وعداها بالشروع في تنفيذ تدبيرها عند اجتياز ممر "طراودة" أو عند المرور بقلاع "ناتوليا" . أما القاضي فقد كان في عجلة من أمره ، ولذا فقد أوهماه بأنهما على أهبة الاستعداد وينتظران أول فرصة تلوح لهما. ولما انقضت ستة أيام على إبحارهم اعتبر القاضي أن المدة أصبحت أكثر من كافية للتظاهر بمرض "ليونيسا" ولذا فقد أمر غلاميه بضرورة القيام في اليوم التالي بقتل حليلة وإلقائها في عرض البحر بعد تكفينها مدعين أنها أسيرة الباب العالي .

ومع إشراقه اليوم التالي الذي حدده محمود و "ريكاردو" للخلاص - سواء بفقد الحياة في حالة الإخفاق أو بتحقيق الآمال إذا قدر لهما النصر - شاهدوا سفينة في وضع قتال تتجه نحوهم بأقصى سرعة . خشوا أن تكون لقراصنة مسيحيين لأنهم وبال على الجميع : على المسلمين لأن مصيرهم سيكون الأسر ، وعلى المسيحيين أيضاً لأنهم رغم عدم فقدانهم الحرية سيجردون من كل ما يملكون ولن تترك لهم الملابس التي تستر أبدانهم . لم يكن محمود و "ريكاردو" و "ليونيسا" بمنأى عن هذه المشاعر لأن سعادتهم بالتخلص من الأسر قد خالطها الرعب والفرح من عتو القراصنة وفضاظتهم ، الذين لا يرعون حرمة لقانون أو جنسية أو حتى لعقيدة، ولذا فقد استعد الجميع للدفاع دون أن يتركوا المجاديف . لم تكد تمضي بضع سويحات حتى رأوا القادمين رأى العين ، وعندئذ أطلقوا قذائف المدفعية نحوهم ، ثم خففوا سرعتهم والتقطوا أسلحتهم وانتظروهم متأهبين . حاول القاضي تهدئتهم وبث الطمأنينة في نفوسهم قائلاً لهم إن السفينة القادمة تركية ولن تصيبهم بأذى ، ثم أمر برفع راية السلام البيضاء على مقدمة سفينته ، لكن هذا لم يحل دون الاندفاع الغاضب للسفينة الأخرى وهي تنطلق بسرعة للاصطدام بهم . وفي أثناء شغلهم بهذا التفت محمود صوب الغرب فرأى سفينة ضخمة تحتوى - حسب تقديره - على ما لا

يقول عن عشرين مقعداً تتجه نحوهم . أخبر القاضى بما رأى ، وأكد المسيحيون العاملون على المجاديف على الهوية المسيحية للسفينة القادمة من بعيد . ضاعف كل هذا من حيرة وخوف الجميع وأسقط فى أيديهم ووقفوا منتظرين قضاء الله فيهم .

لا شك أن القاضى كان على استعداد وقتها للتخلّى عن كل ما فى الأرض من متع مقابل البقاء بنيقوسيا متمتعاً - قرير العين - بنعمة السلامة : كان فى منتهى الحيرة والاضطراب وسرعان ما أخرجه من هذه الحالة الارتطام الرهيب للسفينة التركية - دون احترام لراية السلام المرفوعة ولا للأخوة فى الدين - بسفينته التى أوشكت على الغوص فى الأعماق . تعرف على القادمين عليها وتنبأ بمصيره الدامى واعتبر نفسه فى عداد الأموات . لو لم يرجئ الجنود أعمال السيف ولم يتجهوا أولاً إلى السلب والنهب لما بقى على ظهر السفينة من أحياء . وفى أثناء شغلهم بجمع الأسلاب والغنائم زعق تركى بأعلى صوته منادياً :

- السلاح ، السلاح ، أيها الجنود ، سفينة مسيحية تدهمنا .

وبالفعل ، كانت السفينة القادمة تحمل الأعلام والبيارق المسيحية ، وقبل اصطدامها - فى غيظ - بسفينة حسان سأل واحد يقف على مقدمتها باللغة التركية عن هوية السفينة الأخرى فأجابوه بأنها لحسان باشا والى قبرص . سأل التركى بحدة :

- كيف تستبجحون عندئذ حرمة هذه السفينة العزلاء ونحن نعلم أن على متنها قاضى نيقوسيا ؟

أخبروه أنهم لا يعرفون شيئاً سوى الأوامر الصادرة إليهم بمداومتها والاستيلاء عليها ، والجندى ينفذ الأوامر وليس معنى بمناقشتها .

ابتهج قائد السفينة المتخفية وراء الأعلام والبيارق المسيحية بما كان يود سماعه وتركها تصطدم بسفينة حسان ليجتازها مع جنوده إلى سفينة القاضى التى اقتحمها ببراعة وشجاعة فائقة وقتل ، فى أول كرة له ، عشرة رجال ممن كانوا على متنها . تعرف عليهم القاضى بمجرد أن وطلت أقدامهم سطح سفينته وأدرك الهوية الحقيقية للسفينة المهاجمة وأنها لعلى باشا الذى دفعه هيامه الشديد بليونيسا إلى التفكير فيما

تفتق عنه ذهن حسان باشا ، ولذا فقد كمن لهم فى الطريق ، ولكى لا يفتضح أمره جعل جنوده يرتدون الملابس المسيحية . بعد أن وضحت للقاضى نوايا العاشقين الغادرين أخذ يلعنهما بأعلى صوته قائلاً :

- ما هذا أيها الخائن على باشا ؟ كيف تكون مسلماً وترضى لنفسك التخفى فى هيئة مسيحي لكى تغير على ؟ وأنتم ياجنود حسان ، ما الذى يدفعكم لارتكاب هذه الفعلة الشنعاء ؟ أمن أجل إشباع النزوة الداعرة لمن أرسلكم تستبيحون مهاجمة قاضيك وسيدكم الشرعى ؟

هدأت قعقة السلاح . نظروا إلى بعضهم وتعرف كل فريق على الآخر ، فقد كانوا جميعاً جنوداً لقائد واحد وخدموا تحت راية واحدة . تناوشتهم الأحاسيس وأسكنت - مؤقتاً - كلمات القاضى نوازع الشر لديهم ، وعندئذ استاءت نواصل السيوف وتراخت العزائم . الوحيد الذى أصم أذنيه كان على باشا لأنه حمل على القاضى وضربه على رأسه ضربة لو لم تتحملها الخوذة المتينة لشجته نصفين ؛ ورغم افتداء الخوذة له فقد سقط من هول الضربة متدحرجاً بين مقاعد السفينة . ومن موقعه على الأرض صاح قائلاً :

- آه منك يا عدو الله ، يا كافر ! أظن أن حماقتك وسفاهتك بمنأى عن العقاب ؟ كيف تجرؤ ، أيها اللعين ، على التطاول باليد والسلاح على قاضيك ، حامل كتاب الله وسنة رسوله ؟

أثارت هذه الكلمات حماسة جنود حسان الذين دفعهم الخوف من سلب الآخرين للفريسة التى كانوا على وشك الظفر بها للمخاطرة بكل ما لديهم : بدأ واحد لكى يتبعه الباقون ، وحملوا بحقد وهمة على جنود الباشا على الذين يفوقونهم عدداً ، وفى فترة وجيزة أجهزوا على معظمهم ولم يتبقى منهم غير نفر قليل ، لكن هؤلاء النفر سرعان ما تابوا إلى رشدهم وامتلكوا زمام المبادرة من جديد واستطاعوا الانتقام لزملائهم ولم يتركوا على قيد الحياة من جنود حسان سوى أربعة مثخنين بالجراح .

كان محمود و "ريكاردو" يطلان برأسيهما بين الفينة والفينة من فتحة خزانة المؤخرة ليستطلعا نتائج المذبحة المثيرة ، ولما وجد "ريكاردو" أن الأتراك قد فنوا وأن من بقى منهم لم يعد يقوى على الحركة من وطأة الجراح وبإمكان أى فرد

الإجهاز عليهم نادى على محمود ووالد حليلة وابنى أختها اللذين أتت بهما للاستيلاء على السفينة ، وانتزع كل منهم سيفاً من أيدي القتلى ، وبمساعدة النوتية اليونانيين الذين أخذوا يتصايحون " الحرية ، الحرية " ، ذبحوا الجرحى الأتراك ولم يتركوا أحداً منهم على قيد الحياة ، ثم انتقلوا إلى سفينة على باشا واستولوا على ما تحمل من متاع ومؤن . كان على باشا طريقاً على الأرض بعد أن مزقه تركى بالسكين انتقاماً من تعديه على القاضى .

قاموا بعد ذلك - وبناءً على نصيحة " ريكاردو " - بنقل الأشياء ذات القيمة من سفينتى القاضى وحسان إلى سفينة على باشا لكبر حجمها ورفاهية تجهيزاتها وقدرتها الفائقة على تحمل الرحلات الطويلة والأحمال الثقيلة ، هذا بالإضافة إلى مسيحية العاملين على مجاديفها . عرض هؤلاء على " ريكاردو " - اعترافاً منهم بجميل حصولهم على الحرية وللعطايا والهبات التى وزعها عليهم - استعدادهم لحمله إلى " ترابانا " أو إلى أى مكان آخر يريد به ولو كان نهاية العالم . اتجه " ريكاردو " ومحمود والغبطة تسيطر عليهما ، إلى حليلة وعرضا عليها العودة إلى قبرص وأخبراهما باستعدادهما لإمدادهما بالبحارة وتجهيز سفينتها بكل ما تحتاجه علاوة على نصف الثروة التى أتت بها ؛ لكنها رغم المصائب الجمة - كانت ما تزال متعلقة بريكاردو ، ولذا اختارت الذهاب معهما للأراضى المسيحية . سرّ والداها بهذا الاختيار الموفق .

استرد القاضى وعيه بعدما قاموا بتطبيبه حسب الإمكانيات المتاحة ، وعندها خيروه بين شيئين : إما الذهاب معهم إلى أراضى المسيحيين أو العودة على سفينته إلى نيقوسيا . قال لهم بما أن الحظ قد قلب له ظهر المجن وهوى به إلى تلك الحالة الأليمة فإنه يشكر لهم الإبقاء على حريته وأخبرهم بنيتة فى التوجه إلى القسطنطينية ليشكو للباب العالى الضر الذى أصابه على يد حسان وعلى ؛ لكنه عندما علم أن حليلة ستتركه وترتد إلى المسيحية كاد يفقد صوابه . وفى النهاية جهزوا له سفينته وزودوها بما تحتاجه الرحلة وأعطوه بعضاً من مسكوكاته الذهبية . ولما تهيأ لوداعهم رجاهم السماح لليونيسا بمعاينته مدعياً أن هذا سيسرى عنه ويجعله ينسى ما لحق به من مصائب . توسل الحاضرون إلى " ليونيسا " كى تسدى له هذا المعروف الذى لا يمتنع من وقارها وعفتها . بعد تلبيتها لرغبتهم طلب منها القاضى ثانية وضع

راحتها على رأسه بحجه التفاؤل بسرعة برئته من جراحه . استجابت "ليونيسا" ولم تكسر بخاطره . قاموا - بعد انتهاء هذا المشهد - بإحداث ثقب كبير فى سفينة حسان ثم نشروا قلوبهم للهواء العليل الرطب القادم من الجنوب ، وما هى إلا سويغات قليلة حتى توارت عن نواظرهم سفينة القاضى الذى كان يرقب - بعينه المغرورقتين بالدموع - الرياح وهى تحمل ممتلكاته وزوجته وحشاشة قلبه بعيداً عنه .

بأحاسيس مختلفة عن القاضى كان يبحر "ريكاردو" ومحمود ؛ وهكذا تجاوزوا بسرعة فائقة - دون التعرّيج على يابسة - ممر "طروادة" ، ودون إرخاء القلوع أو الحاجة لاستخدام المجاديف وصلوا إلى جزيرة "كورفو" الحصينة حيث تزودوا بالمياه ثم واصلوا تقدّمهم ، دون هوادة ، فمروا على جبال "أكروثيرأونس" - ACROCERAU- NOS القبيحة (٩) . وفى اليوم التالى لاحت لهم من بعيد "باتشينو" و "تيناكراثيا" بجبلها الممتد داخل البحر ، وفى طيرانهم وعلى مرمى البصر تراءت لهم جزيرة مالطة الشهيرة . لقد كانت السفينة السعيدة تبحر بخفة ورشاقة .

بعد أربعة أيام من المرور بمالطة شاهدوا جزيرة "لمبادوسا" ثم الجزيرة التى تحطمت عندها سفينتهم وعندئذ ارتعدت فرائصهم من مرارة الذكرى . فى اليوم التالى رأوا أمامهم الوطن الحبيب المبتغى ؛ تجددت فى قلوبهم البهجة وتماوجت أنفسهم بشتى ألوان السعادة . [من أعظم النعم التى يمكن أن يحظى بها الإنسان فى هذا الوجود الوصول سليماً معافى إلى أرض الوطن بعد معاناة الأسر الطويل ، ولا يوجد شيء آخر يعدلها سوى حلاوة النصر على الأعداء] .

كان "ريكاردو" قد عثر على صندوق مملوء بالأعلام الصغيرة والرايات المثلثة المصنوعة من الحرير متعدد الألوان فقام على الفور بتزيين السفينة وتجميلها بها . والسفينة التى طويت أشرعتها واكتفوا بتشغيل مجاديفها بالتناوب كانت تتهادى صوب الميناء وتتعالى منها الأصوات المرحّة من حين لآخر . حين شاهد الناس تلك السفينة الجميلة المزركشة تتهادى فى طريقها إلى اليابسة تركوا ما بأيديهم وخرجوا عن بكرة أبيهم إلى الساحل .

(٩) خلع "هوراثيو" [فى الأنشودة الثالثة] صفة القبح على هذه الجبال، وقد اقتدى به "ثريانتس" فى العبارة السابقة. (المترجم)

طلب "ريكاردو" من "ليونيسا" التزين لتكون على تلك الهيئة التى دخلت بها خيمة الباشا لأنه ينوى مداعبة والديها دعابة ظريفة . أسرفت فى الزينة والتحلّى بالآلئ ففتألق جمالها ، الذى يتضاعف مع البهجة ، وأثارت الإعجاب والانبهار من جديد . وفى الوقت نفسه ارتدى "ريكاردو" ومحمود والمسيحيون العاملون على المجاديف الملابس التركية ، فقد كان يوجد ما يكفيهم وزيادة من ملابس القتلى الأتراك .

دخلوا الميناء فى حوالى الثامنة من صباح ذلك اليوم الوضاح الهادئ الساكن الذى بدا وكأنه قد تهيأ لمشاهدة هذا الرسو السعيد . وقبل دخول الميناء كان "ريكاردو" قد أطلق المدافع الموجودة على ظهر السفينة وردت عليه المدينة بطلقات أخرى عديدة .

ساد الهرج والمرج بين الخلائق التى تنتظر السفينة المزركشة ، وعندما شاهدت العمائم البيضاء تتوج رؤوساً تبدو وكأنها مسلمة اعترتها الريبة وخافت أن تكون هدفاً لمكيدة مدبرة . وعلى الفور تاهبت مليشيات المدينة فحملت أسلحتها وحاصرت الميناء بينما انتشر الفرسان على طول الساحل . أسعد هذا الظن من كانوا يقتربون ببطء ، وعلى مقربة من الشاطئ ألقوا المرساة وتركوا المجاديف واصطفوا طابوراً ثم نزلوا واحداً واحداً إلى الأرض التى راحوا يقبلونها والدموع تلهم مدراراً من عيونهم . عندما رأتهم الحشود وهم يفعلون هذا أدركت أنهم مسيحيون تمكنوا من الاستيلاء عنوة على تلك السفينة . خرجت حليلة بعد ذلك مع عائلتها (أبيها وابنى أختها) ؛ وأخيراً جاء الدور على الجميلة "ليونيسا" التى خرجت ووجهها مغطى بنسيج قرمزي شفاف . كانت تتوسط "ريكاردو" ومحمود ، وقلب المشهد عيون الجموع الغفيرة التى كانت تتطلع إليهم .

جثوا على الأرض مثل الذين سبقوهم وراحوا يقبلونها بشغف . اقترب منهم حاكم المدينة وقائدها فعرّفهم فى الحال ، وللتعبير عن سعادته الغامرة برؤية "ريكاردو" جرى نحوه فاتحاً ذراعيه لكى يعانقه . كان برفقه الحاكم "كورنيليو" وأبوه ، والدا "ليونيسا" وأقاربها ، عائلة "ريكاردو" ، لأنهم جميعاً سادة المدينة وأشرفها . عانق "ريكاردو" الحاكم وبادله التحية ، ثم قبض بيمينه على يد "كورنيليو" ، الذى امتقع لونه وارتعدت فرائصه بعد تعرفه على غريمه ، وباليسرى أخذ يد "ليونيسا" وقال : .

- أرجو أن تتسع صدوركم - أيها السادة - لسماع هذه الكلمات قبل دخول المدينة والتوجه إلى أقرب كنيسة لشكر الرب الذى نجانا من الهلاك وأيدنا بنصره .

أجابه الحاكم أنهم جميعاً آذان صاغية لسماع كل ما يعتمل بصدرة . الف وجهاء
المدينة وسادتها حول ريكاردو الذى علا صوته قليلاً بهذه الكلمات :

- لابد أنكم ما زلتُم تذكرُون المصيبة التى حاقت بى عند اختطاف ليونيسا
منذ شهور مضت من حديقة "لاس ساليناس" ؛ ولم يغب عن بالكم أيضاً ما
فعلته لاسترداد حريتها حين تناسيت نفسى وقدمت كل ما أملك محاولاً فك
إسارها ، ودرغم ما ينطوى عليه هذا العمل من أريحية وسخاء إلا أننى لم
أبتغ به مدحاً ولا ثناءً لأننى كنت أقوم ساعتها بافتداء روحى . أما بالنسبة
لما حدث لكينا بعد ذلك فإنه يتطلب وقتاً طويلاً ومقاماً غير هذا ولساناً زلقاً
غير لسانى المتلجلج ، ولذا أكتفى الآن بالإشارة إلى أنه بعد العديد من
الأحداث الغريبة ، وبعد فقدان الأمل آلاف المرات فى الاهتداء إلى وسيلة
تنقذنا من محنتنا ، فإن عناية السماء - التى لا نستحقها - قد أعادتنا فى
النهاية إلى الوطن الحبيب طافحى السرور مترعين بالثروات . مصدر
هناءٍ ورضاءٍ لا يعود لتلك الثروات أو للحرية المستردة بل لرؤية معذبتى
وهى ترفل فى ثياب الحرية وروحها مشرقة بالبهجة . ويزداد شعورى
بالرضا لرؤية السعادة ترفرف بجناحيها على الذين رافقونى واقتسموا معى
الأوقات العصيبة البائسة . جرت العادة على تغيير المصائب والأحداث
للطباع وزلزلة الأفئدة والقضاء على الهمم الوثابة ؛ لكن المعدن الأصيل لا
تنال منه الأهوال ولا توهنه الخطوب ، من هنا تتجلى هيمنة الإرادة
السماوية على ما عداها من قدرات وطاقات بشرية . أود الإشارة - من
خلال ما عرضته آنفاً - إلى أننى لم أكتف بتقديم ممتلكاتى لقديتها بل
بذلت روحى أيضاً قرباناً لهواها ، فلم أترك وسيلة أو حيلة إلا ولجأت إليها
وخضت الأهوال واضعاً رأسى على كفى من أجل استرداد حريتها ؛ وإذا
كان عمل مثل هذا جديراً بالشكر والامتنان والمكافأة فى مقام غير هذا المقام
فإن حسبى الآن منه ما سترونه بأعينكم .

قام عندئذ برفع إحدى يديه وأماط اللثام من على وجه ليونيسا فكان مثل من
أزاح سحابة كانت تحجب ضوء الشمس الجميل . ثم أردف قائلاً :

- آه ، يا كورنيليوس ! هلم لأسلمك الجوهرة التى يجب أن تحتفى بها وتقدرها أكثر من كل نفيس وغالٍ ؛ وأنت - أيتها الجميلة "ليونيسا" - اقترى كى أقدمك لمن حملته دائماً فى ذاكرتك . نعم ، من أجل هذه لا يدخر المرء وسعاً فى البذل والعطاء لأن الحياة والثروة والجاه لا يساوون شيئاً إذا ما قورنوا بها . استلمها - أيها الفتى المحظوظ - وإذا كان بمقدورك الذهاب بخيالك بعيداً فاعلم أنها ذات قيمة عظيمة ، أثنى من كل ما فى الأرض من كنوز . ومعها أعطيك نصيبى الذى أتخفنى به السماء وهو يزيد عن ثلاثين ألف إسكودو . تمتع بكل هذا فى هدوء وراحة وطمأنينة ، وارفع يديك إلى السماء داعياً الرب بأن يكون هذا لسنوات مديدة عامرة بالسعادة . فلا حاجة لى بالغنى بعد أن أصبحت بدونها ، فمن تنقصه "ليونيسا" لا معنى لحياته .

صمت عند هذا الحد وكأن لسانه قد التصق بسقف فمه بيد أنه استطاع بعد قليل إضافة ما يلى قبل تدخل الحاضرين :

- عفوك يا إلهى ! كم تشوش الأعمال المضنية الذهن وتترك العقل ! أيها السادة ، لقد دفعتنى الرغبة فى تقديم الخير إلى إهمال أعمال الفكر فيما أقول ، فمن غير المعقول أن يبدى أحد كرمه فى شيء لا يخصه : بأية سلطة أستبيح لنفسى تقديم "ليونيسا" لآخر؟ أو كيف يمكننى التنازل عن شيء بعيد المال ؟ "ليونيسا" ولية أمرها ، وفيما عدا والديها - أنعم الله عليهما بالسعادة وطول العمر - لا يحق لأحد إلزامها بشيء أو إملاء إرادته عليها . وإذا كان ما تقدم قوله ينطوى على أى التزام يسىء إليها فإننى أمحوه وأعتبره كأن لم يكن ؛ ومن ثم فإننى أسحب كلامى السابق ولا أعطى لكورنيليوس شيئاً لأننى ، ببساطة ، لا أستطيع ؛ أفر فقط بما سبق وأعلنته بخصوص تنازلى عن ثروتى لليونيسا ولا أطمع فى مكافأة على هذا سوى حسن تفهمها لنواياى الشريفة التى لم تتجه مطلقاً إلى طريق يخالف ما تقتضيه عفتها الفريدة وجمالها الخلاب وقيمتها العظيمة .

لاذ "ريكاردو" بالصمت وعندئذ أمسكت "ليونيسا" بطرف الحديث :

- لو أنني أسديت معروفًا لكورنيليو وقت هيامك بي ، يا "ريكاردو" ، وغيرتك على فإنه كان شريفًا ولم يتعد حدود المؤلف وجاء تلبيةً لرغبة والدي وامتثالاً لأوامرهما لأنها اختاراه ليكون زوجاً لي . لا بد أن يهدئ هذا من روعك ويرضيك خاصة بعد ما أثبتت لك التجارب طهارة ذيلي وعفتي . أخبرك بهذا ، يا "ريكاردو" ، لتعلم أنني كنت دائماً ملك نفسي ولم يكن لأحد على ولاية سوى أبوي اللذين أتوسل إليهما الآن ، بكل ما يقتضيه الواجب من تواضع وتقدير ، بالإذن لي كي أتحدث عما لمسته فيك من سخاء وشجاعة منقطعة النظير .

أجابها والداها بعدم تردددهما في إعطائها الإذن لثقتهما الكبيرة في راحة عقلها وحصافتها اللتين تستثمرهما دائماً فيما يعلى قدرها ويعود عليها بالخير .
بهذا التصريح واصلت الحبيبة "ليونيسا" حديثها :

- أتمنى ألا أتى بما يجعلني أبدو طائشة . أيها الشجاع "ريكاردو" ، ينبغي أن تعرف أن إرادتي التي كانت مشوشة ومتشككة حتى الآن قد حزمت أمرها لصالحك ، وهذا لكي يعلم الرجال - على الأقل من اعترافي لك بالجميل - أن النساء جميعهن لسن جاحدات . أهبك نفسي وأعدك بالأأكون لغيرك ما حييت ، هذا إن لم يكن لديك مانع يحول بينك وبين اليد الممدودة إليك بطلب الزواج .

بدا "ريكاردو" غائباً عن الوعي ولم يهتد إلى طريقة يرد بها على "ليونيسا" إلا بالجنو على ركبتيه أمامها وتقبيل يديها [وكثيراً ما جاهد لأخذهما عنوة مرات عديدة سابقة] وذرف الدموع الحنونة الولهانة مدراراً . سألت دموع "كورنيليو" غماً وكدرًا ، ودموع والدي "ليونيسا" بشرًا وسرورًا ، ومن فرط التقدير والبهجة دموع الحاضرين . كان أسقف المدينة حاضراً فلم يضيعوا الوقت وانطلقوا مسرعين إلى الكنيسة حيث تم زواجهما على يد الأسقف وبمباركته . عمت الفرحة أرجاء المدينة وظلت الصواريخ النارية ترتفع إلى عنان السماء طوال تلك الليلة ، واستمرت الاحتفالات والألعاب التي أعدها أقارب العروسين عدة أيام .. قعنت حليلة بالزواج من محمود بعدما أيقنت من استحالة تحقيق رغبتها في اتخاذ "ريكاردو" زوجاً ،

وشهدت الكنيسة أيضاً مراسم عقد قرانهما . تجلى كرم "ريكاردو" وسخاؤه عندما تنازل عن جزء من نصيبه فى الغنينة لوالدى حلينة وابنى أختها ، وهو مال كثير يكفهم جميعاً للتمتع بحياة كريمة . بقى الجميع فى النهاية أحراراً سعداء ، وتجاوزت شهرة "ريكاردو" حدود صقلية ووصلت إلى إيطاليا وأصقاع أخرى عديدة تحت اسم "العاشق السخى" ، وامتدت إلى يومنا هذا فى أبنائه الكثيرين من "ليونيسا" التى أصبحت مثلاً يحتذى فى الحصافة والعفة والخفر والجمال .

"رينكونيته" وکورتاديو"

فى يوم شديد القىظ من أيام الصيف التقى ،عند خان " ألمولونيو" الرابض بين حقول " ألكاديا" الشهيرة المترامية الأطراف - الواقعة على الطريق المتجهة من قشتالة إلى أندلوثيا -فتيان يتراوح عمراهما بين أربعة عشر وخمسة عشر ربيعاً ، ولا يزيدان بحال عن السابعة عشرة .على قسماٲ وجهيهما تبدو أمارات الظرف ولا يستر جسديهما غير أسمال بالية : لا يوجد عليهما أى نوع من المعاطف ، وسروالهما من نسيج الكتان الخشن ، ولا تقع العين على أثر للجوارب . كان أحدهما ينتعل بقايا حذاء ممزق من الحلفاء بينما تغطى ظاهر قدمى الآخر أشلاء حذاء بلا نعل ؛ وبهذا الشكل فقد كان ما ينتعلان أقرب إلى القيد الخشبى للعبد الآبق إلى ما يشبه الحذاء . على رأس الأول تظهر قلنسوة خضراء مما يستخدمه صيادو الجبال ، بينما تتوج رأس الثانى قبة بلا شريط متهدلة الحواف غائرة الوسط . على صدر الأول وظهره يتدلى قميص بلون الماعز الجبلى قريب الشبه من الحشيات التى يفتح طرفاها ويفلقان بالحبال ، بينما يأتى الآخر شبه عارٍ اللهم إلا من نتوء ضخم جائم على صدره ، سيتضح فيما بعد أنه زينة لطوق قميص منشأة بالشحوم ومبعثرة الخيوط كأنها نسالة . بداخل ذلك النتوء كانت تحفظ بعناية أوراق لعب أخذت شكلاً بيضاوياً لكثرة تعامل المقص مع أطرافها التى تهرأت نتيجة لطول الاستخدام .كان الفتیان ملوحى الوجه بفعل أشعة الشمس الحارقة ، طويلى الأظفار متسخى الأيدى ، يحمل أحدهما نصف حسام والثانى سكيناً ضخماً مما يستخدم فى المجازر .

تسلل الاثنان إلى إحدى السقائف الموجودة أمام الخان لتمضية القليلة وبعد أن جلس كل منهما قبالة الآخر خاطب كبيرهما الأحداث سناً قائلاً له :

- هل أسمح لنفسى بالتوجه بالسؤال لفخامتكم عن الأرض التى تنتسبون إليها ، وعن الطريق الذى سيشرف بوجهتكم ؟

أجاب الصغير :

- لن تصدقوا ، نيافة السيد المبجل ، لو أخبرتكم أننى لا أعرف لى أرضاً وليست لدى أدنى فكرة عن الطريق التى سأسلك .

رد الكبير :

- بالطبع أنتم لم تهبطوا فجأة من السماء ؛ ولما كان هذا المكان مما لا يلقى فيه بعضا الترحال فلا بد أنكم ستخلفونه وراء ظهركم .

اعتدل الصغير ليقول له :

- معكم الحق كله ، ومع هذا فلم أورد على مسامعكم غير الحقيقة لأن أرضي ليست لي بأرض ، فليس لي بها سوى أب يجحد بنوتي وزوجة أب تتفلن معي في تطبيق قاموس معاملة الرئائب . أما طريقى فتتحكم فيه يد القدر ولا أذيع سرا إن أخبرتكم باستعدادى للقاء مرساتى عند أول مرفأ أجد فيه من يسبغ على بالضروريات اللازمة لاجتياز هذه الحياة البائسة .

سأله الكبير حينئذ :

- ألا تودون عملاً ما ؟

- لا أعرف شيئاً- أجاب الصغير - سوى الركض مثل أرنب برى والقفز مثل الظباء واستعمال المقص بدقة متناهية .

- شيء رائع ، وفي الوقت نفسه نافع ومفيد لأنكم لن تعدموا قساً يتحفكم بما تجود به سلة القرابين (من نبيذ وخبز) مقابل استخدامكم لمهارتكم فى قص الأزاهير الورقية لتزيين كنيسة يوم الخميس المقدس .

رد الصغير :

- لكن رغبتى فى القص لا تسير فى هذا الاتجاه ، فأبى - بركته العناية الإلهية - خياط وصانع جوارب ، وقد علمنى كيفية قص الأنتيبارأس وهى ، كما تعلم ، جوارب تغطى ظواهر الأحذية ، فأتقنت الصنعة وكنت موشكاً على بلوغ درجة معلم بها لولا معاندة الحظ وإصراره على بقائى مهمشاً مغموراً .

- مثل هذا وأكثر يحدث للطيبين من الناس - ردّ عليه الكبير - ولطالما سمعت أن أصحاب المهارات الجيدة يصيبون أرباً الحظوظ ، وإن كنت لا أرتاب فى أنكم ما زلتُم فى سنّ تسمح لكم بإمكانية تعديل مسار حظكم . وإن كانت فراستى لا تغرر بى أو تخدعننى عينائى فإنكم تملكون مواهب سرية أخرى لا تودون إمطة اللثام عنها .

- لقد أصبت كبد الحقيقة ، لكننى لا أستطيع المجاهرة بها لكل عابر سبيل .

خاطبه الكبير قائلاً:

- لو فتشت فى كثير من الأصقاع لن تجد فتى أصلح لكتمان السر منى ، ولكى أجبرك على الإفصاح عن مكنون صدرك و أجعلك تآمن جانبى سأطالعك أولاً على أحوالى وأنبئك بخبرى لأنى أعتقد أن الأقدار لم تجمعنا هنا عبثاً بل لغاية سامية ، ألا وهى توثيق عرى الصداقة بيننا حتى آخر العمر . أنا ، أيتها الفارس النبيل ، من بلدة " فوينفريدا" (١) وهى مكان معروف ومشهور بكثرة المترددين عليه من المسافرين المحترمين . اسمى "بديرو دل ريكون" ، وأبى رجل ذو شأن لأنه وزير للصليبية المقدسة أو مسوق للشفاعات البابوية إن أردت استخدام التسمية التى تطلقها العامة عليه عادة . ومن صحبتى القصيرة له بلغت مرتبة عالية من البراعة فى عقد صفقات بيع الشفاعات بحيث قل من تفوق على فى هذا المضمار .وبما أننى كنت مولعاً بمال الشفاعات أكثر من الشفاعات ذاتها فقد عانقت ذات يوم كيساً طويلاً مترعاً بذلك المال وانطلقنا سوياً صوب مدريد بغواياتها السهلة المتعددة ، وما هى إلا بضعة أيام حتى برزت أحشاء كيسى ، ولكثرة ما عبثت أصابعى بداخله فقد تركت به طيات تفوق ما يوجد منها على منديل سجين مصفد اليدين .. تبعنى من تقع مسئولية المال على عاتقه .. أوقعوا بى .. لم أجد آذاناً صاغية ، وإن كان السادة القضاة قد رقوا لحدائث سنى واكتفوا بعقوبة الرىط فى العمود والجلد والتغريب أعواماً أربعة بعيداً عن العاصمة .. تجملت بالصبر وزممت كتفى لأعانى الجلد والإهانة؛ وفى لهفة الخروج إلى المنفى لم ألتفت - نظراً للسرعة التى خففت بها - لمسألة البحث عن مطية . التقطت ما وصلت إليه يداى من متعلقاتى الشخصية وما بدا لى أكثر أهمية ، ومن بينها أوراق اللعب هذه [وفى تلك الأثناء كشف

(١) توجد فى إسبانيا عدة قرى بهذا الاسم ، لكن العبارة اللاحقة (مكان معروف ومشهور بكثرة المترددين عليه ..) تقطع بأن القرية المقصودة هى "فوينفريدا" الواقعة فى "وادي الرملة" Guadarrama والى تبعد عن مدينة "شقوبية" بحوالى ثلاثة فراسخ . (المترجم)

عن مخبأ الأوراق فى النتوء المتدلى من صدره [التى كسبت بها لقمة العيش من الطواف بالخانات المتناثرة على طول الطريق من مدريد إلى هنا واللعب مع نزلاتها لعبة الواحد والعشرين . ومع أنك تراها معطوبة بأئسة إلا أنها تحسن جيداً لمن يفهمها ؛ ولو كنت متمرساً فى هذا النوع من اللعب لعلمت أن من يتحفه الحظ بالآس فى الورقة الأولى يضمن الفوز فى لعبة الواحد والعشرين . وعلاوة على ذلك فقد علمنى طبّاخ أحد السفراء فنون اللعب المختلفة فحذقتها كما تحذق فن قص الجوارب . وهكذا فقد أبعدت عنى هذه اللعبة شبح الهلاك جوعاً ، فأينما أحلّ لا أعدم أبداً من يهوى تمضية الوقت فى لعب الأوراق . والآن دعنا -على سبيل التجربة -ننصب الشباك وننظر ما إذا كان سيقع بها عصفور من هؤلاء البغّالين الموجودين بالمكان : أردت أن أقول هيا بنا نجلس وننظّاهم بلعب الواحد والعشرين ، وإذا خطر ببال أحدهم الانضمام إلينا ثالثاً سيكون أول من يفرغ محتوى كيسه .

رد عليه الثانى قائلاً :

- لقد غمرتني بفيض كرمك وأسرتني بجميل صنعك عندما أطلعتني على خبايا حياتك ، وهذا يضطرني بالطبع للإفصاح عما يخصني منها ولو فى كلمات معدودة : أنا -يا سيدى الفاضل- من مواليد بقعة مباركة ^(٢) بين "شلمنقة" و "مدينة الكامبو" ، والذى خياط علمنى صنعة استعمال المقص فصرت أقص الجيوب بدلاً من الأقمشة . ضقت ذرعاً بضيق سبل العيش فى القرية وبالمعاملة البغيضة لزوجة أبى . تركت بلدتى ويممت شطر "طليطلة" لأمارس نشاطى ، وفيها أطلقت لمواهبى العنان ، فلم أدع كيساً متدلياً ولا جيئاً متخفياً إلا زارته أصابعى أو عمل فيه مقصى حتى ولو كان محروساً بعيون "أرجوس" ^(٣) ذاته ... وطوال أربعة الأشهر التى أمضيتها فى تلك المدينة تمكنت من تفادى كل ما يعكر الصفو ، فلم يضيق على

(٢) يقول النقاد إن المقصود "بالبقعة المباركة" هنا غرفة نوم أسقف "شلمنقة" . (المترجم)

(٣) "أرجوس" Argos شخصية أسطورية تتسم باليقظة التامة وإمكانية الرؤية فى جميع الاتجاهات نظراً لتمتعها بأكثر من عين فى منتهى الحدة ، كما أخبر البعض بأنها مزودة بمائة عين . (المترجم)

الخناق أبداً في مكان ما ولم تفرغنى الشرطة أو يش بي مخبر سري. حقيقة أنه منذ ثمانية أيام وصل خبر مهارتي - عن طريق أحد العملاء السريين - إلى "صاحب الشرطة" فأراد رؤيتي لولاه الشدائد بأصحاب المواهب مثلي ، وبما أن تواضعي الجم يمنعني من التعامل مع شخصيات خطيرة ومهمة فقد قررت عدم تلبية رغبته ، وهكذا تركت المدينة على عجل دون أن يسمح لي الوقت بحمل مال أو امتطاء ركوبة أو احتلال مقعد على مركبة المسافرين المغادرين أو ملء فراغ على عربة كارو .

علق "رينكون" قائلاً :

- حقاً إنها لسيرة مدهشة . أما الآن وقد تعارفنا كما ينبغي ، فمن رأيي أن نترك المجاملة ونعترف دون أدنى خجل أننا لا نملك فلساً واحداً ولا ما هو أدنى من ذلك .

- كما تشاء -أجاب "دييجو كورتادو" [وهذا هو اسم الصغير طبقاً لاعترافيه] - وبما أن صداقتنا لا بد أن تكون أبدية فمن المستحسن أن نبدأها الآن بما تستحقه من الطقوس المعتادة المحمودة .

وعندئذ نهض الاثنان وتعانقا بحرارة وودّ ثم جلسا ليلعبا لعبة الواحد والعشرين بالأوراق المشار إليها آنفاً بعد أن أزالا ما عليها من قشّ وغبار ، مهملين ما علق بها من شحوم وعلامات غشّ فارقة ، وما هي إلا لحظات حتى تبين أن "كورتادو" لا يقل براعة في اللعب عن أستاذه "رينكون" .

خرج أثناء ذلك بغال إلى السقيفة لينعم بالبهواء المنعش وعندما وجدهما يلعبان استأذنهما للاشتراك ثالثاً فرحبا به ، ولم تكد تمرّ نصف ساعة حتى ربحا منه اثني عشر ريالاً علاوة على اثنين وعشرين مرابطياً^(٤) فكانما أصابته للخسارة اثنتا عشرة طعنة برمح متوجّة باثنتين وعشرين كآبة.

(٤) الريال والمرباطي من المسكوكات الإسبانية القديمة ، وهما - كما نرى - من المفردات العربية التي احتفظت بها اللغة الإسبانية وإن كانت قيمتهما فيها تختلف عن نظائرها من المسكوكات الأندلسية. (المترجم)

ولما رأى البغال أن خصميه صبيان خُيِّلَ إليه أن باستطاعته استرداد ما خسره من مال ، لكنه فوجئ بامتشاق أحدهما لنصف سيفه وبإمساك الآخر لمقبض سكينه الضخم ، ولو لم يخف لنجدته زملاؤه لأصابه منهما مكروه ولا ريب .

كانت تمر في تلك الساعة جماعة من المسافرين على صهوات الخيول في طريقها ، لتمضية القيلولة ، بخان "ألكالدي" الذي يبعد عن خان "ألمولونيو" بما لا يزيد عن نصف فرسخ ؛ وعندما شاهد المسافرين الصبيين يتشاجران مع البغال ترجلوا وهدأوا من ثورتهم ، ثم سألوا الصبيين إذا كانا ذاهبين إلى إشبيلية فبإمكانهما مرافقتهم حتى هناك .

أجاب "رينكون" :

- نعم ، نحن ذاهبان إلى هناك ، ويسرنا خدمتكم في الطريق وتلبية كافة أوامركم .

لم ينتظرا دعوة ثانية وقفزا أمام الدواب مخلفين وراءهما البغال في حالة نفسية لا يحسد عليها ، وصاحبة الخان في إعجابها الشديد بحسن تربية الصعلوكين ، وكانت قد استرقت السمع لحديثهما دون أن يفتنا إليها . وعندما أخبرت البغال بما دار بينهما من حديث حول ورق اللعب المغشوش طار صوابه وطفق ينتف لحيته وأراد اللحاق بهما ليسترد ما خسره ؛ لأنه من العار - حسب قوله - وقوع رجل ناصح راشد مثله في شرك متشردين صغيرين . عمد رفاهه إلى تهدئته ناصحين إيَّاه بعدم الذهاب حتى ولو كان من أجل عدم انتشار خبر سذاجته وغفلته بين الناس مما سيجعله مدعاة للهزاء والسخرية . لم تعزّه كلمات زملائه ولم تقنعه ، لكنها كانت كفيلة بإجباره في النهاية على البقاء .

وفي الطريق أظهر "رينكون" و "كورتادو" تفانيهما البالغ في خدمة المسافرين فوثقوا بهما وسمحوا لهما بالارتقاء على عجزى بغلين . كان بوسعهما اغتنام العديد من الفرص لجس دواخل حقائق أنصاف سادتهما ، لكنهما أحجما حتى لا يحرما من الرحلة الهنيئة إلى إشبيلية التي يتحرقان شوقاً لرؤيتها .

وبرغم ذلك ، فعندما دخلا المدينة بصحبة الرُّكْب ساعة الصلاة من باب "الجمرك" (٥) لم يتمكن "كورتادو" من مقاومة رغبته في شقّ حقيبة رجل فرنسي كان ضمن المجموعة ، وهكذا أعمل فيها سكينه الضخم وأصابها بجرح بالغ وعميق تبدّت على إثره أحشاؤها ، وبخفة أخرج منها قميصين جديدين وساعة شمسية ، علاوة على دفتر مذكرات . لم تقنعهما هذه الأشياء عندما تبيناها وفكرا بأن الفرنسي لم يكن بحاجة لظهر بغل لحمل هذا المتاع القليل التافه .. أرادا العودة إلى استكشاف بطن الحقيبة من جديد ، لكنهما لم يفعلا نظراً لغياب الحافز ولرضاهما بقسمة الحظ والنصيب .

كانا قد ودّعا قبل إغارتهم على الإفرنسي من قاموا بإعالتهم وإطعامهم حتى ذلك المكان ، وفي اليوم التالي باعا القميصين بعشرين ريالاً في السوق المقام خارج باب "أرينال" . قاما بعد ذلك بالتجول في المدينة ، فزارا الكاندرائية الرئيسية وأعجبا بضخامتها وفخامة معمارها ، ودهشا عند النهر لرؤية الخلائق الكثيرة المنهمكة في شحن أسطول يتألف من ست سفن ضخمة . انتزعت منهما رؤية السفن تنهيدة عميقة، وسرت في أوصالهما رعدة من احتمال أن ينتهي بهما المطاف ذات يوم للاستقرار إلى الأبد في قاع إحداها عقاباً لهما على ما يقترفانه من أعمال أثيمة . أثار دهشتهم أيضاً رؤية أعداد كبيرة من الأولاد الذين يحملون السلال ويعرضون خدماتهم على الناس ، فأتجها إلى واحد منهم وسألاه عن طبيعة عمله وما يتطلبه من مشقة وجهد وعما يدره من عائد يوميّ .

كان الفتى الذي توجهوا إليه بالسؤال من مقاطعة "أشتوريش" ، وقد أخبرهما أن العمل مريح ولا يستوجب دفع "قبالة" (٦) أوضماناً من أحد السادة ويصل ريعه في بعض الأيام إلى خمسة وستة ريالات يستطيع المرء أن ينفق منها - كملك - على مأكله ومشربه ومتعه وأن يتناول الطعام وقتما يريد ، وذلك لتوافره على مدار الساعة حتى في أصغر حانوت بالمدينة .

(٥) يقع هذا الباب بالقرب من ترسانة بناء السفن في إشبيلية ، وقد تم بناؤه عام ١٥٨٧ م مكان الباب القديم المواجه لقوس "سان ميغل" . (المترجم)

(٦) "قبالة" alcabala كلمة عربية يراد بها نوع من الرسوم يتم سداؤه للمقبل ، أي الذي يحتكر أنشطة السوق . (المترجم)

ارتاح الصبيان لتقرير الأشتوريشى عن العمل ، لأن فكرة حمل بضائع الناس تتلاءم كثيراً مع أهوائهما وتعتبر غطاءً آمناً لأنشطتهما وستسمح لهما بدخول المساكن دون عقبات ؛ ولذا قررا شراء ما تتطلبه المهنة من أدوات إذ لم يكن العمل الجديد يقتضى الخضوع لاختبار مسبق أو امتحان فى القدرات . سألا الولد الأشتوريشى بعد ذلك عن الأدوات المطلوبة فأخبرهما أن على كل واحد منهما شراء كيس صغير - نظيف أو جديد - وثلاث سلال ، اثنتان كبيرتان والثالثة صغيرة : السلة الأولى لحمل اللحوم ، والثانية للأسماك ، والثالثة للفاكهة ؛ أما الكيس فيستعمل لحمل الخبز . ثم اقتادهما إلى مكان بيع هذه الأشياء فقاما بشرائها على الفور من النقود التى توفرت لديهما من ثمن بيع ما استوليا عليه من الفرنسى ، وما هى إلا ساعتان فقط حتى نالا إجازة العمل الجديد كما تشهد بذلك طريقة حملهما للأكياس والسلال . لم ينس الدليل إخبارهما بالأماكن التى يتعين عليهما الوقوف بها ومراقبت كل منها : فى المجزر وميدان "سان سلبادور" كل صباح ، فى شادر السمك أيام تفريغ شحنته من نهر الوادى الكبير ، فى ميدان "كوستانيا" كل مساء ، وفى السوق الكبير الذى يقام بالمدينة كل خميس .

وعيا الدرس جيداً وحفظاه فى الذاكرة ، ومع إشراقة صباح اليوم التالى كانا واقفين بميدان "سان سلبادور" ، وكان ظهورهما فى هذه الساحة مثار اهتمام زملائهما فى المهنة فطفقوا يمتطرونهما بوابل من الأسئلة كان الصبيان يجيبان عنها بما يتوقع منهما من فطنة وتحفظ . وأثناء ذلك مرَ جندى وطالب لاهوت فاسترعى انتباههما نظافة سلال المستجدين . نادى الطالب على كورتادو واستدعى الجندى "رينكون" . هرع الصبيان مرددين فى صوت واحد :

- رهن إشارتكما ، أيها السيدان .

ثم أضاف "رينكون" :

- افتتاح مبارك ، ياذن الله ، لأننى سأبدأ مزاوله المهنة على يديكم .

أجابه الجندى :

- لن يخيب ظنك ، لأنى بصدد إقامة حفل اليوم لعدد من صديقات محبوبتى ويلزمنى الكثير من الحاجيات .

- فى هذه الحالة أتوسل إليكم بشراء كل ما يحلو لكم ، فلدى من العزم والقوة ما يجعلنى أحمل هذا الميدان بكامله ، ولو اقتضى الأمر المساعدة فى طهيه سأفعل عن طيب خاطر .

سر الجندى من خفة ظل الصبى وعرض عليه الالتحاق بخدمته وترك هذا العمل المصنى ، فأجابه "رينكون" قائلاً : لما كان هذا أول يوم لى فى العمل الجديد فإننى جدٌ راغب فى اختبار حظى فيه وعدم تركه سريعاً ، ومع هذا أعطيك كلمتى من الآن أنك ستكون أول من التحق بخدمته عندما أزهد عملى ولن أقدم عليك إنساناً آخر حتى ولو كان الكاهن ذاته .

تبسم الجندى ضاحكاً من قوله وحمله أشياء كثيرة ثم أرشده لبيت سيده بغرض التعرف عليه والتمكن من الذهاب إليه مستقبلاً بمفرده دون حاجة إلى مرشد . وعده "رينكون" بأنه سيكون عند حسن ظنه . أنقذه الجندى ثلاثة فلوس (٧) وبعدها رجع "رينكون" بأقصى سرعة إلى الميدان حتى لا تفوته فرصة ما ، عاملاً فى ذلك بنصيحة الولد "الأشتوريشى" الذى أوصاه بتوخى السرعة فى العودة إلى نقطة الانطلاق ، ولم يغفل أيضاً نصيحته الأخرى المتعلقة باختلاس كمية لا تسترعى الانتباه من الأسماك صغيرة الحجم مثل السردين وأم الخلول لكى يتبلغ بها ويتمكن ، بالتالى ، من تقليص مصروفاته الشخصية لذلك اليوم ، على أن يتم هذا بكياسة وحذر حتى لا يفقد الثقة التى تعتبر بمثابة الركيزة الأساسية لمهنتهم تلك .

ورغم السرعة التى عاد بها "رينكون" إلا أنه وجد صاحبه منتظراً فى المكان الذى انطلقا منه . اتجه إليه "كورتادو" وسأله عن حظه مع الجندى ففتح "رينكون" يده وأبان عن الفلوس الثلاثة ، عندئذ أدخل "كورتادو" يده هو الآخر فى عبء وأخرج كيساً أثرياً منتفخاً بعض الشيء وقال له :

- قدم لى الطالب المحترم هذا الكيس علاوة على الأجرة وقدرها فلسان . خذ الكيس واخفه تحسباً لما قد يحدث .

لم يكد "رينكون" يخفى الكيس حتى شاهدا الطالب مقبلاً وهو ممتقع اللون وعليه أمارات الاضطراب الشديد ، توجه إلى "كورتادو" وسأله إذا كان قد رأى -مصادفة -

(٧) فلوس (مفرداً : فلس) وهى عملة نحاسية قديمة . (المترجم)

كيساً أوصافه كذا وكذا يحتوى على خمسة عشر إسكودو ذهبية بالإضافة إلى ثلاثة ريبالات وبعض العملات المرابطية الأخرى ،ضاع منه أثناء تجواله بالسوق للشراء . ردّ عليه "كورتادو" بمدارة مدهشة ودون اختلاج عضلة واحدة من وجهه :

- كل ما أستطيع قوله عن هذا الكيس يتلخص فى أنه كان سيسلم حتماً من الضياع لو توخيت الحذر وحفظته فى موضع آمن لا تصل إليه الأيدي .

ردّ عليه الطالب قائلاً :

- لم تنطق بغير الحق ، وأعترف بذنبي لأننى لو حفظته فى مكان آمن لما تمكنوا من سرقته .

قال "كورتادو" عندئذ :

- أثنى على شجاعتك فى الاعتراف بذنبك ، ولما كانت لكل علة فى هذه الحياة دواء إلا الموت فإننى أنصحك بأن تفيد نفسك من أمر يدعونا الرب بالركون إليه ألا وهو الصبر ، فالأيام تتعاقب وكما تعطى تأخذ ، وما يدريك لعل الشخص الذى سرق منك الكيس يثوب إلى رشده ذات يوم ويندم على فعلته ويعيده إليك بعد أن يكون قد تلظى بنيران جرمه .

قال الطالب :

- يكفينى منه عودة الكيس ، وأتنازل له عن حرقة العقاب وعذاب الضمير .

تابع "كورتادو" حديثه :

- أما أنا ، يا حضرة المحترم ، فلا يمكن أن تسوّل لى نفسى الاعتداء على هذا الكيس لأن انتماءكم إلى "أخوية مقدسة" يجعل من مجرد التفكير فى هذا الجرم كبيرة من الكبائر وانتهاكاً لحرمة المقدسات .

- وكيف يكون انتهاكاً للمقدسات -رد الطالب الموجوع- وأنا لست بقسيس ، بل سادناً لأحد أديرة الراهبات . أما المال الذى كان بالكيس فهو حصّة من عوائد الوقف على الدير وقد سلّمه لى صديق كاهن ، وهو مال مقدس ومبارك .

- كما تصنع خبزك تأكله - قال "كورتادو" معزياً - غير أن يوم الحساب أت ولا ريب وفيه يظهر المستور ، وسترى ما سيحل بذلك الخبيث الذي تجرأ ويدد حصّة الوقف ، لكنى أستحلفك بحياتك ، أيها السّادن ، أن تحيطنى علماً بجملة عوائد هذا الوقف فى السنة .

أجابه السّادن وهو يشتاظ غضباً :

- لتذهب جميع أموال الوقف إلى الجحيم ! أسمح ما أنا فيه بحساب ريع هذا الوقف ! لو كنت تعرف شيئاً عن الكيس أخبرنى به ، وإذا كنت لا تعرف أستودعك الله ، أما أنا فعلى أن أذهب وأعلن عنه .

- عين الصواب - قال "كورتادو" - وكن حريصاً على الإدلاء بالأوصاف الكاملة للكيس ومحتوياته لأنك لو أخطأت قيد شعرة قلن تراه فى هذا العالم ثانية ، أقول لك هذا على سبيل النصيح فقط .

- كن مطمئناً - قال السّادن - فأوصاف الكيس مطبوعة فى ذاكرتى بصورة تفوق قرع الأجراس ، ولن أخطئ فى خيط واحد منه .

قال هذا وأخرج من جيبه منديلاً مزركشاً ليجفف عرقه الذى كان يتساقط على وجهه مثل قطارة وعندما لمح "كورتادو" قرر الاستيلاء عليه .

انصرف السّادن لحال سبيله ، لكن "كورتادو" تبعه ولحق به عند الرصيف المبحر المخصص لبناء السفن . نادى عليه ثم انتحى به جانباً وأخذ يقصّ على مسمعيه العديد من الترهات حول موضوع سرقة الكيس وإمكانية استعادته ، محملاً إياه بالآمال العريضة ، لكن كلامه كان غامضاً ومبتوراً مما جعل السّادن ينصت إليه مذهولاً وقد أشكل عليه ، ونظراً لعدم قدرته على فكّ طلاسم ما يسمعه فقد كان يطلب من محدثه تكرار ما يقول مرتين أو ثلاثاً .

كان "كورتادو" يصبوب - أثناء حديثه - إلى عينيّ السّادن نظرات مباشرة ، مسترسلة وحادة ، ويبدله الآخر - مشدوهاً بكلامه - نظرات ماثلة . انتهز "كورتادو" فرصة هذا الذهول لكى يسرق المنديل من جيب السّادن ، وبعد إتمام عمله بخفة وبراعة ودّعه مواسياً معزياً ، وقال له إنه سيحاول رؤيته مساء ذلك اليوم بالمكان ذاته

لأنه يشك في زميل له بالمهنة ، في مثل حجمه وعمره تبدو عليه أمارات اللصوصية وأنه سيضيق عليه الخناق ويضطره ، إن أجلاً أو عاجلاً ، للاعتراف بالسرقة .

خفت كلمات "كورتادو" بعض آلام السأدن وواسته قليلاً ، لكنه سرعان ما ودّعه ليعود أدراجه حيث ينتظر زميله "رينكون" الذي كان يشاهد من موقعه القريب ما يجري بينهما . كان موجوداً بالمكان أيضاً أحد حاملي السلال يراقب ما يحدث ، ولم يكذ "كورتادو" يفرغ من إعطاء المنديل لرينكون حتى اقترب منهما وسأل :

- أيسمح لي السيدان الفاضلان بالسؤال عما إذا كانا قد دخلا المدينة من بابها المشروع (٨) .

- إننا لا نفهم ما تعنيه أيها السيد المبجل - أجاب رينكون .

- ألا يفهم السيدان "المُرسِيان" (٩) ما أقول حقاً ؟

- لسنا من طيبة ولا من "مرسية" - رد "كورتادو" - . إذا كنت تريد قول شيء آخر فهات ما عندك ، وإلا فامض على بركة الله واتركنا وشأننا .
قال لهما الحدّث حينئذ :

- أما زلتما لا تفهمان قصدي ؟ ينبغي إذن إفهامكما الأمر على مهل وصبّه في حلقكما بمجدرة من فضة : أريد أن أعرف ، يا صاحبي السعادة إذا كنتما من طائفة اللصوص ، ولم السؤال وأنا بالإجابة عليهم ! لكن أخبراني : هل مررتما بجمارك السيد "مونيبيديو" ؟

- أيدفع اللصوص مكوساً في هذه الأرض ، ياسيدي ؟ - سأل "رينكون" .

- إن لم يدفعوا الضرائب - فإنهم على الأقل يسجلون أسماءهم عند السيد "مونيبيديو" لأنه أبوهم ومعلمهم وملادهم ؛ ولذا أنصحكما بالذهاب معي

(٨) المقصود هنا - كما سيوضح فيما بعد - إذا كانا يمارسان النشل بتصريح ومباركة زعيم اللصوص والمشردين بالمدينة . (المترجم)

(٩) نسبة الى مدينة "مرسية" ؛ لكن المقصود بها - طبقاً للغة اللصوص الخاصة - مَنْ يحترف النشل والسرقة . (المترجم)

لتقديم فروض الطاعة والولاء له ، لأنكما لو لم تفعلوا لن تجرؤا على النشل دون تصريحه ، ولو سؤلت لكما نفساكما المخالفة ستعضان أنامل الندم .

- كنت أظن - قال "كورتادو" - أن اللصوصية مهنة حرة معفاة من الضرائب والقبالة وما يدفع فيها يكون فقط لإسكات الوشاة والبصّاصين، أما إذا كانت لكل محلة نظمها الخاصة فلا مناص من الرضوخ للمعمول به في أرضكم لأنه سيكون بالتأكيد أصوب من غيره نظراً لما تتمتع به مدينتكم من مكانة سامية في العالم أجمع . والآن لو تفضل صاحب السيادة وتشرف باقتيادنا إلى مقر هذا السيد المحترم الهمام الذي أتوقع - حسبما سمعت منك - أن يكون محنكاً وبارعاً في فنه براعة لا تخطر لأحد على بال .

- إن براعته وحنكته لا حدود لهما - ردّ الحدث - ، ويكفى أنه منذ أن تولى قيادنا وأصبح كبيرنا (أى منذ أربع سنوات) لم ينفذ حكم الإعدام إلا في أربعة منّا، ولم يتعرض للجلد غير ثلاثين ، أما عقوبة العمل بالتجديف في باطن السفن فلم تنفذ إلا في اثنين وستين فقط .

عقبَ "رينكون" على كلام الحدث قائلاً :

- إنه بالفعل يستحق الإشادة وأن يدوى اسمه في العالمين .

لم يهتم الحدث بالتعليق على العبارة السابقة وقال لهما :

- والآن هيا بنا ، وسأشرح لكما في الطريق ما يتعين عليكما معرفته وما ينبغي جريانه على لسانيكما من مفردات ومصطلحات خاصة .

وهكذا أخذ يلقنهما في الطريق الطويل دروساً كثيرة ومتشعبة من معجم لغة اللصوص .

سأل "رينكون" الدليل :

- بالمناسبة ، هل صاحب السعادة لص أيضاً؟

- نعم ، من أجل خدمة الرب والناس الصالحين ، وإن كنت لست ضالعا في المهنة لأننى ما زلت مبتدئاً في السنة الأولى التمهيدية .

لم يطق : "كورتادو" صبراً وقال :

- أرجو منكم المعذرة لهذه الملاحظة التى أبديتها لكم : لقد رأيت كثيراً وسمعت أكثر لكننى لم أسمع أبداً عن لصوصية فى العالم من أجل خدمة الرب وعباده الصالحين.

فقال الحدث :

- لست ، ياسيدى ، ممن يقحمون أنفسهم فى اللاهوت ، لكننى أعرف أن بإمكان أى إنسان - من خلال عمله - حمد الله وشكره والثناء عليه بل وإسداء العون - وفقاً لقواعد الأخوية التى سنّها السيد مونيوديويو - لجميع إخوته فى العماد.

- لاشك أنها أخوية صالحة ومقدسة - رد "رينكون" - لأنها تحمل اللصوص على شكر الرب والتوجه إليه بخالص الأعمال.

- إنها صالحة ومقدسة - أضاف الدليل بحدة - إلى أبعد الحدود. فتعليمات كبيرنا تقضى باقتطاع جزء من المسروقات للصدقة أو لشراء الزيت لإضاءة القناديل للقديسين المشهود لهم بالتقوى والصلاح فى المدينة ، وقد لمسنا آثاراً جلية وجليّة لهذا المسلك الطيب ، فقد حوكم زميل لنا منذ أيام قلائل بتهمة سرقة حمارين وتعرض لشتى ألوان التعذيب دون أن يبوح بكلمة واحدة رغم هزاله وشدة ضعفه . ونحن أصحاب المهنة نعزى هذه المكرمة لصدق إيمانه وتقواه ، ذلك لأن قواه لم تكن كافية لتحمل أول كرة للجلاد [ثم أخذ يشرح لهما ما استغلق عليهما من معنى المفردات الخاصة بلغة اللصوص والواردة بكلامه السابق] ، وعلاوة على ما تقدم فلنا صلواتنا وتساييحنا التى نؤديها بانتظام على مدار الأسبوع ، والكثيرون منا لا يمارسون السرقة يوم الجمعة ولا يتحدثون يوم السبت مع أية سيدة تدعى "ماريا".

- كل هذا جميل ورائع -عقب "كورتادو" -، لكن ، ألا تقدمون هبات أو كفارات أخرى غير التى ذكرت ؟

- هبات وكفارات ! - تَعَجَّب الدليل - هذا مستحيل لأن المتبقى بعد الاستقطاعات التي تُخصم من المسروقات وتوزع على بعض الجهات الأمنية والمرشدين لا يُمْكِن السارق من تقديم هبة أو كفارة خاصة إذا لم يكن هناك أمر صريح قد صدر بها ، وهذا لأننا لا نذهب إلى الكنيسة أبداً للاعتراف ، وعندما تتلى منشورات التجريم الكنسى على رؤوس الأشهاد فإننا لا ندرى عنها شيئاً لسبب بسيط وهو عدم وجودنا هناك ، فلحن لا نؤم الكنيسة إلا أيام الأعياد والاحتفالات حيث يجتمع الناس بكثرة وتكون الفرصة مواتية للعمل .

سأل "كورتادو" متعجباً:

- وبهذا فقط تدعون أنكم من الأتقياء الصالحين ؟
- وما وجه الغرابة فى ذلك - أجاب الحدّث - ألسنا أفضل من الهرطقة المرتدين ، ومن قتلة آبائهم وأمهاتهم ، أو من اللوطيين ؟
- هؤلاء جميعاً فى الإثم سواء - رد "كورتادو" - لكن مادامت الأقدار قد رتبت لنا الانضمام لهذه الأخوية فهيا بنا نستحث الخطى لأننى جد مشتاق لرؤية السيد "مونيبوديو" الذى كثرت الأحاديث حول فضائله الجمّة .
- ستلبى رغبتكم حالاً - ردّ الدليل - ذلك لأننا أصبحنا على مرمى حجر من داره . سنتنظران لدى الباب وسأدخل أنا أولاً لأرى إن كان مشغولاً أو غير مشغول لأنه يجتمع عادة بأعضاء أخويته فى مثل هذه الساعة .
- آمل أن تكون ساعة مناسبة ومباركة - رد عليه "رينكون" .

سبقهما الدليل ودلف إلى دار متواضعة سيّلة المظهر ، ووفقاً ينتظرانه خارج الباب . ظهر ثمانية ونادى عليهما فدخلا ثم أشار إليهما بالانتظار فى فناء الدار المعبد بالآجر الأحمر اللامع ، الممسوح والنظيف . فى جانب من الفناء كان يوجد مقعد بثلاثة قوائم ، وفى الجانب الثانى جرة مكسورة العنق فوقها إبريق فى مثل حالها ، وفى الجانب الثالث حصيرة من الخيزران ، بينما يتوسط الفناء إصيص من أصص الحبق التى تشتهر بها إسبيلية .

كان الفتيان يفحصان باهتمام أثاث الدار ، ولما وجد "رينكون" أن السيد "مونيبوديو" قد تأخر في المجيء منح نفسه حرية ولوج صالة واطلة فشاهد فيها - معلقاً على أوتاد - سيفين للمبارزة وترسين صغيرين من الفلين ، بالإضافة إلى صندوق كبير دون غطاء وثلاث حصر أخرى من الخيزران مفروشة على الأرض . كما شاهد صورة للعدراء ساذجة الصنع معلقة على أحد الحوائط وتحتها تتدلى سلة صغيرة من السعف وإلى جوارها طاسة كبيرة مثبتة في الحائط ، فأدرك "رينكون" بفتنته (وكان صادقاً فيما ذهب إليه) أن السلة لتلقى الصدقات والطاسة للمياه المقدسة .

وأثناء تجولهما بالدار دخل شابان في العشرين من عمرهما يرتديان ملابس الطلاب ، ثم دخل بعدهما اثنان من حاملي السلال بصحبة رجل ضرير ، ودون أن يتفوه أحدهم بكلمة أخذوا يجوسون في الفناء .. بعد لحظات دخل رجلان مسنّان يرتديان ملابس سوداء ويبد كل منهما مسبحة كبيرة ، وعلى وجهيهما تبدو - من آثار الوحم عليها - أمارات الخطورة والمهابة .. وفي إثر هذين الأشيبين المتجهمين دخلت امرأة عجوز ترتدى ملابس فضفاضة ، وقبل أن تنطق بكلمة انتجعت من فورها إلى الصالة واغترفت بورع شديد كمية من الماء المقدس ثم جثت على ركبتيها أمام صورة العدراء واسترسلت في صلاة عميقة لفترة ليست بالقصيرة قبلت الأرض خلالها عدة مرات ورفعت كفيها ورأسها إلى السماء مرات أخرى ، ثم نهضت وأودعت صدقة في السلة وانضمت بعد ذلك إلى القوم الذين تجمعوا في فناء الدار . ودون حاجة إلى التعريف بمن حضر بعد ذلك فقد وصل إجمالى الذين تجمعوا بفناء الدار أربعة عشر شخصاً متنوعى الملابس والمهن .. وفي النهاية زين المحفل رجلان شريرا المنظر تبدو عليهما أمارات البسالة والإقدام ، لهما شاريان طويلان ويغطيان رأسيهما بقبعيتين عريضتي الحواف ويطوقان عنقيهما بياقتين خشنتين مثنيتين ويرتديان جوربين ملونين . كانا مسلحين بسيفين طويلين ويطبجتين تتدليان من جرابين مشدودين إلى زناريهما ، وما إن لمحا "كورتادو" و "رينكون" حتى توجهتا إليهما بعد تدقيق النظر فيهما وسألتهما إذا كانا من الأخوية ، وعندئذ رد "رينكون" بالإيجاب في إيماءة مصطنعة بالاحترام الشديد .

فى تلك الأثناء نزل السيد "مونيبوديو" من الطابق العلوى فاستقبله الحشد المتحرق شوقاً لرؤيته بحفاوة بالغة . كان يبدو فى الخامسة أو السادسة والأربعين من العمر ، طويل القامة ، قمحى اللون ، غائر العينين ، حاجباه متصلان فى المنتصف ولحيته كثة سوداء . كان يرتدى قميصاً مفتوحاً يكشف عن صدر غزير الشعر كغابة مورقة ، وفوق القميص معطف طويل تبلغ أطرافه قدمين ينتعلان حذاء بلا كعب ، ويغطى رجليه إلى العقبين سروال فضفاض طويل من نسيج الكتان ، ما قبعته فكانت مما يرتديه السوقة : مرتفعة الوسط عريضة الحواف ، وعلى صدره وظهره يمتد سير من الجلد يتدلى منه - على الطريقة الموريسكية - سيف عريض وقصير ، وينتهى ذراعه القصيران المشعران بيدين سميكتين وأصابع مفلطحة . لم يكن يظهر من ساقيه شىء ، لكن حجم حذائه يوشى بقدمين هائلتين .. لقد كان حقاً ، أنموذجاً متفرداً للبربرى الأشد جلافة وفظاظة فى العالم أجمع . نزل بصحبة الدليل الذى أمسك بيدي الوافدين الجديدين وقدمهما إليه قائلاً :

- هذان هما الفتيان الطيبان اللذان أحضرتكما لك يا صاحب السعادة ، فهل تتكرم بفحصهما للحكم على جدارتهما بالانخراط فى سلك الأخوية ؟
- هذا ما سأفعله بكل سرور - أجاب "مونيبوديو" .

نسبنا الإشارة إلى أن "مونيبوديو" تلقى من الحشد فور ظهوره التحيات العميقة الحارة عدة مرات ، فى حين اكتفى الرجلان المسلحان العابسان بخلع قبعتيهما له من خلف ستارة الملابس والأسلحة التى تطوق جسديهما ثم عادا إلى التجول فى ركن من فناء الدار ، وفى الركن الآخر تفقد "مونيبوديو" (أو الزعيم) زائريه ثم اتجه إلى المستجدين وسألتهما عن عملهما ومسقط رأسيهما واسميتهما .
أجابه "رينكون" :

- الأمر بالنسبة للعمل لا يحتاج إلى إيضاح خاصة وأننا نمثل الآن أمام حضرتكم ، أما مسقط الرأس فلا أهمية لذكره وكذلك الأبوان لأن المناسبة غير مشرفة حتى تعلّى من قدرهما .

فرد عليه الزعيم قائلاً :

- إنك على حق يا فتى ، لأنه من المستحسن أن تظل هذه الحقائق طى الكتمان ، فلو عاند الحظ وجرى بما لا نشتهى فمن المستقبح أن يرد على لسان قاضٍ أو يجرى قلم كاتب عدل ليسجل في المنشور العام "أن فلاناً بن فلان، من بلدة كذا قد تم شنقه أو جلده يوم كذا" أو شيئاً من هذا القبيل ، فهذا مما لا تود الأذن سماعه على الأقل ، ومن ثم أعود وأكرر أنه من الأفضل عدم الإفصاح عن الموطن أو ذكر الوالدين بل إن الاحتياط يقتضى تبديل الاسم الأول للشخص باسم آخر وإن كان لا خوف من الإفصاح عن مثل هذه الأشياء بيننا ، وبناء على ما تقدم ذكره لا أريد سوى معرفة اسميكما فقط .

نطق "رينكون" باسمه وكذلك "كورتادو" .

- اسمحا لي - قال الزعيم - بأن أخلع عليكما من الآن فصاعداً اسم "رينكونيته" و "كورتاديو" ^(١٠) لأنهما يتلاءمان جداً مع عمريكما ومع نظامنا الخاص بتحرير أسماء الأعضاء ، وإلى جوار هذين الاسمين المعدلين نحتاج لمعرفة الاسم الحقيقي لوالد كل منكما لأننا اعتدنا إقامة العديد من القداسات سنوياً على أرواح الهالكين مآ بقصد افتدائها من العذاب ، ولكي يصل ثواب تلك الصلوات إلى الأرواح المعنية ولا يخطئها ينبغي ذكر من تؤدي لهم على الوجه الصحيح . وتكاليف هذه القداسات نحصل عليها من صندوق الأخوية الذى يتم تمويله من الاستقطاعات المفروضة على الأشياء المسروقة . كما يغطى الصندوق أيضاً بند الهبات والرشاوى التى نقدمها لأصحاب الفضائل علينا وهم كثيرون ، من بينهم أذكر على سبيل المثال لا الحصر : المحامى الذى يتولى الدفاع عنا ، رجل الشرطة الذى يحذرنا من مكامن الخطر ، الجلاد الذى تأخذه الشفقة بنا ، ومن يقوم باعتراض الجماهير الثائرة وهى تركض خلف أحدنا فى الشارع صائحة : "اللس ،

(١٠) رينكونيته" و "كورتاديو" هما التصغير فى اللغة الإسبانية لكلمتى "رينكون" و "كورتادو" . (المترجم)

اللص ، أمسكوه ، ، اقبضوا عليه " ويحاول تفرقتها قائلاً: " اتركوا البائس المسكين لقدرة التعس ، يكفيه ما ناله من فزع ، سيظل ذنبه يلاحقه وينغص عليه حياته أينما ذهب " . ومن أصحاب الفضائل أيضاً: من يغيث لهفتنا وراء قضبان السجن أو خلف مجاديف السفن ، وأرواح آبائنا وأمهاتنا اللاتي قدفن بنا إلى هذا العالم ، وكاتب العدل الذي لو راق مزاجه لجعل الجريمة بلا ذنب وما حملَ الجرم الواضح غير عقوبة تافهة . ومن أجل هؤلاء جميعاً نقيم أخيرتنا سنوياً حقلاً باذخاً مهيباً بقدر ما تسمح به إمكانياتنا .

- حقا - قال "رينكونيته" بعد تأقلمه مع الاسم الجديد - إنه لنظام رائع تفتقت عنه عبقريتكم الفذة الراسخة يا سيد "مونيبيديو" ، لكن أبويننا ما زالوا يتمتعان بحظ العيش في هذه الدنيا ، ولو هيأت لنا الأقدار اللقاء بهما ثانية سنحيطهما علماً بهذه الأخوية السعيدة العظوفة التي لا تدخر وسعاً في الاهتمام بالآباء بعد موتهم وتقيم على أرواحهم القدّاسات المهيبة الباذخة تكفيراً عما اقترفوه من ذنوب .

- وسأظل وفيّاً لهذه السنة ما حييت - ردّ "مونيبيديو" .

ثم أوماً إلى الدليل الذي أحضر الصبيين وسأله :

- "جانشويلو" ، هل الرُقباء في أماكنهم ؟

- نعم يا سيدى فهناك ثلاثة منهم يراقبون المكان حتى لا نؤخذ على غرة .

- نعود إذن لموضوعنا - قال الزعيم - أريد يا أبنائي التعرف على ما تبرعان فيه حتى أرشدكما إلى المهنة الملائمة لميولكما ومهارتكما .

- إننى يا سيدى - رد "رينكونيته" - أجيد إلى حد ما فن اللعب بالورق في جميع أشكاله وصوره ، وأحوّل عند اللزوم "الأس" إلى ملك ، وأقوم بمناورات شتى من هذا القبيل تجعل الخصم مهما كانت مهارته يستسلم يائساً مقهوراً . . وعلى الجملة فإننى أفقه فى لوحة الحظوظ أكثر مما أفقه فى الوصايا العشر .

ردّ عليه "مونيبيوديو" :

- ما ذكرته يعتبر مجرد أساسيات فقط ، وعليك أن تدرك أن مثل هذه المناورات ما هي إلا أحابيل قديمة ومطروقة لا يوجد مبتدئ واحد لا يعرفها، وبمثلها لا ينخدع إلا غرّ ساذج تسيطر عليه روح الهزيمة ، لكننى آمل مع الوقت وبعد عدة دروس لا تتعدي أصابع اليدين أن أصيرك بعون الله فارساً صنديداً فى هذا الميدان وربما معلماً وفناناً قديراً .

ردّ "رينكونيته" :

- سمعاً وطاعة ، وستجدوننى دائماً عند حسن ظنكم وظن زملاء فى الأخوية .
ثم استدعى الزعيم "كورتاديو" وسأله عن كفاءاته فأجابه قائلاً :
- لقد تعلمت يا سيدى حيلة مفادها : ضع اثنين واستخرج خمسة (١١) ، وتعلمت القوص بمهارة فى الجيوب والعودة منها سالماً .

فسأله "مونيبيوديو" :

- أهذا كل ما تعرف ؟
- نعم - لسوء حظى - أجاب "كورتاديو" .
- لا تجعل اليأس يتسرب إلى نفسك يا بنى ، فأنت فى مدرسة تذكى المواهب وتنميها ، ولا تدع وسيلة من وسائل التقدم والنهوض إلا وأخذت بها .
ومادما نتحدث عن العزيمة ، ما نصيكم منها يافتى ؟
- لدى منها - ردّ "كورتاديو" - ما يكفى وزيادة للقيام بأية مهمة فى مجال تخصصى .
- حسناً - قال الزعيم - لكننى أود أن أعرف منك إذا كنت قادراً ، لو اقتضى الأمر ، على تحمل ألوان التعذيب المختلفة دون أن تتحرك شفتاك بكلمة ، بل ودون أن تقول هذا فمى .

(١١) المقصود بعبارة "ضع اثنين واستخرج خمسة" : التسلل بإصبعين فى جيب الضحية والخروج منها بالنقر . (المترجم)

فأجاب "كورناديو" :

- لا أحد منا ، يا سيد "مونيبوديو" ، يجهل معنى التعذيب ، ولا يوجد من تعوزه الإرادة لتحمل كافة ألوانه . كما أننا لا نجهل أن ما يقرضه اللسان تدفعه الرقبة ، ولترحم السماء أولئك الذين لا يجدون سهولة في قول "لا" بدلاً من "نعم" أو العكس .

- كفى يافتي -ردّ " مونيبوديو" -لقد تبين لى أنك شاب ذكى ، وما سمعته منك أفطنى بضرورة ضمك إلى الأخوية كعضو عامل مثل الكبار ، إذ اتضح أنك لست بحاجة إلى السنة التمهيدية التى نجرب فيها المبتدئين .

تدخل عندئذ واحد من الرجلين المسلحين وأعلن ضمّ صوته إلى صوت الزعيم ، ويادر الحاضرون الذين استمعوا إلى الحوار كاملاً بالتأكيد على ما ذهب إليه الرجل ، بل إنهم طالبوا الزعيم بإعطاء العضو الجديد كافة الحقوق والمميزات وإعفائه من الرسوم والضرائب لأن حضوره اللطيف المبهج ولسانه العذب يستحقان هذا وزيادة .

أخبرهم الزعيم أنه بقصد إدخال السرور على قلوبهم جميعاً فإنه سيتفضل بإعفائه من الرسوم المقررة على أول عملية نشل يقوم بها ، ولن يكلفه طيلة عامه الأول فى الأخوية - مثل غيره من المبتدئين -بالأعمال الثقيلة قليلة الشأن مثل حمل الأعطيات والهبات التى يقدمها المساهمون لشد أزr إخوانهم بالسجون ، أو التى يرسلونها إلى بيوتهم فى حالة قعودهم عن العمل ، وأنه يصرح له بتناول النبيذ المعتق ، وإعداد المآدب والولائم فى المكان والوقت الذى يحلو له دون حاجة إلى إذن مسبق من كبيره ، وحضور اجتماعات الكبار ولقاءاتهم كأنه فرد منهم ، هذا بالإضافة إلى مميزات أخرى خلعتها عليه الزعيم ولأقت استحسان الحاضرين الذين عبروا عن شكرهم العميق له بكلمات معبرة متزنة .

وبينما هم فى ذلك دخل أحد الرقباء وهو يلهث من العدو وقال :

- حاجب المتشردين يتجه نحو الدار ، لكنه قادم بمفرده دون أعوانه من رجال الشرطة .

قال الزعيم لأصدقائه وقد ارتسمت علامات الحيرة والاضطراب على وجه بعضهم :
- لا داعى للقلق ، إنه صديق ولم يأت إلينا بقصد إلحاق الضرر ، سأخرج إليه لمعرفة ما وراءه .

عادت الطمأنينة إلى النفوس التى ساورها الفزع ، وخرج الزعيم للقاء الحاجب عند الباب . وبعد أن تحدث إليه بعض الوقت رجع إلى القوم وسألهم بصوت عالٍ :
- من كان منكم صبيحة هذا اليوم بميدان "سان سلبادور" ؟

فأجابه الدليل :

- كنت هناك .

فسأله الزعيم :

- لماذا لم تطلعنى ، إذن ، على كيس أثرى تمت سرقة هذا الصباح بذلك المكان وبه خمسة عشر إسكودو ذهبية علاوة على عدد من الريالات والعملات الصغيرة الأخرى ؟

رد الصبى :

- لقد سرق هذا الكيس حقاً ، لكننى لم أخذه ولا علم لى بمن استولى عليه .

انتهره الزعيم بحدّة :

- لا تحاول خداعى ، لا بد من ظهور الكيس لأن الحاجب يريده ، وهو - كما تعلم - صديق عزيز ويقدم لنا آلاف الخدمات سنوياً ومن المستحيل رده خاوى الوفاض .

أقسم الصبى أنه لا يعرف عنه شيئاً ، وعندئذ هاج الزعيم وماج وصاح قائلاً والشرر يتطاير من عينيه :

- لن يجرؤ أحد مهما كان على العبث بمبادئ الجمعية ، وإذا كانت نفسك قد سولت لك إخفاء الكيس تهرياً من الرسوم المستحقة عليه للأخوية فإنى سأعطيك نصيبك كاملاً من جيبي الخاص لأن الحاجب لن يرجع بخفى حنين مهما كانت الظروف .

أخذ الصبي يلعن نفسه وعاد لتبرئة ذمته مقسماً بأغظ الأيمان أنه لم يسرق الكيس ولم يره بعينه ، فما كان ذلك إلا ليزيد من حق الزعيم ويثير سخط سائر أعضاء الأخوية إزاء هذا التجاسر والاعتداء على لوائح الجمعية ومبادئها الحميدة .

وحينما رأى "رينكونيته" أن المسألة ستفضى إلى بلبلة خطيرة تقدم إلى "كورتاديو" وتشاروا معاً في الأمر ، وقرّ رأيهما على ضرورة تهدئة خاطر الزعيم الذى يتميز غيظاً ، وعلى هذا فقد تقدّم نحو الجمع الغاضب وقال :

- أرجوكم بالتزام الهدوء يا سادة ، ها هو الكيس الذى تحدث عنه الحاجب كاملاً غير منقوص ، لقد اضطر زميلى إلى استقراره صبيحة هذا اليوم - علاوة على منديل - من طالب اللاهوت الفاضل .

دسّ "كورتاديو" عندئذ يده فى عبّ وأخرج منه الكيس ، وما إن رآه الزعيم حتى تألّقت أساريره وقال :

- "كورتاديو الطيب" ، ليكن هذا اسمك ولقبك من الآن فصاعداً ، احتفظ بالمنديل ، أما مكافأتك على هذه الخدمة الجليلة فتقع على عاتقى شخصياً . لقد تبين أن طالب اللاهوت قريب لصديقنا الحاجب ومن المناسب العمل بالمثل القائل " ليس بالكثير على من يقدم لك دجاجة كاملة أن ترسل إليه بساق واحدة منها" ، وحاجبنا العزيز يتغاضى فى اليوم الواحد عما لا يمكن أن نشكره عليه فى مائة يوم .

أعرب الجميع عن ارتياحهم لما بدر من الوافدين الجديدين ، وعن رضاهم التام لحكم كبيرهم وحسن تصرفه . خرج الزعيم لتسليم الكيس للحاجب بينما بقى "كورتاديو" لينعم بلقبه الجديد وكأنه "دون ألونسو بيريث دى جوثمان" (الملقب بالطيب) الذى ألقى بسكينه من فوق سور جزيرة "طريف" ليذبح بها الأعداء ابنه الوحيد أمام عينيه (١٢) .

(١٢) يشير الكاتب إلى إحدى وقائع "حرب الاسترداد" التى فقد فيها الفارس النبيل "ألونسو بيريث دى جوثمان" ابنه الوحيد فى حصار جزيرة طريف Tarifa ، وكانت هذه الحادثة سبباً فى خلع لقب "الطيب" عليه . (المترجم)

عندما رجع الزعيم إلى الدار كان بصحبته امرأتان تغطيان كتفیهما بشالین ينسابان حتى خصریهما ، شفتاهما ملونتان بأحمر الشفاه ، وتغطي الأصابع وجهیهما وصدریهما المرتفعین ، ومن تثنيهما وجرأتھما استنتج "رينكونيته" و "كورناديو" أنهما تنتميان لإحدى دور البغاء في المدينة ، وقد كان ظلهما في محله . اتجهت المرأتان وذراعهما مفتوحتان نحو الرجلين المسلحين : "نشيكي زناكي" و "مانيفيرو" (وقد أطلق على الأخير هذا اللقب - وهو يعنى اليد الحديدية - لأن العدالة عاقبتة ذات مرة بقطع إحدى يديه فاستبدل بها عندئذ يدًا أخرى من الحديد) . عانقهما الشقيان بغبطة شديدة وسألهما إذا كانا قد أحضرا شيئاً لتليين المعدة .

- وهل عندك شك في هذا يا فارسي الحبيب ؟ - ردت إحداهما وتدعي لاجانثيوسا - لن يتأخر سيلباتيو ، صبي غانتيك ، عن القدوم حاملاً السلة المترعة بما أفاء الله به من خيرات .

حدث بالفعل ما أخبرت به لأنه لم تكذ تمضي سوى دقائق معدودة حتى دخل صبي ومعه سلة كبيرة مغطاة بقطعة من القماش .

ابتهج الجمع لمجيء "سيلباتيو" ، وعلى الفور أمر الزعيم بإحضار حصيرة خيزران من المستودع وبسطها في منتصف الفناء . دعاهم بعد ذلك إلى التحلق حولها وإسكات صرخات الجوع المنبعثة من أعماقهم : كلٌ بقدر استطاعته .

قالت العجوز التي صلت للعذراء فور دخولها :

- أرجو إعفائي ، يا بني ، من الدعوة لأن رأسي فارغة من الأرواح الطيبة ومشحونة منذ يومين بالأطياف الشريرة ، ويجب أن أؤدي قبل انتصاف النهار عددًا من الطقوس الدينية وإضاءة بعض الشموع لعذراء الماء (١٣) ولصليب "سان أجوستين" المقدس ، وهذا أمر لا يحتمل التأخير ويلزمي القيام به حتى لو كانت الثلوج تتساقط كسفاً من السماء .. لقد جلست لأخبرك أن "رينيجادو" و "ثينتوبيس" مرًا بداري ليلاً وهما يتصببان عرقاً من شدة

(١٣) صورة عذراء الماء موجودة بكيسة "سان سلابادور" . وسر التسمية يكمن في أن الناس تتوكل بها أيام الجفاف والقيح لكي ينعم الله عليهم بالمطر . (المترجم)

الركض ، وتركنا عندى سلّة كبيرة مشخّونة عن آخرها بمجموعة من الملابس البيضاء . سلما لى السلّة دون أن يخطر ببالهما تفتيشها أوعدّ ما بها من ملابس ، ثقة منهما فى أمانتى وتعفى ، ثم انطلقا مسرعين فى إثر تاجر مواشٍ باع فى المذبح عدة رءوس من الضأن وأرادا جس نبض كيسه الضخم المتخم بالريالات . يعلم الله أن السلّة على حالها ولم تعبث بها يد مخلوق .

- أصدقك يأماه - قال "مونيوديو" - عندما يجنّ الليل سأمرّ عليك من أجل فحص السلّة وحصر ما بها تمهيداً لتوزيعه - كما جرت العادة - بالعدل والقسطاس على أعضاء الجمعية .

- أمرك ، يابنى - ردت العجوز - وحتى لا يدهمنى الوقت ألا أجد عندكم مشروباً أنعش به معدتى التى ينتابها الدوار باستمرار هذه الأيام .

فأجابتها "إسكالنتا" (زميلة "جانثيوسا") :

- خير ربنا كثير ، يا أماه ، وطلباتك عندنا أوامر .

قالت هذا وأزاحت غطاء السلّة وأخرجت زقاً من الجلد يحتوى على خمسين رطلاً من النبيذ ، ثم أحضرت كوباً مطاطياً يتسع لأكثر من لترين وملأته عن آخره . قدمته للعجوز الورعة التى أخذته بكلتا يديها ثم نفخت فى زبده وأردفت قائلة :

- صبيت كثيراً ، يا بنتى ، لكن الله لا يبخل بعونه على عباده الصالحين .

وضعت على فمها وصبّته دفعة واحدة فى جوفها دون أن تأخذ نفساً ، ثم رفعت رأسها قائلة :

- إنه من "وَادى القتال" Guadalcanal المشهور بطبيب نبيذه ، أذهب الله عنك الهم والحزن كما أذهبتموهما عنى يا بنتى ، وإن كنت أخشى أن يصيبنى منه مكروه لأنه نزل على معدة خاوية .

- لا تخشى شيئاً يا أماه - قال لها "مونيوديو" - لأنه نبيذ معتق مضت على صنعه ثلاث سنوات على الأقل .

ردت عليه العجوز قائلة إن هذا هو أملها في العذراء ، ثم سألت المرأتين :
- ألا أجد معكما فلسا لشراء الشموع اللازمة للقديسين والقديسات لأن لهفتي
في المجيء إلى هنا أنستني كيس نقودي .
أجابتها "جانثيوسا" :

- لا عليك يا سيدة "بيبوتا" (هكذا كانت تسمى العجوز) ، تفضلني فلسين بدلاً
من فلس ، وبالثاني أرجوك أن تشتري لى شمعتين : واحدة لسان ميغيل
والأخرى لسان بلاس لأن حمايتي ورعايتي منوطتان بهما ، ولو استطعت
شراء ثلاثة فقدميها لصورة القديسة "لوثيا" فهي التي تحميني من قذى
العينين ، وفي يوم آخر سأفي للجميع بنذورهم لعدم وجود "فكة" معي حالياً .
- حسناً تفعلين يا بنتي ، وأوصيك بأمر في غاية الأهمية ما دامت جالتك
المادية تسمح : من الأفضل للإنسان تقديم شموعه حال حياته قبل أن يدركه
الموت ويصبح الأمر في أيدي الورثة والأوصياء ، قدّموها أو منعوها عنه .
- لا فضّ فوك يا أماء - قالت "لا إسكالنتا" - ثم وضعت يدها في كيسها
وأخرجت فلساً آخر وطلبت منها شراء شمعتين وتقديمهما لمن تراهما أهلاً
من القديسين المنتشرين بالمدينة . تأهبت العجوز للرحيل قائلة لهم :
- استمتعوا يا أبنائي ، ما وسعكم ، فالعمر يمضي والشيخوخة قادمة لا محالة
وفيها ستذرفون الدمع مدراراً - كما أذرفه - على الأوقات التي ضاعت
سدى أيام الشباب ، وادعوا لى الرب في صلواتكم ، كما سادعوه لكم ولى ،
بأن يباعد بيننا وبين بطش العدالة وفزعها وأن يُمْكِن لنا في أعمالنا
المحفوظة بالمخاطر .

قالت هذا ثم ذهبت لحال سبيلها .

بسطت "جانثيوسا" ، فور خروج العجوز ، ملاءة كبيرة على حصيرة الخيزران
التي جلس حولها الحاضرون ، ثم شرعت في إخراج محتويات السلة : أخرجت أولاً
حزمة كبيرة من الفجل وما يقرب من اثني عشر زوجاً من البرتقال والليمون ، ثم
طاسة كبيرة مليئة بشرائح سمك "البكلاو" المقلّى . أخرجت بعد ذلك نصف قرص

من الجبن الفنلندي وآنية مترعة بأفخر أنواع الزيتونِ ثم صَحْفَةً مَلِيَّةً بالجمبرى الصغير ، فضلاً عن كمية كبيرة من سرطان النهر المتبل بثمار الكبر والفلفل الحار ، وثلاثة أرغفة طويلة بيضاء . أخرج كل واحد من الأربعة عشر الجالسين سكينه العريضة ذات المقبض الأصفر ، بينما أخرج "رينكونيته" نصف السيف الذى معه . أما الرجلان اللذان يرتديان الملابس السوداء الخشنة فقد فضلاً ، ومعهما الدليل ، احتساء النبيذ بالكوب المطاطى . لم يكادوا ينعمون بالهجوم على البرتقال حتى تملكهم الفرع من طرقات عنيفة على الباب . أمرهم الزعيم بالزمام الهدوء ثم دخل الصالة الواطنة واستل سيفاً من جرابٍ معلق على حائط منها واتجه به صوب الباب ، وبصوت أجشٍ مفزع سأل :

- من الطارق ؟

- إنه أنا ، يا سيد "مونيبيديو" ، "تاجارىتى" أحد أفراد المراقبة الصباحية ، أتيت لأخبرك أن "خوليانا" أو "لاكارى أرتا" - كما يلقبونها - آتية تبكى ، مشعثة الرأس مغبرة وكأن حادثاً جليلاً ألم بها .

لم يكذب كلامه حتى سمع "مونيبيديو" (الزعيم) نواح المرأة ففتح لها الباب وأمر "تاجارىتى" بالانصراف إلى موقعه ويتوخى الحرص فى المرات القادمة بعدم إحداث جلبة وصخب عند قدومه للإخبار بشيء مما يراه . وعده الفتى بالامتثال لجميع أوامره ثم عاد من حيث أتى . دخلت "لاكارى أرتا" ، وهى زميلة لـ "إسكالنتا" و "لاجانثيوسا" فى المهنة وترتدى ثياباً مشابهة لهما . كان شعرها مشعثاً ووجهها مغطى بالسجحات ، وبمجرد أن دلفت إلى الفناء سقطت على الأرض مغشياً عليها . اقتربت منها زميلاتها وفتحتا القميص من على صدرها فوجدتاه أزرق مملوءاً بالكدمات . ألقينا ببعض الماء على وجهها فثابت إلى رشدها وأخذت تولول قائلة :

- لتحل نعمة الرب والملك على ذلك اللص الوقح ، على ذلك النذل الجبان ، على ذلك الصعلوك المُقْمِل الذى خلصته من حبل المشنقة مرات تربو على عدد شعر لحيته ! يالبؤسى وشقوتى ! انظروا لمن أضعت نفسى وأفانيت زهرة شبابى وأجمل سنوات عمرى من أجله ، وهو مجرد نذل متحجر القلب ومجرم لا يرجى برؤه !

- هَدَّئِي من روعك يا "كارى أرتا" - قال لها الزعيم - أنا هنا لأقتصص لك وأرد لك حقك .حدثينا بوجيعتك وسترين أن انتقامى لن يطول عن الوقت الذى تستغرقه حكايتك . أخبرينى بما فعله بك حاميك ^(١٤) لأن الانتقام منه مرهون بكلامك .

- أَيْ حَامِ ! - تعجبت "خوليانا" - وأية حماية تلك وأنا فى أتون الجحيم ، إنها أشبه بحماية الأسد الجائع للنعاج المسالمة ، أو الرجال الجوعى لخروف الأضحية .

رفعت تنورتها حتى ركبتها ، أو أعلى قليلاً منهما ، فظهرت آثار الضرب على ساقها ، ثم واصلت حديثها :

- هذه مُخَلَّفات الجاحد "ريبوليدو" الذى يدين لى بالفضل أكثر من أمه التى ولدته . أتدرون لماذا ؟ لا لشيء إلا لأنه كان يلعب الورق ويخسر كعاداته فأرسلنى إلى ديوثه "كابرياس" لأُسرَى عنه مقابل ثلاثين ريالاً ، لكن الأخير لم يعطنى سوى أربعة وعشرين - أتوجه إلى الله بالدعاء أن تكون فى ميزان حسناتى يوم القيامة نظراً للمجهود الذى بذلته لكى أخلعها منه - لكنه بدلاً من شكرى على حسن صنيعى ظن أننى اختلست الريالات الستة المكملة لما اعتقد أننى حصلت عليه ، وعلى هذا فقد جرجرنى خلفه هذا الصباح وانطلق بى خارج أسوار المدينة ، وهناك خلف بساتين الملك وبين أشجار الزيتون جردنى من ملابسى وخلع حزامه ، ودون أن ينطق بكلمة أو ينتزع ما فى الحزام من حذائد - وأظنها كثيرة - أوسعنى ضرباً وجلداً ولم يتركنى إلا شبه ميتة . وعلى صدق كلامى تشهد هذه الآثار الدامية التى ترونها .

ارتفع صوتها بالعويل عندئذ وعادت تطلب القصاص ، فما كان من "الزعيم" والفارسين المتجهمين إلا تجديد وعدهم بتحقيقه لها .

(١٤) المراد بالحامى هنا : البلطجى الذى يفرض الإتاوة على من تمارس البغاء مقابل ما يوفره لها من حماية إجبارية - . (المترجم)

أخذتها "لاجانثيوسا" من يدها بقصد مواساتها ، وقالت لها إنها ستطلعها على آثار مشابهة - تعتبرها نفائس- تركها صديقها على جسدها ، ثم أردفت قائلة :

- إذا كنت لا تعرفين ، ياأختاه ، فعليك أن تعلمي أنه بقدر الحب يكون العقاب ، وعندما يضرينا هؤلاء الأوغاد ويجلدوننا ويتمادون في عقابنا فلأنهم يذوبون عشقاً فينا ، وبالمناسبة ، ألم يَقم "ريبوليدو" بعد ضربك وإهانتك بملاطفتك ومداعبتك ؟ بالله عليك ، أخبريني بالحقيقة .

- مداعبة واحدة؟ بل قولي ألفاً . لقد بسط لي يده كي أصبح به إلى مسكنه ، وعلاوة على هذا يبدو لي أن الدموع طفرت من عينيه بعد أن طحننى .

قالت لها "لاجانثيوسا" عندئذ :

- لا شك في هذا . وسيبكي غماً وكدرًا لما أحدثه بك من ضررٍ : فأمثال هؤلاء الرجال يعاودهم الندم على ما اقترفوه من جرم . وسترين ، يا أختاه ، كيف سيأتى للبحث عنك قبل مغادرتنا هذه القاعة ويطلب منك -خانعاً كحمل وديع - الصفع عما بدر منه .

- هذا بيت القصيد - أضاف مونيبيوديو - لن يدخل الجبان السكير من هذا الباب قبل إعلان توبته عن الجرم الذى اقترفه . كيف يتجاسر ويمدّ يده عليك وأنا لا أقوى على مجرد النظر فى وجه لاجانثيوسا الواقفة أمامى ، وأنت لا تقلين عنها جمالاً وشرارة !

قالت له "خوليانا" :

- لا تذكر هذا الملعون بسوء يا سيد "مونيبيوديو" لأننى أحبه أكثر من روحى التى تترف بين جنبى رغم إجرامه . كلام صديقتى "لاجانثيوسا" أزال العشاوة من على عيلى وحفرنى على العودة إليه دون قيد أو شرط .

- لا تفعلنى هذا إن أردت نصيحتى - قالت "لاجانثيوسا" - لأنه سيتمادى عندئذ ويسومك سوء العذاب وكأنك بلا حس أو شعور .. اهدئي ، يا أختاه ، فعمما قريب ستجدينه أمامك يعرض أنامل الندم كما أخبرتك ، وإذا لم يأت سنكتب فيه مقطوعات شعرية موجهة يتناقلها القاصى والدانى .

- لك هذا، بأخذه - ردت "لاكارى أرتا" - وكيسى مترع بآلاف المواد التى تستحق الكتابة .

- سأتكفل أنا بهذه المهمة - قال الزعيم - ورغم أنى لست بشاعر إلا إن المرء عندما يشمر عن ساعد الجد ويشحذ قريحته يمكنه دون عناء تأليف مقطوعات شعرية لا تعد ولا تحصى . أما إذا استعصت على القوافى أولم تخرج بالشكل المطلوب سألجأ حينئذ إلى صديق حلاق ، وهو شاعر فحل سيمدنا على مدار الساعة بالمقطوعات التى نريدها . والآن هيا بنا نكمل غداءنا ويعدده سيصبح كل شئ على ما يرام .

صدعت " لا خوليانا" لأمر كبيرها ممتنة ، وهكذا عادوا إلى الطعام وما هى إلا لحظات حتى ظهر قاع السلة وتبدت أحشاء زق اللبيذ الذى احتسى منه العجوزان دون ارتواء وشرب الغلمان منه الكثير وأترعت منه السيدات .. طلب العجوزان الإذن بالانصراف فسمح لهما الزعيم مكلفاً إياهما بعدم التوانى فى إخباره بكل المعلومات المفيدة للأخوية . أفاداه بشدة حرصهما على ذلك الأمر ، ثم انصرفا .

توجه "رينكونيته" - بعد طلبه الإذن ، وفى لهجة اعتذار - بسؤال للزعيم عما يمكن أن تفيده الأخوية من شخصين أشيبين ، خطرين قبيحى الهيئة . أجابه الزعيم بأن هذين الرجلين يسميان فى لغة اللصوص "كشفاً" ، ومهمتهما تكمن فى الطواف نهاراً بكل أرجاء المدينة لتحديد البيوت التى يمكن السطو عليها ليلاً ، كما أنهما يتبعان من يسحبون أموالاً من البنوك لمعرفة إلى أين يذهبون بها ، بل وأين يضعونها إن سمحت لهما الظروف بذلك ، وبعد معرفتهما لهذه الأشياء يفحصان جدران البيوت بعناية لتحديد المكان المناسب للاختراق ويضعان عليها علامات ، كما يقومان بإحداث عدد من الثقوب بتلك الأماكن لتسهيل عملية الاقتحام الليلية .

إنهما - باختصار - من أنفع وأجدى الرجال بالنسبة للأخوية ، ونصيبهما من المسروقات التى تحدث نتيجة لعملهما هو الخمس ، مثلهما فى ذلك مثل صاحب الجلالة الذى يفرض له الخمس على الإيرادات العامة للدولة . وبالإضافة إلى ما تقدم فهما يتمتعان بمصادقية وثقة لا حدود لهما ، وفى غاية الشرف والاستقامة والتدين والخوف من الله ، ويحرصان يومياً على سماع القداس بورع شديد .

ومن بين هذا الصنف من الرجال يوجد من يمتازون بالقناعة الشديدة وعلى رأسهم هذان الرجلان ، فهما يرضيان بأقل القليل من حصتهما المفروضة لدى الجمعية . كما يوجد لدينا أيضاً لصان آخران يراقبان البيوت التي يغيرها ساكنوها ويتعرفان على مداخلها ومخارجها .

- شيء جميل ورائع - قال رينكونيته - ، وأتمنى أن أكون نافعا لهذه الأخوية المحترمة .

- السماء تستجيب دائماً للأمنيات الصادقة الصالحة - رد عليه "مونيوديو" .
وفي أثناء حديثهما هذا سمعت طرقات على الباب فخرج الزعيم ليرى من القادم ، وبعد سؤاله أجابه الطارق :

- افتح ، يا سيد "مونيوديو" ، إنه أنا : "ريبوليدو" .

عندما سمعت "لاكارى أرتا" صوته صرخت قائلة :

- لا تفتح له ، يا سيد "مونيوديو" . لا تفتح لهذا الأفاق ، لهذا النمر المفترس .

لم يستجب لها الزعيم ، وعندما رآته يفتح الباب جرت نحو الصالة الواطنة ودخلتها ثم أغلقت الباب خلفها وأخذت تصيح :

- لا أريد رؤية جلاد المسالمين ومفرغ الحرائم الوداعة .

اتجه "ريبوليدو" إلى الباب المغلق ، لكن "مانيفيرو" و "تشيكيزناكي" أمسكا به ومنعاه من اقتحامه ، ولما وجد نفسه محصوراً بينهما أخذ ينادى عليها من الخارج :

- كفى ، أيتها الغضوب ، أستحلفك بالله يا زوجة المستقبل أن تهدئي .

- زوجة المستقبل ! على أى وتر تعزف ؟ الموت على أهون من الذهاب معك .

- هيا ، أيتها البلهاء - قال ريبوليدو - لنفرغ الآن من هذا فالوقت متأخر ، ولا تتماذى لأنى أتيتك مذعناً خاضعاً وأحسن إليك فى الحديث لأنه ، ورب العزة ! ، لو صعد الغضب إلى رأسى ستكون الخاتمة أسوأ من الفاتحة .
اكظمى غيظك ، بل لكظمه سوياً لنقطع على الشيطان طريقه ونفسد عليه تدبيره .

- لكننى أقول للشيطان على الرُحْب والسعة ، بل وأدعوه لحملك إلى حيث لا أراك أبداً .

- ألم أقل لكم إنها من النوع الذى لا يأتى بالمعاملة الحسنة ؟ إذا لم تخرجى حالاً ، بالله العظيم سأجعلك فرجة لمن لا يشتري .

تدخل "مونيوديو" عندئذ بقوله :

- فى حضرتى لا داعى للمزيد ، ستخرج "لاكارى أرتا" ، لا خوفاً من التهديد بل محبة لى ، وسيكون كل شىء على ما يرام : فكم تكون جميلة مشاجرات العاشقين عندما تنتهى بالتصالح . هيا ، يا "خوليانا" ! هيا ، يا صبية ! هيا ، يا "كارى أرتتى" ! اخرجى من أجلى وسأجعل "ريبوليدو" يطلب منك المغفرة جاثياً على ركبتيه .

- لو فعل هذا - قالت "لاإسكالنتا" - ستكون جميعاً فى صفه ونطالبها بالخروج .

- لو كان فى هذا شبهة تحقير لشخصى ما فعلته ولو أمام كتيبة من الصعاليك ، أما وإنه من أجل إرضاء "لاكارى أرتا" وتطبيب خاطرها فلن أكتفى بالركوع أمامها بل سأغرس مسماراً كبيراً فى جبهتى حتى تقر عيناها .

ضحك "مانيفيرو" و "تشيكيژناكى" فاكفهر عندئذ "ريبوليدو" لاعتقاده أنهما يسخران منه .. قال وأمارات الغضب بادية على وجهه :

- من يضحك على ما يجرى أو سيجرى بينى وبين "كارى أرتا" لا يهزأ إلا من نفسه .

تبادل "تشيكيژناكى" و "مانيفيرو" نظرات نارية ، وعندما أدرك "مونيوديو" أن الأمور يمكن أن تتطور إلى ما لا تحمد عقباه إذا لم يقض عليها فى مهدها تدخل قائلاً :

- لا داعى للمزيد ، أيها الرجال ، لنمسك أفواهنا عما يلى من كلمات أكبر لأن ما قيل حتى الآن مجرد سفاسف ولا ينبغى لأحد الظن بأنها موجهة إليه .

- نحن على يقين من أننا لسنا المقصودين بهذه الترهات-ردّ "تشيكيزناكى"-
وليس بوسع أحد توجيهها إلينا لأنه يعرف أن الدف بالأيدي المدربة على
قرعه .

- وأنا أيضاً لدى دَفْ - أجاب "ريبوليدو" بحدة - وأحسن كذلك دق
الجلجل إذا اقتضى الأمر ، وأنا قلت وكلامي واضح : إن من يسخر على ما
سمعه أو يسمعه فسخريته على نفسه ، ومن لديه أدنى شك فى هذا عليه أن
يتبعنى ، وأنا بسيفٍ أقصر شبراً من سيفه سأجعله يعى هذه الحقيقة تماماً .
قال هذا ثم يَمَّ وجهه شطر الباب ليخرج منه .

كانت "لاكارى أرتا" تنصت لما يجرى فى الخارج من نقاش ، ولما أحست
بصعود الغضب لرأس صديقها خرجت مسرعة لتقول :

- أمسكوا به ، لا تتركوه يخرج ، ألا ترون غضبه ! الغضب يطمس على عقله
ويلهب حماسه ويحوّله إلى مقاتل شرس غير هيّاب . عدّ إلى ، يا أشجع
فرسان العالم ويافارسي المقدام .

جرت نحوه وأمسكت بعباءته وتمكنت - بمعاونة "مونيبوديو" - من إيقافه .
أشكل على "مانيفيرو" و "تشيكيزناكى" ولم يدريا أيصعدان الأمور أم يقفان بها عند
هذا الحد ، ولذا فقد ظلا صامتين فى انتظار رد فعل "ريبوليدو" ، لكن الأخير رجع
ليقول وسط توسلات "لاكارى أرتا" :

- الأصدقاء لا يُقدّمون أبداً على إثارة غضب الصديق أو السخرية منه ، لا
سيما إذا كانوا يدركون مدى حساسيته المفرطة لكل ما يعكر الصّفو .

- لا يوجد بيننا هنا من يعتمد استثارة صديقه - رد مانيفيرو - وبما أننا جميعاً
أصدقاء هيا بنا نتصافح ونتصافى كما يفعل هؤلاء .

اتجه إليهما "ريبوليدو" وقال :

- لقد تحدثتما كصديقين حميمين فعلاً ، ومن المفروض التصرف تبعاً لما
يُمليه واجب الصداقة .

بعد أن تصافح المتخاصمون خلعت "لا إسكالنتا" فردة من حذائها وأخذت تَقْرَع نعلها الفليني السميك الخالي من الكعب قَرَعَاتٍ تَوْقِيعِيَّةٍ كما لو كان دَقًا ، وامتدت يد "جاننثيوسا" إلى مقشة من سعف النخيل وجَدَّتْهَا على مقربة منها وشرعت في حَكِّهَا فصدر عنها رنين خشن أجش لكنه متناغم مع صوت فردة الحذاء . أما "مونيبيوديو" فقد قام بكسر طبق نصفين واتخذهما كصناجيتين بين أصابعه وراح يطرقهما بخفة فأصدر نغمة معاكسة للنغمتين الصادرتين عن المقشة وفردة الحذاء .

علت الدهشة المصحوبة بالإعجاب وجهي "رينكونيته" و "كورتاديو" من جرّاء الاستخدام الجديد للمقشة الذي لم يشاهدا له مثيلاً من قبل .عندما لاحظ ذلك مانيفيرو اقترب منهما وقال :

- أراكما معجبين بهذا الاختراع الجديد . معكما كل الحق ، فموسيقى المقشة مباشرة ، ثرية ومبهجة وليس لها نظير في كل بقاع العالم . لقد سمعت منذ أيام قلائل تعليقاً لأحد الطلاب أسعده الحظ بالاستمتاع بهذا النوع من الموسيقى يقول فيه بالحرف الواحد : لم يستطع "أورفيوس" الذي أنقذ "يورديكي" من الجحيم ، ولا "أريون" الذي امتطى ظهر حوت وخرج به من اليمّ وكأنه وجيه قادم على متن بغلة مكترة ، ولا حتى الموسيقار الكبير "أنفيون" (Anfion) الذي شيد مدينة لها مائة باب علاوة على عدد آخر لا يحصى من الخَوَاط ، اختراع آلة موسيقية سهلة التعلم ولا تحتاج لأيدٍ رفيقة مدرية وبدون إعتاب أو مسامير أو أوتار مثل هذه الآلة ، وأزعم أن الذي اخترعها - ويقال إنه واحد من أبناء هذه المدينة - لا يقل حنكة وبراعة عن "هيكور" (١٥) نفسه .

- لا ريب أننا في غاية العجب - أجابه "رينكونيته" - ، لكن هيا نُصْخِ السمع إلى ما سيصدق به موسيقونا . يبدو أن "لاجاننثيوسا" قد تفلت ، وهذا مؤشر على استعدادها للغناء .

كان "مونيبيوديو" قد طلب منها بالفعل غناء إحدى المقطوعات الشائعة ، لكن "لاإسكالنتا" سبقتها وأخذت تشدو بصوت رقيق متموج :

(١٥) الأسماء الواردة بالفقرة السابقة تخص شخصيات أسطورية : إغريقية ولاتينية . (المترجم)

باشبيلي صعلوك ، رثَ الثياب
قلبي مفعم بالأشواق .

تبعثها لاجانثيوسا قائلة :

من أجل أسمرٍ ، عسلى العينين
من العاشقة التى لا يجافى مرقدُها النوم !

أضاف "مونيوديو" وقرعته على الشفتين تزداد سرعة :

ليتشاجر الحبيبان ما أرادا ، لكن الصلح أبقى :

مهما استعرت نيران الغضب ، فمذاق الوصل أشهى .

أبت "لاكارى أرتا" أن تمر لحظات المتعة وهى صامتة ، فالتقطت فردة حذاء

أخرى وانضمت إلى حلبة الرقص وأخذت تنشد :

توقفت أيها الغضوب ، لا تتماذ فى جلدى :

لو فكرت ملياً ، لأدركت أن لحملك هو الذى يمزقه السوط .

تدخل "ريبوليدو" وقال :

- غنّوا شيئاً بسيطاً بعيداً عن التورية والإسقاط ، ولا داعى للنبش فى حكاية
انتهت لأن الأمر لا يستحق : ما فات مات ، ولتَنَحُوا نَحْوَ آخر وكفى .

لم يكن حفل الغناء لينتهى بهذه السرعة لو لم يسمعوا طرقات عنيفة على الباب
خرج على إثرها "مونيوديو" لتقصى الخبر . لقد جاء أحد أفراد المراقبة ليخبره أنه
شاهد فى نهاية الشارع القاضى يتقدمه حارسان من الدرك . ساد المكان - بعد سماع
كلام الكشف - هرج ومرج شديداً لدرجة أن "كارى أرتا" و "إسكالنتا" لبستا
حذاءيهما بالمقلوب ، وألقت " لاجانثيوسا" بالمقشة ورمى "مونيوديو" الشفتين من
يده ، وبهذا الشكل تحولت الموسيقى إلى صمت عكر . انعقد لسان " تشيكيزناكى"
وأصيب "ريبوليدو" بالذهول وأسقط فى يدي "مانيفيرو" . بعد أن أفاقوا من هول
الصدمة استجمعوا ما بقى من قواهم وحاول البعض التخفى هنا وهناك ، بينما صعد
البعض الآخر إلى السطح للهرب منه إلى الشارع المجاور . لقد أفزع خبر قدوم
القاضى وأعوانه هذا الجمع الطيب فزعاً يفرق بكثير ما يمكن أن تحدثه طلقة مدفع

مباغثة أو رعد مفاجئ في سرب من الحمام الوادعة . أما المستجدان (رينكونيته وكورتاديو) فقد تسمرا في مكانيهما ، لجهلهما أين المفر ، منتظرين ما ستسفر عنه هذه العاصفة المفاجئة التي لم تنقشع إلا بعد عودة الكشاف ليطمئن الجمع قائلًا : إن القاضى ومرافقيه اتجهوا إلى مكان آخر دون أن يصدر عنهم ما يعكر الصفو .

بعد رحيل الكشاف بقليل وصل إلى باب الدار رجل في منتصف العمر يرتدى ثياباً عادية، فأدخله "مونيبيديو" معه ثم نادى على "تشيكيزناكى" و"مانيفيرو" و"ريبوليدو" وأمر الباقين بعدم اقتحام المكان عليهم . ولما كان "رينكونيته" و"كورتاديو" قد بقيا في مكانهما بالقاعة ولم يغادراها كالآخرين فقد تمكنا من سماع الحديث الذى جرى بين الزعيم وضيغه . سأل الزائر "مونيبيديو" عن عدم إتمام الأمر الموصى به حسب الاتفاق ، فأجابه "مونيبيديو" إنه لا يعرف حتى تلك اللحظة ما جرى فى الموضوع ، لكن المكلف به موجود وسيعرف منه التفاصيل حالاً .

لم يكد ينهى جوابه حتى نزل "تشيكيزناكى" فسأله "مونيبيديو" إذا كان قد خلس من مهمة ضربة السكين ذات الأربع عشرة غرزة التى أوكلت إليه . استفسر "تشيكيزناكى" :

- أية ضربة، أليست المخصصة لذلك التاجر الذى يسكن عند مفرق الطرق ؟

- نعم هى - أجاب الزائر .

قال "تشيكيزناكى" :

- آه .. لقد تربصت به الليلة الماضية عند باب داره ، وعندما مرّ قبيل الصلاة اقتربت منه وأنعمت النظر فى وجهه فوجدته صغيراً لا يتسع بأى حال لضربة بهذا الطول ، ولأننى لا أهمل واجباتى وأنفذ ما يوكل إلى فقد قررت - حتى لا يضيق المشوار سدى - أن أهوى بها على وجه خادمه . وأستطيع التأكيد لك أن أثر السكين على وجهه يزيد عن عدد الغرز المطلوبة .

قال الشاب :

- وما فائدة ذلك .. لقد كنت أفضل أن يتلقى التاجر ضربة طولها سبع غرز على أن تصيب خادمه بضربة مضاعفة . وعلى هذا فقد جاء التنفيذ مخالفاً

للاتفاق ، لكن لا يهم لأن الثلاثين دوقية التى أعطيتها لكم عربونا ليست
بالمال الكثير .. أسعد الله صباحكم أيها السادة .

قال هذا وخلع قبعته وأوماً بالتحية ثم استدار فى طريقه للانصراف ، لكن
مونيوديو أمسكه من عباته وقال له :

- رجائى إلى سيدى أن يقف ولا يتعجل الذهاب ، نحن نفذنا مهمتنا بشرف وعلى
الوجه الأكمل و نتوقع منك الوفاء مثلنا بما وعدت . لقد بقيت لنا فى ذمتك
عشرون دوقية أخرى ، تفضل وادفعها نقداً أو عيناً قبل مغادرتك هذا المكان .

رد عليه الشاب :

- أتعدّ سعادتكم ضرب الخادم بدلاً من سيده وفاءً بالوعد ؟
- يبدو أن صاحب السعادة - قال تشيكيزناكى - لا يتذكر المثل القائل : " مَنْ
يحب " بلتران " يحب كلبه معه " .

فسأله الشاب :

- وما علاقة هذا المثل بالقضية ؟

أجاب تشيكيزناكى :

- هل يتغير المعنى لو قلبنا المثل وقلنا : من يكره " بلتران " يكره كلبه معه ؟
وفى قصيتنا هذه " بلتران " هو التاجر الذى تريد إلحاق الأذى به ، والخادم
هو كلبه ، وضرب الكلب يعنى ضرب " بلتران " . وبهذا الشكل نكون قد
أوفينا بالوعد ونفذنا المهمة الموكلة إلينا ، ومن واجبك ، إذن ، دفع الباقي
دون مساومة .

تدخل "مونيوديو" وقال :

- لا فُض فُوك ، يا "شيكيزناكى" ، لقد سبقتنى إلى ما كان على طرف
لسانى، وعلى هذا لا داعى - يا صاحب السعادة - للدخول فى نقاش مع
أصدقائك ومنفذى رغباتك حول أمور تافهة ، واتبع نصحى وسدد ما تم
عمله ، وإذا أردت تسديد ضريبة أخرى للتاجر بالقدر الذى يتسع له وجهه
فاعتبر أنه تلقاها بالفعل وأنهم يطيبونه من آثارها حالياً .

- إذا كان الأمر كذلك - ردّ الشاب - يسرنى تسديد أتعاب الضريتين الآن .

- مادمت مسيحياً مؤمناً بالله - قال له " مونيوديويو " - يجب ألا يتطرق إليك أدنى شك في أن " تشيكيزناكي " سيترك على وجه التاجر علامة لا تنفك عنه وكأنه مولود بها .

- انطلاقاً من هذا الوعد - قال الشاب - ولثقتي الكاملة فيكم أقدم لكم هذه السلسلة لسداد العشرين دوقية المتأخرة علاوة على أربعين دوقية أخرى مقابل ضريبة السكين المتفق عليها الآن . إنها تزن ألف ريال وبالتأكيد ثمنها يزيد عن الستين دوقية لكنني أدخر الزيادة لديكم كعربون لطعنة سكين ثالثة من ذوات الأربع عشرة غرزة أفكر في تكليفكم بها قريباً .

ثم خلع من عنقه سلسلة ذهبية وأعطاهما للزعيم الذي تلقاها بكثير من الحبور والتجلة (نظراً لأدبه الجَمِّ وحسن تربيته) ثم فحصها بعناية وتبين له من وزنها ولونها أنها من الذهب الخالص غير المصطنع . أما " تشيكيزناكي " - الذي وقعت على عاتقه المهمة - فقد قطع على نفسه عهداً بالتربص بالتاجر مساء اليوم ذاته .

انصرف الشاب مغتبطاً ، وبعدها نادى " مونيوديويو " على باقي أعضاء الجمعية ودعاهم للاجتماع به . بعد أن تجلّقوا حوله أخرج من جيبه دفتر مذكرات وطلب من " رينكونيته " تلاوة ما به لأنه لا يحسن القراءة .

فتح " رينكونيته " الدفتر ليجد في صفحته الأولى ما يلي :

" بيان بضريات السكين المطلوب تنفيذها خلال هذا الأسبوع "

" الأولى : للتاجر الذي يسكن عند مفرق الطرق . القيمة الإجمالية : خمسون إسكودو . المدفوع تحت الحساب : ثلاثون . المكلف بالتنفيذ : تشيكيزناكي " .

- لا أعتقد أن هناك عمليات أخرى مدونة بهذا الباب يا بني - قال " مونيوديويو " - أقلب الصفحة وانظر أين يوجد باب الضرب بالنبابيت .

قلب " رينكونيته " الصفحة وطالعه في صدر التالية لها عنوان يقول : " باب الضرب بالنبابيت " ، وتحت العنوان بقليل قرأ ما يلي :

" تُسدد إلى صاحب حانة ميدان " ألففا " اثنتا عشرة ضريبة من العيار الثقيل . ثمن الضريبة : إسكودو . المدفوع تحت الحساب : ثمانية . المهلة : ستة أيام . المكلف بالتنفيذ : مانيفيرو " .

- من الأفضل غلق ملف هذه القضية - قال مانيفيرو - لأننى سأفرغ منها الليلة .

- عندك شيء آخر ، يا بنى ؟ - سأل الزعيم .

- نعم ، يوجد بيان آخر يقول :

"إصابة الخياط الأحذب المسمى "سيلجيرو" بست ضربات ممتازة ، والموصى بذلك سيدة مقابل عقد ثمين . المكاف بالتفويض : ديسموتشادو" .

- إننى لأعجب حقاً - قال الزعيم - كيف لا يزال هذا التكليف مُدرجاً بالمذكرات وقد انقضى يومان على المهلة المضروبة له . لا بد أن ظرفاً قهرياً هو الذى حال بين "ديسموتشادو" وبين إنمام المهمة .

تدخل "مانيفيرو" عندئذ بقوله :

- قابلته أمس ، وأخبرنى أن الخياط الأحذب مريض وملازم لبيته ، ولهذا لم يتمكن من إصابته بالضربات الموصى بها .

- هذا ما توقعته - قال الزعيم - لأن ثقتى فى "ديسموتشادو" لا حدود لها ولا يمكن أن يقعه عن تنفيذ واجبه إلا عذر قهرى ، فكثيراً ما عهدت إليه بالمهام الثقالة وكان عند حسن الظن به . أهنأك شيء آخر ، يا بنى ؟

- لا - يا سيدى - أجاب "رينكونيته" .

- انتقل ، إذن ، لباب "الاعتداءات العامة" وقرأ لنا ما فيه .

أخذ "رينكونيته" يفتش فى المذكرات حتى عثر بإحدى الصفحات على العنوان التالى:

"باب الاعتداءات العامة وتتضمن : الضرب بعنق الزجاجة ، التلطيخ بالقاذورات ، لصق "السامبينيتوس" ودق القرون على الأبواب (١٦) ، الشتائم والسباب ، الإصابة بالهلع ، إثارة الذعر و"التهويش" بالسكين ، نشر الهجائيات وقصائد الذم... إلخ"

(١٦) "السامبينيتوس" Sambenitos عبارة عن ثوب تحقيرى كانت محاكم الفنتيش تجبر كل من تثبت عليه تهمة الانتساب لليهودية بارتدائه قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه . أما "دق القرون" فيقصد به الاتهام بالزنا أو بعدم الغيرة على الأهل . (المترجم)

أمره الزعيم بقراءة الموجود تحت العنوان فقرأ التالي :

"إلقاء الوساخ والقاذورات على دار ..."

- لا تكمل - قاطعه الزعيم - لأننى المسئول عن هذه العملية التافهة وأعرف الدار وصاحبها ، وقد سدد الذى أوصى بالمهمة أربعة إسكودو وباقى عليه أربعة أخرى أرجلت لما بعد التنفيذ .

- ما تقوله صحيح - عَقَبَ "رينكونيته" - لأنه مدوّن هنا بالحرف الواحد ، وما زال تحت هذا البند آخر يقول : "دَقَ القرون" ...

- لا نقرأ هذا أيضاً - قاطعه الزعيم - لا الدار ولا مكانها ، يكفى إلصاق الوصمة بها دون داع لإذاعتها على الملأ : إنها مسئولية كبيرة تتعلق بالضميم . ومع هذا فأنا على استعداد لدَقَ مائة قرن ولصُقَ عدد مماثل من "السامبينيتوس" على أى باب حتى لو كان لدار أمى التى ولدتنى شريطة أن يدفعوا لى قيمة عملى ومجهودى .

- المكلف بهذا - أضاف "رينكونيته" - "الناريجيتا" .

ردّ عليه الزعيم قائلاً :

- لقد تمت هذه العملية بالفعل وسُدَّتْ أتعابها بالكامل ، لكن ألا ترى عندك شيئاً آخر ؟ لأننى أعتقد - إن لم تخنى الذاكرة - أن هناك عملية لإثارة الشغب والفوضى ، تكلفتها عشرون إسكودو ، منها عشرة مقبوضة ، وتقع على عاتق جميع أفراد الجمعية ، ولو تمت بالشكل المطلوب دون خلل ، كما هو مخطط لها ستكون واحدة من أهم الأحداث التى تشهدها المدينة خلال فترة طويلة من الزمن . أعطى المذكرات يا فتى لأنى أعلم أنه لم يبق فيها المزيد من المهام ، و أدرك أيضاً أن المهنة تعانى حالياً من الركود الشديد ، لكننى أمل أن يخلف هذا الزمن آخر وعد نجد فيه أكثر مما نريد : فالأرزاق بيد الله وحده ولا نستطيع من موقعنا هنا إجبار أحد على تكليفنا بفعل شئ يكون هو قادراً على تحقيقه بيديه دون حاجة لإنفاق مليم واحد من جيبه .

- لقد أصبت كبد الحقيقة - قال "ريبوليدو" - ، لكنى أرجوك ، يا سيد "مونيوديويو" - نيابة عن الحاضرين - بالتفضل بإصدار أوامرك وتعليماتك إلينا لأن الوقت تأخر وحرارة الشمس ترتفع .

- آمركم - قال الزعيم - بالعودة إلى مواقعكم وعدم مغادرتها حتى يوم الأحد القادم ، وهو موعد اللقاء المرتقب بهذا المكان لكى أحصى ما وقع فى أيديكم وأوزعه عليكم بالعدل والقسطاس . أما "رينكونيته" "الطيب" وصاحبه "كورتاديويو" فقد عينتهما على المنطقة الواقعة بين "برج الذهب" - عند النهر، من خارج المدينة - وباب "القصر" لكى يمارسا عملهما على راحتهما بين المسافرين القادمين إلى المدينة والراحلين منها . لقد رأيت بتلك البقعة آخرين أقل كفاءة منهما فى لعب الورق ، ويكسب الواحد منهم ما لا يقل عن عشرين ريالاً من اللحاس أو الفضة يومياً . سيصبحكما "جاننشوسو" ليدلكما على القسم المخصص لكما ، ولا مانع لدى من اتساع دائرة نشاطكما لتصل إلى "سان سبستيان" أو "سان تيلمو" لأن هذه المنطقة مشاع مشترك ولا تخص أحداً بعينه .

قبلاً يده شكرًا على حسن صنيعه وتعهداً له بالقيام بعملهما على أكمل وجه . أخرج "مونيوديويو" عندئذ ورقة مطوية من جيب سترته ، وهى عبارة عن قائمة بأسماء أعضاء الأخوية ، وطلب من "رينكونيته" إضافة اسمه واسم زميله إليها ، ولما لم تكن عنده محبرة فقد أمره بحمل القائمة وتسجيل بياناتهما فيها عند أول مكتبة تصادفهما على النحو التالى :

"رينكونيته" و "كورتاديويو" : عضوية كاملة .. مبتدئ : لا أحد .. مهنة رينكونيته : الغش فى ورق اللعب .. مهنة "كورتاديويو" : النشل ..

هذا بالإضافة إلى تاريخ اليوم والشهر والسنة ، لكنه أمره بغض الطرف عن ذكره الوالدين أو مسقط الرأس .

وبينما هم فى ذلك دخل أحد المسئين الوقورين وقال :

- أتيت لأخبر سعادتكم أننى قابلت "لوى" الملقى عند المدرجات منذ قليل ، وقد أفادنى بتقديمه الكبير فى فنه لدرجة أنه يستطيع بورق اللعب النظيف

سلب مال الشيطان نفسه ، وقد منعه ظرف قهرى ألم به من الإتيان لتسجيل اسمه وتقديم فروض الطاعة كما جرت العادة ، لكنه لن يتأخر عن اجتماع الأحد القادم .

- لم تخطئ فراستى إذن - قال " مونيبيوديو " - كان لدى إحساس قوى بأن "لوى" هذا سيكون أوحده فى فئه لأنه يتمتع ببيدين ماهرتين ومواهب عظيمة ، فالبراعة فى العمل تتطلب أمرين أساسيين : الأدوات الجيدة والاستعداد الفطرى .

- قابلت أيضاً- أضاف العجوز- بأحد خانات شارع " تينتيروس " اليهودى فى ثياب كاهن . لقد ذهب ليقم هناك لأنه علم - من مصادره الخاصة - أن ثريين من أثرياء العالم الجديد سينزلان بالخان نفسه ، وسيسعى لاستخدام بعض حيله معهما للخروج بفائدة ولو يسيرة . أفادنى أيضاً بحرصه على المثل بين يديكم فى اجتماع الأحد القادم .

- حقاً - ردّ الزعيم - إن هذا اليهودى لمنافق أثيم ومراوغ عتيد . لم أره منذ أمد بعيد وهذا ليس فى صالحه ، وأقسم إن لم يحسن تصرفاته معى ويعتدل لأجرده من قميصه ، لا ينصاع هذا اللص لأمر كالأتراك ولا يعرف من اللاتينية أكثر مما تعرفه أمى . ألدك أخبار جديدة أخرى ؟

- لا - ردّ العجوز - مما وصل إلى سمعى على الأقل .

قال لهم " مونيبيوديو " عندئذ :

- أراكم ، إذن ، على خير الأحد القادم ، ورجائى ألا يتأخر أحد . وقبل أن ترحلوا تقبلوا منى هذا المبلغ البسيط ، ووزع عليهم أربعين ريالاً .

شكره الحاضرون وأثنوا على كرمه . عانق " ريبوليدو " " لاكارى أرتا " ، وحذا حذوه " مانيفيرو " مع " لا إسكالنتا " ، و" تشيكيزناكى " مع " لاجانثيوسا " . وبعد فضّ الجلسة تواعدوا على اللقاء فى دار " لا بيبوتا " لأن الزعيم سيذهب إلى هناك لفحص محتوى سلة الملابس قبل قيامه بمهمة تلطيخ إحدى الدور بالأوساخ . عانق الزعيم " رينكونيته " و " كورتاديو " ، وقبل وداعهما أوصاهما بتغيير محل إقامتهما باستمرار

لأن هذا فى صالح الجميع . اصطحبهما بعد ذلك " جانتشوسو " ليطلعهما على الموقع المحدد لهما ، وفى الطريق شدد عليهما بضرورة حضور اجتماع الأحد القادم لأن الزعيم سيلقى عليهما محاضرة فى كيفية النهوض بفنهما وتطويره .. بعد إطلاعهما على البقعة المخصصة لأنشطتهما عاد " جانتشوسو " وترك الصديقين وهما فى أشد العجب لما رأيا وسمعا .

كان " رينكونيته " - لما يتمتع به من دقة ملاحظة وخبرة اكتسبها من طوافه بصحبة والده بكثير من الأنحاء لبيع الشفاعات البابوية - هو الأكثر تعجباً وبهتاً لما رأى من أفعال أعضاء الأخوية المباركة ولما سمع من الألفاظ والمصطلحات المتداولة بينهم . لقد بهتته التصرفات الشاذة لتلك الطائفة فأخذ يقلب فيها ، ولم يتمالك نفسه من الضحك - ملء شذقيه - عندما استرجع عدداً من المواقف التى جرت فى الاجتماع المشهود ، وخاصة ما تحدثت به " لاكارى أرنا " حين جاءت شاكية من ضرب " ريبوليدو " لها وقولها إنها تحتسب عند الله الأربعة والعشرين ريالاً التى كسبتها من البغاء وأعطتها له وعن أملها فى أن تكون بميزان حسناتها يوم القيامة . كما تعجب أشد العجب من راحة الضمير التى تتمتع بها تلك الشرذمة من البشر ، ومن ثقتها العمياء فى ولوج الفردوس الأعلى من أوسع أبوابه مكافأة على حرصها الدائم على تأدية الطقوس الدينية رغم أنها تعيش على اللصوصية وإراقة الدم الحرام والإفساد فى أرض الله . ولم تقل ابتسامته اتساعاً عندما تذكر تلك العجوز " لاپيپوتا " وهى تترك فى دارها سلّة مترعة بالملابس المسروقة وتتجه فريرة العين إلى أضرحة القديسين والقديسات للصلاة وتقديم الشموع ، معتقدة أنها بهذا سترفع إلى الجنة بالهيئة التى هى عليها (بملابسها وحذاءها) وكأنها شهيدة من الشهداء . واشتد عجبه أيضاً من طاعة الجميع واحترامهم للزعيم ، وهو مجرد جلف متشرد لا يعرف الرحمة (كما يتضح من دفتر المذكرات وما يحتوى عليه من أعمال مزرية) .. وأخيراً ضرب كفّاً بكفّ - حسرة وكمداً - على تساهل الشرطة والعدالة فى حاضرة كبيرة مثل إشبيلية مع أناس خطرين يمارسون الإجرام على رءوس الأشهاد دون خوف ، ولذا فقد قرر بينه وبين نفسه مفاتحة صديقه فى أمر الانسحاب سريعاً من ذلك المستنقع الآسن ومن تلك الحياة الآثمة ، المضطربة والمتحررة . لكن هواجسه لم

تمنعه - لحدائثة سنّه - من السير قَدَمًا في ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر عدة شهور
أخرى جرت له فيها وقائع مثيرة - نعد بسردها في مناسبة أخرى - مع الأخوية
الشائنة وزعيمها "مونيبوديو" ؛ ومن جهتنا ، لا يعيننا من ذكر ما تقدم إلا تحذير
القارئ من مغبة الاقتداء بمثل هذه الطغمة من البشر ...

* * *

الإسبانية / الإنجليزية

من بين الأسلاب والغنائم التي حملها الإنجليز إلى لندن بعد غارتهم البحرية على مدينة "قادس" (Cadiz) الإسبانية (١) طفلة صغيرة، عمرها سبع سنوات تقريباً. لقد أخذها كلوتالدو، قائد أحد أسراب السفن الإنجليزية، دون علم كونت "إسيكس" - القائد العام - وضد إرادته لأن الأخير كان قد أمر بتكثيف البحث عنها وإعادتها إلى والديها بعد أن جاء إليه شاكيين ضياع ابنتهما الوحيدة علاوة على فقدهما ما كان لهما من ثروة على السفن الإسبانية المنهوبة، فأصابتهما من جرّاء ذلك نكبتان في آن واحد : نكبة انفقروا نكبة ضياع فلذة الكبد.. ذرفا الدموع مدراراً وأخبراه أنهما إن كانا يصبران على ضياع الثروة إلا أنهما لا يتحملان العيش دون قرّة أعينهما التي لا يوجد لجمالها مثيل في المدينة .

أصدر الكونت مرسوماً صارماً إلى جميع وحدات أسطوله يقضى بإعدام كل من تسول له نفسه الاحتفاظ بالطفلة ومنع عودتها لأبويها، لكن تهديدات الدنيا بأسرها لم تكن لتكفي حتى يرهبها "كلوتالدو" ويرضخ لها نظراً لانبهاره الشديد (وإن كان من منظور مسيحي عفيف) بجمال "إيسابيل" الذي لم يشاهد له مثيلاً طول حياته.. وعلى هذا فقد بقي والداها في النهاية بدونها- تعيسين محزونين- و "كلوتالدو" هانئاً بكنزه الثمين الذي تفنن في صونه وإخفائه عن العيون حتى عهد به إلى زوجته فور وصوله إلى لندن.

من حسن الطالع أن أهل بيت كلوتالدو كانوا يدينون سرّاً بالكاثوليكية ويتظاهرون في العلن باتباع ملة ملكيتهم. كان لـ كلوتالدو ابن وحيد (ريكاريدو) يبلغ من العمر اثني عشر ربيعاً، وقد ربّاه أبواه على طاعة الله وخشيته، وأشرباه منذ نعومة أظفاره تعاليم الدين الكاثوليكي. أما "كانالينا" -زوجته - وهى سيدة مسيحية نبيلة فى غاية

(١) فى عام ١٥٩٦ هجم أسطول إنجليزى تحت إمرة كونت "إسيكس" Essex والأدميرال "هوارد" على مدينة "قادس" بهدف الاستيلاء على الأسطول الإشباني الرابض فى مينائها والذي كان على أهبة الإبحار إلى العالم الجديد (المكسيك حالياً) وعلى متنه شحنات لا تقدر بثمن لكثير من التجار الإشباني .. وفى القصة كان والد "إيسابيل" أحد هؤلاء التجار الذين فقدوا ثروتهم فى الهجوم. (المترجم)

الفطنة والورع ، فقد أحبت "إيسابيل" فور رؤيتها وتفانت في تربيتها كما لو كانت ابنتها التي ولدتها. لم تصنّ عليها بشيء تعرفه، وأغرقتها بالهدايا، والطفلة من جانبها تشتريت في سهولة ويسر- لما تتمتع به من ذكاء فطري- كل ما علمته لها. كاد دوران عجلة الزمن وحسن المعاملة وكثرة الهدايا ينسيها غرس أبويها الحقيقيين، لكن ذكراهما كانت تعاودها باستمرار وتنتزع منها التنهيدات الحارة . ورغم تعلمها للغة الإنجليزية إلا أنها لم تفقد لغتها الأصلية، والفضل في ذلك يرجع لـ "كلوتالدو" الذي حرص على إحضار إسبانيين ممن يثق فيهم إلى داره سرّاً لكي يتحدثوا معها، وبهذا الشكل لم تنس لغتها وأصبحت تجيد الإنجليزية كما لو كانت مولودة في قلب لندن.

بعد تعلمها جميع الواجبات التي لا غنى عنها لآنسات البيوتات الكريمة أتقنت القراءة والكتابة، لكن الشيء الذي برعت فيه وتفوقت كان العزف على الآلات الموسيقية المباحة للمرأة العفيفة، وزان كمال عزفها صوت رقرق كأنه فيثارة السماء يسحر الألباب عندما يشدو بالغناء .

وشيناً فشيناً أخذت هذه المواهب- الفطري منها والمكتسب- بمجامع قلب "ريكاريدو" وجعلته يهيم بها هياماً عفيفاً ويتبذل في محرابها. في البداية أسره جمالها الفتان الذي يثير البهجة في نفس كل من ينظر إليه والإعجاب بمواهبها الجمّة وخفة ظلها فأحبها وقتئذ كأخت له دون أن تتخطى رغباته حدود الشرف والنزاهة. لكن الإعجاب بالجمال الفائق وبهجة النظر إليه، الذي سيطر على "ريكاريدو" عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة، سرعان ما تحول إلى رغبة متحرقة في الاستئثار بالفتاة والاستماع بها بعد أن كبرت وترعرعت، وإن كان السبيل الأوحى إلى ذلك يتمثل في الزواج لأن عفاف "إيسابيل" - كما ينادونها في الإنجليزية- وأصول "ريكاريدو" الطيبة لا يتفقان مع أية نوازع خبيثة يمكن أن تخالط روجيهما. حاول "ريكاريدو" آلاف المرات الإفصاح عن رغبته لوالديه، وأحجم في الوقت نفسه مرات تقاربها عدداً عن البوح بمكنون صدره لعلمه أن والديه قرّراً منذ فترة تزويجه من آنسة إسكتلندية ثرية، أصيلة وكاثوليكية في السر مثلهما. ومن هنا فقد كان يدرك تمام الإدراك أنهما لن يوافقا على استبدال أمةٍ بسيدة حرة ذات حسب ونسب (إن صلح هذا الوصف على

من كانت فى مثل حالة إيسابىلا) . وبهذا الشكل تنازعتة الحيرة ولم يعد يدرى أى طريق يسلك، وأطبق عليه الفكر والهَم لينغصا عليه حياته التى كادت تتفقت من بين أصابعه. ولما رأى أنه من الجبن ترك نفسه فريسة سهلة للموت كمداً دون أن يحاول التماس دواء لعلته، تشجع واستجمع ما بقى لديه من قوة ليفاتح "إيسابىلا" فى هذا الأمر الذى يعذبه .

كان "ريكاردو" محبوباً من جميع الأهل، ولهذا فقد استبد بهم الحزن والقلق لمرضه، وكان أبواه أشدهم حزناً وغماً لأنه ابنهما الوحيد ولما يتمتع به من أخلاق فاضلة وشمائل رائعة. لم يهتد الأطباء لتحديد سبب علته، ولم يجرؤ المريض على البوح به، لكنه استجمع شتات نفسه أخيراً وقرر تحطيم إसार العقبات التى كبته بها الظنون، وهكذا فعندما دخلت عليه إيسابىلا بمفردها ذات يوم لرعايته والاطمئنان عليه قال لها بصوت واهن ولسان متلعثم:

- أيتها الجميلة، إيسابىلا ، فضائلك الجمّة ومواهبك العديدة وجمالك الفتان هما السبب فيما أنا فيه. إن كان يهكم أمرى، ولا ترصين أن تودى بى الأحزان ، هلمى إلى ولبى رغبتى العفيفة فى الارتباط سرّاً بك كزوج لأنى متأكد أن والدى سيضنن على بهذا الزواج الذى أعتبره أغلى شىء فى حياتى. لو عاهدتنى الآن أن تكونى لى زوجة، أعاهدك- كمسيحى كاثوليكي صادق الإيمان- ألا أكون لأحد سواك. ورغم علمى أن الابتناء بك لن يتم إلا عن طريق الكنيسة وبمباركة أبى وأمى إلا إن هذا العهد الذى لا تنفصم عراه سيكون كافياً لرد عافيتى ولشفائى من علتى، ويجعلنى أعيش هانئاً قريب العين فى انتظار تحقيق الأمل السعيد المرجى .

كانت إيسابىلا تنصت لما يقول مطرقة الرأس، فى خفر وعفة يضارعان ما تتمتع به من جمال ، ولما سكت ردت عليه بفطنة وأدب:

- تتنابنى الحيرة فى رد انتزاعى من حضن أبوى وانتقالى إلى والدك إلى نعمة السماء أو إلى رحمتها، لكن الشىء المؤكد أن الأفضال التى لا تحصى لوالدك وحدهما على قد أنسيانى همومى وجعلانى أعيش قريبة العين كأبنى بين أهلى وعشيرتى، وأنا لست جاحدة ولا ناكرة للجميل حتى أقدم

على ما يغضبهما أو يخالف إرادتهما، ومن ثم فإن عرضك الذى تشرفنى به
ولا أستحقه سيسعد قلبى أيما سعادة لو كان مصحوباً بموافقتكما واقتناعكما
بجدارتى بك، وإلى أن يحين وقت تحقيق هذا الأمل أعدك بالأأأكون زوجة
لأأأأ غيرك، فاطمئن وأعلم أننى أريد لك كل ما فى هذا العالم من خير .

إلى هنا انتهى الحديث العففى الرزىن لإيسابىلا لكى يفتح الباب أمام عودة الصحة
إلى جسد "رىكارىدو" الواهن، ولسرىان دىبىب الحىاة فى آمال والدىه بعدما أصابها
الشلل لمرضىه .

أفترق الحببىان بكل أدب وتهذىب: كانت عىناه مغرورقتىن بالدموع، وهى حفىة
وممتنة من سوىءاء قلبها لهذا الحب الطاهر . فور تمانل "رىكارىدو" للشفاء وتركه
لفراش المرض- وهو ما اعتبره والده بمثابة معجزة- قرر إماطة اللثام عما يعتمل
بصدرة من مشاعر وأفكار وعدم تركها حبىسة أكأر من ذلك. وهكذا، وفى نهائة
حديث مطوّل أأراه ذات يوم مع والدته أفصح عن رغبته العارمة فى الاأقتران
بإيسابىلا، ورجاها بتحقىق ما يصبو إىله لأن الرضى يعنى الحكم عىله بالموت..
تحدثت أمه كأىراً عن محاسن "إىسابىلا" وفضائلها وبالغت فى مدحها والثناء عىلها
لدرجة جعلته يتأهىل أنها تضن بها عىله، لكنها طمأنته فى النهائة ووعدته بمفاتحة
والده فى الموضوع والحصول على موافقته. وفى أول لقاء لها مع زوجها لم تجد
صعوبة تذكر- نظراً لمعرفتهما الجيدة لشمائل "إىسابىلا" وأألاقها- فى إأناعه
بتحقىق أمل ابنه، ومن ثم فقد أأأ الاأثنان يفكران فى أأألاق عذر لفسأ خطبة الفتاة
الإسكتلندىة .

لم يكن عمر "إىسابىلا" فى ذلك الوقت يتعدى الأربعة عشر رىبعاً ولا يتأاوز
"رىكارىدو" العشرين، وبرغم هذين العمرىن الغضىن فقد كانا يتمتعان بكىاسة وفطنة
أصحاب الأعمار المدىدة . لم بىق سوى أربعة أيام على الموعد الذى حدده الأبوان
لوضع نىر الزواج المقدس على عائق ابنىهما ولاأقترانه بمن أسعدها الحظ لتكون شرىكة
حىاته ومهرها وإن كان عبارة عن جملة من الفضائل إلا إنه يفوق بكأىثر الثروة
العرىضة التى كانت ستقدمها الإسكتلندىة . كانت الأفراح على وشك الانطلاق، وتمت
دعوة الأهل والأصدقاء، ولم يعد ىنقص شىء سوى الحصول على تصرىح الملكة لأن

الزيجات بين أصحاب الدم الأزرق النبيل لم تكن تتم إلا برضاها وموافقتها؛ وعلى هذا فقد استعدا لطلب الإذن الذى لم يشك لحظة واحدة فى الحصول عليه .. لكن الرياح قد تجرى بما لا تشتهى السفن: ففى مساء اليوم ما قبل الأخير من الأيام الأربعة جاء رسول من الملكة حاملاً رسالة عكرت صفو الأفراح . تطلب الرسالة من "كلوتالدو" المثلوث أمام صاحبة الجلالة صباح الغد ومعه الأسيرة الإسبانية التى أحضرها من "قادس" . ذهب الرسول حاملاً إجابة "كلوتالدو" بالإذعان والطاعة ، وترك أهل الدار نهباً للخوف والفرع والاضطراب .

قالت السيدة "كاتالينا" :

- آه لو عرفت صاحبة الجلالة أننى ربيت هذه الصبية تربية كاثوليكية، لن تتردد لحظة فى إلصاق تهمة اتباع المسيحية بأهل الدار جميعاً ! لو سألتها الملكة عما تعلمته فى أعوام أسرها الثمانية ، فهل ستجيب المسكينة - رغم ذكائها وفطنتها - إلا بما يديننا ؟

حين سمعتها إيسابيلا قالت على الفور:

- لا تحملى هما يا سيدتى، فأنا على ثقة من أن رحمة السماء ستلهمنى فى تلك اللحظة الرد المناسب الذى لا يبعد عنكم الشبهات فحسب بل يزيد من رصيد ثقتنا بكم .

كان "ريكاريدو" يرتعد فرقاً من حدوث أمر جلال لا تحمد عقباه . أما "كلوتالدو" فكان يقلب فكره فى كافة الاتجاهات باحثاً عن شيء يستمد منه العون للتخفيف من شدة فزعه، ولم يجد سنداً إلا فى شيئين لا ثالث لهما: الثقة فى عدم خذلان الله لهم، وفطنة "إيسابيلا" التى كان يعول عليها كثيراً فى عدم افتضاح أمر انتسابهم للكاثوليكية والنجاة - بالتالى - من عقوبة الإعدام والتمثيل بالجثة لأن الروح إذا كانت ستنعم فى هذه الحالة بالشهادة إلا إن ضعف الجسد لن يقوى على تحمل آلام التعذيب والصلب . كانت "إيسابيلا" تؤكد لهم المرة تلو الأخرى أنها لن تكون بأى حال سبباً فى حدوث ما يخشونه ويرتابون فيه ، فهى وإن كانت لا تدرى شيئاً عما ستجيب به على الأسئلة التى ستوجه إليها إلا إن أملها كبير فى أن إجاباتها ستكون - كما ذكرت من قبل - فى صالحهم جميعاً .

أمضوا تلك الليلة تتناوشهم الخواطر والظنون: استبعدوا فكرة اكتشاف الملكة لاعتناقهم الكاثوليكية لأنها لو كانت تعرف لما أرسلت إليهم بهذه الرسالة الوداعة المهدبة، ومن ثم فقد رجح لديهم الظن أنها تريد فقط رؤية "إيسابيل" لأن خبر جمالها الفتان ومواهبها الفائقة طار إلى قصرها مثلما حلق فوق سماء المدينة، ومع ذلك فقد انتابهم الخوف من هذا الخاطر لأنه يعنى اتهامهم بالتفاسع عن تقديمها إلى الملكة حتى ذلك الوقت، واستقر رأيهم على دفع هذا الاتهام متعللين بأنهم اختاروها منذ وقوعها في حوزتهم لتكون زوجة لريكاريدو . وأسقط في أيديهم مرة أخرى لأن اتخاذ قرار الزواج دون تصريح الملكة يعنى أيضاً أنهم مذنبون، لكنهم لم يقيموا وزناً كبيراً لذلك لأن الذنب الأخير لا يستوجب عقوبة مغلظة .

بعد ائتناسهم بالخطر السابق اتفقوا على ألا تمثل "إيسابيل" أمام الملكة كأسيرة متواضعة الثياب، بل في مظهر يليق بزوجة نبيل إنجليزي ذى حسب ونسب . وعلى هذا، ففي صبيحة اليوم التالي ألبسوها علي الطريقة الإسبانية : ارتدت ثوباً طويلاً يلامس الأرض من الحرير الأخضر المقصب، مبطناً بقماش خيوطه من الذهب وموشى بقطع من اللؤلؤ تحلت بعقد وحزام من الماس، وأمسكت بمروحة مثل الهوانم الإسبانيات . أما خصلات شعرها الطويل الغزير فقد تم تصغيرها باللؤلؤ والماس .. وبهذه الزينة الطاغية والحضور العذب والجمال الفتان أشرقت "إيسابيل" ذلك اليوم على لندن في عربة فارهة جميلة لتسلم أرواح الناظرين إليها وتخطف أبصارهم . إلى جوارها في العربة ركب "كلوتالدو" وزوجته وابنه، بينما أحاط بهم على ظهور الخيل جمع غفير من عليه القوم أقاربهم .. لقد أراد "كلوتالدو" لأسيرته الظهور بهذا المظهر الرائع أمام الملكة لكي يجبر الأخيرة على معاملتها كزوجة لابنه .

وصل الركب إلى القصر، وإلى البهو الكبير والفسيح حيث تجلس الملكة دلف الزائرون ومعهم "إيسابيل" بجمالها الذى يفوق التصور، لكنهم توقفوا بعد خطوتين من باب البهو بينما تقدمت "إيسابيل" وحدها فبدت مثل نجمة تتحرك فى سماء ليلة صافية ساكنة أو شعاع لشمس أطل فى وضوح النهار بين جبليين . أشعل سحرها - وهى تخطر نحو الملكة - النار فى نفوس الموجودين بالمكان وكأن إله الحب قد ذاب فى أشعة شمسها الجميلة . تقدمت بكل أدب وتواضع لتحية الملكة، وقالت لها بلسان إنجليزي مبين:

- أنتكرم الملكة وتمد يدها لخدمتها التى أسعدها الحظ بالتلمى بنور جلالها ؟

شغلت الملكة بالنظر إليها ولم توجه إليها كلمة خلال وقت طويل، فقد بدالها- كما أخبرت وصيفاتها فيما بعد- أنها أمام سماء مرصعة بنجوم من الماس واللؤلؤ، أمام وجه كالشمس وعينين يطل منهما القمر، أمام تحفة رائعة للجمال لم تقع العين على مثله من قبل. أما النساء اللواتي كن مع الملكة فقد تركزت حواسهن جميعاً في حاسة النظر حتى لا يفوتهن رؤية شيء في "إيسابيل": منهن من استهواها لون وجهها، ومن طربت لحيوية عينيها، ومن سحرت برشاقة قدها، ومن فتنت بعذوبة لسانها، ومن دفعته الغيرة العمياء لتقول:

- جميلة هي الإسبانية ، وإن كان لا يعجبني ثوبها .

بعد تجاوز الملكة للدهشة التي عقدت لسانها، أشارت إلى "إيسابيل" بالنهوض وقالت لها :

- حدثيني بالإسبانية ، أيتها الفتاة ، فأنا أفهمها جيداً وبطريتي سماعها .

ثم التفتت إلى "كلوتالدو" وقالت له:

- ألحقت بي الضرر لإخفائك هذا الكنز الثمين عنى طيلة السنوات الماضية ، صحيح أنه يغرى بالطمع غير أنك ملزم برده إليّ لأنه قانوناً ملكي .

- جلالتم محقة فيما تقولين- ردّ "كلوتالدو" - أعترف بذنبي في إخفائه دون قصد عنكم، وإن كنت قد احتفظت به فلكي أصقله وأجعله يصل إلى مرتبة الكمال كما ترون، والآن أنتهز الفرصة لطلب الإذن في تزويج ابني "ريكاريدو" من "إيسابيل" وأنا على أتم الاستعداد لتقديم كل ما في وسعي لجلالتم من أجل تحقيق هذا الطلب .

- حتى اسمها بطريتي- قالت الملكة - لا ينقصه سوى إلحاق نعت "الإسبانية" به لكي يكتمل عندي كل ما أرغبه فيها.. لكن ألا تعلم يا "كلوتالدو" أنك خطبتها لابنك دون موافقتي ؟

- ما فعلت هذا يا مليكتي إلا ثقة مني في أنكم لن تصنوا علينا بمثل هذا الفضل بل وبما هو أكبر منه وأعظم اعتماداً على رصيد الخدمات الجبلية والخطيرة التي قدمتها ، أنا وأسلافي لتاج إنجلترا العزيزة، هذا بالإضافة إلى أن ابني لم يتزوجها بعد .

- ولن يكون لها زوجاً - قالت الملكة - حتى يكون جديراً بها . ما أردت قوله هو أن رصيدك الكبير أو رصيد آبائك من الخدمات لا يشفع عندى فى هذا الأمر، بل عليه هو أن يبرهن بخدماته الشخصية لمليكته أنه يستحق فعلاً هذه الدرّة التى أحببتها كما لو كانت ابنتى .

جثت "إيسابيللا" على ركبتيها ثانية أمام الملكة فور سماعها للجملة الأخيرة وخاطبتها باللغة القشتالية (الإسبانية) قائلة:

- يشرفنى ويثلج صدرى، يا صاحبة الجلالة، اعتباركم لى مثل ابنة لسموكم . لقد محا شعورك تجاهى ما شهدته من نوازل وخطوب . أبعد فضلكم هذا يوجد شىء أرهبه أو أمل أرجوه !

أنصتت الملكة بشغف وحب للكلام الجميل العذب الذى أتمت به "إيسابيللا" حديثها، وعندما انتهت منه أمرت الملكة ببقيائها فى القصر وسلمتها لكبيرة الوصيفات كى تعلمها نظم وقواعد العيش فى القصر الملكى .

عندما أدرك "ريكاريدو" أن محبوبته ستتركه أحس وكأن روحه تستل منه، وكان على وشك فقدان العقل . تقدم إلى الملكة - مضطرباً مذعوراً - ثم ركع أمامها وقال:

- أنا لا أريد التمسح فيما أداه آبائى وأجدادى من واجب نحو ملوكهم، ولذا فأنا على استعداد للقيام بأية مهمة فى خدمة مليكتى لكى أثبت لها أننى لست أقصر منهم باعاً ولا أقل شأنًا .

- حسناً - قالت الملكة - توجد سفينتان حريبتان على وشك الإقلاع فى مهمة قرصانية تحت إمرة بارون "لنساك"، سأجعلك قائداً على واحدة منها لأننى متأكدة أن نبالة دمك هى بمثابة تعويض لحدائث سنك . ضع فى اعتبارك أننى أتفضل عليك بهذه الفرصة لكى تثبت أنك بالفعل شبل لأولئك الأسود أسلافك، ولكى تخدم مليكتك وتظهر براعتك وقوة شخصيتك ولتظفر فى النهاية بالمكافأة السخية التى تتمناها . سأحتفظ لك بإيسابيللا وإن كان عفافها ونقاء معدنها هما خير حافظ لها امض على بركة الله، فأنا أتوقع منك بطولات مجيدة لأنك صلب عاشق . مرحى لملك محارب تنتظم فى صفوف جيشه عشرة آلاف من الجنود العاشقين، يخوضون غمار الوغى

وقلوبهم تهفو لنشوة اللقاء بمحبياتهم ، مكافأة لهم على النصر الذى
سيحرزونه فى ساحة القتال . انهض ، ياريكاردو وانظر إذا كنت تريد قول
شئ لـإيسابيل لأنك راحل غداً.

قَبِلَ "ريكاردو" يد الملكة معرباً لها عن امتنانه للفضل الذى أنعمت به عليه ، ثم
توجه إلى "إيسابيل" . ركع أمامها وأراد أن يحدثها بشئ فلم يقدر لغصةً سعدت إلى
حلقة وانعقد بها لسانه . سالت الدموع منه فحاول جاهداً كبت مشاعره وإخفاءها عن
عيون الحاضرين لكن الملكة شاهدها وقالت له :

- لا تخجل من البكاء يا "ريكاردو" ولا تهوّن من شأن نفسك لأنك عبّرت
عن مشاعرك الرقيقة فى هذا الموقف الصعب ، فنزال الأعداء شئ ووداع
الأحبة شئ آخر . هلمى "يا إيسابيل" وعانقى "ريكاردو" ، أعطيه
مباركتك فهو يستحقها لما أبداه من مشاعر طيبة .

كانت "إيسابيل" مسلوبة اللبّ شاردة لفرط تأثرها بما نراه من نذل ومعاونة
"ريكاردو" الذى تحبه كزوج لها ، ولذا لم تسمع نداء الملكة ولم تفتن إليه . ظلت
جامدة فى مكانها ، ذاهلة متألّمة ، تنحدر الدموع من على وجنتيها فبدت مثل تمثال
من الرخام ناصع البياض يجesh بالبكاء .

انتزع المشهد الشجى للعاشقين دموع معظم الحاضرين ، ودون أن تصدر عن
"ريكاردو" كلمة واحدة ولا حتى لمحبيته ، أدّى التحية للملكة بصحبة والده وذويه
ثم غادروا القاعة الفسيحة يعتصرهم التأثر والغیظ وتبلل مآقيهم الدموع .

كانت "إيسابيل" كاليتيمة التى فرغ الناس من دفن والديها ، يملكها الخوف من
قيام سيدتها الجديدة بتغيير العادات التى تربت عليها . خلاصة القول أنها بقيت فى
القصر الملكى ، أما "ريكاردو" فقد أبحر بعد يومين تتنازعه جملة من الخواطر
والأفكار ، من بينها خاطران جعلاه يفقد صوابه : لقد كان يعلم أن الظفر بإيسابيل
مرهون بما سيحققه من بطولات وأمجاد ، ومن جهة أخرى كان يدرك أن كاثوليكيته
تمنعه من إشهار سيفه فى وجه كاثوليكي مثله وتحول - بالتالى - دون تحقيقه لأية
مفخرة حربية ، وفى هذه الحالة سيتهمونه باعتناق الكاثوليكية أو بالجن - على أقل
تقدير - والصاق تهمة واحدة من السابقتين كفيل بهدم حياته وضياح حبيبته . أخذ

يقلب هذين الخاطرين فى رأسه واستقر رأيه أخيراً على تقديم حبه على مسيحيته وإن كان قد دعا الرب من شغاف قلبه أن يمنّ عليه بفرصة يبرهن من خلالها على شجاعته ولا تتنافى مع مبادئه المسيحية ، وبهذا الشكل يتمكن من إرضاء الملكة ويصبح جديراً بالزواج من "إيسابيل" .

انطلقت السفينتان تشقان عباب المحيط (الأطلسى) فى اتجاه الطريق الذى تسلكه السفن البرتغالية والإسبانية القادمة أو الذاهبة إلى العالم الجديد ^(٢) ونعمتا خلال ستة أيام برياح طيبة ، وفى نهاية اليوم السادس هبت على جانبيها ريح عاصف يطلق عليها بحارو المحيط "ميديو ديا" (وهى تسمية مغايرة لما تعرف به فى البحر المتوسط) . كانت ريحاً شديدة متصلة لم تمكنهم من اللحاق بإحدى الجزر للاحتواء بها ودفعتهم دفعاً نحو سواحل إسبانيا ليكتشفوا على مقربة من مضيق جبل طارق ثلاث سفن : اثنتين صغيرتين والثالثة كبيرة محصنة . أمر "ريكاريدو" طاقم سفينته بالاقتراب من سفينة القائد العام لاستطلاع رأيه فى مهاجمة السفن التى اكتشفوها ، لكنه شاهد قبل الوصول إليها علماً أسود مرفوعاً على ساريتها . اقترب أكثر فسمع الأبواق والطبول تصدر أصواتاً وقرعات جنائزية ، وهى بمثابة إعلان عن موت القائد أو إحدى الشخصيات المهمة على السفينة . ووسط مشاعر الفزع التى تملكته تمكن من إجراء أول حوار له مع أفراد السفينة الرئيسية منذ مغادرتهم ميناء لندن . أخبره الذين كانوا على ظهرها بموت القائد العام ليلة أمس بسكتة دماغية وطلبوا منه الانتقال إليهم . حزن الجميع لموت القائد العام باستثناء "ريكاريدو" الذى أثلج صدره الخبر: لا لبغض لقائده أو تشفيماً فيه بل لانتقال القيادة العامة إليه - تنفيذاً لأوامر الملكة - وتمكنه حينئذ من التصرف بحرية وبما لا يخالف مبادئه الكاثوليكية . لم يضع الوقت وسارع بالانتقال إلى سفينة القيادة فوجد على ظهرها فريقاً يبكى القائد المتوفى وفريقاً آخر يعرب عن فرحته بالقائد الحى ، لكن هؤلاء وأولئك بادروا فى النهاية بالإعلان عن طاعتهم للقائد الجديد لكى تبدأ بعدها مراسم العزاء التى لم تستمر طويلاً

(٢) يطلق "ثريانتس" - مثل أهل عصره - مسمى "جزر الهند الغربية" أو "بلاد الهند" على الأراضى التى اكتشفها كولومبس ومن جاءوا بعده فى الأمريكتين ، ذلك لأنهم كانوا يظنونها تابعة للهند ولم يدر بخلافهم أنهم اكتشفوا "عالمًا جديدًا" لا يمت للهند بصلة .. وهذه التسمية تتكرر كثيراً فى القصة التى بين أيدينا ، بل وفى مواضع أخرى من بقية القصص . (المترجم)

لأنهم شاهدوا انحراف سفينتين من السفن الثلاث التي اكتشفوها من قبل عن البارجة الكبيرة واتجاههما نحوهم.

تعرفوا على الهوية التركية للسفينتين القادمتين من الأهلّة المرسومة على أعلامهما. ابتهج "ريكاريدو" لاعتقاده أن السماء استجابت لدعائه وسأقت إليه هذه الفريسة حتى لا يعتدى على مسيحي مثله. اقتربت السفينتان التركيتان من السفينتين الإنجليزيتين اللتين كانتا ترفعان الأعلام الإسبانية لإخفاء هويتهما القرصانية، ولهذا اعتقد الأتراك أنهم أمام سفينتين إسبانيتين قادمتين من العالم الجديد وبإمكانهم الاستيلاء بسهولة عليهما. تركهما "ريكاريدو" يقتربان وعندما أصبحتا في مرمى مدفعيته أمر بإطلاق النيران عليهما فأصابته خمس قذائف منتصف إحداها وأحدثت بها فجوة كبيرة. مالت السفينة المصابة على جنبها وشرعت في الغرق، ولما رأت السفينة الأخرى ما حلّ بزميلتها ألقت إليها بمرساة وحاولت جرّها نحو البارجة الكبيرة المنتظرة بعيداً، لكن "ريكاريدو" أمر جنوده المتوثبين بشحن المدفعية من جديد وتبعهما وهو يطرهما بوابل من القذائف فأصابهما إصابات بالغة. عندما وصل من كانوا على السفينتين الموشكتين على الغرق إلى البارجة الكبيرة غادروهما وحاولوا الاحتماء بالبارجة: لامن أجل الدفاع عنها بل فراراً بجلودهم من برائق موت محقق. ولما وجد "ريكاريدو" أن البارجة الكبيرة مشغولة بالموشكتين على الغرق حمل عليها قبل تمكنها من الدوران أو استعمال المجاديف وحاصرها بسفينتيه. في تلك الأثناء انتهز الأسرى المسيحيون العاملون على المجاديف الفرصة وحطموا السلاسل والقيود واختلطوا بالأتراك المتدافعين لارتقاء حائط البارجة الكبيرة، وبما أنهم كانوا يصعدون من أحد جوانبها فقد كانت ظهورهم مكشوفة للرماة الإنجليز الذين استتروا خلف أسوار سفينتيهما وأخذوا يصوبون بنادقهم على الصاعدين من الأتراك دون المسيحيين- تنفيذاً لأوامر ريكاريدو- فأصابوا معظمهم.. أما الأتراك الناجون من القذف المباشر فقد كانوا على موعد - في البارجة الكبيرة- مع الشراسة الوليدة للأسرى المسيحيين الذين أعملوا فيهم القتل بالأسلحة التي استولوا عليها: ذلك لأن القوة التي يفقدها المحاربون الأشاوس تنتقل إلى خور وضعف الناهضين وتجعلهم يستأسدون. لقد هبطت على الأسرى الإسبان شجاعة منقطعة النظير لاعتقادهم أن المهاجمين إسبان مثلهم، وبهذا

الشكل فقد سوّوا الأهاويل من أجل استرداد حريتهم. بعد موت غالبية الأتراك صعد إلى سطح البارجة نفر من الأسرى الإسبان ونادوا على من كانوا يحسبونهم إسباناً مثلهم وطلبوا منهم الانتقال إلى البارجة للاحتفال سويّاً بالنصر والاستمتاع بحلاوته .

سألهم "ريكاريدو" باللغة الإسبانية عن هوية البارجة التي يقفون عليها فأخبروه بأنها برتغالية كانت قادمة من العالم الجديد وعلى متنها شحنات ضخمة من الماس واللؤلؤ والأفاويه يزيد ثمنها عن مليون إسكودو ذهبية، وأن العاصفة جرفتھا إلى هذه الأنحاء شبه محطمة وبدون مدفعية لأن بحارتها ألقوا بمعداتھا الحربية في عرض المحيط بعد أن تمكن منهم المرض وكاد يفتك بهم الجوع والعطش . أما السفينتان الصغيرتان فكانتا للقرصان الألباني "أرناؤط مامى" الذى استولى يوم الخميس على البارجة دون مقاومة من بحارتها ، كما أخبروه بسماعهم للأتراك يقولون إنه عندما لم يتمكن من نقل ما بها من كنوز إلى سفينتيه لصغر حجميهما قرر سحبها إلى نهر لاراتشى (Larache) القريب من هنا .

أخبرهم "ريكاريدو" عندئذ أنهم ليسوا إسبانيين كما يظنون بل تابعين لتاج ملكة إنجلترا . نزل عليهم الخبر كالصاعقة إذ اعتبروا أنفسهم - ومعهم الحق فى ذلك - مثل الذى تخلص من وهدة ليسقط فى حفرة بلا قرار، لكن "ريكاريدو" طمأنهم قائلاً إنه لن يصيبهم بأذى ولن يسلب حريتهم المستردة بشرط ألا يلجأوا إلى المقاومة وإشهار السلاح .

- وما لنا والمقاومة - رد عليه أحد الإسبان - وليس بالبارجة مدفعية ولا بأيدينا سلاح ، ولم يبق لنا، بالتالى، سوى الركون إلى كرم وأريحية قائدكم الهمام الذى خلصنا من ربقة أسر الأتراك، ونحن نناشده بإتمام حسن صنيعه وإطلاق سراحنا، وثق تماماً أنه لن يندم على هذا لأن خبر شهامته سيظهر إلى كافة الأنحاء وسيجلى نصره المؤزر بأكاليل الغار .

استحسن "ريكاريدو" كلام الإسبانى وصادف هوى فى نفسه، فقام على الفور بعقد اجتماع مع رجاله وسألهم عن الطريقة المثلى التى تضمن لهم إرسال هؤلاء المسيحيين إلى إسبانيا دون متاعب أو قلق، وتجنبهم فى الوقت ذاته المخاطر التى

ينطوى عليها هذا الإجراء . ردوا عليه قائلين إنه من الأفضل تدبير مكيدة لقتلهم، وذلك بجعلهم ينتقلون فرادى إلى سفينتنا وعندما يصل الواحد منهم إلى ظهرها نلتفاه بسيوفنا ونرميه فى البحر من الجهة الأخرى، وبهذا الشكل نقضى عليهم جميعاً ونتمكن من قيادة البارجة إلى لندن دون خوف.

ردّ "ريكاريدو" على هذا الاقتراح بقوله :

- ألا تتفقون معى أنه من قبيل إساءة الأدب مع الرب مقابلة ما أنعم به علينا من ثروة طائلة ونصر مظفر بالبحود والنكران، وأنه من المستقبح اللجوء إلى السيف فى أمر يمكن حله سلباً عن طريق التدبير المحكم والتصرف الواعى. وبناء على هذا لا أجد ضرورة فى قتل أى مسيحى كاثوليكي، لا أحب فيهم بل حفاظاً على سمعتنا جميعاً لأنى لا أريد تلويث العمل المجيد الذى شاركتمونى فى القيام به اليوم، ولا أريد لأسماء الشجعان الاقتران بصفة القساة لأن الشجاعة لا تنسجم أبداً مع القسوة ولا تتفق معها . ومن هنا أرى إخلاء سفينة من سفينتين مما تحمله من رجال وعتاد وأسلحة باستثناء بعض المؤن والزاد ونقله إلى البارجة البرتغالية الكبيرة، ثم نقل إلى السفينة التى أخليناها الأسرى المحررين لكى يبحروا بها إلى وطنهم ونبحر نحن بالبارجة والسفينة الأخرى إلى لندن .

لم يجرؤ أحد على مخالفة هذا الرأى الذى اعتبره البعض صائباً وشجاعاً، بينما أرجعه البعض الآخر إلى كاثوليكية صاحبه . شرع "ريكاريدو" فى تنفيذ ما عقد عليه العزم فانتقل بصحبة خمسين من حاملى البنادق إلى البارجة، وهم على أهبة الاستعداد واليقظة . وجد على ظهر البارجة نحو ثلاثمائة شخص، وهم جملة الناجين من سفينتى القرصان الألبانى. أمر بتفتيش البارجة وإحضار سجلات الحمولة التى عليها، وعندئذ أخبره الرجل - الذى تحدث معه من قبل من على ظهر السفينة المعادية - أن السجلات التى أعدها القرصان الألبانى قد غاصت معه فى أعماق المحيط .. تمكن فى لحظات معدودات من فرض النظام على من حوله، وجعل إحدى سفينتيه تقترب بجانبها من البارجة، وبعد نجاح هذه المناورة البحرية مدّوا السقالات الضخمة بينهما، ومن فوقها نقلوا بمهارة وحنكة المدفعية والعتاد الحربي من السفينة

الصغيرة إلى البارجة ولم يتركوا على متنها سوى زاد وملئونة يكفیان الأسرى المحررين لمدة لا تقل عن الشهر. تحدث "ريكاريدو" بعد ذلك حديثاً قصيراً مع المسيحيين وأمرهم بالانتقال - فرداً فرداً - إلى السفينة التي تم إخراجها ، وهكذا، وكلما مرّ واحد منهم أمامه في طريقه لعبور السقالة، كان يسلمه - من المال الذي أحضره من سفينته - أربعة إسكودو ذهبية لكي يستعين بها على قضاء حوائجه عندما يصل إلى اليااسة القريبة، فقد كانت تبدو من هناك - حيث يقفون - جبال "أبيلا" الإفريقية وأسوار مدينة "كالبي" المواجهة لجبل طارق . عبّر له الجميع - على لسان آخر رجل منهم - عن خالص امتنانهم لحسن صنيعه . وقف الرجل قبل اجتيازه المعبر وخاطبه قائلاً :

- أستحلفك بالله، أيها الفارس الشجاع، أن تحملني معك إلى إنجلترا ولا تردني إلى إسبانيا لأنها وإن كانت وطني الذي لم يمض على مغادرتي له سوى ستة أيام إلا إنه لا يوجد ما ينتظرني فيه غير الأحزان والهموم . عندما استولى الإنجليز منذ خمسة عشر عاماً على "قادس" (٣) فقدت ابنتي الوحيدة في الهجوم على المدينة ، وأغلب الظن أن المغيرين حملوها معهم إلى إنجلترا . لقد فقدت بضائعها الراحة في شيخوختي ، وانطفأ نور عيني اللتين لم تعودا بعدها لرؤية شيء يسر خاطر أو يبهج الفؤاد . حزن عميم أناخ على بكليلة بعد ضياعها مني، أفقدني التوازن وجعلني أهمل تجارتني التي كنت بسببها أغنى تاجر في المدينة . وهكذا تحالفت على مصيبتان في آن واحد: مصيبة ضياع فلذة الكبد ومصيبة ضياع الثروة العريضة التي تتعدى صكوكها وبضائعها في الأسواق مئات الآلاف من الإسكودو، فضلاً عن أصول تجارية لا تقل قيمتها بأى حال عن خمسين ألف دوكدوس . كل هذا توارى في غمضة عين وإن كان لا يساوى شيئاً بالمقارنة بفقدان الابنة الوحيدة . ضاقت بنا الحال بعد ذلك وأصبحت أنا وزوجتي - السيدة الحزينة

(٣) تعنى إشارة "ثريانتس" هذه أن مدينة "قادس" قد سقطت في أيدي الإنجليز عام ١٥٨٧م ، "لكنهم (أى الإنجليز) - طبقاً لما أورده فرانسيسكو دراك - لم ينزلوا المدينة العام المذكور بل اكتفوا بحرق بعض السفن الإسبانية الرأسية في خليجها" . وعلى هذا فتاريخ الحادث الذي يشير إليه والد "إيسابيللا" يتعلق بعام ١٥٩٦م ، أو عام ١٥٩٨م . (المترجم)

الجالسة هناك- من المعدمين، وعندما أمسكت الحاجة بخناقنا ولم نستطع قهرها قررنا الرحيل إلى العالم الجديد، ملاذ الطيبين الذين مال عليهم الزمان أمثالنا. وبعد مغادرتنا لميناء "قادس" بستة أيام أدركنا القراصنة وأسرونا، فتجددت نكبتنا وتأكد سوء حظنا. وكان من الممكن أن يصبح هذا الحظ أشد سوءاً لو لم يتوقف القراصنة للاستيلاء على البارجة البرتغالية، فقد أدى تأخرهم إلى إدراككم لهم وحدث ما عاينتموه بأنفسكم .

سأله "ريكاريدو" عن اسم ابنته، وعندما سمعه تأكد له ما حسبه في البداية: بأن محدثه هو والد حبيبته "إيسابيلا". لم يعلمه "ريكاريدو" بأمرها، واكتفى بالترحيب به وبزوجته لنقلهما إلى حيث يستطيعان تلمس أخبارها في لندن. أنزلهما معه في سفينة القيادة، وحشد البارجة البرتغالية بالبحارة ومعظم الجنود.

في تلك الليلة نشروا القلوع وأسرعوا للابتعاد عن السواحل الإسبانية التي اتجهت إليها في الوقت نفسه سفينة الأسرى المحررين، وعلى متنها أيضاً حوالي عشرون تركياً كان "ريكاريدو" قد اعتقهم كذلك حتى ينفي عن نفسه شبه الانحياز للكاتوليكيين، وأوصى الإسبان قبل إبحارهم بضرورة إطلاق سراح هؤلاء الأتراك في أول فرصة تلوح لهم.

لم تلبث الرياح التي نشطت في البداية أن تراخت وهذأت مما أثار الرعب في نفوس الإنجليز الذين أخذوا ينحون باللائمة على كرم "ريكاريدو" وسخائه قائلين له إن الأسرى المحررين يمكن أن ينشروا الخبر على الأرض الإسبانية فيصل إلى أسماع قطع الأسطول الرأسي في الموانئ القريبة فتقوم بملاحقتهم والقضاء عليهم. كان "ريكاريدو" يعلم جيداً أنهم على حق ، لكنه حاول تهدئتهم بما يملك من قوة بيان وحجج دامغة ، وبعد وقت قصير عادت الرياح أشد قوة لتملاً القلوع وتدفع السفينتين إلى الأمام، وما هي إلا أيام تسعة حتى تراءت لهم لندن على مرمى البصر.

لم يعمد "ريكاريدو" إلى دخول الميناء وسط مظاهر الفرح والابتهاج نظراً لموت القائد العام، ولذا فقد أمر العازفين بمزج إشارات البهجة بأخرى حزينة: وهكذا فمن بين عزف النوافير للنفحات السارة كانت تخرج الأبواق بأصوات أجشة حزينة، وعلى الدقات السعيدة للطبول والفرقعات المبتهجة للصواريخ النارية كانت ترد النايات

بصوتها الشجي الحزين . أما وضع الأعلام فقد كان يرسل هو الآخر بالإشارة المبهمة ذاتها: فبينما يتدلى من على أحد الصواري علم مقلوب تزينه الألهة (العلم التركي) كان يرفرف على صار آخر علم من الحرير الأسود تلامس أطرافه صفحة الماء . ووسط هذه الإشارات المتباينة دخل " ريكاردو " نهر لندن بسفينته، بينما ظلت البارجة الكبيرة منتظرة في عرض البحر لعدم اتساع النهر لها .

أثارت الإشارات المتضاربة البلبلة في صفوف الجماهير الغفيرة التي تجمعت على الشاطئ . لقد تعرفت - من بعض العلامات - على سفينة بارون " لنساك " للقيادة، لكنها لم تستوعب كيف تحولت السفينة الأخرى الصغيرة إلى تلك البارجة العملاقة الواقفة في عرض البحر. تلاشت الحيرة بعض الشيء عندما هبط " ريكاردو " من سفينة القيادة ونزل إلى رصيف الميناء وهو في كامل عدته الحربية ثم اتجه - دون مرافق - والجماهير في إثره نحو القصر حيث تجلس الملكة منتظرة أخبار سفينتيها .

كانت " إيسابيلا " تجلس مع الملكة والسيدات الأخريات وهي ترتدى الملابس الإنجليزية التي لم تغير كثيراً من طبيعتها الإسبانية . قبل وصول " ريكاردو " كان قد سبقه إلى الملكة - عن طريق أحد أعوانها - خبر الهيئة القادم عليها . اضطربت " إيسابيلا " وتلملت في مكانها عند سماعها لاسم حبيبها، وحدثها قلبها في تلك اللحظة بانطواء قدومه على أحداث سعيدة ومحزنة في آن واحد .

كان " ريكاردو " فارغ الطول، ممشوق القوام، متناسق الأعضاء . وبما أنه كان يرتدى درعاً إيطالية تغطي صدره وظهره، وطوقاً حول رقبتة، وأساور عريضة حول ذراعيه - وكلها مذهبة ومنقوشة - فقد بدا عظيم الهيئة لكل من رآه . لم يكن يحمي رأسه بمغفر بل بقبعة عريضة الحواف يعلوها ريش متعدد الألوان، وحول خاصرته يلتف حزام بحمالات رائعة يتدلى من إحداها سيف عريض، وفي قدميه حذاء سويسرى طويل . ولهذه الفخامة الحربية ، ولخطواته الواثقة الرشيقة فقد شبهه البعض بإله الحرب " مارس " بينما شبهه البعض الآخر - لجمال وجهه - بـ " فينوس " متخفية في هذا القناع الحربي لتسخر من " مارس " . المهم أنه وصل أخيراً - على هذه الصورة - إلى حيث تجلس الملكة فأنحنى أمامها وخاطبها قائلاً:

- صاحبة الجلالة ، في أثناء المهمة التي كلفتمونا بها مات بارون " لنساك " بسكتة دماغية، ولما أخذت مكانه - تنفيذاً لأمركم الكريم - أتحنى الحظ

بسفينتين تركيتين كانتا تقطران خلفهما تلك البارجة الضخمة الراسية هناك. حمَلْنَا عليها، وحارب جنودك البواسل بضراوة كعهدهم دائماً، واستطعنا إغراق سفينتي القراصنة. وفي سفينة من سفينتيننا- وباسم مليكتنا- وهبت الحرية للمسيحيين الذين تخلصوا من أسر الأتراك. لمأ أحضر منهم سوى رجل إسباني وامراته، جاءا بمحض إرادتهما وبعد كثير من الإلحاح والرجاء للتشرف برؤية فخامتكم. أما البارجة البرتغالية فكانت قادمة من العالم الجديد، لكن عاصفة هوجاء جعلتها لقمة سائغة للأتراك الذين استولوا عليها دون عناء، وعلى متن البارجة توجد كميات كبيرة من اللؤلؤ والماس والأفاويه والبضائع النادرة تزيد قيمتها - طبقاً لما ذكره بعض البرتغاليين - عن المليون إسكودو. لم تمتد يد إلى تلك الثروة- ولا حتى أيدي الأتراك- وكأن عناية السماء قد ادخرتها لجلالتكم وساقنتي للحفاظ عليها حتى تصل إليكم كاملة غير منقوصة. أضعها الآن بين أيديكم من أجل الظفر بجوهرة واحدة وعدتموني بها قبل رحيلي: إنها حبيبة القلب "إيسابيل"، فهي وحدها جائزتي التي سأغتنى بها، وأنا لا أطلبها مقابل هذا العمل بل نظير خدمات أخرى قادمة أجد نفسي ملزماً بتقديمها لجلالتكم للوفاء ولو بجزء ضئيل من قيمة هذه الدرّة الغالية.

- انهض يا "ريكاريدو" - أمرته الملكة- واعلم أنني لو فكرت في إعطائك "إيسابيل" بمقابل فلن تكفيني فيها هذه البارجة ولا كل ما في العالم من كنوز. أنا أعطيها لك وفاءً لوعدي، ولأنك أيضاً جدير بها كما هي جديرة بك. وإذا كنت قد احتفظت بكنوز البارجة لتقدمها لي، فأنا احتفظت بجوهرتك لأقدمها لك. ربما تظن أنني بهذا لا فضل لي عليك، وهذا غير صحيح لأنني أسلمك شيئاً أنت على استعداد لبذل الروح من أجل الحصول عليه، والروح - كما نعرف - لا يعدلها ذهب الأرض جميعاً. ها هي "إيسابيل"، إنها لك. قدّم لها التحية وحدثها بما شئت، ثم اذهب إلى بيتك لتتال قسماً من الراحة لأنني أريدك هنا غداً لتقصّ عليّ بالتفصيل بطولاتك ومآثرك، ولا تنس إحضار من قدما معك لرؤيتي كي أوجه لهما ما يستحقانه من الشكر.

قبل "ريكاريدو" يدها شكراً على أفضالها الكثيرة. انصرفت الملكة ودخلت إحدى صالات القصر وتركت "ريكاريدو" محاطاً بالسيدات . خاطبته إحداهن وتدعى "تانسى" المشهورة بالكياسة والظرف من بينهن جميعاً ، والتي تربطها بإيسابيللا صداقة حميمة :

- ما هذا، يا سيد "ريكاريدو" ؟ لم كل هذه الأسلحة ؟ أتظن أنك قادم هنا لنزال الأعداء ؟ أنت تعرف أن الموجودات هنا صديقاتك، ولا أدري إذا كانت الأنسة "إيسابيللا" بصفتها إسبانية، مرغمة على ألا تكن لك مشاعر طيبة .

- بما أننى فى ذاكرتها، يا سيدة "تانسى"، فأنا على يقين من طيب مشاعرها نحوى، ومن جهة أخرى لا يعقل أن يخالط الجمال النادر والقلب الطاهر المحب قبح انكران والجحود.

تدخلت "إيسابيللا" عندئذ وقالت:

- لأننى سأكون لك، يا سيد "ريكاريدو" ، فلن ترى منى إلا كل ما يرضيك ويثلج صدرك ، وهذا فى مقابل ثنائك علىّ ولما ستقدمه لى مستقبلاً من رعاية واهتمام.

استمر تبادل مثل هذه الأحاديث الودية بين "ريكاريدو" و "إيسابيللا" والسيدات الموجودات بالمكان. كانت هناك فتاة صغيرة لم يكن يشغلها سوى النظر إلى البزة العسكرية لريكاريدو ولما يحمله من سلاح . كانت تتأمل-مفتونة-بريق السيف والدروع وكأنها تنظر فى مرآة ، وعندما ذهب "ريكاريدو" التفتت إلى النسوة وقالت لهن :

- لابد أن الحرب شىء جميل، فالرجال المسلحون يتألقون دائماً بين النساء ويظهرون فى أبهى صورة.

- وبالحال من صورة ١- أضافت السيدة "تانسى" - يكفى النظر إلى "ريكاريدو" الذى يبدو مثل شمس هبطت إلى الأرض وتتجول فى الشارع بهذا الزى العسكرى.

ضحكت السيدات من تعليق الفتاة ومن التشبيه العجيب الذى ساقته السيدة "تانسى" ، ولم يخل المقام من الحاسدات اللاتى انتقدن مجيء "ريكاريدو" بكامل

عُدته الحربية إلى القصر الملكي، لكن الأخباريات استمحن له العذر لأن من حقه كعسكري التباهى بما يوحى ببسالته وقوة شكيمة.

ذهب "ريكاريدو" لرؤية والديه وأهله وأصدقائه الذين استقبلوه بسعادة غامرة ومشاعر فياضة. وفي تلك الليلة احتفلت لندن احتفالاً كبيراً بالحدث العظيم. كان "ريكاريدو" قد أمر بإنزال والدي "إيسابيل" ضيفين على بيت أبيه (كلونالدو) بعد أن قصّ عليه خبرهما، وطلب منه ومن والدته - السيدة "كاتالينا" - وجميع من بالدار من خدم وحشم عدم البوح لهما بسر ابنتهما لأنه سيتولى هذا الأمر بنفسه. كما بدأت في تلك الليلة اللنشات والزوارق والسفن الصغيرة في تفرغ باطن البارجة البرتغالية مما يحويه من كنوز وقلل وبضائع أخرى، واستمر عملها تحت سمع وبصر الكثيرين من محبي الاستطلاع أيام بطولها.

في الليلة التالية اصطحب "ريكاريدو" والدي "إيسابيل" إلى القصر بعد أن ألبسهما على الطريقة الإنجليزية وأخبرهما برغبة الملكة في رؤيتهما. وصلوا جميعاً إلى حيث تنتظرهم الملكة بين وصيفاتها، وإلى جوارهن كانت تقف "إيسابيل" في أبهى صورة. عقدت مظاهر العظمة والأبهة لسانى الضيفين وأثارت إعجابهما الشديد.. دققا النظر في "إيسابيل" ولم يتعرفا عليها وإن كان قلباهما قد شرعا في الخفقان بسعادة لم يستطيعا تفسيرها. لم تقبل الملكة بركوع "ريكاريدو" أمامها، وأمرته بالنهوض والجلوس على كرسي واطئ مستدير أعدله سلفاً. جعل هذا الشرف النادر المنال أحد الحاضرين يهمس في أذن آخر قائلاً له:

- "ريكاريدو" لا يجلس اليوم على الكرسي الذي أعدّه له، بل على كومة الذهب والقلل التي جلبها.

انضم إلى المتهامسين ثالث وقال:

- الآن يتحقق المثل القائل: كثرة الهبات تلين الحجر الصلد، ألا ترون أن ما أحضره "ريكاريدو" قد ألان قلب مليكتنا الصخرى!

وسرعان ما انضم إلى الجوقة رابع ليضيف قائلاً:

- بعد هذا التشريف لا يوجد الآن من يستطيع التعرض له.

حقاً، لقد أثار هذا التشريف الذى أنعمت به الملكة على "ريكاريدو" الحسد فى نفوس الحاضرين، فمن المعروف أن الفضل الذى يجود به الأمير على أحد خلائه ما هو إلا نصل يخرق قلوب الحساد. طلبت الملكة سماع تفاصيل المعركة التى دارت مع سفينتى القراصنة، فقص عليها "ريكاريدو" ماجرى ونسب النصر إلى إرادة الله ثم إلى شجاعة جنودها وتحدث عن بسالتهم وإقدامهم مما جعل الملكة تثنى عليهم جميعاً، وعندما وصل فى حديثه إلى عفوهِ - باسم الملكة - عن المسيحيين والأتراك وإطلاقه سراحهم قال:

- وهذا الرجل وتلك المرأة - وأشار إلى والدى "إيسابيللا" - هما اللذان أخبرتا جلالكم أمس بشوقهما لرؤيتكم وإلحاحهما فى القدوم معى إلى لندن من أجل هذا الغرض. إنهما من "قادس" - كما علمت منهما - ومن أفاضل الناس بتلك المدينة وأعلامهم قدراً.

أمرت الملكة باقترابهما.. صوّت "إيسابيللا" عينيهما إليهما، يحدوها الأمل فى معرفة شىء عن والديها من هذين الضيفين اللذين ينتميان لمدينتها. التقت عينها بعينى والدتها التى أبطأت خطواتها لتدقق النظر فيها. وفى تلك اللحظة انبثقت فى ذاكرة "إيسابيللا" بعض الومضات الغامضة التى ذكرتها بروية هذه المرأة من قبل، لكنها لم تفلح فى توثيق إحساسها. تملك والدتها الحيرة نفسها، ولم يجرؤ على إثبات حقيقة ما تراه عيناه. كان "ريكاريدو" يرقب عن كثب ردود أفعال الأرواح الثلاثة الحائرة التى يتنازعها الشك بين تصديق ونفى هواجسها. لاحظت الملكة ارتباكهما، كما فطنت لاضطراب "إيسابيللا" من حبات العرق المتساقطة على وجهها ومن رفع يدها عدة مرات لتسوية شعرها بحركات خرقاء.

تمنت "إيسابيللا" لو تكلمت تلك المرأة التى تظنها والدتها، لعل الأذن تُخرجها من الحيرة التى أوقعتها فيها عينها. طلبت الملكة من "إيسابيللا" سؤال الرجل والمرأة بالإسبانية عن السبب الذى دفعهما لرفض الحرية التى وهبها لهما "ريكاريدو" رغم أنها غاية ما يتوق إليه الإنسان والحيوان على السواء.

وجّهت "إيسابيللا" سؤال الملكة السابق إلى والدتها، لكنها لم تجب بكلمة، ودون خوف أو مراعاة لبروتوكول اتجهت - متخبطة تكاد تتعثر - إلى "إيسابيللا" ثم مدت

يدها إلى أذنها اليمنى وكشفت عن شامة سوداء خلفها. بددت هذه العلامة شكوكها، ولما كانت قد تحققت جيداً من "إيسابيللا" فقد سارعت إلى احتضانها وهي تقول بصوت عالٍ:

– آه، يابنتى، يا حبة قلبى إيا مهجتى الغالية !

قالت ذلك ثم سقطت مغشياً عليها بين ذراعى "إيسابيللا".

أما أبوها فعبر عن إحساسه بالدموع التى انهمرت لتبلل وجهه الوقور ولحيته. أسندت "إيسابيللا" رأسها إلى رأس والدتها ثم التفتت إلى أبيها بنظرة فهم منها سرورها وعذابها لرؤيتهما فى ذلك المكان. قالت الملكة – التى كانت تتابع فى دهشة وإعجاب ما يجرى أمامها – لريكاردو:

– لا بد أن تفكيرك هو الذى هداك لترتيب هذا المشهد ، ولا أعتقد أنه كان صائباً؛ فالسعادة المفرطة المفاجئة يمكن أن تودى بحياة الإنسان مثلما تفعل الأحزان الشديدة.

قالت هذا ثم التفتت إلى "إيسابيللا" وأومأت لها بالابتعاد عن أمها التى كانت قد ثابتت إلى بعض رشدها عندما صبوا الماء على وجهها.

بعد إفاقتها ركعت أمام الملكة وخاطبتها قائلة:

– معذرة، جلالة الملكة، لأن الفرحة طمست على حواسى كلها وجعلتنى لا أشعر بنفسى.

قبِلت الملكة عذرها. وبعد قيام "إيسابيللا" بقص حكايتها باختصار أمرت الملكة ببقاء أبويها فى القصر ليتمكنوا من الجلوس إلى ابنتهما واستكمال الفرحة بالحديث إليها على مهل . سر "ريكاردو" بما جرى وتوسل إلى الملكة من جديد بالوفاء بوعددها وتزويجه إيسابيللا إذا كانت تراه جديراً بها، أما إذا كانت ترى أن ما فعله حتى الآن لا يؤهله لذلك فإنه على استعداد للقيام بأية مهام أخرى تكلفه بها من أجل تحقيق ما يصبو إليه. تأكدت الملكة حينئذ من ثقة "ريكاردو" بنفسه ولم تعد فى حاجة لاختبار ولائه ثانية، ومن ثم فقد وعدته بتسليم "إيسابيللا" له وزفّه إليها بعد أربعة أيام وذلك لإقامة احتفال كبير للزفاف يشرفها ويليق برعايتها.

ودعهم "ريكاريدو" قَرير العين، مطمئناً لانتقال حبيبته لعش الزوجية دون خوف من ضياعها؛ وهذا منتهى أمل العشاق.

كان الوقت يمر ثقيلًا على "ريكاريدو" ؛ ذلك لأن الذين يعيشون على أمل تحقيق أمنية عزيزة يتخيلون دائماً أن الزمن لا يمضي بسرعه المعهودة بل يتحرك على أرجل الكسل ذاته. في تلك الفترة القصيرة التي ظن فيها "ريكاريدو" أن سفينة حظه تسوقها الرياح المواتية نحو المرفأ الآمن، كان الحظ العاثر يدبر له في الخفاء عاصفة هوجاء كفيلة بإرسال سفينة طموحاته إلى الأعماق آلاف المرات .

لقد كان لكبيرة الوصيفات- المكلفة بالإشراف على إيسابيل والعناية بها - ابن في الثانية والعشرين من العمر يدعى الكونت "أرنستو" . كان هذا الكونت- الذي يستمد عظمة مكانته من نبالة الدم ومن خدمات أمه للملكة- متعجرفاً وشديد الزهو والاعتداد بالنفس. وقع هذا الكونت- أثناء غياب "ريكاريدو" - في غرام "إيسابيل" وأحبها حباً جماً ملك عليه مشاعره، لكن هذا الحب كان من طرف واحد فقط لأن "إيسابيل" لم تعره اهتماماً وقضت في المهد على محاولاته للتقرب منها.. من المعروف أن سير الحب تنتهي عادة عندما يبدى أحد الطرفين ازدراءه للآخر ونفوره منه، لكن ازدراء إيسابيل ونفورها هنا أجبا نيران الغيرة في صدر "أرنستو" وجعله يزداد إصراراً على التمسك بها. وبما أنه وجد غريمه "ريكاريدو" على وشك الظفر بمحبوبته تحت سمع الملكة وبمباركتها التامة فقد عقد العزم على الانتحار . لكنه قبل أن يقدم على هذه الفعلة النكراء والجبانة كشف لأمه عن مكنون صدره وتوسل إليها كي تطلب يد "إيسابيل" من الملكة . أنصتت الوصيصة باهتمام بالغ لحديث ابنها، ولما كانت تدرك مدى شططه وشدة نهال كه وعناده فقد تملكها الخوف من انتهاء الأمر بحادث كربه . وعدته- مثل كل أم حريصة على إرضاء أولادها- باللجوء إلى حيلة تجعل الملكة ترجئ تنفيذ وعدها لريكاريدو حتى تتمكن بعد ذلك من إزاحته من طريقه .

في اليوم الرابع والأخير من المهلة المضروبة ارتدت "إيسابيل" ثياباً موشاة فاخرة لا يجرو القلم على وصفها، وتكفى الإشارة إلى أن الملكة أهدتها- من الكنوز التي كانت تحملها البارجة البرتغالية - عقدًا من اللؤلؤ الثمين يقدر بعشرين ألف "دوكادوس" بالإضافة إلى خاتم من الماس لا يقل عن ستة آلاف أخرى. وبينما كانت

الوصيفات منهنمكات فى الإعداد للعرس المرتقب دخلت كبيرتهن على الملكة وركعت أمامها ثم توسلت إليها- بحق السنوات الطويلة التى قضتها فى خدمتها- كى تزجل الزفاف يومين فقط .

دهشت الملكة لغربة الطلب وسألته عن سرّ نهافتها عليه برغم تناقضه الصريح مع الكلمة التى أعطتها لريكاردو ، لكن كبيرة الوصيفات استأذنتها فى عدم الإفصاح عنه إلا بعد الحصول على موافقتها . وهكذا، وبعد نبيلها لما أرادت أخبرتة أن ابنها غارق حتى أذنيه فى حب "إيسابيللا" وأنها خائفة من إلحاقه الأذى بنفسه أو إقدامه على عمل أرعن عندما يراها تزفّ إلى غيره، ولذلك طلبت المهلة حتى يتسنى لها - بمساعدة الملكة - الاهتداء إلى حلّ يثنيه عما اعتزمه أو يفكر فيه .

أخبرتة الملكة أنه كان بإمكانها إيجاد مخرج لهذه المتاهة المستغلقة لو لم تكن أعطت كلمتها، ومن هنا فإنها لا تستطيع العدول عما وعدت به وتحطيم آمال "ريكاردو" مهما تكن الأسباب ومهما عظم المقابل .. حملت كبيرة الوصيفات ردّ الملكة إلى ابنها الذى غلت دماء الحب والغيرة فى عروقه فور سماعه، وقام دون روية بحمل ما استطاع من سلاح ثم امتطى صهوة جواد قوى وذهب فوقه إلى بيت "كلوتالدو" وأخذ ينادى بأعلى صوته على "ريكاردو" الذى كان يرتدى فى تلك اللحظة ملابس الزفاف وعلى وشك الخروج إلى القصر الملكى فى معية الركب المعدّ للمناسبة السعيدة، لكنه عندما سمع تلك الأصوات وتعرّف على صاحبها أطلّ بفزع من إحدى نوافذ البيت . عندما رآه أرنستو صاح فيه قائلاً:

- ريكاردو، أنصت جيداً لما ستسمعه منى: كلّفك جلالة الملك بالخروج فى مهمة حربية لتبرهن من خلالها على استحقاقك لإيسابيللا التى لا نظير لها . رحت ورجعت بسفن محملة بالذهب، وظننت أنك بهذا قد قدمت مهر "إيسابيللا" وأصبحت جديراً بها . وإذا كانت جلالة الملكة قد وعدتك بها اعتقاداً منها أنه لا يوجد فى بلاطها أحد يخدمها أفضل منك أو من هو أحقّ منك بزواجها فإنها مخدوعة - ولا ريب - فيما ذهبت إليه . ولأننى أعتقد اعتقاداً جازماً أننى على صواب أبادر بالإعلان على الملأ أنك لم تفعل شيئاً تستحق به "إيسابيللا" ولن تفعل مستقبلاً ما يجعلك جديراً بها، وإن تطرق إليك شك فيما أسمعتك إياه فإننى أتحدّك فى نزالٍ حتى الموت .

انعقد لسان "كلوتالدو" ولم يقوَ على الكلام، لكن لسان ابنه انبرى بهذا الرد البليغ الواثق:

- لا أخالفك الرأي، يا سيادة الكونت، وأعترف لك بأننى لست جديراً بإيسابيللا وحسب، بل إننى لا أبالغ إن قلت إنه لا يوجد فى العالم أجمع رجل يستحقها، ورغم أن اتفاقى معك فيما ذهبت إليه يعينى من قبول التحدى إلا إننى سأبليه فقط لتجاسرك وتطاولك على.

قال هذا ثم ابتعد عن النافذة ونادى على غلمانه أمراً بإحضار سلاحه وعدته الحربية. ساد هرج ومرج بين أهله وبين الذين كانوا مجتمعين هناك انتظاراً لمرافقته إلى القصر. فى تلك الأثناء انطلق واحد ممن شاهدوا "أرنستو" وسمعوا كلامه إلى القصر ليخبر الملكة بما حدث، فما كان منها إلا أن أمرت قائد حرسها الخاص بسرعة القبض على "أرنستو". ذهب القائد ومعه جنوده إلى بيت "كلوتالدو" فوصلوه عندما كان "ريكاريدو" يتهيأ للخروج منه معتلياً جواده.

عندما شاهد الكونت قائد الحرس وأدرك أنه مقبوض عليه لا محالة اتجه إلى "ريكاريدو" قائلاً بصوت عالٍ:

- ها أنت ترى ما يحول بينى وبينك. لو لديك رغبة فى الانتقام منى ستفتش عنى كما سأبحث عنك، ومن اليسير التقاء اثنين يجد كل منهما فى البحث عن الآخر. لنضع إذن تصفية الحساب للقاء المنتظر.

- بكل سرور- أجابه "ريكاريدو".

وصل قائد الحرس عندئذ وقال للكونت أنت مقبوض عليك بأمر صاحبة الجلالة. أذن للأمر مشروطاً ذهابه إلى الملكة لا إلى مكان آخر. قال له القائد: لك هذا، ثم التف حوله الجنود واصطحبوه إلى الملكة التى كانت على علم بأمر وقوعه فى حب "إيسابيللا". توسلت كبيرة الوصيفات لكى تعفو الملكة عن ابنها الكونت لأن الجرم الشنيع الذى ارتكبه يرجع لحادثة سنه وشدة تعلقه بإيسابيللا.

عندما وصل إلى القصر أمرت الملكة- دون الدخول فى نقاش معه- بتجريدته من سلاحه وحبسه فى أحد الأبراج.

حزنت "إيسابيللا" حزناً شديداً واغتم والداها لاضطراب الأحوال بسرعة لم تكن فى الحسبان.. أما كبيرة الوصيفات فقد نصحت الملكة بإزالة سبب الخلاف حتى لا تتفاقم الأمور بين أهل ابنها و"ريكاريدو"، وذلك بإرسال "إيسابيللا" إلى وطنها (إسبانيا)، ومن بين الأسباب التى أضافتها لتعصيد وجهة نظرها اتهام الفتاة بأنها على دين أبويها: أى أنها مسيحية كاثوليكية.. ردت عليها الملكة قائلة إن وفاءها للعقيدة التى تعلمتها من ذويها يعلى من قدرها، أما بالنسبة لترحيلها إلى وطنها فغير وارد على الإطلاق ولا يمكن التفكير فيه لأنها شديدة الإعجاب بحضورها السار ومواهبها الرائعة وأخلاقها الحميدة، وعلاوة على هذا فإنها ستزف- إن لم يكن اليوم فغداً - إلى "ريكاريدو" حسب ما وعدت.

لم تعقب كبيرة الوصيفات بكلمة على رد الملكة القاطع، لكنها أضمرت إزاحة "إيسابيللا" من على مسرح الأحداث لتنتهى بذلك سبب الخلاف بين ابنها و"ريكاريدو"، وقررت ارتكاب جريمة نكراء لا تليق بامرأة فى مثل مكانتها العالية، ويتمثل القرار فى قتل "إيسابيللا" بالسم. ولأن النساء لا يتورعن عن تنفيذ ما يدور برءوسهن حتى ولو كان بغيضاً، فقد بادرت مساء ذلك اليوم بدس السم فى الطعام الذى قدمته لإيسابيللا وأجبرتها على تناوله بحجة فائدته فى علاج ما تحس به من غثيان.. بعد تناوله بوقت قصير تورم لسان "إيسابيللا" وحلقومها واسودت شفتاها وتحشج صوتها وزاغت عيناها وانقبض صدرها وضاق: إنها أعراض السم اللعين كما يعرفها الجميع. هرعت الوصيفات فزعات إلى الملكة يخبرنها بما جرى، وشهدن أمامها بتورط كبيرتتهن فى تلك الفعلة المرعبة. لم تكذب الملكة الخبر وسارعت بالذهاب إلى "إيسابيللا" التى كانت تعاني سكرات الموت.

أمرت الملكة باستدعاء أطبائها على وجه السرعة، وقامت فى الوقت نفسه بإعطائهم مسحوق وحيد القرن علاوة على أنواع متعددة من الترياقات التى يحتفظ بها الأمراء عادة تحسباً لحالات الطوارئ المماثلة. حضر الأطباء وحاولوا بشتى الوسائل علاجها، ولما استعصت عليهم الحالة طلبوا من الملكة سؤال كبيرة الوصيفات عن نوعية السم الذى قدمته لها. عندما عرفوا نوعيته قدموا لها العلاج الناجع، وهكذا ظلت "إيسابيللا" على قيد الحياة - أو متشبثة، على الأقل، بأمل البقاء عليها - بفضل الله وعونه ولما بذله الأطباء من جهد - أمرت الملكة بالقبض على كبيرة

الوصيفات وإيداعها إحدى زنازين القصر الضيقة تمهيداً لمحاكمتها على جرمها الشنيع . كانت كبيرة الوصيفات تهذى قائلة إنها أرادت بقتل "إيسابيللا" التقرب إلى الله بإزاحة كاثوليكية من على وجه الأرض وحفظ مستقبل ابنها وصيانتة من الضياع .

كادت هذه الأحداث المؤسفة أن تودى بعقل "ريكاريدو" وتدفعه إلى الجنون . لم تفقد "إيسابيللا" الحياة فى النهاية، لكنها أصبحت بلا أهداب ولا حاجبين ولا ضفائر، واختفى بريق بشرتها وترهل جلدُها وأترعت مقتلها بالدموع . لقد تحولت - باختصار - من صورة رائعة للجمال الصارخ إلى مسخٍ للدمامة والقبح . ومما يرثى له أن من يعرفونها كانوا يفضلون موتها بالسم على بقائها فى تلك الصورة الشائنة . استأذن "ريكاريدو" الملكة فى حمل "إيسابيللا" لبيتته لأن حبه لها يتجاوز الجسد الفانى إلى الروح الخالدة، ولأن جمالها الذاهب لا يعنى ضياع مواهبها الرائعة وخِصالها الحميدة التى لا تحصى .

- لك ما تريد - أجابته الملكة - ولتكن واثقاً من أنك تحمل جوهرة ثمينة فى صندوق من الخشب المتواضع . يعلم الله أننى كنت أود تسليمها لك كما أحضرتها من قبل، ولأن هذا أصبح مستحيلاً الآن أرجو منك المعذرة، ربما يشفى العقاب الذى سأنزله بمقترفة الجرم بعض غليك ويعوض ولو جزءاً من رغبة الانتقام لديك .

أبان "ريكاريدو" عن أصالة معدنه عندما ناشد الملكة العفو عن كبيرة الوصيفات وتمادى فى توسله . قبل مغادرة "إيسابيللا" للقصر مع والديها إلى بيت "ريكاريدو" أهدتها الملكة - بالإضافة إلى اللآلى والماس الذى قدمته لها بمناسبة الزفاف الذى لم يتم - حلياً جديدة وملابس غالية الثمن، تعبيراً عن شدة شغفها بها وحبها الجَمِّ . ظلت "إيسابيللا" شهرين فى بيت "ريكاريدو" دون أن يطرأ على حالتها أى تحسّن لكن جلدُها أخذ يتساقط بعد هذه الفترة لتبرز تحته بشرتها الجميلة .

عندما لم ينس والدا "ريكاريدو" تحسناً ملموساً على صحتها خلال الشهرين المذكورين قررا استدعاء الفتاة الإسكتلندية التى كانت مخطوبة لابنهما قبل تعلّقه بإيسابيللا، ومن ثمّ فقد أرسلوا فى طلبها - دون استشارة "ريكاريدو" - لاقتناعهما بأن جمال الزوجة الجديدة سينسيه الجمال الضائع لحبيبته . كما قررا فى الوقت نفسه

ترحيل "إيسابيللا" ووالديها إلى وطنهم بعد تعويضهم عن ثروتهم الضائعة. لم يكد يمر شهر ونصف على الاستدعاء حتى مثلت الفتاة الإسكتلندية - دون علم "ريكاريدو" - صاحبها جمالها الفتان الذي لم يكن يفوقه في سائر لندن غير الجمال الضائع للتعبئة "إيسابيللا". تملك "ريكاريدو" الفرع عندما شاهد الإسكتلندية تقتحم باب البيت على حين غرة منه، وخشى أن يودى حضورها المفاجئ بحياة "إيسابيللا". ولكى يخفف من وقع المفاجأة عليها ذهب إلى حيث ترقد وتحدث بما يلي أمامها وأمام والديها اللذين كانا إلى جوارها:

- "إيسابيللا"، يا قرة العين، قام والداي - مدفوعين بحبهما لى، وغير مقدرين لمدى ما أكّنه لك من مشاعر - بإحضار فتاة إسكتلندية كانا قد خطباها لى قبل وقّرعى فى هواك متصورين بذلك أن الجمال الطاغى لتلك الفتاة باستطاعته محو صورتك الجميلة المطبوعة فى فؤادى. لكن تعلّق بك من الهلة الأولى لم تكن غايته الوحيدة تلبية غريزة الجسد؛ فجمالك الحسى وإن كان قد ملك على حواسي إلا إن فضائلك التى لا تعد قد ملكت قبله روحى، ولهذا السبب فإذا كنت قبلاً متيّماً بجمالك فإننى الآن متبّتل فى محراب صورتك الحالية، ولتأكيد هذه الحقيقة أرجوك أن تبسطى إلى يدك. مدت له يدها اليمنى فقبض عليها وتابع حديثه قائلاً:

- بحق الكاثوليكية التى تشربت تعاليمها - على يد والدى - منذ الصغر ويدين بها قلبى، أشهد الرب الحقيقى المطلع علينا الآن بأن أكون لك زوجاً، يا توءم روحى، من هذه اللحظة لو تكرمت على بهذه المنزلة الرفيعة .

تسمّرت "إيسابيللا" فى مكانها واعترى والديها الذهول مما سمعا، لم تجد "إيسابيللا" شيئاً تنطق به ولم تفعل سوى تقبيل يد "ريكاريدو" مرات عديدة لكنها تحاملت على نفسها فى النهاية وأخبرته بكلمات ممزوجة بالدموع أنها تقبله زوجاً وسيداً إلى الأبد. قبل "ريكاريدو" عندئذ وجهها القبيح الذى لم يكن يجرو على الاقتراب منه حال جماله.

توجت الدموع الغزيرة والحنونة لوالدى "إيسابيللا" مراسم الزواج بهالة من المهابة والشجن. أخبرهم "ريكاريدو" أنه اهتدى لتدبير سيعينه على التملص من الزواج

بالإسكتلندية الموجودة بالببيت، وطلب منهم الإذعان لاقتراح والده بإرسالهم إلى إسبانيا لأنه سيعمل جاهداً على اللحاق بهم هناك- إما في إشبيلية أو قádiz- خلال سنتين من الآن، وإذا انقضت هذه المدة ولم يروه بينهم فليأتكدا عندئذ من موته لأن الموت وحده هو القادر على الحيلولة بينه وبين تحقيق حلمه.

ردت عليه "إيسابيللا" بقولها إنها لن تنتظره سنتين فقط بل سنوات عمرها القادمة إلى أن يتوفاها الله ، ألهمت هذه الكلمات مشاعر الجميع وأخذت دموعهم في الانهمار من جديد . خرج "ريكاريدو" من عندهم ليبلغ والديه وأهله وأقارب الإسكتلندية "كليسترنّا" الذين أتوا معها أنه لن يتزوج ولن يعطى يده لزوجته قبل تأديته فريضة الحج إلى روما لتطهير روحه وتنقية عقيدته وتأصيلها في نفسه. ولما كان الجميع يدين بالكاثوليكية فلم يعترض أحد منهم على رغبته ولم يتشكك فيها. أما "كليسترنّا" فقد ابتهجت ببقاتها في دار حماها لحين عودة "ريكاريدو" التي حدّد لها سنة .

أفصح "كلوتالدو" بعد ذلك لابنه عن نيته في استئذان الملكة لإرسال "إيسابيللا" ووالديها إلى إسبانيا: ربما يعجل هواء الوطن وأجواؤه - قال له- باكتمال شفائها واستردادها لصحتها. لم يمانع "ريكاريدو" وقال له بفتور- حتى لا يفتضح أمره - افعّل ما تراه صواباً، لكنه توسّل إليه بالألا يأخذ شيئاً من الهدايا أو المجوهرات التي قدّمتها صاحبة الجلالة لإيسابيللا. وعده أبوه بذلك، واتجه في اليوم نفسه إلى قصر الملكة لطلب الإذن بترحيلهم وبعقد قران ابنه على "كليسترنّا" ، سرّت الملكة لما سمعته وأثنت على حسن تصرف "كلوتالدو" وأصدرت حكمها غداة ذلك اليوم على كبيرة الوصيفات بالفصل من عملها ويتغريمها عشرة آلاف إسكودو تعويضاً لإيسابيللا، كما قصّت على الكونت "أرنستو" بالنفي من إنجلترا ست سنوات كاملة ، لم نكد تمر أربعة أيام حتى تهيأ "أرنستو" لمغادرة البلاد وتمكنت والدته من تجميع الغرامة وتسليمها للملكة التي أمرت على الفور بإحضار تاجر فرنسي غني يقيم في لندن وله أنشطة تجارية ومعاملات مالية في كل من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وطلبت منه تسليم عشرة آلاف إسكودو لوالد "إيسابيللا" بمدينة إشبيلية أو بأي ميناء إسباني آخر. بعد حساب التاجر لعمولته وأتعابه أخبر الملكة أن التسليم سيتم في إشبيلية عن طريق تاجر فرنسي آخر وأخذ يشرح لها تفاصيل عملية التحويل على النحو التالي: سيطلب من

ذلك التاجر المقيم فى باريس الاتصال بزميل له فى إشبيلية وتكليفه بتسليم قيمة الحوالة للشخص المعنى ، وبهذا الشكل تبدو عملية التحويل وكأنها صادرة من فرنسا وليس من إنجلترا (عدوة إسبانيا اللدود وغريمتها الحقود) . خلاصة القول إن الملكة أخذت من التاجر الفرنسى كافة الضمانات لإيصال المبلغ كاملاً غير منقوص إلى الجهة المتفق عليها؛ ولم يقف اهتمامها عند هذا الحد بل قامت باستدعاء صاحب مركب فرنسى كان سيغادر لندن صبيحة اليوم التالى إلى فرنسا لينطلق من أحد موانئها صوب إسبانيا وكلفته بحمل "إيسابيل" ووالديها على متن سفينته وإيصالهم- معززين مكرمين- إلى أول ميناء إسبانى يصادفه فى طريقه .

طمأن القبطان الملكة وتعهد لها بإيصالهم سالمين إلى لشبونة أو قادس أو إشبيلية . بعد استلام الملكة صكاً بالمبلغ من التاجر الفرنسى أرسلت إلى "كلوتالدو" تأمره بالأخذ شيئاً من المجوهرات أو الملابس التى أعطتها لإيسابيل .

حضرت "إيسابيل" والداها فى اليوم التالى لوداع الملكة التى استقبلتهم بكل ترحاب وودّ، وقدمت لهم الصك الذى أخذته من التاجر علاوة على المزيد من الهدايا والأموال اللازمة للرحلة . شكرتها "إيسابيل" بكلمات رقيقة عذبة زادت من رصيد محبتها لها، ثم قامت بعد ذلك بوداع الوصيفات فطلبن منها- مدفوعات بتحررهن من نيران الغيرة التى كانت تنهش قلوبهن من جمالها الأخاذ- البقاء وعدم الرحيل للاستمتاع بحديثها العذب ومواهبها الرائعة وتصرفاتها المهدبة . عانقت الملكة ثلاثتهم وتمنت لهم - ولصاحب السفينة- رحلة طيبة، وطلبت من "إيسابيل" إخبارها- عن طريق التاجر الفرنسى - بسلامة وصولها، وإطلاعها باستمرار على حالتها الصحية . وفى مساء ذلك اليوم، ووسط مظاهر الحزن والدموع المنهمرة من عيون "كلوتالدو" وزوجته وأهل بيته، ركبت "إيسابيل" مع والديها السفينة الراسية بميناء لندن.. أما "ريكاريدو" فقد آثر الذهاب للصيد مع ثلة من الأصدقاء تفادياً لمشهد الوداع الذى سيجبره حتماً على الإعراب عن مشاعره الحثونة ، كانت السيدة "كاتالينا" قد قدمت كثيراً من الهدايا لإيسابيل وغمرتها بالقبل والأحضان وذرفت الدمع مدراراً وأوصتها بالكتابة مراراً وتكراراً ، وعلى كل هذا رد الراحلون بفيض من الشكر والامتنان . لحسن الحظ أن المرتحلين كانوا مسرورين رغم الدموع .

أقلعت السفينة تلك الليلة تدفعها الرياح الطيبة المواتية ووصلت إلى فرنسا ، ومن هناك حصلت على الوثائق اللازمة لدخولها إسبانيا، وبعد ثلاثين يوماً وصلت إلى ميناء "قادس" حيث غادرتها "إيسابيللا" بصحبة والديها، ولما كان أهل المدينة يعرفونهم جيداً فقد استقبلوهم استقبالاً رائعاً يفيض بهجة وسروراً ، تلقى والدا "إيسابيللا" لتهانئ بمناسبة عثورهما على ابنتهما الوحيدة وبمناسبة استرداد ثلاثتهم للحرية السليبة ، سواء على أيدي القراصنة الأتراك (وكانت المدينة على علم بهذا الخبر من الأسرى الإسبان الذين أطلق "ريكاريدو" سراحهم) أو على أيدي الغزاة الإنجليز.

فى تلك الآونة أخذت صحة "إيسابيللا" فى التحسن بشكل ملحوظ، وظهرت عليها بوادر استردادها لجمالها القديم. أمضوا فى "قادس" ما يزيد عن الشهر بقليل للاستراحة من عناء الرحلة الطويلة وتوابعها ثم سافروا إلى إشبيلية ليقفوا على إمكانية صرفهم لعشرة الآلاف إسكودو من التاجر الفرنسى المقيم بها ، بحثوا عنه بعد يومين من وصولهم وأعطوه الصك الذى حرره زميله فى لندن ، تعرف التاجر على خطأ صديقه وتوقيعه ولم ينكر صلته الوثيقة به، لكنه أخبرهم أنه لا يستطيع صرف المبلغ لهم إلا بعد وصول أمر الدفع الصادر من باريس .

استأجر والد "إيسابيللا" بيتاً كبيراً بالقرب من "سانتا بولا" (٤) الذى ترهبت فيه ابنة أخت له مشهورة بجمال الصوت ، هذا لأن "إيسابيللا" كانت قد أخبرت "ريكاريدو" أن بإمكانه - عند وصوله إلى إشبيلية - معرفة عنوانها من ابنة عمتها الراهبة فى "سانتا بولا" ، ولكى تعطيه علامة لا ينساها وتسهل عليه الاهتداء إلى ابنة عمتها فى أقصر وقت ، قالت له: عليك بالسؤال عن الراهبة الأجل صوتاً فى الدير ولن نعدم هناك من يدلك عليها .. بعد أربعين يوماً وصل أمر الدفع من باريس، وبعد يومين من وصوله سلم التاجر الفرنسى عشرة الآلاف إسكودو لإيسابيللا التى سلمتها بدورها لأبويها، وبهذا المبلغ - بالإضافة إلى ثمن جزء ضئيل من المجوهرات الكثيرة التى تمتلكها "إيسابيللا" - استأنف والدها نشاطه التجارى القديم وسط إعجاب وحفاوة من يعرفون ماضيه المجيد. لم تكد تمر بضعة أشهر حتى استعاد الأب شهرته الضائعة

(٤) يقع دير "سانتا بولا" للراهبات شمال مدينة إشبيلية، وقد كان للمؤلف (ثريانتس) - طبقاً لـ "نورينتو جونالث أوريولس" - ابنتى عم التحقنا بهذا الدير فى مطلع القرن السابع عشر. (المترجم)

واستردت الابنة جمالها السابق لدرجة أن الناس عندما كانوا يتحدثون عن الجمال في مدينتهم لا يترددون في توجيه جلّ إطرائهم للإسبانية / الإنجليزية، لقد أصبحت "إيسابيللا" تعرف في المدينة إما باللقب السابق أو بصاحبة الجمال الباهر. كان التاجر الفرنسي المقيم في إشبيلية قد طلب منهم سرعة الكتابة إلى ملكة إنجلترا وإحاطتها علماً باستلامهم لقيمة الحوالة، فبادروا إلى ذلك وضمنوا خطابهم شكرهم العميق للملكة وامتنانهم الجَمّ لحسن صنيعها، كما وجهوا أيضاً رسالة لكلوتالدو والسيدة "كاتالينا" خاطبتهم فيها "إيسابيللا" بالودى العزيزين.. لم يتلقوا رداً من الملكة، لكنهم - في المقابل- تلقوا من "كلوتالدو" وزوجته خطاباً يتضمن التهنية بسلامة الوصول وخبراً يفيد برحيل ابنهما- في اليوم التالي لمغادرتهم لندن- إلى فرنسا التي سينطلق منها إلى أماكن أخرى^(٥). كما تضمن الخطاب أشياء أخرى تنم عن حبهما الشديد وودهما الخالص. ردت "إيسابيللا" ووالداها على هذا الخطاب بآخر لا يقل عنه تهذيباً ومودة، حافلاً بأسمى آيات الشكر والعرفان.

عندما علمت "إيسابيللا" بأمر مغادرة "ريكاريدو" لانجلترا وقرّ في قلبها أنه فعل هذا من أجل القدوم للبحث عنها في إشبيلية، أمدها هذا الاعتقاد بسعادة غامرة وانتهجت أسلوب حياة يجعل فضائلها تصل إلى مسامع حبيبها حين قدومه قبل اهتدائه لعنوان بيتها، لم تكن تغادر عتبة الدار، وإذا خرجت فمن أجل الذهاب إلى الدير حيث لا توجد تسليّة إلا بالمباح من الأشياء. ومن بيتها إلى كنيسة الدير - سواء في أيام الجمع التي تتخلل موسم الصوم الكبير أو خلال الأيام السبعة السابقة لعيد الروح القدس- لم يكن يشغل بالها سوى الأذكار والصلوات الدينية. لم تزر النهر مطلقاً، ولم تذهب إلى "طريانة" (Triana)، ولم تشاهد الاحتفالات الشعبية المقامة في قضاء "تابالدا" (٦) أو عند بوابة "شريس" (Jerez) أو "سان سبستيان" التي يؤمها خلق

(٥) يقصد والدا "ريكاريدو" بـ "الأماكن الأخرى": الدروب والمسالك المؤدية إلى روما (عاصمة الكاثوليكيين الروحية). وعدم تصريحهما بهدف الرحلة (الحج إلى روما) يرجع - كما يتضح من فحوى القصة - إلى عداة الإنجليز ومقتهم الشديد، بل وتكفيرهم لكل من يعتنق المذهب الكاثوليكي. وسترّد هذه العبارة أيضاً في موضع آخر من القصة. (المترجم)

(٦) يقع قضاء "تابالدا" TABALDA بالقرب من قناة ألفونسو الثامن، على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير وإلى جوار الجزيرة التي كانت تحمل هذا الاسم في الماضي، لكنها اختفت حالياً. (المترجم)

كثير. خلاصة القول أنها لم تشهد احتفالاً أو مهرجاناً شعبياً في إشبيلية، بل كانت تقضى الوقت في خلوتها بين الصلوات والأذكار وأمل انتظار حبيبها القادم . أضربت هذه العزلة الصارمة النيران في قلوب الشبان خالعي العذار الموجودين بالحي الذي تسكنه، كما أيقظت رغبات من رآها ولو مرة، ومن هنا اعتاد شارعها على موجات الشبان التي تطوف به نهاراً وعلى اندلاع الموسيقى في جميع أركانها ليلاً، ونظراً لاحتجابها عن الجميع ولرغبة الكثيرين في رؤيتها ظهرت مجموعة من الوسيطات اللاتي أدعين قرابتهن ومقدرتهن على التوسط في خطب ودّها، ولم يخل الأمر كذلك ممن حاول اللجوء إلى السحر والشعوذة - على ما فيهما من زيف ودجل- كي ينال مراده . وأمام كل هذا كانت "إيسابيلا" مثل صخرة راسخة في عرض البحر : تلامسها الأمواج والرياح من جميع الجوانب لكن لا تستطيع تحريكها.

بعد مضي عام ونصف من مهلة السنتين التي قطعها "ريكاريدو" على نفسه أخذ الضنى يستبد بقلب "إيسابيلا" وتعتريه التخيلات ، كانت تتخيل وصول زوجها ووقوفه أمامها فتبادره بالسؤال عن الموانع التي أخرته كل هذه المدة، وفور سماعها منه تغفر له وتعانقه كأنها تضم إلي صدرها نصف روحها الغائب، كانت هذه الأفكار والتخيلات تدور برأسها عندما تلقت من السيدة "كاتالينا" خطاباً باللغة الإنجليزية مؤرخاً من خمسين يوماً مضت . تقول كلمات الخطاب بعد ترجمتها إلى الإسبانية : "ابنتي العزيزة ومهجة قلبي.. لا شك أنك تعرفين "جيارتي" - غلام ريكاريدو- تمام المعرفة. تعلمين أيضاً - مما ذكرته لك في خطاب سابق - أن "ريكاريد" شدّ الرحال - في اليوم التالي لسفرك- إلى فرنسا بقصد مغادرتها إلى أماكن أخرى، لكن الشيء الذي لم أخبرك به- لعدم أهميته - هو اصطحاب "ريكاريدو" غلامه في تلك الرحلة . وبعد مرور ستة عشر شهراً انقطعت فيها أخبارهما، عاد إلينا أمس "جيارتي" هذا ليلقي علينا بالصاعقة التالية: لقد تمكن "أرنستو" من قتل "ريكاريدو" غيلة في إيطاليا. ولك أن تتصورى، يا بنتى، حالنا- أنا وأبيه وزوجته- بعد سماع هذا الخبر المشؤم. إننى أتوجه إليك بالكتابة عن هذه المفاجعة التي هزّت كياننا لأتوسل إليك مرة أخرى بالصلاة على روحه وطلب المغفرة له، فأنت أحقنا جميعاً بهذا العمل للحب الكبير الذي أكنّه لك الفريد .. نسألك أيضاً الدعاء بأن يلهمنا الله الصبر والسلوان

وأن يحسن خاتمنا، ونحن من جهتنا ندعوه بأن ينعم عليك وعلى والديك بالصحة وطول العمر" .

من حيثيات الخطاب وملابساته تأكدت "إيسابيللا" من صدق الخبر، فالخط هو خط السيدة "كاتالينا" والتوقيع توقيعها، ومن جهة أخرى فهي تعرف "جيارتي" جيداً وما جربت عليه كذباً قط، ومن ثمّ يستحيل اختراعه لحكاية موت سيده . وعلاوة على ما تقدم فلا توجد مصلحة للسيدة "كاتالينا" في ترويعها بخبر مزيف يمس حياة ابنها الوحيد . لقد خلصت في النهاية إلى صدق الخبر المشلوم، ولم يعتورها أدنى شك في الحقيقة المفزعة .

أكملت قراءة الخطاب دون أن تذرف دمه واحدة أو تصدر عنها لمحة ألم، وبوجه صارم ورباطة جأش ظاهرية نهضت من على أريكة كانت جالسة عليها ودخلت مصلاًها ثم جثت على ركبتيهما أمام صليب تعلوه صورة للعدراء ووهبت نفسها للدير، إذ يحق لها الانخراط في سلك الرهبنة ما دامت قد أصبحت أرملة، اجتهد والداها في مداراة مشاعرهما لموازرة ابنتهما في المحنة الكبرى التي هبطت على رأسها . كشفت "إيسابيللا" لوالديها عن نيتهما بينما كانت تتمايل من فرط تأثرها بالقرار المسيحي المقدس الذي اتخذته . نصحاها بتأجيل تنفيذه لحين فوات مهلة السنتين التي ضربها "ريكاريدو" للاجتماع بهم، وبهذا الشكل تتحقق من مصرعه وتستطيع تغيير مجرى حياتها دون تردد . قبلت مشورتهما وأمضت الأشهر الستة والنصف الباقية في العبادة والرياضة الروحية وفي إنهاء إجراءات التحاقها بدير "سانتا بولا" ، الذي وقع اختيارها عليه لوجود ابنة عمها فيه .

انتهت السنتان وحلّ اليوم الموعود الذي ذاع خبره في جميع أرجاء المدينة . في ذلك اليوم تجمع الناس من كل حذب وصوب لتكتظ بهم المسافة القصيرة التي تفصل بين بيتها والدير . ولأن والديها كانا قد استدعيا أصدقاءهما ومعارفهما فقد أحاط بإيسابيللا موكب ضخم لم تشهده المدينة في ظروف مماثلة . كان الموكب يضم - بالإضافة إلى سادة وسيدات المجتمع الإشبيلي - مندوب الدير وممثلين للكنيسة ونائب الأسقف العام ، فقد كان الجميع يتحرق شوقاً لرؤية شعاع الشمس الجميل الذي احتجب عنهم شهوراً عديدة . وبما أن العادة قد جرت على ذهاب الفتيات إلى الدير وهن في

كامل زينتهن وعليهن أفر ما لديهن من ثياب - كإحدى العلامات الفارقة بين حياة الدعة وحياة التقشف والزهد - فقد تجمّلت "إيسابيللا" قدر ما تستطيع ، ارتدت الثوب المطرز الفاخر الذى قابلت فيه ملكة انجلترا، وتحلّت بالآلئ والماسة الشهيرة والعقد والحزام النفيسين. وبهذه الزينة الفاخرة والجمال الساحر والرشاقة الآسرة (التي جعلت كل من يراها يسبح بجمال صنع الله) خرجت "إيسابيللا" من بيتها على قدميها، غير عابئة بمطية أو عربة، نظراً لقصر المسافة إلى الدير. لقد كان قرار السير على الأقدام صائباً لأن العربات لم تكن لتجد لنفسها طريقاً وسط تلك الأمواج المتلاطمة من البشر. بعض الأصوات كان يتعالى بالدعاء لوالديها، والبعض الآخر يلهج بالثناء على السماء التي سوت كل هذا الجمال وأنعمت به على صاحبتة. ومن شدة الزحام لجأ الكثيرون إلى التملطى بأعناقهم لكي يظفروا بنظرة إليها، بينما حاول البعض الجرى إلى الأمام بعد رؤيتها مرة لكي يراها ثانية. ووسط هذا التدافع المحموم بالمناكب كان هناك شخص واحد لم يلجأ إلى مزاحمة الآخرين. كان عليه رداء الأسرى المفتدين، وعلى صدره علامة التثايلث التي تومئ إلى فك أسره من صدقات المحسنين. عندما مدّت "إيسابيللا" إحدى قدميها في الدير، الذي كانت على بوابته - كما جرت العادة - الراهبات بالصلبان تتقدمهن كبيرتهن، نادى عليها هذا الأسير المفتدى بأعلى صوته:

- مكانك يا "إيسابيللا" ، قفى حيث أنت ، فما دمت حياً لا يحق لك الانخراط فى سلك الرهبنة.

التفتت "إيسابيللا" ووالداها ومن كانوا معهم إلى مصدر الصوت فوجدوا شاباً عليه ثياب الأسرى المفتدين يشقّ الجموع نحوهم. من بشرته البيضاء ووجهه الأشقر وخصلات شعره الذهبية التي تتدلى من تحت قبعته الزرقاء المستديرة أدركوا على الفور أنه أجنبى.

كان يتعثّر وينهض وهو يركض بين الزحام حتى وصل أخيراً إلى حيث تقف "إيسابيللا" فأمسك بيدها وقال :

- ألا تعرفيننى يا "إيسابيللا" ؟ انظرى إلى ، إنه أنا : "ريكاريدو" زوجك .
- نعم أعرفك، ما أنت إلا شبح يريد تعكير صفو التحاقى بالدير .

أمسكه والداها وتفحصاه بروية فتحققا عندئذ من شخصيته . جثا "ريكاريدو" على ركبته أمام "إيسابيللا" والدموع تبال مقلتيه، وتوسل إليها أن تتأمله جيداً وألا يؤثر ثوبه الغريب على تعرفها عليه . وألا يحول حظه العاثر بينها وبين الوفاء بالعهد الذى قطعاه سوياً على نفسيهما، تماسكت "إيسابيللا" ، استطاعت أن تطرد من مخيلتها فحوى خطاب السيدة "كاتالينا" بموت ابنها، وعندئذ فقط صدقت عينيها والحقيقة المائلة أمامها . لم تمالك نفسها واحتضنت الأسير وهى تقول له:

- أنت، يا سيدى، ولا أحد غيرك من بيده إلغاء قرارى، فأنت نصف روحى وزوجى الحبيب، أنت يا من صورته مطبوعة فى ذاكرتى ومحفوظة فى كيانى، إذا لم تكن الأخبار السيئة التى عرفتها من خطاب واندنكم قد أودت بحياتى وقتها فإنها جعلتنى أختار حياة الرهبنة التى كنت موشكة على الدخول فيها الآن، وبما أن الرب قد قضى بغير هذا- وقضاؤه الحق- فليس بوسعنا الاعتراض على مشيئته، تعال معى إلى بيت أبوى لأنه أيضاً بيتك، وهناك سأتحل على يدك من نذرى كما توصى بذلك عقيدتنا الكاثوليكية الغراء.

سمع الموجودون- بما فيهم نائب الدير وممثلا الكنيسة ونائب الأسقف- ما قالته "إيسابيللا"، وبعد سماعهم له أكبروه وعطّلوا المراسم وسألوها من يكون ذلك الأجنبى، وعن أى زواج تتحدث، وما هى الحكاية؟.. على جميع هذه الأسئلة رد والداها قائلاً بأن القصة تحتاج لمكان آخر ومقام غير هذا المقام، ومن ثم فقد دعا من يريدون معرفتها بتشريفه بالتوجه معه إلى بيته القريب، وهناك سيرضى فضولهم ويخبرهم بالحقيقة التى هى أغرب من الخيال، وفى أثناء ذلك علا صوت أحد الحاضرين بالآتى:

- أيها السادة: أنا أعرف هذا الشاب، إنه قرصان إنجليزى عظيم ، لقد استولى منذ عامين من القراصنة الأتراك على بارجة برتغالية كانت قادمة من العالم الجديد ، أنا أعرفه جيداً لأنه هو الذى وهبنى الحرية وأعطانى المال اللازم لرحلتى إلى إسبانيا، ولم يفعل هذا معى وحدى بل مع أكثر من ثلاثمائة أسير آخر.

أسهمت الكلمات السابقة في تفاقم حالة الهرج والمرج بين الناس، وفي إذكاء فضولهم للوقوف على حقيقة الأحداث التي تزداد تشابكاً وغموضاً ، في النهاية، رافق "إيسابيللا" في العودة إلى بيتها من كان حاضراً من سادة المدينة علاوة على مندوب الدير ونائب الأسقف وعضوين كنسيين، مخلفين وراءهم الراهبات محزونات مشوشات وباكيات، يندبن حظهن للحرمان من صحبة الجميلة "إيسابيللا"، بعد عودة الأخيرة إلى بيتها دخلت صالة فسيحة وأجلست فيها هؤلاء الضيوف، وبرغم أن "ريكاريدو" كان مستعداً لسرد حكايته بنفسه إلا إنه تراجع وفضل أن يعهد بها إلى لسان "إيسابيللا" وفطنتها ، خاصة وأنه لم يكن متمرساً بما فيه الكفاية في اللغة القشتالية.

ران الصمت على الحاضرين وتعلقت نواظرهم وأفقدتهم بلسان "إيسابيللا" التي شرعت في سرد الحكاية بأكملها، من اليوم الذي اختطفها فيه "كلوتالدو" من مدينة "قادس" حتى لقائها الأخير الذي شاهده بريكاريدو. تحدثت أيضاً عن المعركة التي خاضها "ريكاريدو" ضد الأتراك، وعن كرمه مع الأسرى الإسبان، وعن تعاودهما على الزواج ومهلة السنتين، وعن خبر موته الذي تلقته من والدته وجعلها تقرر الانخراط في سلك الرهبنة، كما أشادت في حديثها بكرم ملكة انجلترا وسخائها وحسن ضيافتها، ولم تنس إبراز مسيحية (كاثوليكية) "ريكاريدو" ووالديه. توقفت عند هذا الحد وقالت إنها ستترك لريكاريدو تكملة الحكاية بقص ما جرى له منذ مغادرته لندن حتى لحظة لقائه بهم عند باب الدير وهو يرتدى تلك الثياب التي تشير إلى افتدائه من الأسر على يد المحسنين المسيحيين.

- وهو كذلك- قال "ريكاريدو"- سأقدم لكم موجزاً مختصراً للأحداث الطويلة التي جرت لي خلال تلك الفترة:

" بعد رحيلي من لندن فراراً من الزواج الوشيك بـ "كليسترنّا" (تلك الفتاة الإسكتلندية الكاثوليكية التي اختارها أبواي زوجة لي) ومصطحباً معي جيارتي" (خادمي الذي حمل إلى والدتي في لندن نبأ مصرعي) اتجهت إلى فرنسا، ومنها إلى روما حيث ابتهجت روعي وقوى إيماني . قبلت قدمي البابا واعترفت بذنوبي وآثامي لأحد القساوسة الكبار فمحاها عني وأعطاني صكاً صادراً عن الكنيسة الأم لكل مسيحي العالم، قمت بعد ذلك

بزيارة الأماكن المقدسة العديدة بتلك المدينة الطاهرة، ومن الألفى إسكودو الذهبية التي كانت معى أعطيت ألفاً وستمئة منها لتاجر فلورنسى يدعى "روكى" بهدف تحويلها إلى إسبانيا واستلامها فيها، وقد حرر لى التاجر أمر دفع على زميل له فى إشبيلية .

عقدت العزم بعد ذلك على المجيء إلى هنا بأربعمائة الإسكودو الباقية، ولهذا الغرض شددت الرِّحَال إلى "جنوة" لأن أخباراً وصلتني تفيد بوجود سفينتين فى مينائها على وشك الإقلاع إلى إسبانيا . وصلت مع خادمي (جيارتى) إلى مدينة صغيرة تسمى "أكوابندنتى" (٧) وهى آخر محلة تابعة للبابا على الطريق من روما إلى فلورنسا. دخلت نزلاً بتلك المدينة الصغيرة فلمحت فيه عدوى اللدود "أرنستو" بصحبة أربعة من خدمه، كان متخفياً وفى ملابس مستعارة ليعطى الانطباع لكل من يراه بأنه كاثوليكي فى طريقه إلى روما، ظننت أنه لم يشاهدنى ولم يتعرف على . دخلت، ومعى الخادم، وأخذت كافة الاحتياطات حتى لا يرانى، ومع هذا نويت مغادرة الخان عندما يرخى الليل سدوله، لكننى لم أفعل لأن عدم اكتراث الكونت أو خدمه بالبحث عني جعلنى أعتقد أنهم لم يرونى ، تناولت العشاء فى حجرتى وأحكامت غلق بابها، ووضعت سيفى على مقربة منى - مفوضاً أمرى إلى الله - وفضلت البقاء مستيقظاً، نام الخادم بينما تمددت على كرسي وظللت جالساً عليه حتى غفوت . بعد انتصاف الليل بقليل جعلنى أصحو لكى أنام نوماً أبدياً صوت أربع طلاقات صوبهم نحوى - كما عرفت فيما بعد - الكونت وخدمه من مسدساتهم، عندما تيقنوا من إصابتي وموتى امتطوا جيادهم التي كانت جاهزة للرحيل، وقبل فرارهم أوصوا صاحب الخان بدفنى لأننى رجل من خيار الناس وسادتهم .

استيقظ خادمى - حسبما روى لى بعد ذلك صاحب الخان - على دوى الطلاقات وألقى من الخوف بنفسه من النافذة فسقط فى البهو وهو يصيح

(٧) "أكوابندنتى" Aquapendente : مدينة إيطالية تابعة لمحافظة روما، اسمها مأخوذ من شلالات شهيرة بالقرب منها، كان تعداد سكانها عام ١٦٥٦ يصل إلى ١٤٠١ نسمة . (المترجم)

بأعلى صوته : "يا لنكبتى ! لقد قتلوا سيدى " ، ثم جرى مغادراً المكان . لا شك أن الخوف ظل يطارده وجعله لا يتوقف ولا ينظر خلفه حتى وصل إلى لندن حاملاً إليها نبأ مصرعى . صعد الذين كانوا بالخان إلى غرفتى ووجدونى مصاباً بأربع رصاصات علاوة على شظايا لا تحصى من البارود، لكن جراحها جميعاً لم تكن مميتة . طلبت الاعتراف - مثل كل مسيحى كاثوليكي - فلبوا طلبى ثم شرعوا على الفور فى علاجى . ظلت طريح الفراش لمدة شهرين ذهبت بعدهما إلى "جنوة" فلم أجد فى مينائها سوى زورقين صغيرين فابتعت تذكرة ، وفعل مثلى إسبانيان آخران كانا هنالك، ثم ركبنا - نحن الثلاثة- فى زورقين بينما تقدمنا الآخر لاستكشاف الطريق وتأمين الرحلة . أبحرنا لا نلوى على شىء ؛ ومن أرض إلى أرض- دون أن يخطر ببالنا النزول للتسكع فى أى ميناء يصادفنا - حتى وصلنا إلى ميناء يسمى "لاس ترس مارياس" ^(٨) على الساحل الفرنسى . توقف الزورق الذى يقفنا فى عرض البحر وتقدمنا الثانى لاستكشاف الطريق . وفجأة ، خرجت من كمين سفينتان تركيتان وأطبقتا علينا: واحدة من جهة البحر والأخرى من جهة اليابسة وتمكنتا من أسرنا . حملونا إلى إحدهما وجردونا من ملابسنا وتركونا شبه عرايا، كما نهبوا ما على زورقنا من أمتعة وتركوا الزورقين بعد ذلك يصطدمان باليابسة دون محاولة إغراقهما قائلين إنهم سيتركونهما هكذا بمثابة طعم لغنيمة قادمة . فهم يطلقون مصطلح "غنيمة" على كل ما ينهبونه ويستولون عليه من المسيحيين . لن تصدقوا إن قلت لكم إن جرح الأسر كان أشد وقعاً على نفسى من جراحى السابقة، خاصة أننى فقدت معه صك روما للغفران الذى كان "محفوظاً" فى علبة من الصفيح، علاوة على إذن صرف ألف وستمائة دوكدوس ، لكنهما وقعا- لحسن الحظ- فى يد أسير إسباني

(٨) Las Tres Marias : ميناء صغير على مقربة من مرسيليا • يرى بعض النقاد أن ثريانتس نفسه قد تم أسره فى هذه المكان عام ١٥٧٥ م ، بينما يرى البعض الآخر أنه أسر بالقرب من سواحل قطلونية بإسبانيا . (المترجم)

فحفظهما لى؛ لأنهما لو وصلا إلى أيدي الأتراك لغالوا فى فديتى ولما قنعوا بأقل من المبلغ الموجود فى إذن الصرف ، حملونا إلى الجزائر فوجدت فيها ممثلين لـ "منظمة فكّ الأسرى من الصدقات" يتفاوضون بشأن إطلاق سراح عدد من آباء مذهب التثليث المقدس ، تحدثت معهم وأخبرتهم من أكون، فأخذتهم الشفقة بى وافقدونى - رغم أننى أجنبى ومن بلد لا يدين بالمسيحية (الكاثوليكية) - على هذا النحو: اتفقوا على دفع ثلاثمائة "دوكادوس" فدية لى، منها مائة مقبوضة ومئتان مؤجلة لحين عودة سفينة الصدقات التى رحلت لإحضار المزيد من الأموال لافتداء أب المنظمة الذى أنفق كل ما كان معه واستدان عليه أربعة آلاف "دوكادوس" أخرى من أجل تحرير أكبر عدد من الأسرى، ولهذا السبب تحفظوا عليه فى الجزائر لحين عودة السفينة بالمال اللازم لسداد مديونيته ، هؤلاء الآباء لا يداينهم أحد فى الشفقة والرحمة ، إنهم من أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إذ يقبلون أغلال الأسر طائعين نظير فكّ قيود الآخرين، ولأن الخيرات تأتى مجتمعة فقد سلمنى الأسير الإسباني بعد إطلاق سراحى صك الغفران وإذن الصرف . أطلعت الأب الذى افتدانى (الفكاك) عليهما ، ووعده بـ خمسمائة "دوكادوس" كمساهمة متواضعة فى مهمته النبيلة .. تأخرت سفينة الصدقات عن العودة ما يقرب من العام ، جرت لى فيه أحداث غريبة لا أستطيع سردها عليكم الآن لكثرتها ، ولذا أعدكم بالعودة إليها فى مناسبة أخرى ، سأخبركم فقط أن واحداً من الأتراك العشرين الذين أعتقتهم مع الإسبان المسيحيين قد تعرّف على هناك وشكرنى كثيراً وأسدى إلى معروفًا عندما لم يقم بكشف هويتى، لأن الأتراك لو عرفوا أننى الذى أغرقت لهم سفينتين من قبل وانتزعت من أيديهم البارجة البرتغالية لحكموا علىّ بشىء من اثنتين : الإعدام أو الترحيل إلى مقر الباب العالى فى تركيا حيث لا أستردها حريتى مطلقاً، اتجه "الأب الفكاك" بعد ذلك بسفينة الصدقات إلى إسبانيا لتوصيلى إليها بالإضافة إلى خمسين مسيحياً آخرين كان قد افتداهم من الجزائر . نزلنا فى مدينة "بلنسية" ، وبعد الطواف

بمزاراتها المقدسة رحل كل واحد منا - وعليه هذه الثياب - إلى المكان الذى يبغيه. طرت إلى إشبيلية على جناحى الشوق لرؤية زوجتى "إيسابيللا" فوصلتها اليوم فقط، ودون أن ألوى على شىء بادرت بالسؤال عن دير "سانتا بولا" للراهبات لكى أعرف منه أخبارها وعدوانها . وما حدث لى بعد ذلك تعرفونه جيداً لأنكم عايينتموه بأنفسكم ..بقى أن أعرض عليكم صك الغفران وأمر الدفع لكى تتأكدوا من صدق حكايتى المترعة بالأخطار والمعجزات " .

وفور انتهائه من الجملة الأخيرة امتدت يده إلى علبة من الصفيح كانت معه فأخرج منها الأوراق المشار إليها ثم أعطاها لمندوب الدير الذى تفحصها بمشاركة نائب الأسقف ولم يجدا فيها شيئاً يخالف ما رواه، ولتأكيد كلامه أكثر وأكثر شاءت إرادة السماء أن يكون التاجر الفلورنسى المحوّل عليه أمر الدفع حاضراً فى المجلس . طلب التاجر رؤية أمر الدفع، ولما قرأه تعرف عليه وأبدى استعداده لصرف المبلغ فوراً لأن الإخطار الذى أرسله زميله الإيطالى كان قد وصله منذ عدة أشهر، زاد الحدث الأخير المعجز من دهشة الحضور وشدة تعجبهم. طلب "ريكاريدو" من التاجر خصم الخمسمائة "الدوكادوس" التى وعد بها "الأب الفكاك" وسرعة تحويلها إليه، عانق نائب الأسقف "ريكاريدو" ووالدى "إيسابيللا" ، وردت عليه الأخيرة التحية بأحسن منها . فعل ممثلاً الكنيسة الشىء نفسه وطلبا من "إيسابيللا" تدوين تلك القصة لكى يقرأها الأسقف فوعدهما بذلك .

انفجر الصمت الذى أولاه الحضور لسماع أحداث هذه القصة العجيبة فى التهليل والتكبير والثناء على قدرة الله ومعجزاته الخارقة ، وقبل مغادرتهم المكان لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة من كلمات التهاني إلا وأتحفوا بها "ريكاريدو" و"إيسابيللا" ووالديها . لم ينس هؤلاء دعوة مندوب الدير ونائب الأسقف وممثلى الكنيسة ووجهاء المدينة الحاضرين بتشريف حفل الزفاف الذى سيعقد بعد ثمانية أيام .

وهكذا عادت إلى الوالدين قُرّة أعينهما، واستردا ثروتهما الضائعة، وحبّت السماء الجميلة الخلوقة "إيسابيللا" - رغم الخطوب والعراقيل الجمة- بزواج حسيب نسيب مثل ريكاريدو ، وما زال الاثنان ينعمان حتى يومنا هذا بالحياة سوياً تحت سقف منزلهما

القريب من "سانتا بولا" الذى اشترياه بعد ذلك من ورثة أحد نبلاء "برغش" ويدعى إرناندو دى ثيوفينتس (٩) .

ترشدنا هذه القصة إلى ما فى الجمال والفضيلة من أهمية وقدر، وكيف أنهما مجتمعين - بل كل صفة منهما على حدة - قادرة على إشاعة الحب واللئام حتى بين الأعداء الألداء.. كما تبين ما للسماء من قدرة على تحويل نكباتنا الجسام إلى خير عميم .

(٩) أشار بعض النقاد إلى أن هذا المنزل الذى خلّده "ثريانتس" بقصته الحالية كان يخص ماركيز "كاسترومونتى" Castromonte وقد عاش فيه "دون خوان دى لارا" عام ١٦٥٢ م . (المترجم)

المهامى المَزَجَّج

بينما كان ينتزعه طالبان من جامعة شلمنقة Salamanc على شاطئ نهر "تورمس" عثرا في أثناء عودتهما على غلام في الحادية عشر من العمر نائماً تحت شجرة وعليه ما يشبه ملابس المزارعين، أمرا خادمهما بإيقاظه، وعندما استيقظ سألاه عن بلده وعن سرّ نومه في ذلك المكان النائي، أخبرهما أنه لم يعد يذكر اسم بلده وأنه في الطريق إلى "شلمنقة" للبحث عن سيد يخدمه مقابل التكفل بنفقات دراسته في جامعتها، سألاه عندئذ إذا كان يعرف القراءة فأخبرهما أنه يجيدها كما يجيد الكتابة أيضاً.

- ما دام الأمر كذلك - قال أحدهما - فلا أظن أن نسيان اسم الموطن له علاقة بضعف الذاكرة.

- بغض النظر عن السبب - رد الغلام - فأنا لا أريد معرفة شيء عن موطنى ولا عن والدى حتى أحقق أملى في تشريفه وتشريفهما.

- وما هى الطريقة التى تفكر فى تشريفهم بها ؟ - سأله الطالب الثانى .

- من خلال الدراسة التى تُعلى من قدر الإنسان، وكما يقول المثل فإن عظماء القساوسة عادة ما يخرجون من تحت عباءة الرجال.

أغرتهما ردوده الواعدة بالحاقه بخدمتهما وإتاحة فرصة الدراسة له طبقاً للنظام المعمول به فى الجامعة بالنسبة لطائفة الخدم. ومن اسمه الذى أخبرهما به (توماس روداخا) ومن ملابسه استشف سيده الجديدان أنه ينتمى لأسرة من المزارعين الفقراء، وفى غضون عدة أيام أصبح يرتدى الملابس السوداء ^(١)، ولم تكد تمضى سوى أسابيع قليلة حتى ظهر ذكاء "توماس" الحاد... لم يكن يدخر وسعاً فى القيام بمهامه الخدمية بمهارة وإتقان لدرجة أنه بدا وكأنه - دون إهمال، ولو طفيف، لواجباته

(١) كان طلاب جامعة "شلمنقة" يرتدون فى ذلك العصر زيّاً خاصاً لونه أسود، وهو يشبه إلى حد كبير ملابس القساوسة . (المترجم)

الدراسية- منقطع تماماً لخدمة سيديهِ، ولأن التفانى فى الخدمة يُسعد المخدم ويبعث فى نفسه الرضا فلم يكن سيده يعاملانه كخادم بل كزميل فى الدراسة. وفى السنوات الثمانية التى قضاها معهما لدراسة القانون اشتهر بالعبقرية والذكاء الخارق وكان محط إعجاب وتقدير الذين التقوا به كافة ، سواء داخل الحرم الجامعى أو خارجه. كانت دراسته الأساسية للقانون- كما أسلفنا القول-، ومع هذا فقد برع فى الآداب والعلوم الإنسانية وامتاز بذاكرة حديدية أدهشت الجميع، ويعقل راجح ورأى سديد طبقت شهرتهما الآفاق.

عندما انتهى سيده من دراستهما عادا - بصحبة توماس- إلى مسقط رأسيهما بإحدى مدن أندلوثيا الجميلة. قضى "توماس" عدة أيام معهما، لكن شغفه بمواصلة الدراسة جعله يتعجل العودة إلى "شلمنقة" - تلك المدينة التى تسحر لبّ كل من يستمتع بحلاوة العيش تحت ظلال مبانيها الوقورة إلى جوار جامعها العريقة - ومن ثم فقد استأذن زميليه فى الرحيل . لم ينكرا عليه رغبته، وتصرفا معه بأريحية وسخاء إذ أعطياه ما يكفى لإعاشته ثلاث سنوات كاملة.

ودعهما ولسانه يلهج بعبارات الشكر والثناء ثم غادر "مالقة" (مسقط رأس سيديهِ وزميليه) ، وعند هبوطه منحدر "ثمبرا" - على الطريق المؤدى إلى "أنتقيرة" - التقى برجل مهيب الطلعة بصحبة خادمين، وثلاثتهم على ظهور الخيل ، كان الرجل يرتدى الملابس الزاهية الملونة التى يستخدمها الفرسان عادة فى السفر. انضم "توماس" إليهم عندما عرف أن وجهتهم واحدة. تعارفا، ومن الأحاديث القليلة التى دارت بينهما ظهر ذكاء "توماس" الحاد، كما بدت مروءة الفارس ودمائة خلقه. أخبره الفارس أنه قائد (نقيب) فى سلاح المشاة بجيش صاحب الجلالة وأن حامل الراية الذى يتبعه موجود بنواحي شلمنقة فى مهمة لتجميع الرجال اللازمين لتكوين فرقة من الجنود ، أشاد الفارس بحياة الجندية، ورسم له صورة حية لجمال مدينة "نا بولى" واتساع "باليرمو" وغنى "ميلان" واحتفالات "لومبارديا" الصاخبة وروعة الأطعمة التى تقدم فى الفنادق والخانات وما تمتاز به إيطاليا من أكلات شهية ونساء متحررات.. لقد رفع له إلى عنان السماء الحرية فى حياة الجندى، وتغنى بانفتاح الحياة فى إيطاليا، لكنه لم يذكر شيئاً عن قسوة البرودة خلال نوبات الحراسة، ولا عن

الخطر المائل في هجمات الأعداء أو الرعب والفرع في ساحات القتال أو الجوع تحت الحصار أو تهدم المعازل والحصون... إلى ما عدا ذلك من أعباء حياة الجندي وتبعاتها الرئيسية التي يحفظها كل من تمرس عليها عن ظهر قلب. المهم أنه روى له أشياء كثيرة وبطريقة مغرية محببة جعلته يفقد توازنه المعهود وينحاز إلى تلك الحياة المرادفة للموت.

سُرَّ النقيب- الذي اتضح أنه يدعى: دون ديجو بالديبيّا - بصحبة "توماس" وعبقريته وحسن تصرفه وحضوره الشيق، ولذا رجاه بالسفر معه إلى إيطاليا إذا كانت لديه الرغبة في رؤيتها والتعرف عليها، كما أخبره أنه في حال موافقته سيكون رفيقه في الطعام والشراب والمأوى وأنه سيتيح له - إذا لزم الأمر- الانصواء تحت الراية التي سيتسلمها فور وصوله من الملازم المكلف بها (٢) .

لم تلق الدعوة مقاومة تذكر من جانب "توماس" الذي أعمل فكره للحظات ووجد أنها فرصة طيبة لزيارة إيطاليا وفلاندس وبلدان أخرى كثيرة ، لأن الرحلات الطويلة بها العديد من المنافع مثل زيادة رصيد الخبرة لدى الرجال وتعميق معارفهم وتوسيع آفاقهم، ومن جهة أخرى فإن ثلاث أو أربع السنوات التي تتطلبها الرحلة لو أضيفت إلى سنوات عمره القصير لن تشكل عائقاً أمام عودته لاستكمال الدراسة، وكما لو كان كل شيء لا بد أن يسير على هواه أخبر النقيب بقبوله العرض عن طيب خاطر، لكن بشرط ألا يخطر في سلك الجندي حتى لا يكون ملازماً بعد ذلك باتباع رأيه وعدم تخليه عنها، حاول النقيب إقناعه بتسجيل اسمه في قائمة الجند لأنه سيتمتع حينئذ براتب شهري وهبات وبدلات أخرى، كما أفهمه أنه لن يضن عليه رغم ذلك بالأجازات التي سيطلبها أو بالانعتاق من رتبة الجندي في أي وقت يشاء.

- سيكون هذا ضد طبيعتي ولما جبلت عليه من التزام - قال له توماس- كما أنه سيكون مخالفاً لما يمليه الضمير على السيد النقيب ، ومن ثم أفضل التصرف من منطلق الحرية غير المقيدة بالتزام .

(٢) في عصر المؤلف كانت الطريقة المتبعة في تجنيد الرجال كالآتي: يقوم الضابط المكلف بحمل الراية [alferez]، والكلمة من أصل عربي كما نرى] بالطواف بها بصحبة مجموعة من المنادين على العديد من الأماكن. وبعد انتهائه من الطواف يقوم بتثبيت الراية أمام بوابة مركز التجنيد (عادة ما يكون أحد البيوت الشاغرة) لكي يعرفه ويتجه إليه بعد ذلك الراغبون في التطوع . (المترجم)

- لا شك أنك تقدر المسؤولية حق قدرها وأنتك صاحب ضمير حي- قال له دون ديجو- يتناسب مع رجل دين لامع جندى فى الجيش، ومع هذا فمهما كان الوضع الذى تختاره ثق تماماً بأننا سنكون زملاء فى الحلّ والترحال وأصدقاء على الدوام .

أمضوا تلك الليلة فى "أنفقيرة" ، وبعد عدة أيام من السير وصلوا إلى مكان الفرقة المَجْمعة حديثاً. اتجهت الفرقة- التى انضمت إليها بعد ذلك أربع فرق أخرى- صوب ميناء قرطاجنة، وكانوا جميعاً يستريحون فى الخانات والقرى التى تصادفهم على الطريق، لاحظ "توماس" أثناء الرحلة إلى قرطاجنة أشياء كثيرة كانت خافية عليه، ومنهما: السلطة الغاشمة التى يتمتع بها رؤساء إدارات التموين والإمداد ، سطوة وعبت بعض القادة، إذعان واستسلام أصحاب الخانات والنزل، دهاء ومكر المكلفين بصرف أرزاق الجند، كيفية دفع البديل للتخلص من التجنيد، سفاهة وسفالة العساكر المستجدين والمشادات المستمرة بينهم أثناء الاستراحات المتكررة، والإسراف فى طلب الأعراف للدواب، وباختصار شديد: كيف يفعل الجند كل ما يحلو لهم على حساب الأهالى ودون مراعاة لمشاعرهم (٣) .

كان "توماس" قد خلع زى الطلبة وارتنى الملابس الزاهية الملونة، إشارة إلى اختياره المضى قدماً فى طريق يسوع (كما يقولون) .. ولم يأخذ من الكتب الكثيرة التى كانت بحوزته سوى كتابين ("ساعات فى حضرة العذراء" و "مع جاريلاسو") احتفظ بهما فى رحلته .. وصلوا بأسرع مما كانوا يريدون إلى قرطاجنة، هذا لأن الاستراحات على الطريق كانت حافلة بشتى ألوان المتع والأطعمة، وللطرائف والمستجدات اليومية .

ومن ميناء قرطاجنة استقلوا أربع سفن إيطالية، وفى عرض البحر تعرف "توماس" روداخا" أيضاً على الحياة الغريبة فى تلك الدور البحرية التى ينقضى الوقت فيها ما بين الصراع مع الحشرات (من بقّ وقمل وبراغيث ... إلخ) وقتل الفئران وسخط البحارة وسبابهم والتعب من دوار البحر والذعر من الموجات العالية. أخافت "توماس"

(٣) يشير المؤلف إلى ما كانت تفعله قوات الجيش حينذاك عند مرورها بالقرى والخانات على الطرق، وإلى اعتداء الجنود وبعض قادتهم على الأهالى واستيلائهم علوة على ما يملكون. (المترجم)

الرعود والعواصف لاسيما فى خليج "ليون" الذى هاجمتهم فيه عاصفتان: ألقت بهم الأولى إلى شواطئ جزيرة "كورسيكا" ، بينما أعادتهم الثانية إلى " تولون " الفرنسية . وأخيراً - وهم بلا نوم، مبتلون وعيونهم متقرحة - وصلوا إلى مدينة "جنوة" الجميلة حيث ألقوا مراسيهم فى مينائها الصغير . وبعد زيارة قصيرة لإحدى كنائسها، يَمُّمُ القائد- بصحبة زملائه- شطر أحد الفنادق حيث حاولوا نسيان العواصف والرعود وإلقاء مآسى البحر وراء ظهورهم بالانخراط فى بهجة الحفل الكبير الذى أقاموه .

وهناك تذوق "توماس" أنواعاً لا تحصى من النبيذ مثل : "التريبانو" و"الأسبيرينو" و"كانديا" و"سوما" و"جوارنتشا" و"شينتولا" و"الرومانيسكو" و"مادريجال" و"توكا" و"ألا إيخوس" و"إمبريال" و"أسكيبياس" و"ألانيس" و"كاثيا" و"وادي القنال" و"ميمبريا" و"ريبادابيا" و"ديسكرجا ماريا" ، ووجد جميع الأنواع التى خطرت بباله وكأنه فى حانة إله الخمر"باكو" .

أعجب توماس كذلك بالجدائل الشقراء لنساء "جنوة" ويظرف وملاحة رجالها، وبجمال المدينة المطعمة صخورها العالية بالبيوت مثلما يرصع الذهب بالماس . وفى اليوم التالى استقلت الفرق جميعها السفن المتجهة إلى "بيامونتي" ، لكن توماس لم يشأ مرافقتهم واتفق مع "دون ديبجو" على اتخاذ طريق مغاير لزيارة روما ونابولي وفينسيا ولوريتو وميلان واللاحق بهم بعد ذلك فى "بيامونتي" .

ودع توماس صديقه النقيب، وبعد خمسة أيام كان فى "فلورنسا" التى مرّ قبلها على "لوكا" ، وهى مدينة صغيرة تنعم بالحسن والبهاء وتمتاز عن سائر بقاع إيطاليا بحب سكانها للإسبان . بهرته "فلورنسا" بنظافتها ومبانيها الفخمة ونهرها الرقراق المنعش وشوارعها الغناء، ظل فيها أربعة أيام ثم غادرها إلى روما، زهرة المدائن التى زار معابدها وتبرّك بأضرحة أوليائها وقديسيها وافتتن بجمالها ، تعرف على عظمة روما ومجدها التليد من رخامها العتيق، والتماثيل وأنصافها، ومن أقواسها التى أناخ عليها الزمان ، وعيون الماء الحار المتهدمة، وأروقعتها المدهشة ومسارحها الضخمة المدرجة ، ونهرها المقدس الشهير بمياهه الفيّاضة المباركة الممزوجة برفات القديسين والشهداء، وقناطرها العديدة التى تبدو كل واحدة منها وكأنها تنظر إلى الأخريات،

وشوارعها التي تتسيد بمسمياتها فقط ما عداها من شوارع العالم أجمع: طريق "أبيا"، شارع "فلامينيا"، شارع "خوليا"... إلى غيرها من الشوارع الكثيرة. انتابه إعجاب مماثل بتقسيم المدينة وتوزيع مساكنها على جبالها السبعة^(٤): "الثيليو"، و"الكيرينال"، و"الفاتيكان"، بالإضافة إلى الجبال الأخرى التي تشير أسماؤها إلى الأمجاد الرومانية القديمة، لاحظ أيضاً ما تتمتع به "مدرسة الكاردينالات" من نفوذ وسلطة، وما يتمتع به المقر البابوي من مهابة وجلال، وأدهشه اكتظاظ الشوارع بالأجناس البشرية المتعددة، شاهد هذا كله ووعته ذاكرته. وبعد طوافه بمنطقة الكنائس السبعة^(٥) واعترافه وتقيله لقدمي قداسة البابا عزم على الرحيل إلى نابولي. ولما كانت تلك الفترة من السنة مما يتطير فيها بدخول روما أو مغادرتها عن طريق البر قرر ركوب البحر إلى نابولي، ويوصله إليها أضاف إلى إعجابه السابق إعجاباً آخر برؤية المدينة التي بدت له - ولكل من شاهدها - كأجمل مدينة في أوروبا، بل وفي العالم بأسره.

ومن نابولي شد الرحال إلى جزيرة صقلية حيث زار "باليرمو" و"ميسينا": أعجبه في الأولى موقعها وجمالها، وفي الثانية ميناؤها، وفي الجزيرة ككل وفرة خيراتها وغزارة إنتاجها، ولهذا السبب فإنهم يطلقون عليها "مخزن غلال إيطاليا". عاد إلى نابولي ثانية، ومنها إلى روما، ومن الأخيرة اتجه إلى "نويسترا سنيورا دي لوريتو" التي لم يشاهد في كنيسها جدراناً ولا حوائط لأنها كانت مغطاة بالعكاكيز والأكفان والسلاسل والقيود والشعور وكميات ضخمة من الشموع، فضلاً عن اللوحات والصور، وأصناف شتى من القرايين التي قدمها جمهور غفير من المريدين، اعترافاً منهم بعظم الفضائل التي من بها الرب عليهم نتيجة لوساطة وشفاعة الأم الربانية بمساندة وتأييد صاحبة المقام. كما شاهد ضريح القديسة التي تلهج الألسن بالثناء عليها وتذكر نعمائها التي حارت في فهمها السماوات والأرضون، كما حار في تفسيرها الأحياء والأموات.

(٤) جبال روما السبعة - دون عدّ الفاتيكان - هي: كابيتولينو، وبالاتينو، وفيليو، وبيمينال، وكيرينال، وأبينتينو، وإسكيلينو. (المترجم)

(٥) الكنائس السبع المقصودة هي: سان بدرو، وسان بابلو، وسان لورنثو، وسان خوان دي ليتران، وسان سبستيان، وسانتا ماريا لا مايور، وسانتا كروث. (المترجم)

ذهب بعد ذلك إلى "فينيسيا" التي لو لم يولد فيها "كريستوبال كولون" (كولمبس) لما عرف العالم لها شبيهاً : فبفضل الله ثم "إرنان كورتيس" - مكتشف المكسيك - وجدت على ظهر اليابسة مدينة أخرى ينتقل السكان في شوارعها وممراتها المائية على متون المراكب واللشآت، ولذا يقال إن "فينيسيا" أوروبا هي أيقونة العالم القديم و"فينيسيا" أمريكا هي لؤلؤة العالم الجديد . أعجبه في المدينة العائمة غناها الواسع، وخيراتها الوفيرة، وموقعها الفريد، وحنكة حكومتها وشهرة ترسانتها التي تصنع أعداداً هائلة من السفن والبواخر والزوارق .

كادت وسائل الترفيه العديدة والمتعة اللا محدودة في المدينة العائمة تنسيه مهمته الأساسية ، وبعد أن أمضى فيها وفي "فيرارا" و"بارما" و"بلاسنيا" شهراً كاملاً عاد إلى "ميلان" - مركز صناعة السلاح وعدرة فرنسا اللدود - التي أعجبه كل شيء فيها لاسيما كاتدرائيتها الرائعة واشتمالها على كل ما يحتاجه الإنسان من سلع وخدمات، ومن ميلان رجع إلى "أستي" ليلحق بكتائب الجيش قبل رحيلها إلى "فلانديس" بيوم واحد .

استقبله صديقه النقيب بحفاوة بالغة، وفي معيته انطلق مع الكتائب العسكرية إلى "فلانديس" ليرى في الطريق "أمبيريس" - التي لا تقل جمالاً وروعة عن المدن الإيطالية - ثم "جانتي" و"بروكسل" ، واسترعى انتباهه استعداد كافة أنحاء البلاد للمشاركة في حملة الصيف القادم .

بعد أن حقق "توماس" أمله في زيارة الأماكن التي كان يحلم بها قرر العودة إلى إسبانيا لاستكمال الدراسة في شلمنقة . لبى صديقه النقيب رغبته ورجاه - عند وداعه - بالكتابة إليه مطمئناً إياه على أحواله وسلامة وصوله . وعده بذلك ، وعن طريق فرنسا عاد إلى إسبانيا دون أن يتمكن من رؤية باريس لاستعدادها للحرب آنذاك (٦) . المهم أنه وصل أخيراً إلى شلمنقة حيث رحّب به أصدقائه القدامى وهياًوا

(٦) يرى "ألونسو كورتيس" أن العبارة المذكورة تشير إلى عام ١٥٦٧م الذي تمردت فيه البلاد الواطئة على الهيمنة الفرنسية ، وأن فرنسا كانت - لهذا السبب - تستعد للحرب؛ ومن جهة أخرى فقد شهدت باريس خلال سبتمبر من العام المذكور قلاقل وأحداث شغب قام بها أنبأع "كالفيوس" . ويذهب الناقد إلى أبعد من ذلك حينما يقرر أن ثريانتس نفسه هو الذي كان عائداً إلى وطنه في التاريخ المذكور بعد رحلة قام بها إلى كل من إيطاليا و"فلانديس" . (المترجم)

له الجو المناسب لاستكمال الدراسة والحصول على الإجازة العالية (الليسانس) فى القانون .

فى تلك الآونة كانت قد استقرت بمدينة شلمنقة إحدى السيدات المتحركات . ومثلما تتداعى دواهى الطير على الحمامة الأليفة التى يستخدمها الصياد كطعم، لم يبق طالب واحد فى المدينة إلا وقع فى شرك تلك السيدة المصونة . أخبروا "توماس" بادعائها زيارة إيطاليا و"فلاندى" وطلبوا منه مرافقتهم إلى بيتها للوقوف على حقيقة ما تدعيه . رفض "توماس" الإذعان لطلبهم، لكنهم ألحوا فى الطلب وساقوه سوفاً إلى حيث تسكن . حين رآته السيدة فتننت بحديثه وأحبته حباً جمّاً ، ولم تجد حرجاً فى البوح له عن مشاعرها ، بل إنها عرضت عليه كل ما تملك من ثروة مقابل تحقيق ما تصبو إليه . ولما كان "توماس" متيماً فقط بكتبه ودراساته ولا يحفل بالتسلية أو العبث فلم يعرها أدنى اهتمام مما أطار صواب المرأة وجعلها تشعر بوخز الإهانة، ومن ثم فقد عمدت إلى الاستعانة بالوسائل التى بدت لها فعالة وكافية للظفر ببغيتها ما دامت قد أخفقت بالطرق المألوفة فى إلانة إرادته الصخرية . وهكذا - وبناءً على نصيحة امرأة مورييسكية - أودعت خلطة سحرية فى إحدى ثمار السفرجل الطليلى ، معتقدة أنها بذلك ستخضع إرادته لمشاعرها المتأججة، وبالطبع فإن هذه الأعمال مجافية للصواب لأن التجارب العديدة أثبتت أن سحر العالم كله وأعشابه وطلاسمه لا تقوى على إخضاع الإرادة الحرة أو تعديل المشيئة الإلهية، وعلى هذا فإن من يقدم مثل هذه المأكولات والمشروبات الممزوجة بالسحر والشعوذة على أنها عقاقير الهوى وترياق المحبة إنما يقدم سمّاً زعافاً لكل من يتناولها .

بمجرد أن أكل "توماس" السفرجل المسحور شرع فى خدش يديه ورجليه كما لو كان مريضاً بالصرع ثم دخل فى إغماء طويلة استمرت عدة ساعات ، وعندما أفاق منها تحدث بلسان متلعثم ثقيل - وأمارات الجنون بادية على وجهه - عن السفرجل الذى تناوله من يد تلك السيدة، بحثت العدالة عن الجانية ولم تعثر لها على أثر، ذلك لأن المرأة كانت قد لاذت بالفرار فور رؤيتها للنتيجة فعلتها الشنعاء .

ظل "توماس" طريح الفراش ستة أشهر كاملة هزل فيها وجفَّ عوده حتى أصبح - كما يقال - جلدًا على عظم، وفوق هذا مشوش الحواس . وبرغم أنهم لجأوا إلى

كافة الوسائل العلاجية فلم يتمكنوا إلا من شفائه من العلال الجسمانية دون العقلية التي برّحت به وبلغت مداها .كان التعيس يتصور أن جسده كله من الزجاج ، وسيطرت عليه تلك الفكرة لدرجة أنه كان كلما اقترب منه أحد يصيح فيه متوسلاً بالابتعاد حتى لا يتهشم ، لأنه - كما يدبرى موضحاً- ليس مثل بقية خلق الله بل من الزجاج الهش القابل للكسر .

ولإخراجه من هذا التصور العجيب الشاذ كان الكثيرون- فى محاولة منهم لإثبات عكس ما يتوهمه- لا يعيرون توسلاته اهتماماً ويقتربون منه محتضنين إيّاه بكل ما أوتوا من قوة ، كان المسكين هو المتضرر الوحيد من هذا المشهد إذ كان يتمرغ بعده على الأرض ولا يكف عن الصراخ ثم يدخل فى إغماءة لا تقل عن أربع ساعات ، وعندما يفيق منها تتجدد توسلاته ونداءاته وكأن شيئاً لم يكن ، كان يطلب منهم مخاطبته من بعيد وسؤاله كافة ما يعنّ لهم من أمورٍ لأن طبيعته الزجاجية كفيفة بتقديم الإجابات الشافية : فالزجاج مادة شفافة رقيقة وعمل الذهن فيها يكون أكثر دقة وفعالية وسرعة من العمل فى الجسد الترابى المعتم .

حاول البعض اختبار ما يدعيه وأمطروه بوابل من الأسئلة الصعبة فأجابهم على الفور بإجابات تنم عن عبقرية حادة وفهم عميق . أثار هذا غير قليل من الدهشة بين رجالات الأدب وبين أساتذة الطب والفلسفة فى الجامعة ، وطفق الجميع يضربون كفأ بكف من شدة العجب : إذ كيف يمكن لشخص ، ضالع فى الجنون ، الإجابة بدقة وذكاء على أى سؤال يطرح عليه ؟!

طلب منهم أن يعطوه كيساً واسعاً لارتدائه لأن الملابس الضيقة ستسبب فى تحطيمه . استجابوا له وأعطوه عباءة حائلة اللون وقميصاً فضفاضاً قام بارتدائهما فى حيطة وحذر بالغين ثم أحاطهما بزناز من القطن . لم يستجب لاقتراحات وضع حذاء من أى نوع فى قدميه ، ولإطعامه ، طلب أن يقدموا له الفواكه التى يجود بها الموسم على طرف آنية مسطحة . لم يكن يتناول اللحوم أو الأسماك ، ولا يشرب الماء إلا بكفيه ومن عين جارية أو من النهر ، وعندما كان يمشى فى الشوارع يلزم السير فى وسطها متطلعاً إلى الأسقف خوفاً من سقوط شئ عليه . وفى الصيف ينام فى العراء تحت سماء مكشوفة ، وفى الشتاء يأوى إلى مخزن قش بأحد الخانات ويغوص حتى عنقه

فى القشّ مدعىً أن هذا هو السرير الأمثل لمن هم على شاكلته من الرجال المزججين .
عندما كانت تبرق أو ترعد كانت تتملكه قشعريرة مثل التى تتملك العاملين بمناجم
الزئبق ويهرول خارجاً من العمران ولا يعود لأية بقعة سكنية إلا بعد فوات
العاصفة .

عمدَّ أصدقاؤه إلى الإبقاء عليه حبساً لأطول فترة ممكنة ، ولما وجدوا أن انتكاسته
لا يبرء منها نزلوا على رغبته وأطلقوا سراحه فانطلق يجوب شوارع المدينة مسبباً
الأسى والأسف فى نفوس من يعرفونه .

كان الصبيان يلتفون حوله ، لكنه كان يبعدهم عنه بعضاً رفيعة فى يده متوسلاً
إليهم بمخاطبته من بعيد لأنه من الزجاج الهش القابل للكسر . لم يكن الصبيان -
التواقون إلى العبث والدعابة - يحفلون بنداياته المتكررة ، بل يندفعون بحماس لاختبار
صدق ما يدعيه وذلك بإلقاء المخلفات عليه ، فضلاً عن الرشق بالحجارة . كان يصرخ
فيهم ويتوجع بحرقة ومرارة يرقّ لهما من يصادفه من الرجال فيقوم بنهر الصبيان
وتفريقهم .

وفى يوم من الأيام التى طارده فيها الصبية بإلحاح التفت إليهم قائلاً :

- ماذا دهاكم ، أيها الملاعين ، المتسخون كالبق ، المتجاسرون كالبراغيث ؟
أتظنوننى جبل " تيستاتشو " (٧) بروما لكى ترمونى بكل ما تصل إليه أيديكم
من طوب وقرميد !

ولأنه كان لا يكف عن الشجار ويحبب فى الوقت نفسه على ما يوجه إليه من أسئلة
فقد تبعه الكثيرون ، وفصل الصبيان - فى النهاية - سماعه على رشقه بالحجارة . وعند
مروره ذات يوم بسوق الملابس الجاهزة بالمدينة قالت له إحدى البائعات :

- مصيبتك تحزّ فى نفسى وتوجعنى فى الصميم ، لكن ، ماذا أفعل وليس فى
مأقى دموع أبكيك بها ؟

(٧) " تيستاتشو " Testacho : جبل من الجبال الصناعية الخمسة بروما ، وهو مكون من مخلفات القرميد والآجر
والخرقة . (المترجم)

التفت إليها، وبصوت وقور قال لها:

- "لاداعى للبقاء علىّ، يانساء أورشليم، بل اذرفن الدمع مدراراً على أنفسكن وعلى أولادكن" (٨) .

كان زوج البائعة حاضراً فلم يتمالك نفسه بعد فهمه للسخرية وسلقه بلسانه الحاد قائلاً:

- ما أنت إلا وغد، أيها المزجج، وأغلب الظن أن ما بك من ضعة ولؤم يفوق ما تختزنه من جنون .

- كل ما ذكرته يهون ما لم تخالطه الحماسة - رد عليه المزجج .

وعندما مرّ على دار للبغاء ووجد ساكنيها واقفين على الباب قال إنهم أعوان إبليس ويقيمون في نزل من منازل الجحيم .

سأله أحد الأشخاص عن النصيحة أو العزاء الذي يمكن تقديمه لصديق استبد به الحزن لأن زوجته تركته وهربت مع آخر، فأوصاه بالتالي:

- على صديقك التوجه إلى الخالق بالشكر لأنه منّ عليه بترحيلها من بيته إلى دار عدوه .

- ألا يجدّ في البحث عنها؟ - سأله الرجل .

- مطلقاً، لأنه لو عثر عليها ستكون بمثابة الدليل الحيّ والدائم على فقدانه للشرف .

- إذا كان الأمر كذلك، فبماذا تنصحنى لأعيش في سلام مع زوجتي؟

- لا ترفض لها طلباً، واجعلها الآمرة الناهية في بيتك، ولا تتذمر بعد ذلك إن امتدت أوامرها إليك .

وذات مرة قال له صبي:

- سيدي المحامي المزجج، طفح بي الكيل وأرغب في الفرار من قبضة أبي لأنه لا يكف عن ضربي بالسوط .

(٨) العبارة (المدونة في النص الأصلي باللاتينية) وردت على لسان السيد المسيح (إنجيل لوقا 28, XXIII)، وهي للتعريض بسلامة نسب أولاد النسوة اللاتي تبعنه مولولات عليه . (المترجم)

فرد عليه قائلاً:

- اعلم، أيها الصبى، أن سياط الآباء تزين وأن سياط الجلاّد تُشين.

وعندما كان على باب إحدى الكنائس وشاهد فلاحاً من هؤلاء الذين يتباهون بأصولهم المسيحية العريقة يستعد للدخول ومن خلفه رجل من أصل يهودى مشكوك فى صدق اعتناقه للمسيحية، نادى على الفلاح بصوت جهورى:

- انتظر أيها الأحد حتى يمر السبت أولاً^(٩).

كان يقول عن المعلمين فى المدارس إنهم محظوظون لأنهم يتعاملون دائماً مع ملائكة، وأن نصيبهم من الحظ كان سيزيد بالتأكيد لو لم يكونوا يتعاملون مع تلاميذ أقذار تلمع أنوفهم بالمخاط السائل منها. وعندما سأله آخر عن رأيه فى القوادات قال إن البعيدات منهن لسن كذلك لأنهن لا يشكلن خطراً، لكن الخوف كله من القريبات لأنهن بمثابة التهديد المباشر.

سرت أنباء جنونه وإجاباته المدهشة وأقواله المأثورة فى سائر أنحاء قشتالة، ولما وصلت إلى أسماع أحد الأمراء أو السادة المقيمين فى العاصمة أراد إحضاره وكلف بهذه المهمة واحداً من أصدقائه المقيمين فى مدينة شملنقة، عندما عثر عليه هذا الرجل قال له:

- ثمة شخصية عظيمة فى العاصمة تود رؤيتك وقد كلفتنى بمهمة حملك إليها.

أجابه المزجج، حامل الإجازة العالية فى القانون، بقوله:

- أرجو أن تطلب لى المعذرة من هذا السيد لأن حياة القصور لا تناسبنى، كما أننى خجول ولا أعرف المداينة.

ورغم هذا استطاع الرجل حملَه إلى العاصمة مستخدماً الوسيلة التالية: جعلهم يضعونه فى سلة كبيرة من سلال نقل الزجاج المملوءة بالقش، ووضعوا فى الجهة

(٩) لكل من كلمتى "السبت" و "الأحد" فى العبارة معنيان: أحدهما قريب، ويقصد به اليوم المعروف بهذا الاسم من الأسبوع، والآخر بعيد وهو المراد، إذ يقصد بالسبت يهودية الرجل وتظاهره باعتناق المسيحية، بينما يقصد بالأحد صدق مسيحية الفلاح. (المترجم)

المقابلة للحمولة - كُثِّلَ مضاد- بعض الحجارة، كما وضعوا بجانبه عدداً من الأواني الزجاجية لإيهامه بسلامة النقل وبأنهم يعاملونه مثلها، وصلوا به " بلد الوليد" (١٠) ليلاً، وفي قصر ذلك السيد- الذى أمر بإحضاره- أنزلوا السلّة برفق . استقبله صاحب القصر بحفاوة بالغة وقال له:

- حلت أهلاً ونزلت سهلاً ، يا حامل الإجازة العالية المزجج ، كيف كانت الرحلة ؟ وما أخبار صحتك ؟

رد عليه المزجج قائلاً :

- لا يوجد طريق واحد سيئ ما دام لا يُفضى إلى المشقة . أما عن الصحة فهى بين بين .

وعندما شاهد فى اليوم التالى أعداداً غفيرة من الصقور والبُزاة والطيور الأخرى المدرية على الصيد جائئة فوق عصيها قال إن صيد طيور الأعالي يليق بالأمراء والسادة العظماء ، لكن بشرط ألا تقل حصيلة الواحد منهم عن ألفين فى اليوم ، وعن صيد الأرناب البرية قال إنه يبعث السرور والغبطة لاسيما إذا كان بـكـلاب مستعارة من الغير .

أعجب صاحب القصر بجنونه وجعله يخرج إلى شوارع العاصمة بعد أن كلف رجلاً برعايته وحمايته من الصبية العابثين، وفى ستة أيام ذاع صيته فى المدينة وتبعه الكثيرون الذين كانوا يلاحقونه بالأسئلة مع كل خطوة يخطوها ، وعلى سبيل المثال فقد سأله طالب عما إذا كان شاعراً لأن عبقريته المتوهجة توحى بذلك . أجاب المزجج قائلاً:

- إلى الآن لم تتملكنى حماقة المفرطة ولم يحالفنى الحظ السعيد .

- لا أفهم ما تقصده - رد الطالب .

- أقصد أننى لست فى غاية الحمق لأكون من أدعياء الشعر، ولا سعيد الحظ لأكون شاعراً حقيقياً .

سأله الطالب عما يحترمه ويقدره فى الشعراء فقال إن احترامه موجه فقط إلى فنّ القريض لا إلى الشعراء . وعندما سأله لماذا؟ أجاب قائلاً: إن هناك عدداً لا يحصى

(١٠) كانت مدينة " بلد الوليد" عاصمة إسبانيا فى الفترة من ١٦٠١م إلى ١٦١٦ . (المترجم)

من أدعياء الشعر بينما لا يتجاوز الشعراء الحقيقيون أصابع اليد الواحدة، ومن ثمّ فلا تقدير لمن لا وجود له ، لكنه يحترم- فى المقابل - فن الشعر لاشتماله على كافة العلوم والمعارف الأخرى؛ فهو يمتص رحيقها ويتزين بها ويستخلص عصارتها المدهشة ثم يقدمها للعالم ليضفى عليه المتعة والبهاء والازدهار . ثم أضاف قائلاً :

- أنا أدرك جيداً ما يجب تقديره فى الشاعر الحقيقي الموهوب لأن ذاكرتى مازالت تعي هذه الأبيات الرائعة التى تغنى بها "أوفيد" :

الشعراء فى الأزمنة الغابرة
كانوا بهجة الآلهة والأباطرة،
وكانت القصائد القديمة
تستحق الأعطيات الثمينة.
كان الشعراء حينذاك
أهلاً للتوقير والإعجاب
ولما ينهمر عليهم من ثروات.

وإن نسيت فلن أنسى المكانة المرموقة التى كان يحتلها الشعراء الذين لقبهم أفلاطون بألسنة الآلهة، وقال عنهم "أوفيد" :

الإله يتقمصنا، وبإشرافاته نجيش صدورنا،
لهذا يطلقون علينا:

العرفاء المصطفين من الآلهة (١١)

هذا ما يُقال عن الشعراء الخُلص، أما عن الأدعياء المزيفين فماذا يمكن أن يُقال سوى أنهم يمثلون بلاهة العالم وعجرفته!
ثم تابع حديثه قائلاً:

- حين ترى واحداً من هؤلاء الأدعياء تعرفه للوهلة الأولى من سلوكياته . فهو عندما يريد إلقاء "سونيت" (قصيدة) على من حوله يقول لهم:

"سألقى على مسامعكم بقصيدة كتبتها ليلاً فى ساعة إلهام، وهى وإن كانت لا تساوى خردلة إلا إنها لا تخلو من لمحات جمالية" . وبعد ذلك يمتطئ

(١١) جميع أبيات "أوفيد" الشعرية مدونة فى النص الأصلي باللغة اللاتينية. (المترجم)

شفتيه، يقوَّس حاجبيه ويفتش في جيبه، ومن بين آلاف الأوراق المتسخة ونصف الممزقة يستخرج ما يسميه قصيدة ويشرع في إلقائه بنغمة رقيقة معسولة ، وإذا لم ينبز أحد السامعين - جهلاً أو سخرية - بالثناء عليه فور انتهائه يقول: "إما أنكم لم تفهموا القصيدة وإما أنني لم أحسن إلقاءها، ولذا يتعين إعادتها عليكم مع مطالبتكم بالمزيد من التركيز والانتباه لأن القصيدة تستحقها بالفعل". وعندئذ يعود لقراءتها بحركات وإيماءات جديدة . فما الذى يمكن قوله إذن عن نباح الجراء حديثة العهد بالولادة على كلاب الحراسة الضخمة العتيقة ؟ وماذا يمكن أن يقال عن الذين يثيرون الأقاويل والافتراءات على الأصلاء الممتازين ممن تتوافر فيهم موهبة الشعر ، وعندما يلجأون إليها للاسترواح من عناء أعبائهم الجسام يميطنون اللثام عن خصوصية قريحتهم وعلو كعبهم رغم أنف الجاهل المتربص الذى يهرف بما لا يعرف ويبغض ما لا يفهم ، ورغم أنف الطامع فى التوقير والتقدير مقابل حماقة القابضة بين طيات ملابسه والجهل الملاصق لمقعده ؟

سأله الطالب مرة أخرى عن السبب فى فقر وعوز معظم الشعراء، فقال إن باستطاعتهم أن يكونوا أغنى الأغنياء لو أرادوا، وذلك باستغلال ما يمتلكونه من بنات أفكار وملكات (شعرية) رائعات الجمال: فجداول ملكاتهن من الذهب وجباههن من الفضة المصقولة، عيونهن من الزمرد الأخضر وأسنانهن من العاج ، شفاههن من الياقوت ورقابهن من الزجاج اللامع الشفاف ودموعهن من اللؤلؤ المذاب، أنفاسهن مسك وعنبر ، والأرض التى تطوها أقدامهن تنبت - مهما كان جذبها وشدة صلابتها - الورود والياسمين . أليس هذا كله بمثابة معين لا ينضب للجاه العريض والثروات الممتدة ؟ ! .. بمثل هذه الأشياء وغيرها كان يتحدث عن الشعراء ويمتدح الحقيقيين منهم رافعاً إياهم إلى عنان السماء .

وعندما شاهد على رصيف "سان فرانسيسكو" عدداً من اللوحات التى لم ترقه قال إن الرسامين الموهوبين يحاكون الطبيعة بينما يتقيؤها المزيّفون .

مرّ ذات يوم على إحدى المكتبات فاقترّب منها بحذر بالغ - خوفاً من سقوط كتاب عليه - وقال لصاحبها:

- يعجبني هذا العمل كثيراً لو لم يكن ينطوى على عيب خطير.

سأله البائع عن العيب فقال له:

- تنزلون لشراء حقوق نشر الكتاب وتسخرون بعد ذلك من مؤلّفه - لاسيما إذا كانت نفقات الطبع على حسابه - لأنكم بدلاً من طباعة ألف وخمسمائة نسخة المتفق عليها تطبعون ثلاثة آلاف، وهكذا تغررون بصاحبه الذي يعتقد أن نسخه هي التي تباع في حين أن المباعية هي نسخ الغير .

وفي اليوم نفسه تصادف أن مرّ بالميدان العام سة من مرتكبي الجرائم وعلى ظهورهم أثار السياط، وعندما قال المنادي المصاحب لهم: "تم جلد الأول لأنه لص" صاح المزجج فيمن كانوا أمامه:

- ابتعدوا، أيها الرفاق، حتى لا يكمل العدّ بواحد منكم .

وعندما أشار المنادي إلى عجز آخر قال المزجج:

- لا بد أن هذا هو كفيل الصبيان المشردين .

أخبره فتى أنهم سيحضرون غداً "قوادة" لجلدها في الساحة العامة فقال له:

- لو أنك غيرت نوع الكلمة من المؤنث إلى المذكر لأفادت بجلد ممثل مسرحي (١٢) .

قابله هناك واحد من حاملي المحفّات فسأله:

- ألا يوجد لديك ما تقوله عنا، أيها الحقوقي المزجج؟

- شيء واحد فقط وهو أن الواحد منكم يعرف من الآثام والذنوب أكثر مما يعرفه متلقى الاعترافات بالكنيسة، بيد أن الفارق بينكم وبينه يكمن في أن

(١٢) الكلمة الإسبانية alcahueta (مفردة مؤنثة) معناها: قوادة، لكن المفرد المذكور منها alcahuete يتضمن العديد من المدلولات: قوادة، ونمّام، وسفارة ترخى في المسارح بين الفصول ... إلخ، وقد استخدم المؤلف المدلول الأخير للكلمة (في حالة التذكير) استخداماً مجازياً . (المترجم)

متلقى الاعترافات لا يبوح بها بينما تقومون بنشرها بين الخلائق في الحانات.

عندما سمع هذا منه سائسِ بغال (إذ كان يتبعه بصفة مستمرة خليط من البشر) قال له :

- لن تجد شيئاً تقوله عنا، أيها السيد الماكر، لأننا من الأخيار النافعين للجمهورية.

رد عليه المزجج قائلاً:

- شرف السيد ينم عن شرف الخادم، وانطلاقاً من هذه القاعدة أستطيع القول: انظر إلى من تخدم وسترى مقدار ما أنت عليه من شرف . إنكم أخط من يسير على ظهر البسيطة من أوغاد . ذات مرة- قبل أن أصبح من الزجاج - ركبت بغلة مكترة وعددت بها أكثر من مائة وعشرين عيباً جوهرياً . السّواس جميعهم محتالون ومحترفو نصب وإجرام. إذا كان أسيادكم (هكذا يطلق السّواس على الذين يحملونهم على دوابهم) ممن يسهل خداعهم تفعلون معهم أكثر مما فعلوه بالمطرودين من هذه المدينة في السنوات الماضية ^(١٣): إذا كانوا غرباء تسرقونهم، طلاباً تلعونهم، رجال دين تكفرونهم ، وإذا كانوا جنوداً تجعلونهم يرتعدون فرقا، البحارة والحدوذية والبنغالون يعيشون حياة خاصة وغريبة: يقضى الحوذى الشطر الأعظم من حياته في مكان لا تزيد مساحته عن متر وربع، يُقله موزع مناصفة بين مَقُود الدواب وبين الاستواء على مقدمة العربة، يمضى نصف وقته في الغناء والنصف الثانى في السبّ واللّعن، وإذا طلب من ركاب عريته الجلوس في مؤخرتها فإنه يعنى الجهة المقابلة، وإذا غاصت إحدى العجلات في أرض موحلة فإن شتيمتين من قاموس شتائمته تصبحان أشدّ عوناً له في إخراجها من الاستعانة بثلاثة بغال، أما البحارة فهم قوم ظرفاء، لا يعرفون

(١٣) تشير العبارة إلى عملية الطرد الجماعى للموريسكيين من مدينة بلد الوليد بعد تعذيبهم وإذ لا لهم والاستيلاء على ممتلكاتهم . وقد تم طرد الموريسكيين من إسبانيا على مراحل كان آخرها عام ١٦٠٩ م . (المترجم)

حياة الحضر على اليابسة ولا لغة أخرى غير المستخدمة في السفن، نشطاء عند سكون البحر وكسالى عند هياجه، أوامرهم كثيرة أثناء العاصفة وطاعتهم شبه معدومة، فلُكهم هو ربهـم المعبود، والمسافرون المصابون بالدُّوار هم قطعانهم ومثار سخريتهم وتسليتهم ، أما البغالون فهم أناس قد طلقوا الأسرة والملاءات وتزوجوا البراذع، تراهم في غاية العجلة والتسرُّع لدرجة أن خوفهم من فوات النهار يجعلهم يفقدون آدميتهم، الخوض في الملاط موسيقاهم، الجوع صلصتهم، صلواتهم للفجر هي تبكيرهم لتقديم الأعلاف ، وأداؤهم للقداس يكمن في الإعراض عنه.

انتهى من كلامه السابق وهو واقف على باب صيدلية فالتفت إلى صاحبها وقال:

- لديك مهنة محترمة ومفيدة لو تخلصت من عداك التقليدي للقناديل.

سأله الصيدلاني عن معنى هذا فأجاب:

- لأن الصيدلي يستعويض عن الدواء الناقص في صيدليته بزيت القنديل القريب جداً من يده، وهذا في حد ذاته سبب كافٍ لسحب الثقة من أمهر الأطباء والتشكيك في قدراتهم .

ولما سأله عن علاقة هذا بقدرات الأطباء قال:

- عندما لا يقر الصيدلاني بعدم توافر الدواء الموصوف لديه، ويستبدله بتركيبة يعتقد أنها تتمتع بنفس الخواص والفعالية- وهي ليست كذلك - فإن دواءه المغلوط يؤدي إلى نتائج عكسية ويلحق الأذى بالمرضى.

سأله أحد الموجودين عن رأيه في الأطباء فقال:

- " الطبيب أهل للتشريف لشدة الحاجة إليه ولتولى العليّ العظيم تربيته . الله سبحانه مصدر كل دواء وشفاء، وما على الملوك إلا تلقى المنح والهبات . علم الطبيب يرفع رأسه عاليًا ويحوطه بالمدح والثناء من الأعيان والوجهاء . تفضل الرب بخلق كافة الأدوية من الأرض، وألهم الطبيب الصالح حسن الاستفادة بها وعدم تبديدها" . هذا ما أورده الكتاب المقدس

في أسفاره (١٤) عن الطب والأطباء المهرة المخلصين ،أما ما عداهم من
البلداء معدومي الضمير فيصدق عليهم خلاف ما تقدم ذكره ، لأنه لا يوجد
في كافة أنحاء الجمهورية من يطاولهم في إلحاق الأذى والضرر: فالقاضي
يستطيع إطالة النظر في القضية أو لى عنق الحقيقة، وبإمكان المحامي
تحقيق الفائدة الشخصية من الدعاوى الظالمة، كما أن باستطاعة التاجر
نهب ثرواتنا وابتلاعها، خلاصة القول إن كافة الأشخاص الذين تضطربنا
الظروف للتعامل معهم يمكنهم إلحاق الأذى بنا بأى شكل من الأشكال ،
لكن ليس من بيننا جميعاً سلب الحياة مع التحرر من غلّ الخوف من رادع
أو عقاب، الأطباء وحدهم هم الذين يستطيعون قتلنا دون خوف أو عناء
لأنهم لا يستلّون من الغمد سيفاً آخر سوى الروشّة ، وجرائمهم لا يتم
اكتشافها لأنها تتوارى على الفور تحت الأرض ويهاى عليها التراب.. عندما
كنت من اللحم وليس من الزجاج ،كحالى الآن ،أذكر أنه اجتمع مريضان
عند طبيب من أولئك الأطباء الحمقى، ولما انتهى الطبيب من فحص الأول
صرّفه من العيادة ليتفرغ للثانى. وبعد أربعة أيام دخل المريض الأول -
مصادفة - الصيدلية المعنية بصرف روشتة المريض الثانى فسأل الصيدلى
عن حال زميله وعن الدواء الموصوف له . عندما أخبره الصيدلى أن
الروشتة بالوصفة التى سيتناولها ذلك المريض فى اليوم التالى موجودة
عنده طلب منه إطلاعه عليها، وبعد أن قرأها ووجد فيها الدواء نفسه
الموصوف له قال : يعجبنى كل ما جاء فى هذه الوصفة ماعدا الجملة
الأخيرة التى تنبه إلى "ضرورة تناوله مبكراً" (١٥) دون مراعاة منها لبرودة
الجو فى مثل هذا الوقت .

لمثل هذه الأشياء وغيرها مما يذكره عن المهن والحرف كان يتبعه الكثيرون
دون إيذائه أو تركه يلتقط الأنفاس من كثرة الأسئلة. أما الصبيان فكان

(١٤) السّفر الرابع (XXXVIII,1) ، والفقرات الواردة منه فى النص مكتوبة باللغة اللاتينية. (المترجم)

(١٥) لجأ الكاتب هنا إلى التورية للإعراب عن سخريته . فالعبارة فى النص الأصلى لها معنيان: قريب
(الوارد فى الترجمة) وهو غير مراد ، أما المعنى البعيد المقصود فهو "غسل العجز فى الصباح الباكر".
(المترجم)

يتكفل بهم حارسه . سأله رجل عما يفعله للتخلص من الغيرة فأوصاه
بالتالى :

- نم، لأنك ستكون مماثلاً لمن تغار منه طيلة الوقت الذى تقضيه فى النوم .
وفى أحد الأيام مرّ عليه قاضٍ على رأس لجنة مكونة من اثنين من الأعوان فى
طريقهم للتحقيق فى جريمة وقد تجمع حولهم خلقٌ كثير فسأل من يكون هؤلاء
وعندما أخبروه قال:

- أراهن أن ذلك القاضى يحمل فى عبّهِ حَيَاتٍ وفى وسطه مسدسات وفى يديه
صواعق لتدمير كل ما تصل إليه أيادى لجنّته . ما زلت أذكر قاضياً صديقاً
لى عرضت عليه قضية جنائية فأصدر فيها حكماً قاسياً مبالغاً فيه لا يتناسب
مع حجم الجريمة، ولما سألته عن الداعى لذلك الحكم الجائر قال إنه وضع
فى اعتباره الاستئناف الذى سيلجأ إليه المتهمون ومن ثمّ فقد راعى إمداد
زملائه فى محكمة الاستئناف بهامش كبير يسمح لهم بإظهار الشفقة
والرحمة من خلال تخفيف العقوبة والنزول بها إلى الحد المناسب . عندما
أخبرنى بهذا رددت عليه قائلاً: لقد كان من الأفضل توقيع العقوبة
المستحقة فى البداية لتوفر على المتهمين عناء إجراءات الاستئناف ولكى
تنفى عن نفسك شبهة التخبّط والظلم .

كان يتبعه ويحرص على سماعه ضمن اللّمة الكبيرة من الناس زميل دراسة له
مرتدياً ملابس الخريجين من الجامعة، عندما سمع المزجج أحد الأشخاص ينادى
على هذا الزميل- الذى لم يوفق فى الحصول على الإجازة العالية ولا حتى
المتوسطة- بحامل الليسانس اتجه نحوه قائلاً:

- لُدّ بالفرار، أيها الإشبين، حتى لا يكتشف الرهبان فكّاكو الأسرى فقدانك
للشهادة فيصادروك عندئذ كما يصادرون العقارات والمنقولات التى ليس لها
صاحب .

رد عليه الصديق بقوله:

- لا داعى للسخرية، أيها المزجج، فأنت أول من يعلم أننى رجل المعارف
والآداب السامقة العميقة .

ردّ عليه المزجج:

- حقاً إنها كذلك بالنسبة لك: سامقة لأنها تمر من فوقك و لا تبلغ لها ركاباً، وعميقة لأنك لا تستطيع الوصول إلى باطنها.

أقترب ذات مرة من محل للخياطة فوجد صاحبه جالساً وهو يضع إحدى يديه على الأخرى فقال له:

- لاشك أنك، يا سيدى المعلم، على جادة طريق الخلاص والنجاة .

- وكيف ترى ذلك؟ سأله الخياط .

- بما أنك لا تجد ما تفعله فلن توانيك الفرصة للكذب.

ثم أضاف قائلاً :

- بئس ذلك الخياط انذني لا يكذب ، لاسيما فى المواسم والأعياد . وهناك شيء آخر غريب حرّبت فى تفسيره: أننا لا نكاد نجد من بين العاملين بهذه المهنة واحداً يخرج من تحت يديه ثوباً مضبوطاً متقن الصنعة ، فى حين أن معظمهم قد درج على حياكة الثياب المفعمة بالذنوب والأخطاء .

وعن صانعى الأحذية كان يقول إنهم لا يصنعون - طبقاً لادعائهم- حذاءً واحداً معيباً: لو جاء ضيقاً يقولون لصاحبه هذه هى "الموضة" أو أنك بعد المشى فيه ساعتين فقط سيصبح مثل شباشب الحلفاء، وإذا جاء واسعاً يقولون إنه يجب أن يكون هكذا حتى لا يصيب القدمين بأذى .

من بين مريدى المزجج كان يوجد فتى ألعى يعمل فى مصلحة إقليمية للوثائق، وكان هذا الفتى يلاحقه دائماً بالأسئلة والاستفسارات كما كان يخبره بما يحدث فى المدينة أولاً بأول . أخبره ذات مرة بما يلى:

- الليلة الماضية توفى فى السجن بنك (موظف) (١٦) كان محكوماً عليه بالإعدام شقفاً.

(١٦) كلمة Banco لها معنيان فى الإسبانية: بنك (مصرف)، ومقعد . والتلاعب بمدلولى الكلمة هو مصدر الفكاهة فى الجملة التالية ل قبل أن يجلس (المترجم)

رد عليه المزجج قائلاً:

- أحسن صنْعاً بإسراعه فى الموت قبل أن يجلس فوقه الجلاد.

وعلى رصيف "سان فرانسيسكو" مرَّ على مجموعة تجار من "جنوة" فنادى عليه واحد منهم:

- تعال ، يا سيدى المزجج، لتحكى لنا "حكاية" (١٧)

- لا أريد ، لكى لا تحولونى إلى جنوة.

وعندما رأى صاحبة حانوت تمشى فى الشارع وأمامها ابنة لها غاية فى الدمامة ، لكنها مزينة بكمية ضخمة من الحلوى والآلئى قال للأُم:

- فعلت خيراً بإحاطتها بالأحجار الكريمة وعدم إظهار شيء منها حتى تتمكن من المشى فى الشارع .

وعن بائعى الحلوى كان يقول إنهم يلعبون منذ سنوات لعبة التضخيف دون رادع يردعهم: فهم يبيعون - على هواهم - القطعة التى تساوى فلسين بأربعة، والتى تساوى أربعة بثمانية، والتى لا يزيد سعرها عن ثمانية بنصف ريال.

أما عن سيئات البهلوانات فقد أحصى منها الكثير. وعلى سبيل المثال كان يقول: إنهم صعاليك أفاقون، يتعاملون بفحش واستهجان مع التصاوير المقدسة حينما يعرضونها بشكل غير لائق لاستجداء الضحكات، وإنهم يعبلون جميع صور العهد القديم والجديد فى جوال مزرى ويجلسون فوقه داخل الحانات والمواخير، كما كان يختم كلامه عنهم قائلاً: إنه سيكون فى غاية السرور لو استطاع أحد نفيهم من المملكة .

مرَّ إلى جواره ذات يوم ممثل كوميدى مرتدياً ملابس أمير فقال:

- أذكر أننى رأيت هذا الرجل داخل المسرح مرتدياً فرّوة خروف ووجهه ملطخ بالدقيق، ورغم هذا فهو يقسم - بعيداً عن خشبة المسرح - بأغلظ الأيمان على أنه كريم الأصل ، شريف النسب .

(١٧) كلمة Cuento فى النص لها معنيان: حكاية، ومليون . وقد تلاعب الكاتب بمدلولى الكلمة بهدف التعريض بتفريغ إسبانيا - فى عصره - من رؤوس الأموال الضخمة وتحويلها إلى المدن الإيطالية خاصة مدينة "جنوة". (المترجم)

- وما وجه الغرابة فى ذلك! - ردّ أحد الموجودين-، أنا أعرف عدداً لا بأس به من ممثلى الكوميديا الذين ينحدرون من أصول عريقة .

- هذا صحيح - رد المزجج- لكن العمل المسرحى لا يحتاج إلى عراقة الأصل وشرف النسب قدر حاجته إلى رجال ظرفاء، طلقاء اللسان، حاضرى البديهة، وأضيف قائلأ : إنهم يكسبون لقمة العيش بعرق جبينهم، ويؤدون عملاً صعباً يتطلب ذاكرة قوية وتفرغاً تاماً وتنقلاً مستمراً- مثل الغجر- وعزيمة صلبة لتحمل الأرق والشهاد من أجل إضفاء البهجة والحبور على الآخرين، هذا لأن استمرارهم بالمهنة مرهون بمتعة الغير وسعادته . وعلاوة على ما نقدم فإنهم لا يخدعون أحداً بعملهم لأنهم يعرضون بضاعتهم فى الميدان العام وعلى رءوس الأشهاد . أما مديرو (أصحاب) الفرق المسرحية فإنهم يقومون بأعمال خارقة ويبدلون جهداً مضاعفاً لتحقيق أكبر عائد ممكن حتى لا تتكاثر عليهم الديون فى نهاية الموسم ويصبحون عرضة للإفلاس والتلظى بنيران الدعاوى القضائية . خلاصة القول إن الفرق المسرحية لاغنى عنها فى الجمهورية، شأنها فى ذلك شأن المتنزهات والغابات والأحراج والمناظر الخلابة وكافة وسائل اللهو المباح والتسلية البريئة... أخبرنى أحد الأصدقاء عن رأيه فى الممثلة الكوميديّة فقال إنها بمثابة مجموعة من النساء فى امرأة واحدة، فهى تتقمص شخصيات متعددة: تارة تصبح ملكة أو حورية أو إلهة، وتارة أخرى تصبح خادمة أو راعية؛ بل إنها تقوم أحياناً بأدوار الرجال فتصبح غلاماً أو صعلوكاً أو تابعاً... إلخ .

وعن مدبرى المبارزة بالسيف كان يقول: إنهم أساتذة فى التدريب على فن لا يمت إلى أرض الواقع بصلة، وإنهم غير مبرّئين من الغرور والحمق عندما يتوهمون أنه بالإمكان اختزال حنق الخصم واندفاعاته الغضوبية إلى حركات رياضية ونظريات واجبة الحدوث .

كان ينفّر بصفة خاصة من المولعين بصبغ لحاهم ويناصبهم العداء . فعندما شاهد لحية مجزّعة متعددة الألوان ، لسوء صباغتها، شبهها بمقلب القمامة . وقال لرجل

ذهبت الصبغة من على لحيتته المديبة المهمة فأصبح نصفها أبيض والآخر أسود:
تجنب ما استطعت الخصومة والشجار مع الغير حتى لا يصفك بأنك صنو للكذب
والنفاق الظاهرين على لحيتك.

قص ذات مرة ما جرى لفنأة مؤدبة مطيعة أحضر لها أبواها عريساً أشيب طاعناً
فى السن فلم تشأ مخالفتها ووافقت عليه . وفى الليلة السابقة ليوم الزواج لم يذهب
العريس للاستحمام فى نهر الأردن - كما تدعى العجائز (١٨) - بل لجأ إلى صبغ
لحيته بمحلول مكثف جعلها تبدو كالحراب السوداء . عندما شاهدته الفتاة قبيل عقد
القران خطرت ببالها فكرة تخلصها من ربة هذا الزواج، ومن ثم فقد أنكرت الرجل
وقالت لوالديها إنها لا تريد شخصاً مغايراً للشخص الذى قدماء لها . أخبرها أن الرجل
المائل أمامها هو نفسه الذى عاينته من قبل ووافقت عليه . أشيب برأيها وأحضرت
شهوداً اعترفوا بأن الرجل الذى شاهدوه من قبل كان أشيب ذا مهابة، لكن الواقف
أمامهم الآن لا توجد فى لحيته شعرة واحدة بيضاء، وفور قولهم هذا تعالى الصياح:
خدعة، خدعة، أمسكوا المخادع . ارتعدت فرائص المصبوغ وأطلق ساقيه للريح
كالص المطارد.

ولم يكن بغضه للهوانم المتصنعات يقل عن كراهيته لأصحاب اللحي المصبوغة .
كان يقول أشياء كثيرة ومدهشة عن ثقب طرحن وتصنعن وتزلفهن وترددهن،
وعن يؤسهن الشديد وفقرهن المدقع . كما كان يستثيره كلامهن الرقيق، وحساسية
معداتهن ورهافتها المفرطة، ودوار رءوسهن، وأخيراً قلة فائدتهم وعدم جدواهن .
توجه إليه - ذات مرة - أحد أفراد بطانته قائلاً :

- لقد خضت فى كثير من المهن لكنك لم تذكر إلى الآن شيئاً عن وظيفة
كاتب العدل مع أن هناك الكثير مما يمكن قوله عن القائمين بها .

رد المزجج:

- رغم أننى من الزجاج فلست من الهشاشة إلى الحد الذى يجرفنى فيه تيار
العامة المخدوعين فى معظم الأحيان . فبمثل الدندنة التى يستهل بها

(١٨) من الاعتقادات السائدة فى ذلك الوقت أن مياه نهر الأردن تعيد الشباب وتضفى الصحة والحيوية على
الأجساد التى أوهدها الكبر . (المترجم)

المغنون ألحانهم يبدأ هُوة القيل والقال مُوشَّح الاغتياب بالتشكيك في نزاهة كاتب العدل والشرطي وأعوان العدالة الآخرين، علماً بأن مهنة الكتبة لو لم تكن موجودة لتوارت الحقيقة عن الأنظار - مهانة وخزيا - ولما قامت لها في العالم قائمة، ورغم أن الكتاب المقدس قد كَرَّم هذه الفئة في مُحْكَم أسفاره حين قال: "مصائر البشر وأقدارهم في يد الرب الذي أمد الكاتب منهم بقبس من نزاهته وشرفه" ^(١٩)، فكاتب العدل لا غنى عنه لعموم الأمة، إذ لا يمكن للقاضي النهوض بمسئوليته في غيابه. ولخطورة هذه الوظيفة وأهميتها لزم أن يكون القائم بها حراً، لا عبداً ولا ابناً لعبد، وأن يكون نسبه شرعياً ومعلومًا، فلا يصح أن يكون مشكوكاً في نسبه أو من سلالة منحطة. إن الكتبة يقطعون على أنفسهم العهد - حتى دون التلفظ به - بمراعاة الأمانة وعدم استغلال مهنتهم لتحقيق المنافع الشخصية: إذ لا تدفعهم الصداقة أو العداوة لجلب الخير لهذا أو لإلحاق الأذى بذاك، لأن ضميرهم المسيحي الحي هو الرقيب والموجه. فإذا كانت المهنة تتطلب مواصفات وخصالاً على هذا القدر من الجودة، فبأى حق تلوك الألسن سيرة أكثر من عشرين ألف كاتب عدل في إسبانيا، وتصورهم بمخالب الشر في مملكة إبليس وبتلبس الشياطين لهم ؟! أنا لا أريد تصديق هذه الافتراءات، ولا ينبغي لغيري تصديقها، ولا يسعني في النهاية إلا الاعتراف بشدة حاجة الجمهوريات المنظمة والدول المتقدمة لأمثالهم.. صحيح أنهم يتمتعون بامتيازات وحقوق زائدة عن الحد، لكنهم - في المقابل - هدف لاتهامات وشائعات لا حدود لها أيضاً.

وعن رجال الشرطة قال إن طبيعة عملهم هي المسئولة عن كثرة من يناصرونهم العداء: فهم إما يتولون القبض عليك، أو انتزاع الأموال والمنقولات من بيتك، أو تحديد إقامتك وتشديد الرقابة المستمرة عليك مع الأكل والشرب على حسابك. ولا يتورع الناس أيضاً عن وصم وكلاء العدالة ونوابها بالتهاون والجهل، وتشبيههم

(١٩) السفر الخامس (X) من الكتاب المقدس. وقد وردت العبارة في النص الأصلي باللغة اللاتينية. (المترجم)

بالأطباء الذين لا يتنازلون عن أجرهم - مُقَدِّمًا - سواء شُفِيَ المريض أو ساءت حالته (٢٠).

سأله واحد من بطانته عن أفضل أرض في نظره، فقال: الأرض المبكرة الممتنة. أضاف السائل عندئذ:

- ما إلى هذا قصدت، بل المفاضلة بين بلد الوليد ومدرید.

- أفضل ما في مدرید طرفاها، وما في بلد الوليد وسطها - قال .

- مازلت في حاجة إلى مزيد من الإيضاح - رد السائل.

- طرفا مدرید: سماؤها وأرضها، ووسط بلد الوليد: سحبها والبقعة الموحلة تحتها.

وعندما سمع ذات مرة رجلاً يشتكى لآخر سقوط زوجته فريسة للمرض فور مجيئها للعيش معه في بلد الوليد، قال:

- قد يكون ما حدث لها سببه الغيرة من أرض بلد الوليد، وفي هذه الحالة كان الأحرى بالأرض ابتلاع ضررتها في جوفها.

وعن عازفي الموسيقى وسعاة البريد الذين يسرون على أقدامهم كان يقول إن طموحاتهم محدودة وأحلامهم قصيرة: فمُنْتَهَى أَمَلِ السَّعَاةِ يتمثل في تزويدهم بالخيول لأداء مهمتهم، بينما يبلغ الآخرون مرادهم ويحققون ما يصبون إليه بالعزف أمام الملك .

وعن السيدات اللاتي يُعرفن بجليسات الملكات والأميرات Cortesanas كان يقول: إن لديهن من المجاملة والموانسة Corteses ما يفوق بكثير سلامة نواياهن Sanas (٢١).

(٢٠) دفاع ثريانتس عن كاتب العدل ورجال الشرطة وكلاء العدالة تفروح منه رائحة التهمك والسخرية، وهناك كتاب آخرون يلجأون إلى السخرية بهذه الطريقة وعلى رأسهم ياتى "كيبيدو". (المترجم)

(٢١) ويمكن أن يتغير معنى الجملة بالكامل لو أخذنا بالمدلول الثانى لكلمة Cortesanas أى البغايا، وعندئذ تصبح الترجمة كالتالى: وعن السيدات اللاتي يعرفن بالبغايا كان يقول: إن لديهن من اللطف والحنان ما يفوق بكثير سلامة الأبدان . (المترجم)

كان في إحدى الكنائس ذات مرة ودخلها البعض حاملين عجوزاً ميتاً للصلاة عليه، وبعد لحظات دخل آخرون بطفل صغير لتعميده، ثم لحق بهم فريق ثالث بصحبة امرأة لعقد قرانها، فقال معلقاً: إن دور العبادة أشبه بساحات الوغى، فيها يقضى العجائز نحبهم وينتصر الأطفال وتقام الاحتفالات للنساء كقادة الحرب المظفرين.

وفي إحدى المرات وقف زنبور على رقبته فلم يقوَ على هشه حتى لا يحطم نفسه، لكنه كان يتوجع من لدغاته، وعندئذ سأله أحد الموجودين: كيف تشعر بلدغاته وأنت من الزجاج؟ فرد عليه قائلاً: لا بد أن هذا الزنبور ينتمي لفصيلة المغتابين وهواة القيل والقال، والسنة هؤلاء ومناقيرهم تستطيع الفتك بأبدان من البرونز، فما بالك إذا كانت من الزجاج !

مرّ على حلقة رجل دين سمين جداً فقال أحد الظرفاء فيها:

- أبونا لا يقوى على الحركة من شدة الهزال.

غضب المزيج ورد بانفعال:

- لا تنسوا ما أوصانا به الروح القدس في قوله: "لا تمسوا أوليائي بسوء، ولا تصيبوا أنبيائي بأذى".

ثم علّت نبرة انفعاله وهو يضيف: لو فتشتم في قائمة القديسين العريضة التي صدقت عليها الكنيسة في العقود الأخيرة واعترفت فيها بصلاح هؤلاء وقديستهم لن تجدوا من بينهم واحداً يسبق اسمه لقب وزير أو قائد أو كونت أو دوق أو ماركييز، بل "فراي" (fray) أى: الأخ الراهب، فهذا "فراي ديجو" وذاك "فراي خاثينتو" والثالث "فراي رايموندو" ... إلخ، أى إنهم جميعاً رهبان ورجال دين، فالأديان للسماء بمثابة البساتين، وأفضل ما في الأخيرة من ثمار يوضع - عادة - على مائدة الرحمن.

كان يقول إن السنة الوُشاة والمغتابين مثل أجنحة الصقور: تُضعع ريش الطيور المجاورة لها، وتوهن قدرتها على الطيران.

وعن أصحاب أوكار القمار والمقامرين اللصوص تحدث بالعجيب من الأشياء، ومنها قوله: إن أصحاب أوكار القمار يخلون دائماً بواجباتهم ويتعدون حدودهم، فهم لا

يقنعون بالرسوم التي يحصلونها على كل لاعب ، بل يتآمرون مع بعض الأشخاص مقابل اقتسام الغنيمة معهم. وكان يثنى (٢٢) على صبر اللص المقامر الذي يظل الليلة بطولها يلعب ويخسر، ولأنه ذو طبيعة شيطانية حادة لا يفكُّ وثاق فمه بكلمة عندما يهْمُ منافسه بترك اللعب، بل يتمرغ في التراب متوجعاً كأنه خرَّ صريعاً في وادي الظلمات، كما كان يمتدح (٢٣) ضمائراً بعض أصحاب أوكار القمار الذين يسمحون - عن عمد - بممارسة كافة الألعاب المشروعة وغير المشروعة لكي تمتلئ خزائهم في النهاية بالمال الحرام.

خلاصة القول إنه لو لم يكن يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً إذا لمسه أحد أو اقترب منه، ويعتمد في طعامه على قائمة محدودة، وفي شرابه على طريقة غير معهودة، ويحرص على النوم صيفاً في العراء، وشتاءً في مخازن القش... إلى ما غير ذلك من أمارات الجنون التي أشرنا إليها آنفاً، لعدَّه كل من سمع آراءه السديدة وتعليقاته الحصيفة الرشيدة من أعقل العقلاء في العالم .

استمر مرضه هذا سنتين أو ما يزيد عنهما بقليل، ذلك لأن رجل دين من أخوية (رهبانية) "سان خيرونيمو" كان يتمتع بعلم لدني وموهبة خاصة في جعل البكم يفهمون ويتحدثون بطريقة معينة ، وفي العلاج من الجنون (٢٤) أخذته الشفقة بالمزجج فحملة إلى مقر الأخوية وتمكن من علاجه وإعادته إلى سيرته الأولى: صحة وعقلاً. وبعد تأكد الراهب من شفائه ألبسه زيَّ المحامين وأشار عليه بالعودة إلى العاصمة حيث يمكن أن يمارس مهنته ويسطع نجمه مثلما أبان فيها من قبل - حال سقمه - عن أمارات حكمته واتزانه.

امتثل للمشورة ، وبعد تغيير لقبه من "روداخا إلى رويدا" عاد إلى العاصمة فعرفه الصبيان فور رؤيته، لكنهم لم يجروا - بسبب الملابس الجديدة التي

(٢٣، ٢٢) استخدم الكاتب كلمتي "الثناء والمدح" في موقف يدعو للذم بقصد التهكم والسخرية . (المترجم)

(٢٤) طبقاً لـ "ألرنسو كورتيس" فهذا الراهب ليس شخصية خيالية بل حقيقية، ويدعى "فراي بدر بونلي دي ليون". (المترجم)

كان يرتديها - على معايبته أو توجييه الأسئلة إليه ، بل ظلوا يتبعونه قائلين لبعضهم :

- أليس هذا هو المجنون المزجج ؟ لاشك أنه هو . إنه يبدو سليماً معافى ، لكن ربما لم تتغير حالته رغم اختلاف ملابسه . لماذا لا نسأله شيئاً حتى نبدد شكوكنا ونخرج من حيرتنا ؟

كل هذا كان يسمعه دارس القانون وحامل إجازته العالية وهو صامت ، ولذا كان يمشى أكثر خجلاً وتشوشاً عن ذى قبل .

ذاع الخبر فى المدينة على لسان الصبية ، وقبل أن يصل إلى الساحة الخارجية لمجلس الشورى الملكى كان يسير خلفه ما يزيد عن مائتى شخص من مختلف الأعمار والمهن ، وفى ظل هذه الصُحبة التى تفوق لمة أستاذ الجامعة عدداً وصل إلى الساحة ، وعندما رآها تحقق به من كل جانب رفع صوته قائلاً :

- أيها السادة : كنتم تعرفوننى بحامل الإجازة العالية المزجج ، أما الآن فأنا المحامى " رويداً " . لا يحدث شئ فى هذا العالم إلا بإرادة الله ، وقد قصت مشيلته أن أفقد عقلى إثر نكبة تعرضت لها ، لكن الله شملنى برحمته ولطفه وورده إلى ثانية ، كنتم تسمعون منى - كما تقولون - ماثورات وتعليقات لمأحة حال جنونى ، ولن يختلف الحال لو لجأتم إلى بعد استرداد رشدى . أنا - يا سادة - خريج جامعة شلمنقة ، وقد درست فيها القانون وبرعت فيه رغم فقرى ورقة حالى ، وأهلتنى مواهبى وكفاءتى - بعيداً عن المجاملة - على أن أكون الثانى على دفعتى لأن المركز الأول يحتله دائماً - كما تعلمون - واحد من أصحاب النفوذ والجاه ، وها أنذا قد أتيت إلى بحر العاصمة الخضم لأكسب لقمة العيش من ممارسة المحاماة ، وإذا لم تتركونى وشأنى لكى أنفرغ لمهام عملى تكونون كمن أصدر حكمه على بالموت جوعاً ... أتوسل إليكم وأستحلفكم بكل عزيز لديكم ألا يتحول اتباعكم لى إلى مطاردة لأننى سأحرم بهذا الشكل وأنا عاقل مما سبق وتوصلت إليه وأنا مجنون : ألا وهو الحصول على المتطلبات الضرورية للحياة . ما اعتدتم

توجيهه إلى من أسئلة في الميادين وعلى قارعة الطريق أسأله لى الآن في بيتى، وسترون أن الذى كان يردّ عليكم - بداهة ودون تفكير - بإجابات ممتازة سيقدر على الإجابة بأحسن منها من خلال الرؤية وإعمال الفكر .

سمعه الجميع ولم يتركه سوى البعض . اتجه للإقامة في أحد الخانات وبصحبه عدد أقل ممن تبعوه في البداية .

خرج اليوم التالى ليتكرر معه ما حدث في اليوم السابق، ألقى خطبة أخرى على الجموع ولم تفده بشيء . وبهذا الشكل لم يكسب شيئاً ذا بال يسدّد ولو جانباً من نفقاته، ولما وجد نفسه على وشك الموت جوعاً قرر مغادرة العاصمة والرحيل إلى "فلاندس"، لعله يستطيع فيها الحصول بقوة ساعديه على ما لم يفلح في بلوغه بعلمه الواسع وعبقريته الفذة .

وعندما جاوز بوابة العاصمة التفت وراءه وقال:

- تبّاً لك، أيتها العاصمة: تحقّقين الأحلام اللا محدودة للمتجاسرين الطامعين وتجتثّين من الجذور آمال القانونيين المنكسرين، تكفلين بسخاء اللصوص المحتالين عديمى الحياء وتقتلين - جوعاً وكَمَدًا - الفطناء المخلصين الخجولين .

ألقى بهذه الكلمات ثم ذهب إلى "فلاندس" حيث أنهى الحياة - التى أراد أن يخلدها في البداية بالعلم والأدب - شاكي السلاح إلى جوار صديقه العزيز "بالديبيا"، ولمآثره الحربية فى ساحات الوغى خلدت ذكره بعد موته كجندى باسل شجاع لا تعوزه الحصافة و الفطنة .

نداء الدم

فى ليلة من لىالى الصيف الحارة كان عائداً من نزهة على نهر طليطلة رجل عجوز من أوساط الناس بصحبة عائلته المكونة من الزوجة وابن صغير وابنة شابة فى السادسة عشرة من عمرها ، فضلاً عن الخادمة . كانت الليلة صافية ، والساعة تقترب من الحادية عشرة ، والطريق خالياً ، والخطوات بطيئة حتى لا يصنع سدى رصيد . الاسترواح على شاطئ النهر أو فى الغوطة الطليطلية .

لم يكن يخطر ببال الرجل الطيب - وهو عائد مع أسرته الشريفة - إمكانية حدوث أمر جلال فى ظل الأمان الذى تنعم به المدينة وتكفله عيون الشرطة اليقظة ووداعة السكان ولين عريكتهم . ولأن غالبية المصائب تأتى - عادة - من حيث لا تحتسب ، فقد نزلت به واحدة أطاحت باستجمامه وأمدته بسبب كافٍ للبكاء سنين عديدة .

فى تلك المدينة كان يوجد شاب يناهز الثانية والعشرين من العمر ، أعانه الثراء الفاحش والدم النبيل والميول المنحرفة والحرية الزائدة والبطانة الفاسدة على ارتكاب الأفعال الطائشة الماجنة التى تتنافى مع أخلاقيات نسيجه الاجتماعى ؛ ولذا استحق عن جدارة لقب المستهتر الوقح الذى ألصق به .

من سوء حظ الرجل أنه كان يصعد المنحدر الذى يهبط منه ذلك الشاب [وسنكتفى هنا - احتراماً لشخصه - بتسميته "رودلفو" ، دون إمطة اللثام عن اسمه الحقيقى] مصحوباً بأربعة فتيان من أصدقائه المستهترين والسكران مثله .

التقى الجمعان : الذئاب والحملان ، وفى تصرف وقح ، هجم الذئاب المثلثون وأنعموا النظر فى وجه الزوجة والابنة والخادمة . هاج العجوز وماج ، مقبحاً سلوكهم المشين . ردوا عليه بإيماءات بذينة ، ولم يتطور الأمر إلى أبعد من ذلك لأنهم مضوا فى طريقهم مواصلين السير . لكن الجمال الطاغى لوجه الابنة - التى سنطلق عليها ، بعد إذنكم ، ليوكاديا- كان قد انطبع فى ذاكرة "رودلفو" وأيقظ فيه رغبة عارمة للاستماع بها مهما كان الثمن . لم يكذب خبر أصدقائه بما يعتمل فى صدره حتى أتاح قرارهم الفورى بالعودة لاختطافها إرضاءً له : فالأغنياء المتحررون يجدون دائماً من

يسبغ رداء الشرعية على نزواتهم المحرمة ويكيل الثناء لرغباتهم الأثيمة. وهكذا انبثق الهاجس المأفون وتم الإفصاح عنه و الموافقة عليه واتخذ بشأنه القرار فيما لا يزيد - تقريباً - عن طرفة عين . غطوا وجوههم واستلوا سيوفهم ثم عادوا أدراجهم ليلحقوا بالأسرة التي لم تنته بعد من شكر ربها على تخليصها من براثن الفتن الضالة .

هجم "رودلفو" على "ليوكاديا" وحملها بين ذراعيه وفر هارباً . لم تقوَ الفتاة على الدفاع عن نفسها وألجم الفرع لسانها، ولأن هول الصدمة كان قد أدخلها في غيبوبة تامة فلم تشاهد خاطفها ولا المكان الذي حملها إليه . زعق أبوها بما يشبه الجوار، صرخت أمها مولولة، بكى أخيها بحرقة، لطمت الخادمة وجهها وشقت جيبها ، لكن الصياح لم يسمع ولا الصراخ، ولم يسترحم البكاء، ولم يفد في شيء لطم الخدود ولا شق الجيوب؛ لأنه انطمر كله تحت وحشة المكان وبعده، هدأة الليل وصمته، قسوة قلوب المجرمين .

لقد أسفر اللقاء في النهاية عن حزن فريق وسعادة آخر، فها هو "رودلفو" يعدو آمناً إلى بيته دون أية عواقب، وها هما الوالدان يصلان إلى دارهما منهكين يائسين: لا يبصران دون عيني الابنة وكانتا لهما الضياء، وحيدين بعد فقدهما للصحبة اللطيفة والمؤانسة الودودة، حائرين لا يدريان ماذا يفعلان: أيلغان الشرطة بأمر نكبتهما ؟ أم أنهما لو فعلاً يكونان مثل الذي يتولى بنفسه نشر فضيحته والتغنى بعاره ؟ .. لم يكونا من علية القوم حتى يسمع صوتهما، بل من الشرفاء الفقراء قصيري الباع والحيلة، ولم يكونا يعرفان ممن يشكوان سوى من قلة الحظ وسوءه . أما "رودلفو" - الماكر، واسع الحيلة - فقد قام بتغطية عيني "ليوكاديا" بمنديل فور حملها وإحساسه بإغماءتها ، وذلك حتى لا ترى - إن أفاقت - الشوارع التي تجتازها أو البيت الذي ستدخله . ولأن الآباء المتهاونين لا يعترضون على استقلالية أبنائهم، فقد كانت لرودلفو حجرة مستقلة ومعزولة عن بيت والده، ولذا لم يشاهده أحد عندما دخلها وألقى فيها بحمولته، وقبل أن تفيق "ليوكاديا" من غيبوبتها كان قد قضى وطره، هذا لأن الأجساد الفتية لا تحفل عند إشباع رغباتها المتأججة المحرمة بانعدام وسائل الراحة أو سلبية الطرف الآخر . لقد فقد نور بصيرته ليسلب في الظلام شرف الفتاة،

ولأن الشهوات الحسية وقتية وتفتت - غالباً - فور إشباعها فقد أراد "رودلفو" بعد قضاء وطره التخلص من الفتاة بإلقائها في عرض الطريق وهي فاقدة للوعي .

عندما هم بإخراج فكرته إلى حيز التنفيذ أحس أنها ثابت إلى رشدها وأخذت تغمغم:

- أين أنا ؟ وما هذه الدجاجير والغياهب التي تلقني ؟ أنا في فردوس العفة أم في جحيم الآثام ؟ يا يسوع ! من الذى عبث بملابسى ؟ هل أصابنى الضرر على هذا السرير حيث أستلقي ؟ أين أنت يا أمى الحبيبة ، أستمعيني ؟ وأنت يا أبى العزيز، هل يصلك ندائى ؟ يا لنكبتى وشقوتى ! لا أسمع لكما جواباً ، لا بد أن أعدائى قد تمكنوا منى . سأكون محظوظة إذا استمرت هذه الظلمة إلى الأبد ولم تصافح عيناى ثانية ضوء النهار، وإذا تحول هذا المكان - أياً كان - إلى مقبرة توارى شرفى المسلوب : فالعار المجهول أهون بكثير من شرف تلوكه الألسن . ما زلت أذكر أننى كنت منذ قليل فى صحبة والدى وأنهم اختطفونى، يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . آه، يا هذا، يا من ترافقتى هنا - كائناتنا من كنت - [كانت قد أمسكت فى تلك اللحظة بيد رودلفو] لو فى قلبك ذرة من رحمة أرجوك أن تقتلنى ما دمت قد سلبتنى أعز ما أملك . أزهر روحى الآن، إذ لا ينبغى لمن فقدت شرفها الاحتفاظ بها، فلربما تخفف الشفقة التى ستنتابك حينما تقدم على قتلى بعضاً من طوفان القسوة الذى استعنت به على إذلالى، وبهذا الشكل تكون قد جمعت فى آن واحد بين صفتين متناقضتين: القسوة والرحمة .

أغرقت شكوى الفتاة المكلومة "رودلفو" فى بحر من الحيرة، ولأنه فتى، قليل الخبرة، لم يدر ماذا يصنع أو يقول ، وظل ساكناً صامتاً مما زاد الهلع فى نفس "ليوكاديا" فصارت تتحسس بكلتا يديها لتعرف إذا كان شبحاً أو طائفاً من الجن . ربما أنها كانت تتحسس جسد إنسان وما زالت تتذكر القوة التى انتزعها بها من والديها فقد أيقنت من المصيبة التى حلت بها، وعندما أدركت هذه الحقيقة المرة استأنفت حديثها الذى قطعه النحيب والأنين:

- أيها الفتى المتهور - كما توحى بذلك أفعالك - أعلم أن بإمكانى الصفع عما أحقته بى من أذى بشرط أن تسدل عليه ستر الصمت ولا تحدث به أحداً

مثلما غطيته من قبل بستر الظلمة. لاشك أن ما أطلبه منك يعتبر غاية في التفاهة مقارنة بالنكبة الفادحة التي أَلَمَّتْ بى، ورغم هذا فأنا أعدّه عظيمًا لأنه أقصى ما يمكننى طلبه منك وما يمكنك الوفاء به إن شئت . أنا لم أر وجهك، ولا أود رؤيته لأنه سيذكرنى بجرحى الغائر ويجعل صورة قاتلى تنطبع فى مخيلتى. سأشكو بئى وحزنى إلى الله، ولا أريد أن تصل شكواى إلى أسماع العالم الذى يحكم على الحادثات بظواهرها ليرسخها- ظالمة - فى الأذهان. لا أدري كيف ينطلق لسانى- رغم حداثة سنّى- بمثل هذه الأشياء التى تتطلب تجارب عديدة وسنين مديدة، ربما لأن الألم العميق إما أن يودى إلى فك وثاقِ الألسن الواهنة الذليلة أو إلى عقدتها فهى - أى الألسن - إما أن تنشط مبالغة فى بثّ شكواها حتى يصدقها الآخرون، أو تصبح ملجمة تجتر أوجاع ضميمها عندما توفّق أن أحداً لن يحرك ساكناً لرفعه عنها. وسواء فعلت هذا أو ذاك لا تظن أن مرور الأيام سيداوى جراحى، وإذا تمكنت من التعايش معها فمن منطلق التصور بأننى لست موجودة فى هذا العالم ، أو أننى ولدت فيه لأكون تعيسة منكوبة. أتوسل إليك كي تطلق سراحى . اتركنى فى الشارع أو إلى جوار الكنيسة الكبيرة لأننى أعرف كيف أعود منها إلى منزلى، ولا تحاول اقتفاء أثرى لتعرف مسكنى، ولا تسألنى من أكون أو ابنة من ، عدنى بهذا، وإذا كنت تخشى الحديث حتى لا أستدل عليك بعد ذلك من صوتك، فاعلم أننى لم أسمع رجالاً من قبل سوى أبى والقسيس الذى يتلقى الاعترافات بالكنيسة، وبالتالي لا أستطيع التمييز بين أصواتهم .

لاذ "رودلفو" بالصمت ، وبدل أن يجيب قام باحتضانها قاصداً استمالتها وتأكيد عارها بمواقعتها ثانية، لكنها انتفضت كالمارد، وعلى خلاف ما توحى به سنوات عمرها الغضّ دافعت بشراسة عن نفسها مستخدمة اليدين والرجلين والأسنان واللسان الذى صرخ قائلاً:

- اعلم أيها الشاب الخائن المتحجر القلب - أيا كانت صفتك - أن ما سلبته منى هو ما استطعت أخذه من جذع مقطوع أو كتلة ممدّدة دون حسّ أو

شعور، وأن انتصارك عليه لا يمجّدك بل يخزّيك ويحقّرك . أما ما ترمى إليه الآن فالموت دونه لأنك لن تنظف به إلا على جثتي الهامدة . لقد دعستني وأهلكتنى عندما كنت مسلوبة الإرادة فاقدة للوعى، أما الآن، وبعد استعادتي لقواى، فلا سبيل لانتصارك علىّ إلا إذا أزهقت روحي، إن استسلمت لك - حال يقظتى - لإشباع تلك النزوة البغيضة فمن حقك أن تتصور أن إغماءتى كانت مصطنعة حينما نجرات وحطمتنى .

قاومت "ليوكاديا" بإصرار وحمية فتراخت عندئذ عزيمة "رودلفو" وخفتت حدة الرغبة لديه، ذلك لأن الهجوم الذى شنّه لم يكن له من باعث سوى إشباع الشهوة المحتدمة التى لا تتمخض مطلقاً عن الحب الدائم الحقيقى، والشهوة حينما تزول، إذا لم يعقبها الندم فإنها- على الأقل- لا تجد مساندة إلا من إرادة فاترة . وهكذا، وبعد أن بردت حرارة الرغبة انسحب "رودلفو" متعباً وترك "ليوكاديا" فى السرير، ودون أن يتفوه بكلمة أغلق باب الحجرة بالمفتاح ثم انصرف قاصداً زملاءه للتشاور معهم فيما ينبغى عمله للتخلص من ورطته .

عندما أحست "ليوكاديا" أنها أصبحت بمفردها حبيسة، نهضت من السرير وطافت بالحجرة تتحسس الحوائط بيديها لعلها تجد باباً تخرج منه أو نافذة تنقذ منها . وجدت الباب، لكنه كان محكم الإغلاق، عثرت بعد ذلك على نافذة استطاعت فتحها فتسلل عندئذ ضوء القمر صافياً، شاهدت على ضوئه الوضاح طنافس دمشقية تزين أرضية الحجرة وجدرانها، رأت السرير مذهباً وعليه فرش وثيرة غالية تليق بأمرير لا برجل عادى، عدّت الكراسى والمناضد ثم أنعمت النظر فى جدار الباب، ورغم أنها شاهدت بعض اللوحات معلقة عليه إلا إنها لم تستطع تمييز الرسومات والمناظر الموجودة بها، عندما وجدت النافذة مجصصة ومغطاة بشبكة معدنية غليظة، ووجدت الحديقة التى شاهدتها من خلال النافذة محاطة بسورٍ عالٍ أدركت على الفور استحالة تنفيذ فكرة الهرب التى راودتها... ومن الأثاث الفاخر والفرش الغالية والتحف الثمينة التى شاهدتها فى الغرفة تأكد لها أن صاحبها شخصية مهمة يتمتع بثراء عريض... رأت على المنضدة القريبة من النافذة صليباً صغيراً من الفضة الخالصة فأخذته وخبأته فى كمّ قميصها، لا بغرض السرقة أو الصلاة، لكن كعلامة وأثر من المكان

المحبوسة فيه . قامت بعد ذلك بغلق النافذة ثم عادت إلى السرير فى انتظار ما ستسفر عنه الواقعة التى بدأت بداية حزنة .

لم يكد يمر- حسب تقديرها - نصف ساعة حتى أحست بفتح الباب ودخول شخص ما، اقترب منها ذلك الشخص ، ودون النطق بكلمة عصب عينيها بمنديل واقتادها من ذراعها إلى خارج الغرفة التى عاد لغلقتها من جديد . لم يكن هذا الشخص سوى "رودلفو" الذى عدل عن فكرة مقابلة زملائه للتشاور معهم حتى لا يكونوا شهوداً على ما اقترفه من إثم فى حق الفتاة، ولذا فقد عاد من منتصف الطريق - نادماً ومتأثراً ببكائها - وفى نيته الإسراع بتنفيذ طلبها (تركها إلى جوار الكنيسة الكبيرة) قبل أن يطلع النهار ويضطره ضوؤه إلى الإبقاء عليها حبيسة حتى مجيء الليلة التالية، لا سيما أنه لم يكن يرغب فى تكرار محاولة مراودتها عن نفسها أو إعطائها الفرصة للتعرف عليه . اقتادها إلى ميدان البلدية، وهناك أخبرها - بصوت مستعار ولكن ما بين برتغالية وإسبانية - بإمكانية العودة إلى منزلها دون خوف من اقتفاء أحد أثرها، وقبل أن تهم بخلع العصابة من على عينيها كان قد اختفى فى أحد الأركان البعيدة عن مجال رؤيتها .

عندما أحست أنها وحيدة أزاحت العصابة من على عينيها وتعرفت على المكان ، نظرت فى جميع الاتجاهات ولم تشاهد أحداً، ومع هذا فقد حملتها الريبة على التوقف من حين لآخر للنظر خلفها قبل معاودة السير . وبهدف تضليل الجاسوس المحتمل دخلت بوابة إحدى الدور المفتوحة ثم خرجت منها لتنتقل صوب بيتها القريب حيث وجدت أبويها - ومعهما الخادمة - ساهرين وعلى وجوههم أمارات الذهول، ولم يخلعوا ثيابهم لينالوا قسطاً - ولو ضئيلاً - من الراحة .

عندما شاهدوها جروا نحوها فاتحين الأذرع، وبالدموع فى المآقى استقبلوها . طلبت من أبويها- وهى تنتفض رعباً- الانتحاء بها فى إحدى الغرف، ولما انفردا بها قصت عليهما تفاصيل نكبتها، وأخبرتتهما بعدم تعرفها على الجانى . عدت لهما ما رأته على المسرح المفجع للأحداث: النافذة الكبيرة المسيجة والحديقة و السرير والمناضد والطنافس الدمشقية واللوحات، ثم أخرجت الصليب الفضى المخبوء فى كمها، وأمامه هطلت الدموع من جديد واتجهوا إلى الرب بالصلاة ،طالبين القصص

والانتقام المروّع من الجانى . قالت لهما: إنها وإن كانت لا تود معرفة شيء عن العايب الذى تحجر قلبه وفتك بها إلا أنه بإمكانها- إذا ارتأيا صواب ذلك- الاستدلال عليه بواسطة الصليب، وذلك بتسليمه- أى الصليب- لقسيس يختارانه ويطلبان منه تكليف بقية زملائه فى المدينة بالإعلان عنه من على منابر كنائسهم مع التنبيه بضرورة توجه الشخص الذى فقده لاستلامه من القسيس الفلانى، وعندما يتقدم صاحبه لاستلامه سيعرفان من هو وأين يقيم .

رد أبوها قائلاً :

- فكرتك جيدة يا بنتى، لكن لؤم الآخرين وسوء طويتهم يفسدانها ويقفان حجر عثرة فى طريق تحقيقها . لاشك أن الصليب شيء غير عادى وأن صاحبه سيكتشف على الفور ضياعه؛ لكنه سيدرك أن الفتاة التى كانت معه فى الغرفة هى التى أخذته، وعندما يعلم أنه وصل إلى يد أحد القساوسة سيتحرى بطريقة ما عن الشخص الذى أعطاه للقسيس دون الإفصاح عن هويته؛ ومن جهة أخرى فإنه لن يعجز عن تكليف زميل له باستلامه بدلاً منه بعد أن يعطيه أوصاف الصليب كاملة . وإذا تمت المسألة على هذا النحو سيختلط علينا الأمر ولن تتضح الحقيقة مطلقاً، ومن ثم أرى أنه من الأفضل الاحتفاظ بالصليب بمثابة شاهد على محنتك وبرهان دائم للقاضى العدل (الرب) على حَقِّك فى القصاص وإظهار الحقيقة . اعلمى، يا بنتى، أن أوقية من العار الظاهر توجع وتضر بأكثر من ربع "قفيز"^(١) من الخزى المطمور . ومن هنا يمكنك العيش شريفة أمام الله والناس: فالعار الحقيقى يكمن فى اقتتراف الإثم طواعية، بينما يكمن الشرف الحقيقى فى طهارة القلب ونقاء السريرة . يمكن للإنسان معصية الرب وإغضابه بالنية أو القول أو العمل أو بهذا كله ، وأنت لم تعصه بأى من الثلاثة، ولذلك أنت حقاً شريفة، ولا بد أن تعتبرى نفسك هكذا ، ومن جهتي فلن أنظر إليك إلا بعينى الأب الحقيقى ، ولن أعاملك إلا من خلال هذا المنظور .

(١) القفيز: مكيال أندلسى يعادل ٦٠ رطلاً وزناً، وربع القفيز يسمى "فنيقة" وهى تعادل ١٨ رطلاً وزناً .
(المترجم)

خَفَّفَ عنها والدها بتلك الكلمات الرزينة الحسيفة، وعانفتها أمها من جديد محاولة التسرية عنها. عادت "ليوكاديا" للبكاء والنحيب، ومن بعدها لزمّت البيت لتعيش منزوية بلباسها المحتشم المتواضع تحت كنف أبويها وفي رعايتهما.

اكتشف "رودلفو" اختفاء الصليب الفضى فور عودته، لكنه لم يحفل - لغناه - بضياعه، ولكي لا يميّط اللثام عن جرمه الشنيع، كما أن أبويه لم يسألاه عنه بعد ثلاثة أيام عند رحيله إلى إيطاليا لأنه كان قد سلّم الغرفة بمحتوياتها إلى وصيفة والدته.

كان "رودلفو" قد اتخذ، منذ أسابيع عديدة، قرار السفر إلى إيطاليا التي خدم بها والده من قبل والذي أقنعه بأن الرجال في حاجة لإثبات رجولتهم الحقّة بعيداً عن الأوطان. ولهذا السبب - فضلاً عن أسباب أخرى - التقت رغبته مع رغبة والده الذي أعطاه صكوكاً بأموال وافرة لكي يصرفها من برشلونة وجنوة وروما ونابولي. رحل بصحبة زميلين من زملائه، مدفوعاً بما سمعه من بعض الجنود عن وفرة الأطعمة وجودتها في خانات فرنسا وإيطاليا، وعن حياة الحرية والانطلاق التي يتمتع بها الجندي الإسباني على طول الطريق. سافر وهو يحلم بالدجاج اللذيذ ولحم الخنزير المقدد الشهى والسجق الممتاز والحمام المحشو، إلى ما عدا ذلك من أصناف الطعام الأخرى التي يتذكرها الجنود ولا يملكون من المقارنة بين وفرتها وجودتها بتلك الأماكن وبين شحتها وسوئها في الخانات والنزل الإسبانية غير المريحة. المهم أنه رحل في النهاية وهو خالي الذهن تماماً، لا يكاد يذكر شيئاً عن فعلته مع "ليوكاديا"، وكأنها لم تقع.

خلال تلك الفترة كانت "ليوكاديا" تعيش في عزلة: لا تخالط أحداً ولا تغادر البيت حتى لا يشي ما على جبينها من كدر بمحتنها القاسية؛ لكن هذه العزلة الاختيارية سرعان ما أصبحت ضرورية حينما انتفخت بطنها وشعرت بتحريك الجنين داخل أحشائها. عادت إلى البكاء حينئذ، ولم تفلح محاولات التسرية من الأم الطيبة في الحدّ من زفرتها الحارقة ودموعها المريرة. مرت الأيام سراعاً وحانت ساعة الولادة، فلم يجروا على الاستعانة بالقابلة ولعبت الأم دورها لتخرج إلى الوجود طفلاً جميلاً أبدع الخالق تصويره. وفي تكتم شديد حمله الجد إلى إحدى القرى ليتربى فيها، وبعد

مضى أربع سنوات أحضره إلى طليطلة مدعياً أنه ابن أخيه، وهكذا نشأ الصبى فى وسط لا تعوزه الفضيلة أو السُّرَّ وإن كان مفتقراً إلى الغنى .

كان الطفل الذى أسموه "لويس" - على اسم جده - جميل الخلقة، هادئ الطباع، حاد الذكاء، وتوحى تصرفاته بأنه ابن أحد النبلاء، ولهذه المزايا استولى على قلب جدِّيه اللذين أحبَّاه حباً جماً، وأحسا أن المصيبة التى جرت لابنتهما قد تحولت إلى منة عظيمة بهذا الحفيد . حينما كان يخرج معهما إلى الشارع كانت تنهال عليه عبارات المديح والثناء؛ فهذا يشيد بجماله، وذلك يثنى على الأم التى ولدته، وهؤلاء يجدون الأب الذى أخرجه من صلبه، وأولئك يكيلون الثناء على الذى تعهده بالتربية والرعاية . ووسط هذا المديح ممن يعرفونهم أو لا يعرفونهم ترعرع الصبى وأكمل السابعة من العمر، وعندها كان يقرأ اللاتينية والإسبانية ويكتب بهما بخط رائع ومنسق؛ ذلك لأن جدِّيه كان يتوقان لجعله عالماً خلوفاً ما داماً لن يستطيعا توريثه الغنى والجاه [وكان العلم والفضيلة لا ييزان ما عداهما من ثروات حتى لو كانت متمثلة فى الغنى والسلطان والجاه !] .

وذات يوم، بينما كان الصبى فى طريقه إلى بيت إحدى قريبات جدته، حاملاً إليها رسالة ، مرَّ بشارع تجرى به وقائع مسابقة للخيول . وقف ليشاهد، ولما كانت الفرجة متعذرة حيث يقف فقد قرر الانتقال إلى مكان آخر تحسن فيه الرؤية؛ لكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات حتى دهمه جواد من المشاركين فى المسابقة ، ولم يتمكن صاحبه من تفادى الاصطدام . تركه الجواد طريحاً على الأرض بين الحياة والموت، ورأسه يتفجر منها الدم . نزل رجل عجوز كان يشاهد المسابقة ، من على صهوة جواده واتجه بسرعة إلى الصبى وحمله بين ذراعيه ؛ ودون مراعاة منه لشيبته ولا لمكانته الرفيعة جرى راكضاً بالصبى نحو بيته، وفور دخوله أمر الخدم باستدعاء الجراح على عجل . كانت الأصوات قد تعالت بعد الحادثة معلنة أن الصبى المصدم هو «لويسيكو» (٢) ابن أخى فلان، ولذلك فقد تبع الرجل العجوز الكثيرون وهم حزاني لما جرى للصبى الجميل . انتقل الصوت من فم إلى فم حتى وصل إلى الجدِّين والأم

(٢) "لويسيكو" Luisico تصغير للاسم العلم "لويس" . (المترجم)

المعتكفة، فما كان منهم إلا أن وثبوا من مكنهم مسلوبى الرشد، يجرون خبالى لإدراك صبيهم العزيز. ولأن الرجل الذى أخذه كان من وجهاء المدينة المعروفين فلم يجدوا عنقا فى الوصول إلى داره التى دلهم عليها كل من صادفوه فى الطريق.

طلب صاحب البيت ممن ظناهما أبويه الكف عن البكاء وعدم رفع الصوت بالنواح لأن هذا ليس فى مصلحة الصبى. مارس الجراح الشهير عمله بكفاءة واقتدار، وأخبرهم بأن الجرح ليس مميتا كما خشى فى البداية. وفى أثناء عمل الجراح ثاب "لويس" إلى رشفه وتآلفت أساريره عندما شاهد من يحسبهما عمه وعمته والذين بادرا بسؤاله - باكيين - عن حاله وصحته. أخبرهما أنه بخير وإن كان يشعر بألم شديد فى رأسه وجسده كله. أمر الطبيب بعدم التحدث مع المريض وتركه ليسترخ. امتثلوا لأوامره، واتجه الجد إلى صاحب البيت يشكره على حسن صنيعه ورقة قلبه. رد عليه الرجل قائلا: إنه لا داعى للشكر لأنه عندما نظر إلى وجه الصبى المطروح على الأرض رأى فيه وجه ابنه الغائب الذى يحبه كثيرا، وعندئذ وجد نفسه مدفوعا بقوة خفية لأخذه بين ذراعيه والهرولة به إلى بيته الذى سيمكث فيه حتى يتمائى للشفاء، ولن يغادره إلا محملا بالهدايا. ويمثل قول الزوج تحدثت الزوجة - وهى سيدة نبيلة فاضلة - بكلام يفيض حرارة وودا، واعدة الجريح بالمزيد من الهدايا والأعطيات.

أعجب الجدآن بصدق مسيحية صاحبى البيت وكرم أخلاقهما؛ لكن الأم كانت أشد منهما تعجبا ودهشة، ذلك لأنها بعد الاطمئنان على ابنها وزوال توترها أخذت تتفحص المكان فعثرت فيه على العديد من العلامات الواضحة التى تشير إلى أنه المكان الذى شهد نهاية شرفها وبداية محنتها. ومع أن الغرفة لم تكن مزينة بالطنافس الدمشقية إلا أنها أحست بالمكان ورأت النافذة المسيجة التى أطلت منها حينذاك على الحديقة، ولما كانت النافذة مغلقة لوجود الجريح بالحجرة فقد سألت من وجدته من الخدم عما إذا كانت تلك النافذة تفضى إلى حديقة ما، وعندئذ أكدت لها الإجابة صدق حدسها. تعرفت أيضاً على السرير الذى قُبرت فيه، كما تعرفت على المنضدة التى أخذت من فوقها الصليب وكانت ما تزال قابعة فى مكانها السابق.

وأخيراً، أخرجتها من ظلمة الشك إلى نور اليقين الدرجات التى تفصل بين الغرفة والشارع وقامت بعدها حينما أخرجها المعتدى معصوبة العينين. لقد قامت بعدها الآن

وهى عائدة إلى بيتها - بعد تركها لابنها لحين استرداده لعافيته - ووجدتها مطابقة للرقم المختزن في ذاكرتها .. روت كل هذا، وبالتفصيل، لوالدتها التي سارعت بالبحث والتقصي - في حيلة وحذر - عن أبناء الرجل الذي تركت حفيدها عنده . عرفت أن لديه ابناً وحيداً يدعى "رودلفو" وأنه موجود في إيطاليا . وعندما قامت بحساب مدة غيابه عن إسبانيا وجدتها تزيد عن عمر الحفيد (سبع سنوات) بالأشهر التسعة الخاصة بفترة الحمل .

روت الجدة لزوجها الحقائق كاملة، وبعد التشاور اتفقا مع الابنة على انتظار ما سيسفر عنه قضاء الله في الجريح الذي تجاوز - بعد أسبوعين - مرحلة الخطر لكي ينهض بعد ثلاثين يوماً من الفراش . وخلال تلك المدة لم تنقطع أمه وجدته عن زيارته، ولم يتوقف سيل الهدايا المنهمر عليه من صاحبي البيت وكأنه ابن لهما . كانت "دونيا إستيفانيا" - صاحبة البيت - تقول لليوكاديا كل مرة تلتقى بها: إن الصبي يشبه كثيراً ابنها الموجود في إيطاليا، وإنها حينما تنظر إليه يخيّل لها أنها أمام صورة ابنها الغائب . عندما أخبرتها بهذا في إحدى المرات، انتهزت ليوكاديا فرصة الانفراد بها وقصت عليها ما سبق واتفقت عليه مع والديها . قالت لها:

- سيدتي الكريمة، عندما تلقى والداي خبر إصابة "لويس" انهار على كاهليهما حزن العالم بأكمله ، وتصورا أن أبواب السماء قد أوصدت في وجهيهما . إنهما يحبانه حباً يفوق بكثير ما اعتاد أن يكنه الآباء لفلذات أكبادهم، ولذا فقد أحسّا ساعتها بفقدان نور عيونهما وذخيرة شيخوختهما . ولأن الله يقَرِن - حسبما يقال - الفرج بالشدة ويجعل في العسر يسراً، فقد وجد الصبي اليسر في هذه الدار، كما التقيت أنا فيها بذكريات لن تفارق مخيلتي مادمت على قيد الحياة . أنا، يا سيدتي، أصيلة نسيبة لأن أبوى كذلك، وقد ورثنا النبل والفضيلة كابراً عن كابر . صحيح أننا من متوسطي الحال والثروة؛ لكن أسلافنا استطاعوا، جيلاً بعد جيل، الحفاظ بتلك الثروة المتوسطة على كرامتهم وشرفهم في أي مكان حلوا به أو استقر بهم المقام فيه .

كانت "دونيا إستيفانيا" تنصت باهتمام وإعجاب شديدين، غير مصدقة بإمكانية انطواء السنوات المعدادات - التي تقارب العشرين، كما حسبتها - على مثل هذا القدر

الكبير من الحصافة والحكمة. لم تقاطعها وانتظرت لحين فراغها من الحديث الذى تناول عبث الابن وتفاصيل عملية الاختطاف وعصب العينين والحمل قسراً إلى تلك الحجرة التى استدلت عليها من بعض العلامات المميزة. وكدليل على صدقها أخرجت من بين طيات ملابسها الصليب وراحت تناجيه بالكلمات الآتية:

- بما أنك كنت شاهداً، يا إلهى، على اغتصابه لى عنوة، إليك أعهد بالقضاء فى أمرى على النحو الذى ترضاه. من فوق هذه المنضدة أخذتك، لا لطلب الانتقام بل لأذكرك على الدوام بمحنتى وللتوسل إليك كى تلهمنى الصبر والسلوان عليها.

"هذا الصبى الذى أوليتموه، يا سيدتى، العناية الفائقة وشملتوموه بعظيم العطف لبس إلا حفيدكم الحقيقى. لقد شئت إرادة السماء أن يحدث له ما حدث لكى تحملوه إلى بيتكم ويتسنى لى زيارته لأجد فيه: إن لم يكن العلاج الناجع لنكبتى، فعلى الأقل ما يعيننى على تحملها".

قالت هذا وهى تضم الصليب إلى صدرها ثم سقطت بين ذراعى "دونيا إستيفانيا" مغشىاً عليها. قامت صاحبة الدار - لأنها امرأة نبيلة من طبعها الرحمة والشفقة، على خلاف ذويها من الرجال الذين يتسمون بالقسوة والغلظة - بإمالة رأسها على وجه "ليوكاديا" وذرفت فوقه دموعاً كانت من الكثرة لدرجة أنها لم تكن بحاجة لصب مياه أخرى عليه حتى تفيق من الغيبوبة التى راحت فيها.

دخل عليهما صاحب الدار ويده "لويسيكو"، وعندما شاهد بكاء زوجته وإغماءة "ليوكاديا" بادر بالسؤال عن السبب. عانق الصبى أمه (التي يحسبها ابنة عمه) كما عانق جدته (التي يظنها محسنته) وسأل هو الآخر عن الداعى لكل ذلك.

- أمور جلييلة يا سيدى - أجابت إستيفانيا على زوجها -، خلاصة فحواها تتمثل فى إخبارك بأن المغشى عليها هى كنتك وأن الصبى الذى تمسكه بيدك هو حفيدك. أطلعتنى على هذه الحقيقة تلك الفتاة وأكدتها لى ببراهين متعددة مثلما يؤكدها وجه هذا الصبى الذى رأينا فيه سوياً وجه "رودلفو".

- إذا لم تفصحى أكثر سيظل الأمر مستغلقاً على - قال لها الزوج .

فى تلك اللحظة ثابت "ليوكاديا" إلى رشحدها وبدت - وهى معانقة للصليب - كأنها قد تحولت إلى بحر من الدموع. زادت حيرة الرجل، فما كان من زوجته إلا أن صحبته خارج الغرفة وقصت عليه ما سبق وأخبرتها به "ليوكاديا". شاءت العناية الإلهية ألا ينكر الرجل شيئاً مما سمعه، بل آمن به كأن إثباته قد تم أمامه على يد جمع من الشهود العدول .. واسى "ليوكاديا" وضمها إلى صدره ثم قبل الصبى . قام فى اليوم نفسه بالكتابة لابنه فى نابولى طالباً منه التعجيل بالعودة لأنه بصدد عقد قرانه على فتاة رائعة الجمال لا تقل عنه جاهاً ولا ثروة . ارتأى الرجل وزوجته أنه من الأفضل الإبقاء على "ليوكاديا" وابنها فى بيتهما انتظاراً لقدم الابن . عندما أبلغا والديها بذلك لم يمانعا واستبشرا بالخاتمة السعيدة للمحنة الطويلة التى عاشتها ابنتهما، ولم يفتكما التوجه للخالق بالشكر العميم على فضله ونعمائه .

نور وصول الرسالة إلى نابولى تهيأ "رودلفو" للسفر تدفعه الرغبة فى رؤية العروس الجميلة التى حدثه عنها والده . وبعد يومين فقط كان بصحبة زميله على متن واحدة من السفن الأربع المتجهة إلى إسبانيا . وفى ظل ظروف ملاحية مواتية رست السفن بعد اثنى عشر يوماً فى ميناء برشلونة، وعن طريق البر استأنفوا الرحلة إلى طليطلة فوصلوها بعد سبعة أيام . نهادى "رودلفو" إلى بيت أسرته بقده الرشيق المزدان بالملابس الزاهية الملونة .

ابتهج الوالدان لرؤيته سليماً معافى، وتملكت الدهشة "ليوكاديا" (التى كانت ترمقه من المخبأ الذى تتوارى فيه تنفيذاً للخطة التى دبرتها "دونيا إستيفانيا") من جمال طلعه . حاول زميله الاستئذان للعودة إلى بيتيهما، لكن "دونيا إستيفانيا" أصرت - لشيء فى صدرها - على بقائهما لبعض الوقت . كان الليل قد أرخى سدوله عندما وصل "رودلفو" إيذاناً بتقديم العشاء، وفى أثناء إعدادة نادى الأم على صاحبى ابنها (لاعتقادها أنهما كانا ضمن الأربعة الذين رافقوه ليلة اختطاف ليوكاديا) وانحت بهما جانباً . توسلت إليهما بأن يعملوا الذاكرة جيداً ليحدثاها بما جرى فى تلك الليلة البعيدة لأن المسألة فى غاية الأهمية وتتعلق بشرف فتاة بريئة وسمعة أهلها . طمأنتهما بأنه لن يلحقهما أى أذى لو أماطا اللثام عن واقعة الاختطاف التى شاركا فيها "رودلفو" مع زميلين آخرين، كماحتتهما على قول الحقيقة ببيان ما للاعتراف من فضل وأهمية فى حياة المسيحى . سألتهما إذا كان "رودلفو" قد قام

بحمل الفتاة عنوة إلى بيته بينما تولى أربعتهم مهمة التصدى بالسيوف لأبويها ومنعهما من طلب النجدة .

أزال اعترافهما كافة الشكوك، ومن ثم فقد عازمت على المضي قدماً في خطتها: قبل جلوسهم إلى مائدة العشاء نادى على ابنها، وعندما انفردت به في إحدى الغرف قدمت له صورة فتاة وقالت له:

- يطيب لى فتح شهيتك للعشاء بصورة الزوجة التي اخترناها لك: أنا وأبوك، هذه هي صورتها الحقيقية، وضع في اعتبارك أن ما ينقصها من جمال تقابله زيادة في الفضل: فهي نبيلة، حصيفة وغنية. تأكد من مناسبتها لك.

تأمل "رودلفو" الصورة ثم قال:

- بما أن المصورين يجتهدون- عادة - في تحسين وجوه من يقومون بتصويرهم، فلا شك عندى أن أصل هذه الصورة هو والقبح سواء. إذا كان، يا أمى العزيزة، من واجب الأبناء طاعة آبائهم في كل ما يأمرهم به، فينبغى على الآباء عدم تكليفهم بما لا يطيقون، وأن يقدموا لهم ما يسعدهم ولا يكدرهم، وإذا كانت عقدة الزواج لا تنفصم إلا بالموت، فمن البديهي أن تكون أربطتها متساوية ومصنوعة من الخامة نفسها، لا شك أن الزوج يسعد بالزوجة التي تتمتع بالفضيلة والنبالة والحصافة والغنى، أما أن يبهج القبح عين الزوج فهذا شيء مستحيل . صحيح أنني ما زلت في شرخ الشباب، لكننى أدرك أن المرء يقبل مسئولية الزواج مدفوعاً بوازعين: وازع الامتثال لأوامر الدين المقدسة، ولداعى المتعة المستحقة والبهجة المنشودة، ومن المستحيل أن يستمد المرء المتعة والبهجة من الوجه القبيح المائل أمامه على مدار الساعة (سواء كان في غرف البيت أو في السرير أو على مائدة الطعام) . أستحلفك بحياتك، يا أماء، أن تقدمى لى رفيقة تسلينى ولا تحزننى حتى نتمكن سوياً من حمل نير الزواج الذى وضعته السماء فوق عنقينا والسير به فى الطريق المستقيم دون الانحراف به يميناً أو يساراً. إذا كانت تلك الفتاة نبيلة وحصيفة وغنية -كما تقولين - فلن نعدم من يقدر

فيها هذه الأشياء و يتخذها زوجة، لكن هذه الصفات ليست منتهى أملى: يوجد من يبحث عن النبالة، ومن يفتش عن الحصافة، ومن يستهويه المال، ومن يأسره الجمال، وأنا من الصنف الأخير. لا أبحث عن النبالة لأننى - بفضل الله - ورثتها عن آبائى وأجدادى، ولا عن المال لأن غنى أبوى قد كفانى شر الخوف من الفقر، ومن الحصافة يكفينى ألا تكون حمقاء أو غبية أو بلهاء .. غايتى الجمال، والجمال أريد، لا مهر معه سوى العفة والأخلاق الحميدة والعادات الحسنة، لو كانت زوجتى تتحلى بهذه الخصال سأعيش سعيداً لأرعى والدى فى شيخوختهما ولأحمد ربى وأشكر فضله.

أثلج صدر الأم كلام ابنها لأنه يسير فى الاتجاه الذى خططت له، أخبرته عندئذ أنها ستحاول تزويجه طبقاً لرغبته، كما طالبت بالخروج من حالة الهم والكدر التى استولت عليه لأنه من السهل التملص من الوعود التى منوا بها صاحبة الصورة.

شكرها "رودلفو"، ولما كان الخدم قد انتهوا من إعداد المائدة للعشاء فقد اتجهوا إليها للانضمام إلى الآخرين.

أخذ الأب مكانه فى صدارة المائدة وإلى يمينه جلست الأم، وعلى الجانب الآخر جلس "رودلفو" وزميله. بعد استوائهم جميعاً على مقاعدهم قالت "دونيا إستيفانيا" فى نبرة توحى بنسيانها لأمر هام:

- ويحاً لى، لقد نسيت ضيفتى! أخبر "دونيا ليوكاديا" - موجهة كلامها لواحد من الخدم - أن بإمكانها الانضمام إلينا دونما خجل لأن الموجودين بالقاعة هم أولادى ومن يتولون خدمتهم.

كان الجو بارداً، ولذلك حضرت "ليوكاديا" مرتدية ثوباً سميكاً طويلاً من المخمل الأسود الذى تتناثر فوقه - كالمطر - أزرار من الذهب واللؤلؤ، وحول جديدها وخصرها يلتف عقد وحزام ما سيان. أما شعورها الضارية للشقرة فقد كانت لها بمثابة الزينة والطرحه، كانت مصففة فى جدائل تعلوها حببات الماس المتلألئة التى يعشى بريقها عيون الناظرين إليها، جاءت تخطر، ممسكة بيد ابنها، وأمامها فتاتان تحمل كل منهما شمعداناً فضياً عليه شمعة كبيرة، وضوء الشمعتين ينعكس على قدها المشوق ونضارتها اليانعة .

نهضوا جميعاً، إكباراً لها وإجلالاً، كأنهم أمام ملاك هبط عليهم فجأة من السماء . وقفوا مشدوهين يتطلعون إليها، ولم يسعف أحدهم لسانه ولو بكلمة . انحنت أمام كل منهم انحناءة تنم عن تربية سامية وملاحة منقطعة النظير . أخذتها "دونيا إستيفانيا" من يدها وأجلستها إلى جوارها فى مواجهة رودلفو، وجلس الصبى قريباً من جده .

عندما شاهد رودلفو عن قرب جمال ليوكاديا الفتان قال لنفسه: "لو أن التى اختارتها أمى زوجة لى تملك نصف هذا الجمال لكنت أسعد إنسان فى الوجود . عونك يا إلهى، ما هذا الذى أراه ! أملاك من البشر هذا الذى أشاهد ؟" .

فى الوقت الذى أخذت فيه صورة "ليوكاديا" الجميلة تنفذ من عيني "رودلفو" لتستقر فى قلبه، كانت صورته هو الآخر تتبوأ مكانها من نفس "ليوكاديا" التى كانت تسترق النظر إليه أثناء تقديم العشاء ، لكن مخيلتها سرعان ما عادت بها إلى الوراة لتذكرها بما فعله بها ، وعندئذ بدأت تخفت بداخلها الآمال وطغى عليها الشعور بأن حظها القليل سيقف حجر عثرة فى طريق تحقيق "دونيا إستيفانيا" لوعودها بتزويجها له . أحست أنها قريبة جداً من أن تكون محظوظة أو تعيسة إلى الأبد . تناوشتها جملة من الأحاسيس المتناقضة والأفكار المتباينة التى أطبقت على قلبها فامتقع لونها فجأة وتقصد جبينها بالعرق ثم داهمها دوار أجبرها على إمالة رأسها على "دونيا إستيفانيا" التى تلقفتها - فى غير قليل من الارتباك - بين ذراعيها .

قفز الجميع من أماكنهم مفزوعين وهبوا لنجدتها، لكن "رودلفو" كان أشدهم تأثراً بما حدث لأنه عثر وسقط على الأرض مرتين نتيجة تسرعه فى الوصول إليها، لم تفلح التهوية ولا الماء المصبوب فى إعادتها لرشدها، وزاد الطين بلّة بتوقف نبضها وسكون صدرها مما جعلهم يتصورون أنها فارقت الحياة . لم يتريث الخدم وأطلقوا الصرخات الموجهة معلنين نبأ وفاتها، وصلت الصرخات المريرة إلى أسماع والديها المختبلين - بصحبة قسيس الكنيسة الكبيرة - فى أحد أركان البيت تنفيذاً لتعليمات "دونيا إستيفانيا" فخرجوا من مكنهم مفسدين بذلك تدبير صاحبة الدار .

تقدمهم القسيس ليرى ما إذا كان بالطريحة أرضاً بقيّة من حياة تسمح لها بالاقراراف بذنوبها كى يعفيها منها، لكنه وجد جسدين ممددين بدلاً من واحد : ذلك لأن "رودلفو" - الذى أفسحت له أمه مكاناً حتى يقترب ممن ستصبح زوجته - كان

قد سقط هو الآخر مغشياً عليه ورأسه فوق صدر "ليوكاديا" . حين أدركت الأم فقدانه للحس كانت على وشك فقدان اتزانها أيضاً لو لم تلاحظ على الفور ديبب الوعى العائد إلى جسده . نهض "رودلفو" خزيان ؛ لأن رد فعله الغريب قد تكفل بفصح مشاعره على الملأ .

قالت له أمه التى أحست بما يعتمل فى صدره :

- هون عليك يا بنى ، وادخر انفعالاتك لما ستمعه منى الآن وكنت أخفيه ولن أفصح عنه إلا فى اللحظة المناسبة: إن الممددة بين ذراعى هى زوجتك الحقيقية ، وأقول حقيقة لأنها التى اخترناها لك؛ أما صاحبة الصورة فهى مزيفة .

أزاحت كنمة "زوجة" التى سمعها "رودلفو" كافة العوائق التى تملأها العفة وهيبة المكان ووقاره ، ومدفوعاً بحبه العارم وأشواقه المتأججة رفع رأس "ليوكاديا" ووضع شفثيه على فيها، كأنه ينتظر خروج روحها لتستقر فى فواده .. عندما تعاظمت دموع الحاضرين وتعالّت صرخاتهم المتألّمة ، وازداد تناقص شعور جدائل أم "ليوكاديا" وذقن أبيها من جراء النتف ، وهتكت صيحات ابنها أستار السماء ، ثابت الممددة إلى رشدها ، ويعودة الوعى إليها عادت البهجة لتخفق بجناحيها فى الصدور .

وجدت "ليوكاديا" نفسها بين ذراعى "رودلفو" فحاولت التملص منهما بما فصل لها من طاقة ، وعندئذ قال لها:

- لا تراعى يامليكة فوادى ، ولا داعى للتخلص ممن يحملك فى سويداء قلبه .

حين سمعت هذا منه تبددت مخاوفها ولم تجد "دونيا إستيفانيا" داعياً للاستمرار فى خطتها حتى النهاية ، ومن ثم فقد بادرت بطلب عقد قرانهما من القسيس . وإلى هنا يقف قلمي المتواضع عاجزاً عن وصف السعادة التى حلّت فوق رؤوس الحاضرين ، والمشاعر الحارة المتبادلة بين أهل العروسين ، وكلمات الشكر والثناء التى وجهها والدا "ليوكاديا" إلى الخالق ثم إلى أبوى العريس أو الأحضان التى تلقاها الأخير منهما ، والدهشة التى استولت على زميلى "رودلفو" وهما يشاهدان بأعينهما - على غير المتوقع - إتمام عقد قران صاحبهما ليلة وصولهم على الفتاة التى ساعدها

من قبل (طبقاً لما روتّه " دونيا إستيفانيا " لهما) فى اختطافها . لم يكن "رودلفو" أقلّ منهما دهشة ، ولكى يتأكد من هذه الحقيقة ويطمئن قلبه لما سبق وآمن به أبواه طلب من "ليوكاديا" أن تخبره بعلامة من العلامات ، فقالت له :

- حين أفقت من غيبوبتى قبل بضع سنوات وجدت نفسى بين ذراعىك مسلوبة الشرف، ومع هذا فقد غفرت لك ما تقدم لأننى استرددت شرفى ثانية حينما أفقت بين ذراعىك أيضاً من إغماءتى الحالية . وإذا لم تكن هذه العلامة كافية، فما رأيك فى الصليب الفضى الذى لم يأخذه من غرفتك سوى، إنه الآن فى حيازة والدتك . أنت قطعة منى وستظل كذلك طوال السنوات الباقية من عمرى .

تعانقا من جديد، ومن جديد انهالت عليهما آلاف التبريكات .

قدّم العشاء، وبصحبتّه حضر الموسيقيون المدعوون سلفاً . فى وجه الابن رأى "رودلفو" صورته، كأنه ينظر فى مرآة . ومن شدة الفرح بكى أجداده الأربعة، واهتزت أعطاف البيت بهجة وحبوراً . ومع أن الليل كان يطير بأجنحته السوداء الرشيقة إلا أنه بدا لـرودلفو وكأنه يمشى على عكازين: لقد كانت رغبته عارمة فى الانفراد بزوجته .

وبما أن لكل شىء نهاية، فقد حانت أخيراً الساعة المأمولة: انصرف الجميع طلباً للنوم وبقيت الدار غارقة فى الصمت . صمت ينافى حقيقة هذه الحكاية، ولا يسمح به الأبناء الكثيرون ولا السلالة الشريفة التى خلفهاها فى طليطلة . وإلى يومنا هذا ما زال هذان الزوجان المحظوظان ينعمان بالدفء فى عشهما السعيد ويعدد وافر من الأبناء والأحفاد، والفضل فى كل ما تقدم يرجع إلى عناية السماء ، ثم إلى الدم الذى رآه مراقاً على الأرض المسيحى المقدام والكريم الأصيل: جدّ "لويسيكو" .

غیور (إكستریما دورا) (۱)

(۱) يقع إقليم "إكستریما دورا" Extremadura في غرب إسبانيا ، وهو مناخ للبرتغال. (المترجم)

منذ أعوام ليست بالكثيرة غادر موطنه بإقليم "إكستريما دورا" رجل شريف من أوساط الناس ينتمى لأبوين نبيلين . ومثل أول بشر شهدته الخليفة أخذ يضرب في الأرض على غير هدى مبدداً زهرة عمره وماله في الطواف بأنحاء إسبانيا وإيطاليا وفلاندس . وفي نهاية تطوافه المستمر الذي أتى على ثروته بالكامل، وبعد موت والديه جاء إلى زهرة المدائن "إشبيلية" قاصداً الاستقرار فيها وتمضية البقية الباقية من حياته . ولما وجد نفسه مفتقراً إلى المال ولا يتمتع بعدد وافر من الأصدقاء هداه تفكيره - مثل غالبية الضائعين بتلك المدينة- إلى شد الرحال إلى العالم الجديد: ملجأ وملاذ اليائسين من الإسبان، ودار العفو عن المفلسين الذين تطاردهم الديون، ووثيقة البراءة للقتلة وعتاة المجرمين، وغطاء وسرّ المحتالين في فن اللعب ويطلق عليهم البعض خبراء، ومرتع النساء المتحررات، والسراب الخادع للكثيرين والبلسم الشافي للقليلين .

ومن ميناء "قادس" ، وعلى متن إحدى سفن الأسطول المتجه إلى مملكة "بيرو" صعد الرجل حاملاً الزاد وحشية من الحلفاء.. تليت الصلوات إيذاناً بالرحيل، ووسط مظاهر البهجة المعتادة نشرت القلوع لتصافح الرياح اللدنة المواتية، وفي غضون ساعات قلائل توارت توارت اليابسة وسدت الأفق السهول المنبسطة العريضة لملك المياه: البحر المحيط (٢) .

مضى صاحبنا وهو مستغرق في التفكير، يقلب في ذاكرته الأخطار المتنوعة التي واجهها في سنى ترحاله، ومنهاجه الخاطي في تدبير أموره، اقتنع بصواب القرار الذي اتخذته لتغيير مجرى حياته، وعاهد نفسه على التصرف بشكل مختلف حتى يحافظ على ما يمن به الله عليه من خيرات، وعلى الحد من تهالكه على النساء والاستسلام لغوايتهن، وفي أثناء تقلب "فيليب دي كارينالس" [وهذا هو اسم ولقب صاحبنا: بطل الحكاية] لفكره واسترجاعه لشريط حياته المنصرمة وتخطيطه

(٢) البحر المحيط هو ما يعرف الآن بالبحر الأطلنطي أو الأطلسي . (المترجم)

للمستقبل كانت سفن الأسطول تشق عباب الماء آمنة مطمئنة؛ لكن الريح سرعان ما نشطت من عقالها فأرجحت السفن بقوة وقلقلت المسافرين من أماكنهم. وهكذا وجد "كاريثالس" نفسه مضطراً إلى قطع حوارهِ الذاتي والانشغال بما يتأتى في الرحلة التي تمت بخير وسلام إلى أن ألقت السفن بمراسيها - دون أية معوقات - في ميناء قرطاجنة^(٣) .. ولتفادى الدخول في التفاصيل التي لا تعنينا في هذه الحكاية نقول إن "كاريثالس" كان يبلغ الثمانية والأربعين من العمر حين وصل إلى العالم الجديد، وأنه في العشرين عاماً التي قضاها فيه قد جمع - بفضل مهارته وحسن تدبيره - ما يزيد عن مائة وخمسين ألف "بيزو" من الفضة النقية المدموغة^(٤) .

حين ألقي نفسه غنياً واثته الرغبة - مثل غيره - في العودة إلى الوطن، وبعد تحويل أمواله إلى سبائك من الذهب والفضة وقيامه بتسجيلها - تفادياً للمصادرة بعد ذلك - غادر مملكة بيرو في طريقه إلى إسبانيا. نزل من ميناء "شلوقه" (San Lucar) ، ثم اتجه إلى إشبيلية مثقلاً بالأموال والسنوات. ولما بحث عن أصدقائه ولم يجد منهم أحداً على قيد الحياة قرر الرحيل إلى مسقط رأسه في "إكستريما دورا" رغم علمه بأن الموت لم يبق له على قريب فيها .. ومع اختلاف الأسباب، فإن الأفكار والهموم التي لازمته حين رحل فقيراً محتاجاً إلى العالم الجديد لم تنفك عنه لحظة بعد عودته، ذلك لأن المال - مثل الفقر المستديم - يعتبر حمولة ثقيلة لمن لم يعتد امتلاكه وتصريفه في أوجه الإنفاق العديدة، ولأن النضار يجلب الهم والحذر مثلما يجلبهما الافتقار إليه. وإذا كانت الثروات المعقولة تشفى من الداءين المذكورين فإن الضخمة منها تزيدهما وتذكى أوارهما.

أخذ "كاريثالس" يتأمل سبائكه: لا من منطلق الحرص والافتنان - لأن سنوات الجندية الطويلة علمته التمييز والاستخفاف بالمال - لكنه كان ينعم التفكير فيما عساه أن

(٣) أطلق المكتشفون الإسبان كثيراً من أعلامهم الجغرافية على مدن العالم الجديد، ومنها قرطاجنة التي كانت في عصر ثريانتيس إحدى المدن الكولومبية الهامة. (المترجم) .

(٤) كان يوجد في العالم الجديد موظفون إسبان يقومون بفحص ودمغ النقود المعدنية (المسكوكة من الذهب والفضة ... إلخ) . والمال الذي عاد به "كاريثالس" كان - طبقاً لآراء اللقاة والمؤرخين - يمثل ثروة هائلة بمقاييس ذلك الزمان لأن المائة والخمسين ألف بيزو الفضية كانت تساوي مليوناً ومائتي ألف ريال، والتجار كان يتقاضى في إشبيلية عام ١٦٠٣ م ثمانية ريالات مقابل عمله اليومي. (المترجم)

يصنع بها: أتركها هكذا ويحتفظ بها في البيت فتصبح بمثابة الطعم للصمص ،
والموقظ لشهية الطامعين ؟ !

كانت قد ماتت بداخله الرغبة في العودة إلى قلق الاشتغال بالتجارة لأن ما يملكه من ثروة يفيض عن تلبية حوائجه في سنوات عمره الباقية، وكذا راودته فكرة التزكية عنها بحملها إلى موطنه لينفقها هناك ويمضي شيخوخته في دعة واطمئنان ، متفرغاً - ما وسعه - لعبادة الرب ولأعمال البر لأنه قدّم لدنياه أكثر مما ينبغي .لم يسترح تماماً لهذا الخاطر لمعرفته أن إقليم "إكستريما دورا" من أشد الأقاليم فقراً، وأن سكانه في غاية البؤس والشقاء، وإقامته بينهم ستجعل منه هدفاً لكل أنواع اللجاجة التي اعتاد أن يوليها الفقراء للأغنياء القريبين منهم، لا سيما إذا لم يكن ثمة ملاذ آخر يلجأون إليه بتعاستهم وشقائهم. تمنى أن يكون له وريث تؤول إليه ثروته بعد مماته، ومدفوعاً بهذه الأمنية كان يسارع بجس نبض قوته فيعتريه الإحساس بأنه ما زال بمقدوره تحمّل تبعات الزواج والنهوض بمسئوليّاته، كما كان يعتريه- في الوقت نفسه- خوف كبير يفتّ في عضده ويفكك أوصاله مثلما تفعل الريح بالضباب: لقد كان غيوراً بطبعه، بل أشد رجال العالم غيرة- حتى وهو أعزب- ولذا كانت توهنه الشكوك وتفزع الخيلات من مجرد التفكير في الزواج ، ولهذا السبب استقر رأيه في النهاية على ضرورة التخلي عن الفكرة.

بعد ائتناسه بالرأى الأخير في مسألة الزواج وقبل اتخاذه لآخر بشأن مستقبله شاء القدر أن ينظر إلى أعلى- أثناء مروره ذات يوم بأحد شوارع المدينة- ليشاهد في إحدى الشرفات وجهاً مقمراً لفتاة تبدو في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر. لم يقل "كارينالس" الطيب على مقاومة الجمال الطاغى، واستسلم وهن سنواته المديدة لفتوة سنوات "ليونورا" القصّار. ودون أن يتروى دخل مع نفسه في جملة من الحوارات :

- هذه فتاة جميلة، وحال بيتها لا ينمّ عن الغنى؛ إنها ما تزال في مرحلة الصبا، وعمرها الغض لا يسمح بالشكوك والأوهام .لو تزوجتها وأغلقت عليها بابى سأسكلها على هواي وأصنعها على عيني. أنا لست طاعناً في السن حتى أفقد الأمل في إنجاب ذرية ترثني. لا يعني امتلاكها لمهر أو

افتقارها إليه لأن السماء قد كفتنى التفكير فى هذا أو ذاك، ومن جهة أخرى لا يجدر بالأغنياء مثلى طلب الثروات من وراء زيجاتهم ، بل البحث عن السكينة والمتعة فحسب: فالسكينة والمتعة بين الأزواج تطيل الحياة بينما نقصفها المكدرات والأحزان. قضى الأمر: لا معاندة للقدر ولا مرد لقضاء السماء .

وعلى مدى بضعة أيام أدار الحوار السابق مع نفسه مئات المرات، وفى نهايتها ذهب إلى أبوى "ليونورا" - وهما رغم فقرهما من الأشراف- وبعد تقديم نفسه وبيان وضعه المالى والاجتماعى طلب يد ابنتهما. أخبراه بحاجتهما إلى مهلة للتحقق من شخصه وصفته ولكى يتمكن هو الآخر من التثبت من سلامة ما يدعيه بشأن أصلهما النبيل. افترقا على وعدٍ باللقاء، وبعد إجراء التحريات اللازمة واتصاح مصداقية الطرفين أصبحت "ليونورا" زوجة لـ "كارينالس" الذى أمهرها عشرين ألف "دوكادوس" . لم يكد يصبح زوجاً حتى داهمته شتى صفوف الغيرة العمياء، أخذ- دونما سبب- يرتعد فرقا وشرع فى اتخاذ كافة الاحتياطات التى لم تخطر له من قبل على بال، وأولها قراره بعدم السماح للخياط بأخذ مقاسات عروسه من أجل حياكة الكم الهائل من الأقمشة الفاخرة التى اشتراها لها. بحث عن امرأة فقيرة تشبه زوجته فى القَد والطول، وعلى مقاسها حاك الخياط ثوباً، ولما جريته "ليونورا" ووجدته مضبوطاً عليها حيكت على منواله الملابس والفساتين الأخرى. كان أبواها فى غاية البهجة لا اعتقادهما أن الحظ السعيد قد أتحنفهما بصهر ممتاز، كما كانت الابنة شديدة الانبهار بالهدايا النفيسة والثياب الفاخرة: إذ لم يسبق لها أن ارتدت شيئاً يزيد عن تنورة متواضعة وقميص من التفتّاه .

ومن أمارات غيرة "فيليب" القاتلة إصراره على عدم الدخول بزوجه إلا بعد تجهيز المسكن المناسب لها، ومن أجل هذا قام بعمل الآتى: أنفق اثنى عشر ألف "دوكادوس" فى شراء بيت بأحد الأحياء الرئيسية، مزوداً بعين جارية وحديقة مترعة بأشجار البرتقال. قام بعد ذلك بسدّ النوافذ- سواء الداخلية أو المطلّة على الشارع- وبناء حظيرة خلف باب البيت للبغلة ، وفوقها مخزن للقش والتبن وغرفة للحبشى الخصى المسنّ الذى سيتعهد الدابة بالرعاية، كما أحاط البيت بسور عالٍ لا

يسمح لمن يدخله برؤية شيء سوى صفحة السماء، وفي المنطقة المؤدية إلى الفناء أقام صينية خشبية دوارة (٥) .

اشترى أثاثاً فاخراً يليق بعظيم لتزيين البيت (مثل السجاجيد والبُسط والطنافس والكراسى والزرابي والوسائد.. إلخ) ، كما ابتاع - فضلاً عن جاريتين زنجيتين مجلوبتين حديثاً- أربع جوارى ببيضاوات وكوى وجوهن بالنار.

تعاقد مع متعهد لإمداد البيت بما يحتاجه من مؤن واشترط عليه ألا يتجاوز الصينية الدوارة التى سترك عندها ما يحضره .. شارك بجزء من ثروته فى عدد من المشروعات المضمونة التى تدر عائداً سنوياً، وأودع جزءاً آخر فى البنك، واحتفظ بالباقي للإنفاق على متطلباته المعيشية . استخرج مفتاحاً عمومياً لكافة أبواب البيت، وبعد قيامه بتخزين كمية ضخمة من السلع والمؤن الجافة تكفى سنة على الأقل، ذهب إلى حمويه مطالباً بزوجه فأعطياها له - مهمومين باكيين - لأنهما يعرفان أن ابنتهما ستعيش فى بيت لا يختلف كثيراً عن المقبرة . لم تكن "ليونورا" الصغيرة مدركة لأبعاد ما هى مقبلة عليه، وهكذا فقد طلبت من أبويها - وهى تشاركهما البكاء - مباركتها، وبعد وداعهما اتجهت إلى بيت الزوجية، يدها فى يد زوجها ومحاطة بالجوارى والخادمت، وفور دخول البيت ألقي "كاريثالس" عليهن بتعليماته وتوصياته مكلفاً إياهن بحراسة زوجته ومنع أى فرد من عبور البوابة الداخلية حتى ولو كان العبد المسنّ المخصى، كما كانت تعليماته بهذا الخصوص واضحة وقاطعة بالنسبة للقهرمانه المتجهمة والخبيثة التى اتخذها مربية لزوجته وجعلها رئيسة على الجوارى والوصيفتين اللتين استأجرهما لتسليّة "ليونورا" واختارهما من سنّها .

أبدى لهن استعداداه لإغراقهن بالهدايا وتلبية طلباتهن جميعاً لتبديد إحساسهن بالعزلة، كما أخبرهن باستعداداه لإخراجهن قبل بزوغ النهار - حتى لا يراهن أحد - لسماع القدّاس أيام الأحد، عاهدته الجوارى والخادمت عندئذ على تنفيذ أوامره كلها عن طيب خاطر، دونما ضيق أو كدر . أما الزوجة الشابة فقد اكتفت بهزّ كتفها والقول وهى مطرقة الرأس: إنها ستكون دائماً رهن إشارته وطرع بنانه .

(٥) "نورنو" : Tomo صينية خشبية دوارة تستخدم فى أبواب أديرة الراهبات لتوصيل الأغراض من الداخل إلى الخارج أو العكس ، دون السماح للراهبات برؤية الزوار ولا لهؤلاء برؤيتهن . (المترجم)

بعد هذه السلسلة الطويلة من التحفظات والاحتياطات قُبِعَ "كاريثالس" الطيب في بيته ليتذوق - قدر استطاعته - عسيلات الزواج ، التي كانت بالنسبة لليونورا - لانتفاء خبرتها - ليست بسائغة أو لذيدة، وهكذا كانت تمضي الوقت في معية القهرمانه والوصيفتين والجواري والخادمت اللاتي استبقن في طلب كل ما يشتهين، وكان صاحب الدار يلبيه على الفور ظناً منه أن ذلك كافٍ لتسليتهن وشغلن عن التفكير في السجن الذي يتقلبن بين جنباته .انهمكت "ليونورا" في مثل ما انهمكت فيه خادمتها وتسَلَّت بما يتسلين به، وزادت عليهن بانشغالها بعمل الدُمل والعرائس واللعب الأخرى التي إن دَلَّت على شيء فإنما تدل على بساطتها وسطحية تفكيرها وحادثة سنها، لكن مسلكتها هذا أسعد زوجها الغيور إذ اعتقد أنه وفق في اختيار أفضل حياة يمكن تخطيطها ولا يستطيع الخبث والدهاء البشريان أن ينالا منها أو يعكرا صفوها . وهكذا اقتصر همه كله على إحضار الهدايا لزوجته وحثها على طلب المزيد .

وفي الأيام التي كانت تذهب فيها إلى القداس - قبل بزوغ النهار، كما ذكرنا - كانت تلتقي بأبويها في الكنيسة وتتبادل معهما أطراف الحديث أمام زوجها الذي تكفلت عطاياه وهباته الكثيرة بتبديد حزن حمويه على السجن الذي تعيش فيه قرة أعينهما .

كان "كاريثالس" ينهض مبكراً في انتظار متعهد المون الذي يحضر الحاجيات التي تسلم قائمة بها في الليلة الماضية، وفور إفراغ المتعهد لحمولته في الصينية الدوارة وانصرافه يغادر "كاريثالس" البيت - على قدميه، في معظم الأحيان - بعد غلقه للبوابة الداخلية والخارجية، وبين البوابتين يبقى المسن الحبشى .

كان يذهب لتفقد مشروعاته التجارية المعدودة وينثنى عائداً - على جناح السرعة - محملاً بالهدايا . وبعد عودته يمضي الوقت في مداعبة زوجته وجواريه وخادمتها اللاتي تعلقن به وأحبيبه لأنه كان مع الجميع ودوداً ومتواضعاً، وعلى وجه الخصوص سخياً وكريماً .

مر عام سعيد على هذه الحياة، وكان من الممكن أن تظل هكذا حتى آخر العمر لو لم تفسدها وتمزقها أشلاء - كما ستعرفون الآن - مثالب البشر ونقائصهم . أخبروني - بالله عليكم - إن كان يوجد إنسان آخر أشد حذراً وحيطة من العجوز "فيليب" الذي

وصل تحوطه إلى حد عدم السماح بوجود حيوان ذكر داخل البيت: ذلك البيت الذى لا يتعقب فيه قط الفئران ولا يتردد بين جنباته نباح كلب . لقد كان دائم التفكير نهاراً، ساهداً ليلاً، لا يزور النوم مرقده، وهو الحارس الخاص لداره والأمين عليها . لم يحدث أن تجاوز رجل عتبة داره، وكان يتخذ الشارع مقراً للتباحث مع الأصدقاء فى المهام التجارية أو فى شئون الحياة، وكانت المناظر على فرش البيت ولوحاته لا تضم سوى صور لإناث أو أزهار أو غابات . كانت جنبات البيت تتضوع عفة وعزلة وخفراً: حتى الحكايات التى تقصها الخادومات والجوارى حول المدفأة فى ليالى الشتاء الطويلة لم تكن بها - لأنها نقص أمامه - ما يشى بخلاعة أو يذكى أوار غريزة . لقد كان اللون الفضى للشعر الأشيب للعجوز يبدو فى عيني "ليونورا" ذهبياً خالصاً، ولا غرو فى هذا إن علمنا أن الحب الأول للأنسات العذراوات ينطبع على مهجهن كأثر الخاتم على قطعة لدنة من الشمع . كانت الحراسة المشددة تبدو لها أمراً طبيعياً لتوخى العفة، وأن المتزوجات حديثاً يتعرضن لمثل ما يتعرض له . لم تسوّل لها نفسها تخطى عتبة البيت، ولم يستعدها هواها لفعل ما يخالف هوى زوجها . إذا كانت ترى الشوارع أيام القدّاس، فهى تراها فقط عند العودة من الكنيسة لانعدام الضوء فى رحلة الذهاب .

لم ير دير محكم الإغلاق مثل هذا البيت، ولا راهبات أشد عزلة من نساءه؛ ومع هذا لم يستطع تفادى السقوط - لو سلمنا أنه سقط بالفعل - فيما يتخوف منه ويبتعد عنه .

فى إشبيلية صنف من الشباب الكسالى الفارغين يطلق عليهم الناس المسمى الشائع: شباب الحى . وقوام هؤلاء يتألف من أولاد الأغنياء بالمدينة، وهم شباب فاسد متنطع، يجيد الكلام العذب المعسول، ويرتدى الثياب الفاخرة الأنيقة . وبالرغم من أن لدينا الكثير مما يمكن قوله عن طبائعهم ولباسهم ومنهاج حياتهم والقوانين التى سنّوها للتعامل فيما بينهم إلا أننا سنمسك - احتراماً لعائلاتهم - عن الخوض فى هذا الجانب .

حين لاحظ واحد من هؤلاء المتأنقين الفاسدين [وهو شاب أعزب يطلقون عليه فيما بينهم لقب "بيروتى" ^(٦)] الانطواء والعزلة التى تعيش فيهما دار "كاريثالس"،

(٦) "بيروتى": Virote : هو الإنسان المخادع المتظاهر بالوقار؛ لكن "شباب الحى" كان يطلقونه على الأعزب منهم، أما المتزوج منهم فيطلقون عليه "مانتون" Mantón . (المرجم)

ورآها موصدة الأبواب على الدوام صعد إلى رأسه هوس التعرف على المقيمين بداخلها، ومن أجل ذلك قام بسلسلة واسعة من التحريات استشف منها زملاؤه حقيقة ما يرمى إليه .

قاده بحثه إلى التعرف على حال العجوز وجمال زوجته الشابة و الاحتياطات التي اتخذها الزوج لصونها والحفاظ عليها، اتقدت فيه عندئذ الرغبة في اختراق تلك الحواجز الأمنية: سواء عن طريق القوة أو إعمال الحيلة . أطلع ثلاثة من طائفته على ما يدور برأسه فأشاروا عليه بالبدء في العمل (ومثل هذه الأمور لا ينقصها الناصحون والمساعدون) .

اجتمعت زمرة الشر عدة مرات للبحث عن حيلة تقوِّض الاستحكامات الجمة التي تواجههم، وفي النهاية قام "لوايسا" [وهذا هو اسم "البيروتي"] بتنفيذ ما اهتدى إليه مجلس شوراه ويتلخص في الآتي: أشاع أنه سيترك المدينة للقيام برحلة تستغرق عدة أيام واختفى عن عيون معارفه، ارتدى قميصاً وسروالاً جديدين من الكتان وليس فوقهما ثياباً قديمة مهلهلة ومرفعة، قصر لحيته وغطى عينيه بقطعة قماش سوداء ثم لف إحدى ساقيه بلفائف من الشاش، وبعد اتكائه على عكازين أصبح لا يدانيه- في الهيئة- أقبح المعاقين في طول إشبيلية وعرضها.

وعلى هذه الهيئة الزرية كان "لوايسا" يقف كل ليلة- ساعة الصلاة- أمام دار" كاريثالس" ويخرج من مخلاته عوداً ملطخاً بالشحوم تنقصه بعض الأوتار، وبما أنه كان موهوباً بعض الشيء فقد كان يعزف أحياناً عذبة سارة ويغنى بصوت مستعار- حتى لا يتعرف عليه أحد- مقطوعات من التراث الأندلسي فيتجمع حوله المارون بالشارع وأغلبهم من الفتيان. أما "لويس" (الحبشى المسن) الذي يقع سكنه بين بابى الدار، والمولع بالموسيقى والطرب- على شاكلة أقرانه من الزنوج- فكان يصيح السمع متمنياً ولوج الباب الخارجى للاستمتاع عن قرب بما يذوب فيه عشقاً. لم يكن "لوايسا" يجد وسيلة أخرى لتفريق المتجمعين حوله سوى الإمساك عن الغناء والعزف والرحيل متأبطاً بعكازه.

كانت موسيقى "لوايسا" موجهة أساساً- فى المرات الأربع أو الخمس التى عزف فيها- إلى العبد الحبشى لأنه ظن أن التغلب على استحكامات الدار لن يتم إلا عن

طريقه، ولم يخب ظن لوأيسا في ذلك لأنه بعد مداعبة أوتار عوده ذات ليلة وإحساسه بإرهاق الحبشى للسمع اقترب من خصاص الباب ونادى عليه بصوت خفيض:

- لويس، لقد جفَ حلقى ولم أعد أقوى على الغناء، فهلا أعطيتنى شربة ماء !
- لا أستطيع، الباب موصد وليس معى مفتاح، ولا توجد فُرجة ولو ضيقة لأقدم لك منها الماء.

- مع من، إذن؟

- يحتفظ به صاحب البيت الغيور الذى لو تناهى إلى علمه أننى أتحدث الآن مع شخص غريب سيكون هذا اليوم هو آخر أيام حياتى، لكن من أنت يا هذا؟

- "لوأيسا"، وأنا فقير بساق موجوعة، أستعين على لقمة العيش بصدقات المحسنين ويتدريس الموسيقى والغناء لبعض الزوج وفقراء آخرين . لقد علّمت ثلاثة زوج- عبيد لثلاثة نواب فى البلدية- كيفية الغناء والعزف فى الحفلات والحانات، ولم يخلوا علىّ بالمكافآت السخية.

- لن أكون أقصر منهم باعاً لو تلقيت مثل هذه الدروس، لكن ما إلى ذلك من سبيل لأن سيدى يغلق الباب المؤدى إلى الشارع عند خروجه صباحاً، وبعد عودته يفعل الشيء نفسه، تاركاً إياى محصوراً بين بابين.

- لا تدع اليأس يتسرب إلى نفسك يا أخى ، وثق تماماً أنك لو اهتديت إلى حيلة تمكّننى من الدخول سأجعلك - فى خمسة عشر يوماً فقط- عازفاً ممتازاً لا يخجل من مداعبة أوتار عوده على أية ناصية ، وهذا لمقدرتى الفائقة فى مجال التعليم ، ولما يتمتع به أمثالك من موهبة واستعداد فطرى، ولن تصدق لو أخبرتك- من سابق خبرتى- أننى سأجعل منك مغنياً رائعاً أيضاً لأن النغمات الندبة الرقراقة لصوتك توحى بذلك.

- صدقت يا "لوأيسا"، فأنا بالفعل أستحسن صوتى؛ لكن ينقصنى التدريب والممارسة لأن كل ما أعرفه من الأغانى لا يزيد عن اثنتين قديمتين وهما :

"نجمة فينوس" و "المرج الأخضر" ، فضلاً عن ثالثة يُتغنى بها حالياً
ويقول مطلعها:

بالقضبان الحديدية لناقذة

تتشبث يد مشوشة حائرة .

- كل هذا لا قيمة له بالقياس لما يمكنني تعليمه لك ، فأنا أحفظ عن ظهر قلب
جميع أغاني "ابن دراز" المسلم وزوجته ظريفة ، بالإضافة إلى أشعار
المتصوفة وأجمل ما في الأغاني القديمة التي تفحم البرتغاليين أنفسهم ..
وأنا أنتهج طريقة سهلة ميسرة تتيح لتلميذى- حتى لو كان بطيء الفهم-
تشرب أصول العزف على العود والنبوغ فيه خلال مدة وجيزة قد لا تتجاوز
الوقت الذى يمضيه فى ازدراد بعض اللقيمات .

- وما السبيل إلى الاستفادة من علمك وخبرتك وليس بوسعى لقائك داخل
البيت ؟ !

- الأمر جد يسير ، يا أخى "لويس" : ما عليك إلا اختلاس المفاتيح من سيدك
دون أن يشعر والقيام بطبعها على قطعة الشمع التى سأعطيكها لك ، وبعدها
سأكلف صديقاً لى قفلاً باستخراج نسخ منها ؛ وثق تماماً أننى أتجشم هذا
العناء لأن محبتك قد انطبعت على شغاف قلبى قبل التشرف برؤيتك .
وحين أتمكن من الجلوس إليك فى جنح الظلام سأعلمك ما لم يتعلمه
النجاشى ملك الحبشة ، إذ يعز على فقد صوت مثل صوتك لسبب تافه مثل
عدم إجادة العزف على العود ، ولا أذيع سرا ، يا أخى ، لو أخبرتك أن
أجمل الأصوات فى العالم سيفقد الكثير من عذوبته لو لم يكن مصحوباً بآلة
موسيقية : سواء كانت فيثارة أو عوداً أو أرغناً أو جُنْكا ، وصوتك يناسبه
العود لأنه الأسهل فى العزف والأقل تكلفة .

- كل هذا جميل ؛ لكن لا سبيل إلى تحقيقه لأن المفاتيح لم يسبق لها تشريفى ،
ولأنها لا تفارق يد سيدى نهاراً ، وتنام ليلاً تحت وسادته .

- علينا - إذن - اللجوء إلى حيلة أخرى ، هذا إذا كانت لديك رغبة فى أن تصبح موسيقياً يشار إليه بالبنان أما إذا انتفت هذه الرغبة لديك فلا داعى لتجشمى عناء نصحك وإرشادك .

- وكيف لا تكون لدى رغبة ، يا أخى "لوايسا" ! إنها تملأ كيانى وتستنهضنى للقيام بأى عمل فى سبيل تحقيقها .

- ما دام الأمر هكذا ، سأعطيك من تحت عَقَب الباب - بعد إزالتك لبعض التراب- كماشة ومطرقة لتنتزع بهما ليلاً مَسَامِير "الكالون" ، وبعد دخولى سأرده إلى مكانه بطريقة لا تسترعى الانتباه . سأخفى عندك فى مخزن القش أو حيث تنام لأبادر بإنجاز المهمة التى دخلت من أجلها ، وسترى أنها - حال حضورى - تفوق ما سمعته منى شفاهة . أما الطعام والزاد فلا تُلقَ لهما بالاً لأننى سأحضر مؤونة تكفى كلينا ما يزيد عن ثمانية أيام ، فأنا لدى هنا أصدقاء ومريدون لا يرضيهم أن تلمَ بى ضائقة .

- لا داعى للقلق بشأن الطعام - ردّ الحبشى - لأن الحصّة المفروضة لى منه والبقايا التى تحضرها الجوارى تكفيان لإطعام شخصين آخرين غيرنا . أسعفى بالمطرقة والكماشة لأننى سأصنع تحت عَقَب الباب حفرة تسمح بتمريرهما وسأعطيها بالطين بعد ذلك ، ولن يسمع سيدى من مكان نومه البعيد- إلا إذا حدثت معجزة أو صادفنا سوء حظ غريب- الضربات التى سأسدها لانتزاع "الكالون" .

- بمشيئة الله سيكون عندك بعد يومين من الآن كافة ما يلزم للبدء فى مشروعا الجليل ، وتجنّب من الآن فصاعداً أكل الحريّفات لأنها تحدث بالصوت أضراراً بالغة .

- لا يوجد شىء يبيحُ صوتى أكثر من النبيذ ، ورغم هذا لن أُلْع عنه ولو فى مقابل ملء الأرض أصواتاً .

- لا تقل هذا ، يا بنى ، لأن رب الأرياب لا يسمح به ولا يُقرّه . اشرب ، يا "لويس" ، اشرب بالهناء والشفاء ، فالنبيذ إذا تناوله المرء دون إفراط لا يتسبب فى أى أذى .

- أنا أحتسبه بقدر، لدى هنا جرة تتسع للترين تملؤها لى الجوارى دون علم سيدى، والمتعهد- بدوره- يحضر لى خفية فنية تحتوى على أربع ليترات لتعويض المنتقص من الجرة.

- لا أختلف عنك فى هذا لأنى من المؤمنين بالمثل القائل: جفاف الحنجرة، لا يساعد على الغناء أو الهمهمة .

- امض على بركة الله -قال الحبشى - وأرجوك ألا تقلع عن الغناء أمام الدار خلال المهلة التى ضربتها لحين عودتك بالأدوات اللازمة لفتح الباب لأن أصابعى تأكلنى من شدة الشوق للعزف على العود.

- سأعود إليك محملاً بألحان جديدة .

- هذا ما أرجوه، والآن لا تتركنى قبل أن تغنى لى شيئاً حتى أنام قريح العين، وليعلم السيد الفقير أننى سأجزل له العطاء .

- أنا لا أحفل بمثل هذه الأمور، لن آخذ منك شيئاً إلا بعد تعليمك ، والآن اسمع منى هذا اللحن واعتبره بمثابة مقدمة للروائع التى ستسمعها بالداخل وأنا إلى جوارك .

- فى القريب العاجل بإذن الله .

وبعد هذا الحوار الطويل الذى دار بينهما غنى "لوأيسا" أغنية رفيقة أسعدت الحبشى وجعلته يحلم بالساعة التى سينفتح فيها الباب .

التقط "لوأيسا" عكازيه فور ابتعاده عن الباب واتجه ليقص على مستشاريه البداية الحميدة التى تبشر بخاتمة سعيدة لمساعيه . التقى بهم وأخبرهم بما جرى مع المسن الحبشى، وفى اليوم التالى زودوه بالأدوات الكفيلة بانتزاع أطول المسامير وأعتاها .

لم يخلف "لوأيسا" موعده مع الحبشى وعاد خلال المهلة المضروبة ليعزف له أمام الدار، ولم يهمل العبد الخصى ما اتفق عليه مع لوأيسا وأحدث حفرة تحت عقب الباب وغطاها بطريقة ذكية لا تظن إليها العيون المتشككة الخبيرة .

وبعد مضى ليلتين أحضر "لوأيسا" أدوات النجارة اللازمة ليشرع لويس فى اختبار قوته، ودون أن يجهد نفسه تقريباً وجد "الكالون" والمسامير فى يده ففتح الباب

واستقبل معلمه وموسيقيه الفذ^(٧) ، ولما شاهده على عكازين، رث الثياب، ملفوف الساقين بالضمادات اعترته الدهشة. لم يكن "لوايسا" يضع العصا على عينيه لعدم أهميتها؛ وهكذا- وهو على تلك الهيئة- قام فور دخوله بمعاينة تلميذه النجيب وطبع قبلة على وجهه ثم أعطاه قربة صغيرة من النبيذ وعلبة من الأغذية المحفوظة وحلوى وأشياء أخرى مما يحتفظ به داخل خرجه الحافل بشتى ألوان الأطعمة. ترك العكازين بعد ذلك، وكما لو كان خالياً من كافة الأسقام والعلل قام ببعض الألعاب البهلوانية التي زادت من عجب الحبشى ودهشته، وعندئذ قاله له "لوايسا" :

- اعلم، يا أخى لويس، أن عرجى وسقمتى ليس نابعاً من علة أو مرض، إنما هو مجرد حيلة أستعين بها على استثارة شفقة المتصدقين، وبالعائد من الصدقات والموسيقى أتمتع بأفضل حياة فى هذا العالم الذى لو لم يلجأ فيه المحتاجون لمثل هذه الألاعيب والحيل لقضوا نحبهم جوعاً.

- لا شك أنك أدرى بهذا؛ لكن هيا بنا نعيد "الكالون" إلى مكانه السابق وبطريقة لا توشى بانتزاعه منه.

- بكل سرور.

أخرج "لوايسا" مسامير من رحله وأعاد "الكالون" إلى وضعه السابق ثم صعد إلى غرفة الحبشى المجاورة لمخزن القش وأعد لنفسه- قدر المستطاع- مكاناً مناسباً يأوى إليه.

لم يكد "لويس" يضىء شمعة حتى التقط "لوايسا" العود وراح يداعب أوتاره بنعومة وخفة فاستولى على لبّ الحبشى وروحه. بعد قليل من العزف أخرج "لوايسا" وجبة خفيفة من الحلوى وأعطاهما لتلميذه فالتهمها على الفور وشرب بنهم من قربة النبيذ، وعندئذ أحس بانتشاء يفوق تأثير الموسيقى عليه. أمره "لوايسا" بعد ذلك بالاستعداد لتلقى الدرس الأول لكن إفراطه فى الشراب لم يمكنه من التعامل الجيد مع العود، ورغم هذا أفهمه معلمه أنه يجيد- على الأقل - لحنين من الألحان. الغريب فى الأمر أن الزنجى صدق هذه الفرية وانكبّ طيلة الليل على العود عازفاً ألحانه النشاز.

(٧) الكلمة الموجودة فى النص الأصلي هى Orfeo : شخصية أسطورية، ويقال إن صاحب هذه الشخصية كان شاعراً وموسيقاراً عبقرياً، وإنه ورث قيثارة أبيه (أبوللو)، وإنه عندما كان يعزف عليها كانت الأشجار والصخور تتمايل طرباً، وإن الوحوش الكواسر كانت تتوقف لسماعه، وكذلك المياه الجارية فى الأنهار. (المترجم)

نام الاثنان البقية الباقية من الليل، وفي حوالى السادسة صباحاً نزل "كار" يثالس" وفتح الباب الأوسط ثم الخارجى وانتظر فى الشارع قدوم متعهد المؤن الذى حضر بعد قليل وألقى فى الصينية الدوارة بحاجيات البيت ثم مضى إلى حال سبيله . نادى "كار" يثالس" العجوز على الحبشى ليأخذ حصته من الطعام وعلف البغلة ، ثم غادر المنزل بعد إحكامه غلق البابين ، دون أن يفطن لما حدث تحت عقب الباب الخارجى، ولهذا تألفت أسارير التلميذ ومعلمه المختبئ .

فور مغادرة العجوز للبيت خطف الحبشى العود وراح يعزف عليه بصوت عالٍ سمعته الجوارى والخادماوات اللاتى بادرنه بالسؤال التالى:

- ما هذا، يا "لويس" ؟ منذ متى وعندك عود؟ من الذى أعطاه لك؟
- أعطاه لى أفضل موسيقى فى العالم أجمع ، وهو الذى سيعلمنى فى أقل من ستة أيام ما يزيد عن ستة آلاف لحن.
- وأين هذا الموسيقى؟ - سألته القهرمانه (المربية ورئيسة الخدم) .
- إنه ليس ببعيد من هنا، ولو لم يملكنى الخوف والخجل من سيدى فلربما قدمته إليك ذات يوم، وأنا على يقين من إعجابك به عند رؤيته.
- وأين يمكن رؤيته- ردت القهرمانه- وعتبة هذه الدار لم يتخطاها جنس مخلوق سوى صاحبها!
- لن أفصح عن شيء حتى تسمعن ما علمه لى فى وقت شديد القصر .
- لا بد أن الشيطان نفسه هو الذى علمك ما تدعى معرفته - قالت القهرمانه - فأنا لا أعرف أحداً يمكنه تعليمك الموسيقى فى مدة وجيزة غيره .
- سيأتى اليوم الذى تربيته وتستمعن إلى غناؤه وموسيقاه .
- هذا ضرب من المحال - تدخلت إحدى الوصيفات - لأنه لا توجد نوافذ على الشارع نستطيع من خلالها رؤية خيال بشر .
- حسناً، لا توجد مشكلة تستعصى على الحل فيما عدا الموت، وعلى وجه الخصوص إن عرفتن التزام الصمت .

- سترى كيف يكون صممتنا يا أخى "لويس" - قالت إحدى الجوارى -
سنصمت كما لو كنا جميعاً خرساوات، ولا أذيع سرا إن أخبرتك أننى على
استعداد لتقبل الموت طائفة مختارة مقابل سماع صوت عذب، فنحن منذ
الحكم علينا بالعيش خلف هذه الجدران الصماء لم نعد نسمع ولا حتى زقزقة
العصافير .

كان "لوأيسا" يستمع لهذه الحوارات بكثير من الغبطة إذ بدا له أنها جميعاً تفضى
إلى الظفر ببغيته وأن الحظ السعيد مد يد العون لحملهن إلى الطريق المنشود .

ودعت الجوارى الحبشى الذى وعدهن بعودته للنداء عليهن فى وقت قريب قد لا
يخطر لهن على بال لسماع الصوت العذب ، ولشدة خوفه من رجوع سيده ورؤيته
يتجاذب أطراف الحديث معهن انسحب إلى غرفته ومنتهى أهله . كانت لديه رغبة
عارمة فى أخذ درس جديد ، لكنه لم يجرؤ على العزف نهائياً حتى لا يسمعه سيده
الذى عاد بعد قليل لينزوى فى بيته بعد إحكام غلق البوابتين . حين عادت إحدى
الإماء الزنجيات لتسليم الحبشى المسنّ طعامه طلب منها التنبيه على الأخريات
بالنزول ليلاً بعد نوم سيدهن إلى الصينية الدوّارة لسماع الصوت الذى وعدهن به ..
حقيقة أن الحبشى كان قدر رجا معلمه وتوسل إليه قبل هذا بالعزف تلك الليلة عند
الصينية لكى يفى بالوعد الذى قطعه على نفسه أمام الجوارى . تركه "لوأيسا" يكثر
من التوسل، لكنه أعلن فى النهاية موافقته ، موضحاً أنه نزل على رغبة تلميذه الطيب
فقط بقصد إرضائه دون أية اعتبارات أخرى .

ولإعراش الحبشى عن سروره بتلبية رغبته عانق "لوأيسا" وطبع قبلة على خده،
وفى ذلك اليوم أعد له غداءً فاخراً شهياً .

جاء الليل، وفى منتصفه تقريباً سمعت همهمات الجوارى وصغيرهن عند الصينية
الدوّارة، ولما أحس "لويس" بوصول القافلة نادى على معلمه ونزلا من مخزن القش
ومعهما العود ، جيد الإعداد والمشدود الأوتار . سأل "لويس" المترصات خلف
الصينية عن صفتهم وعددهن فأجبنه قائلات: إنهن جميعاً حاضرات باستثناء
سيدتهن التى ظلت نائمة إلى جوار زوجها . حزن "لوأيسا" ؛ لكنه أراد أن يبدأ بداية

طيبة ويسعد تلميذه، ومن ثم فقد شرع فى ملاطفة عوده بألحان عذبة استولت على لبّ الحبشى وألباب القطيع المتصنّت .

لا أجد من الكلمات ما يعيننى على وصف مشاعرهن حين استمعن إلى أغنية "سلوى الحبيب" أو إلى اللحن المتشيطان "لأثاراباندا"، الجديد وقتها فى إسبانيا .. لم تبق هناك عجوز لم ترقص ولا شابة لم تتأود، وإن كان كل هذا فى صمت ودون جلبة خوفاً من إيقاظ صاحب البيت الذى كانت تراقبه وتتجسس عليه واحدة منهن . غنى "لوايسا" أيضاً مقطوعات شعبية أتخمت ذائقة المستمعات اللاتى سألن الحبشى عن هوية هذا الموسيقى المعجزة . أخبرهن أنه شحاذ فقير، لكنه أطف وأظرف فقراء إشبيلية .

سألن الحبشى عما يمكن عمله لرؤية الموسيقى، وطلبن منه الإبقاء عليه داخل البيت خمسة عشر يوماً على الأقل، كما سألته عن الطريقة التى دخل بها البيت . لم يجب عن السؤال الأخير بكلمة، وأشار عليهن بإحداث ثقب صغير فى الصينية الدوارة لرؤيته والعمل على سدّه بعد ذلك بقطعة من الشمع ، أما بالنسبة لمسألة الإبقاء عليه فى البيت فقد أخبرهن أنه لن يدخر وسعاً فى سبيل تحقيق هذه الرغبة المشتركة .

تحدث إليهن أيضاً "لوايسا" عارضاً خدماته بكياسة ولباقة لا تصدران من شحاذ فقير، وعندئذ طلبن منه الحضور الليلية القادمة إلى المكان ذاته لأنهن سيحاولن إقناع سيدتهن بالنزول لسماعه رغم خفة نوم زوجها النابعة من شدة غيخته لا من تقدمه فى السن . أبدى لهن "لوايسا" استعداداه - إذا كن راغبات فى سماعه دون خوف من استيقاظ سيدهن - بتزويدهن بمسحوق لو خلط بالنبيد سيجعله ينام نوماً عميقاً وطويلاً .

- حنانيك يا يسوع ! - قالت إحدى الوصيفات - لو كان هذا صدقاً فيا لحسن الحظ الذى اقتحم علينا الباب دون أن نشعر به أو نستحقه لن يكون هذا المسحوق لنومه، بل إكسیر الحياة لنا جميعاً وللمسكينة سيدتى التى لا تنعم بحرّ ولا زمهرير ولا تغيب لحظة عن ناظره . أه، يا سيدى، أحضر هذا المسحوق وسيجزيك الله عنا خير الجزاء . اذهب ولا تتأخر، أحضره وسأؤتى بنفسى إضافته للنبيد وتقديمه له، وإنى لأضرع إلى العلىّ القدير أن ينيمه ثلاثة أيام بلياليها لأنها ستكون لنا بمثابة النعيم المقيم .

- سأحضره إذن- قال "لوأيسا" - وهو مسحوق يقتصر مفعوله على جلب النوم العميق ولا يلحق أضراراً أخرى بمن يتعاطاه .

رجونه جميعاً بسرعة إحضاره ثم انصرفن على وعد باللقاء الليلة التالية التي سيحدثن فيها- ببريمة- ثقباً في الصينية ويحضرن سيدتهن لكي تراه وتسمعه . ومع أن الفجر كان على وشك الطلوع إلا أن الحبشي أصر على تلقى درس جديد فأعطاه له "لوأيسا" وأفهمه بأنه يتمتع بأذن موسيقية تفوق في حساسيتها كافة تلاميذه السابقين: مع أن المسكين لم يكن يفقه ما يوازي خردلة في أولويات العزف والغناء!

كان "لوأيسا" قد اتفق مع زمرة الشر على المرور كل ليلة بباب الدار للتصنت والنظر فيما إذا كان صديقهم يعوزه شيء ، ومن الإشارة المتفق عليها أدرك "لوأيسا" أنهم بالباب فأسرع نحوهم وأبلغهم- من خصائص الباب- بالتطورات الجديدة وطلب منهم البحث عن منوم لإعطائه لصاحب الدار لأنه سمع عن اختراع مسحوق يحتوى على هذه الخاصية . أخبروه أن لهم صديقاً طبيباً وسيزودهم- إن كان هناك حقاً عقار بهذه المواصفات - بأحدث ما توصل إليه الطب في هذا المجال؛ وبعد حثه على المضي قدماً في مشروعه وطمأنته على عودتهم المؤكدة الليلة التالية انصرفوا مسرعين .

عندما أرخى الليل سدوله تساقط سرب الحمام على شَرَكِ العود، ومعه جاءت "ليونورا" الساذجة وهي ترتعد خوفاً من استيقاظ زوجها . منعها هذا الخوف في البداية من تلبية طلبهن، لكن الجواري والخادmates استطعن بما سردنه على مسامعها من عذوبة الموسيقى ولطافة العازف الفقير [الذى لم تره القهرمانه ومع ذلك بالغت في إطرائه والثناء عليه لدرجة أنها رفعتة إلى مكانة عالية لا يرقى إليها "أبسالون" ولا حتى "أورفيو" ^(٨)] إجبارها على فعل ما يخالف إرادتها وما لم يخطر لها يوماً على بال . بادرن أولاً باستخدام البريمة لإحداث ثقب في الصينية يرين من خلاله الموسيقى الذى لم يكن يرتدى ساعتها ملابسه الرثة، بل سروالاً فضفاضاً من التفتاه-

(٨) " أبسالون" Absalón و "أورفي" Orfeo : شخصيتان أسطورتان، تتمتع الأولى بالجمال الطاغى والرجولة المكتملة، والثانية بعذوبة الموسيقى التى تؤثر فى الحيوان والجماد فضلاً عن الإنسان .
(المترجم)

على شاكلة البحارة- وصديرياً من القماش نفسه مضفراً بشرط مذهبة، وقميصاً بياقة منشأة من الساتان الأسود المشغول بالدانتيل؛ وكل هذا كان يحتفظ به "لوأيسا" في مخلاته متوقعاً رؤية من تستحق أن يغير ملابسه من أجلها.

كان "لوأيسا" فتى رشيق القد، جميل الطلعة؛ وبما أنهم ظلل فترة طويلة لا يشاهدن فيها غير سحنة سيدهن العجوز فقد بدالهن وكأنه ملاك هبط من السماء. اصطففن لرؤيته- واحدة بعد أخرى-، ولكي يرينه بشكل أفضل من الثقب كان الحبشى يحرك الشمعة التى فى يده ، صعوداً وهبوطاً ، أمام جسد معلمه. بعد فراغهن من المشاهدة أخذ "لوأيسا" العود وراح يغنى- بمزاج عالٍ- ألحاناً رائعة أسكرتهن جميعاً. ناشدن "لويس" بعد ذلك باستخراج ما فى جعبته من حيل لإدخال معلمه إليهن حتى يستطعن إخفائه فى مكان أمين والاستماع إليه ورؤيته عن قرب، وبهذا الشكل يتخففن من حالة الفرع التى تسيطر عليهن نتيجة لابتعادهن عن سيدهن واحتمال نزوله المفاجىء وضبطهن متلبسات.

اعترضت "ليونورا" بكل ما أوتيت من قوة، وقالت إنه يكفيهن سماعه ورؤيته حيث يوجد توخياً للسلامة ولعدم المساس بشرفهن .

- عن أى شرف تتحدثين؟ - قالت القهرمانة- الملك لديه منه ما يفيض ويغضى حاجة الجميع . احبسى نفسك مع بعلك ودعينا نله كما يحلو لنا، خاصة وأن هذا السيد يبدو فى غاية الدمائه والشرف ولن يطمع فى شيء نصنُّ به عليه .

- سيداتى الفضليات- تدخل "لوأيسا" قائلاً - ما قدمت إلى هنا إلا لخدمتكن بروحى ودمى، وما دفعنى إلى المجىء إلا شدة تألمى لعزلتكن وضياح وقتكن سدى بين جدران هذه الحياة المغلقة . أقسم بحياة أبى على أننى رجل طيب وديع، مؤدب ومطيع، ولن أقدم على عمل شيء زائد عما تأمرننى به، إذا قالت إحداكن: "أيها المعلم، اجلس هنا، أو انتقل إلى هناك، أو ابتعد بضع خطوات" سألبى طلبها مثل كلب مدرب على الطاعة: يأتمر بإشارة واحدة من صاحبه .

- ما دام الأمر كذلك - قالت الساذجة "ليونورا" - ، فما هي الطريقة المثلى لإدخال المعلم؟

- حسناً - ردّ "لوأيسا" - ، ما عليكن إلا طبع مفتاح الباب الأوسط الفاصل بيننا على قطعة من الشمع ، وسأتكفل باستخراج نسخة منه ستكون معنا الليلة القادمة .

- اصطناع نسخة من مفتاح الباب الأوسط - قالت إحداهن - يعنى فتح الأبواب جميعها لأنه مفتاح عمومى .

- لن يكون هذا - على ما أظن - سيئاً! - قال لوأيسا .

- هذه حقيقة لا شية فيها - قالت ليونورا - لكن على المعلم أن يحلف أولاً على أنه لن يفعل شيئاً هنا بالداخل سوى العزف والغناء حين يطلبان منه ، وأنه سيطر حبيباً صامتاً فى المكان الذى سنخبئه فيه .

- أحلف على هذا - قال "لوأيسا" .

- هذا الحلف لا قيمة له - ردت ليونورا - أريد أن يحلف بحياة والده وبالصليب ، وأن يقوم بتقبيل الصليب أمامنا جميعاً .

- أحلف بحياة والدى - انبرى "لوأيسا" قائلاً - وبعلامة الصليب هذه التى أقبلها بقمى المتسخ ^(٩) .

قام عندئذ باستخدام إصبعين من يده فى رسم علامة الصليب وقبلها ثلاث مرات . قالت إحدى الوصيفات بعد فراغه من المشهد السابق .

- لا تنسَ ذلك المسحوق الهام لأننا فى أشد الحاجة إليه .

توقف الحوار عند هذا الحد فى تلك الليلة التى سعد فيها الجميع بالحفل الموسيقى ، ومن أمارات تجاوب الحظ السعيد مع "لوأيسا" أنه وجد أصدقاءه منتظرين فى تلك الساعة المتأخرة التى جاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، سحين سمع الإشارة المتفق

(٩) تقبيل الصليب بالقم المتسخ، تعبير دارج وشائع يقصد به إظهار التواضع؛ لكنه يمكن أن يُحمل هنا على النقيض من معناه السابق نظراً لنبرة التهكم والسخرية التى تغلف العبارة . (المترجم)

عليها [وكانت الصغير على آلة موسيقية صغيرة من المعدن] هرع إليهم وسألهم عن المسحوق المنوم الذى طلبه الليلة السابقة، كما سألهم عن إمكانية اصطناع مفتاح من قطعة شمع عليها أثره .

أخبروه أنهم سيحضرون المنوم الليلة التالية وأنه سيكون دهانا ذا فعالية شديدة ، إذا مسح به صدغا شخص ما وشرايينه، فإنه لا يفوق من نومه قبل يومين إلا إذا غسلت مواضع الدهان بالخل، كما طالبوه بإحضار قطعة الشمع المطبوع عليها المفتاح لأن استخراج نسخة عليها يعد أمرا بسيطا وسهلا. انصرفوا بعد ذلك وتركوا "لوايسا" لينام- مع تلميذه- ما بقى من الليل وليتحمل بمفرده- شأنه فى ذلك شأن جميع المترقبين المنتظرين- ببطء مرور الوقت وثقله .

ولما جن الليل وحانت الساعة المعتادة للقاء عند الصينية الدوارة توافدت الجوارى كلهن - الصغيرات قبل الكبيرات، والزنجيات قبل البيضاوات - يحدوهن الشوق لرؤية الموسيقى . لم تكن معهن "ليونورا" ، ولما سأل عن السبب أجبنه قائلات: إنها محبوسة مع زوجها الذى يغلق غرفة نومه بالمفتاح ويضعه تحت الوسادة ، كما أخبرنه أنها ستحاول فى تلك الليلة الحصول على المفتاح العمومى لكى تطبعه على قطعة الشمع التى أعدتها لهذا الغرض، وأنهن سيذهبن بعد قليل لاستلام قطعة الشمع من فتحة صغيرة موجودة تحت عقب باب غرفة النوم .

تعاظمت دهشة "لوايسا" من شدة حرص العجوز، لكن عزمته لم تفتر، وقبل أن يفوق من دهشته سمع صوت الآلة الموسيقية الصغيرة فولى وجهه شطر الباب الخارجى الذى يقف أصدقاؤه خلفه، أخذ منهم الدهان المنوم وطلب منهم الانتظار لبعض الوقت لكى يعطيهم قطعة الشمع، ثم عاد إلى الصينية وطلب من القهرماننة [التي كانت تنتظر بفارغ الصبر - أكثر من غيرها - لحظة دخوله عليهن] حمل الدهان إلى سيدتها وشرح كيفية استخدامه لها . امتثلت القهرماننة للأمر، وعندما وصلت إلى حيث تنتظر سيدتها وجدتها متمددة بكاملها على الأرض ووجهها ملاصق للفتحة الموجودة تحت عقب الباب ، تمددت القهرماننة مثلها لتتمكن من وضع فمها على أذن سيدتها، وبصوت خفيض شرحت لها كيفية استخدام الدهان ثم سلمته لها ، أخذته ليونورا وأخبرتها بفشلها فى سحب المفتاح لأن زوجها لم يضعه - كما جرت

العادة - تحت الوسادة بل بين الحشيتين وتحت منتصف جسده تقريباً، لكنها قالت لها: لو كان للدهان هذا الأثر الفعال الذى أشار إليه الموسيقى فإنها ستتمكن من أخذ المفتاح كلما أرادت ولن يكون هناك داع - بالتالى - لطبعه على الشمع واصطناع نسخة منه، كما طلبت منها إخبار الموسيقى بما سمعته والعودة إليها ثانية للتعرف على مدى تأثير الدهان على الزوج الغيور .

حين سمع "لوأيسا" ما أخبرته به القهرمانه صرف أصدقاءه الذين كانوا ينتظرون قطعة الشمع .. أما "ليونورا" فقد اقترت بخطوات وييدة مرتجفة، حابسة أنفاسها، من زوجها لتدهن مواضع شرايينه، وكذلك فتحتى أنفه اللتين ارتعشتا فأصابها من جرأ ذلك ذعر قاتل ، لكنها تمكنت من دهن كافة الأماكن الضرورية وكأنه تحنطه تمهيداً لدفنه .

احتاج السائل المخدّر وقتاً قصيراً ليعطن عن فضائله ، ذلك لأن العجوز شرع على الفور فى إرسال شخير عال تصل أصداؤه إلى عرض الشارع ، لكنه كان يرنّ فى أذنى زوجته مثل لحن أشد تناعماً وعذوبة من ألحان معلم طواشيها الحبشى . وحتى تتأكد من حقيقة ما تراه وتسمعه أخذت تهزه -بلطف فى البداية، ويعنف بعد ذلك - بل أنها تجاسرت وراحت تقلّبه على الجانبين .ولما أيقنت من صدق مفعول الدهان اتجهت نحو الفتحة الموجودة تحت عقب الباب وبصوت - أعلى بكثير من المرة السابقة - نادى على القهرمانه المنتظرة على الجانب الآخر وقالت لها:

- هنليني يا أختاه لأن "كارثيالس" ينام بلا حراك مثل ميت .

- ما يمنعك، إذن، من أخذ المفتاح ؟ هلمى، الموسيقى ينتظر منذ أكثر من ساعة .

- على رسلك، يا أختاه، أنا ذاهبة للبحث عنه .

اتجهت إلى الفراش ودست يدها بين الحشيتين وأخرجت المفتاح، وحين رأتها فى يدها أخذت تثب من الفرحة . فتحت الباب وأعطت المفتاح للقهرمانه فتلقفته بسعادة غامرة .

أمرتها "ليونورا" بإدخال الموسيقى إلى الردهة لأنها ما زالت لا تجرؤ على مبارحة المكان خوفاً مما قد يحدث، كما أوصتها بعدم السماح له بالدخول قبل أن يقسم أمامهن من جديد على ألا يفعل شيئاً لم يطلب منه .

- كوني مطمئنة يا سيدتى لأننى لن أدعه يدخل قبل أن يحلف على هذا مرة
واثنتين، ويقبل علامة الصليب ست مرات.

- لا تفرضى عليه رقماً معيناً ودعيه يقبله المرات التى تروق له ، لكن المهم
هو قسمه بحياة والديه وأعلى وأعز شيء لديه حتى نكون فى مأمن
ونستمع دون منغصات إلى عزفه وغناؤه لحد التخمة ، هيا ، لا تضيعى
الليلة فى الكلام .

رفعت القهرمانة تتورتها واتجهت إلى الصينية حيث تنتظر الأخبار، وعندما
لوحّت لهن بالمفتاح حملنها على الأعناق- مثل أستاذ الجامعة فور نيّله لدرجة
الأستاذية- وهتفن فى صوت واحد: "يعيش، يعيش" وزاد هتافهن عندما عرفن أنهن
لم يعدن بحاجة لاصطناع نسخة من المفتاح لأن تأثير الدهان المدهش سيتيح لهن
الحصول عليه كلما أردن.

- هيا- قالت إحدى الوصيفات- افتحى الباب لهذا السيد الذى طال انتظاره
لكى يروينا ويشبعنا بألحانه .

- سنجعله- ردت القهرمانة- يقسم قبل دخوله كما فعلنا الليلة السابقة.

- ألا ترين أنه وادعٍ مثل الحمام- تدخلت إحدى الجوارى - ولن يستكف عن
الحلف بأى شيء يطلب منه !

فتحت القهرمانة الباب وجعلته موارياً ثم نادى على "لوايسا" الذى استمع إلى الحوار
السابق بأكمله، وعندما حاول اقتحام الباب أوقفته القهرمانة بقبضة يدها وقالت له :

- اعلم أيها السيد، والله على ما أقول شهيد، أن جميع من بالدار - فيما عدا
سيدتى- عذراوات كما خرجن من بطون أمهاتهن، وهذا التعميم ينسحب
على الزنجية جيومار وعلى شخص المتحدثه أمامكم، فأنا قد أبدو- لكثرة
ما تعرضت له من أهوال ومصاعب- على مشارف الأربعين، لكننى لم
أكمل الثلاثين بعد وما زلت- لسوء حظى- عذراء مثلهن، ومن ثمّ لن أسمح
بأن تتسبب أغنيتان أو ثلاثة أو حتى أربعة فى الإطاحة بعذريات كثيرة
تضمها أسوار هذا البيت، ولن أسمح لك- بالتالى- يا أمير قلبى بالدخول إلى
مملكنا قبل أن نقسم أمامنا ثانية على ألا تأتى بشيء يخالف رغبتنا، وإذا

كنت ترى أن طلبى هذا زائد عن الحدّ فعليك أن تعلم أن ما نراهن عليه أكبر وأعز، لو كانت نواياك الحسنة هى التى اقتادتك إلى هنا فلن يضيرك الحلف فى شيء ، وعلى رأى المثل: فمن يطلب الحسنة لم يغلها المهر .

- لا فضّ فوك يا سيدة "ماريا لونسو" - قالت إحدى الوصيفات للقهرمانة- وأنا كامرأة متعقلة تزن الأمور بميزانها الصحيح أضم إليك صوتى وأقول إن دخول هذا السيد مرهون بقسمه .

تدخلت حينئذ الزنجية " جيومار" التى تلم بطرف من اللغة القشتالية لقضائها بعض الوقت بين متحدثيها وقالت:

- أما أنا فأعلن موافقتى على دخوله ولو بدون حلف، لأن حلفه مهما عظم سيتبخر فور اجتيازه هذه البوابة .

كان "لوايسا" يستمع فى هدوء لخطبة السيدة "ماريا لونسو" ، ولما انتهت انبرى قائلاً برصانة ورباطة جأش:

- أخواتى وزميلاتى، لم أقصد بمجيئى إلى هنا سوى إمتاعكن وتسليتكن قدر استطاعتى، ولما كان هذا القصد لم يتبدل من جانبي ولن يعتريه تغيير فلا أجد أدنى حرج فى الحلف على أى شيء يرد بأذاها نكن ، بيد أنى كنت أتمنى أن تثقن بعض الشيء بكلمتى لأنها حين تصدر من شخص مثلى تكون لها مصداقية ونفاذ العقود المبرمة، وأن تعرفن أن الأسمال البالية و العباءات المتواضعة كثيراً ما تضم بين طياتها مهجاً شريفة مهذبة ، ولكى أزيل ما علق بنفوسكن من أوهام وخوف أحلف أمامكن - كرجل وكمسيحي كاثوليكي - بكل الأيمان المغلظة التى تشمل كافة القديسين، ويدخول وخروج القديس "ليبانو"، وكل ما يحويه تاريخ شارلمان من حقائق، ويموت العملاق، " فييرابراس" ألا أخالف قيد شعرة ما يصدر عنكن من أوامر وتعليمات، وكل ما يناقض بنود هذا القسم - سواء بالنية أو القول أو العمل - يعتبر باطلاً ولاغياً (١٠) .

(١٠) الجملة الأخيرة كانت ترد- خلال تلك الفترة من عصر المؤلف- بنماذج العقود والمحركات الرسمية .
(المترجم)

صاحت إحدى الجوارى التى كانت تتابع باهتمام قسم "لوأيسا" قائلة:

- هذا القسم يلين أشد الصخور صلابة . سأكون غاية فى السوء لو طالبته بالمزيد لأن ما حلف به حتى الآن يخول له اجتياز بوابة حصن "كابرا" ذاته.

قالت هذا ثم أمسكت به من الصدري وأدخلته، وعندئذ التفّت حوله الأخريات. ذهبت بعد ذلك لتزف البشرى لسيدتها التى كانت منهمكة فى مراقبة زوجها النائم، وحين أخبرتها أن الموسيقى فى طريقه إلى الصعود ابتهجت فى قليل من الارتباك وسألتها إن كان قد حلف قبل دخوله فقالت لها: نعم وبطريقة لم تسمعها من قبل.

- ما دام قد حلف - قالت ليونورا- فقد أمّن جانبى، لا أدرى كيف وانتهى هذه الفكرة المدهشة !

لم تكذ تنتهى من عبارتها السابقة حتى فوجئت بظهور الفرقة بكاملها يتوسطها الموسيقى ويضيء الحبشى المسنّ والزنجية "جيومار" حواشيها. حين رأى "لوأيسا" "ليونورا" همّ بالركوع لتقبيل يديها، لكنها أشارت إليه - وهى صامتة - بالنهوض . حين لاحظ "لوأيسا" صمتهم وعزوفهم عن الكلام خوفاً من استيقاظ سيدهن أخبرهن أن باستطاعتهم الحديث وبصوت عالٍ لأن الدهان وإن كانت فضائله لا تتضمن خاصية انتزاع الحياة إلا أنه يجعل المدهون به مثل الميت.

- هذا ما أعتقد - قالت "ليونورا" - لأنه لو لم يكن له هذا الأثر لكان زوجى قد استيقظ أكثر من عشرين مرة كما هى العادة؛ لكنه مستغرق الآن فى النوم وشخير لا ينقطع مثل حيوان.

- مادام الأمر هكذا- أردفت القهرمانه- فهيا بنا إلى الصالة المجاورة حيث يمكننا سماع الموسيقى والابتهاج قليلاً.

- هيا بنا- قالت ليونورا - وعلى جيومار البقاء هنا للحراسة وإبلاغنا بالتطورات.

ردت الزنجية قائلة:

- لأننى زنجية أكلف بالحراسة والبيضات يذهبن، ليغفر الله للجميع !

انتقل الحشد- باستثناء الزنجية - إلى الصالة حيث تتناثر الزرابي والوسائد المريحة وجلسن على شكل حلقة يتوسطها الموسيقى. تناولت "ماريالونسو" شمعة مضاءة وراحت تتأمل "لوأيسا" من أعلاه إلى أسفله، قالت واحدة منهن: "يا لروعة خصلات شعره المسترسلة !" وأردفت أخرى: "يا لنصاعة أسنانه وشدة بياضها وتناسقها !" ، بينما قالت الثالثة: يالهما من عيين أخاذتين، إنهما خضراوان مثل الزمرد ! ، وهكذا انهمر سيل تعليقاتهن: فهذه تثني على فمه، وتلك تمتدح قدميه... كانت "ليونورا" هي الوحيدة التي تأملته في صمت، ولا شك أنها أدركت الفارق بين عوده النضر وبين عود سجانها اليابس. لم يتوقف استرسالهن في تشريح أعضائه والتعجب من ملاحظته إلا بعد انتزاع القهرمانه للعود من الحبشي وتقديمه للموسيقى راجية إياه بعزف لحن الأغنية التي يقول مطلعها:

أماه، يا أمي
لا تضعى على حراسا،

لبي "لوأيسا" طلبها، وعندئذ نهضن وشرعن في التمايل والرقص. كانت القهرمانة تحفظ كلمات الأغنية عن ظهر قلب وأخذت تغنى بمزاج عالٍ يفوق إمكاناتها الصوتية. تقول كلمات الأغنية ، الشهيرة آنذاك في إشبيلية:

أماه، يا أمي
لا تضعى على حراسا،
إذا لم أحرص على نفسي،
لن يمنعني سجاني.

يقولون إنه قدر،
لا ريب في ذلك،
إيقاظ الحرمان
لشهوة الجوعان؛
والنمو بلا حدود
للحب خلف القضبان؛
لهذا من الأحرى

تحطيم أغلالى؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجانى.

إذا لم تكن الإرادة
كافية وحدها للصيانة،
فلن يكفلها حارس
ولا خوف ولا زنانة:
ستتحطم- دون شك- تلك القيود
ولو بفعل الموت ذاته،
لكى يستوفى النصيب
الذى يغيب عن بالك؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجانى.

من يسكن الغرام
حشاشة قلبها،
ستطير كالفراشة
فى إثر لهيبها،
ولن يمنعها من الطيران
كتيبة من الحراس،
رغم اجتهادها
فى تنفيذ تعليماتك؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجانى.

إنها على هذا النحو
تباريح الغرام،
تحيل أرق الفاتنات
إلى حيوان خرافى له ذنب أفعوان:

بصدر من الشمع
ورغبة تتأجج فيها النيران،
بيدين من الزغب
وقدمين من اللبد؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجانى.

لم يكد سرب القَطَا - الذى تقوده القهرمانه - ينتهى من الغناء والرقص حتى
ظهرت "جيومار" وهى تهتز من شدة الاضطراب وتخدش يديها ورجليها كمن
أصابها جرب، ومن بين لهائها قالت بصوت مبوح خفيض:
- سيدتى، لقد استيقظ سيدى، هلمى يا سيدتى، أسرعى.

ومثل سرب الحمام الذى يلتقط فى سكون ودعة ما بذرته الأيادى الغريبة على
أديم الأرض وفاجأته طلقة مدفع مدوية فطار على إثرها فى الفضاء مشوشاً مذعوراً
ومتناسياً ما بين مناقيره من حب، فقد انفرط عقد لمة الراقصات حين ألقت على
وجهه "جيومار" بهذا الخبر المفاجئ، وفى شغلهن بالنجاة بأنفسهن بحثت كل واحدة
بين أرجاء البيت عن مكان تأوى إليه وتركبن الموسيقى - الذى رمى العود وكف عن
الغناء - مضطرباً حائراً لا يدرى أين المفر.

كانت "ليونورا" تولول بيديها الجميلتين والقهرمانه تلطم - بلطف - خديها،
خلاصة القول إن الفوضى والبلبله عمّا المكان. ولأن القهرمانه تتمتع برياطة جأش
وبالكثير من المكر والدهاء فقد أمرت "لأيسا" بالاختباء فى حجرتها واختارت البقاء
- مع سيدتها - فى الصالة لثقتها فى قدرتها على اختراع سبب يمكن تقديمه للزوج إذا
اقتحم عليهما المكان.

اختبأ "لأيسا" وظلت القهرمانه متسمة فى مكانها تتصنت قدوم الزوج، ولما طال
انتظارها ولم تحس بشيء زالت رهبتها وتشجعت، وخطوة أمام خطوة حتى أدركت
فراش سيدها ووجدته سيرته الأولى: يرسل بشخيره المتقطع الرتيب، ولما أيقنت من
سباته العميق رفعت تلّورتها وعادت أدراجها مسرعة لتزف إلى سيدتها البشرى.

لم تتردد القهرمانة فى اهتبال الفرصة التى لاحت لها على غير المتوقع وتتمناها قبل الجميع: ألا وهى الاستمتاع بالمفاتيح التى خالتها فى الموسيقى، ولهذا طلبت من "ليونورا" الانتظار فى الصالة لحين ذهابها للنداء عليه . كانت الحيرة والأفكار تتناوش "لوايسا" فى أثناء انتظاره لما سيسفر عنه استيقاظ العجوز. كان يلعن الدهان المزيف وينحى باللائمة على أصدقائه ويتهم نفسه بالتقصير لأنه لم يجربه أولاً على شخص آخر قبل "كاريثالس" . كان يقلب فكره فى مثل هذه الأشياء عندما دخلت عليه القهرمانة وزفت إليه بشرى نوم العجوز. سكنت جوانحه وأخذ يتابع باهتمام كلمات الهوى والعشق التى تشنف بها "ماريالونسو" أذنيه، ولما أدرك نواياها الخبيثة فكر فى استخدامها بمثابة طعم لاصطياد سيدتها.

وبينما كان الاثنان مشغولين بحديثهما اجتمعت الجوارى والخادومات المتفرقات فى أنحاء الدار وعدن أدراجهن للتحقق من صدق الخبر الذى فرق شملهن، ولما وجدن البيت صامتاً صمت القبور اتجهن إلى الصالة التى تركزن فيها سيدتهن، ومنها عرفن أن "كاريثالس" ما زال مستغرقاً فى نومه . سألنها عن الموسيقى والقهرمانة فأشارت إلى غرفة الأخيرة ، وبالصمت الذى قدمن به اتجهن على أطراف أصابعهن إلى باب الحجرة ووقفن للتصنت على ما يدور خلفه من حديث.

كانت معهن الزنجية "جيومار"، أما الحبشى فكان فى مخزن القش ممتدداً على سريريه البائس وفوقه الغطاء، يتصيب عرقاً من شدة الخوف، ورغم هذا لم يكف عن مداعبة أوتار العود الذى احتضنه وفر به بعد سقوطه من يد "لوايسا" : لقد كان شغفه بالموسيقى لا يقاوم، وكأن شيطان النغم يتلبسه . بعد سماعهن إلى مغازلات القهرمانة الجريئة رحن ينعتهن بأسوأ الصفات، مثل: ساقطة وقوادة وشمطاء ومقرزة ... إلى غير ذلك من النعوت التى نمسك عنها احتراماً، لكن أقذع الشتائم وأكثرها إثارة للضحك - نظراً للكنيتها البرتغالية - جاءت على لسان الزنجية "جيومار" . المهم أنهما اتفقا فى نهاية الحوار على أن يلبي "لوايسا" رغبتها شريطة أن تمكنه أولاً من سيدتها.

وضعتها الموسيقى فى موقف صعب بطلبه هذا، لكنها فى سبيل إشباع النزوة التى ألّمت بها وملكت عليها الروح والجسد وعدته بعمل المستحيل وما لا يخطر له على بال. عند خروجها للتحدث مع سيدتها وجدت بابها محوطاً بالجوارى فأمرتهن

بالانصراف إلى غرفهن والانتظار حتى الليلة القادمة لسماع الموسيقى لأن الفرع الذى انتابهن الليلة أنضب معين الرغبة فى اللهو والمرح .

فهمت الجوارى أن القهرمانة تريد التخلص منهن والبقاء بمفردها، ومع هذا لم يفعلن - لما لها عليهن من سلطة ونفوذ- أكثر من الانصياع لأمرها. ذهبت القهرمانة، فور انصرافهن، إلى الصالة لتقنع ليونورا- من خلال خطبة طويلة عصماء، كأنها تدرت أياماً عديدة على صياغتها- بالنزول على رغبة "لوايسا" . تمادت فى الإشادة بمفاته وملاحته وشبابه، وصورت لها البون الشاسع بين أحضانه العفية والوالهة وبين الأحضان الفاترة للزوج المسن، كما تفننت فى تزيين المتعة المتوقعة، وأعانها الشيطان بفيض من المبررات البليغة والأسباب الوجيهة التى لا تلين قلب "ليونورا" الغض الساذج فحسب، بل الرخام الأشد صلابة .

آه منكن، أيتها القهرمانات اللاتى جئن إلى العالم للفتك بالخفريات والإطاحة بآلاف النوای الطاهرة !... آه منكن، أيتها الدواهى المسلطات على تدنيس صالات وزرابى السادة الشرفاء بالأعيىكن القذرة !

خلاصة القول إن القهرمانة أخرجت ما فى جعبتها من حجج وكلام معسول من أجل خداع "ليونورا" وسوقها إلى الاستسلام والضياع، محبطة بذلك كافة احتياطات الحذر "كارينالس" الذى ينام غافلاً عن احتضار شرفه .

أمسكت "ليونورا" -المغرورقة العينين بالدموع - من يدها، واقتادتها - تقريبا بالقوة - إلى حيث ينتظر "لوايسا" ، باركتهما بضحكة شيطانية مزيفة ثم أغلقت الباب عليهما وذهبت لتنام على الزرابى والوسائد، أو - بمعنى أصح - لتنتظر اللحظة الموعودة للوفاء بدينها .

لو لم يكن "كارينالس" نائماً لسألناه حينئذ عن جدوى تحوطه وحذره، وبنائه الأسوار العالية لداره التى لم يتخط عتبتها خيال ذكر، وعن الصينية الدوارة، والحوائط السمكية، والنوافذ المسدودة، والعزلة التامة، وعن المهر الكبير الذى قدمه لزوجته وهداياه المتواصلة لها، وعن حسن معاملته لجواريه وخادmates وتلبيته لكافة طلباتها وما يرد على خواطرهن .. لكننا- للأسف- لا نستطيع التوجه إليه بهذا السؤال لأنه -

كما نعلم - مستغرق في نوم لم يألفه.. ولو افترضنا جدلاً وصول صوتنا إليه وقدرته على الرد فلن يفعل أكثر من هز كتفيه وعقد ما بين حاجبيه والتلعثم قائلاً: " ذهب كل هذا أدراج الرياح، إذ أطاح به مكر شاب منتطح أثيم، وغدر قهرمانة مزيفة، وغفلة فتاة التقت الطعم دونما تبصر" .. خلصنا يا إله السماوات والأرض من هؤلاء الأعداء الذين لا يحمينا منهم ترس الحصافة والحذر، ولا يؤثر فيهم سيف العفة والحياء!

ورغم ما تقدم ذكره فقد أبانت "ليونورا" عن معدنها الأصيل حين دقت ساعة الجد، إذ هبت تدافع عن نفسها ضد الهجمات الشرسة لمخادعها الماكر الذى لم يستطع التغلب عليها وخارت قواه بعد إفراغه لما لديها من طاقة لينتهى الصدام بسقوط الاثنين- من شدة الإعياء - على أرضية الحجرة واستسلامهما للنوم.. شاءت إرادة السماء أن يستفيق "كارينالس" من دهانه ليقوم - كعادته - بتحسس أرجاء السرير، ولما لم يجد زوجته الأثيرة إلى جواره قفز منتفضاً، برشاقة وبسالة غريبتين على سنوات عمره المديد. حين وجد باب الغرفة مفتوحاً ولم يعثر على المفتاح بين الحشيتين طار منه صوابه، لكنه بعد استرداد بعض توازنه خرج إلى الممر، ومنه وصل- على أطراف أصابعه- إلى الصالة حيث تنام القهرمانة، ولما رآها بمفردها اتجه إلى غرفتها ليفتح الباب ويشاهد ما لم يخطر له من قبل على بال: رأى "ليونورا" بين ذراعى رجل غريب، وكلاهما مستغرق في النوم وكأن مفعول الدهان قد انتقل إليهما من المسن الغيور.

امتقع لون "كارينالس" من مرارة المنظر الذى شاهده، والتصقت الصرخة الخارجة من أعماقه بحنجرتة، تهدلت ذراعاه وبقي مثل تمثال بارد من الرخام، وبالرغم من إيقاظ الغضب لحواسه شبه الميتة إلا أن الألم تغلب عليه وضيق مجرى تنفسه. ومع هذا فقد كان بوسعه الانتقام للوصمة الكبرى لو كان بيده سلاح، ولهذا قرر العودة إلى غرفته لإحضار خنجر ليغسل عاره بدم عدويه ودماء ساكنى الدار. وبهذا القصد الشريف والضرورى عاد فى صمت وحذر- مثلما جاء- إلى مخدعه، لكن الألم والضيق أطبقا على قلبه فانكفاً على وجهه غائباً عن الوعي.

مضى الجزء الباقي من الليل والحال هكذا، وانبلج الصباح ليضبط بنوره العاشقين متلبسين بتشابك الأذرع. استيقظت "ماريالونسو" يحدوها الأمل فى الظفر بما توهمته

دورها، ولما وجدت ضوء النهار يغمر المكان لم تجد بداً من إرجائه إلى ظلام الليلة التالية.. أما "ليونورا" فقد هبت فزعة من نومها وراحت تلعن تقصيرها وتهاون القهرمانة الملعونة، اتجهت الاثنتان - وثباً - إلى غرفة الزوج وهما تدعوان السماء من بين أسنانهما أن تجدها مستغرقة في النوم، وحين أبصرته هامداً فوق السرير حسبتا أن مفعول الدهان ما زال سارياً، وعندئذ شرعنا في تبادل الأحضان. أمسكت "ليونورا" ذراع زوجها وراحت تقلبه ذات اليمين وذات الشمال عله يستيقظ دون حاجة إلى غسل مواضع الدهان بالخل. أثمرت دفعاتها في إفاقة "كاريثالس" الذي أرسل تنهيدة عميقة وقال بصوت واهن حزين:

- يا لشقوتي، ومرارة العاقبة التي جلبتها ثروتى !

لم تفهم "ليونورا" شيئاً مما نطق به زوجها، لكنها عندما وجدته "مستيقظاً" اقتربت منه وعانقته عناقاً حاراً- ملصقة وجهها بوجهه- ثم سألته:

- يبدو أنك تشكى، يا سيدى، ماذا بك؟

حين سمع العجوز المنكوب صوت عدوته الرقيقة فتح عينيه في مشقة، وكالمئات رمقها بنظرة طويلة ملحة دون أن يحرك أهدابه وقال لها فى النهاية:

- أرسلى فى طلب والدك لأننى أحس بشيء ثقیل يطبق على صدرى وأخشى مفارقة الحياة قبل رؤيتهما.

لا ريب أن "ليونورا" صدقت كلامه معتقدة أن هذا من تأثير المفعول القوى للدهان، لكنها لبّت طلبه على الفور وأمرت الحبشى باستدعاء والديها على جناح السرعة. عادت بعد ذلك لعناقه وملاطفته بشكل غير مسبوق: كانت تسأله بكلمات حنونة عذبة عما يحس به، وهو ينظر إليها مبهوراً وكأن كل كلمة أو ملاطفة تصدر عنها ليست إلا طعنة رمح تخرق مهجته.

تطوعت القهرمانة بإخبار أهل الدار و "لوأيسا" بمرض سيدها العُضال، وفى غمرة التوتر تناسى الجميع غلق أبوابى الدار بعد خروج الحبشى لاستدعاء والدى "ليونورا" اللذين اعترتهما الدهشة للطلب الغريب: إذ لم يسبق لأحدهما دخول تلك الدار بعد زفاف الابنة .

خيمَ الصمت المشيع بالقلق والتوتر على ساكنى الدار نتيجة لجهلهم بأبعاد مرض "كاريثالس" الذى كان يرسل- بين الفينة والفينة- بتنهيده عميقة متألمة بدت وكأنها تقتلع روحه من جذورها.

كانت "ليونورا" تبكى لرؤيته على تلك الحالة، بينما يضحك الزوج ضحكات واهنة ملتأثة معتقداً زيف دموعها.

ولما حضر والدا "ليونورا" وجدا الباب الخارجى وباب الفناء مفتوحين على مصراعيهما والدار غارقة فى الصمت اعترتهما الدهشة المشوبة بالفزع . انجها إلى غرفة صهريهما فوجداه- كما ذكرنا آنفاً- يحدق فى وجه زوجته الممسكة بيده، وكلاهما يبكى: هى تبكى لمرضه، بينما يبكيه اعتقاده فى زيف دمعها المسفوح.

دعاهما للجلوس فور دخولهما عليه وأمر الباقيين بمغادرة المكان مستثنيا منهم "ماريالونسو"، ودون انتظار منه لتدخل أحدهم بالحديث مسح عينيه وقال بصوت هادىء :

- صهرائى العزيزان، لقد أرسلت فى طلبكما لتكونا شاهدين على ما يصدر منى الآن. تعرفان أنه قد مضى على زواجى من ابنتكما سنة وشهر وخمسة أيام وتسع ساعات، وأنى أمهرتها ما يزيد عن ثلاثة أضعاف ما يقدم لأمثالها من فتيات أغنى البيوتات. لا شك أنكما لم تدسيا كذلك مدى حيطتى فى تفصيل ملابسها ومدى امتثالى لتلبية كافة رغباتها، وعانيتما شدة حرصى - نظراً لطبيعتى الغيورة وكثرة ما ورد على من غرائب وحادثات خلال سنوات عمرى المديد- فى حفظ هذه الجوهرة وصيانتها قدر استطاعتي: رفعت جدران هذه الدار إلى عنان السماء، وسددت نوافذها، وأحكمت غلق أبوابها، وبنيت صينية دواراة مثل الموجودات فى الأديرة، وحرمت اجتياز عتبتها على كل من يتمتع بصفة الذكورة- حيواناً كان أو إنساناً- وجلبت الجوارى والخادومات لخدمتها والسهر على راحتها، ولم أبخل عليهن - أو عليها - بشئ يطلبنه، وجعلتها صنواً لى وأسررت إليها بمكنون صدرى، وأطلقت يدها فى ثروتى.. لقد فعلت كل هذا لكى أعيش آمناً فى كنفها، ولتسهل مهمتها فى تفادى كل ما من شأنه إثارة غيرتى. ولأن حذر

الإنسان مهما تعاظم لا يقيه من عقاب الرب الذى لم يفوض إليه أمره ، فلا غرابة فى أن يلحق العطب بالقواعد التى أسستها أو فى تجرعى للسّم الذى صنعتَه بيديّ . ولأننى أرى الوجوم عليكم مسيطراً، وأبصاركم معلقة بما يصدر من فمى، سأختم هذه المقدمة المطوّلة بجملة ما حسبت يوماً أنها يمكن أن تصدر فى آلاف من الحالات المشابهة . أقول إن كل ما فعلته واجتهدت فى الحذر منه قد تهاوى فجر هذا اليوم حين شاهدت هذه (مشيراً إلى زوجته) - التى لم تولد إلا لهدف واحد، وهو تبديد راحتى والقضاء على حياتى- بين ذراعى شاب أنيق داخل غرفة هذه القهرمانّة الخبيثة الكريهة .

لم يكد ينتهى من عبارته الأخيرة حتى دارت الغرفة بليونورا وانكفأت فوق قدميه مغشياً عليها . امتقع لون " ماريالونسو " ، وفى حنجرة كلا الأبوين تشكلت غصّة عاقتهما عن التفوه ولو بكلمة . لم يعبأ "كاريثالس" بما جرى حوله وواصل حديثه قائلاً :

- الانتقام الذى أفكر فيه يتجاوز حدود المألوف فى مثل هذه الحالة لأننى أتحمل وحدى القسط الأعظم من الذنب نتيجة لمسلكى المتطرف الذى يتناقض مع خبرة سنواتى المديدة المشرفة على الثمانين ، ومن هنا سيكون الانتقام موجهاً إلى شخصى . لقد كنت مثل دودة القز التى تصنع قبرها بيدها ، أما هذه الصببية التى غررت بها ناصحة السوء فلا ذنب لها (انحنى عندئذ على زوجته المغمى عليها وطبع قبلة على جبينها) . أنا لا أحملها قدراً ولو ضئيلاً من الذنب لأن سنوات عمرها القصار بما تحويه من قليل خبرة لا تقوى على الصمود أمام مبررات عجوز داهية ومغازلات شاب عاشق . أتمنى أن يكون ما سأقدم عليه وأنا فى الرمق الأخير من حياتى عبرة لمن يعتبر لأنه لم ير من قبل ولم يخطر على قلب بشر . أحضرا محامياً لكى أعدّل وصيتى وأضاعف مهر "ليونورا" التى أرجوها - إن مت ، وأظن أننى هالك لا محالة - أن تتزوج من الفتى الذى لم يرع حرمة لهذا المسنّ الأشيب المكروب ، ولو قدر لى العيش لن أنقض ما تعهدت به الآن وسأتمنى لهما السعادة من صميم قلبى . وبالنسبة لبقية ثروتى فأهبها لمؤسسات البرّ ، ولكما - يا صهرائى العزيزان - أوصى بما يكفيكما للعيش

فى هناة ما بقى لكما من العمر . ليات المحامى بسرعة لأن معاناتى فى سبيلها لقطع شريان الحياة .

قال هذا وداهمته إغماءة قوية طرحته إلى جوار زوجته . ياله من مشهد محزن وغريب، هذا الذى رأى فيه الأبوان ابنتهما الغالية وصهرهما الحبيب ! لم تنتظر القهرمانه الخبيثة إفاقة "ليونورا" ومواجهتها للوم أبويها، بل تسالت من الحجرة وجرت إلى "لأيسا" لتخبره بما سمعت، نصحته بعد ذلك بمغادرة الدار على عجل لأنها ستتكفل بإطلاعه أولاً بأول - عن طريق الحبشى - بما يستجد من أمور، لاسيما وأنه لم تعد هناك أفعال ولا أبواب تمنع الدخول أو الخروج . استولت الدهشة على "لأيسا"، لكنه عمل بالنصيحة وارتدى الأسمال البالية وخرج من الدار ميمما شطر زملائه ليقص عليهم الأحداث الغريبة .

أرسل والد "ليونورا" فى طلب محام صديق له، وفور حضوره كان "كارينالس" وزوجته قد ثابا إلى رشدهما . أملى "كارينالس" وصيته على النحو السابق دون أن يشير إلى الجرم الذى اقترفه "ليونورا" ، لكنه مال على أذنها ليطلب منها الزواج - حال موته - من ذلك الفتى، ولم يدون هذا الطلب فى الوصية احتراماً لذكراه . حين سمعت هذا منه ارتمت على قدميه وقالت له وقلها ينتفض:

- عش ما شئت من السنوات يا سيدى ومنتهى أملى، ورغم أنك لست مجبراً على تصديقى أقول لك: إننى لم أخدعك قط ولم أخنك ولا حتى بمجرد التفكير أو النية .

حين همت بالاعتذار وقص حقيقة ما جرى لم تستطع تحريك لسانها وسقطت من جديد مغشياً عليها . عانقها العجوز المكروب وهى طريحة على الفراش وكذلك أبواها . بكى ثلاثتهم بمرارة أجبرت المحامى على الانخراط مثلهم فى الحبيب .. تضمنت الوصية أيضاً معاشاً للخادمات ونصاً بعنق الجوارى والحبشى ، ولم تصب منها القهرمانه المزيفة سوى راتبها الشهرى . خلاصة القول إن الألم أودى فى النهاية بحياة "كارينالس" وأنهم حملوه إلى مثواه الأخير بعد سبعين يوماً من تلك الواقعة الأليمة .

أصبحت "ليونورا" أرملة غنية وبأكية، وفى الوقت الذى كان يراود فيه الأمل "لوأيسا" بزواجها منه تنفيذاً لوصية المتوفى، قامت هى - بعد أسبوع واحد من الوفاة - بالترهين والالتحاق بأحد الأديرة الأشد عزلة فى المدينة . تملكه الغيظ حينئذ واستبد به اليأس ولم يجد بداً من اتخاذ قراره المتسرع بالرحيل إلى العالم الجديد ..

حزن والدا "ليونورا" حزناً شديداً لالتحاق ابنتهما بالدير؛ لكنهما وجداً غير قليل من العزاء والسلى فيما تركه لهما صهرهما فى وصيته، كما تسلت الخادمان بالمعاش المفروض لهن، وأيضاً الجوارى و الحبش بالحرية المستردة .

أما القهرمانه الخبيثة فقد خرجت صفر اليدين جزاءً وفاقاً على سوء صنيعها .

أما أنا، فلم تبق لدى سوى الرغبة فى الوصول إلى نهاية هذه الحكاية المحزنة التى ترشدنا إلى عدم الركون إلى المفاتيح و الأقفال أو الصوانى الدوارة أو الأسوار العالية طالما ظلت الإرادة حرة طليقة وإلى أن السنوات الخضرة القصار ليست أهلاً للثقة وعلى وجه الخصوص إذا كانت هدفاً لتحريضات القهرمانات المتشحات بالعباءات الطويلة السوداء ، وبالأخمرة البيضاء المسبلة .. ما يحيرنى فى هذا الأمر هو أننى لا أجد سبباً لإحجام "ليونورا" عن الاعتذار والدفاع عن نفسها بقوة أمام زوجها الغيور، وإفهامه أنها خرجت من تلك المحنة طاهرة الذيل ونقية كالثلج .. لعل الاضطراب هو الذى ألجم لسانها، وأن موت زوجها السريع هو الذى حال بينها وبين الاعتذار وتبرئة الساحة .

صاحبة السيادة : الخادمة (١)

(١) اختار الكاتب لقباً وصفة - تخالفه فى المعنى - لإطلاقهما على بطلة القصة : فكلمة fregona عبارة عن لقب تحقيرى يطلق على الخادمة التى تعمل بالتنظيف وغسيل الأوانى ، أما النعت ilustre فيشير إلى جملة من المدلولات السامية (مثل : صاحبة السيادة ، كريمة الأصل ، الشريفة ، الشهيرة ... إلخ) التى تتناسب مع شخصية البطلة . (المترجم)

منذ سنوات ليست ببعيدة كان يعيش في مدينة "برغش" (Burgos) ، الشهيرة المحترمة ، رجلاً شريفاً من ذوى الثراء والجاه : أحدهما يسمى "دون" (٢) ديجو دى كارياثو" بينما يدعى الآخر "دون خوان دى أبيندانيو" . كان لكل منهما ولد في معية الشباب : يحمل الأول اسم أبيه (ديجو) ، أما ابن الثانى فيحمل اسم "توماس دى أبيندانيو" . ومن أجل اختصار أسماء الشخصيات الرئيسية الواردة بهذه القصة - توفيراً للوقت والجهد - فإننا سنكتفى عند الإشارة إلى هذين الفتيين بذكر لقبيهما فقط، وهما : "كارياثو" للأول ، و "أبيندانيو" للثانى .

كان "كارياثو" يناهز الثالثة عشرة من العمر ، أو أكثر قليلاً ، حين ظهرت عليه - نتيجة لميوله الفطرية ، ودون تأثير من أحد - أمارات الوله الشديد بحياة الصلعة . دفعه هيامه بتلك الحياة الحرة الطليقة إلى ترك بيت والده - على ما فيه من رغد العيش - والخروج سائحاً في بلاد الله الواسعة ، غير عابئ بما يكتنف حياة التشرد من بؤس وكدر. لم يكن المشى على القدمين يتعبه ، ولا تغضبه الحرارة الشديدة ، ولا تزعجه البرودة القارصة لأن فصول السنة كلها أصبحت - بالنسبة له - ربيعاً عذباً حنوناً . كان ينام ملء جفنيه مستمتعاً على بقايا الحصاد فى البياذر وكأنه ينام على الحشايا الوثيرة ، ويندس بين كومات التبن فى مخازن الخانات وكأنه ملفوف بالملاءات الهولندية . خلاصة القول أنه تأقلم مع حياة الصلعة وأصبح من عمدائها وكأنه قد تخرج من جامعة "ألفاراتشى" (٣) .

فى السنوات الثلاث التى قضاها بعيداً عن بيته تعلم لعبة "التابا" فى مدريد، ولعبة الورق المسماه Rentoy فى خانات طليطلة ، ونوعاً آخر من ألعاب الورق يسمى Parar

(٢) "دون" لقب بمعلى سيد ، وهو أشد خصوصية ورفعة من لقب "سنيور" (بمعلى سيد أيضاً) لأنه يسبق دائماً أسماء الشخصيات ذات المكانة الاجتماعية والثقافية المرموقة . (المترجم)

(٣) يشير الكاتب إلى بطل قصة "جوثمان دى ألفاراتشى" (للمؤلف :ماتيو أليمان) ، وهى من أشهر قصص الصعاليك الإسبانية ، وقد صدر الجزء الأول منها عام ١٥٩٩ والجزء الثانى فى ١٦٠٤ . (المترجم)

عند أسوار إشبيلية الواطلة المتاخمة للخندق . وبالرغم من شطف العيش والعوز اللذين يكتنفان هذه الحياة إلا أن " كارياثو " كان يتصرف مثل الأمراء : لم يكن يدانيه أحد في الرماية بالبندقية ، ويوشى نبل تعامله وسخاؤه مع زملائه بأصالة معدنه . لم يكن يزور صوامع " باكو " (٤) إلا لماماً ، ولا يشرب النبيذ إلا بقدر ، ولهذا لا يمكن إدخاله في عداد من يطلق عليهم " الأشقياء المزعجون " الذين يسرفون في تعاطي الخمر حتى تتحول وجوههم إلى اللون الأحمر القرمزي وتصبح مثل المغرأة . خلاصة القول إن عالم الصعلكة وجد في " كارياثو " أنموذجاً للصعلوك الفاضل ، اللطيف ، الخلق المؤدب ، والفطن بنسبة تزيد عن المتوسط . مرّ بجميع مراحل حياة الصعلكة إلى أن حصل على شهادة التخرج برتبة معلم من " مضارب الزهرة " (٥) ، وهى قمة مدارسها .

يا صغانيك إسبانيا وشذاذ آفاقها من الأفذار المترهلين أو متصنعى الفقر أو مدعى الكساح ، يا من تشقون الجيوب فى سوق الدواب بطليطة أو فى ميدان مدريد الكبير ، يا من تقرأون الصلوات على أبواب البيوت أو تحملون السلال فى إشبيلية أو تخدمون الأوغاد والبغايا وحثالة المجتمع ... إلى آخر هذا السجل الطويل الحافل بأنشطتكم ، لا تتعالوا ، وخففوا من غلوائكم لأنكم لا تستحقون هذا القلب المهيب ما لم تكونوا قد مررتم أولاً على أكاديمية " مضارب الزهرة " ومكنتم سنتين على الأقل فى قاعات دروسها . أنها المركز الوحيد الذى يتآخى فيه النشاط الدائب مع البوهيمية والتنطع ، وفيه - دون غيره - تغدو القذارة نظافة والترهل اكتنازاً . هناك فقط نجد : الجوع بلا حساب ، والشبع بلا حدود والرذيلة بلا قناع ، ولعب الورق موصول ليله بالنهار ، والشجار فى كل لحظة ، والقتلى فى كل آن ، وفحش القول مع كل خطوة ، والرقص على قدم وساق ، والألحان والأغاني الشعبية فى الركاب وتحت الأقدام ، والشعر يتفجر شوباً من جميع الأركان . هناك : يصدح الغناء من جانب ، ومن آخر يتعالى السباب ؛ هذه جهة مشغولة بالعراك ، وتلك أخرى بلعب الأوراق ، وفى جميع الاتجاهات

(٤) " باكو " Baco : هو إله الخمر . (المترجم)

(٥) " مضارب الزهرة " Zahara : هى إحدى المصايد الشهيرة لسمك التونة وتقع على ساحل البحر المتوسط بالقرب من مضيق جبل طارق . وطبقاً لما ذكره المؤرخون والنقاد فقد شهدت تلك المنطقة - خلال عصر المؤلف - حضور العديد من أبناء النبلاء الذين استهزئهم حياة التشرد والصعلكة . (المترجم)

والجوانب تعلن عن نفسها السرقات . هناك تتبختر الحرية مزهوةً ويتألق النشاط ، وإلى هنالك يذهب الآباء المحترمون من عليّة القوم - أو يرسلون نواباً عنهم - للبحث عن أولادهم ولا يخرجونهم من المضارب إلا بشقّ الأنفس وكأنهم يسوقونهم إلى الموت سوقاً .

لكن الصورة المشوقة اللذيذة التي قمنا برسمها آنفاً لا تخلو من مرارة تفسد حلاوتها، ألا وهى المتمثلة فى فقدان النوم المريح المطمئن ، وذلك لامتزاجه بالخوف من ترك المضارب بغتة والانتقال - قسراً - إلى بلاد البربر على العدوّة الأخرى ، ولهذا السبب كان الصعاليك يقضون الليل فى عدد من الأبراج البحرية ويتخذون العسس والمراقبين حتى يتمكنوا من إطباق جفونهم اعتماداً على يقظة عيون حراسهم، ورغم هذه الاحتياطات فكثيراً ما أمست تلك الجموع المشوشة المضطربة - بما فيها الحرّاس والعسس - فى "مضارب الزهرة" وأشرق عليها صباح اليوم التالى وهى بين أحضان مدينة "تطوان" .. لكن هذا الخوف المقيم لم يمنع صاحبنا "كارياثو" من الاصطياف ثلاثة مواسم متتالية بتلك المضارب وقضاء وقت ممتع بها . فى الصيف الأخير من الثلاثة حالفه الحظ وريح من لعب الورق ما يقرب من سبعمائة ريال فكّر فى استخدامها لشراء ثياب لائقة والعودة إلى "برغش" ليكفكف دموع والدته التى سألت عليه مدراراً . استأذن أصدقاءه - وله منهم الكثيرون ، والأوفياء أيضاً - فى الرحيل بعدما وعدهم بالحضور فى الصيف القادم ما لم يفسد عليه تدبيره موت أو مرض . أودع عندهم نصف مهجته ، وعهد بأشواقه ورغباته إلى تلك الرمال الجافة التى تبدو لناظريه أشد خضرة ونضارة من جنة الفردوس . ولأنه كان معتاداً على المشي فقد استلم ناصية الطريق مغتبطاً ، وعلى نعلين من الحلفاء وصل - دونما تعب أو نصب - إلى "بلد الوليد" التى أمضى فيها خمسة عشر يوماً لكى يبدّل الوجه الخلاسىّ بوجهه الأسيل المتورد ، ولينفض عن كاهله غبار حياة الصعلكة إيداناً بالدخول فى سمت الشاب النظيف المحترم .

من خمسمائة ريال التى وصل بها إلى "بلد الوليد" أنفق على العملية السابقة أربعمائة ، وبمائة الريال الباقية استأجر بغلة وغلماً ليدخل بهما على أبويه محقّقاً بالاحترام والبهجة . استقبله أبواه بفرحة غامرة ، ولم يكد خبر عودته ينتشر فى

المدينة حتى توافد الأهل والخلان لتهنئة الوالد بالعود الحميد لولده . تجدر الإشارة إلى أن "دون ديبجو دى كارياثو" (الابن) كان قد استعار لنفسه خلال السنوات الثلاث اسم "أوردبالس" لينادي به الذين لا يعرفون اسمه الحقيقي ، وأن "دون خوان دى أبيندانيو" وابنه "توماس" كانا ضمن القادمين للسلام عليه ، وأن صداقة حميمة جمعت بين "توماس" و"كارياثو" لتقاربهما فى السن .

حكى "كارياثو" لأبويه وزائريه آلاف الأكاذيب المدهشة عن وقائع ملفقة جرت له فى سنوات غربته ، لكنه لم يتطرق أبداً إلى المضارب التى كانت تسيطر بصفة دائمة على مخيلته ويتعاطم تمكنها منه كلما اقترب الموعد الذى حدده مع أصدقائه للعودة إليها . لم تكن مسابقات الصيد التى يشغل بها والده تسلياً ، ولم تكن الولائم والحفلات الباذخة العفيفة التى تعمر بها المدينة تطريه وترضيه . كانت جميع وسائل اللهو تضجره وتتعبه لأنها تبدو له أقل بكثير مما مارسه وشاهده فى المضارب .

حين رآه صديقه "أبيندانيو" مكتئباً وغارقاً على الدوام فى التفكير دفعه رصيد الصداقة بينهما إلى التجروء بسؤاله عن السبب ، مبدئاً له استعداداً لبذل الغالى والنفس لإخراجه من تلك الحالة . لم يعمد كارياثو لإخفاء الحقيقة حتى لا يودى بأواصر الصداقة التى تلبى عن رسوخ ومثانة جذور ، وهكذا أخذ يقص عليه دقائق وتفصيل حياة الصعلكة ويعترف له بأن الرغبة المستبدة فى العودة إليها هى السبب فى أحزانه وهمومه . ومن الطريقة الشائقة التى صور بها تلك الحياة لم يكد يفرغ من كلامه حتى لهج لسان صديقه بالثناء على ذوقه ومسلكه .

المهم أن كلام "كارياثو" أثمر فى النهاية عن استمالة "أبيندانيو" ، كما أدى الى اتخاذ القرار بتخصيص الصيف القادم للتمتع بتلك الحياة الحرة السعيدة التى تفنن صاحبها فى تصويرها . سر "كارياثو" بقرار صديقه الذى وجد فيه نعم المعين على المضى قدماً فى عبثه واستكمال مشروعه المزرى الذى يتنافى مع واقعه الاجتماعى . اتفقا على ادخار ما يصل إلى أيديهما من أموال ، وبحثا عن حيلة لا تسترعى الانتباه لخروجهما سوياً ، ويعد الكثير من البحث والتفكير عثرا على ضالتهما فى الرحلة التى سيقوم بها "أبيندانيو" بعد شهرين : كان الأخير قد أمضى من قبل ثلاث سنوات فى "شلمنقة" لدراسة اللغتين : اليونانية واللاتينية ، وبعد عودته ألقعه أبوه بضرورة

استكمال الدراسة بإحدى كليات تلك المدينة ووعده بتحمل كافة المصروفات من أجل تحقيق هذا الهدف ، ولما كانت الدراسة ستبدأ في " شلمنقة " بعد شهرين فقد اتفقا على اتخاذ خروج " أبيندانيو " إليها غطاءً لوجهتهما الحقيقية .

في خلال تلك الفترة أعرب " كارياثو " لوالده عن رغبته في مرافقة " أبيندانيو " للدراسة في جامعة شلمنقة . لم يخف الوالد سروره بهذا الطلب واتفق مع " دون خوان دي أبيندانيو " على استئجار دار تليق بنجليهما وتزويدهما بكل وسائل الراحة .

ولما دنا موعد الرحيل استأجر الأبوان مُؤدباً - تفوق أخلاقه الحميدة كياسته وفطنته - للإشراف على ولديهما وأعطياه المال الكافي للإنفاق على متطلبات الدراسة . لم ينسيا أيضاً توصية الطالبين قبيل رحلتهم العلمية بتوخى الجدية والاستقامة حتى يحققا الغاية التي يسعى إليها كل دارس - لا سيما أولاد الأصول - ولا سبيل للاستعانة عليها إلا بالمثابرة وبذل الجهد وسهر الليالي . أبدى الطالبان انصياعهما للتوجيهات والنصائح ، وبعد هطول الدموع الغزيرة من عيون والدتيهما ، وتلقيهما مباركة الأهل والصحاب ، رحلا بصحبة خادمين ، فضلاً عن المؤدب الذي سارع بإعفاء لحيته لكي يصفى الأهلية والمهابة على سلطته .

حين وصل الركب إلى مدينة " بلد الوليد " طلبا من المؤدب قضاء يومين فيها لزيارة معالمها ، فما كان منه إلا أن قام بتوبيخهما وتسفيه أحلامهما قائلاً : إن من يريد اللحاق على جناح السرعة ببداية الدراسة لا ينبغي أن يخالجه التفكير في التوقف ولو ساعة ، فما بال التفكير في يومين ! هدهما بعد ذلك بإبلاغ أبييهما لو عادا لمثلها ثانية وفكراً في التلكؤ ولو لدقيقة واحدة .

توقفت ألمعية ومهارة السيد المؤدب - أو القهرمان ، كما يحلو لنا تسميته - عند هذا الحد . أما الفتیان اللذان يعرفان طريقهما جيداً ، فبعد سرقتهم لأريعمائيه الإسكودو التي يحتفظ بها كبيرهم طلبا منه التصريح لهما بذلك اليوم فقط لرؤية عيون " أرجالس " التي تحمل القناطر الشاهقة العريضة مياهاها إلى " بلد الوليد " . ولما كان المؤدب مشغولاً بالبحث عن مبرر للمبيت في " بالدياستياس " (٦) وتقسيم مسافة

(٦) تقع Valdeastillas على نهر Adaja جنوب بلد الوليد . (المترجم)

الثمانية عشر فرسخاً الواقعة بينها وبين "شلمنقة" فقد أذن لهما والألم يهتصر مهجته ، لكن الأمر انتهى إلى خلاف ما يشتهي ، وكما يقول المثل : "أفكار الجواد تمضى فى وادٍ وفكر من يسرجه فى وادٍ آخر" .

انتقى الفتيان أفضل بغلتين ، وعلى متنيهما وصحبة خادم اتجهوا صوب مجرى عيون "أرجالس" الذى يفوق فى الشهرة والقدم مجارى عيون : "كانيو دورادو" و"بريورا" و"كاستيانا" فى مدريد ، و"كوريا" و"بيثارا" فى إقليم لامنتشا . حين وصلوا إلى "أرجالس" أدخل "أبيندانيو" يده فى رحله فظن الخادم أنه سيخرج أنية يشربون بها ، لكنه بسطها إليه بخطاب مغلق وطلب منه تسليمه للمؤدب وانتظارهما عند بوابة "الكامبو" (٧) .

لم يكد الخادم يتسلم الخطاب ويتجه به صوب المدينة (بلد الوليد) حتى لوى الأعنة وأخذ الاتجاه المضاد ، وفى تلك الليلة ناما فى "موخادوس" (٨) ، وبعد يومين وصلا إلى مدريد التى أمضيا فيها أربعة أيام أخرى باعا خلالها البغلين بمبلغ كبير . اشتريا لكل واحد منهما - على شاكلة الفلاحين والقرويين - معطفاً قصيراً من الخيش وسروالاً ردىء الصنع ونعلين واسعين وجورياً داكناً من الكتان ، وبعد قيامهما ببيع ملابسهما الأصلية وارتدائهما للجديدة أصبح من المتعذر التعرف عليهما حتى ولومن أقرب الناس إليهما .

بعد التخفف مما كان معهما - حتى من السيفين اللذين باعاهما أيضاً لصاحب محل الملابس - استلما الطريق إلى طليطلة ، لا يلويان على شيء .

لندعهما - مؤقتاً - يمضيان هانئين وننتقل إلى المؤدب للتعرف على رد فعله حين فضّ الرسالة التى سلمها له الخادم وقرأ فيها ما يلى :

"تكون قد أديت ما عليك من واجب ، يا سيد "بدرو ألونسو" ، لو تحليت بالصبر ورجعت إلى "برغش" لتخبر أبونا أننا بعد إعمال الفكر فضلنا السلاح وحياة الجنديّة

(٧) بوابة El Campo هى إحدى بوابات بلد الوليد الأربع . ويقال إن ثريانثس كان يعيش بالقرب من هذه البوابة عندما عثر على رجل مقتول أمام بيته . ومن المعروف أنه دخل السجن لهذا السبب ، ولم يفادره إلا بعد سلسلة طويلة من التحقيقات أثبتت براءته . (المترجم)

٨ - تقع Mojados على نهر Cega ، ويفصل بينها وبين جنوب بلد الوليد حوالى ٢١ كم ، كما تبعد عن بالدياسياس بحوالى ١٠ كم . (المترجم)

على الكتاب وطلب العلم ، ولذا فقد قررنا استبدال شلمنقة ببروكسل وإسبانيا بفلاندرس . لا تفتش عن أربعمائة الإسكودو لأنها معنا ، ولا عن البغلتين لأننا نفكر في بيعهما . لا ريب أن غايقتنا النبيلة ومشوارنا الطويل الصعب هما خير اعتذار لما أقدمنا عليه ولايجرؤ على نعتة بالحق والغلط إلا كل رعديد جبان . ساعتنا هذه هي موعد الرحيل ، أما العودة فمتوقفة على الانتهاء من خدمة الرب الذي ندعوه - نحن تلميذك الصغيرين - بأن يحفظك قدر المستطاع . من أمام مجرى عيون "أرجالس" والأرجل في الركاب ، ميممة شطر فلاندرس نكتب إليك :

"كارياثو" و "أبيندانيو" .

بهت "بدرو ألونسو" من فحوى الرسالة ، ولما تبين له صدق ما جاء فيها (بعد قيامه بتفتيش حقيقته واتصاح خلوها من أربعمائة الإسكودو) ركب البغلة الباقية وغز السير إلى "برغش" ليبلغ الوالدين قبل فوات الأوان حتى يتمكن من تدارك الموقف ، لكن مؤلف القصة أمسك عن تتبع ما حدث في هذا الاتجاه إذ اكتفى بوضع "بدرو ألونسو" على سرج البغلة وانطلق خلف "أبيندانيو" و "كارياثو" ليحدثنا بما جرى لهما قائلًا : إنهما وجدا بعد دخولهما من بوابة "إيسكاس" بغالين أندلسيين يرتدى كل منهما سروالاً فضفاضاً من الكتان الخشن وسترة ضيقة وقصيرة من الجلد ويعلق في حزامه حساماً وخنجرًا مدبباً ، كان أحدهما - على ما يبدو - قادمًا من إشبيلية والآخر ذاهبًا إليها ، والمتجه إليها يقول للعائد منها :

- لو لم يكن مخدومي سبقني بكثير لتوقفت وقتاً أطول للاستفسار عن آلاف الأشياء التي أود معرفتها لأنك شوقتي بما حكيت لي عن الكونت الذي بادرنشق "ألونسوخينيس" و "ريبيرا" دون تمكينهما من طلب الاستئناف .

- لقد نصب لهما الكونت فخاً - قال الإشبيلي - واستدرجهما برجلين من أعوانه إلى دائرة اختصاصه ، ولم يسمح بعد ذلك للمحكمة الإقليمية باستردادهما . أتعلم ، يا صديقي ، أن الكونت "بونيونروسترو" هذا شعلة من النشاط الدائب ، وأن أصابع كفيه تمتد إلى حلقنا وتهدد أرواحنا التي ترفرف بين ضلوعنا ؟ لقد تمكن من تطهير إشبيلية والفراسخ العشرة المحيطة بها من متصنعي الأنافة والشجاعة ، ومن بثّ الرعب في نفوس

للصوص والمجرمين لدرجة أنهم لا يفكرون في مجرد المرور على مقرية من المدينة . ورغم أن الكل يخشاه مثل النار الحارقة فقد أُشيع مؤخراً أنه يعتزم الاستقالة من منصب " صاحب المدينة " (٩) تفادياً للصدام المستمر مع سادة المحكمة الإقليمية .

- ليعش لنا سادة المحكمة الإقليمية ومن هم على شاكلتهم من رجال القضاء آلاف السنين - قال المتجه إلى إشبيلية - فهم ملاذ البؤساء أمثالنا ، ومستودع آمال المنكوبين . كم من التعساء قد دفن تحت الثرى بسبب قاض متسلط أو مأمور قضائي حانق يصدق كل ما يصل إليه من بلاغات كاذبة ! لا شك أن العيون الكثيرة تتمتع برؤية أفضل مما تراه عينان اثنتان ؛ فسمُ العدالة الناقع لا يسرى في القلوب المتعددة مثل سريانه الفوري في القلب الواحد (١٠) .

- أرى أنك تحولت إلى واعظ - قال القادم من إشبيلية - وبما أنك حادي القطيع هنا ، ولن تنتهي سريعاً وليس بوسعي الانتظار أكثر من ذلك ، أُسرُ في أذنك قبيل رحيلي بما يلي : إنك لن تنام هذه الليلة في مكان مشابه لأماكن نومك السابقة ، بل في " خان الإشبيلي " الذي تعمل فيه أجمل خادمة على وجه البسيطة ، " مارينيا " خادمة نزل " تيخادا " (١١) هي والقبح سواء إذا ما قورنت بها ؛ يكفي أن أخبرك بأن ابن المأمور القضائي

(٩) يقول المؤرخون إن كونت " بونيوسترو " Punonostro هذا كان يتولى - في عصر المؤلف - منصب " صاحب المدينة " بإشبيلية ، وإسبانيا أخذت هذا المنصب من النظام الإداري والقضائي الأندلسي ، وكان صاحبه يتولى الإشراف على إدارة المدينة وقيادة الشرطة المدنية بها . وطبقاً لما رواه المؤرخون فقد كان هذا الكونت أفضل من ولى خطة " صاحب المدينة " في إشبيلية ؛ لأنه كان في غاية اليقظة والحزم ولا يقبل الرشوة أو الوساطة ، وقد استطاع تطهير المدينة ونواحيها من الشباب المتنطع الفاسد (مثل "لوايسا" في قصة "غيورراستريمادورا") ومن اللصوص والمجرمين (ومن عتاتهم "ألونسوخينيس" و "ريبيرا" المذكورين آنفاً) . (المترجم)

(١٠) لا يخفى ما بهذه الفقرة من تعريض بسلوكيات رجال القضاء وبآثار الرشوة والمحسوبية على أحكامهم، وتعاطف الخارجين على القانون معهم - كما توحى العبارة - خير شاهد على فسادهم . (المترجم)

(١١) نزل يقع بالقرب من "المدر" بمحافظة "ثيوداد ريال" (أو المدينة الملكية) . (المترجم)

لطليظة مهووس بها . ولست أذيع سرّاً إن قلت لك إن واحداً من سادتي أقسم بأغلظ الأيمان على أنه سيمكث - فى طريق عودته للأندلس - شهرين كاملين فى ذلك الخان لكى يشبع لحد التخمة من النظر إليها . سأترك لك نفحة يسيرة من أوصافها لأمضى - فى المقابل - محملاً بصفحة هائلة . إنها صلبة كالرخام ، وحشية مثل فلاحات "ساياجو" ، وخشنة مثل نبات النار ، لكنها تنعم بوجه ملائكى صبور ، على إحدى صفحتيه تشرق الشمس ، وعلى الأخرى يسطع القمر ، لها خدّ مصنوع من الورد والآخر من القرنفل ، وفى كليهما يمرح الياسمين والسوسن . لن أخبرك بالمزيد حتى تراها ، وستدرك ساعتها مدى قصر باعى فى الإدلاء بأوصافها . لن أتردد لحظة - لو قبلونى زوجاً - فى تقديم بغلتى الشهبازين مهراً لها ، لكننى أعرف مسبقاً أنهم سيضنون على بهذه الجوهرة النفيسة التى لا تليق إلا بتاج كونت أو رئيس للكهنة . ستراها هنالك ، ومع السلامة لأنى راحل .

افترق البغالان ، لكن وقّع حوارهما السابق كان كافياً لإخراص الصديقين المرهفين للسمع ، لاسيما "أبيندانيو" الذى أيقظ فيه وصف البغال لجمال الخادمة رغبة عارمة لرؤيتها . تولدت الرغبة أيضاً فى نفس "كارياثو" ، لكنها لم تصل إلى الحد الذى يحول بينه وبين مواصلة رحلته إلى المضارب ، إذ لا يستحق هذا - فى نظره - سوى أهرامات مصر أو عجيبة أخرى من عجائب الدنيا السبع أو كليهما معاً .

تسلياً فى الطريق إلى طليظة بإعادة حديث البغالين وتقليد إيماءاتهما ، ولما وصلا إلى المدينة لعب "كارياثو" دور المرشد - لزيارته السابقة لها - واقتاد صديقه إلى شارع "سانجرى دى كريستو" الذى عثرا فى نهايته على "خان الإشبيلي" (١٢) ؛ لكنهما لم يجرؤا على طلب المبيت فيه لأن الملابس التى يرتديانها لا تؤهلها لذلك . كان الليل قد أرخى سدوله ، وبالرغم من أن "كارياثو" حاول بشتى الطرق إقناع "أبيندانيو" بالذهاب إلى مكان آخر للبحث عن نزل يقضيان فيه الليلة إلا أنه لم

(١٢) أشار "رفائيل راميريث دى أريانو" عام ١٩١٩ إلى أن "خان الإشبيلي" يقع فى نهاية الجانب الأيسر لشارع "سانجرى دى كريستو" وأنه يفصله عن دير "دل كارمن" منحدر يؤدي إلى شارع متسع يحمل اسم الدير، وإلى بوابة "القطرة" . وقد أتى حريق هائل على هذا الخان عام ١٩٣٦ . (المترجم)

يستطع زحزحته من أمام "خان الإشبيلي" . ولما أطبق الظلام ولم تظهر الخادمة انتاب "كارياثو" اليأس ، لكن صديقه ظل رابضاً - دون حراك - فى موضعه . ولكى يحقق "أبيندانيو" الهدف الذى جاء من أجله اجتاز بوابة الخان ووصل إلى فنائه بدعوى السؤال عن بضعة رجال من "برغش" فى طريقهم إلى إشبيلية ، لم يكد يدخل حتى شاهد فى أحد أبهاء الفناء فتاة فى الخامسة عشرة من العمر تقريباً ترتدى ثوباً ريفياً ويدها شمعدان عليه شمعة مضاءة .

لم تدقق عينا "أبيندانيو" فى ثوب الفتاة بل اتجهتا إلى وجهها الذى بدا له مثل إحدى الأيقونات التى اعتاد الفنانون رسمها للملائكة . أبهته جمالها وأخرس لسانه فلم يقو على النطق بكلمة ، ولما رآته الفتاة واجماً سألته :

- أتبحث عن شيء يا أخى ؟ هل أنت خادم لأحد نزلاء الخان ؟

- لست خادماً لأحد سواكم - أجاب بصوت مشوب بالتوتر والانفعال .

نادت على سيدها حينئذ وقالت له :

- هلا تكرمتم بالنظر فيما يريده هذا الفتى !

خرج صاحب الخان وسأله عن حاجته . أجابه أبيندانيو قائلاً : إنه يبحث عن بضعة رجال من "برغش" متجهين إلى إشبيلية ، ومن بينهم سيده الذى كلفه بالسفر قبلهم إلى "قلعة هنارس" لقضاء شأن من شئونه وانتظاره بعد الفراغ من المهمة فى "خان الإشبيلي" الذى سيصلون إليه الليلة أو غداً على أكثر تقدير . أجاد "أبيندانيو" سبك الحكاية المختلقة لأن صاحب الخان صدّقها وعرض عليه الآتى :

- يمكنك الإقامة فى الخان لحين وصول سيدك .

- شكراً جزيلاً ، وليتكرم صاحب الخان بإعطاء أوامره بحجز غرفة مزدوجة لأن لى زميلاً ينتظر بالخارج وسنسد له أجرتها مثل الآخرين وزيادة .
- مرحباً بكما .

ثم التفت صاحب الخان إلى الفتاة وقال لها :

- "كوستانثا" ، اطلبي من "أرجويو" اصطحاب هذين الوسمين إلى الغرفة المتطرفة وفرش ملاءات جديدة لهما .

أدت الفتاة التحية لصاحب الخان ، ولما انصرفت من أمامهما خُيل لأبيندانيو أن الظلمة المدلّهمة قد أطبقت على المكان بعد انسحاب الشمس الساطعة منه . خرج بعد ذلك ليخبر "كارياثو" بما رأى وليطلعه على نتيجة مداولاته مع صاحب الخان . أحس صديقه - من آلاف الأمارات البادية عليه- أن سهم الحب المميت قد أصابه في مقتل ، لكنه أثر السكوت لحين رؤية الفتاة والنظر فيما إذا كان جمالها يستحق كل هذه الضجة .

اقتادتهما "لأرجويو" (المشرفة على ترتيب الحجرات والأسرة ، وهي امرأة في منتصف العقد الخامس من عمرها) إلى غرفة متوسطة المستوى : لا هي من المخصصات للسادة ولا من المفروضات على الخدم ، ولما طلبا منها العشاء قالت لهما إن الخان لا يقدم الوجبات وإنما يقتصر دوره على طهي وإعداد ما يحضره النزلاء معهم ، ومن ثمّ يمكنهما - دون أدنى تأنيب للضمير - الذهاب إلى أى مطعم شعبي من المطاعم المنتشرة بالمنطقة وسيجدان فيه ما يشتهيان ، عملاً بنصيحتها ، وفي المطعم ازدرد كارياتو ما قدموه له بينما اكتفى أبيندانيو باجتراح ما يحمله من هموم وأفكار .

احترار "كارياتو" في تفسير عزوف صديقه عن الطعام ، ولكي يقف على حقيقة ما يدور بدخيلته قال له في طريق العودة إلى الخان :

- يناسبنا الاستيقاظ المبكر لكي نصل إلى Orgaz قبل ارتفاع درجة الحرارة .

- لا تعتمد علىّ في هذا لأنى لا أفكر في الرحيل من المدينة قبل رؤية معالمها الشهيرة مثل : "بيت القربان المقدس" ، ورافعات الماء التي اخترعها "خوانيلو" (١٣) ومناظر "سان أجوستين" الطبيعية (١٤) ، وبساتين الملك (١٥) والغوطة الطليطيلية .

(١٣) استطاع أحد المهندسين ويدعى "خوانيلو" اختراع مجموعة من الآلات لرفع مياه نهر "الناجه" إلى مدينة طليطلة الشاهقة الارتفاع ، وفي حملها في قنوات ومواسير إلى دير "دل كارمن" وإلى منطقة "القصر" Alcázar . (المترجم)

(١٤) تشرف منطقة دير "سان أجوستين" على مناظر طبيعية خلابة تشمل الدهر والغوطة والبساتين الممتدة ، وقد اعتاد الناس زيارة هذه المنطقة للاستمتاع بمناظرها ولاستنشاق هوائها الرطب - صيفاً - أو التمتع بأشعة شمسها شتاءً . (المترجم)

(١٥) شهرة هذه البساتين لا تكمن فقط في امتدادها العريض وخضرتها اليانعة بل في قنوات الري العجيبة التي تخرق أجزاءها المختلفة . (المترجم)

- حسناً ، رؤية هذا لاتحتاج لأكثر من يومين .
- فيم العجلة ؟ أتحسبنا ذاهبين إلى روما لشغل وظيفة شاغرة بها!
- (تا ، تا) ^(١٦) ، أدعو على نفسى بالويل والثبور إن لم تكن رغبتك فى البقاء بطليطلة قد طغت ، يا صديقى ، على الرغبة فى مواصلة الرحلة التى بدأناها سوياً .
- للأسف ، هذه هى الحقيقة ، أتدرى لماذا ؟ لأن الحرمان من مشاهدة وجه تلك الفتاة يشبه صعود الروح إلى بارئها وهى خاوية الوفاض من صالح الأعمال ، وكلا الأمرين لا يحتمل .
- يا للهول ! لا أكاد أصدق . "دون توماس دى أبيندانيو" ، ابن "دون خوان دى أبيندانيو" ، كريم الأصل والنسب ، الشاب الثرى جميل الطلعة ، الطموح الحصيف ، يقع فى غرام خادمة خان الإشبيلي ! !
- الشيء نفسه أقوله لك : "دون ديجو دى كارياثو" ، ابن "دون ديجو دى كارياثو" فارس رهبانية "القنطرة" المغوار ، سليل المجد والشرف ، والمؤهل جسداً وروحاً لاحتلال مكانة والده العظيمة يسقط مثخناً بجراح الهوى ، لكن ، أتدرون بمن ؟ إنها ليست ملكة جنيف كما تظنون ، بل "مضارب الزهرة" التى يفوق قبورها - على ما أعتقد - رصيد الخوف من القديس أنطونيوس .
- نحن متعادلان ، إذن - قال "كارياثو" - ، لقد قتلتنى بحد اللسان الذى جرحتك به ، ومن ثم فلندع التلاوم جانباً وهيا بنا إلى النوم فمن يدرى ! ربما تتحسن الأمور غداً .
- اسمع يا "كارياثو" ، إنك لم تشاهد "كوستانثا" إلى الآن ، ولذا سأصرح لك بعد رؤيتها بكل ما يرد على لسانك من لوم وتوبيخ .

(١٦) "تا، تا" Ta, ta محاكاة للصوت الذى يحدثه الباب عند الفتح أو الغلق ، كما تعلى أيضاً : حذار أويك . (المترجم)

- كَأْنِي أَنْظِر ، يَا صَدِيقِي ، إِلَى خَاتَمَةِ هَذَا الْأَمْرِ .
- وَمَا هِيَ ؟ - سَأَلَ "أَبِينْدَانِيُو" .
- سَأَذْهَبُ وَحْدِي إِلَى الْمَضَارِبِ ، وَسَتَبْقَى أَنْتَ هُنَا ، إِلَى جَوَارِ خَادِمَتِكَ .
- لَنْ يَتِمْلِكَنِي الشُّطْطُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ .
- وَلَنْ يَتِمْلِكَنِي الْحِمَاقَةُ لِأَتَرَكَ مَتَعْنَى الْأَثِيرَةِ مِنْ أَجْلِ اتِّبَاعِ ذَوْقِكَ الرَّدِيِّ .
- كَانَا قَدْ وَصَلَا إِلَى الْخَانِ مَعَ نِهَآةِ حَوَارِهِمَا السَّابِقِ الَّذِي امْتَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ - دَاخِلَ غُرْفَتِهِمَا - حَتَّى مَنْتَصَفِ اللَّيْلِ . لَمْ يَكَادَا يَنْعَمَانِ بِالنَّوْمِ لِأَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ حَتَّى اسْتَيْقَظَا عَلَى صَوْتِ مُوسِيقَى تَصَدَّحَ فِي الشَّارِعِ . جَلَسَا عَلَى سُرِيرِهِمَا وَأَرْهَفَا السَّمْعَ ، قَالَ "كَارِيَاثُو" بَعْدَ هَنِيْهَةٍ :
- أَرَاهِنِ عَلَى أَنَّ النَّهَارَ قَدْ طَلَعَ وَأَنَّ ثَمَّةَ احْتِفَالٍ بِدِيرِ "نُيْسْتِرَا سَنِيُورَا دِلْ كَارْمِنْ" الْقَرِيبِ مِنْ هُنَا .
- لَا أَعْتَقِدُ هَذَا لِأَنَّهَا لَمْ نَنْمِ سِوَى قَدَرِ ضَنْبِلٍ لَا يَكْفِي لِإِدْخَالِنَا فِي ضَوْءِ النَّهَارِ .
- لَمْ يَكْدِ يَتِمَّ "أَبِينْدَانِيُو" عِبَارَتَهُ السَّابِقَةَ حَتَّى سَمِعَا طَرَقَاتٍ خَفِيفَةً عَلَى بَابِ الْحِجْرَةِ ، وَلَمَّا سَأَلَ مِنَ الطَّارِقِ أَجَابَهُ الصَّوْتُ الْقَادِمُ مِنَ الْخَارِجِ :
- إِذَا كُنْتُمَا تَرِيدَانِ سَمَاعَ الْمَوْسِيقَى بِوَضُوحٍ فَعَلَيْكُمَا بِالنَّهْوِضِ وَالنَّظَرِ مِنَ النَّافِذَةِ الْمَسِيجَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الصَّالَةِ الْمَجَاوِرَةِ .
- نَهَضَا مِنْ فَرَاشِيهِمَا ، وَلَمَّا فَتَحَا الْبَابَ لَمْ يَشَاهِدَا أَحَدًا أَمَامَهُ وَلَمْ يَتَعَرَفَا - بِالتَّالِيِ - عَلَى صَاحِبِ الْبَلَاغِ ، لَكِنْهُمَا سَمِعَا صَوْتَ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ وَتَحَقَّقَا مِنْ صَدَقِ الْخَبَرِ ، اتَّجَهَا مِنْ فُورِهِمَا - دُونَ اسْتِكْمَالِ مَلَابِسِهِمَا - إِلَى الصَّالَةِ فَوَجَدَا فِيهَا ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنَ النَّزْلَاءِ يَتَفَرِّجُونَ مِنْ بَيْنِ قَضْبَانِ النَّافِذَةِ ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ انْضِمَامِهِمَا إِلَى جَوْفَةِ الْمُتَفَرِّجِينَ تَنَاهَيْ إِلَى آذَانِهِمْ صَوْتُ عَذْبٍ رَقِيقٍ يَشْدُو - عَلَى أَنْغَامِ قِيَاثَةِ وَجْنِكْ - بِـ "سُونِيْت" وَعَتَهُ ذَاكِرَةُ "أَبِينْدَانِيُو" جَيِّدًا وَكَأَنَّهُ حَفَرَ فِيهَا بِمَسْمَارٍ . نَقُولُ كَلِمَاتِ "السُّونِيْت" :

أَيُّهَا الْكَائِنُ الْغَرِيبُ الْمُتَوَاضِعُ
الْمُتَرَبِّعُ فَوْقَ قِمَّةِ الْجَمَالِ السَّامِقَةِ

التي تجاوزت فيها الطبيعة حدودها
ورفعتك إلى مصاف الملائكة

إذا تحدثت أو ضحكت أو غنيت ،
إذا أبديت الرقة الأصيلة أو اصطنعت الخشونة
(النابعة من موروث أدبك الجم) ،
تفتن منا الألباب وتخطفها .

لكي يصبح أشد تقديراً وصَوْناً
ما تحويه من حسن فريد
ومن عفة تعزب بها وتفخر ،

دع الخدمة لغيرك لأن خدمتك واجبة
على الذين يرون تألق يديك وخديك
فوق صولجانات وتيجان العالم أجمع .

لم يكونا بحاجة إلى من يخبرهما بأن الموسيقى موجهة إلى "كوستانزا" لأن كلمات
"السونيت" واضحة تمام الوضوح ، تلك الكلمات التي تمنى "أبيندانيو" إصابته
بالصمم حتى لا تسمعها أذناه ، ذلك لأن رمح الغيرة الصلب شرع بعدها في افتراس
حشاشة قلبه . وما زاد الطين بلة أنه لم يكن يدرى ممن يغار أو على من . أفاق من
هذه الهواجس الكلبية على صوت واحد من المتشبهين بقضبان النافذة :

- غريب على فتى مثل ابن المأمور القضائي ملاحقة خادمة بموسيقاه .. !
صحيح أنها أجمل ما رأت عيني من فتيات - وقد شاهدت منهن الكثيرات-
ورغم هذا ما كان ينبغي طلب ودّها بهذه الطريقة وعلى رؤوس الأشهاد .

أضاف شخص آخر من المسكين بقضبان النافذة :

- انطلاقاً مما سمعته - ولا أشك في صدقه - عن عدم اكتراثها بهذا الشاب
ويما يبديه نحوها من مشاعر ، أراهن على أنها الآن نائمة ملء جفניה في
المكان المخصص لها خلف سرير سيدتها - حسبما يدّعون - ولا تدرى
شيئاً عن الموسيقى الصاخبة أو الأغاني التي تتردد بين جنبات الشارع .

- ما تقوله حق لا مرأ فيه - أضاف رجل ثالث - لأن عفة الفتاة واستقامتها منزهتان عن الشبهات. ومن المدهش والعجيب - فى آن واحد - أنها تعيش فى خان يموج بالحركة وتؤمه كل يوم أصناف متعددة من البشر، ورغم هذا لا يجرو فرد واحد على أن يرميها بنقيصة أو ينسب إليها هفوة ولو يسيرة .

أجرى الكلام السابق الدم فى عروق "أبيندانيو" وجعله يسترد أنفاسه لمواصلة استماع الأغاني العديدة التى يشدو بها الموسيقيون وكلها موجهة إلى "كوستانثا" التى تنام - طبقاً لقول أحد النزلاء - ملء جفنيها ، غافلة عما يجرى فى الشارع .

وقبيل الفجر ودّع العازفون المكان بإسكاتهم الآلات الموسيقية ، دخل عندئذ "كارياثو" و "أبيندانيو" ليستريحا حتى انبلاج الصباح ، وفور إشراقه نهض الاثنان تحذوهما الرغبة فى رؤية "كوستانثا" : كانت رغبة الأول نابعة من حب الاستطلاع ، أما رغبة الثانى فكانت وليدة العشق والهيام . أشبعت "كوستانثا" كلتا الرغبتين حين طلعت عليهما بجمالهما الأخاذ من صالة سيدها ، وعندئذ بدت لهما مدائح البغال وكأنها قطرة ضئيلة لا تشى بما وراءها من بحر زاخر .

كانت ترتدى تنورة خضراء من الكتان وصديرياً مزركش الحواشى ، وفوق الصديري قميص طويل الرقبة تحوط أعلاه لفافة من الحرير الأسود مثبتة بدبوس على شكل نجمة تعلو عموداً من الرخام الأبيض ، وحول وسطها يلتف حبل غليظ تتدلى من جانبه الأيمن سلسلة بها مجموعة من المفاتيح ، وفى قدميها تلبس حذاء ملوناً بنعل مكوّن من طبقتين . كان شعرها الكستنائى الضارب إلى الشقفة مضفراً بشرائط بيضاء وينساب خلف ظهرها فى جدائل طويلة تغطى الحزام . كان شعرها - الذى يفوق خيوط الذهب جمالاً - جيد التسوية والتمشيط ونظيفاً للغاية ، ومن يشاهده من بعيد يحسب أن صاحبته ترتدى خماراً وغطاء شبكياً للرأس . كما كان يتدلى من أذنيها قرط من الزجاج - على شكل ثمرة القرع - لكنه يلمع مثل اللؤلؤ .

اتجهت فور خروجها من الصالة إلى صورة للعدراء معلقة على جدار بالفناء ، وقفت أمامها وأشارت على نفسها بعلامة الصليب ثم صلت فى خشوع ، ولما رفعت رأسها وشاهدت الاثنين ينظران إليها انسحبت وعادت مسرعة إلى الصالة لتوقظ "أرجويو" .

ما زالت تنقصنا الإشارة إلى وقَع جمال "كوستانثا" على "كارياثو" لأننا تحدثنا من قبل عن تأثيره على "أبيندانيو" حين رآها أول مرة . وفى هذا المقام لن نصرح بأكثر من أن جمالها بدا له رائعاً ؛ لكن تأثيره عليه كان أقل بكثير من تأثيره على صاحبه ، ذلك لأنه قرر مواصلة الرحلة إلى المضارب ونبذ فكرة المبيت ليلة ثانية فى الخان .

نعود مرة أخرى إلى "كوستانثا" لنقول إن "لأرجويو" استيقظت على نداءاتها وخرجت إلى الدهليز بصحبة فتاتين أخريين من "جليقية" تعملان أيضاً بالخدمة ، ووجود مثل هذا العدد الكبير - نسبياً - من الخاديات أمر لا غنى عنه فى خان مثل "خان الإشبيلي" الذى يؤمه الكثير من النزلاء لشهرته، ولكونه واحداً من أفضل الخانات بطليطة . فى تلك الأثناء توافد غلمان النزلاء (الكلافون) لطلب الشعير لدوابهم ، ولما اكتمل عددهم خرج عليهم صاحب الخان وهو يلعن الخاديات اللاتي تسببن فى (تطفيش) عامله على تلك الوظيفة التي كان يؤديها بكفاءة واقتدار ولا يفرط فى حبة شعير واحدة . عرض عليه "أبيندانيو" ما يلى بعد سماعه لشكواه :

- لا تتعب نفسك يا سيدى ، سلمنى دفتر الحسابات وسأولى هذه المهمة طيلة أيام انتظارى ، ولن تندم على هذا وسترى كيف أنسبك الغلام الذى هجر العمل .

- أشكرك على هذه المبادرة يا فتى لأن أشغالى الكثيرة خارج الدار وداخلها لا تترك لى وقتاً للقيام بهذا العمل . انزل لتسلم دفتر الحسابات، وخذ حذرك من هؤلاء البغالين لأنهم والشيطان سواء : فهم قادرون على خداع الغير - وجهاً لوجه - وسرقة مكيال من الشعير ^(١٧) دون أدنى تأنيب للضمير وكأنه حفنة تبين .

نزل "أبيندانيو" إلى الفناء وتسلم الدفتر ثم أجلس البغالين بالترتيب وشرع فى توزيع العلف عليهم بحنكة وبراعة أثارتا البهجة فى نفس صاحب الخان الذى كان يراقبه . كانت فرحة الأخير عظيمة لدرجة أنه قال له بعد فراغه من العمل :

- أتضرع إلى الله ألا يأتى سيدك وأن تدألك رغبة البقاء فى الخان وألا تستجيب إلى أى نداء من خارجه مهما كان مصدره ، هذا لأن الفتى الذى

(١٧) المكيال المشار إليه يسمى Celemin ، وهو يعادل فى السعة ٤,٦٢ لتر . (المترجم)

تركنى جاء منذ ثمانية أشهر نحيفاً ممزق الثياب ، لكنه غادر الخان سميناً
مثل جذع شجرة جميل وبيده طاقمان من الملابس الجديدة .أتعرف يا بنى
أن فى هذه الدار فوائد كثيرة بالإضافة إلى الراتب ؟

- لو قُدر لى البقاء فى الخان فلن يكون من أجل ما يدره من عائد ، فأنا لست
طماعاً والقليل يرضينى ما دمت سأظل فى طليطلة التى يعتبرها الناس
أفضل مدينة فى إسبانيا .

- إنها - على الأقل - واحدة من أفضل المدن بها وأعمارها بالخيرات ، لكن ما
زال ينقصنا فتى آخر لجلب الماء من النهر لأن الذى كان عندى تركنى
أيضاً ، وأشهد أنه كان - بحمارى الشهير - يملأ الأحواض عن آخرها
ويحوّل الدار إلى ما يشبه حمام السباحة . إن أحد الأسباب الرئيسية لتفضيل
البغالين لدارى وإحضارهم مستأجرى بغالهم إليها يكمن فى وفرة الماء بها
على مدار الساعة ، ومن ثمّ فهم يوفرون على أنفسهم عناء الذهاب إلى
النهر لسقى دوابهم .

كان "كارياثو" يستمع للحوار السابق ، ولما رأى أن "أبيندانيو" قد استقر فى عمل
يشغله وأن الفرصة سانحة لإدخال السرور على صديقه بمشاركته المزحة لم يتردد فى
عرض الآتى على صاحب الخان :

- هات الحمار ، فأنا أستطيع أيضاً إسراجه وتحميله بمهارة لا تقل عن حسن
تصرف زميلى مع دفتر البضائع .

- نعم - تدخّل أبيندانيو قائلاً - زميلى "لوى أستوريانو" قادر على أداء هذا
العمل بإتقان وأنا أضمنه فى ذلك .

كانت "أرجويو" على مقربة ، ولما سمعت "أبيندانيو" يتعهد بضمان صديقه
تدخلت قائلة :

- أخبرنى أيها الشاب الأنيق ، من يضمن من ؟ لا ريب أنك فى أشد الحاجة
لأن تكون مضموناً لا ضامناً .

- اصمتى ، يا "أرجويو" - قال لها صاحب الخان - ولا تتدخلى فيما لا يعينك ، أنا أضمن الاثنين ، ومن الآن فصاعداً أحذركن من التحرش بالفتيان العاملين فى الخان لأنهم يتركونه بسببكن .

- هل يعنى ما تقدم - قالت خادمة أخرى - بقاء هذين الفتيتين بالدار ؟ وحق الصليب لو حدث وجمعتى بهما طريق ما آمنتهم على فردة حذاء .

- كفى عن ترديد البذاءات أيتها الجليقية - ردّ عليها صاحب الخان - اقتصرى على ما يخصك من عمل ولا تتعرضى لهما لأنك لو خالفت أمرى سأطحن عظامك بالهراوة .

- ولم لا ! - ردت الجليقية - ربما نكون طامعات فى الجواهر التى تفتنيها ! أنا لا شأن لى بفتيان الدار ولا بغيرهم ، ورغم هذا يضعنى سيدى فى بؤرة ظله السيئ ، كان الأولى صبّ جام غضبك عليهم لا علينا لأنهم أوغاد ويتركون الدار دون ذنب منّا أو جريرة . جميل أمر هؤلاء الناس الذين يستجيبون لشطحات أمزجتهم فيتسللون مبكراً تاركين مخدوميهم فى حيص بيص وفى وقت لا يخطر لهم على بال !

- تتكلمين كثيراً ، يا أختاه - قال صاحب الخان - اغلقى فمك وانظرى فقط فيما يتطلبه عمالك .

فى تلك الأثناء كان "كارياثو" قد أسرج الحمار ووثب على ظهره بقفزة واحدة وشق طريقه إلى النهر تاركاً "أبيندانيو" سعيداً بالقرار الودود المتآلف الذى اتخذه الصديق من أجله .

والآن - وبعد أن وصلنا إلى هذا الجزء من القصة والذى تحوّل فيه "أبيندانيو" إلى عامل بالخان تحت الاسم المستعار : "توماس بدرو" ، و"كارياثو" إلى سقاء يدعى "لوى أستوريانو" - نقول إن "لا أرجويو" اعتبرت ، منذ اللحظة التى تأكّدت فيها من بقاء الاثنين بالدار ، أن "الأستوريانو" يخصها وحدها ، وأنها عازمت على اصطياده وإيقاعه فى حبائلها حتى ولو كان ذا طبيعة انطوائية نافرة .

لم تكن الجليقية المتصنعة أقلّ منها باعاً لأنها فكرت فى الشيء نفسه بالنسبة لتوماس ، ولما كانت الاثنتان صديقتين حميمتين - بحكم تعاملهما معاً ونومهما سوياً -

فقد أفضت كل منهما للأخرى بمكنون صدرها وعقدت العزم على أخذ زمام المبادرة لإثارة حماس الحبيين الغافلين المتقاعسين .اتفقتا أيضاً على ضرورة التنبيه عليهما من البداية بنذ الغيرة لأن الخادمت لا يستطعن تقديم شيء ذي قيمة لمن هم بداخل الدار ما لم تكن ملتزمات بدفع الجزية لمن هم بخارجها . "لا تخوضان فيما لا تعرفانه - كانتا تقولان وكان الفتیین أمامهما وقد أصبحا بالفعل معشوقيهما - اصمتا واغمضا عيونكما ، اتركا الدف لمن يحسن قرعه وقيادة الرقصة لمن يجيدها ، سيكون حظكما من الصمت أوفر من معاش زوج من الكهنة القانونيين العاملين بهذه المدينة" .

بينما كانت "لا أرجويو" والجليقية منمكتين في هذه التعليقات وما شابهها كان صاحبنا "لو پی أستوريانو" يشق طريقه إلى النهر من فوق منحدر "دل كارمن" وهو مشغول البال بمضاريه وبما اعترى رحلته إليها من تغيير مفاجئ . ولهذا السبب - وربما استجابة لما خطه القدر - تقابل لدى هبوطه المنحدر من صراط ضيق مع حمار سقاء آخر محملاً بالدنان المترعة بالماء ، وبما أن حمارة القوى والخفيف كان يهبط مسرعاً (لكونه في بداية العمل) فقد اصطدم بالحيف الكل المثقل صدمة قوية هوت به إلى الأرض وهشمت ما على ظهره من دنان ، ومن سوء الطالع أن السقاء القديم بادر - مغتاضاً حانقاً - بالهجوم على المستجد (الذي لم يكن قد نسي بعد صفته النبيلة) وسدد إليه بالعصا - قبل أن يفیق من الصدمة ويللم شعته - اثنتي عشرة ضربة أخرته لبعض الوقت عن النزول من على ظهر حماره .

المهم أنه تمكن أخيراً من الترجل والدماء تغلى في عروقه ، هجم على غريمه وأطبق بكنا يديه على رقبتة ثم دفعه على الأرض فاصطدمت رأسه بحجر شجها نصفين ، ولما رأى الدماء تتدفق بغزارة من رأس عدوه ظنه فارق الحياة .

كان هنالك سقاءون آخرون قادمون ، وحين وجدوا زميلهم في تلك الحالة السيئة قبضوا على "لو پی" وصاحوا مستغيثين :

- العدالة ! العدالة ! لقد قتل هذا السقاء رجلاً .

لم يمنعم طلب النجدة من طحن عظامه بالكلمات وضربات العصي . خف فريق منهم لإسعاف المصاب فوجدوه على شفا الموت .انتقلت الاستغاثات من فم إلى فم

وصعدت المنحدر حتى وصلت إلى أسماع شرطى بميدان "دل كارمن" فهرول مسرعاً - وكأنه يطير بجناحين - بصحبة خفيرين إلى مكان الحادث ، وفيه شاهدوا المصاب مستلقياً بالعرض على ظهر حماره ، وحمار "لو پى" معتقلاً ، وأكثر من عشرين سقاءً يحيطون بصاحبه الذى تنبئ حالته - نتيجة لما تلقاه من عصى ولكمات هؤلاء الموترين المنتقمين لضرر الغير - بأنه أقرب إلى الهلاك من مشجوج الرأس .

قام الشرطى بتفريق المتجمهرين ثم سلم "الاستوريانو" لخفير وكلف الثانى باقتياد الحمارين (وعلى ظهر أحدهما يرقد الجريح) .شقوا طريقهم بصعوبة بالغة إلى السجن وسط الجموع الغفيرة المتبوعة بحشد من الصبية .

وعلى الصباح والحفيف المنبعثين من الجموع السائرة خرج "توماس بدرو" وصاحب الخان ليستطلع الأمر، شاهداً "لو پى" بين خفيرين ووجهه وفمه ملطخان بالدم ، نظر صاحب الخان إلى حماره الذى يمسك بمقوده خفير ثالث ، ولما سأل عن سبب الاعتقال وأخبروه بتفاصيل الحادث ركبه الهمُّ للمصير الذى ينتظر حماره ، ولن يخرج بحال عن أحد أمرين (وكلاهما مر) : إما المصادرة - وبالتالي الضياع - أو إمكانية الاسترداد لكن بتكلفة تفوق ثمنه الحقيقى .

تبع "توماس بدرو" زميله ، لكنه لم يستطع - لشدة الزحام ويقظة الشرطى والخبراء - تبادل كلمة واحدة معه . ظل فى إثره حتى شاهده يدخل السجن وينزوى داخل زنزانة مطبقة ، اتجه بعد ذلك إلى المستوصف الطبى الملحق بالسجن ليتعرف على حالة الجريح فوجدها غاية فى الخطورة ، ولم يكن هذا رأيه وحده بل رأى الجراح أيضاً .

اقتاد الشرطى الحمارين إلى داره ، كما احتفظ لنفسه بالخمسة ريالات التى استولى عليها الخبراء من "لو پى" .

رجع "توماس بدرو" كاسف البال ومشوشاً إلى الخان حيث أنفى صاحبه لا يقل عنه حزناً ، أخبره بسوء حالة المصاب وبحبس زميله وبمصير الحمار . قال له أيضاً : إن مصيبتك قد تفاقمت بأخرى لم تكن فى الحسبان ، ذلك لأنه تقابل - مصادفة - فى طريق عودته مع صديق حميم لمخدومه يحمل منه رسالة شفوية مفادها : تعديل

سيده لخط سيره إلى إشبيلية لأنه في عَجَلَة من أمره ويريد اختصار المسافة ، ومن ثم فإنه لن يمرَّ على طليطلة - حسب الاتفاق السابق - وسيأخذ الطريق من مدريد إلى "باركا دي أتيكا" لكي يبيت الليلة في Orgaz ، وإزاء هذا التعديل فعلى "توماس" اللحاق به في إشبيلية والاستعانة على الرحلة بالاثني عشر إسكودو المرسلة إليه مع حامل الرسالة .

- لكننى لا أستطيع الآن تلبية هذا الطلب - أضاف توماس - لأنه من غير المعقول ترك صديقى وزميلي وحيداً في هذا المأزق الخطير . سينفهم سيدى الوضع ويغفر لى تأخرى لأنه رجل طيب وشريف ، ولأن عذرى يستند إلى مبرر قوى .. مد يدك وخذ الاثنى عشر إسكودو لتساعدنى فى تجاوز تلك المحنة ، وفى خلال الوقت الذى يستغرقه صرف هذا المبلغ أكون قد كتبت لسيدى أخبره بما حدث ، وأنا واثق من أنه سيسارع بإرسال المال الكافى للخروج من أعنى الأزمات .

اتسعت حدقتنا صاحب الخان ابتهاجاً بتعويض القسط الأعظم من خسائره والمتمثل فى فقدان الحمار . أخذ النقود وانبرى فى مواساة "توماس" بقوله : إنه على صلة بأشخاص مهمين فى طليطلة وكلمتهم مسموعة فى أوساط العدالة ، وإنه يخص بالذكر راهبة قريبة للمأمور القضائى وتحركه بالإصبع الصغير من قدمها : فهو يعرف غسالة تعمل فى دير تلك الراهبة ولها ابنة تتردد - لغسيل الملابس والأواني أيضاً - على بيت أخت راهب مشهور تصل أصداء شهرته إلى متلقى اعترافات الراهبة المذكورة .

- ومن السهولة بمكان - أضاف صاحب الخان - جعل الغسالة (الأم) تكلم ابنتها فى الموضوع وتطلب منها نقله إلى أخت الراهب لكي تتحدث فيه مع أخيها وتطلب منه رفعه إلى متلقى الاعترافات بكنيسة الدير والذى سينقله - بدوره - إلى الراهبة التى لن تستنكف عن توصية قريبها المأمور القضائى بالنظر بعين العطف فى التماس "توماس" ، وأنا على يقين من إتيان الوصية لثمارها المرجوة . هذا بشرط ألا يموت السقاء وألا يعوزنا الشحم اللازم لدهن كافة وكلاء العدالة ونوابها ، لأنهم لو لم يكونوا مشحمين بالقدر

الكافي يدمدمون بشكل يفوق بكثير الثيران التي تجر عربة عتيقة ولم تمتد إلى أسطواناتها ومحاورها يد الزيأت (١٨).

أخذ "توماس" عرض صاحب الخان - الذي لا يعرف له رأساً من رجلين - على محمل الدعابة، وبالرغم من أنه فطن إلى أن السخريّة فيه تسبق سلامة النية إلا أنه شكره على تقديم العون ووعده بالمزيد من النقود لأنه - كما سبق وأخبره - يثق تمام الثقة في كرم مخدومه ونبله.

أما "لا أرجويو" فإنها لم تكذ تعرف ما جرى لحبيبها المنتظر حتى سارعت بالذهاب إلى السجن حاملة ألواناً شتى من الطعام، ورغم أنهم منعوها تلك المرة من زيارته ورجوعها كاسفة البال إلا أنها لم تستسلم وعادت الرحلة إلى السجن مرات ومرات.

ما يهمننا هو أن الجريح اجتاز مرحلة الخطر بعد خمسة عشر يوماً، وبعد العشرين منها أعلن الجراح تعافيه الكامل. تظاهر توماس خلال تلك الفترة بأن سيده (المزعوم) أرسل إليه من إشبيلية - بالإضافة إلى سند مالي وعدد من الخطابات - خمسين إسكودو ذهبية، وبما أن صاحب الخان لم يكن يعنيه في كثير صدق الرسائل من زيفها مادام بريق الذهب ساطعاً فإنه استلم - مفعماً بالسرور - الخمسين إسكودو صارياً صفحاً عن التدقيق في سلامة الخطابات.

احتاج المصاب لسنة دوكدوس لكي يتنازل عن الدعوى القضائية، وتطلب الإفراج عن "الأستوريانو" عشرة أخرى، فضلاً عن الحمار الذي صادره الشرطي لحسابه الخاص. خرج من السجن عازماً على عدم العودة إلى حيث يوجد صديقه لأن "أرجويو" - كما ساق في تبريره - كشفت له خلال زيارتها المتكررة عن افتتانها به وشدة تهالكها عليه، وهذا أمر لا قبل له به، لأن الموت أهون عليه من الرضوخ لرغبة أنثى مثلاً. ولهذا فقد عقد العزم - بعد كثير من التفكير - على شراء حمار

(١٨) المقصود من العبارة: ضرورة وجود المال الكافي لرشوة رجال العدالة عن بكرة أبيهم؛ وهناك مثل إسباني قديم يقول: "من يعنى بتشحيم عرينه خفف مهمة الجر على ثيرانه"، والمثل يضرب عادة على إنفاق المال من أجل تذليل العقبات وقضاء المصالح الشخصية حتى ولو كانت مخالفة للأعراف والقوانين. (المترجم)

والعمل سقاء طوال المدة التي سيقضيها في طليطلة ، لأنه - كما قال - سيتفادى تحت هذا الغطاء الاعتقال والسجن بتهمة التشرد ، ويستطيع - من جهة أخرى - التجول على هواه طيلة النهار في المدينة والفرجة على نساءها البلهاء.

- لو أنصفت لقلت الحسنات لا البلهاءات - رد توماس - فهذه المدينة تتيه على المدن الإسبانية الأخرى بجمال وعفة نساءها ، وها هي ذى "كوستانثا" خير شاهد لأن فائض جمالها يكفى لإضفاء الرونق والبهاء على نساء العالمين.

- لا تتماد ياسيد "توماس" في إطرائك لصاحبة السيادة: الخادمة ، حتى لا يتحول اتهامى لك بالجنون إلى رمى بالزندقة والإلحاد.

- أيطاوعك لسانك ، يا أخى "لوپى" ، على نعتها بالخادمة ؟ سامحك الله وأعادك إلى جادة الحق والصواب.

- أليست خادمة حقاً ؟

- لم أرها حتى الآن تغسل الطبق الأول.

- وما الفارق إذا كنت لم ترها تغسل الطبق الأول وبين رؤيتك لها وهي تغسل الثانى أو العاشر ؟

- ما قصدت بقولى سوى أنها لا تغسل ولا تفهم شيئاً زيادة عن عملها الذى يقتصر على صيانة وحفظ الأوانى والأدوات الفضية التى تغص بها الدار .

- كيف يعرفونها فى جميع أنحاء المدينة بصاحبة السيادة غسالة الأطباق إن لم تكن تؤدي هذا العمل ؟ لا شك أنها متخصصة فى غسيل الأوانى الفضية لا الخزفية ، ولذا استحقت لقب "صاحبة السيادة" . لكن دعنا من هذا ياتوماس وأخبرنى بحقيقة شعورها نحوك وبما تعقده عليها من آمال.

- وكيف يتسنى لى معرفة ذلك وأنا لم أوجه إليها كلمة واحدة طيلة الأيام التى لبثتها فى السجن ، وهى - كما يجمع النزلاء - لا ترد على أحد سوى بطأطة الرأس والصمت المطبق ! إن الإعجاب بصونها وعفافها لا يقل درجة عن الافتتان بجمالها. يقض مضجعى رؤية ابن المأمور القضائى -

وهو فتى لحوح وجريء بعض الشيء - يغازلها علانية بالقصائد التى تفيض شوقاً ولوعة، إذ لا تكاد تمر ليلة دون أن تصدح الموسيقى ويعلو الغناء . ومع أنها لا تسمع كل هذا ولا تغادر حجرة سيدتها - من غروب الشمس حتى صبيحة اليوم التالى - إلا أن ما يفعله الصبّ العاشق يمزق نياط قلبى بسيف الغيرة البتار .

- وماذا أنت فاعل لاحتلال قلب الفتاة التى تحبها فى صورة خادمة وتجنبن عن اقتحام عالمها وكأنها Porcia أو مينرفا أو Penélope (١٩) .

- اسخر منى كما تشاء يا صديقى "لوبي" لأننى أحببت أجمل وجه سوته الطبيعة وأنقى عفة عرفها العالم . إنها تدعى "كوستانثا" وليس "بورثيا" أو مينرفا أو "بينلوب" . لا أنكر أنها تعمل فى خان ، لكن ما ذنبى فى ذلك والقدر العاتى يجذبنى إليها بقوة خفية ، و خلاصة الفكر والتدبر تدفعنى دفعاً للتبتل فى محرابها ؟ إن غمامة الحب تحجب عن عيني ضعة مرتبتها الاجتماعية: فكلماً حاولت التفكير فى صفتها تلك صرفتنى عنها مناقبها الجمّة - مثل الجمال والعفة والملاحة والرّزانة والاحتجاب - وجعلتنى أعتقد أن هذا اللّحاء الخشن المتواضع يخفى تحته كنزاً ثميناً ومنجماً عظيم القيمة . وبغض النظر عن هذا أو ذاك فأنا أحبها بصدق حباً طاهراً منزهاً عن الدنس يختلف كلية عن تجارى السابفة مع الأخريات ، حب لا غاية له سوى جعلها - بالوسائل الشريفة - تبادلنى الشعور نفسه .

هتف "لوپى أستوريانو" بصوت عالٍ متعجباً :

- آه ، وألف آه من الحب الأفلاطونى ! آه أيتها الخادمة الشهيرة ! يالهذا الزمن السعيد الذى أصبحنا نرى فيه الجمال معشوقاً لذاته ومنزهاً عن الأغراض الخبيثة ، والعفة إكليلاً وتاجاً ، والملاحة مصدراً للإعجاب الخالى من الإثارة ، وقلة الشأن موجهة لدقة الحظ ! رحماك يا مصيد الأتون المسكينة ،

(١٩) Penélope يضرب بها المثل فى الوفاء للزوج الغائب ، فقد استطاعت - رغم ملاحقة الكثير من المعجبين التواقين للبناء بها - انتظار زوجها عشرين سنة لحين عودته من حرب طروادة التى شارك فيها بعد قليل من زواجه . (المترجم)

سينقضى هذا العام دون تحقيق زيارتي المأمولة ، لكن الأحداث العجيبة المتوقعة ستكون خير شفيح لى عند كبرائك .

وعندئذ رد عليه "توماس" قائلاً :

- أراك تسخر منى صراحة يا "أستوريانو" . بوسعك الذهاب - مصحوباً بالسلامة - إلى مصايد أسماكك لأننى سأظل مشغولاً بصيدى لحين عودتك . لو شئت حمل نصيبك مما معنا من مال سأعطيه لك عن طيب خاطر ، وعلى كل واحد منا السير فى الطريق المقدر له .

- كنت أحسبك أذكى من هذا يا "توماس" ، أتعبر كلامى السابق سخريه منك ؟ اعلم إذن أننى بعد ملاحظتى لنبرة الجدية فى حديثك قررت ملازمتك وبذل كل ما فى وسعى لخدمتك . شئى واحد أطلبه منك فى مقابل بقائى إلى جوارك وهو ألا تضطرنى إلى موقف يتيح لأرجويو الانفراد بى ومرادتى عن نفسى لأننى قبل التعرض لمثل هذا الخطر سأكون على أتم الاستعداد لطى صفحة صداقتك إلى الأبد . أعوذ بالله من ثرثرتها التى تفوق لسان خطيب مفوه ، ومن رائحتها الكريهة التى تزكم الأنوف على بعد فرسخ ، ومن قبح طاقم أسنان فكها العلوى ، ومن شعرها الملتصق فى ضفيرة على شكل ذنب ، لقد هداها تفكيرها السقيم - بعد تصريحها لى بولها المقيت - إلى استخدام كافة أنواع الزينة الرخيصة لستر عيوبها ، والآن تلتخ وجهها بالمساحيق فيبدو مثل قناع من الجص الخالص .

- هذا صحيح ، وإن كانت الجليقية لا تقل عنها سوءاً . يمكنك قضاء الليلة فحسب بالخان ، وفى صبيحة الغد تشتري الحمار الذى تنتويه ثم تبحث عن ملاذ آخر ، وهكذا تصبح بمنأى عن "لا أرجويو" ، أما أنا فقد كتب على أن أظل هنا ، رهين الحبسين : لسخافات الجليقية ولأشعة شمس "كوستانثا" التى ليس لها دواء .

توجه الصديقان بعد هذا الحوار الطويل إلى الخان حيث استقبلت "أرجويو" "الأستوريانو" بحفاوة بالغة تتم عن حب دفين .. فى تلك الليلة أقام البغالون المقيمون

بالخان والخانات المجاورة حفلاً أمام باب "خان الإشبيلي" ، شارك فيه "الأسطوريانو" بالعزف على العود ، ورقصت فيه - بالإضافة إلى أرجويو والجليقيتين - ثلاث خادמות تعملن في نزل قريب. توافد أيضاً على المكان عدد لا بأس به من المُلثمين يحدوهم الأمل في رؤية "كوسنانا" التي خيبت مسعاهم بعدم خروجها للفرجة .

كان "الأسطوريانو" يعزف على العود بمهارة فائقة لدرجة أنه - كما يُقال - يكاد أن يستنطقه. طلب البغّالون من أرجويو غناء إحدى المقطوعات الشعبية ، لكنها ردت عليهم قائلة : بما أنهم يتتبعن النغمات الموسيقية لتأدية الحركات الراقصة تأدية صحيحة ، وأن موهبة الجمع بين العاملين لا تتوفر إلا في ممثلات المسرحيات الهزلية فإنها ستكتفى بالرقص تجنباً للوقوع في أخطاء .

كان من بين متعهدي البغال والخادמות راقصون - أيضاً - وراقصات. تنحنح "الأسطوريانو" وتقل مرتين إيذاناً بالاستعداد للغناء ، وفي أثناء ذلك فكر فيما سيغنيه ، ولأنه كان حاضراً البديهة ويتمتع بقدر معقول من العبقرية فقد ارتجل المقطوعات الآتية وشرع في غنائها على النحو التالي:

لنتقدم "أرجويو" الجميلة
لمرة واحدة لا أكثر ،
وعند لقائها بالتحية ،
تخطو خطوتين إلى الوراء .
ليتلقّف يدها الآن
من يسمونه "باراباس" ،
بغّال أندلسي أصيل
بقواعد الرقص عليم .

من الفتاتين الجليقيتين
الموجودتين بهذا الخان ،
تتقدم سميئة الوجه والقوام
بعد خلعهما المريلة .

ليمسك "توروتى" يدها ،
هكذا يصبح العدد أربعة ،
بأدائهم - متبخترين - لبعض الحركات
يفتتحون رقصة "كونتراباس" .

نفذ الراقصان والراقصتان ما قاله "الأستوريانو" بالحرف الواحد ؛ لكنه حين
وصل إلى البيت الأخير الذى يقول : "يفتتحون رقصة كونتراباس" ردّ عليه الراقص
المدعو "باراباس" منفعلًا وقال له :

- اعتن باختيار كلماتك أيها الموسيقى ، ولا داعى للتعريض بسوء حال ملابس
أحد الموجودين ، فلا يوجد بيننا من يرتدى الأسمال ، وكل إنسان يلبس ما
يعينه عليه الرب .

حين لاحظ صاحب الخان جهل البغال وفهمه الخاطيء للكلمة الأخيرة من البيت
تدخل موضحًا:

- يأخى ، إن "كونتراباس" كلمة واحدة وليست كلمتين ، وهى تطلق على
نوع من الرقصات الأجنبية ولا علاقة بينها وبين قُبَح الملابس (٢٠) .
- مادام الأمر كذلك - ردّ البغال - فليس هناك ما يستوجب الغضب ، هيا
اعزفوا لنا ما عنّ لكم من الرقصات سواء كانت "ثارابندا" أو "تشاكونا"
أو "فوليا" (٢١) فالمكان لا يخلو ممن يستطيعون أداءها جميعًا بإتقان
ومهارة .

(٢٠) الكلمة التى نطقها المغنى هى : contrapás وهى اسم لإحدى الرقصات غير الإسبانية ، لكن البغال
سمعها على هذا النحو: con trapos وهاتان الكلمتان تعنيان بالفعل ارتداء الأسمال البالية . ومن هنا
يتضح الخلط الذى وقع فيه البغال واستدعى تدخل صاحب الخان لنداركة . (المترجم)

(٢١) (ثارابندا) Zarabanda : رقصة شعبية إسبانية ، كما تُطلق أيضًا على مقطوعة شعرية تتألف من أربعة أبيات أو سبعة .
(تشاكونا) chacona : اسم رقصة شعبية إسبانية أيضًا ، لكنها مثيرة للفرائز الحسية لاعتمادها على
حركات وإيماءات موحية مثل الغمز بالعين ، والتهديدات الحارة ، وهزّ الأرداف والصدور ، وكشف
السيقان نتيجة للقفزات العالية ... إلخ .

أما (فوليا) Folia فهى رقصة برتغالية تعتمد على الصخب الملبعث من الآلات الموسيقية المتنوعة ذات
الإيقاع السريع . (المترجم)

لم يعلق "الأستوريانو" بكلمة على ما سبق وواصل غناؤه قائلاً :

فليتقدم ، إذن ، كل من يريد
من الحوريات وعاشقى اللذات ،
فرقصة "لا تشاكونا"
أشد اتساعاً من المحيط .

استعدوا للثَّقْر بالأصابع
واهبطوا لفرك الأيادي
بهذه الرمال
أو بتراب المزابل .

أحسنتم صنعَ ما به أمرتكم
ولست بحاجة إلى لفت الانتباه ،
أشيروا بعلامة الصليب ، وقدموا للشيطان
حبتي تين من ثمار بساتينكم .

انفلوا على ابن الداعرة
كى يتركنا وشأننا للاسترواح ،
لأنه برقصة لا تشاكونا
كلف ، لا يطيق البعاد .

"أرجويو" البارعة ، انتبهى سَأْغِير اللحن ،
أنت أجمل من دار ضيافة رائعة الحسن ،
بما أنك مصدر إلهامى الجديد فى الشعر
فلن تبخل على بما لديك من فضل .

رقصة "لا تشاكونا" الساحرة
وصفة للحياة الحلوة العامرة .

تجدون فى هذا التدريب
ما تتطلبه الصحة ويناسبها ،

يزيح عن الأعضاء - بلا تثريب -
الكسل العضال الذي يطوقها .

تموج الضحكات وتفور
في صدر الراقص وعازف الأرغول ،
في صدر المتفرج على الرقصة
والسامع لرنين موسيقاها العذبة .

يتفصد الزئبق من الأرجل الملتاثنة
وفي منقوعه يتحلل الأشخاص ويذوبون ،
بسعادة أصحابها وبكل أريحية
تتفصل عن الأحذية نعالها الفلينية .

النشاط والخفة
في العجائز يتجددان ،
يتعاضمان لدى الفتیان
ويزكيان الألحان .

إن رقصة "لا تشاكونا" الساحرة
هي خير وصفة للحياة الحلوة العامرة .

كم من المرات حاولت
تلك السيدة النبيلة ،
مع رقصة "ثارابندا" السعيدة ،
وكذلك "البيسامي" و "بيرامورا" الأصيلية ، (٢٢)

اللاتى تسلن إليها
من فجوات دور العبادة

(٢٢) El Pesame . perra mora من الرقصات الإسبانية القديمة ، ولم يستطع النقاد والمؤرخون التعرف على
أوصاف هاتين الرقصتين ولا كيفيتهما . (المترجم)

لنتفكّن بالعفة والحصانة
الهاجعتين فى الصوامع المقدسة !
كم منهن أصبحن معطوبات
بأيدي المتبتلين فى محرابهن !
الداعر الشُّبِق يتخيلهن
كما تهفو نفس الأخرق إليهن .
إن رقصة "لا تشاكونا" الساحرة
هى خير وصفة للحياة الحلوة العامرة
هذه الخلاسية التى تُشبه البقعة ،
قالت عنها الشهرة وأفصحّت :
إنها انتهكت المقدسات وجدّفت
أكثر مما روته الأخبار عن "أروبا" وحدثت ؛
إنها رافد لا ينضب
لعموم الخادِمات ،
لشرازم الغلمان
ولتابعى القوّات ،
إنها تثرثر ، تحنث ولا تنفجر ،
ورغم أنف مصمم رقصة
"زمبابالو" المتعجرفة ،
فهى زهرة الدردور المورفة ،
رقصة "تشاكونا" وحدها القادرة
على إضفاء الحياة الحلوة العامرة .
* * *

كان يرقص منتشياً على عزف "لوبي" وغناؤه ما يقرب من اثنى عشر
بغلاً وخادمة ، وفيم كان يتهياً للمضى قدماً بغناء مقطوعات أخرى أطول

وأفضل من سابقتها تدخل واحد من الملائمين الذين كانوا يشاهدون الرقصة وقال بصوت عالٍ :

- صه ، أيها المغمور. اسكت ، أيها الزق . اصمت أيها الأحمق المتشاعر والموسيقي المزيف .

لم يكد ينتهي المثلث حتى تبعه آخرون بصيحات الاستنكار والسباب والإيذاءات البذيئة التي أحسن "لو پى" صنعاً بالتغاضى عنها ، لكن البغاليين لم يبتلعوا الإهانة ، ولولا تدخل صاحب الخان ومحاويلته - بشتى الطرق - تهدئتهم لحدث ما لا يحمد عقباه ، لكنهم واصلوا - رغم هذا - التلويح بأيديهم حتى ظهرت الشرطة التي عملت على تفريقهم وإخلاء المكان .

لم يكادوا يتمون انسحابهم حتى وصل إلى كافة المستيقظين بالحيّ صوت - لشاب جالس على حجر فى مواجهة "خان الإشبلى" - يصدح بغناء رقرق استولى على أفلدتهم وأجبرهم على الإنصات حتى النهاية . كان "توماس پدرو" أشدهم انتباهاً ؛ لكنه لم يكن مهتماً بالموسيقى قدر اهتمامه بكلمات الأغنية التي أضنت روحه وكأنها منشور تجريم كنسى موجه إليه وحده ، ذلك لأن كلمات الأغنية كانت تقول :

أين أنت ؟ ولم الاحتجاب

يانبع الجمال الصافى

الذى يصفى على الحياة البشرية

هالة قدسية ؟

ياسماء علوية ، للحب فيها

مقام راسخ معلوم ،

تتعلق برياشه ، وفى كنفه تدور

عجلة الأقدار والحظوظ ؛

يامكاناً بللورياً شفافاً ،

فيه المياه الصافية النقية

تخضل بالحب الحرائق

وتجعلها برداً وسلاماً ؛

ياقبة زرقاء ، جديدة رائعة ،
تضئ فيها نجمتان
دون معونة خارجية
أديم الأرض ووجه السماء ؛
يابهجة تتناقض وتختلف
مع الأحزان المبهمة
لأب يحفر لأبنائه
ضريحاً في صدره ؛
ياتواضعاً يتحدى
من القمة التي يعتليها
ما أودع في "خوبى" العظيم
من رفقٍ وحلمٍ ووداعة .
شباك دقيقة غير مرئية
تحبس كل محارب زانٍ
يتباهى بفتوحاته الحربية
في زنازين سجنها العvisية ؛
سما رابعة وشمس ثانية ،
يحقق بالأولى الكسوف
لو صادفها الحدث الفريد
ونعمنا بحظ تراءى الثانية ؛
سفير مهيب ، يتحدث
بحكمة جد غريبة ،
يقنع صامتاً
بأكثر مما يود أن يقوله
لديك من السماء الثانية
الجمال على الأقل ،

ومن صفحة الأولى
لمعان القمر
أنت يا "كوستانثا" ، كل هذا وأكثر ،
ورغم أن قلة البخت قد ألقت بمرساتك
فى مرفأ بائس غير مستحق
إلا أن نورك عليه يعشى البصر
اغزلى خيوط قدرك
بمسحة من التجارب
تنزل بالتعالى إلى المعاملة الأليفة
وبالنفور إلى درك الطراوة .
سترين ، حينئذٍ ، ياسيدتى
كيف تحسدك على نصيبك
متعجرفات الحسب والنسب
ومن يخالطهن نزق الجمال الصارخ .
إن شئت اختصار الطريق ،
سأقدم لك عن طيب خاطر
ما لم يرد على قلب بشر
من حبٍ عفيفٍ طاهرٍ .

تزامن مع نطق البيت الأخير طيران نصفى قالب أجز باتجاه المغلى ، وبدلاً من
سقوطهما على قدميه ارتطما - لسوء الحظ - بمنتصف رأسه فأخرجاه دون عناء
من حالة الوجد المضمخة بالشعر والألحان . ارتبك لبرهة ؛ لكنه استجمع قوته وأطلق
ساقيه للريح صاعداً المنحدر ، ولو كان هنالك كلب صيد أصيل ما لحقه .. تعساء أيها
الموسيقيون لأنكم كالخفافيش والهوامات : عرضة على الدوام لمثل هذه الأمطار
ولأعمال عنفٍ مشابهة !

استحسن السامعون موسيقى المرجوم لاسيما "توماس پدرو" الذى أعجب كثيراً
بالصوت والأغنية وتمنى فى قرارة نفسه تأثر "كوستانثا" بهذا الكم الهائل من

الموسيقى والأشعار الموجهة إليها بهدف إعدادها النفسى للتجاوب مع أشعاره الخاصة التى يفكر فى إرسالها - ذات يوم - إليها ، لكنه كان يعلم استحالة تحقق هذه الأمنية لعدم وصول شيء من الموسيقى والقصائد إلى أذنى صاحبة السيادة .

كان للبعال المدعو "باراباس" رأى مخالف فى الغناء الذى تابعه مثل الآخرين ، إذ طفق يقول فور هروب الموسيقى :

- إلى سقر أيها الأحمق ، يا شاعر يهوذا ، جعل الله من عينيكَ طعاماً للحشرات والهوام . من هو الشيطان الذى علمك الغناء لخادمة بكلام عن السماوات والأفلاك والنجوم والأقمار وآلهة الحرب وعجلة الأقدار ؟ لو أحسنت لنفسك ولمستمعيك لقلت : إنها متخشبة مثل هليون ، بيضاء كاللبن الحليب ، عفيفة مثل راهب مستجد ، منقوشة مثل ريش الطائر ، متكفة وغير مستأنسة مثل بغلة مؤجرة ، وأشد صلابة من قطعة ملاط ، لو قلت شيئاً من هذا فلربما فهمته وابتهجت ؛ أما الحديث عن السُّفراء والشُّباك والرياش والهالات القدسية والارتفاع والانخفاض فمكانه قاعات الدرس ولا يليق بخادمة فى خان . أنا على الأقل - رغم كونى باراباس - لم أستطع فض مغاليق القصيدة العصماء التى صدح بها الموسيقى ، فما بالكم بواحدة مثل "كوسنانثا" ! لقد أحسنت صنعاً وغلبتنا جميعاً لأنها تغط فى نومها ساخرة من الشعر والشعراء . لا مرأى فى أن هذا الموسيقى ليس واحداً من أبناء المأمور القصائى ، فهم - على كثرتهم - يتركبون لنا ما نفهمه فى بعض الأحيان ، أما هذا الأبله ، فلا غاية له إلا إصابة مرهفى الحس أمثالى بالغم والهَم والكدر .

استحسن الحاضرون تعليق "باراباس" واستصوبوا انتقاده اللاذع .

انفض السامر ، ولم يكد يهجع الساهرون فى مراقدهم حتى أحس "لو پى" بطرقات خفيفة على باب الحجرة ، سأل من الطارق فأجابه الصوت القادم من الخارج :

- "لا أرجوئو" و الجليقية ، افتح الباب ، نكاد نموت من البرد .

- صحيح ، لأننا فى (عز) الصيف .

- لا داعى للاستظراف يا "لوپى" - قالت الجيلية - ، افتح الباب لأننا (على سِنْجَة عشرة) .

- (على سِنْجَة عشرة) فى هذه الساعة من الليل ؛ لابد أنكما من الساحرات أو العاهرات الأشد قحة ، عودا من حيث جئتما ، ماذا وإلا : أقسم به ... أن أنهض وبابزيم حزامى أجعل مؤخرتيكما مثل شقائق النعمان .

حين سمعته يتحدث بانفعال غاضب لا يمت بصلة لما تخيلناه فى البداية تملكهما الرعب من نتائج ثورته وخمدت فى صدريهما الرغبة المتقدة ؛ انسحبنا حزينتين ، تجرجران أذيال الخيبة إلى مخدعيهما، هذا وإن كانت "لا أرجويو" قد ألصقت - قبل ابتعادها عن الباب - خطمها بثقب المفتاح وقالت :

- من الطبيعى ألا يستسبح فم الحمار طعم العسل .

بهذه العبارة التى أودعت فيها جامَ غضبها واعتبرتها بمثابة الانتقام العادل ، شيعت - كما ذكرنا - الباب وتوجهت إلى فراشها الحزين .

ولما أحسَّ "لوپى" بابتعادهما عن الباب قال لتوماس :

- اسمع يا "توماس" : أنا على استعداد - فى سبيل نصرتك - لنزال عملاقين أو مصارعة ثلاثة أزواج من الأسود إن لزم الأمر ، ورغم أن هذا أسهل عندى من احتساء قدح من النبيذ إلا أنني أجبن عن مواجهة "لا أرجويو" حتى ولو مزقوا جسدى بالرماح . أرأيت الجميلتين الدنمركيتين اللتين هبطنا علينا من السماء ! عما قريب سيطلع النهار لنفكر ساعتها فى حل .

- قلت لك من قبل يا صديقى إن لك مطلق الحرية فى فعل ما تريده : إما مواصلة الرحلة إلى مضاربك أو شراء الحمار والعمل سقاء كما اقترحت .

- مازلت متمسكاً بفكرة السقاء هذه ؛ لكن هيا بنا إلى النوم لأن رأسى ثقيلٌ مثل سطلٍ ولست قادراً ولا مهياً للدخول معك فى نقاش .

ناما ، طلع النهار ، استيقظا ، باشر "توماس" عمله فى صرف الأعلاف وذهب "لوپى" إلى سوق الدواب القريب لشراء الحمار .

حدث بعد ذلك أن "توماس" قام - مدفوعاً بأفكاره وبما تفيض به القيلولة من هدوء وعزلة - بتأليف قصيدة غزل وتدوينها في دفتر الأعلاف قاصداً تنقيحها بعد ذلك ونقلها في ورقة أخرى ثم محوماً دونه في الدفتر أو تمزيقه ، لكنه قبل أن يفعل كل هذا خرج لقضاء شأنٍ من شؤونه ونسى الدفتر على خزانة الأعلاف ، ولما دخل صاحب الخان وفتح الدفتر لمعرفة الحساب قرأ القصيدة التي أصابه محتواها بالهلع والفرع الشديدين .

حمل الدفتر إلى زوجته ، وقبل قراءة الأبيات عليها استدعى "كوستانثا" ، وبصوت عالٍ ممزوج بالتهديد سألها إذا كان "توماس يدرو" - المكلف بصرف الأعلاف - قد غازلها أو وجه إليها كلمة خادشة للحياء . حلفت الفتاة أنها لم تسمع منه كلمة : لا من هذا الصنف أو ذاك ، وأنها لم تتعرض ولو لنظرة عابرة منه تنطوى على شرٍ .

صدقها سيدها لاعتيادهما على سماع كلمة الحق منها . أمرها بالانصراف ، ولما خلا المكان قال صاحب الخان لزوجته :

- لا أدري ما قولك في هذا ، لقد كتب توماس في دفتر الأعلاف أبياتاً من الشعر تنم عن حبه للفتاة .

- أطلعني أولاً على القصيدة لكي أخبرك برأىي في محتواها .

- بالطبع - رد الزوج - ، وأنا متأكد من قدرتك على كشف مستورها لأنك شاعرة .

- لست بشاعرة ؛ لكنى - كما تعرف - أجيد اللاتينية وأصلى بها الصلوات الأربع .

- لبتك تصليتها بالإسبانية لأن عمك الراهب قال إنك تتفوهين في صلاتك اللاتينية بكلمات ما أنزل الله بها سلطان ، وهذا يعنى أنك لا تصلين شيئاً .

- ذلك الرمح السمهرى تأكله الغيرة حين يرانى أتناول "كتاب الأوقات" وأقرأ فيه بسهولة تفوق جمع عناقيد كرامة تم قطافها من قبل .

- افعلى ما يحلو لك - قال الزوج - ؛ والآن انتبهى لسماع القصيدة التي تقول كلماتها :

من ذا الذى يقدر على مواجهة سطوة الحب ؟

الذى يُحسن الصمت .
كيف يمكن التغلب على وعورته ؟
بالثبات والعزم .
وما هو الطريق المفضى إلى بهجته ؟
الإلحاح .
يمكننى - إذن - تنمية النفس
بالتنعم فى ظل واحتة
إذا تسلحت بالثبات والعزم
ومداومة الإلحاح .
علام يقتات الحب ؟
على المعروف والإحسان .
ويم تخمد سورته ؟
بالظلم والإهانة .
هل ينمو بالازدراء ويكبر ؟
بل يضمحل .
لهذا سيظل حبى ،
على ما يبدو ، خالداً ،
إذ تخلص كافة أسبابه
من الإحسان والإهانة .
من يملكه اليأس ، ماذا ينتظر ؟
الموت المحقق .
أى موت يستطيع العذاب دفعه ؟
الأوسط .
والاستسلام للموت ، ما الرأى فيه ؟
المعاناة أفضل .
لقد جرت العادة ،

وتحتها تندرج هذه الحالة ،
أنه بعد العاصفة الهوجاء
يعم السكون وينتشر الصفاء .
متى أميط اللثام عن حبي ؟
حين تواتيك الفرصة .

وإذا لم تطرق بابي ؟
ستأتى ذات يوم .
سيدهمنى بجحافله الموت
خلال ما أنتظره من وقت .
آمالك الطاهرة ونواياك الحسنة
حين تدرى بهما "كوستانثا"
سيتحول بكاؤك إلى بسمّة .

- ألا يوجد المزيد ؟ - سألت الزوجة .

- لا ؛ لكن ما قولك فيما سمعته ؟

- ينبغي التحقق أولاً من أن "توماس" هو الذى كتبه .

- لا شك عندى فى ذلك لأن الخط الذى كُتِبَ به القصيدة مطابق تماماً لخط
"توماس" فى دفتر حساب الأعراف .

- اسمع يازوجى ، صحيح أن ذكر اسم "كوستانثا" يوحى بأن القصيدة
موجهة إليها ؛ لكننا لا نستطيع الجزم بأن هذه هى الحقيقة لأن العالم يغص
بأسماء مماثلة ، وعلاوة على ما تقدم فكللمات القصيدة لا تطلب شيئاً من
الفنّاء ، ولا تحتوى على ما يشين أو يخجل . ما يجب علينا عمله هو توخى
الحذر والمراقبة وإبلاغ الفنّاء حتى تكون على بينة لأن "توماس" لو كان
متميماً بها سيعاود - بالتأكيد - تأليف مقطوعات أخرى ، وسيحاول
إيصالها إليها .

- أليس من الأفضل إراحة أنفسنا من هذا العناء بطرده من الخان ؟

- هذا - بالطبع - فى يدك ، لكن الفتى يمارس عمله - حسب قولك - بمهارة ودقة ، وربما يعاودنا الندم على طرده لسبب تأفه لا يقوم على أساس .
- حسناً ، علينا - إذن - توخى الحذر والمراقبة كما تقولين ، ومرور الأيام كفيل بإرشادنا إلى ما ينبغى عمله .

بعد اتفاقهما على الرأى السابق حمل صاحب الخان الدفتر وأعادهُ إلى مكانه . رجع "توماس" قلقاً وسارِعَ ينقل القصيدة فى ورقة أخرى ، وحتى لا يصاب بنوبة هلع ثانية قام بطمس المسوِّدة . فى تلك اللحظة قرّر المغامرة بالكشف عن مشاعره لكوستانثا فى أقرب فرصة ، وإن كانت الصعوبات الجمة التى تكتنف هذا الأمر (والمتمثلة فى امتطاء الفتاة الدائم لصهوة العفة والخفر ، وعدم إتاحتها الفرصة ولو لمجرد النظر إليها ، واكتظاظ الخان بالزائدين وكثرة العيون) قد أشاعت الجزع فى قلب العاشق المسكين .

خرجت "كوستانثا" ذلك اليوم وهى تلفّ صدغيها بطرف الخمار ، ولما سُئلت عن السبب أجابت بقولها : إنها تعاني من ألم شديد بضروسها . حين سمعها "توماس" شرع على الفور فى قدح زناد فكره الذى تمخض عن العرض التالى :

- لدى تعويذة لهذا الغرض يا "كوستانثا" ؛ قراءتها مرتين كافٍ لإزالة الألم نهائياً .

- حسناً ! هاتِها ، فأنا - لحسن الحظ - أجيد القراءة .

- لكى تُؤتى التعويذة ثمارها المرجوة - قال توماس - يجب ألا يطلع عليها أحد غيرك لأن التداول يفقدها قيمتها ويقضى على مفعولها .

- أعذك بألا يراها أحد ؛ من فضلك هاتِها لأن الألم يزلزل كيانى .

- أنا أحفظها فى الذاكرة ، سادونها لك فى الحال .

كانت هذه هى الكلمات الأولى التى يتبادلها "توماس" مع "كوستانثا" طوال الفترة التى قضاها بالخان وتزيد عن أربعة وعشرين يوماً . انسحبت "كوستانثا" ، ولما فرغ "توماس" من كتابة التعويذة عمل على إيصالها - دون إبطاء ، ودون رؤية أحد -

إلى الفتاة التى تسلمتها فى خشوع ثم أغلقت على نفسها باب إحدى الغرف لتطالع فيها ما يلى :

"أميرة روحى : أنا شاب نبيل من برغش ، وقد خصّنى والدى فى وصيته بأملك يقدر عاندها السنوى بما لا يقل عن ستة آلاف دوكدوس . شهرة جمالك التى تتناقلها الألسن جعلتنى أترك مسقط رأسى وأخلع ملابسى الأصلية وأرتدى ما تربيته لخدمة سيدك . لو شئت أن تكونى لى بالطريقة التى تتناسب مع عفافك يمكنك التحقق بوسائل شتى من هذه المعلومات ، وبعد تحققك منها سأكون أسعد إنسان فى هذا العالم لو قبلتنى زوجاً . أرجو ألا تنشرى مشاعرى الفياضة المحبة على الملأ لأنها لو تناهت إلى علم سيدك سيعاقبنى بالطرد من حضرتك البهية ، وهذا مثل إصدار الحكم بإعدامى . دعينى أنعم برؤياك حتى يأتيك الخبر اليقين عنى : إذ لا يستحق العقاب الصارم بالحرمان من إشرقة وجهك ذلك الشخص الذى يتبتل فى محرابك . بنظرة واحدة من عينيك - فى غفلة من العيون الكثيرة المسلطة عليك - تستطيعين الإجابة على استفساراتى : غضبها يعنى الموت ، وودّها يعادل البعث من الأجداث " .

فى أثناء قراءة "كوستانثا" للورقة كان "توماس" ينتظر - خائفاً يترقب - : إما صدور الحكم بالموت أو بالبعث والنشور . خرجت الفتاة من الغرفة تتألق جمالاً - رغم اللثام - ، ويمكن القول إن أى انفعال آخر مهما عظم لن يزيد من مدّ الجمال مثلما زانه الانفعال البادى الآن على وجهها . كانت الورقة بين يديها نَفْثاً صغيرة ، قالت لتوماس قبل استوائه على قدميه :

- لا حاجة لى بما فى تعويذتك من شعوذة وخداع ، لقد مزقتها إرباً كما ترى حتى لا يراها سوى . تعلم - ياأخى - صلوات أخرى أجدى وأيسر لأن هذه لن تفيدك فى شىء .

دخلت بعد ذلك حجرة سيدتها وتركت "توماس" نهباً للحيرة المشوبة ببعض العزاء ، ذلك لأنه اعتقد أن السرّ ما دام سيظل مخبوءاً فى صدر "كوستانثا" فلن يدرى به صاحب الخان ، ولن يتعرض - بالتالى - إلى الطرد . كما بدا له أن الاصطدام فى الخطوة الأولى من المشوار الصعب بتلال لا حصر لها من المشاكل لا يعنى نهاية المطاف لأن العقبات الكنود عادة ما تنصدر المهام الجسام ، بعيدة المنال .

بينما كان هذا يجري بالخان كان "الأستوريانو" يتجول فى سوق الدواب بحثاً عن حمار مناسب ، ورغم أنه عاين كثيراً من الحمير إلا إنه لم يقتنع بواحدٍ منها ، كان هناك عجري يلاحقه محاولاً إقناعه بشراء حمار لديه ، ولم يكفَ عن التغنى بخفة حركته ورشاقة خطوته . صحيح أن الحمار كان سريع العدو ، لكن صغر حجمه لم يعجب "لوى" الذي يرغب فى شراء حمار ضخم ليتحمل الطواف المستمر دونما كلل : سواء كانت الدنان التى على ظهره مملوءة أو فارغة .

اقترب منه سقاءً وأسرَّ فى أذنيه بما يلى :

- إذا كنتَ تبحث عن حمارٍ مريح ومناسب للعمل فلدى بمرجٍ قريبٍ من هنا واحد لا يوجد له مثيل فى كافة أنحاء المعمورة . أنصحك بنبيذ التعامل مع العجر لأن دوابهم تخفى من العيوب أكثر مما تظهر ، لو كنت حريصاً على شراء ما يناسبك اتبعنى والزم الصمت .

ذهب معه "الأستوريانو" لمعاينة الحمار نادر الأوصاف . مشياً سوياً حتى وصلا إلى بساتين الملك ، وهناك وجدا حشداً من السقائين جالسين فى ظل خزان مياه وحميرهم ترعى فى مرجٍ قريب . أشاد الحاضرون بمثانة بنيان الحمار وباعتياده على المسافات الطويلة وبإقباله على تناول كل ما يقدم له . وبالطبع ، فقد بالغ السماسرة فى وصف مزايا الحمار الذى دفع فيه "لو پى" - دون أية ضمانات - ستة عشر دوكادوس ، شاملة الثمن وأتعاب الوسطاء .

تلقى "لو پى" - بعد سداد الثمن عدداً ونقداً - التهاني على إتمام الصفقة ، وعلى الانضمام إلى طائفة السقائين . أخبروه أنه اشترى حماراً محظوظاً ومباركاً لأن صاحبه استطاع فى أقل من سنة من العمل عليه - دون أن يضطر إلى قتله أو إحداث عاهة مستديمة به - تغطية نفقاته هو والحمار وإدخار ما يكفى لشراء طاقمين من الثياب ؛ هذا بالإضافة إلى الستة عشر دوكادوس المقبوضة فيه الآن والتي سيعود بها إلى موطنه للزواج من إحدى قريباته .

كان يوجد بالمكان - فضلاً عن السماسرة - أربعة سقائين يفترون الأرض للعب الورق . وقف "الأستوريانو" يتفرج عليهم وعندئذ لاحظ أنهم يقامرون ولا يلعبون للتسلية لأن كل واحدٍ منهم كان يضع أمامه عملات ورقية وفضية يصل

مجموعها إلى مائة ريال. كانت قواعد اللعبة تتمثل في أن يتقدم كل فرد من الأربعة بمبلغ معين ، وفي نهاية الدور يفوز به واحد فقط. استمر اللعب هكذا لبعض الوقت إلى أن أفلس اثنان منهم وأخليا مكانهما. حينئذٍ أبدى بائع الحمار استعداداً للمشاركة لكن بشرط اكتمال العدد السابق للاعبين ، لأنه - حسب زعمه - يتشأء من اللعبة الثلاثية. ولأن الأشتوريشي - كما يقول المثل الإيطالي - يبادر على الفور بالانضمام إلى الجماعة دون تفكير في العواقب ، فقد أعرب "الأستوريانو" عن رغبته في أن يكون رابعهم. لم يمض سوى وقت قصير حتى فرغ كيسه من ستة الدوكادوس التي كانت باقية معه بعد شراء الحمار ، ولما وجد نفسه خاوي الوفاض عرض عليهم اللعب على الحمار بعد تقسيمه إلى أرباع بحيث يخصص لكل دور ربعاً .. لم يمانعوا ، وفي أربعة أدوار متتالية كسب منه الحمار الرجل الذي باعه له من قبل. ولما همَّ الرجل باسترداد حماله استوقفه الأستوريانو قائلاً : إنه لعب فقط على أربعة أرباع الحمار وهي لا تشمل الذيل ، ولذا فإنه على استعداد لتسليم ما خسره لكن بدون الذيل .

ضج المكان بالضحك وانهالت التعليقات ، ولم يكف الكثيرون بذلك وإنما نصبوا أنفسهم محامين ومشرعين وتباروا في تسفيه ادعائه بقولهم : حين يباع كبش أو أى حيوان آخر لا يقطع منه الذيل لأنه يتبع - رضينا أم كرهنا - أحد الربيعين الخلفيين. عندئذٍ ردَّ "لوبي" قائلاً : إن الأغنام في بلاد البربر تقسم إلى خمسة أجزاء ، أحدها الذيل الذى لا تقل قيمته عن باقى الأجزاء (٢٣) ، وإنه - أى الذيل - يكون تابعاً للماشية فى حالة بيعها كاملة وليست على أرباع ، ومادام الحمار قد خسر على مائدة القمار (٢٤) ولم يبع ، ولم يفكر صاحبه فى اللعب على ذيله فإنهم ملزمون برده إليه مع ملحقاته التى تمتد من منتصف أعلى الدماغ - مروراً بالعمود الفقارى - حتى آخر شعرة فى طرفه .

(٢٣) تختلف رموس الضأن فى إسبانيا عن بلاد البربر (وعن الأغنام المصرية أيضاً) فى أن ذيول الأولى قصيرة ورفيعة ؛ أما أغنام المغرب العربى (التى يقصدها المؤلف) فنتمتع بذيول مستديرة وطويلة لا تقل قيمتها - بالفعل - عن باقى الأجزاء . (المترجم)

(٢٤) لا يخفى ما فى كلمة "مائدة" (مائدة القمار) من تهكم وسخرية لأن السقائين كانوا قد افترشوا دثار أحدهم على الأرض للعب الورق عليه . (المترجم)

- وماذا يبقى من الحمار إذا أعطيناك ما تطالب به ؟ - سأل أحدهم .

- لا شأن لى بذلك - ردّ "لوبي" - ، أريد الذيل بالطريقة الموضحة آنفاً ، وليس على أقساط ، وفيما عدا ذلك لن تنتزعوا الحمار من يدي حتى ولو استعنتم بسقائي العالم أجمع ، لا تظنوا أن كثرتكم تخيفني لأنى أعرف كيف أصل إلى أحلكم وأحدث في بطنه مقدار شبرين بطعنتين من خنجرى دون أن يدرى من أين جاءنا ولا من الذى تطوع بتسديدهما .

اتضح للفائز وللحاضرين استحالة فض النزاع عن طريق القوة لأن حماس "الاستوريانو" وهياجه لن يسمحا بذلك ، وبما أن الأخير كان قد تلقى التدريب الكافى فى "مضارب الزهرة" حيث تمرح كافة صنوف الشر مطلقة العنان فقد ألقى ببقعته على الأرض واستل خنجرأ من بين طيات ثيابه ووقف متأهباً للنزال فأشاعت هيئته الرعب فى جماعة السقائين . تدخل حينئذ رجل تبدو على محيآه أمارات الحكمة والاتزان وعرض عليهم فكرة اللعب على الذيل مقابل ربع الحمار . راقتهم الفكرة ، ولم يمانع "لوبي" الذى فاز بالجولة الأولى من المباراة . تكهرب الخاسر ولعب على ثلاثة الأرباع الباقية فخسرها أيضاً . حاول بعد ذلك أن يلاعبه على المبلغ الذى قبضه من بيع الحمار ويفكر فى الاستعانة به على إتمام مشروع الزواج فلم يلق استجابة من الفائز ، لكن "لوبي" اضطر فيما بعد إلى الرضوخ أمام إلحاح المتفرجين لتنتهى المباراة بفقدان السقاء لآخر فلس كان معه . حين أيقن الخاسر من ضياع أمله فى الزواج اعتلته الكآبة وأجمته الحسرة فسقط على الأرض متلويأ وراح يتمرغ فى التراب . ولأن "لوبي" من أصل كريم فقد أخذته الشفقة بالرجل ، اقترب منه وأنهضه ثم ردّ عليه الستة عشر دوكدوس التى كسبها منه ، بل إنه لم يكتف بذلك وقام بتوزيع ما معه من نقود على الحاضرين . أثار كرمه وسخاؤه - الغريبان على طائفة السقائين - العجب والدهشة فى نفوسهم جميعاً وأحيا فى ذاكرتهم سيرة تيمورلنك التترى ، ومن ثم فقد تعالت هتافاتهم بتنصيبه ملكاً عليهم .

رجع "لوبي" إلى المدينة محاطاً بموكب كبير ، وفى الخان شرح لتوماس ما حدث وتلقى منه تقريراً مفصلاً عن التطورات السعيدة فى موضوعه مع "كوستانثا" .

طارت قصة الحمار - بما فيها الذيل وذكاء وشجاعة وكرم لوبى - إلى جميع الحانات والقهوى وأوكار الصعاليك وشذاذ الآفاق ، وبما أن الذاكرة الجمعية للرعاع والدهماء سيئة على الدوام وملعونة فإنها لم تعرا اهتماماً لما فى القصة من ذكاء وشجاعة وكرم بطلها واختزننت منها ما يخص الذيل فقط ، وعلى هذا فلم يكد "لوبى" يقضى يومين فى ممارسة عمله الجديد حتى لاحظ أن الناس تشير إليه بأصابعها فور رؤيته قائلة : "هذا هو السقاء صاحب الذيل" . زاد الطين بلة انتشار الخبر بين الصبية ، ونتيجة لذلك فلم يكن "لوبى" يظهر فى مدخل أى شارع حتى تقابله صيحاتهم من هنا وهناك : "هات الذيل ، يأستوريانو ! يأستوريانو هات الذيل !".

ولما وجد نفسه هدفاً للأنسة كثيرة تذرّع بالصمت ، معتقداً أن بثره السحيق كفيل بابتلاع هذا الكم الهائل من البذاءات ، لكن مرور الأيام كشف له عن مفاجاة اعتقاده للصواب لأن هتافات الصبية كانت تزداد علواً كلما تمادى فى الصمت ؛ حاول استبدال الحلم بالغضب فترجل عن حماره وطارد الصبية بالعصا فكان مثل من قرب النار من البارود ، إذ إنه بدلاً من أن يسكت صوتاً واحداً بضرب مصدره قد أهاج عش الزنابير لتخرج منه سبعمئة صوت مطالبة بالذيل فى حماسة وإصرار . أحسن صنعا فى النهاية بانزوائه فى نزل بعيد عن خان صديقه : للفرار من مطاردة "أرجويو" ولحين انقشاع الغمة بانمحاء المطالبة اللعينة بذيل الحمار من ذاكرة الصبية .

مضت ستة أيام على "لو پى" وهو قابع فى منفاه الاختيارى ، لا يغادره إلا ليلاً ولزيارة صديقه ، فى المرة الأخيرة أخبره توماس بعدم تمكنه من مخاطبة "كوستانثا" بكلمة منذ واقعة التعويذة التى أصبحت بعدها أشد حرصاً وخفراً من المعتاد لأنه رآها ذات مرة فقالت له قبل وصوله إليها : "توماس" ، أنا لا أشكو من شىء ، ولست بحاجة إلى نصائحك وصلواتك ، احمد ربنا لأننى لم أبلغ عنك مندوبى محاكم التفتيش ، لكنها قالت ما قالته دون أن يرى الغضب فى عينيها أو أية أماراة أخرى تشى بكراهية أو نفور .. ومن جهته ، فقد حكى له "لوبى" عن ملاحقة الصبية له فى أى مكان يقصده بالعبارة البذيئة المتعلقة بذيل الحمار ، وعندئذ نصحه صديقه بعدم الخروج من النزل - على متن الحمار ، على الأقل - وإذا لم يجد بداً من ذلك فعليه بالسير فى الشوارع المعزولة الخالية من الناس ، أما إذا لم تفلح هذه الاحتياطات فلن

يكون أمامه سوى ترك المهنة سداً للذرائع. سأله "لو پى" عن الجليقية وآخر أخبارها معه فقال له : إنها لم تعاود الكرة منذ تلك الليلة التى اصطحبت فيها "أرجويو" ، ورغم هذا فهى لا تكف عن محاولة استمالته بالهدايا وببقايا الطعام التى تختلسها مما يحضره النزلاء معهم لإعدادة فى المطبخ .. انسحب "لو پى" بعد انتهاء الحوار بينها ميمماً شطر نزله وعاقداً العزم على ألا يغادره - على متن الحمار - لمدة ستة أيام أخرى .

كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساءً حين اقتحم الخان فجأة وعلى غير المتوقع مندوبو العدالة المتبوعون بالمأمور القضائى. اضطرب صاحب الخان - والنزلاء أيضاً - فور رؤيتهم؛ هذا لأن النيازك والشهب حين تعلن عن نفسها تكون نذير شؤم ومقدمة لحدوث المصائب والكوارث ، والعدالة لا تختلف ملليمتراً واحداً عن النيازك ، لاسيما إذا دخلت - هكذا فجأة وبأعداد كثيفة - بيتاً من البيوت فإنها تثير الرعب فى نفوس قاطنيه حتى ولو كانوا من ذوى الضمائر البريئة . دلف المأمور القضائى إلى إحدى الصالات ونادى على صاحب الخان الذى هرول إليه منتفضاً من شدة الخوف. سأله المأمور بصوت متجهم :

- هل أنت صاحب الخان ؟

- نعم ياسيدى . أنا طووع أمرك .

أمر المأمور بإخلاء الصالة وتركه بمفرده مع صاحب الخان. ولما أصبح وجهاً لوجه سأله المأمور :

- ما هو طاقم الخدمة الذى يعمل فى خانك ؟

- لدى ، ياسيدى ، فتاتان جليقيتان وقهرمانانة وفتى مختص بحساب الأعلاف .

- لا أحد غيرهم ؟

- لا ، ياسيدى .

- أين هى ، إذن ، الفتاة الجميلة التى تخدم فى الخان ويطلق عليها الناس "صاحبة السيادة" ، والتى أخبرونى أيضاً أن ابنى "دون بيريكيتو" متيم بها ، ولا تكاد تمر ليلة دون أن يسمعها موسيقاه ؟

- سيدى ، الفتاة التى يتحدث عنها فخامتكم موجودة - حقاً - فى الخان ، لكنها ليست خادمة رغم أنها تبدو كذلك .

- أفزورة تلك ؟ خادمة وغير خادمة فى الوقت نفسه !

- لم أنطق بغير الحق ، ولو يصرح لى سيدى بتفسير هذا التناقض سأطلعهم على سر لم أبح به لأحد من قبل .

- قبل معرفة الحكاية أريد أولاً رؤية الخادمة . استدعها .

نظر صاحب الخان من فرجة باب الصالة ونادى على زوجته :

- هيا ، يا امرأة ، آتنى بـ "كوستانثا" .

اضطربت الزوجة وولولت بيديها قائلة :

- ياويلتى ! الأمور يريد رؤية "كوستانثا" على انفراد ! لابد أن أمرك خطيراً قد حدث ، أو أن جمالها قد أذهب عقول الرجال .

سمعتها "كوستانثا" فقالت :

- لا داعى للقلق ياسيدتى ، أنا ذاهبة لمعرفة ما يريده المأمور ، وثقى تماماً فى أنه لو كان يستدعيني لخطأ ما فأنا بريئة منه براءة لا تشوبها شائبة .

لم تتكأ حتى لا يستدعى تأخيرها النداء ثانية عليها ، تناولت شمعداناً من الفضة عليه شمعة مضاءة وسارعت بالذهاب - مضطربة بفعل الخجل أكثر من الخوف - إلى حيث ينتظر المأمور .

طلب المأمور من صاحب الخان غلق باب الصالة ، وبعد امتثال الأخير للأمر نهض المأمور من مقعده وأخذ الشمعدان من يدها ، وعلى ضوئه تفحصها بعينيه من أعلاها إلى أدناها ، تنامى خجلها عندئذ وانعكس على وجهها فتوهج لونه وبدت أكثر جمالاً وخفراً لدرجة أن المأمور تخيل أنه ينظر إلى ملاك لا إلى كائن بشرى . قال بعد إنعامة النظر فيها :

- هذه دُرّة ثمينة لا تصلح أركان خان متواضع لحفظها وصيانتها ، لقد بدأت من الآن أثق فى رجاحة عقل ابنى "دون بيريكيتو" وقدرته على أعمال

الفكر. إنهم غمطوك حقك يافتاة حين لقبوك بـ "صاحبة السيادة" لأنك تستحقين ما هو أرفع وأجل ، لكن هذه الألقاب لا تتناغم أبداً مع لفظ خادمة بل دوقة .

- ليست خادمة ياسيدى ، إنها لا تفعل شيئاً سوى صيانة المفاتيح الفضية التى من الله على بعضها ويستخدمها النزلاء من عليه القوم .

- ورغم هذا مازلت متمسكاً برأى فى أنه من غير المناسب أو المعقول ارتباط هذه الفتاة بالخان ، أهى - على سبيل المصادفة - قريبتك ؟

- ليست قريبتى ولا خادمتى ، ولو رغب صاحب السعادة فى معرفة من تكون سيسمع منى - فى غيابها - ما يلبي رغبته ويثير عجبه فى الوقت ذاته .

- نعم أرغب ، أخرجى يا "كوستانثا" ، وإذا احتجت لأى شىء وفى أية ساعة اعتبرينى مثل والدك تماماً : إن جمالها وخبرها يجبران الجميع على التفانى فى خدمتها وتلبية رغباتها .

أدت - برزانة وتجلة - التحية للأمور القضائى ثم خرجت من الصالة فألفت سيدتها لدى الباب، منتظرة على أحر من الجمر لمعرفة ما يجرى بالداخل. أخبرتها بما حدث وببقاء سيدها مع الأمور ليقص عليه أشياء لا يود أن تسمعها منه. لم تهدأ الزوجة وظلت تصلى حتى شاهدت الأمور خارجاً وخلفه زوجها سليماً معافى ومحرراً من القيود. أما بالنسبة لما قصه صاحب الخان على الأمور خلال الفترة التى أمضيها سوياً فكان كالتالى :

- "منذ خمسة عشر عاماً وشهر وأربعة أيام - طبقاً لحساباتى - وصلت إلى خانى سيدة محترمة فى ملابس الحجاج. كانت راقدة على محفة فى هودج تم نصبه على عربة ، وإلى جوارها تجلس وصيفة وقهرمانتان ، بينما يحيط بالعربة أربعة من الخدم على ظهور الجياد ، هذا بالإضافة إلى بغلتين محملتين بسرير فاخر وأدوات مطبخ ؛ خلاصة القول إن الموكب كان يوحى بالثراء والعظمة وبأن سيدته من عليه القوم ، ومع أنها كانت تناهر الأربعين من العمر أو ما يزيد قليلاً إلا إنها بدت رائعة الجمال . جاءت مريضة ، شاحبة اللون ، ولذا فقد أمرت خدمها بسرعة إعداد

سريها ، امتثلوا للأمر وقاموا بنصبه فى الصالة التى نجلس فيها الآن .
سألونى عن أشهر طبيب فى المدينة فذكرت لهم اسم الدكتور "دى
لافوينتى" ^(٢٥) ؛ ذهبوا إليه وأحضره ، تحدثت معه على انفراد وأخبرته
بعلمها ، تمخض الحوار بينهما عن أمر الطبيب بنقلها إلى مكان هادئ لا
يصله ضجيج ، نقلوها إلى غرفة معزولة بالطابق العلوى تتوافر فيها وسائل
الراحة الموصى بها . لم يحدث أن دخل عليها واحد من الخدم إذ كانت
شئون خدمتها ورعايتها منوطة بالقهرمانتين والوصيفة .. سألت الخدم -
أنا وزوجتى - عن هوية السيدة واسمها ، من أين تأتى وإلى أين هى ذاهبة ،
إذا كانت متزوجة أو أرملة أو آنسة ، ولماذا ترتدى ملابس الحجيج . على
كل هذه الأسئلة لم يجيبوا بأكثر من أنها سيدة نبيلة غنية من إقليم قشتالة
القديمة ، وأنها أرملة وليس لها أولاد يرثونها ، وأنها تعاني منذ عدة أشهر
من مرض الاستسقاء ، ولذا فقد نذرت الحج إلى عذراء "جوادالو پى"
وارتدت الملابس الخاصة بتلك الشعييرة . أما بالنسبة لاسمها فإنه لم يرد
على ألسنتهم مطلقاً لأنهم كانوا يستعيزون عنه بلقب "السيدة الحاجة" .
هذا كل ما عرفناه عنها وقتئذٍ إلى أن أرسلت فى طلبنا - أنا وزوجتى -
بعد مضى ثلاثة أيام من ملازمتها للفراش ، ذهبنا لمعرفة ما تريد، أمرت
بغلق الباب، وأمام القهرمانتين والوصيفة والدموع تتلألأ فى مقلتيها قالت
لنا - على ما أذكر - هذه الكلمات : "يعلم الله أنه لا ذنب لى ولا جريرة
فى المحنة القاسية التى أواجهها وأود إبلاغ شخصيكما الكريمين بملاساتها .
أنا حامل وعلى وشك المخاض لأننى أحس ببوادر آلامه المبرحة . لا أحد
من الخدم الذين جاءوا معى يعرف شيئاً عن محنتى التى لم أستطع - فى
المقابل - إخفاءها عن هؤلاء الخادمت . لقد خرجت من موطنى لزيارة
عذراء "جوادالو پى" فراراً من العيون المتطفلة الخبيثة ، ويبدو أن العذراء
قبلت نذرى لأنها ألهمتنى النزول فى داركما ، إننى ألجأ إليكما لتساعدانى

(٢٥) تعرف الباحثون على شخصية هذا الطبيب De la Fuente ، وقالوا إنه كان يعمل أسناناً بجامعة طليطلة
فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر . (الترجم)

فى هذه الأزيمة بالسرية التى يقتضيها وضع شرفى أمانة فى عنقيكما ، وإذا كان ما أنتظره منكما من معروف لا يكافأ بمال ، فحسبكما منى أننى سأظل مدينة لكما بالشكر والعرفان طيلة أيام عمرى الباقية ، وكمقدمة للإعراب عن خالص امتنانى ، هذا كيس يحتوى على مائتى إسكودو من الذهب" .

قالت هذا ثم سحبت من تحت الوسادة كيساً من القטיפه الخضراء المشغولة بخيوط ذهبية ووضعتة بين يدي زوجتى ، ولأن الأخيرة تتسم بالبساطة ولا تعقل ما تفعل - أو ربما لشغلها بما تقوله الحاجة وتششت ذهنها - فقد أخذت الكيس دون الرد بكلمة شكر أو إيماء مهذبة . أذكر أننى قلت لها: إنه لا داعى لذلك لأننا لسنا ممن تحركهم المنفعة الشخصية ، بل الواجب والشفقة ، وإننا على استعداد للقيام بأى عمل فى سبيل خدمتها دون مقابل .

المهم أنها واصلت حديثها على النحو التالى : "من الضرورى انبحث أولاً عن مكان مناسب بطليطلة لحمل المولود إليه واختلاق المبررات لمن سينسلمه ويعنى به ، ثم البحث بعد ذلك عن مكان آخر فى أية قرية قريبة لنقله إليه . أما بالنسبة لما يجب عمله فيما بعد فأرجئه إلى حين عودتى من "جوادلو پى" لكى يكون لدى متسع من الوقت للتفكير واختيار الأفضل ، وأنا واثقة من أن الله سيمن على بالاختيار السليم بعد وفائى لنذرى ، لا حاجة لى بقبالة ولا أريدها : فحالات الوضع الشريفة الأخرى التى مررت بها من قبل تجعلنى متأكدة من القدرة على تسهيل مهمة خادماى الصعبة ، وستعفينى ، بالتالى ، من جلب شهادة عيان أخرى" .

توقفت الحاجة المحزونة عند هذا الحد ثم شرعت فى بكاء غزير مسترسل وعندئذ تدخلت زوجتى محاولة التسرية عنها ببعض كلمات العزاء . تركتهما وخرجت للبحث عن مكان يتلقى المولود فور ولادته . وبين منتصف الليل والواحدة صباحاً ، حين أطبق السكون على الخان واستسلم نزالؤه للنوم ، وضعت السيدة طفلة رائعة الجمال ، وهى الشابة التى رآها سيدى منذ قليل . لم تشك السيدة من المخاض ولم تصرخ الطفلة بعد ولادتها ، وكأن كليهما قد تعاهدتا على الصمت لإخفاء سرهما العجيب . لزمّت السيدة الفراش ستة أيام لم تنقطع خلالها زيارات الطبيب ، لكنها لم تفصح له أبداً عن سبب

مرضها ، ولم تتناول العقاقير التي يصفها . لقد كانت تريد فقط - طبقاً لما أخبرتنى به بعد تعافيتها - خداع الخدم بالزيارات المتكررة للطبيب . وفي اليوم الثامن نهضت من السرير على هيئتها السابقة ، أو - على الأصح - بنتوء مماثل لما أنزلته من بطنها .

غادرت الخان ميممة شطر "جوادالوپی" ورجعت بعد عشرين يوماً متظاهرة بتحسّن صحتها، ذلك لأنها بدأت تخفف شيئاً فشيئاً من حجم النتوء على بطنها وكأن العذراء قد استجابت وشفتها من مرض الاستسقاء .. حين عادت من الحج كانت الطفلة تتربى - على أنها ابنة أختي - في إحدى القرى التي تبعد فرسخين عن المدينة . سرّت الأم لا مثالي لأمرها وتسمية الطفلة عند تعميدها "كوسنانثا" . أعطتني عقداً ذهبياً منتزعاً منه ست حبات ، ثم قامت بقص رقاع أبيض (مطوياً بعناية طيّات حلزونية متتالية مثل المجدول على أصابع اليدين ، وعلى كل طيّة حرف من الحروف) إلى نصفين بحيث يتضمن نصفه الأول الطيّات العلوية ويشتمل الثاني على الطيّات السفلى ، وبهذا الشكل لا يمكن بأى حال - إلا إذا كان الأمر محض مصادفة أو مجرد تخمين - قراءة الكلمات المكوّنة من تلك الحروف إلا بعد دمج النصفين كما كانا قبل القص . أعطتني أحدهما - بالإضافة إلى العقد - قائلة : إن الشخص الذي سترسله لأخذ ابنتها خلال سنتين سيكون معه النصف الثاني من الرقاع والحبات الست المنزوعة من العقد . أمرتني أيضاً بتنشئة الطفلة كالقرويات ، وبأنه في حالة عدم استطاعتها - لأى سبب من الأسباب - إرسال ذلك الشخص بالعلامتين المذكورتين قبل السنتين ينبغي ألا أخبر الفتاة عندما تكبر بأى شىء عن ظروف وملابس ولادتها . تأسفت لى واعتذرت عن عدم البوح باسمها أو الإفصاح عن شخصيتها لأنها تفضل إرجاء هذا إلى الوقت المناسب . أعطتني، بالإضافة إلى مائتي الإسكودو السابقة ، أربعمائة أخرى ثم عانقت - والدموع تطفّر من عينيها - زوجتى ورحلت تاركة إيانا في حيرة من سرها الغامض وجمالها الرائع وعقلها الراجح وتحفظها المبالغ فيه وكرمها الزائد . بعد أن أمضت "كوسنانثا" سنتين بالقرية أحضرتها إلى الخان

وحرصت دائماً - تنفيذاً لرغبة والدتها - على ارتدائها لملابس الفلاحات وبنات الريف. لقد انتظرت حتى يومنا هذا خمسة عشر عاماً وشهراً وأربعة أيام وصول ذلك الشخص المجهول لاستلامها ، لكن طول المدة وأد الأمل فى الزيارة المرتقبة ، وإذا لم يظهر ذلك الشخص خلال هذا العام فسوف أتبنى الفتاة ، وأوصى لها بثروتى التى تقدر بما يزيد عن ستة آلاف دوكدوس ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

بقى أن أذكر لسعادتكم - لو أسعفتنى الكلمات - طرفاً من شمائلها وفضائلها. إنها - وقبل كل شيء - تقيّة ورعة : إذ لا يمر عليها شهر دون الاعتراف وتناول القران المقدس ، تقرأ وتكتب ، لا يدانيها مخلوق بطليطة فى شغل الإبرة أو العمل على المغزل ، صوتها فى إنشاد الترانيم الدينية - حين تنفرد بنفسها - ملائكى ، لا توجد فتاة أخرى تضارعها فى العفة والخفر ، أما عن الجمال فلست بحاجة إلى الإشادة به لأنكم عاينتموه . السيد "دون پدرو" - ابن سعادتكم - لم يتبادل معها كلمة واحدة ، صحيح أنه من وقت لآخر يعزف لها ، لكنها لا تستمع مطلقاً لموسيقاه . أناس لا حصر لهم من السادة وأصحاب المقامات الرفيعة نزلوا بخانى المتواضع ، وأراهن على أنهم جميعاً أخرجوا رحيلهم منه بضعة أيام ليتخيموا أعينهم من النظر إليها، ورغم هذا فأنا متأكد أنه لا يوجد من بينهم فرد واحد يستطيع التباهى بمخاطبتها بكلمة : سواء كانت على انفراد أو أمام الغير . هذه ياسيدى - دون تحريف أو زيغ - القصة الحقيقية لصاحبة السيادة : الخادمة التى لا تخدم .

أمسك صاحب الخان عن الكلام منتظراً تعقيب المأمور الذى اعترته الدهشة ، لكنه ما لبث أن خرج عن صمته بطلب العقد والرقاع . امتثل الرجل للأمر ، ولما رآهما المأمور تحقق من مصداقية ما سمعه ، فالعقد الثمين تنقصه فعلاً بعض الحبات ، ونصف الرقاع الذى دونت عليه الحروف التالية (حرفاً تحت آخر ، وبين كل حرف والتالى له فراغ) ETELSNVDDR لا يمكن قراءته إلا إذا أدمج فى النصف الآخر . أقر المأمور بذكاء هذه العلامة واستنتج ثراء السيدة الحاجة من نفاسة العقد الذى تركته مع صاحب الخان . وبدلاً من انتزاع الفتاة من الخان - كما كان ينتوى - وإدخالها أحد الأديرة فقد اكتفى بحمل الرقاع والتنبيه على صاحب الخان بضرورة الاتصال به

حين يأتي ذلك الشخص لاستلام الفتاة ، وألا يظهر للقادم العقد (الذى تركه لصاحب الخان) قبل حضوره شخصياً . قال هذا ثم غادر الخان وهو فى أشد العجب من أحداث القصة العجيبة ومن الجمال الفريد لصاحبها .

كادت تنتاب "توماس" لوثة خلال الوقت الذى أمضاه صاحب الخان مع الأمور القضائية ، ولما استدعى الأخير "كوستانتا" زلزلت روحه آلاف الأفكار ، لكنه تنفس الصعداء وأحس بسلام الدم فى عروقه حين ذهب الأمور مخلفاً "كوستانتا" وراءه . لم يجرؤ على سؤال صاحب الخان عما جرى بينه وبين الأمور خلال الجلسة المغلقة ، ولم يخبر صاحب الخان أحداً بما جرى سوى زوجته التى ثابت إلى رشدتها وشكرت الرب على مرور العاصفة بسلام .

فى حوالى الواحدة من ظهر اليوم التالى شهد الخان قدوم رجلين مسنّين مهيبين بصحبة أربعة رجال آخرين وخادمين ، كانوا جميعاً يمتطون الجياد فيما عدا الخادمين ، سأل خادم عما إذا كان هذا هو "خان الإشبيلي" ، ولما أجابوه بنعم دلفوا إلى الفناء . ترجّل الرجال الأربعة ثم عاونوا المسنّين على النزول مما يعنى أنهما سيذا الستة الآخرين . خرجت "كوستانتا" بأدبها المعتاد لرؤية النزلاء الجدد ، ولما رآها أحد الرجلين المسنّين قال لصاحبه :

- أعتقد أننا عثرنا - يا "دون خوان" - على ضالتنا المنشودة .

تعرف "توماس" - فور اقترابه لتدوين حاجة الدواب من الأعلاف - على خادمى أبيه ، كما شاهد والده ووالد "كاريانو" (وهما السيدان اللذان يعاملهما الآخرون باحترام) ، تملكته الدهشة وخيل إليه أنهما فى طريقهما إلى "مضارب الزهرة" للبحث عن ولديهما بعدما وصلتتهما أخبار تفيد برحيلهما إليها وليس إلى فلاندى كما ادعيا فى الخطاب الذى أرسله إلى المؤدب . لم يجرؤ على الظهور أمامهما بالملابس التى يرتديها ، ولذا فقد أخفى وجهه بين يديه ومر من أمامهما قاصداً "كوستانتا" التى وجدها - لحسن الحظ - بمفردها ، ومن شدة الخوف بألا يسعفه الوقت لإطلاعها على ما يريد قال لها فى عجلة ولسان متلعثم :

- "كوستانتا" ، والذى هو أحد الرجلين المسنّين اللذين وصلا الآن ، إنه الذى ينادونه بدون خوان دى أبيندانيو ، يمكنك سؤال الخادمين عن ابنه الوحيد

"توماس" ، وبوسعك أيضاً التحرى عن حقيقة ما أخبرتك به عن صفتى وعما يخصنى فى وصية أبى من ثروة. أستودعك الله لأننى لا أفكر فى العودة إلى الخان قبل رحيلهما.

لم تعلق "كوستانثا" بكلمة ، ولم ينتظر هو تعليقها لأنه سارع بالخروج مخفياً وجهه بالطريقة التى جاء بها واتجه إلى حيث يقيم صاحبه ليخبره بنزول أبويهما فى "خان الإشبيلي" ، لكنه لم يعثر عليه. رفع صاحب الخان صوته منادياً على "توماس" ليصرف الأعلاف للخيول ، ولما أعياه النداء وجد نفسه مضطراً للقيام بالمهمة. نادى رجل من المسنين على إحدى الجليقتين وسألها عن اسم الفتاة الجميلة التى رآها ، وهل هى نزيلة بالخان أم ابنة صاحبه ، فأجابته الجليقية بما يلى :

- الفتاة تدعى "كوستانثا" ، وهى ليست نزيلة بالخان ولا ابنة صاحبه ، ولا علم لى بمن تكون ، أعرف فقط أنها - عليها اللعنة - تتمتع بشيء أجهله زيادة عن فتيات الخان اللاتى لا ذنب لهن فى الظهور بوجوههن التى قدّرهن لهن الخالق. لا يكاد يدخل نزيل إلا ويبادر بالسؤال عن تلك الفتاة ويغمغم بمثل هذه العبارات : "إنها بديعة التكوين ، جمالها يسر الناظرين ، لتذهب المتجملات والمتصنعات إلى الجحيم ، لقد أسعدنى الحظ برؤيتها ، إنها للجمال أميرة متوجة" ، أما نحن ، فلا يوجد من يعيرنا التفاتاً حتى ولو لمجرد إبداء الامتعاض.

- مادام الحال هكذا - قال الرجل - فلا بد أن تلك الفتاة تسمح بغزل النزلاء وامتداد أيديهم إليها.

- ماذا تقول !؟ - ردت الجليقية - من هو المجنون الذى يقامر بوضع قدمه فى القيد الحديدى ! ما للفتاة ومثل هذه الأمور ! إن تفجر الينابيع بالذهب بدلاً من الماء لهو أقرب إلى التصديق من سماحها للعيون بمجرد التطلع فيها ، إنها خشنة مثل قنفذ ، ماكينة ورع وتقوى ، تمضى النهار بطوله متقلبة بين الصلوات وشغل الإبرة. سأكون فى غاية الرضا لو حفل سجل أعمالى يوم الفرع الأكبر بمثل صفحة واحدة من سجلها. يقول مخدومى إنها تغذت فى بطن أمها على الصمت ورضعته لبناً بعد ولادتها.

أثلجت كلمات الجليقية صدر الرجل المسنّ ، ودون انتظار منه لكى يقوم معاونوه بخلع المهمازين من قدميه نادى على صاحب الخان ثم انتحى به ركناً قصياً من الصالة وقال له :

- أتيتُ لأسترد أمانة ظلت فى حوزتك سنوات طويلة ، سأعطيك فى المقابل ألف إسكودو ذهبية ويضع حبّات من عقد ونصف رقاّع .
أخرج الحبّات ونصف الرقاّع . تعرف عليهما صاحب الخان ثم قال وأمارات السرور بألف الإسكودو بادية عليه :

- سيدى ، عاريتك التى تود استردادها موجودة فى الخان ، أما بالنسبة للعقد والنصف الثانى من الرقاّع فأرجو الانتظار قليلاً لحين عودتى بهما من خارج الدار .

وعلى الفور أرسل صاحب الخان إلى الأمور القضائى من يبلغه بحضور رجلين مسنين لأخذ "كوستانثا" .

كان الأمور قد فرغ من تناول غدائه ، ولرغبته العارمة فى الوقوف على خاتمة القصة العجيبة امتطى - على الفور - صهوة جواده واتجه إلى "خان الإشبيلي" حاملاً معه نصف الرقاّع . لم يكد يرى الرجلين حتى اتجه - فاتحاً ذراعيه - صوب أحدهما وقال له :

- ياإله العالمين ! فيم هذه الزيارة المباركة يا بن عمى وسيدى "دون خوان دى أبيندانيو" ؟

تلقاه الرجل بذراعيه المفتوحين أيضاً قائلاً له :

- لاشك أن سعادتى برؤيتك لا تُوصف . هيا ، يا بن العم ، عانق هذا الرجل العظيم وصديقى الحميم "دون ديجو دى كارياثو" .

- ومن ذا الذى يجهل "دون ديجو" ؟ طليطلة وأنا على رأسها فى خدمته .

بعد تبادل التحيات الحارة وعبارات الودّ ، دخلوا - ومعهم صاحب الخان - إحدى الصالات وأغلقوا الباب دونهم . كان صاحب الخان هو المتحدث أولاً :

- سعادة الأمور يعرف ما أتيت من أجله ياسيد "دون ديجو دى كارياثو" ، هاتِ الحبّات الناقصة من هذا العقد ، وليتفضل الأمور بإخراج

نصف الرقاع الذى معه لكى نُجرى التجربة التى أنتظرها منذ سنوات عديدة .

- لا داعى إذن - قال "دون ديجو" - لقصّ الحكاية ثانية على المأمور مادام قد عرفها منك .

- لقد أخبرنى بما لديه من المعلومات - ردّ المأمور - ، لكن الحكاية مازالت حافلة بالكثير مما أجهله . هذا هو نصف الرقاع .

قام على الفور ببسط النصف الأول من الرقاع الذى يحتوى على الحروف التالية: ETELSNVDDR كما بسط "دون ديجو" النصف الثانى فظهرت عليه هذه الحروف : SASAEALERAEA ، وبعد دمج النصفين تمكنا من قراءة الكلمات الآتية : ESTA ES LA SENAL VERDADERA (أى: هذه هى العلامة الحقيقية) . تعرفوا أيضاً على انتماء الحبات الست للعقد الخالى منها .

- بعد إجراء المعاينة والتحقق من سلامة العلامتين - قال المأمور - مازال ينقصنا التعرف على والدى هذه الفتاة الجميلة .

- أنا أبوها - قال "دون ديجو" - أما الأم فقد انتقلت إلى جوار ربها منذ عدة سنوات ، إنها امرأة نبيلة واسعة الثراء ، ولا أبالغ إن قلت إن الفارق بينها وبينى - رغم جاهى وثروتى - مثل الفارق بين الخادم ومخدومه . شهرتها كانت السبب فى عدم البوح باسمها ، لقد كانت زوجة لرجل عظيم ، ولما ترمكت آثرت العزلة والاحتجاب فانتقلت من المدينة إلى إحدى ضياعها الكبيرة حيث عاشت - خفيرة عفيفة - عيشة وادعة مطمئنة بين خدمها وحشمها وأتباعها .. كنت أمارس ذات يوم هواية الصيد ، وشاءت الأقدار أن أطارد صيداً داخل حدود ممتلكاتها ، ولما اقتربت من قصرها دفعتنى الفضول لزيارتها . وصلت إلى مقر سكنها ساعة القيلولة ، تركت جوادى مع خادمى على مقربة من القصر الذى دخلته دون اعتراض من أحد ، طفت بداخله ووجدت الخدم والحراس يغطون فى النوم ، تسلت على أطراف أصابعى إلى مخدعها فألفيتها نائمة على أريكة سوداء . بدت رائعة الجمال ، أيقظت الفرصة المواتية رغباتى الآثمة ، وأزكت أوارها الوحدة والسكون ،

ودون أن تخطر ببالي فكرة مراودتها عن نفسها بعبارات الغزل المنمقة أغلقت الباب ورائي ، اقتربت منها وأمسكتها بقوة فاستيقظت فرعة ، قلت لها : " لا داعي للصراخ طلباً للنجدة لأن صراخك سيكون بمثابة إعلان لخبر فضيحتك على الملأ : لقد وصلت إلى مخدعك ولم يشاهدني أحد ، وكأن حظي السعيد قد تجاوب مع رغباتي بإثقال جفون الخدم والحراس ، ولو افترضنا جدلاً تلبيتهم لصراخك وحضورهم لنجدتك فلن يتمكنوا من انتزاعك من بين ذراعيّ إلا وأنا جثة هامدة ، وموتي على هذا النحو لن يمنع الألسن من تدنيس سمعتك " . المهم أنني تمكنت منها في النهاية ، وهي - من هول الصدمة وشدة الاضطراب - لم توجه إلى كلمة واحدة ، تركتها ذهلة مشوشة وخرجت مثلما دخلت (على أطراف أصابعي) ثم انطلقت بجوادي إلى ضيعة صديق لي على بعد فرسخين . عرفت بعد ذلك أنها انتقلت للعيش في مكان آخر ، لم أشاهدها ، ولم أحاول رؤيتها ثانية ، وبعد مرور سنتين تقريباً على تلك الحادثة علمت بموتها .. منذ عشرين يوماً فقط وصلني خطاب من قهرمانها يطلب مني - في حرارة وتوسل - الحضور لأمر هام وعاجل يتعلق بشرفي وبمصير إنسان يهمني . ذهبت وأنا خالي الذهن تماماً فوجدت القهرمان على فراش الموت ، وحتى لا يطيل الكلام أخبرني بإيجاز أن سידته قصّت عليه قبيل وفاتها تفاصيل واقعة الاغتصاب ، وأنها حملت مني بعدها ، ولكي تدارى انتفاخ بطنها ادعت الإصابة بمرض الاستسقاء ، ولما اقترب موعد الولادة رحلت - بقصد الحج - إلى عذراء "جوادالو پی" ، وفي الطريق عرّجت على طليطلة لتلد في "خان الإشبيلي" طفلة اسمها "كوستانثا" . سلمني العلامتين اللازمتين لاستردادها ، وهما - كما رأيتم - حبات العقد ونصف الرقاع ، كما أعطاني ثلاثين ألف إسكودو كانت سیدته قد تركتهم مع العلامتين المذكورتين لزواج ابنتها . قال لي إنه تأخر كل هذه السنوات ولم يبلغني في حينه لأن الطمع أعماه وسوّلت له نفسه الاستيلاء على ذلك المبلغ الكبير ، لكن ضميره صحا من غفوته وهو على أبواب الآخرة ، ومن ثم فقد حاول إصلاح ما أفسده حبه للدنيا وطمعه في عرضها الزائل من أجل التكفير عن

ذنبه وقبول توبته. أخذت منه تلك الأشياء وعُدْتُ مُسرِعاً لبرغش لأخبر صديقي "دون خوان دى أبيندانيو" بما حدث ، وها نحن أولاء فى معيتكم وعلى أرض طليطلة الشامخة.

لم يكد "دون ديجو" يخلص من حكايته السابقة حتى سمعوا صوتاً عالياً ينادى من أمام باب الخان:

- أخبروا "توماس پدرو" المكلف بحساب الأعلاف ، أن زميله "الاستوريانو" مقبوض عليه وفى طريقه إلى السجن.

حين سمع المأمور صرخة الاستغاثة أمر بإحضار الشرطى والمقبوض عليه. أبلغ الموجودون الشرطى بالأمر فامتثل على الفور.

دخل "الاستوريانو" وهو مطوّق بالأغلال وأسنانه ملطخة بالدم والشرطى يقبض عليه بيدٍ من حديد، اعتراه الاضطراب حين شاهد والده ووالد "أبيندانيو" بصحبة المأمور وصاحب الخان ، وحتى لا يراه أحد منهما أخرج مندبلاً من جيبه ، وبدلاً من مسح الدم العالق بأسنانه - حسبما تظاهر - قام بتغطية وجهه .. سأل المأمور عما اقترفه الفتى ، وعن السبب فى سوقه هكذا مقيداً بالأغلال فأجاب الشرطى بما يلى : الفتى سقاء ويسمى "الاستوريانو" ، والصبية يطاردونه بهذا النداء أينما حلّ: "هات الذيل يا "استوريانو" ! يا "استوريانو" هات الذيل" ! ، ثم قص عليهم بإيجاز واقعة الذيل الشهيرة فضحكوا ملء أشفاقهم. أضاف الشرطى قائلاً : وفى أثناء عبوره اليوم جسر "القنطرة" قابله الصبية بصيحاتهم المعهودة فما كان منه إلا أنه ترجل عن حماره وجرى خلفهم بعصاه فأدرك واحداً منهم ليتركه ما بين الحياة والموت من شدة الضرب ، وعندما جرى الخفراء للقبض عليه قاومهم بعنفٍ ، ولهذا السبب طوّقه بالأغلال. أمره المأمور القضائى بكشف وجهه فلم يمتثل ، بادر الشرطى بانزع المندبيل وعندئذٍ رآه والده الذى تغيّر وجهه من هول الصدمة ، لكنه تماسك وقال له :

- "دون ديجو" ، ابنى ، ما هذه الهيئة التى أنت عليها ؟ وما هذه الثياب التى ترتديها ؟ ألم تنس بعد حياة التشرّد والصعلكة ؟

جثا الابن على ركبتيه محاولاً تقبيل قدمى والده ، لكن الأخير أنهضه وعانقه عناقاً طويلاً والدموع تطفّر من عينيه. سأل "دون خوان دى أبيندانيو" الفتى "دون

دييجو" عن ابنه "توماس" فقال له إنه الفتى الذى يقدم التبن والأعلاف فى الخان. استولت الدهشة على الحاضرين ، طلب المأمور من صاحب الخان إحضار توماس فقال له :

- لا أعتقد أننى سأجده الآن فى الخان ، ومع هذا سأفتش عنه .

خرج صاحب الخان للبحث عن "توماس" .

سأل "دون دييجو" "كارياثو" عن سر هذا التغيير فى هيئته ، وعن الدافع لاشتغاله سقاءً ولعمل ابنه بالخان. أبدى "كارياثو" حرجه فى الرد على تلك الأسئلة أمام الناس ورجاه الانتظار حتى يصبحا بمفرديهما .

كان "توماس پدرو" مختبئاً فى حجرته ، يتلصص منها - دون أن يراه أحد - على ما يفعله والده ووالد "كارياثو" فى الخان . انتابه الذهول من انضمام المأمور إليهما ومن الجلبة التى عمّت المكان. لم يعدم صاحب الخان شخصاً يدلّه على مكان توماس ، صعد إليه وحاول - مستخدماً القوة أكثر من الإقناع - إنزاله ، ورغم هذا فقد كان على وشك الفشل لولا تدخل المأمور الذى خرج إلى الفناء ونادى بصوتٍ جهورى :

- انزل يا "دون توماس دى أبيندانيو" ، انزل يا قريبي ولا تخف ، فليس من بيننا أسود ولا دبية .

نزل "توماس" مطأطئ الرأس ، وفى خشوع وأدب جمّ ركع أمام والده الذى أنهضه واحتضنه بفرحة غامرة تعادل فرحة الأب الذى استرد ابنه الوحيد بعد فقدان الأمل فيه .

كانت عربة المأمور قد وصلت فى تلك الأثناء لتقلّه إلى البيت لأن الجموع الغفيرة التى تجمعت هناك أصبحت تشكل عائقاً أمام عودته بالجواد. طلب من صاحب الخان استدعاء "كوستانتا" ، ولما حضرت أمسكها من يدها وقدمها لأبيها قائلاً :

- استلم يا "دون دييجو" هذه الجوهرة النفيسة وقدرها حق قدرها . وأنت ، أيتها الفتاة ، هيا قبلى يد والدك ، واشكرى الرب الذى أعلى منزلتك بعد ضيعة ، وأغناك بعد فقر ، وأكرمك بالحب والجاه بعد هوانٍ .

لم تكن "كوستانثا" تدرى شيئاً مما يدور حولها ، لم تجد ما تفعله - وهى مذهولة وترتجف بكاملها - سوى الجثو على ركبتيهما أمام والدها ، تناولت يده بعد ذلك وأخذت تقبلها بحنان وتغمرها بالدموع المنهمرة من عينيها الجميلتين .

فى أثناء ذلك كان المأمور يحاول إقناع ابن عمه (دون خوان) بذهابهم جميعاً معه إلى البيت ، وبالرغم من رفض "دون خوان" المذهب للدعوة إلا إن إلحاح المأمور جعله يرضخ فى النهاية ، وهكذا استقلوا جميعاً العربة . حين طلب المأمور من "كوستانثا" مرافقتهم ساخت قدماها وتعلقت بزوجة صاحب الخان وشرعنا فى فاصل طويل من البكاء المر الذى مزق نياط قلوب المشاهدين . قالت زوجة صاحب الخان :

- أيمكن ، يا حبة الفواد ، أن تذهبي وتتركيني ؟ كيف يطاوعك قلبك على ترك أمك التى ربتك وأحببتك حباً جماً ؟

بكت "كوستانثا" وتجاوبت معها الأخرى ببكاء لا يقل حرارة . وأمام هذا المشهد المؤثر لان قلب المأمور وسمح لزوجته صاحب الخان بالركوب معها وملازماتها طيلة الوقت الذى ستقضيه فى طليطلة . حملتهم العربة إلى بيت المأمور حيث استقبلتهم زوجته - وهى امرأة نبيلة - استقبالا حافلاً . تناولوا الطعام الفاخر الشهى الذى حفلت به مائدة العشاء ، وبعد الأكل حكى "كارياثو" لوالده قصة حب "توماس" لكوستانثا وكيف دفعه هيامه الشديد بها إلى العمل خادماً فى الخان ، وجعله يصر - دون معرفته بأصلها النبيل - على الابتناء بها مهما كانت العقبات . ألبست زوجة المأمور "كوستانثا" فستان ابنة لها تماثلها فى العمر والقوام ، وإذا كان جمالها فى ملابس الفلاحات ليس له نظير فقد تحولت فى الثوب الجديد الفاخر إلى حورية من السماء : كان تناغم الثوب معها يعطى الانطباع بأنها من عليّة القوم منذ اليوم الأول لولادتها ، وأنها ترتدى شيئاً معتاداً ومكرراً .

ولأن لمة السعداء لا تخلو عادة من واحد حزين ، فمن بين أفراد جماعتنا التى ترفرف عليها البهجة كان "دون پدرو" (ابن المأمور) مهموماً نكدًا لتصوره بأن التطورات الأخيرة ستحول بينه وبين الزواج من "كوستانثا" ، ومن جهتنا نقول إن شكوكه كانت فى محلها لأن المأمور و "دون ديجو دى كارياثو" (الأب) و "دون خوان دى أبيندانيو" اتفقوا فيما بينهم على زواج "توماس" من "كوستانثا" وفوزه

بالثلاثين ألف إسكودو التي تركتهم أمها لزوجها ، وعلى زواج السقاء "دون ديجو دي كاريثو" من ابنة المأمور ، وزواج "دون پدرو" من قريبته : ابنة "دون خوان دي أبيندانيو" .

وهكذا أصبحوا جميعاً هاننين مغتربين ، طارت أخبار الزيجات الجديدة وحكاية "كوستانثا" العجيبة إلى كافة أرجاء المدينة فتوافد الناس - زرافات وفرادى - لمشاهدة "صاحبة السيادة : الخادمة" فى ثيابها الفاخرة التي كانت تتألق فيها - كما ذكرنا - وتبدو مثل حورية من السماء ، ولرؤية فتى الأعلاف "توماس" فى ملابس السادة بعد تحوله إلى "دون توماس دي أبيندانيو" . لاحظ الفضوليون أيضاً أن "لوپى الأستوريانو" قد تحول إلى سيد كريم بعد تغييره لملابسه وتطبيقه للحمار ومهنة السقائين ، ورغم هذا فلم يكن يمشى بالشارع إلا ويعلو صوت من أحد الأركان - مع ما هو عليه من أبهة وفخامة - مطالباً إياه بذيل الحمار .

أمضوا شهراً كاملاً فى طليطلة ، وفى نهايته عاد إلى "برغش" كل من : "دون ديجو دي كاريثو" وزوجته وأبوه ، "دون توماس" وزوجته "كوستانثا" وأبوه ، بالإضافة إلى ابن المأمور الذى رحل معهم لرؤية العروس قريبته .

بقى الإشبيلي (صاحب الخان) مسروراً وغنياً بألف الإسكودو وبما قدمته "كوستانثا" لزوجته من جواهر .. استلهم شعراء نهر "التاجه" المذهب قصة "صاحبة السيادة : الخادمة" فى تأليف القصائد الرائعة التى تتغنى بجمال صاحبته وعفافها .. وإلى الآن مازالت تعيش "كوستانثا" هانئة قريرة العين فى كنف فتى أعلاف "خان الإشبيلي" ؛ أما "كاريثو" فلديه - بالتمام والكمال - ثلاثة أبناء يدرسون بشلمنقة ، وليس من بينهم واحد تستهويه حياة الصعلكة أو لديه أدنى فكرة عن مكان "مضارب الزهرة" ، ورغم هذا فما زالت ذكريات طليطلة تداهم والدهم فور وقوع عينيه على حمار سقاء وتجعله يرتعد فرحاً من احتمال قيام أحد الخبثاء بمفاجأته ذات يوم بهذه المطالبة الساخرة : "هات الذيل ، يا "أستوريانو" ! يا "أستوريانو" ، هات الذيل ! " .

الفـتـاتـان

على جواد رُبعة ، وفى ساعة الأصيل ، أوى مسافرٌ إلى أحد الخانات المنتشرة فى " كاستيلانكو" (١) الواقعة على بعد خمسة فراسخ من مدينة إشبيلية . لم يكن معه خادم ، ودون انتظار منه حتى يمسكوا له الركاب قفز من على السرج بخفة ومهارة .

حضر صاحب الخان ، وكان رجلاً دائب الحركة يقظاً ؛ لكن يقظته لم تسعفه للحاق بالقادم الذى جلس فور نزوله على مصطبة فى مدخل الخان وفك الأزرار العلوية لقميصه ثم تهدلت ذراعاه إلى جواره إيذاناً بالدخول فى إغماءة . أدركته زوجة صاحب الخان - وهى امرأة رقيقة القلب - بسكب الماء على وجهه فأذهبت عنه بواذر الدُّوار . بدت أمارات الضيق على القادم لرؤيتهم له على تلك الحالة ، ولذا فقد سارع بغلق أزرار القميص وطلب غرفة مستقلة يأوى إليها دون شريك .

قالت له زوجة صاحب الخان : إنه لا توجد سوى غرفة واحدة مزدوجة ، وإنها لا تستطيع منعها عمن يقدّم طالباً المبيت . أبدى القادم استعداده لدفع أجره السريرين سواء قدم آخر أو لم يقدم ، ثم مد يده للمرأة بإسكودو ذهبى مشروطاً عليها عدم تأجير السرير الخالى .

حدقت المرأة فى النفحة الكريمة وأخبرته أنها ستلبى رغبته ، ولن تعطى السرير لأى إنسان آخر حتى لو كان مطران إشبيلية ذاته . سألته إذا كان يريد تناول العشاء فأجابها بالنفى ، بيد أنه أوصى بحسن رعاية الجواد قصير القوائم . حمل بعد ذلك عدة أكياس كبيرة من الجلد ، وصعد إلى الغرفة التى أحكم غلق بابها بالمفتاح ، وإن كان لم يكتف بذلك لأنه - على ما يبدو - استعان بكرسيين أسندهما إلى الباب من الداخل .

لم يكد يغلق باب الحجرة وراءه حتى انعقد مجلس (مكون من صاحب الخان وزوجته والفتى المختص بالأعلاف وجارين آخرين تصادف وجودهما بالمكان .

(١) تبعد قرية " كاستيلانكو" (المسماة حالياً : كاستيلانكو دى لوس ريوس) بحوالى ٣٥ كم عن شمال إشبيلية ، وتقع على الطريق المتجه إلى " وادى القتال" المشهورة بطبيب نببذها . (المترجم)

دارت التعليقات فيه حول بهاء النزيل الجديد وحسن هيئته ورقته ، واتفق المجتمعون فى النهاية على أنهم لم يروا فى حياتهم مثل هذا الجمال .

اجتهد المجتمعون فى تقدير عمر الوافد الجديد ، وخلصوا إلى أنه يتراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة . ضربوا أخماساً فى أسداس للوقوف على سبب إغماءته ، ولما أعياهم البحث توقفوا عند حد الإعجاب بوسامته .

انفض السامر بعودة الجارين إلى بيتيهما وذهاب صاحب الخان لإطعام الجواد ودخول زوجته المطبخ لإعداد شئ تحسباً لقدم نزلاء آخرين يكونون فى حاجة لتناول العشاء . صدق حدس الزوجة لأنه لم يكد يمضى سوى وقت قصير حتى حضر آخر لا يقل بهاءً عن الأول وإن كان يصغره بقليل . لم تتمالك زوجة صاحب الخان نفسها وصاحت متعجبة :

- ما هذا ، بحق السماء ! هل تواعدت الملائكة على المبيت بخانى هذه الليلة ؟

- لمَ تقولين هذا ، ياسيدتى ؟ سأل الشاب .

- لا تشغل بالك - ردت عليه - ما قصدت سوى رجائك بعدم الترجل لأنه لا توجد عندى أسيرة خالية . كان لدى اثنان منها حجزهما نزيل ودفع أجرتهما حتى لا يفسد عليه أحد خلوته ، لا بد أنه يهوى العزلة ، ولست أدري لماذا ؛ لأن وسامته وجمال وجهه جديران بالتباهى أمام الخلق جميعاً لا بالتخفى والانزواء .

- أهو جميل إلى هذه الدرجة ؟

- جميل فقط ! إنه والجمال صنوان .

- أقبل أيها الغلام - نادى الشاب على البغال المرافق له - إننى جد راغب فى رؤية هذا النزيل حتى لو نمت على الأرض .

اقترب منه البغال وأمسك بالركاب ، هبط من على ظهر الدابة وسارع بطلب العشاء . وفى أثناء تناوله للطعام حضر المكلف بالأمن فى القرية ، وكما هى العادة فى القرى فقد جلس مع المسافرين ليتجاذب معه أطراف الحديث الذى تلقى فيه جوفه - على حساب النزيل الشاب - ثلاثة كئوس مترعة بالنبيذ ، علاوة على نصف حجل .

دفع رجل الأمن ثمن طعامه وشرابه أسئلة واستفسارات عن الأحوال في العاصمة وحروب فلاندرس وهزيمة الأتراك ، وعن الأحداث التي جرت لأمير " ترانسيلانو " - حفظه الله - .

كان النزير الشاب يتناول طعامه صامتاً ، غير عابئ باستفسارات رجل الأمن لعدم إثارتها لاهتمامه . انضم إليهما صاحب الخان - بعد فراغه من العناية بالجواد الربعة - وشارك في الحديث وفي ابتلاع جرعات من نبيذ خانة لا تقل عدداً عما صبه رجل الأمن في حلقه ، وبعد كل جرعة كان يرتد إلى الخلف ويميل رأسه على كتفه الأيمن ويثنى على النبيذ الذي يجعله يحلق فوق السحب رغم أنه لا يجروء على المكوث طويلاً هناك حتى لا ينقلب فرحه إلى مأثم . ومن موضوع لآخر ، إلى أن اتجهت دفعة الحديث في النهاية نحو الثناء على النزير والعجب من إثارة الاعتكاف وعدم تناوله العشاء حتى يكون بمنأى عن الاختلاط بالآخرين . كما تطرق الحديث إلى نوعية الأكياس الغالية التي يحملها والجواد الربعة الرائع وإلى ملابس السفر الزاهية التي يرتديها وإلى عدم إتيانه - رغم كل هذا - بغلام يخدمه . جددت تلك المبالغات الرغبة لدى الشاب في رؤية ذلك النزير ، ومن ثم فقد رجا صاحب الخان بالبحث عن وسيلة تمكنه من شغل السرير المحجوز لأنه سيعطيه في المقابل إسكودو صحيحاً . وبرغم إيقاظ العرض السخى لشهوة الطمع لدى صاحب الخان ، فإنه أعرب عن استحالة تحقيق هذا الطلب لأن باب حجرة النزير مغلق من الداخل وليس من الإنصاف إيقاظه من نومه ، لاسيما وأنه أجزل العطاء في أجرة السريرين . تدخل عندئذ رجل الأمن بقوله :

- سأنادي من على باب الخان بصوت عالٍ معلناً أنني ممثّل العدالة في القرية ولدى أوامر من العمدة بتسكين الشاب المرافق لي بهذا الخان ، وعندما أسمع ردّ صاحب الخان بعدم وجود أسرة خالية بل سرير واحد محجوز سأقول له : مادام الأمر كذلك فلا مفر من مصادرة ذلك السرير . ولكي يعفى صاحب الخان نفسه من المسؤولية يجب عليه أن يصيح عندئذ معلناً تبرمه وسخطه من انتزاع سرير مدفوع الأجرة ، وبهذا الشكل تستطيع سيادتكم الحصول على ما تريد .

بدأت فكرة رجل الأمن جيدة ، ومن ثم فقد تلقى من الشاب - فى مقابلها - أربعة الريالات المبتغاة .

خلاصة القول أن الفكرة نُفذت فوراً وفتح النزيل الأول باب الحجرة لممثل العدالة ليدلف منه النزيل الثانى وهو يبدى أسفه على الإزعاج الذى تسبب فيه . لم يرد عليه النزيل الأول بكلمة ، ولم يعطه فرصة لرؤية وجهه لأنه سارع بالاستلقاء على السرير واستدار تجاه الحائط متظاهراً بالنوم . لم يجد الثانى بداً من التمدد على السرير الشاغر وإرجاء الأمل فى تحقيق رغبته إلى الصباح .

كانت الليلة هى إحدى الليالى الطويلة والكسولة لشهر ديسمبر وفيها يتطلب البرد ووعثاء السفر الخلود إلى الراحة ، ولما كان النزيل الأول يفتقدها (أى الراحة) فقد شرع بعد منتصف الليل بقليل فى فاصل من التنهيدات المريعة التى تبدو كل واحدة منها وكأنها تنتزع روحه انتزاعاً . كانت حدة التأوهات والتنهيدات كافية لإيقاظ النزيل الثانى من سباته العميق . أخذ يتصنت إلى همهمات الشاكى المصحوبة بالحنين . ورغم ظلام الحجرة الدامس ، وتباعد السريرين فقد استطاعت أذناه تمييز ما يردده المتوجع بصوته الواهن وسماع ما يلى من بين أشياء أخرى :

- بالنكبتى وسوء حظى ! إلى أين تحملنى أيها القدر العاتى ؟ لا أكاد أتبين طريقى ، ولا أجد مخرجاً لتلك المتاهة التى دخلتها بقدمى . يا لسنوات عمرى القصار الخالية من التجارب ، العاجزة عن إسداء النصيح والمشورة ! ما نهاية تطوافى هكذا ، على غير هدى ؟ يا للشرف المزدرى ، والحب المنكر له ، وكرامة الأبوين والأهل المهذرة ! يا لشقوتى - مرة وألف مرة - لانسياقى وراء رغباتى وإطلاقى لها العنان ! تباً لك أيتها الكلمات الجوفاء التى سارعت بتصديقها ! لكن ، ممن أشكو ؟ ألسنت أنا التى ابتلعت الطعم ، وتناولت السكين بيدى هاتين لأهرق على الأرض سمعتى وشرف والدى الطاعنين فى السن ؟ ويحك ، يا "ماركو أنطونيو" ، تباً لك أيها المخادع ! كيف استطعت مزج كلماتك المعسولة بالسم الزعاف ! أين أنت أيها الجاحد ، وإلى أين ذهبت متخفياً ؟ أجبنى لأنى أحدثك ، انتظرنى لأنى أتبعك ، أعد إلى الحياة التى تتقلت من بين أصابعى ، ردّ إلى ما تدين لى به ، وهو ليس بالقليل ، اسعفى لأن هذا واجبك وحدك .

توقفت المهمة عند هذا الحد ثم أعقبتها الآهات والتنهيدات المبللة بالدموع. استنتج النزول الثانى من الكلمات السابقة - التى كان يسمعها صامتاً - أن شريكه فى الحجرة ليس رجلاً بل امرأة ، وحينئذ راودته الرغبة فى التعرف عليه ، كما حدثته نفسه - مراراً - بالانتقال إلى سرير من يظنها امرأة ، وكان على وشك أن يفعل لو لم يحس بنهوض الآخر (أو الأخرى) وفتح له باب الحجرة ثم ناداه على صاحب الخان طالباً منه إسراج الجواد استعداداً للرحيل. مضى بعض الوقت قبل وصول رد صاحب الخان موصياً النزول بالعودة إلى النوم لأن الليل مازال فى بداية منتصفه والظلام حالك ومن الخطورة المغامرة بارتياح الطريق فى تلك الساعة. رضخ النزول ، وأغلق الباب من جديد ثم تهاوى - دفعة واحدة - على السرير وهو يرسل بتنهيدة عميقة حادة .

بدا للمستمع أنه آن الأوان للخروج من صمته وذلك بعرض مساعدته على المشتكى لكى يجبره على الإفصاح عن سر شكواه ، ولذا قال له :

- ربما تعتقد - أيها الشاب الكريم - أنني بدون إحساس أو أن مهجتي قُدت من صخر وأن قلبي من البرونز الصلد لو لم تكن التنهيدات والكلمات الموجعة التى سمعتها قد أثرت فى وجعنتى أتألم لما أصابك من ضرر ، وأظن أن اللياقة تقتضى إطلاعى على سر عذابك إذا علمت أنني رثيت لحالك وعقدت العزم على افتدائك بحياتى .

- لو لم يكن ما أشكو منه عظيماً - رد المشتكى - لتنبهت إلى أنني لست وحدى بالغرفة ولعقدت عندئذ لسانى وكظمت زفراتى ، وبما أن ذاكرتى قد خانتنى فى وقت أنا فى أشد الحاجة فيه لصحواها فلا مفر إذن من تلبية طلبك لكى أفرج عن بعض الهموم المطبقة على صدرى ، وهذا بشرط أن تعدنى - بحق ما أبديته نحوى من شعور طيب - ألا تغادر سريرك إلى سريرى لدى سماعك لما أقول ، وألا تسألنى عن شىء لم أبح به ، لأنك لو خالفت هذا وفكرت فى مهاجمتى سأقتل نفسى بالسيف الموجود تحت وسادتى قبل نهوضك من على السرير .

ولما كان الآخر مشتاقاً لسماع حكايته فقد قال له : أعدك باتباع ما طلبت ، وعلى هذا أحلف بآلاف الأيمان المغظة .

- حسناً - قال النزير الأول - انطلاقاً من هذا الضمان سأقدم على فعل ما لم أفعله حتى الآن وذلك بسرد قصتي عليك ، وها هو موجزها : عليك أن تعرف أولاً أن محدثك الذى دخل هذا الخان فى ملابس الفتيان ليس ذكراً بل أنثى ، أو أن هذا ما كنته على الأقل منذ ثمانية أيام قبل وقوعى فى شرك الكلمات المعسولة المنمقة لشاب غادر كذاب. اسمى "تيودوسيا" ، وقررتى من الأماكن المعروفة بإقليم "أندلوثيا" ، واعدتني فى عدم البوح باسمها لأن أمر كتمانها يهمنى أكثر من حاجتك لمعرفة ، أبواى من النبلاء المياسير وإن كان يسرهما يزيد بقليل عن المتوسط ، لم ينجبا سوى ابن وابنة : الابن هو قرة أعينهما ومستودع آمالهما وشرفهما ، لكن الابنة على خلاف ذلك. اختاراً للابن الدراسة فى شلمنقة ، وارتأياً للابنة الاستقرار فى البيت حيث ربيانى على الفضيلة والشرف ومكارم الأخلاق ، كنت - عن اقتناع ودون كدر أو تملل - ممثلة لأوامرهما وتوجيهاتهما ، ولم أخالفهما قط ولو فى أمر يسير إلى أن شاء حظى العاثر - وإن شئت قل عبثى الزائد عن الحد - أن تقع على عينا ابن جار لنا (أبوه أغنى من والدى ، لكنه يماثله فى الأصل والشرف الرفيع) . حين رأيته أول مرة لم أحس بشيء زائد عن السعادة والرضا ، وإياك والاعتقاد بأن فى هذا شططاً منى لأن القرية بأكملها تتغنى بجمال هذا الشاب وأناقته ، ناهيك عن فطنته وتهذيبه . لكن ، ما جدوى الثناء على عدوى أو الإفاضة فى شرح ملابسنا نكبتى أو - بتعبير أدق - بوادر تهالكى وجنونى ؟ المهم أنه رآنى من نافذة بيته المواجهة لنافذتى مرات أخرى كثيرة بدا لى فيها أنه يرسل إلى - مع كل نظرة - بروحه مما جعلنى أشعر فى المرات التالية بإحساس مخالف للسرور والرضا اللذين شعرت بهما فى النظرة الأولى ، وقد ساقنى هذا الإحساس لتصديق إيماءاته وما قرأته من التعابير على وجهه . كانت النظرة هى الوسيطة لتبادل الكلمات ، والأحاديث هى الوسيلة للإعراب عن رغبته التى صادفت هوى فى نفسى . جاء بعد ذلك دور الوعود والأيمان المغلطة والدموع والزفرات وكل ما من شأنه إثبات إخلاص المحب ونزاهته . أما بالنسبة لى - أنا التعيسة الغرة التى لم تمر بمواقف مشابهة - فقد كانت كل

كلمة بمثابة طلقة مدفع تقوض ركناً من أركان قلعة شرفى ، وكل دمعة بمثابة نار تحترق فى لهيبها عفتى ، وكل زفرة بمثابة ريح عاتية تؤجج الليران لكى تلتهم وتقضى على الشرف الذى لم يمس من قبل . وفى النهاية ، وعلى وعد منه باتخاذى زوجة (مخالفاً بذلك رغبة والديه بتزويجه من أخرى) أهرقت صونى وعفافى . لا أعرف كيف استسلمت لرغبات "ماركو أنطونيو" (وهذا هو اسم مبدد سكينتى) فى غفلة من عيون أبوى ودون شاهد آخر سوى غلام له . لم يكد يقضى منى وطره حتى اختفى بعد يومين من القرية دون أن يهتدى أحد - ولا حتى أبواه - إلى المكان الذى ذهب إليه . أما عن حالى بعدها فلا سبيل إلى وصفه لأنه أكبر من الكلمات : تكفى الإشارة إلى أننى عمدت إلى نتف شعرى وكأنه المسئول عن سقطتى ، وإلى تشويه وجهى لأنى خلّته السبب فى مصيبتى ، ولعن حظى وذرف الدمع مدراراً . خلاصة القول أننى غرقت فى بحر من الدموع والتنهيدات الصادرة عن قلبى الموجوع ، ولبثت أشكو - صامتة - للسماء عذابى ، واستسلمت للأفكار وطففت معها بحثاً عن طوق نجاة إلى أن اهتديت أخيراً لفكرة ارتداء ملابس الرجال والهروب من البيت لمطاردة صنو Eneas المحتال وقرين Bireno القاسى ^(٢) . وهكذا ، دون إنعام كافٍ للنظر فيما عقدت عليه العزم ، ارتديت ملابس أخى الخاصة بالسفر وأسرجت جواد أبى الرّبعة ، وفى ليلة حالكة الظلام غادرت المنزل متجهة إلى شلمنقة لأنه قد تردد مؤخراً احتمال ذهاب "ماركو أنطونيو" إليها ، نسيت إخبارك أن "ماركو أنطونيو" هذا صديق لأخى وزميل دراسة له بجامعة شملنقة . وقبل خروجى من البيت حملت ما وصلت إليه يدى من نقود تحسباً للطوارئ فى رحلتى المفاجئة . ما يقلقنى ويشغل بالى هو إمكانية إدراك والدى لى لأن الجواد المميز والملابس التى ارتديها سيسهلان عليه

(٢) Bireno ، إحدى شخصيات "أورلاندو الغضوب" لـ Ariosto ، وكان متزوجاً من "أوليمبيا" ابنة كونت هولندا ، لكنه أحب ابنة ملك Frisia بعد ذلك وحاول التخلص من زوجته بتركها وحيدة على شاطئ مهجور .. أما Eneas فكان ملكاً على الطرواديين ، وهو إحدى الشخصيات المهمة فى ملحمة "الإنيادة" . (المترجم)

مهمة اقتفاء أثرى ، وعلى هذا فلو نجوت من مطاردة أبى لن أسلم من مقابلة أخى فى شلمنقة واحتمال تلقى الموت على يديه لأنه سيلبى داعى الشرف ، ولن يلتفت لأعدارى مهما كانت وجاهتها ، ومع هذا ، ورغم خطر الموت الذى يترصدنى فلن أتردد فى استكمال ما خرجت من أجله ، ألا وهو العثور على زوجى متحجر القلب ، وحين أجده لن يستطيع الفكاك من الدليل الدامغ الذى تركه فى حوزتى وهو عبارة عن أسورة من الماس مدونة عليها هذه الكلمات بحروف واضحة: "ماركو أنطونيو ، زوج تيودوسيا" . حين أعثر عليه سأسأله أولاً عن سر إعراضه عني بعد إقباله ثم أجبره على الوفاء بوعده ، وإذا لم يمثل سأقتله بسيفى ، وسأكون متسربة فى القضاء عليه مثلما كنت متسربة فى إيذاء نفسى لأن النبالة التى ورثتها عن أبوى ستعيننى على إجباره وستمدنى بالحماية اللازمة للانتقام لشرفى . هذه ، أيها الشاب ، هى تفاصيل قصتى المؤسفة الحزينة ، وأظنها بمثابة عذر كافٍ للتنهيدات الحارة والكلمات المعذبة التى أيقظتك من غفوتك . إذا لم تستطع تقديم الحل المناسب لنكبتى فكل ما أرجوه منك وأمله هو إسداء النصح لتفادى المخاطر التى تكتنف طريقى ، ومد يد العون حتى أتمكن من بلوغ هدفى .

لاذ المستمع لقصة "تيودوسيا" بالصمت لفترة طويلة فاعتقدت أنه نام ولم يستمع لشيء منها ، ولكى تتحقق من صدق ظنونها سألته :

- هل غلبك النعاس ؟ نومك ليس بغريب لأن النوائب التى يقصها قليل البخت على من لا يحس بمرارتها تؤدى فى النهاية إلى استغراقه فى النوم بدلاً من إيلامه .

- لست نائماً - رد الشاب - بل متأثراً وفى غاية الأسف ، ولا أدرى هل ستصدقينى لو قلت إنه آلمنى مثلما يؤلمك ، ولهذا السبب لن أتوقف عند حد إسداء النصح - كما تطلبين - بل سأبذل قصارى جهدى لإخراجك من هذه الورطة ، ومع أنك تحملين نفسك - من خلال سردك للحكاية - الذنب كله إلا إنى أعتقد أن سنوات عمرك الغض الخالية من التجارب هى التى أوقعتك فى حبال الرجال ولم تذب عنك مكرهم . اهثنى ، وحاولى

النوم - إن استطعت - ما بقى من الليل، وعندما يشرق الصباح سنعمل
سويًا على التوصل إلى حلٍّ مناسب لمشكلتك.

شكرته وحاولت السيطرة على قلقها لتمكنه من النوم ، لكنه لم يركن لحظة إلى الدعة
وظل يتقلب في السرير وهو يرسل الزفرات الحارة مما جعل "تيودوسيا" تسأله عما
يضايقه ، مبدية استعدادها لشد أزره مثلما تطوع لمساعدتها. وعندئذ أجابها الشاب قائلاً :
- بما أنك ، أيتها الفتاة ، سبب ما أنا فيه من همٍّ وضيق فلن يكون بمقدورك
التخفيف عني وإيرائي من علتى .

لم تفهم المقصود بهذا الكلام المبهم ، وحملتها الريبة إلى الظن بأن الإفصاح عن
شخصيتها وهذأة المكان وظلمته قد حركت في الشاب نازع الشر نحوها. ولشدة خوفها
من هذا الهاجس سارعت بارتداء ملابسها في صمت ثم أمسكت بسيفها وخنجرها ،
وجلست على السرير منتظرة طلوع النهار الذى أسفر عن وجهه بعد قليل من خلال
الضوء المتسلل عبر الفتحات الكثيرة التى تغص بها حجرات النزل والخانات. لم يكن
الشاب قد غمض له جفن أيضاً، ولم يكد يرى الحجرة مرصعة بنجيمات ضوء الصباح
حتى نهض من فراشه قائلاً :

- هلمى ، ياآنسة "تيودوسيا" ، فأنا على أهبة الاستعداد لمرافقتك ولن أدعك
حتى تعثرى على "ماركو أنطونيو" ويعترف أمامى بأنك زوجته الشرعية
لأنه لو لم يفعل سيكون مصير أحدنا الموت بسيف الآخر.

قال هذا وهو يفتح نوافذ الحجرة .

كانت "تيودوسيا" متعطشة للضوء حتى ترى وجه ذلك الشخص الذى ظل
يحادثها طوال الليل ، لكنها عندما رأتة تمننت من سويداء قلبها لو أن الظلمة كانت قد
امتدت إلى الأبد ، ذلك لأن محدثها لم يكن سوى أخوها الذى تخشى لقاءه ، ولذا فقد
غامت عيناها وشحب وجهها وغرقت فى بحر من الصمت والحيرة ، ورغم هذا فقد
استمدت من الخوف شجاعة ، ومن الخطر حصافة ، وأمسكت بطرف خنجرها ثم
ركعت أمام أخوها ، وبصوتٍ متلعثم مضطرب قالت له :

- تناول الخنجر ، ياأخى العزيز ، واقتلنى لكى تشفى غليلك ، فالجرم الشنيع
الذى اقترفته لا تسعه الرحمة. أعترف بذنبى ، ولا أريد اتخاذ الندم عذراً

لفعلتى ، كل ما أرجوه منك هو ألا تمتد العقوبة بالموت إلى تلويث الشرف ،
وأن يظل ما أخبرتك به مخبوءاً فى صدرك .

نظر إليها أخوها متحيراً ، وبالرغم من أن فعلتها الحمقاء كانت تستحقه على
الانتقام إلا إن الكلمات الحنونة المفعمة بالندم والتي عبرت بها عن ذنبها ألانت قلبه ،
قام عندئذ - فى هيئة مسالمة وتعابير محايدة على الوجه - بإنهاضها من على
الأرض ، وشرع فى مواساتها قدر استطاعته ، ومن بين ماجرى على لسانه قوله لها :
إنه لا يجد عقاباً مساوياً لتصرفها الأهوج ، ولذا فإنه سيرجئ أمر محاسبتها عليه ، وإن
الأمل مازال يراوده فى إيجاد مخرج لاسيما وأن القدر لم يوصد - إلى الآن - كافة
أبوابه ، وحرى به التمسك بأهداب جميع السبل الممكنة قبل الاستجابة لداعى الانتقام .

حين سمعت هذا من أخيها استردت بعض قواها الخائرة وزال عن وجهها الشحوب
وانتعشت فيها الآمال شبه الميته . أثر "دون رفائيل" (اسم أخيها الشاب) عدم
الخوض فيما مضى أو سماع المزيد من ملايسات الحادث ، ولم يطلب منها سوى
تغيير اسمها إلى "تيودورو" ^(٣) والاستعداد للرحيل معه إلى شلمنقة للبحث عن
"ماركو أنطونيو" وإن كان يتشكك فى إمكانية ذهابه إليها . دخل عليهما صاحب الخان
فطلبا منه تجهيز الغداء لأنهما سيرحلان فور تناولهما الطعام .

وبينما كان البغال منهمكاً فى إسراج الدابتين ، وقبل الفراغ من إعداد الطعام ،
دخل الخان شاب عليه غبار السفر ، لم يكد يراه "دون رفائيل" حتى عرفه ، كما
عرفته "تيودوسيا" أيضاً لكنها لم تجرؤ على مبارحة الغرفة حتى لا تقع عيناه عليها .
عانق "دون رفائيل" المسافر وسأله عما وراءه فأخبره بقدومه من ميناء "سانتا ماريا"
حيث تستعد أربع سفن للإقلاع إلى "نا پولى" ، ويمشاهدته لماركو أنطونيو أدورنو ،
ابن "دون ليوناردو أدورنو" ، على متن إحداها . سر "دون رفائيل" بالخبر لأنه تلقاه
قبل رحيله مباشرة واعتبره بمثابة الفأل الحسن على نجاح مساعيه . طلب "دون
رفائيل" من صديقه المسافر استبدال البغلة القادم عليها بالجواد الربعة لأنه ذاهب إلى
شلمنقة والطريق طويل عليه . ابتهج صاحبه بالمقايضة ووعد بتسليم الجواد سليماً

(٣) "تيودورو" Teodoro : اسم علم لمذكر . (المترجم)

إلى والده . تناولوا الغداء سوياً ، بينما تناولته "تيودوسيا" بمفردها فى الغرفة ، ولما حانت ساعة الرحيل أخذ الصديق طريق "كاثيا" الذى يمتلك فيه ضيعة كبيرة .

بعد رحيل الصديق وتجهيز الركائب ودفع الحساب وإلقاء تحية الوداع خرج "دون رفائيل" بصحبة أخته (التى كانت فى ملابس الرجال) من الخان وسط إعجاب الحاضرين بجمالهما ورشاقتهما .

أخبر "دون رفائيل" أخته - فور خروجهما - بما سمعه عن "ماركو أنطونيو" واقترح عليها الذهاب على جناح السرعة إلى برشلونة لأن السفن المتجهة من إسبانيا إلى إيطاليا - أو العكس - اعتادت الرسو ليوم أو لبضعة أيام فى مينائها ، ومن ثمّ فإنهما لو وصلاها قبل دخول السفن سيعثران على ضالتهما المنشودة . ردت عليه أخته قائلة إنها طوع أمره ، وإن عليه فعل ما يراه مناسباً .

أخبر "دون رفائيل" البغال المرافق له - وكان واحداً من أبهج وأظرف المشتغلين بهذا العمل - بعزمه على تغيير خط سير الرحلة من شلمنقة إلى برشلونة ، وطلب منه التحلى بالصبر ، وأبدي له استعداداه بتعويضه عن الوقت الزائد الذى سيمضيه معه . ولما كان الغلام قد خبر "دون رفائيل" وعرف ما يتمتع به من أريحية وكرم قلم يتردد فى الموافقة وقال له : إنه متمسك بخدمته حتى لو ذهب إلى نهاية العالم .. انحنى "دون رفائيل" على أخته وسألها عما تحمله من أموال فقالت له : إنها لم تجد وقتاً لعدّها لأنها فى لهفتها لمغادرة البيت أدخلت يدها سبع مرات أو ثمان فى خزانة والدها وأخرجتها مملوءة فى كل مرة . قام "دون رفائيل" بإجراء عملية حسابية فى رأسه وقدّر على أساسها المال الموجود مع أخته بحوالى خمسمائة إسكودو ، ثم أضافها إلى مائتى الإسكودو الموجودة معه وإلى قيمة السلسلة الذهبية التى يحملها وقال لنفسه : إن هذا المبلغ يكفى وزيادة لتأمين الرحلة إلى برشلونة ولتغطية نفقات البحث عن "ماركو أنطونيو" مهما طالّت مدّته .

مضوا فى طريقهم لا يلوون على شىء حتى وصلوا - بعد عدة أيام من السير المتواصل - إلى منطقة "إجوالادا" التى تبعد عن برشلونة بحوالى عشرة فراسخ . وحين عرفوا - فى الطريق - أن سفير إسبانيا المعين فى روما مازال ينتظر فى برشلونة مرور السفن التى ستقله إلى مقر عمله ازداد حماسهم وتفاؤلهم . تابعوا السير

مؤتسرين بتلك الغبطة ، وعند اجتيازهم لغابة صغيرة على جانبي الطريق شاهدوا رجلاً يخرج منها راكضاً وهو يثقلت وراه من شدة الخوف. استوقفه "دون رفائيل" وسأله :

- ماذا يخيفك ، أيها الرجل الطيب ، وما الداعي لركضك على هذا النحو ؟
- ألا تريدني أن أجرى خائفاً ، وقد نجوت بأعجوبة من قبضة عصابة من قُطَاع الطرق ؟
- يا للهول - قال البغال - سترك يارب ! قُطَاع طُرُقٍ في هذه الساعة من النهار ! وايم الله إنهم سيجردوننا من كل ما نملك.
- هُون عليك يا أخى - قال الخارج من الغابة - لقد انصرف اللصوص وخلفوا وراهم أكثر من ثلاثين مسافراً شبه عرايا ومقيدين في جذوع الأشجار. تركوا رجلاً واحداً محرراً من القيد ليتولى فك الباقيين بعد رحيلهم وعندما تصله إشارتهم من فوق جبل صغير على مقربة من هذا المكان.
- ما دام الأمر كذلك - قال "كالبيتي" البغال - يمكننا المرور آمنين لأن قُطَاع الطريق لا يعودون إلى المكان الذي هاجموا إلا بعد عدة أيام ، أنا متأكد من هذه الحقيقة لوقوعى في أيديهم مرتين من قبل ، ولدى - بالتالى - خبرة لا تنكر بأحوالهم وعاداتهم.
- صدقت يا هذا - ردَّ الرجل.

اطمأن "دون رفائيل" وقرر استئناف السير فشهدوا بعد قليل ما يزيد عن الأربعين مسافراً مقيدين في جذوع الأشجار ، ورجلاً طليقاً يحاول فك إسارهم. كان المشهد مؤثراً للغاية: البعض عرايا ولدتهم أمهاتهم ، والبعض الآخر يسترجسده بالملابس المهلهلة التى كانت على اللصوص ، هؤلاء ييكون لسرقة أموالهم ، وأولئك لا يتمالكون أنفسهم من الضحك على المرتدين للملابس الممزقة ، هذا يعدد بالتفصيل ما سرق منه، وذلك يولول على الصندوق العامر بالخيرات الذى أحضره من روما وتعب فى حمله. خلاصة القول أن المكان كان أشبه بمأتم يتعالى فيه نواح وأنين المنهوبين البؤساء. أبدى الأخ وأخته أسفهما العميق على ما جرى وحمدا الرب على نجاتهما من الخطر الذى كان وشيكاً ، لكن المنظر الذى أثر فيهما بشدة كان لفتى جميل الخلق لا

يتعدى السنة عشر ربيعاً ولا يستر جسده سوى قميص وسروال باليين من الكتان الخشن. ترحل "تيودورو" (٤) لفك وثاقه فشكره الشاب الوسيم بكلمات رفيقة. طلب "تيودورو" من "كالبيتي" البغال - بلهجة أمرة - أن يعيره عباءته إلى أن يقوم بشراء أخرى من أول محلة تصادفهما على الطريق. أعطاهما "كالبيتي" له فقام على الفور بتغطية الشاب ثم سأله عن موطنه والمكان القادم منه والذاهب إليه.

أجابه الشاب قائلاً: إنه من إقليم "أندلوثيا"، ومن بلدة كذا (وهي تبعد فرسخين فقط عن قرية "دون رفائيل" وأخته)، وأنه قادم من إشبيلية، وكان متجهاً إلى إيطاليا لتجربة حظّه في الجندية وحمل السلاح مثلما يفعل غيره من الشبان الإسبان، لكن طالعه النحس جعله يصطدم بقطاع الطرق الذين سلبوه مبلعاً كبيراً من المال، فضلاً عن ملابس فاخرة لا يقل ثمنها عن ثلاثمائة إسكودو، وبرغم كل هذا فإنه مصرّ على مواصلة الرحلة: إذ لا يليق بذوى المعدن الأصيل تجمد حرارة حماسهم عند أول نازلة يتعرضون لها.

التقت رغبة الأخوين في بذل ما في وسعيهما لمساعدة الشاب، وقد حركت فيهما هذه الرغبة كلماته الرصينة وقرب موطنه من موطنيهما، هذا بالإضافة إلى خطاب التوصية الذي يحمله ويتمثل في وسامته وجمال خلقته. وبعد قيامهما بتوزيع بعض المال على أشد المنهوبين حاجة - ومن بينهم ما يزيد عن ثمانية رهبان - أركبا الشاب بغلة "كالبيتي"، ودون إبطاء استلم أربعتهم الطريق ليصلوا - خلال فترة وجيزة - إلى "إجوالادا" التي تلقوا فيها خبر دخول السفن ميناء برشلونة اليوم السابق وموعد مغادرتها له بعد يومين آخرين، هذا إذالم تجبرها فوضى الأمن على الساحل إلى التعجيل بالرحيل.

جعلتهم هذه الأخبار يبكرون قبل بزوغ شمس اليوم التالي، لاسيما وأنهم لم يقضوا تلك الليلة بكاملها في النوم بل في أمور أخرى سنقص عليكم طرفاً منها، في أثناء تناول العشاء كان "تيودورو" جالساً على مقربة من الشاب، ولما أنعم فيه النظر واكتشف وجود ثقبين في أذنيه ولاحظ انكسار نظراته من شدة الخجل اعتراه الشك في

(٤) نوه ثانية إلى أن اسم "تيودورو" علم لمذكر، وأن "دون رفائيل" هو الذي اختار لأخته هذا الاسم وأشار عليها بمواصلة التكرار في زى الرجال. (المترجم)

نوعه وتمنى إنهاء العشاء بسرعة لكي يفرد به ويتعرف على حقيقته. ومن جهة أخرى ، ففى أثناء العشاء أيضاً سأل "دون رفائيل" الشاب عن أبيه بعدما أخبره بمعرفته للرجال المهمين المنتمين لمنطقتهم. ولما ردّ الشاب قائلاً : إنه ابن "دون إنريكي كارديناس" نبهه "دون رفائيل" إلى أن "دون إنريكي" ليس له أبناء وإلى أنه إذا كان قد ذكر هذا الاسم بقصد التهرب من الكشف عن هوية أبيه فإنه لن يكرر السؤال لعدم أهمية الإجابة بالنسبة له .

- صدقت - ردّ الشاب - ، "دون إنريكي كارديناس" ليس لديه أبناء ، لكن أخاه "دون سانتشو" لديه العديد منهم .

- ولا هذا أيضاً لديه أبناء ذكور - قال "دون رفائيل" - ، بل ابنة وحيدة يُشاع عنها أنها أجمل فتاة فى إقليم "أندلوثيا" كله ، وإن كنت لا أستطيع الجزم بصدق ما يقولون لأننى لم أرها ولو مرة رغم زيارتى المتكررة لبيتهم .

- فى هذا أيضاً معك حق - رد الشاب - ، بالفعل "دون سانتشو" ليس لديه سوى ابنة وحيدة ، لكنها ليست رائعة الحسن كما يدعون ، ومادمت قد ضيّقت على الخناق فلا مفر من الاعتراف بأن أبى هو قهرمان "دون سانتشو" ويعمل لديه منذ سنوات طويلة تسبق مولدى ، وإذا كنت قد ادعيت فى البداية نسبتي إلى "دون إنريكي" فمن قبيل الفخر والبحث عن مندوحة لرفع قدرى فى عيونكما ، وقد حدثت أبى بشأن السفر إلى إيطاليا والانخراط فى سلك الجندية لعلّى أحظى بالمجد الذى ناله غيرى من أصحاب الأصول المتواضعة ، لكنه لم يوافق واختلفنا ، فما كان منى إلا أن غاقلته واستوليت على كمية كبيرة من النقود وهربت من أجل تحقيق حلمى فى الشهرة والمجد .

تأكدت شكوك "تيودورو" بعد سماعه للإجابات الملفقة للشاب وملاحظته للطريقة التى كان يتحدث بها .

انتهى العشاء ، ورفعت المائدة ، وبينما كان "دون رفائيل" يغير ملابسه استعداداً للنوم أفضت له أخته بشكوكها واستأذنته فى الانفراد بالشاب للتحقق من أمره . وفى

الشُّرفة الواسعة المُطلّة على الشارع دار بينهما هذا الحوار الذى استهله "تيودورو" بقوله :

- بالرغم من المدة القصيرة التى مضت على تعارفنا ياسيد "فرانثيسكو" (وهذا هو الاسم الذى ادعاه الشاب لنفسه) إلا إن شعورى الطيب نحوك وما أسديته لك من معروف يمليان عليك الاستجابة لما أطلبه منك. لا تظن أن امتناعك عن تلبية رغبتى بالبوح لى بما أود معرفته سيجعلنى أغضب منك أو أتخلى عنك. قد لا تصدق بأننى - رغم سنوات عمرى القصار - أتمتع بخبرة عريضة فى أمور الحياة وشئونها المختلفة ، ومن منطلق هذه الخبرة أكاد أجزم بأنك - رغم الملابس التى ترتديها - لست رجلاً بل امرأة وطيبة المنبت كما يشهد بذلك جمالك ، وأن ظروفاً قهرية هى التى أجبرتكَ على اتخاذ ملابس الرجال ، فمن غير المعقول لجوء المرء إلي مثل هذا التصرف فى ظل الظروف العادية. لو كان ظنى فى محله لا تخف عني الحقيقة ، وأعدك بشرفى على الاستمرار فى مساعدتك وبذل ما فى وسعى لخدمتك. لن تستطيع إنكار طبيعتك الأنثوية التى تعلن عن نفسها فى الأذنين المثقوبتين وأهملت سدّهما ولو بقطعة من الشمع ، ولذا فإن أمر التعرف على السر الذى لم تفلح فى إخفائه لا يفوت على محبٍ للاستطلاع مثلى.

كان الشاب يُصغى باهتمام لما يقوله "تيودورو" ، ولما أيقن من إمساكه عن الحديث تناول يديه وقربهما من فمه ثم راح يقبلهما - عنوة - ويمطرها بوابل من الدموع المنهمرة من عينيه الجميلتين ، تحركت مشاعر "تيودورو" وأبى ألا يشاطره البكاء (ومشاركة الغير فى مشاعره عادة متأصلة فى نساء البيوتات الكريمة) ، سحب "تيودورو" يديه بصعوبة من على فم الشاب وانتظر إجابته. أطلق الشاب آهة عميقة متبوعة بتنهيديات لا حصر لها ثم أردف قائلاً :

- لا أستطيع إنكار ما ذهبتم إليه ، أنا بالفعل امرأة ، بل أتعس امرأة فى هذا الوجود ، ولا أملك حيال ما أحظتمونى به من رعاية واهتمام إلا الاستجابة لطلبكم والبوح لكم بمكنون صدرى ، هذا إذا لم يكن يشق عليكم سماع شكوى الغير.

- المحن والنوازل ليست بغريبة على ، ومن ثمّ لن يضايقنى سماع ما لديك منها.

حاول "تيودورو" بعد ذلك مواساتها بكلمات مناسبة فاستردت بعضاً من سكينتها وشرعت فى سرد حكايتها على النحو التالى :

- أخبرتكم بحقيقة موطنى ، أما "دون إنريكي" فهو ليس أبى بل عمى ، "دون سانتشو" هو أبى الحقيقى ، وعلى هذا فأنا الابنة التى بالغ أخوكم فى وصف جمالها. اسمى "ليوكاديا" ، أما بالنسبة للسبب فى اتخاذى لملاص الرجال فيتلخص فيما يلى: على بعد فرسخين من قريتى تقع أخرى مشهورة فى إقليم "أندلوثيا" كله بنبالة قاطنيها وشدة غناهم . فى تلك القرية يعيش رجل من عليّة القوم تمتد أصوله النobile والعريقة إلى بنى "أدورنوس دى خينوبا" ، ولهذا الرجل ابن تسبقه شهرته فى الفضائل كما تسبقنى فى الجمال يدعى "ماركو أنطونيو" . ولما كان الأخير مولعاً بالصيد مثل والدى فقد اعتاد زيارة بيتنا زيارات طويلة تمتد إلى خمسة أيام أو ستة ، كان يقضى نهارها - وأحياناً شطراً من الليل - فى ممارسة الصيد مع أبى بالنواحي القريبة من القرية . ولكثرة تردده علينا بدأت أشعر بميل نحوه - ولا أدرى إن كان هذا استجابة لأمر القدر أو لداعى الحب أو الطيش - ، ودفعتنى وسامته وحنكته وعراقة أصله وثروة أبيه الطائلة إلى أن أتمناه زوجاً . ومن هذا المنطلق بدأت أهتم به فأدرك عندئذ ما أرمى إليه واستطاع التسلل إلى أعماق روحى والاستيلاء على عواطفى . لا أدرى لماذا أتوقف عند هذه التفاصيل التافهة ولا أتجه مباشرة إلى لبّ الموضوع قائلة إنه أعطانى كافة الوعود وحلف لى بكل الأيمان على اتخاذى زوجة له . ولما أعربت له عن عدم ثقتى بالوعود والأيمان التى تذهب - عادة - أدراج الرياح كتب لى بخط يده وثيقة يعترف فيها بالرياط المقدس بيننا ثم أمهرها بتوقيعه . بعد استلامى للوثيقة اتفق معى على تسلفه لسور حديقة بيتنا فى إحدى الليالى والتسلل إلى حجرتى فى جنح الظلام لقطف الثمرة الموقوفة عليه وحده . وأخيراً جاءت الليلة الموعودة التى انتظرتها بشغف ...

كان "تيودورو" يُصغى صامتاً لاعتراف "ليوكاديا" ، وكانت كل كلمة تخرج من فيها تهزه بعنف ، لاسيما ما ذكرته عن "ماركو أنطونيو" ، لكنها عندما نطقت بالجملة الأخيرة التى تقول : "وأخيراً جاءت الليلة الموعودة التى انتظرتها بشغف..." كاد أن يفقد صوابه وقاطعها بوابل من الأسئلة :

- ولما جاءت الليلة الموعودة ، ماذا حدث ؟ هل أوفى بوعده ؟ هل قضى وطره ؟ هل أكد بالعمل ماخطته يداه فى الوثيقة ؟ هل أحس بالسعادة لنيله ما تدعين أنه يخصه ؟ هل عرف أبواك ؟ والام انتهت إليه الأمور ؟
- انتهت إلى ما ترانى فيه من حال : لم أذق عسيلته ، ولم يذق عسيلتى لسبب بسيط وهو أنه لم يحضر الحفل المرتقب .

تهددت "تيودوسيا" بعمق واستردت قواها التى تسربت منها شيئاً فشيئاً على وهج نيران الغيرة العمياء ، ورغم هذا لم تمنعها بوائق الغيرة من مواصلة استماعها لبقية الاعتراف المفزع :

- ليت الأمر قد اقتصر على خلفه للموعد المضروب ، بل إنه لاذ بالفرار بعد ثمانية أيام برفقة فتاة رائعة الحسن من قريته تدعى "تيودوسيا" ، ولما كان أبواها من النبلاء المعروفين فقد وصل خبر هروبهما معاً إلى قريتي ، وبالتالي إلى مسامعى ، وعندئذ أحسست برمح الغيرة الصلب يخترق حشاشة قلبى ، وبانهيار دعائم شرفى وفقدان الأمل فى الوثيقة التى كانت معى . بالحظى العاثر ! لقد أخذت "تيودوسيا" تتراءى لى فى أحلام اليقظة ويات يظهرها خيالى فى صورة أبهى من الشمس . رجعت إلى الوثيقة أقرأ بنودها وتأكدت من سلامتها ومصادقية اعترافها بحقى المشروع والمقدس ، لكننى حينما تذكرت الصحبة الجميلة التى يأتنس بها "ماركو أنطونيو" أدركت أن تلك البنود مجرد حبر على ورق . لطمت وجهى وفتفت شعورى ولعنت حظى ، ويات يحزننى عدم استطاعتى فعل هذا كله على مدار الساعة لوجود أبوى فى الدار . ولكى يتاح لى التعبير عن شكواى دونما عائق - أو ، على الأرجح ، تعذيب نفسى حتى الموت - فكرت فى الهروب من البيت . بدا لى أن القدر يذل أمامى العقبات لكى يضع فكرتى السيئة موضع التنفيذ ، ذلك لأنه أمدنى بالشجاعة للاستيلاء على ملابس غلام

لأبى ولسرقة مبلغ كبير من خزانة والدى ، وفى إحدى الليالى خرجت من البيت متشحة بالظلام ومشيت على قدمى حتى وصلت إلى "أشونة" (Osuna) التى ركبت منها عربة أوصلتنى بعد يومين إلى إشبيلية ، وفى تلك الحاضرة الكبيرة أحسست بالأمان لعدم قدرة أهلى - مهما اجتهدوا فى البحث - على اقتفاء أثرى. اشتريت بغلة وملابس جديدة من إشبيلية ثم غادرتها فى صحبة رهط من المسافرين يغز السير إلى برشلونة للحاق بالسفن المتجهة إلى إيطاليا ، وفى الطريق هجم علينا قطاع الطرق وسلبونى ما أملك بما فى ذلك الوثيقة التى فكرت فى الذهاب بها إلى إيطاليا للبحث عن "ماركو أنطونيو" وإجباره على تنفيذ الوارد فى بنودها. ورغم أننى أعى جيداً أن الذى يتنصل بسهولة من الكلمات المدونة لن يقيم وزناً للالتزام المحفور فى أعماق الروح مادام ينعم بصحبة "تيودوسيا" التى ليس لها مثيل ، فمازلت مصرة على مواجهتها وتبديد سكينتهما. لن أدع عدوتى تستمتع هائلة البال بما يخصنى بل سأنقص عليها حياتها ، ولن أتردد فى إزهاق روحها إذا سنحت الفرصة.

- وماذنب "تيودوسيا" وقد تكون مخدوعة مثلك ؟

- كيف يتسنى له خداعها وهى فى معيته ؟ وإذا كانا معاً - كما يشتهيان - فأين موطن الخداع ؟ لا ريب أنهما مسروران باجتماعهما سوياً حتى لو كانا فى أقاصى الصحراء الليبية متوهجة الحرارة أو فى مجاهل القارة القطبية المتجمدة. إنها تنعم به دون شك ، ولذا ستدفع ثمن ما عانيته وما أعانيه لحين عثورى عليهما.

- ربما تكون سورة الغضب هى التى تدفعك للتجنى عليها، فأنا أعرف جيداً عدوتك ، وأعرف ما تتمتع به من عفة وحسن تربية ، ولا أظنها ترتكب حماقة الهروب من بيت والديها إرضاء لماركو أنطونيو ، ولو افترضنا جدلاً ارتكابها لهذه الحماقة فأغلب الظن أنها لم تكن تدرى عنك شيئاً ولا عن صلتك به ، وانطلاقاً من هذه الحقيقة فهى لم تقصد الإضرار بك ، ومادامت صفة العمدية قد انتفت عن الفعل فلا مبرر لداعى الانتقام.

- لا داعى للحديث عن العفة - قالت ليوكاديا - لأننى أبزّ فيها ما عداى ، ومع هذا فعلت ما قصصته عليك ، ولا داعى للتشكيك فى أمر هروبها معه لأننى متأكدة منه ، أما بالنسبة لعدم إلحاقها الضرر بى فيكفيك النظر إلى حالى. إن آلام الغيرة التى أكتوى بنارها تعادل الآلام الناجمة عن استقرار السيف فى الأحشاء ، وأظن أن انتزاع الحسام وتحطيمه هو أقل ما يمكن للمتألم عمله ، فمن الفطنة الابتعاد عن الأشياء التى تضرنا ، ومن البديهي أن نبغض ما نتأذى منه أو ما يحول بيننا وبين السعادة .

- أرى أن نصائحى المفيدة لن تُجدى معك فى الوقت الراهن لأن الإحساس بالعذاب قد سلب عقلك وطغى على تفكيرك . ومن جهتى ، فلن أترجع عما سبق وأعلنته بشأن مساعدتى لك فيما أراه صواباً ، كما أعدك بأن أبقى سيف فعل الشئ نفسه نظراً لنبالته وحسن تربيته . إننا متجهان إلى إيطاليا ، وإذا اخترت صحبتنا فقد خبرت طريقنا فى التعامل . ما أرجوه منك حالياً هو التصريح لى بسر ما سمعته على أختى لكى يعاملك بما تستحقين كأمراة نبيلة . ومن جهة أخرى ، أعتقد أنه من الأفضل لك حالياً الاستمرار فى ارتداء ملابس الرجال ، وفور عثورى على محل لبيع الملابس فى هذه القرية سأبتاع لك منه أجودها وأنسبها . أما بالنسبة لما يدور فى مخيلتك وتنوين عمله فأنصحك بإسلام أمرك فيه ليد الزمن لأنها وحدها الخبرة بحل العضلات وتقديم العلاج الناجع للحالات الميوس منها .

شكرت "ليوكاديا" من تظنها "تيودورو" على حسن صنيعه ، وصرحت له بإخبار أخيه بما يشاء ، كما توسلت إليه للوقوف بجانبها وعدم التخلّى عنها لأن اكتشاف طبيعتها الأنثوية سيعرضها لأخطار جمة .

افتراقاً بعد هذا الحوار الطويل ، توجهت "تيودوسيا" لغرفة أخيها وذهبت "ليوكاديا" لتنام فى الحجرة المجاورة .

كان "دون رفائيل" مستيقظاً ، فى انتظار أخته ليعرف منها ما جرى مع من تحسبها امرأة ، ولم تكد تدخل عليه حتى سألتها فأخبرته بما قصته عليها "ليوكاديا"

(حقيقة والدها ، حبها لماركو أنطونيو ، الوثيقة التي كتبها لها ، هدفها من الرحلة ... إلخ) وعندئذ اعترته الدهشة وقال لها :

- لو كانت هي التي أقصدها ، فإنها تنتسب لعائلة عريقة وتعتبر من أنبل نساء إقليم "أندلوثيا" ، وشهرة جمالها تتفق مع ما نراه الآن على ملامح وجهها ، والهدف المعلن لرحلتها يحتم علينا توخي الحذر وعدم تمكينها من رؤية "ماركو أنطونيو" والتحدث معه قبلنا. لا ينبغي التسليم بضيايع الوثيقة منها، ومن ثم لا داعي للتراخي من جانبنا أو نبذ الحيلة . والآن هيا للنوم وإرجاء التفكير في هذه المسائل لأن الأمل يراودني في التوصل إلى الحلول المناسبة لها بعون الله وتوفيقه .

امتثلت "تيودوسيا" لأوامر أخيها بالنسبة لمحاولة النوم ، أما الركون إلى الدعة ونبذ التفكير فلم يكونا بيدها ، هذا لأن مرض الغيرة العضال كان قد تمكن من روحها. ظلت مخيلتها تعمل بجد ونشاط وتضخم لها جمال "ليوكاديا" وخيانة "ماركو أنطونيو" . كم من المرات قرأت ، أو تصورت قراءتها لتلك الوثيقة ! وكم من البنود التي أضافتها إليها بحيث تجعلها مستوفية الأركان ونافذة المفعول ! وكم من المرات تشككت في ضياعها ، وتخيلت وفاة "ماركو أنطونيو" بوعدة رغم فقدانها !

أمضت "تيودوسيا" بقية الليل في مثل هذه الأفكار والتخيلات ، ولم تذوق طعم النوم. ولم يكن أخوها بأفضل منها حالاً لأن أعراض الحب هاجمته فور سماعه لاسم "ليوكاديا" ، فسطوة الجمال قادرة على الإيقاع - في لحظة - بمن يراه ويعرفه ، وحين يتكشف الطريق المفضى إلى فردوسه تتقد النيران في الأفئدة مثلما يشتعل البارود الجاف عند اقتراب أية شرارة منه .

لم تكن "ليوكاديا" التي تتراءى له هي المربوطة في جذع شجرة وعليها ملابس الرجال الممزقة ، بل "ليوكاديا" الأنسة المحترمة الرافلة في ثياب الدعة والمتنعة في بيت أبويها الثريين الأصليين. كان يتعجل طلوع النهار حتى يستأنف سيره للبحث عن "ماركو أنطونيو" ، لا من أجل أن يصبح صهره فحسب ، بل لإفساد مشروع زواجه من "ليوكاديا" أيضاً. ومن جراء الحب والغيرة ألتم به رعدة من أن ينتهي الأمر باستمرار نكبة أخته أو قتل "ماركو أنطونيو" أو فقدان الأمل في الظفر

بليوكاديا ، وتمنى فى الوقت نفسه نهاية سعيدة للأحداث سواء عن طريق استخدام القوة أو أعمال الحيلة غير المصحوبة بالإيذاء .

حاول "دون رفائيل" تهدئة نفسه ولو قليلاً بالخاطر الأخير ، ولما لاح نور الصباح نادى على صاحب الخان ، وسأله عن متجر لشراء ملابس لـغلام جـرده للصـوص من ثيابه ، فأخبره الرجل بامتلاكه لثوب مناسب . طلب منه إحضاره ، ولما جرّبه "ليوكاديا" وجدته على مقاسها سدّد "دون رفائيل" ثمنه للرجل . ارتدت "ليوكاديا" الثوب وتمنّقت بالسيف والخنجر فى خفة وبراعة فأثارت إعجاب "دون رفائيل" وغيره "تيودوسيا" . أسرج كالبيتى الدواب ، وفى الثامنة صباحاً غادروا الخان قاصدين برشلونة . وعندما اقتربوا من دير مونسرّات Monserrat فضلوا إرجاء زيارته لحين عودتهم ناعمى البال إلى ديارهم .

لا أدري ما إذا كان بمقدورى وصف المشاعر المتناقضة للأخ وأخته تجاه "ليوكاديا" ، فبينما كان الأخ يتمنى من شدة الوجد بقاءها ، كانت الأخت تتمنى من فرط الغيرة موتها . كانت "تيودوسيا" مشغولة بالتفتيش فيها عن العيوب حتى لا يتقوض أملها ، و "دون رفائيل" منهمك فى البحث عن المزايا التى تزيد من حبه لها . المهم أن المشاعر المتناقضة لم تمنعهما فى النهاية من غزّ السير وحث الدواب لكى يصلوا جميعاً إلى برشلونة قبل غروب الشمس .

أعجبهم جمال المدينة وموقعها الفريد . ولم لا ، وهى حصن إسبانيا الحصين وموطن فخارها ، والقلعة المنيعـة التى يـرهبها الطامعون والأعداء ، ومدرسة الفروسية ، والملاذ الآمن للغرباء ، والجنة الفيحاء لسكانها ، والأنموذج النادر لكل ما يتخيله المرء فى المدن الكبيرة والغنية والعريقة .

لم يكادوا يدخلون المدينة حتى سمعوا جلبة شديدة ، وشاهدوا أناساً يجرون فى كل اتجاه ، وعندما سألوا عن السبب أخبروهم أن ركاب السفن الذين نزلوا إلى البرّ يشتبكون - كعادتهم - فى معركة حامية الوطيس مع سكان المدينة . أراد "دون رفائيل" الذهاب إلى مكان المعركة فنصحه "كالبيتى" بعدم الاقتراب من تلك العاصفة الهوجاء التى لا تبقى ولا تذر . لم يكن تحذير "كالبيتى" كافياً لمنعه من الذهاب ، وعندئذ اضطروا إلى السير خلفه . شاهدوا حين اقترابهم سيوفاً كثيرة مستلة

من أغمادها وتلاحماً شرساً بالمُدَى بين حشود هائلة من البشر. لم يمنعهم المشهد المرعب من مواصلة الاقتراب ، وعندها استطاعوا التمييز بوضوح - لأن الشمس لم تكن قد غربت بعد - بين الفريقين المتناحرين.

كان الناس يتوافدون في موجات متلاحقة من داخل المدينة، وعلى الجانب الآخر تترى من جهة السفن أيضاً أعداد لا حصر لها من المسافرين ، هذا لأن القائد العام - وهو رجل مقدم من بلنسية يدعى "پدرو بيكى" (٥) - كان قد وقف على مقدمة سفينة القيادة وظل يصرخ بأعلى صوته مهدداً الفارين من ميدان المعركة والمتجهين بزوارقهم إلى السفن بالرجوع إلى اليابسة لمساعدة إخوانهم ، وعندما أحس بضياح تهديداته سدى أمر السفن بتوجيه مقدماتها إلى المدينة وإطلاق دفعة من الطلقات التحذيرية في الهواء ، كما أمر بتجهيز المدافع بالطلقات الحية في الدفعة الثانية ، وضرب الفارين الذين لم يستجيبوا لنداءاته.

بينما كان "دون رفائيل" يتابع باهتمام أحداث الشغب الدامية لمح شاباً يناهز الثانية والعشرين من العمر - أو يتعداها بقليل - يقاتل بضراوة في صفوف ركاب السفن. كان يرتدى لباساً أخضراً وقبعة من اللون نفسه تتدلى تحتها ضفيرة تلمع كالмас. أثارت مهارة الشاب القتالية وفخامة ملبسه انتباه المجتمعين للفرجة ، ومن بينهم "ليوكاديا" و "نيودوسيا" اللتين هتفتا في صوت واحد لدى رؤيته :

- ياإله السماوات ! إذا لم تكن عيناي تخدعاني فماركو أنطونيو هو صاحب الرداء الأخضر.

قالتا هذا ثم ترجلتا بخفة من على ظهر البغلتين ، وأمسكت كل واحدة منهما بسيفها وخنجرها ، ودونما رهبة أو خوف شقنا الصفوف ووقفت إحداها عن يمينه والأخرى عن شماله.

- لا تخف ياسيد "ماركو أنطونيو" - قالت "ليوكاديا" - وعلى يمينك من لا يبالي بجعل حياته ترساً للدفاع عن حياته.

- وهل في ذلك شك - أردفت نيودوسيا - وأنا هنا على يسارك ؟

(٥) پدروبيكى Pedro Vique شخصية حقيقية ، وهو ينتمي بالفعل إلى إقليم بلنسية ، إذ أشار المؤرخون إلى مولده عام ١٥٣٧ بمدينة "طورية Turia" التابعة لهذا الإقليم . (المترجم)

لم يتأخر "دون رفايل" في اللحاق بهما ، أما "ماركو أنطونيو" - الذى كان يصلو ويجول غارقاً حتى أذنيه فى المعركة - فلم يسمع شيئاً مما قيل ، ولم ينتبه لما يدور حوله . أدى تنامى أعداد صفوف مقاتلى المدينة إلى إجبار الفريق الآخر على التقهقر والخوض فى مياه البحر. تراجع معهم "ماركو أنطونيو" على مضض ، كما ارتدت على وقع خطواته المحاربتان الشجاعتان ، وإن شئت قل : "برادامانتي" و"مارفيسا" (٦) .

كانت المعركة على وشك الدخول فى أبعاد أكثر درامية لو لم يظهر على جواد هائل نبيل قطلونى من عائلة "لوس كاردوناس" (٧) الشهيرة ويلقى بنفسه بين الفريقين المتناحرين ، محاولاً الفصل بينهما وإيقاف الزحف القادم من المدينة. ونظراً للمهابة والمكانة الرفيعة التى يتمتع بها الرجل بين سكان المدينة فقد انصاعوا لأمره ، لكن هذا لم يمنع بعضهم من الاستمرار فى إلقاء الحجارة - من بعيد - على الخانضين فى الماء . ويشاء الحظ العاثر أن يرتطم حجر كبير بصدغ "ماركو أنطونيو" فخر على وجهه فى الماء الذى كان يصل إلى ركبتيه حال وقوفه. سارعت "ليوكاديا" - ومعها تيودورو - بالإمساك به وانتشاله من الماء حتى لا يموت غرقاً . أشكل على "دون رفايل" وأصبح مشتتاً بين محاولة تفادى الحجارة المنهمرة عليه كالطر وبين اللحاق بحبيبتيه وأخته وصهره . اقترب منه النبيل القطلونى وقال له :

- تماسك أيها الشاب الشجاع وهدئ من روعك ، تعال إلى جانبي وسأذب عنك اعتداءات وسفالة الدهماء التى ليس لها ضابط .

- آه ، ياسيدى ! بل دعنى - بريك - أمرَ لإنقاذ أحبائى من براثن الخطر .

تركه الفارس يمر ، لكنه قبل أن يصل كانوا قد حملوا فى زورق من زوارق سفينة القيادة كل من "ماركو أنطونيو" و"ليوكاديا" المتشبثة به . أما "تيودوسيا" فلم تسعفها قواها الخائرة للحاق بالزورق (وربما يكون هذا بسبب تعبها أو لشدة تأثرها بإصابة

(٦) برادامانتي Bradamonte ، ومارفيسا Marfisa ، : شخصيتان من شخصيات "أورلاندو الغضوب" (للكاتب Ariosto) تتسمان بالجرأة والجسارة . (المترجم)

٧ - فى مطلع القرن الخامس عشر كان لعائلة "كاردونا" مكانة هامة فى البلاط القطلونى ، وكانت تخصص لإشراف وحماية "دوقاتها" أماكن عديدة ، منها: مدينة "كاردونا" ، ومدينة سولسونة ، وما يقرب من ٢٧٢ قرية وضيعة ، وأربعة موانئ بحرية ، وما يزيد عن ٢٥ قلعة حصينة . (المترجم)

"ماركو أنطونييو" أو لرؤية غريمته راكبة معه (وكانت على وشك السقوط فى الماء لو لم يصل أخوها فى الوقت المناسب. نادى عليهما الفارس القطلونى من على الشاطئ ورجاهما بمغادرة المكان فى صحبته ، ولما كان الاثنان خائفين من التعرض لأذى الجموع التى لم تهدأ نائرتها بعد فقد اضطرا إلى الموافقة .

ترجل الفارس وأخذهما إلى جواره ، وبسيفه الممشوق اخترق بهما الصفوف التى كانت تفسح له الطريق ، احتراماً ومهابة. طافت عينا "دون رفائيل" بأرجاء المكان بحثاً عن كالبيتى والبغال فلم يعثر لهما على أثر ، هذا لأن داعى الخوف كان قد استبد بالبغال الشاب وأجبره على الفرار بدوابه من أرض المعركة واللجوء إلى خان اعتاد النزول فيه من قبل.

حين وصل النبيل القطلونى إلى بيته - وهو من البيوت المعروفة بالمدينة - سأل "دون رفائيل" عن سفينته فأخبره بأنه ليس من ركاب السفن ، وأنه دخل المدينة عن طريق البر ساعة اندلاع المعركة ، ولما رآهم يحملون فى الزورق شاباً مصاباً بحجر حاول إدراكه فلم يفلح ووجد نفسه محاطاً بذلك الخطر. توسل إليه "دون رفائيل" بعد ذلك لكى يعطى أوامره بإنزال الجريح إلى اليابسة ، وأبدى له استعداداً لبذل حياته فداءً له مقابل هذا المعروف .

- سأفعل هذا عن طيب خاطر - أجاب الرجل - وأنا على يقين من تلبية قائد السفن لطلبى نظراً لصلة القرابة التى تربطنى به .

لم يتلأأ القطلونى وعاد مسرعاً إلى الميناء حيث صعد إلى سفينة القيادة ، وهناك وجد الجراح يباشر عمله فى تطبيب "ماركو أنطونييو" الذى كان يعاني من إصابة بالغة نتيجة لارتطام الحجر بصدغه الأيسر. تحدث مع القائد العام للأسطول بشأن حمل الجريح لاستكمال علاجه على اليابسة فأذن له. أنزلوا "ماركو أنطونييو" و"ليوكاديا" - الملازمة له كظله - إلى أحد الزوارق، وعلى رصيف الميناء أمر الرجل بإحضار محفة لوضع الجريح عليها. فى أثناء ذلك كان "دون رفائيل" قد أرسل رسولاً للبحث عن كالبيتى فى الخان الذى اعتاد إنزال المسافرين فيه. سر البغال الشاب بسلامة مرافقيه واتجه مع الرسول إلى بيت النبيل القطلونى .

وصل صاحب الدار مصطحباً "ماركو أنطونييو" و"ليوكاديا" ، ولم يتوان فى إكرام وفادة الجميع والترحيب بهم فى بيته. أمر بعد ذلك باستدعاء أشهر جراح فى المدينة ،

ولما حضر وأجرى الكشف على الجريح فضل إرجاء تدخله إلى اليوم التالي معللاً ذلك بكفاءة جراحى الجيش والأسطول لممارستهم المهنة على مدار الساعة ، لكنه أوصى بإعداد غرفة محكمة للمريض وتهئية الجو المناسب لراحته .

وقبل مغادرة جراح المدينة للبيت قدم جراح الأسطول وأطلعه على حالة المريض وعلى الخطر الذى يهدد حياته من جرّاء الإصابة . ومن جهة أخرى ، فقد كشف التقرير الطبى الذى استمع إليه جراح المدينة عما تلقاه الجريح على ظهر السفينة من عناية فائقة ، وإن كان الأخير لم يبد موافقته على ما جاء بالتقرير بشأن خطورة الجرح على حياة المريض .

كانت "ليوكاديا" و"تيودوسيا" تستمعان للحوار بين الجراحين بأسى المحكوم عليه بالإعدام ، لكنهما حاولتا جاهدتين كظم هلعهما حتى لا تفتضح حقيقة مشاعرهما ، وفى الوقت نفسه كانت "ليوكاديا" قد حزمت أمرها وقررت فعل ما ظنته إنقاذاً لشرفها ، وعلى هذا فقد بادرت بدخول الغرفة فور خروج الجراحين منها ، وأمام صاحب الدار و"دون رفائيل" و"تيودوسيا" وآخرين غيرهم اقتربت من المريض وأمسكته من يده ثم قالت له :

- أعرف أن صحتك لا تتحمل الكلام الكثير ياسيد "ماركو أنطونيو أدورنو" ولذا سأقتصر على المفيد منه ، وإذا كنت لم أتسبب لك من قبل فى أى ألم مذ عرفتك فليس فى نيتى الآن أن أكون سبباً فى إيلامك .

فتح عينيه ، ونظر إلى وجهها ، لكنه لم يتعرف عليها من التحديق فيها بل من صوتها ، وعندئذ ردّ عليها بصوت واهن قائلاً :

- هات ما عندك أيها الشاب ، فلست فى النزاع الأخير حتى لا تلتقط أذناى ما تتفوه به ، ومن جهة أخرى فسماع صوتك العذب لا يبعث الضيق ولا يسبب الألم .

كانت "تيودوسيا" تصغى باهتمام بالغ لحديث "ليوكاديا" التى كانت كل كلمة فيه بمثابة نصل حاد يخترق حشاشة قلبها ونياط قلب أخيها . تابعت "ليوكاديا" حديثها قائلة :
إذا كانت الضربة التى سدّوها إلى رأسك - أو بمعنى أصح ، التى أصابونى بها فى مقتل - لم تمنح من ذاكرتك صورة الفتاة التى اعترفت لها بحبك

ووعدها بالزواج فى وثيقة كتبته بخط يدك ، ولم تنسك كذلك نبالة أبويها أو خفر فتاتك وعفافها وواجبك المقدس نحوها لأنها طأوعتك ولبت رغبتك . إذا كنت لم تنس ما تقدم ستعرف - رغم الزى الغريب الذى أرتديه - أننى "ليوكاديا" التى عانت الكثير من الأهوال فى خروجها للبحث عنك واللاحاق بك لكى توفىها حقها . لن تنتابك الدهشة مما فعلت لو أدركت مدى القوة التى يمنحها الحب الحقيقى للمرأة المخدوعة . لقد تلاشت مرارة المتاعب الجمّة التى تجشمتها فور رؤيتك ، والآن أتوسل إليك - وفاء لحق الرب وللنبالة التى تنتمى إليها ولحقى عليك - بقبولى زوجة شرعية لك ، وبعدم السماح للعدالة بإجبارك على فعل ما يمليه العقل والمنطق .

لم تقل "ليوكاديا" أكثر من هذا ، وانتظر الحاضرون ردّ "ماركو أنطونيو" الذى جاء على النحو التالى :

- كيف يتسنى لى إنكارك وصوتك ووجهك ينفيان الجهالة بك ! لا يمكنى أيضاً إنكار دينك الكبير فى عنقى ولا مكانة والديك أو عفافك وصوتك . لا تعتقدى أن قدرك عندى قد تناقص لمجيئك خلفى فى هذه الثياب المستعارة ، بل إنه زاد فى نظرى . وبما أن حظى العاثر قد ألقى بى فى أتون هذه المحنة التى ستودى بحياتى ، ولأن المحن والنوازل الجسيمة تستدعى الصراحة ولا مجال فيها للكذب والمداراة فإننى سأطلعك على حقيقة لن تروقك حالياً لكنها ستكون لك ذات نفع فى المستقبل . أعترف - أيتها الجميلة ليوكاديا - أننى أحببتك ، وأنك بادلتنى الشعور نفسه ، كما أعترف بأن الوثيقة التى كتبته لك كانت لمجرد إرضائك ، ولم تكن نابعة عن اقتناع منى ، هذا لأننى قبل كتابتها بعدة أيام كنت قد أسلمت إرادتى وروحي لفتاة أخرى من قريتى تدعى "تيودوسيا" ، وهى ابنة أبوين كريمين مثل والديك ، وإذا كنت قد أعطيتك وثيقة فإننى وهبتها نفسى ، وارتبطت معها برباط مقدس لا تنفصم عراه لأى سبب من الأسباب . حبى لك كان مجرد طيش شباب ، ولم يتجاوز الحد الذى يهينك أو يسيء إلى سمعتك ، أما حبى لتيودوسيا فقد تضمن اقتطاف الثمرة التى أردتها ووهبتها لى بعد وعدى لها بالزواج ، وأنا بالفعل زوجها . وإذا كنت قد تركتك

مخدوعة ، وتركبتها خائفة مسلوية الشرف - كما تظن - فقد كان هذا نابعاً من تهورى وقلة خبرتى وقصر عقلى الذى زين لى تفاهة هذه الأمور الجبلية والخطيرة ودفعنى إلى الهروب إلى إيطاليا لتمضية بضعة سنوات من شبابى فى سلك الجندية غير عابئ بمصيرك ، ولا بمصير من أصبحت زوجتى . لكن الله يمهل ولا يهمل ، وقد عاقبنى على ما اقترفته من آثام بما تريننى فيه ، ولكى لا أستمّر فى خداعك أقول لك أنت حرة ، ولا يربطنى بك أى قيد . لتشهدى ، ويشهد الحاضرون أننى أوفيت لتيودوسيا قبل موتى بما قطعته على نفسى حال حياتى . أنا على استعداد فى الوقت القليل المتبقى لى على ظهر الدنيا لتلبية كافة ما تريدان فيما عدا أمر الزواج لأنه خارج عن إرادتى .

كانت رأس "ماركو أنطونيو" مستندة على ذراعه فى أثناء حديثه ، لكنه عندما فرغ منه سقطت رأسه على الوسادة ، وظهرت عليه أمارات الدخول فى إغماءة ، وعندئذ هرع إليه "دون رفائيل" واحتضنه ثم قال له :

- أفق وضمّ إلى صدرك صديقك وأخيك إذا أردت أن تكونه . افتح عينيك لترى رفيقك الذى سيكون بمثابة الشاهد الحقيقى على رغبتك ، وعلى الفضل الذى أردت أن نخص به أخته .

ثاب "ماركو أنطونيو" إلى رشده وعانق دون رفائيل بحرارة ثم طبع قبلة على جبينه ، وقال له :

- إن الفرحة الغامرة لرؤيتك قد جرجرت خلفها حزناً دفيناً ، وعلى هذا يصدق قول القائل: تأتى السعادة وخلفها الحزن قابع ، لكننى أقول : أهلاً بالحزن الذى يعترينى مادام تالياً للسرور برؤياك .

- ولكى أكمل سرورك وأجعله متصلاً دون أحزان سأقدم لك الجوهرة التى تتمناها : زوجتك الحبيبة .

فتش "دون رفائيل" عن أخته فوجدها تبكى بحرقة فى ركن من الغرفة ، مشوشة وحائرة بين الحزن لما ترى أو البهجة لما تسمع . أمسكها من يدها ، ودون مقاومة منها

تركته يسحبها إلى حيث يريد (أى إلى سرير "ماركو أنطونيو") ، تعانق الحبيببان وهما يذرفان الدموع الحنونة الولهانة .

تعجب الحاضرون من المشهد العجيب ، ونظروا إلى بعضهم صامتين فى انتظار ما ستسفر عنه الأحداث الغريبة . أما سيئة الحظ والمخدوعة "ليوكاديا" فإنها عندما رأت بعينيهما ما فعله "ماركو أنطونيو" وشاهدت من ظننه أخاً لدون رفائيل بين ذراعى من كانت تأمله زوجاً ، غافلت الحاضرين - المشدوهين بعناق المريض للشباب الجميل - وتسالت من الغرفة وخرجت إلى الشارع بنية الهيام على وجهها فى أرجاء المعمورة أو الذهاب إلى مكان يخلو من البشر ؛ لكنها لم تكد تفارق الحجرة حتى افتقدتها "دون رفائيل" ، ولما سأل عنها الموجودين ، ولم يلق خبراً انطلق مسرعاً للبحث عنها : اتجه أولاً إلى الخان الذى كان فيه "كالبيتى" لظنه بأنها قد تكون هناك لإحضار دابة من الدواب فلم يعثر لها على أثر ، وعندئذ جرى كالماتاث فى الشوارع يفتش عنها ، لكن دون جدوى . هداه تفكيره فى النهاية إلى احتمال عودتها إلى الميناء فذهب إلى هناك وسمعها تنادى على زورق سفينة القيادة ، اقترب منها ، وعندما أحست بوقع خطوات خلفها استلكت سيفها ووقفت متأهبة . اعترأها الهم والكدر حين رأيته : لا من رؤيته فى حد ذاتها بل لعثوره عليها واحتمال إفساده لما أضمرته . لم تتوقع شراً من مجيئه لأن معاملته الودودة السابقة واحتفاءها المستمر بها تعتبر مؤشرات واضحة لحرصه عليها واهتمامه بها .

يعجز شوق قلمي عن نقل الحديث الطويل الذى دار فى هذا اللقاء الودى بين "دون رفائيل" و"ليوكاديا" ، ومع هذا أجد نفسى مضطراً لسوق بعضه نظراً لأهميته :

- آه ، أينها الجميلة "ليوكاديا" ! لو تخلت عنى الجراة - كما تخلى عنى الحظ - لن أستطيع الكشف عن مكنون صدرى وستظل دفينية إلى الأبد فى زوايا النسيان أطهر عاطفة يمكن أن ترفرف بين جنبى عاشق . وحتى لا أكون السبب فى إلحاق الأذى برغبتى المشروعة أود لفت نظرك - لو أفسح لى عقلك المسلوب مكاناً فيه - إلى أن "ماركو أنطونيو" لا يفضلنى فى شىء اللهم إلا فى حبك له : أنا كريم الأصل مثله ، وفى الممتلكات التى يسمونها ثروة لا يزيد عنى بالكثير ، أما بالنسبة للشكل والهيئة فلا يليق بالمرء الثناء

على نفسه خاصة إذا كانت عينا المحبوب غافلتين عنه. ما أردت بالديباجة السابقة سوى توجيه نظرك إلى يد الحظ الممدودة لانتشالك من وهدة الكارثة العاتية. ها أنت ترين استحالة الظفر بماركو أنطونيو لأن إرادة السماء اختصت به أختى ، لكن تلك الإرادة التى انتزعته منك اليوم هى نفسها التى تقدم إليك البديل ، فأنا لا أتوق إلى خير فى هذه الحياة أفضل من كونك سيدتى وزوجتى إلى الأبد. لو تدبرت الأمر ملياً لرأيت أن حدثاً سعيداً يطرق أبواب المعاناة التى تجشمتها حتى الآن ، ولا تحسبى أن جسارتك فى الخروج للبحث عن "ماركو أنطونيو" ستنزل من قدرك فى عينى أو ستكون عائقاً فى نيلك ما تستحقين ، هذا لأننى تناسيت كل ما عرفته ورأيت فى اللحظة التى أحبيبك فيها وتمنيك زوجة لى ، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أدرك تمام الإدراك أن القوة القاهرة التى حملتنى فجأة على التبتل فى محرابك هى نفسها التى أدت بك إلى ما أنت فيه من حال ، ومن ثم لا داعى للبحث عن أعذار حيث لا توجد أخطاء من أى نوع.

كانت "ليوكاديا" تسمع صامته ، وبين الفينة والفينة ترسل بتهيدة حارة وعميقة. كانت لدى "دون رفائيل" الشجاعة لأخذ يدها وتقبلها عدة مرات ، قال لها بعد ذلك :

- أرجو ألا تخذلىنى ، ياأميرة قلبى ، فيما عرضته عليك تحت هذه السماء الصافية المرصعة بالنجوم وأمام هذا البحر الوداع المسالم وفوق هذه الرمال المخلّلة بالماء. قولى نعم ، ردا لاعتبارك ولإسعادى. أذكرك ثانية بأننى شاب نبيل وغنى - كما تعرفين - وفوق هذا وذاك أحبك بجنون. أنت الآن وحيدة ، فى ملابس غريبة ، بعيدة عن الأهل والأقارب ، دون معين أو بارقة أمل لبلوغ هدفك. لو قلتها ستعودين مكرمة مبعلة إلى ديارك ، وممتدحة ممن تصلهم وقائع قصتك. إذا كانت هذه هى الحقيقة فلا أرى سبباً واحداً لترددك ، هيا - وأصرح بها ثانية - ارفعينى من حضيض بؤسى إلى سماء استحقاقك لأنك بهذا تكونين قد أوفيت بأعراف قومك وأبنت عن فطنتك وتهذيبك وأصبحت جديرة بالشكر والثناء.

ما دامت هذه هى إرادة السماء (قالت المتشككة ليوكاديا) فلا أملك حيالها - لا أنا ولا غيرى من الأحياء - ردا ، ولا مفر إذن من الانصياع لأوامرها وتلبية رغبتك ، والله وحده يعلم مدى خجلى وترددى غير النابع من سوء فهمى للفوائد العميمة التى ستعود على من وراء طاعتك ، بل من الخوف من تغير نظرتك تجاهى بعد تحقيقى لما تصبو إليه ، ورغم هذا يكفينى أننى سأظفر فى النهاية بصفة الزوجة الشرعية لـ "دون رفائيل دى بياييفنثيو" وهذا فى حد ذاته كافٍ لعيشى سعيدة طيلة حياتى . لو تمكنت الخصال والفضائل التى ستجدها لدى بعد الزواج من كسب رضاك عنى وتقديرك لى سأخر ساعتها ساجدة للسماء تعبيراً عن شكرى لها بزواجى منك بعد المشوار الطويل والغريب الذى قطعته وتجرت فيه المرارة كلوساً مترعة . أعطنى يدك لتعاهدنى بأن تكون لى مثلاً أمد لك يدى معاهدة إياك بأن أكون لك ، وخير شهود على هذا العهد - كما سبق وأعلنت - ما نراه حولنا من سماء ونجوم وبحر ورمال ، هذا بالإضافة إلى الصمت الذى لم تتخله سوى زفراتى الحارة وتوسلاتك المتكررة .

تعانق المتحاوران ، واحتفلا بسفح دموع الفرح التى أعقبت سلسلة طويلة من الأحزان . شقاً بعد ذلك طريقهما إلى بيت النبيل القطلونى الذى أصابه الحزن لدى اكتشافه غياب "دون رفائيل" . وقبل وصولهما كان القسيس - الذى أحضره صاحب البيت - قد عقد قران "ماركو أنطونيو" على "تيودوسيا" . وهكذا ، فعندما وصل "دون رفائيل" بصحبة "ليوكاديا" وأخبر الحاضرين بنبأ تعاهدهما على الزواج زادت فرحتهم كما لو كانوا من أقرب الأقرباء ، وهذا شئ مألوف وطبيعى فى النبالة القطلونية التى تغيب الملهوف وتعين المحتاج وتشارك الأصدقاء - حتى لو كانوا غرباء - أفراحهم وأتراحهم .

طلب القسيس من "ليوكاديا" ارتداء الملابس النسوية حتى يتمكن من عقد قرانها ، وعندئذ سارعت زوجة النبيل القطلونى (وهى سيدة كريمة تنتمى لعائلة "جرانويكس" المشهورة بتلك المملكة) بإلباسها ثوباً من ثيابها الفاخرة . أما "ماركو أنطونيو" فقد عاودته الآلام المبرحة نتيجة لحديثه الطويل وعدم نيله ولو قسطاً ضئيلاً من الراحة ، ولذا قام صاحب الدار باستدعاء الجراح من جديد ، ولما حضر الأخير

أخبرهم أن علاج المريض يتوقف على الراحة التامة والنوم الهادئ المطمئن .. وعلى خلاف كافة التوقعات والمقاييس البشرية فقد شاءت حكمة الرب وقدرته العظيمة أن يكون المجهود الذى بذله المريض سبباً فى تحسن صحته ، ذلك لأنهم عندما طببوه فى اليوم التالى وجدوه - نتيجة للجهد الذى بذله وللفرحة التى انتابته - قد تجاوز مرحلة الخطر ، وبعد أربعة عشر يوماً فقط نهض من فراشه سليماً معافى ، قادراً على تحمل وعناء السفر دون أية مخاوف .

تجدد الإشارة إلى أن "ماركو أنطونيو" كان قد نذر - فى أثناء تلك المدة التى أمضاها على سرير المرض - الذهاب على قدميه حاجاً إلى "شانت ياقب" (جليقية) إذا من الله عليه بالشفاء ، وقد شاركه فى النذر كل من "دون رفائيل" و "ليوكاديا" و "تيودوسيا" ، علاوة على البغال الشاب "كالبيتى" [وهذا الأمر غير مألوف ، بل غريب على من يمارسون تلك المهنة أو المهن المشابهة ، لكن كرم دون رفائيل وأريحيته فى التعامل أجبرته على ملازمة مخدمه حتى النهاية] ، ولما تحسنت صحة الجريح أدرك "كالبيتى" عدم حاجتهم إلى البغال لأنهم سيحجون سيراً على الأقدام ، ومن ثم فقد عهد بهم إلى زميل له متجه إلى شلمنقة ، وطلب منه توصيلهم إلى هذه المدينة التى سيعود إليها بصحبة "دون رفائيل" .

جاء يوم الرحيل ، وبعد تزودهم بكل ما هو ضرورى للرحلة وبملابس التابية والإحرام ودّعوا "دون سانتشودى كاردونا" ، وهو الرجل السخى الشهم - ذو الأصل العريق والشخصية المرموقة - الذى تقانى فى خدمتهم . قالوا له عند الوداع: إنهم لن ينسوا - لا هم ولا من يولدون من أصلابهم - مكرمه العظيمة التى لا تتسع لها كلمات الشكر ولا توفيقها كنوز الأرض بعض حقها . عانقهم "دون سانتشودى" فرداً فرداً قائلاً لهم : إنه لم يفعل غير الواجب وما تمليه عليه صفته النبيلة تجاه من يعرفهم أو يتوسم فيهم أمارات الأصالة القشتالية .

تكرر مشهد العناق ، وبفرحة ممزوجة بمسحة من الحزن تم الوداع ، وبعد ثلاثة أيام من السير الهادئ المطمئن - على وقع الخطوات الرقيقة للحاجتين - وصلوا إلى دير "مونسرات" الذى أمضوا فيه ثلاثة أيام أخرى متقلبين بين العبادة والتبتل (شأنهم فى ذلك شأن كافة المسيحيين الكاثوليك) . عادوا أدرأجهم بعد ذلك ، واستلموا

الطريق إلى "شانت ياقب" التي وصلوها دون أية منغصات وناعمى البال. وبعد الوفاء بالنذر في تلك المدينة المقدسة قرروا مواصلة ارتداء ملابس الحج لحين عودتهم إلى ديارهم ، وعند اقترابهم - متعبين وسعداء - من قرية "ليوكاديا" (وهي تبعد - كما أسلفنا القول - بمقدار فرسخين عن قرية "تيودوسيا") ارتقوا منحدرًا يشرف على القريتين ، وعلى قمة المنحدر تفرقت أعينهم بدموع الفرح ، لا سيما عيون الزوجتين اللتين أهاجت فيهما رؤية الديار ذكرى الأحداث المريرة الماضية.

كان المنحدر يشرف على وادٍ فسيح يفصل بين القريتين ، ومن مكانهم هناك ، شاهدوا - تحت ظل شجرة زيتون - فارساً مهيباً على ظهر جواد قوى يحمل في يده اليسرى ترساً ناصع البياض ، وفي يده اليمنى رمحاً طويلاً وغليظاً. شاهدوا بعد ذلك فارسين آخرين قادمين من بين أشجار الزيتون وبأيديهما ما بيدي الأول من سلاح. اجتمع الفرسان الثلاثة ، وبعد وقت قصير انسَلَّ اثنان - بينما وقف الثالث منتظراً - وهجم كل منهما على الآخر وكأنه عدوه اللدود.

من خلال سير المعركة كان يبدو للعيان تمرس كل منهما وخبرته العريضة في الحرب والنزال. لم يطق "دون رفائيل" صبراً على مشاهدة المباراة الفريدة من مكانه البعيد ، ومن ثم فقد سارع بهبوط المنحدر وخلفه الآخرون. حين اقتربوا من الفارسين وجدوهما ينزفان من جراء بعض الجراح السطحية. تعرف "دون رفائيل" على والده حين سقطت من على رأسه ووجهه الخوذة والمغفر ، كما اتضح لماركو أنطونيو أن المبارز الثاني هو والده. وقف الابنان بينهما وصاحا قائلين :

- يكفي ما تقدم ، هدثنا من سورة غضبكما ، وألقيا السلاح فلستما عدوين بل أخوين حميمين من هذه الساعة .

كانت "ليوكاديا" قد اقتربت هي الأخرى من الفارس الثالث وعرفت أنه أبوها ، وعندئذ رجته بإيقاف المعركة لأنها تزوجت "دون رفائيل" ، كما أصبحت "تيودوسيا" زوجة "ماركو أنطونيو" .

ترجل "دون سانتشو" واحتضن أبنته "ليوكاديا" ثم تركها واتجه مسرعاً ليفصل بين المتبارزين اللذين كانا قد نزلا من على صهوة جواديهما ويتبادلان الأحضان مع

ولديهما ودموع الحب والبهجة الوليدة تتدفق من عينيهما. كانا يتحسان جسدياً ابنيهما غير مصدقين ظهورهما المباغت ، وللتأكد من أنهما ليسا شبحين ، ولما زالت عنهما صدمة اللقاء غير المتوقع عادا لذرف الدموع وتبادل الأحضان .

وفي أثناء ذلك ظهر في الوادي أناس كثيرون حاملين السلاح ، بعضهم يمشى على قدميه والبعض الآخر على ظهور الخيل . كانوا مقسمين إلى طائفتين ، وكل طائفة تريد نصرة الفارس المنتمي لقريتها ، وعندما وصلوا ووجدوها في تلك الحالة وقفوا مشدوهين حائرين ، وعندئذ قص عليهم "دون سانتشو" بإيجاز ما سبق وأخبرته به ابنته .

سُرَّ القادمون لما سمعوا ، وتعاضم سرورهم حين قص عليهم "دون رفائيل" من جديد الحكاية وكيف أنها انتهت بزواجه من "ليوكاديا" وبزواج أخته من "ماركو أنطونيو" . انتقى الأبوان خمسة جياذ من الخيول التي كان يمتطيها القادمون للنجدة وأركبا عليها الحجاج ، ثم أخذ الموكب طريقه - وسط تهاني الحاضرين - إلى قرية "ماركو أنطونيو" لإقامة حفلة الزفاف .

وفي الطريق عرف كل من "دون رفائيل" و "ماركو أنطونيو" سبب المباراة ويتلخص في أن أبوى "ليوكاديا" و "تيودوسيا" تحديا والد "ماركو أنطونيو" لخداع الأخير لابنتيهما ، ولما كانا حريصين على توخي العدالة في المباراة - تمشيًا مع قواعد الفروسية وأخلاقيها - فقد اتفقا على مواجهته واحداً إثر آخر ، وعلى انتهاء المباراة بموت أحدهما .

توجه الأبناء بالشكر للخالق على النهاية السعيدة للأحداث ، وفي اليوم التالي لوصولهم أقام والد "ماركو أنطونيو" حفل زفاف باذخ يليق بالعريس اللذين عاشا سنوات طويلة وسعيدة في كنف زوجتيهما، وخلفا وراءهما ذرية صالحة شريفة من الأبناء والأحفاد الذين مازالوا ينعمون حتى يومنا هذا بحياة رغدة هائلة في هاتين القريتين اللتين تعتبران من أفضل وأعرق الأماكن بإقليم "أندلوثيا" ، وإذا كنت قد أثرت إغفال اسميهما فهذا لشدة حرصى على كرامة ووقار هاتين الفتاتين ، ولكى لا تنال منهما السنة السوء أو يصبحا هدفاً للموتورين أو الذين أثروا في غفلة من الزمن وتناسوا أصولهم الوضيعة ، وإلى هؤلاء المتأخرين أتوجه بالرجاء بعدم الاندفاع في

انتقاد أمثال هذه المواقف ماداموا لم يتعرضوا - ولو مرة - لسهام كيوييد الفتاكة ،
القادرة على تغييب العقل وإفساح المجال للعاطفة المشبوبة .

أما "كالبيتي" البغال الذي حضر حفل الزفاف فقد رحل إلى شلمنقة للحاق بدوابه
بعدما تلقى الهدايا والأعطيات الكثيرة من الزوجين ، ومن جهة أخرى فقد شحذت
أحداث هذه القصة العجيبة قريحة شعراء تلك البقعة من أرض "أندلوثيا" فأطلقوا
العنان لأقلامهم ، وراحوا يبالغون في تصويرها وفي وصف جمال الفتاتين الجريئتين
والعفيفتين .

* * *

السيدة "كورنيليا"

"دون أنطونيو دى إيسونثا" و"دون خوان دى جامبوا" شابان ناضجان ، من أصل عريق وعمر واحد تقريباً ، وتربطهما - علاوة على ما تقدم - وأصبح صداقة عميقة . كانا يدرسان بشلمنقة ، ودفعتهما فورة الشباب والرغبة - كما يقال - فى رؤية الدنيا إلى قطع دراستهما والذهاب إلى "فلاندرس" لحمل السلاح ، الذى وإن كان يسبغ الشرف على كل من يحمله إلا أنه يرسخه ويعمقه لدى حامله من ذوى المنبت الطيب والدم الذكى النبيل .

جاء سفرهما إلى تلك الأراضى وقت حلول السلم بها نتيجة صلح أو هدنة ما (١) ، وفى أثناء وجودهما فى "أمبيرس" Ambers وصلهما خطابان من والديهما ينددان بتركهما للدراسة دون سابق إنذار وبرحيلهما المفاجئ الذى فوت على الأبوين فرصة تجهيزهما بما يليق بمكانتهما . دفعهما الاستياء من جانب الوالدين فى النهاية ، علاوة على حالة الاسترخاء العسكرى التى تعيشها "فلاندرس" فى تلك الآونة ، إلى اتخاذ قرارهما بالعودة إلى إسبانيا بعد الفراغ من زيارة مدن إيطاليا الرئيسية . وبعد تحقيقهما لما أرادا ، وفى أثناء وجودهما فى مدينة "بولونيا" Bolonia أعجبتهما الدراسة فى جامعتهما الشهيرة (٢) فقررا الالتحاق بها . كتبوا إلى والديهما بذلك ففرحا فرحاً شديداً وأبديا استعدادهما لتغطية نفقات الدراسة وتزويدهما بكل ما يرغبان من أموال حتى يتسنى لهما الظهور بالمظهر اللائق بمكانتهما ومكانة أبويهما ، ومنذ اليوم الأول للدراسة أبانا للجميع عن أصلهما العريق ومنبتهما الطيب وسلوكياتهما القويمة وثرائهما العريض .

كان "دون أنطونيو" فى الرابعة والعشرين من العمر بينما لا يتجاوز صديقه "دون خوان" السادسة والعشرين . ويزدان هذا العمر الجميل بصفات رائعة (مثل الشجاعة ،

(١) مرت "فلاندرس" بفترات هدنة كثيرة ، من بينها عام ١٥٧٩ الذى قد يكون مقصوداً من المؤلف . (المترجم)

(٢) أوضح المؤرخون أن الدراسة بالجامعات الأجنبية كانت محظورة على الإسبان فى عهد فيليب الثانى (بموجب المرسوم الصادر فى ١٥٥٩/١١/٢٢) ، ومن ثم فقد أشاروا إلى أن المؤلف يقصد " مدرسة سان كليمنتى " الإسبانية التى كانت موجودة فى "بولونيا" آنذاك . (المترجم)

والكرم ، والتمرس على فنون الحرب والقتال ، وعزف الموسيقى وقرص الشعر) جعلتهما يأسران قلوب معارفهما والمتعاملين معهما .

وفى فترة وجيزة أصبح لهما أصدقاء كثيرون : سواء من بين الطلاب الإسبان الذين يدرسون بالجامعة أو من أهل المدينة أو الغرباء عنها . كانا فى غاية الكرم والتهذيب مع الجميع ، ويعيدان كل البعد عن العجرفة التى يوصف بها الإسبان عادةً فى تلك البلاد . وبما أنهما كانا شابين متفتحين على الحياة فلم يفتهما تتبع أخبار حسناوات تلك المدينة الحافلة بالنساء العفيفات الجميلات - سواء كنّ أنسات أو متزوجات - وعلى رأسهن جميعاً تأتى الفتاة " كورنيليا " ، وهى تنتمى لعائلة " بنتيبوللى " العريقة التى حكمت " بولونيا " خلال حقبة من الزمن (٣) .

كانت " كورنيليا " رائعة الجمال وتحت كف ورعاية أخيها ، الشريف المقدام : " لورينثو بنتيبوللى " ، وقد نشأ الاثنان يتيمى الأبوين ، لكنهما ورثا عنهما ثروة طائلة ، والغنى - كما هو معروف - أكبر ملطف للشعور باليتم .

كان خفر " كورنيليا " شديداً ، وحرص أخيها على صونها عظيماً ، ومن هنا فلم تكن تسمح لنفسها بالظهور على أحد ، ولم يكن أخوها ليقبل بغير ذلك . أثار احتجاجها رغبة الكثيرين فى رؤيتها ، ومن بينهم " دون خوان " و " دون أنطونيو " اللذين كانا يتحرقان شوقاً لرؤيتها ولو فى الكنيسة ، ولما باءت محاولتهما بالفشل تلاشى لديهما الأمل واستسلما للهزيمة . وهكذا فقد انصرفا إلى دراستهما التى لم يكن يتخللها سوى اللهو المباح ، وعاشا حياة مفعمة بالشرف والسعادة . لم يكونا يغادران مسكنهما ليلاً إلا فى مرات قليلة ، وإذا خرجا يكونان معاً ومسلحين جيداً .

فى إحدى الليالى ، وقبل خروجهما قال " دون أنطونيو " لدون خوان إنه سيؤدى بعض الصلوات وسيلحق به فور انتهائه منها .

٣ - " لويس بنتيبوللى " : عائلة معروفة شاركت فى الأحداث الخطيرة التى مرت بها محافظة بولونيا ، إذ قام أحد أفرادها (خوان الثانى) بحكم تلك المحافظة فترة من الزمن ، ثم عاد لحكمها ثانية (عام ١٥٧١ ، وبمساعدة الفرنسيين) اثنان من أبنائه ، وهما : " هانيبال الثانى " و " إيرميتى " ، وبعد مغادرة الآخرين إيطاليا انتقلت السلطة إلى قداسة البابا .. أما بالنسبة للشخصيتين اللتين وردتا بالقصة (كورنيليا ، لورينثو) فإنهما ليستا حقيقيتين بل من نسج خيال المؤلف . (المترجم)

- الأمر لا يستحق العجلة - ردّ عليه دون خوان - سأنتظر لحين فراغك من الصلاة ، وإذا أردت ألا نخرج هذا المساء فأنا طوع بَنَّاكَ .

- بل امض على بركة الله للاستمتاع بالهواء الطلق وسألحق بك بعد قليل مادمت ستتبع خط سيرنا المعتاد .

- أمرك يا صديقي ، وإذا خرجت فأنت تعرف وجهتنا .

خرج "دون خوان" بمفرده . كانت الليلة حائلة السواد وعقارب الساعة تُشير إلى الحادية عشرة ، وبعد تجاوزه لشارعين أو ثلاثة داهمه الإحساس بالوحدة فقرر العودة . وفي أثناء مروره بشارع مشهور ذى أروقة رخامية سمع صفيراً من أحد البيوت . توقف وأرهف السمع ، لكن ظلمة الليل والصدى الذى تحدثه الأروقة الرخامية لم يعيناه على الاهتداء إلى مصدر الصفيير . رأى باباً موارياً فاقرب منه ، وعندئذ سمع صوتاً ينادى :

- هل أنت "فابيو" ؟

تردد بين النفي والإثبات ، لكنه أجاب فى النهاية بنعم .

- خذْ هذا إذن - قال الصوت القادم من الداخل - وضعه فى مكان آمن ثم عدْ إلينا مسرعاً .

مدّ يده فاصطدمت بجرم يحتاج حمله إلى مساعدة اليد الأخرى ، وفور إمساكه اللقافة بكلتا يديه أغلق الباب فى وجهه فألقى نفسه فى الشارع محملاً بشيء مجهله . لم تدم جهالته طويلاً لأنه سرعان ما سمع بكاء كائن بشرى - حديث العهد بالولادة ، على ما يبدو - ، وعندئذ انتابته الدهشة الممزوجة بالحيرة . لم يدرك ماذا يصنع - لاسيما وأنه لا يعرف فى المدينة أحداً يمكنه اللجوء إليه - ، ووجد الخطر قاسماً مشتركاً فى كلا الحليْن الماثلين أمامه : العودة إلى طرق الباب لرد ما سلموه إليه ، أو التخلّى عن هذا الكائن البشرى بتركه فى عرض الطريق . وعندما تذكر أنهم طلبوا منه وضعه فى مكان آمن والرجوع على جناح السرعة قرر حمله إلى مدبرة منزله وتكليفها بالناية به ثم العودة إلى المكان الذى شهد الخطأ غير المقصود لمعرفة ما يستجد من أحداث .

المهم أنه عاد أخيراً إلى بيته في الوقت الذي غادره فيه "دون أنطونيو" ، دخل إحدى الغرف ونادى على المدبرة ، فك الدُّر غالية الثمن وشاهد طفلاً بديع الصورة .

- ينبغي إطعام هذا الطفل - قال للمدبرة - عليك بتغيير هذه اللقائف الغالية بأخرى متواضعة والذهاب به إلى إحدى القابلات لأنهن يحسن التصرف في مثل هذه الأمور. قدمي لها كل ما تريده من مال ، واختاري للطفل ما شئت من الأبوين ولا تذكرى لها شيئاً عنى .

حين أخبرته المدبرة أنها ستفعل ما أمرها به انطلق مسرعاً إلى مكان البيت الذي تسلم منه المولود ، لكنه قبل الوصول إليه بقليل سمع جلبة صادرة عن صليل شرس بالسيوف ، أصاخ السمع فلم تلتقط أذناه كلمة ، وعلى بريق الومضات التي ترسلها السيوف المتلاحمة استطاع تمييز معالم المعركة الصامتة: شاهد لمة من الرجال تهاجم رجلاً واحداً محاولة النيل منه . وبعد تثبته من تلك الحقيقة سمع صوتاً يقول :

- آه ، أيتها الخونة ! أنتم كثيرون وأنا فرد واحد ، ورغم هذا لن تفيدكم نذالكم .

حين سمع هذا "دون خوان" أخذته الحمية ، وفي قفزتين لا غير كان إلى جوار المحاصر ، اسل سيفه وخنجره ثم قال باللغة الإيطالية حتى لا يعرفوا أنه إسباني :

- لا تخف يا هذا ، لقد جاءك المدد ، لن ينالوا منك إلا على جثتى ، استعد حماسك فالخونة رغم كثرتهم لا يظفرون إلا بالقليل النافه .

سمع عندئذ من جانب الفريق المهاجم - الذى يصل عدده إلى ستة أفراد ، حسب تقدير "دون خوان" - صوت يقول :

- إنك لكاذب ، لا يوجد بيننا خائن لأن الانتقام للشرف المسلوب يبيح كافة المحظورات .

لم يسمح الهجوم الخاطف الذى شنه الزميلان على الأعداء بالرد على صاحب الصوت. ضيق المهاجمون الخناق على الزميل المجهول وتمكنوا من تسديد طعنتين إلى صدره طرحته أرضاً. اعتقد "دون خوان" أنه سقط ميتاً ، وفي خفة وشجاعة منقطعتى النظير انتصب أمامهم كالمارد وبث في قلوبهم الرعب بضربات سيفه وخنجره المنهمرة عليهم كالطر ، لكن مهارته فى الضرب والطعان لم تكن كافية

للهجوم والدفاع فى آن واحد ، ولو لم يسعفه الحظ بإطلال سُكان الشارع من نوافذ بيوتهم ، وبأيديهم القناديل ، وصراخهم طلباً للشرطة وفرار المهاجمين على إثر ذلك لما استطاع النجاة من برائن موت محقق .

فى تلك الأثناء كان المطروح أرضاً قد نهض لأن الطعنيتين اللتين تلقاهما صدره اصطدمتا - على ما يبدو - بدرع من الماس يرتديه تحت القميص . كانت قبعة "دون خوان" قد سقطت على الأرض فى أثناء المعركة ، ولما بحث عنها وجد أخرى فلبسها دون أن ينعم النظر فيما إذا كانت له أو لغيره . التفت إليه الناهض من على الأرض ، وقال له :

- إننى أدين لك بحياتى ، أيها الفارس الشجاع ، ومن ثم فأنا وما أملك مسخران من الآن لخدمتك . أخبرنى من أنت حتى أكون على بينة بمن أدين له بشكرى .

ردّ عليه "دون خوان" قائلاً :

- رغم أنى لست مهتماً بما فعلت سأستجيب - من باب اللباقة فقط - لطلبك وأقول لك إننى رجل إسبانى يدرس بمدينةكم هذه ، ولأنك قد تحتاجنى فى شيء آخر أقول لك إن اسمى هو "دون خوان دى جامبوا" .

- لقد أسديت إلى خدمة جليلة ومعروفاً لا ينسى ، لكنى لا أستطيع حالياً إماطة اللثام عن شخصيتى وسأוכל غيرى لإعلامك بها فى القريب العاجل .

كان "دون خوان" قد سأله من قبل عما إذا كان يعانى من أية إصابة لأنه شاهد الطعنيتين المسدنتين إلى صدره ، فأجابه الرجل قائلاً : "إن الدرع الشهير الذى أرتديه قد حفظنى - بعد عناية الله - منهما ، ورغم هذا فلو لم تكن إلى جوارى ما استطعت النجاة من سيوف أعدائى" . وبينما هما فى ذلك شاهدا كوكبة من الفرسان متجهة إليهما ، فقال له "دون خوان" :

- حذار يا صديقى ! فريما يكون القادمون من الأعداء ، وإن كنت لا أظن ذلك نظراً للطريقة التى يسيرون بها نحونا .

كان ما توقعه "دون خوان" صحيحاً لأن القادمين الثمانية التفوا حول الناهض من على الأرض وتبادلوا معه بعض الكلمات الهامسة ، ويعدها توجه الرجل إلى "دون خوان" وقال له :

- لقد أصبحت الآن في مأمن بوصول هؤلاء الأصدقاء ، ولم أعد أخشى شيئاً ، ولذا أرجو منك العودة إلى منزلك .

قال هذا وهو يتحسس رأسه ، ولما لم يجد عليها القبعة طلب من رفاقه إعارته واحدة لأن التي كانت على رأسه سقطت في خضم المعركة ، بادر عندئذٍ دون خوان بوضع القبعة التي عثر عليها في الشارع على رأس الرجل الذي تحسّسها ثم قال له :

- إنها تخصك من الآن يا "دون خوان" ، خُذها كنيشان للمعركة التي دارت رحاها منذ قليل ، احتفظ بها ولا تفرط فيها لأنها مشهورة في كافة أنحاء المدينة والمناطق المجاورة وستدلك على صاحبها .

امتلئ "دون خوان" لرجائه ثم تركه دون أن يعرف من هو ، أخذ طريق العودة إلى البيت ولم يجرؤ على الاقتراب من المنزل الذي تسلم منه المولود لأن الحي كان قد استيقظ بأكمله .

التقى في منتصف الطريق مع زميله "دون أنطونيو دى إيسونثا" ، الذي قال له فور رؤيته :

- ارجع معي ، وسأقص عليك في الطريق وقائع حكاية عجيبة لم تسمع بمثلها من قبل .

- وأنا من جانبي سأخبرك بأخرى أعجب منها - رد عليه دون خوان - لكن هيا بنا إلى حيث تريد وهات ما عندك أولاً .

أمسك "دون أنطونيو" بدفة الحديث قائلاً :

- بعد مغادرتك للبيت بما يزيد عن ساعة خرجت للحاق بك ، وعلى بُعد حوالي ثلاثين خطوة من هذا المكان شاهدت جرماً أسود يتحرك مسرعاً نحوى ، ولما اقترب أدركت أنه لامرأة متشحة بعباءة سوداء طويلة ، سألتني

بصوتٍ متقطعٍ من جِراءِ البكاء والنشيج : "هل أنت ، على سبيل المصادفة ، أجنبي؟" . "نعم، أنا إسباني" - أجبتها - . "حمداً لله - قالت - فأنا لا أريد أن ألقى ربي دون اعتراف" . "هل أنت جريئة ياسيدتي ، أو تعانين من داءٍ لا برء منه؟" - سألتها - . "قد يقتلني ما أعانى منه لو لم تدركني عناية الله ، بحق الشهامة والنخوة السائدتين في وطنك أتوسل إليك أيها السيد الإسباني كي تنتشلني بسرعة من هذه المنطقة وتحملني إلى دارك، وهناك ستعرف - لو أردت - ما أكابده ومن أكون ، رغم أن هذا سيكون على حساب سمعتي" . حين سمعت هذا منها أدركت أنها بحاجة فعلاً لما تطلبه ، لم ألح في السؤال عندئذ وبادرت بإمساك يدها ويممت شطر البيت متفادياً السير في الشوارع الرئيسية. فتح لي الباب "سانيستيبان" - الخادم - أمرته بالانصراف ، ودون أن يراها أحد أخذتها إلى غرفتي ، لم تكد تدخل الغرفة حتى سقطت فوق سريري مغشياً عليها. اقتربت منها وأمطت من على وجهها النقاب فطالعتني جمال لم تقع على مثله عين بشر. بدا لي أنها في الثامنة عشرة من العمر ، واحتمال النقصان عن هذه السن أقرب من احتمال الزيادة. أصابني جمالها الأخاذ بالذهول ، ألقىت على وجهها بعض الماء فاستردت وعيها بتنهيذة حنونة ، سألتني فورَ صحوها : "ألا تعرفني أيها السيد؟" ، "لا - أجبتها - لم أسعد من قبل بالتعرف على هذا الجمال الفتان" . "قد يكون نقمة على من حُبَّته به السماء - قالت - ، لكن دعنا من هذا لأن الوقت لا يتسع للإطراء والمديح بل يقتضى العمل لتفادي النكبات ، أرجوك أن تغلق على باب هذه الغرفة وألا تدع أحداً يراني ، عدُ إلى المكان الذي التقيتني فيه ، وإذا وجدت هناك معركة حامية الوطيس لا تتدخل لنصرة طرف على طرف بل للفصل والمصالحة بينهما لأن الأذى الذي سيصيب أيهما سيضعف آلامى وأحزاني" . وها أنذا قد أتيت لأفرض اشتباك الفريقين المتناحرين بعد أن تركتها حبيسة بين جدران غرفتي .

- أهذا كل ما عندك يا "دون أنطونيو" ؟

- وهل ما ذكرته لك حتى الآن يُعتبر قليلاً ؟ لقد سمعتنى أقول إن باب غرفتى مغلق على جمال لم تقع على مثله عين بشر.

- ما رويته عجيب حقاً - قال دون خوان - ومع هذا ستستمع منى إلى ما هو أغرب وأعجب.

ثم قصّ عليه ما جرى بالتفصيل ، وكيف أن المولود الذى أعطوه له قد سلمه بدوره لمديرة المنزل وكلفها بتغيير لفائفه الغالية بأخرى رخيصة ، وحمله إلى إحدى الممرضات لتربيته ، أو - على الأقل - لتلبية احتياجاته الآتية . أخبره أيضاً أن المعركة التى يبحث عنها قد انتهت دون خسائر ، وأنه شارك فيها ، كما كشف له عن ظنه بأن الذين خاضوا تلك المعركة كانوا من سادة المدينة وكبرائها .

تعجب الصديقان لما جرى لكليهما ، وانطلقا عائدين إلى البيت للنظر فى أمر السيدة المحبوسة . وفى الطريق قال "دون أنطونيو" لدون خوان إنه وعد تلك السيدة بألا يراها ولا يدخل عليها أحد سواه ، وإنه سيظل ملتزماً بهذا الوعد ما لم تغير رأيها .

- لا داعى للقلق بهذا الشأن - ردّ عليه دون خوان - ، وإن كانت مبالغتك فى وصف جمالها قد أثارت لدى الفضول لرؤيتها .

وصلا بعد ذلك إلى البيت ، وعلى ضوء المشاعل التى حملها الغلمان الثلاثة الذين يتولون خدمتهما شاهد "دون أنطونيو" قبعة مرصعة بالماس على رأس دون خوان . مَدَّ يده إليها وأخذ يتأمل حبات الماس التى يسطع نورها من جميع الاتجاهات . عاود النظر إليها ثم أمسكها سوياً وراحا يقلبان فيها البصر ، خلصا بعد فراغهما من التأمل إلى أن قيمة الماس الموجود عليها تصل - إن كان حقيقياً وليس مصطنعاً - إلى اثنتى عشرة ألف "دوكادوس" . ومن هنا استنتجا علو مقام الذين شاركوا فى المعركة ، لاسيما الرجل الذى أعانه "دون خوان" . تذكر عندئذ "دون خوان" طلب الرجل منه الاحتفاظ بالقبعة لأنها مشهورة وستدله على صاحبها . أمرا الغلمان بالانصراف ، فتح "دون أنطونيو" باب غرفته فألقى السيدة جالسة على السرير تبكى ورأسها بين يديها . ولما كان "دون خوان" شغوباً برؤيتها فقد أطلَّ برأسه من فتحة الباب ، وعندئذ لمحت الباكية بريق الماس الصادر من قبعة فنادت عليه :

- تفضل بالدخول ياسيدى الدوق . لِمَ التَّحَرَّجُ ، ألا تريد رؤيتى ؟

- لا يوجد هنا أى دوق يتخرج من رؤيتك - رد "دون أنطونيو" .
- كيف ؟ إن الذى أطلّ الآن من فتحة الباب هو "ألفونسو دى إيستي" ، دوق فيرارا ، قبعته الشهيرة لا تخفى على أحد .
- القبة التى شاهدها الآن ليست على رأس دوق ، لو أردت التعرف على مرتديها أعطه الإذن بالدخول .
- ادخل يا هذا ، أياً من تكون ، لو لم تكن من أظنه فيا الشقوتى وسوء حظى !
- كان "دون خوان" يُنصت للحوار السابق ، وما إن سمع الإذن بالدخول حتى دخل القبة فى يده ، ولما وقف أمامها ورأت أنه ليس صاحب القبة النادرة قالت بصوت متلعثم ولسان متلجلج :
- يا لسوء حظى ! أخبرنى يا هذا ولا تدعنى فريسة للهواجس : أتعرف صاحب هذه القبة ؟ كيف تركته ، وكيف آلت إليك ؟ هل هو حى يرزق ، أم أن ما تأتىنى به هو دليل موته ؟ آى ، يا حياى ، لم كل هذا ؟ ها أنذا أطلع أشياءك ، وأرانى بدونك حبيسة وفى قبضة الخوف من فقدان عفتى لو لم أكن أعرف أننى فى كنف إسبانيين شريفيين .
- هدنى من روعك ياسيدتى - قال دون خوان - فصاحب القبة لم يمت ، ولست فى جانب من يخشى منه السوء ، بل فى حمى رجلين على استعداد لبذل كل ما فى وسعهما لخدمتك ، ولن يضنا بحياتهما فى سبيل صونك والذود عنك ، إذ ليس من الإنصاف أن تهتز ثقتك فى نبيل الإسبان ونخوتهم ، ونحن دون شك من خيرتهم - وفى هذا المقام لا مانع من الفخر - اطمئنى إذن إلى أننا سنحافظ على ما يطلبه وجودك من وقار وحشمة .
- أنا متأكدة من هذا ، لكن حدثنى بريك عن كيفية وقوع هذه القبة فى حوزتك ، وأين التقيت بصاحبها وهو ليس من سواد الناس ، بل "ألفونسو دى إيستي" ، دوق فيرارا (٤) .

(٤) هو ألفونسو الثانى (١٥٣٣ - ١٥٩٧) دوق فيرارا ، وكان - طبقاً للمؤرخين - مولماً بالأبهة والفخامة أكثر من اهتمامه بالفنون الجميلة ، وقد مات دون أن يلج من زواجه الثلاث ، ولذلك أوصى لابن عمه "ثيسار" (١٥٥٢ - ١٦٢٨) بحكم فيرارا من بعده . (المترجم)

عندئذ حكى لها "دون خوان" - حتى لا يدعها فريسة للهموم أكثر من ذلك - قصة المعركة التى خاضها إلى جوار فارس - لاشك أنه دوق فيرارا ، كما تقول - وكيف فقد الفارس قبعته فى أثناء سير المعركة ، وعندما عثر عليها وأراد ردها إليه قال له اجتفظ بها لأن شهرتها ستدله على صاحبها ، كما أخبرها أن المعركة انتهت دون أن يصاب أى منهما بأذى ، وفور انتهائها وصل عدد من الأشخاص - وهم على ما يبدو من أصدقاء أو أتباع من يحسبه دوقاً - فطلب منه تركه "مبدئياً لى شكره العميق على الخدمة الجليلة التى قدمتها له" .

- وبهذا الشكل ياسيدتى وصلت إلى القبة النادرة ، أما صاحبها - إن كان هو الدوق ، كما تقولين - فقد تركته منذ أقل من ساعة سليماً معافى ، ولعل ما أخبرتك به الآن يكون فيه بعض السلوى والعزاء لك .

- لكى تحكما على ما إذا كان معنى الحق فى السؤال عنه أرجو منكما سماع حكايتى التى لا أدرى إن كانت تعيسة أو لا .

كانت مدبرة المنزل مشغولة حتى تلك اللحظة بتحنيك فم الطفل بالعسل ، وتغيير لفائفه استعداداً للخروج به إلى إحدى القابلات - تنفيذاً لأمر دون خوان - وفى أثناء مرورها من على الغرفة التى توجد بها من تهم بقص حكايتها بكى الطفل فأحست به تلك السيدة ، هبت عندئذ واقفة وأصاحت السمع فالتقطت أذناها الصوت الباكى بوضوح ، سألت :

- ما هذا الصوت الذى يبدو وكأنه لخليقة حديثة العهد بالولادة ؟

أجاب دون خوان :

- إنه لطفل سلموه لى هذا المساء من باب أحد البيوت ، ومدبرة المنزل فى طريقها للبحث له عن مرضعة .

- بالله عليكما انتيانى به ، سأقوم بهذه المهمة الإنسانية للأبناء الغرباء مادامت السماء قد حرمتنى من تقديمها لمن هو من دمنى ولحمى .

نادى "دون خوان" على المدبرة ، أخذ منها الطفل ثم دخل به الغرفة ووضعه بين ذراعى الطالبة وهو يقول :

- إليك ، ياسيدتى ، لُقطة هذا المساء ، إنها ليست المرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة ، إذ لا تكاد تمر بضعة أشهر حتى نعثر على مثلها فى "طاقة" الباب .

أخذته بين ذراعيها وراحت تتأمل وجهه ولقائفه الرخيصة (وإن كانت نظيفة) ،
ودون أن تستطيع التحكم فى دموعها قامت على الفور بإسدال خمارها على صدرها
لتتمكن من إرضاعه بما يتناسب مع حيائها وعفافها ، بعد النقام الرضيع للثدى
ألصقت وجهها بوجهه وبللته بالدموع . ظلت هكذا - والصمت يخيم على أربعتهم -
طيلة الوقت الذى كان يحاول فيه الطفل الرضاعة . لم يكن فم الطفل يتلقى شيئاً ، هذا
لأن نزول اللبن فى صدور حديثات العهد بالولادة يتطلب وقتاً ، حين فطنت لتلك
الحقيقة التفتت إلى "دون خوان" وقالت له :

- لقد ذهبت محاولتى سدى ، يبدو أننى عديمة الخبرة فى هذا المجال ، مرهمُ
بتحنيك فمه بالعسل ، ولا تسمح لهم بحمله خارج البيت فى هذه الساعة ،
انتظر طلوع النهار ، وقبل ذهابهم به أود رؤيته ثانية لأن حضوره يخفف
من أحزانى .

أعاد "دون خوان" الطفل إلى المدبرة أمراً إياها بالعناية به حتى يطلع النهار ويلفّه
بالدُّثر الغالية التى كانت عليه وألا تحمله خارج البيت إلا بعد مرورها عليه . عاد بعد
ذلك إلى الغرفة ، وما إن أغلق بابها على ثلاثتهم حتى قالت الحساء :

- لو أردتما سماع حكايتى أعطيانى أولاً شيئاً أتبلِّغ به لأننى على وشك الدخول
فى إغماءة من فرط الجوع .

اتجه "دون أنطونيو" إلى خزانة وأخرج منها كمية كبيرة من الأغذية المحفوظة ،
تناولت السيدة بعضها وشربت إناءً من الماء البارد فزالَت عنها بؤادر الدُّوار . قالت فى
شئ من السكينة :

- والآن اجلسا حتى تسمعانى .

امتثلاً لأمرها ، جلست منكمشة على السرير ولَفَّت نفسها بطرف العباءة ثم أزاحت
الخمار من على رأسها فانسدل على ظهرها ، وعندئذ ظهر وجه يشبه القمر ، أو -
بمعنى أصح - يضارع الشمس الوضّاحة المشرقة ، تحدّرت من عينيها حبات اللؤلؤ
فامتدت يدها لحجبها بمنديل ناصع البياض (لم يكن باستطاعة الراى التمييز - من
شدة البياض - بين اليد الممدودة والمنديل واللؤلؤ المذاب) ، وبعد فاصل من الزفريات

والمحاولات العديدة من جانبها للسيطرة على مشاعرها قالت بصوت متلعثم يشوبه الألم :

- أنا ، أيها السيدان ، التى سمعتما - بالتأكيد - اسمها يتردد فى أنحاء المدينة لأن الإشادة بجمالى تتناقلها غالبية الألسن. أنا "كورنيليا بنتيبوللى" بشحمها ولحمها ، أخت "لورينثو بنتيبوللى" ، وبما تقدم ذكره أكون قد أخبرتكما بشيئين : بأصلى العريق النبيل ويشهرتى فى الجمال. مات أبواى وأنا طفلة صغيرة فكفالى أخى الذى استعان على صونى بالعفة ذاتها، إذ اعتمد فى رعايتى وحمايتى على صفتى الشريفة والنبيلة أكثر من اعتماده على الحراس والرُقباء. وهكذا - وأنا حبيسة جدران البيت وبين أسوار العزلة، فى صحبة خادماتى فقط - ترعرعت وشبت معى شهرتى فى الفطنة والعفة والجمال. لكن هذه الشهرة لم تظن حبيسة جدران البيت طويلاً بل نشرت على الملأ نتيجة لثروة الخادومات والأقارب ، وبفضل اللوحة التى كلف أخى أحد الرسامين برسمها لى لتكون - على حد قوله - بمثابة ذكرى لحياتى بعد انتقالى إلى الرفيق الأعلى .. وكل ما تقدم ذكره لم يكن سيعجل بضياعى لو لم يشاهدنى دوق فيرارا فى حفل الزواج الذى كفله لابنة عمى ، وحملنى إليه أخى بهدف التسرية عنى وتشريف قريبتى. فى الحفل شاهدتلى العيون ، وهناك - حسبما أعتقد - استوليت على القلوب وسحرت الأبواب ، أحسست هناك بمدى ما يشيعه المديح فى النفس من سعادة حتى لو كان صادراً عن ألسن متملقة مداهنة ؛ المهم أننى رأيت الدوق هناك ، وأنه رآنى ، وأن ما أكابده الآن إنما هو من توابع تلك الرؤية. لا أريد الاسترسال فى بيان الوسائل والطرق التى لجأنا إليها حتى نلتقى على مدار سنتين بعدها لأننى لو شرعت فى سردها فلن أنتهى منها أبداً. يكفى القول بأن لهفة التلاقى لإطفاء جذوة الشوق المستعرة فى قلبينا كانت قادرة على تخطى كافة الحواجز وتذليل أعتى العقبات ، وأن هذا التلاقى لم يكن ليتم إلا تحت مظلة الوعد الذى أعطاه لى بالزواج ، إذ يستحيل أن تستسلم صخرة إرادتى الشريفة الشجاعة فى غيبة هذا الوعد. طلبت منه آلاف المرات التقدم لخطبتى من أخى لأن الظروف كلها مهيأة لتكليل

مسعاه بالنجاح : فأخى لن يمانع فى قبوله ، ومن جهة أخرى فإنه لن يضطر إلى البحث عن مبرر لهذه الزيجة أمام عامة شعبه لأن نبالة عائلة " بنتيبوللى " لا تقل عن عراقة عائلة " إستنسى " التى ينتمى إليها ، لكنه كان يختلق الأعذار الواهية فى كل مرة . وبما أننى كنت مدلهة فى حبه فقد تناسيت كل هذا وسلمت له نفسى طائعة مختارة بتدبير من إحدى خادمتى التى أعمتها هداياه الكثيرة ، وأنستها واجبها نحو أخى فى الحفاظ على ورعايتى وصونى . المهم أننى شعرت بالحمل بعد عدة أسابيع ، وقبل أن تفصح الملابس أمارات طيشى ونزقى تظاهرت بالمرض والاكتئاب وجعلت أخى ينقلنى لبیت ابنة عمى (التى كفل الدوق زواجها) كى أقيم عندها فترة من الزمن . ومن هناك جعلته يتعرف على حالى ، وعلى الخطر الذى يمسك بتلاليبى ويهدد حياتى لأننى لاحظت أن أخى بدأت تساوره الشكوك فى تصرفاتى . اتفق معى على الانتظار ومراقبة الموقف حتى الشهر الأخير من الحمل لأنه سيأتى بصحبة مجموعة من أصدقائه خلال ذلك الشهر ويحملنى إلى فيرارا لإعلان زواجنا هناك .. وفى ليلتنا هذه جاءنى رسول يخبرنى بقدومه ، وفى أثناء انتظارى له شاهدت أخى مع لمة مسلحة من الرجال فاعترانى خوف شديد ، ومن الخوف جاءنى المخاض فجأة فوضعت طفلاً جميلاً قامت خادمتى (وهى الوسيطة بيننا والمطلعة على أسرارنا) بلفه فى دثر غالية ، لا تتشابه مع لفائف المولود الذى رأيته عندكما ، ثم خرجت به إلى الباب وسلمته - كما أخبرتنى - لواحدٍ من خدم الدوق . لملمت شعثى قدر ما استطعت ، وتحاملت على نفسى وخرجت من البيت معتقدة أننى سأجد الدوق منتظراً فى الشارع . ما كان ينبغي لى فعل ذلك قبل التأكد من وجوده ، لكن سيف الخوف المسلط على رقبتى من قبل زمرة أخى المسلحة لم يترك لى خياراً آخر . وهكذا فقد خرجت شاردة اللب إلى حيث جرى لى ما تعرفان بقيته : أى دون ابن أو زوج ونهباً للمخاوف من وقوع ما هو أسوأ ، ورغم هذا أتوجه إلى السماء بالشكر؛ لأنها ألقت بى فى حماكما الذى أمنى فيه النفس بالتمتع بنخوة الإسبان وشهامتهم وكرم أخلاقهم ، لاسيما إذا كانوا - كما يبدو لى - من عليه القوم مثلكما .

قالت هذا ثم انكفأت على السرير فظنا أنها دخلت فى إغماءة ، ولما اقتربا منها ولم يجداها كذلك ، بل تبكى بحرقه ومرارة ، قال لها دون خوان :

- إذا كنا قد رثينا لحالك وأشفقنا عليك قبل معرفة قصتك لأنك امرأة ، فإننا بعد معرفتها ملزمون بخدمتك والوقوف إلى جوارك . تشجعى ولا تضعفى ، فأنت رغم عدم اعتيادك على مثل هذه المواقف قادرة على إظهار معدنك الأصيل بالتغلب عليها وتجاوزها . أنا واثق ، أيتها السيدة الكريمة ، من النهاية السعيدة لتلك الأحداث الغريبة ، فمن غير المعقول أن تسمح السماء بتعذيب الجمال الباهر أو بتشويه النوايا العفيفة . استريحى ، تصرفى كأنك فى بيتك تماماً ، وإن شئت سمحنا لخدمتنا - وهى محل ثقة - بالدخول عليك لتلبية حوائجك . إنها ستعرف كيف تحافظ جيداً على سرك مثلاً ستفانى فى خدمتك والسهر على راحتك .

- لتدخل على من تريد ، فما دمت فى كنفكما يجب ألا أخشى شيئاً ، ورغم هذا أرجو ألا يرانى أحد غيرها .

- لك هذا - رد عليها "دون أنطونيو" .

خرج الاثنان من الغرفة وتركها وحيدة ، سأل "دون خوان" مدبرة المنزل عن تغيير اللقائف المتواضعة للطفل بلقائفه الأصلية ، ولما أجابته بنعم أمرها بالدخول على السيدة ولقنها الإجابات التى سترد بها عليها .

حين دخلت المدبرة بالطفل ورأته "كورنيليا" قالت :

- هلمى أيتها الصديقة ، أعطنى الطفل وقربى هذه الشمعة .

فعلت المدبرة ما أمرت به ، أخذت كورنيليا الطفل بين ذراعيها ، وبعد إنعامها النظر فيه ارتجفت بكاملها وسألت المدبرة :

- هل هو الطفل نفسه الذى شاهدته من قبل ؟

- نعم ياسيدتى .

- إذن ، ما هذه الدُّر الغالية الملفوف فيها ؟ أهى له ، أم أنها لطفل آخر ؟

- كل هذا ممكن - ردت المدبرة .

- كيف يكون ممكناً ؟ سيفطر قلبي إذا لم أعرف الحقيقة . أستحلفك بكل ما تحبين بأن تعيدي إلي صوابي بجل هذا اللغز . من أين لك هذه اللفائف ؟ إنها - إن لم تخنى الذاكرة أو تخدعني عيناى - ملكى ، وأنا صاحبها . فى هذه الدُثر ، أو فى أخرى قريبة الشبه منها ، لفلت حشاشة قلبي وسلمتها لخدمتى . من الذى انتزعها من على وليدى ؟ آى ، يالكتبى ! من الذى أحضرها إلى هنا ؟ آى ، يالسوء حظى !

كان "دون خوان" و "دون أنطونيو" يستمعان لهذه الشكوى المريرة ، ولما خافا على السيدة من مغبة التماذى فى خدعة اللفائف دخلا عليها الغرفة وقال لها دون خوان :

- الطفل والدُثر يخصانك ياسيدة كورنيليا .

ثم حكى لها بالتفصيل كيف أنه كان الشخص الذى استلم المولود من خادمتها ، وكيف حملة إلى البيت وأمر المدبرة بتغيير لفائفه لعلها بينها لها ، وكيف تأكد من أنه ابنها الذى تبحث عنه فور سماعه لحكايتها ، وأنه وإن كان لم يخبرها بذلك فى حينه فلكى يضاعف من سرورها لحظة العثور عليه بعد حالة الشك التى انتابتها حين رآته أول مرة .

انهمرت عندئذ - وبلا انقطاع - دموع الفرح من عيني كورنيليا ، وبلا حساب أيضاً أمطرت ابنها بسيل من القبلات ، كما وجهت كلمات لا تحصى من الشكر للرجلين ونعتتهما بصفات عظيمة سامية لا يتسع المقام لذكرها . تركاها مع مدبرة المنزل ، وأوصيا الأخيرة بتلبية كافة احتياجاتها ورعايتها لأنها امرأة مثلها وتفهم أكثر منهما فيما تحتاجه من متطلبات .

انسحبا بعد ذلك (وفى نيتهما عدم الدخول على كورنيليا ثانية إلا إذا طلبتهما أو كانت هناك ضرورة ملحة) لينعما ولو بقسط ضئيل من الراحة فى الجزء الباقي من الليل . حين أشرق الصباح أحضرت المدبرة - فى تكتم شديد - مرضعة للطفل . سألا المدبرة قبل ذهابهما إلى الجامعة عن حالة "كورنيليا" فأخبرتهما بأنها لم تسترح إلا قليلاً . وفى طريقهما إلى الجامعة تعمدا المرور بالشارع الذى حدثت فيه

المعركة وببيت كورنيليا لتلمس آخر الأخبار، لكنهما لم يحسا بشيء غير عادي ، ولم يسمعا شيئاً عن المعركة ولا عن غياب كورنيليا . تلقيا دروسهما ثم عادا إلى البيت .

نادت عليهما كورنيليا - والمديرة عندها - فأجاباهما قائلين : إنهما عقدا العزم على ألا يضعا أقدامهما في غرفتها مراعاة لما يتطلبه عفافها من صيانة ، لكنها توسلت إليهما وهي تذرف الدمع قائلة : إن قواعد اللياقة تقتضى فعل ما هي بحاجة إليه حتى لو كان متعلقاً بمواساتها والتسرية عنها . دخلا عندئذ فاستقبلتهما بوجه بشوش وبكلمات مهذبة ثم طلبت منهما الخروج إلى شوارع المدينة لمعرفة آخر الأخبار المتعلقة بغيابها . قالوا لها : إنهما تقصيا الأمر ، ولم يسمعا شيئاً .

وما إن فرغا من إجابتهما السابقة حتى وصل إلى باب الغرفة أحد من غلمانهما الثلاثة وقال والباب موصد :

- على باب البيت رجل - برفقة خادمين - اسمه "لورينثو بنتيبوللي" يسأل عن سيدى "دون خوان دى جامبوا" .

حين سمعت هذا كورنيليا كوّرت كفيها ووضعتهما على فيها ، ومن بينهما خرج صوت مرتجف هامس يقول :

- إنه أخى ، لقد عرف أننى هنا وجاء ليقْتلنى . النجدة ، الغوث !

- هدئى من روعك ياسيدتى - قال دون أنطونيو - فأنت فى حمى من يستطيع صونك من أى أذى بهذا العالم مهما بلغ حجمه . هيا يا "دون خوان" اهبط درجات السلم وانظر فيما يريده الرجل ، أما أنا فسأبقى هنا للدفاع عن كورنيليا إذا لزم الأمر .

نزل "دون خوان" برباطة جأش يحسد عليها ، أحضر "دون أنطونيو" مسدسين محشوين وأمر الغلمان الثلاثة بامتشاق سيوفهم ، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد .

كانت مدبرة المنزل ترتجف من شدة الفزع ، وكورنيليا ترتعد فرائصها خوفاً من حدوث كارثة ، أما "دون خوان" و "دون أنطونيو" فقد كانا الوحيديين اللذين ظلا

متماسكين وعلى وعي تام بما يجب عليهما فعله ، التقى "دون خوان" بدون لورينثو على عتبة باب البيت فقال له الأخير :

- أرجو منك اصطحابي إلى تلك الكنيسة المواجهة لبيتك لأن هناك مسألة خطيرة تتعلق بالشرف أود إطلاعك عليها.

- على الرحب والسعة ، هيا بنا إلى حيث تريد.

مشياً متجاورين باتجاه الكنيسة ، وبعد أن جلسا على مقعدٍ منزوٍ حتى لا يسمعهما أحد كان لورينثو هو الذى افتتح الحوار بقوله :

- أنا ، أيها السيد الإسباني ، "لورينثو بنتيبوللى" ، لست من مشاهير الأغنياء بالمدينة وإن كنت من أنبل نبلائها وأشرفهم. ولما كانت هذه الحقيقة لا تخفى على أحد فى بولونيا فإنى اعتبرها بمثابة اعتذار للثناء على نفسى. لقد مات أبواى وأنا فى شرخ الصبا فأصبحت وصياً على أختى التى حباها الله بنعمة الجمال ، ولو لم يكن الأمر يتعلق بأختى فلربما تماديت فى وصف محاسنها الفريدة إلى ما لا نهاية . دفعنى نبلى ، من جهة ، وجمالها الفتان وسنوات عمرها الغض ، من جهة أخرى، إلى شدة الحرص فى الحفاظ عليها وصونها، لكن العاطفة المشبوبة والطبيعة المتهالكة لأختى كورنيليا (وهذا اسمها) أطاحت بكل الموانع والسدود التى اجتهدت فى بنائها وتحصينها. ولتوخى الإيجاز فيما يمكن أن يكون قصة طويلة أقول إن "ألفونسو دى إيستى" ، دوق فيرارا ، استطاع - بعينيه الثاقبتين الماكرتين^(٥) اللتين تفوقان عيني "أرجوس" - اختراق دفاعاتى الحصينة والاستيلاء عليها. لقد أخرجها ليلة أمس من بيت إحدى قريباتى وحملها - كما أخبرونى - بعد ولادتها لطفل جميل. لم أعلم بهذا إلا فى الليلة الماضية ، وما إن علمته حتى خرجت للبحث عنه ، وأعتقد أننى وجدته ، وأعملت فيه سيفى ، لكن السماء أنقذته بملاك حال بينى وبين تطهير شرفى بدمه. أخبرتنى قريبتى أيضاً أن الدوق خدع أختى تحت ستار الوعد بالزواج ، وأنا

(٥) الكلمة الواردة فى النص الأصلي هى lince وتُطلق على حيوان ثاقب النظر (وشق) ، أما "أرجوس" فهو لشخصية أسطورية يضرب بها المثل فى قوة الإبصار . (المترجم)

لا أثق في وعده هذا لعدم التكافؤ بينهما في الثروة والجاه ، وإن كانت لا تقل عنه نبالة وأصلاً. لقد تذرع الماكر بذريعة الأقوياء في التلويح بعرض الزواج حينما يشتهون فتاة عفيفة غير متمرسه ، وعندما يقضون وطهرهم ينكسون على أعقابهم ويتنكرون لوعودهم ، إنها مجرد أباطيل يريدون إلباسها ثوب الحقائق وإن كانت نواياهم الفاسدة تكشف زيفها. وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فالحقيقة التي لا مرأى فيها أنني غدوت بلا أخت أو شرف. إنني لم أخبر إلى الآن أحداً بنكبتى حتى أتمكن من علاجها بأية طريقة ، فالأفضل في قضايا الشرف أن تظل طي الكتمان ومحاطة بالشكوك لأن الناس في هذه الحالة ستتردد بين التصديق والإنكار وستنحاز كل طائفة لوجهة النظر التي تروقها. خلاصة القول أنني عقدت العزم على الذهاب إلى فيرارا لمواجهة الدوق ومطالبته برد شرفى وغسل عارى ، وإذا رفض سأتحده ، ولن يكون التحدى بإعداد كتائب الفرسان لأننى لا أستطيع تكوينها أو إعاشتها ، بل سيكون رجلاً لرجل ، ومن أجل هذا أحتاج لمؤازرتك ووقوفك إلى جوارى فى مهمتى الصعبة ، وأنا واثق من أنك لن تخيب رجائى لأنك إسباني ، وفوق هذا - حسبما أخبرونى - رجل أصيل وفارس لا يشق له غبار. لم أبح بسرى هذا لقريب أو صديق لأننى لا أنتظر منهما سوى النصائح ومحاولات التثبيط ، وعلى خلاف هذا أتوقع منك أعمالاً حاسمة وجليلة حتى لو واجهت فى سبيلها الأخطار ، بإمكانك أن تسدى إلى هذا المعروف لأن وقوف إسباني أصيل وصنديد مثلك إلى جوارى يعادل - فى عيون الأعداء - جيش "خيرخيس" العظيم (٦). إن ما أطلبه منك زائد عن الحد بكل المقاييس ، لكنى أتعشم فيما تدين به لشهرة بلادك فى المروءة والإقدام.

- لا داعى للمزيد ياسيد لورينثو - قال "دون خوان" الذى ظل ملازماً للصمت طيلة الكلام السابق ولم يقاطعه - اعتبرنى من الآن شريكك

(٦) تولى خيرخيس Jerjes حكم فارس خلال الفترة التى ثار فيها المصريون على الاحتلال الفارسى لبلادهم ، ويقال إنه مات مقتولاً (عام ٤٦٤) بأيدى أصدقائه ابنه "أرتاخيرخيس". (المترجم)

وناصحك لأن قضيتك أصبحت قضيتي ، وعلى عاتقي تقع مسئولية حلها
بما يرضيك أو الانتقام لها ، وتصرفي هذا ليس نابعاً من كوني إسبانياً
فحسب بل لأنني أيضاً رجل شريف وأصيل كما تقول ، وكما يعرف عني
العالم بأسره . اختر الوقت المناسب للرحيل ، وأتمنى أن يكون قريباً جداً لأن
السيوف البواتر تعمل بكفاءة وحديدها ساخن ، ولأن حدة الغضب تلهب
الحماس ، والإهانة الحديثة توقظ دواعي الانتقام .

نهض "لورينثو" وعانق دون خوان بحرارة ثم قال له :

- لقد أسقطت بمروءتك وشهامتك وقلبك الكريم كل ما يمكن للمرء التلويح به
من فائدة أو منفعة مهما عظمتا في مقابل هذا الموقف الشجاع ، ومن ثم لا
أجد ما أقوله سوى أنني أدين لك بحياتي وبكل ما أملك إن خرجنا سالمين
من هذا المأزق الخطير . أريد الرحيل صباح الغد لأن بقية يومنا هذا
سأقضيها في إعداد العدة اللازمة لإنجاز المهمة .

- حسناً - قال دون خوان - وأرجو أن تأذن لي ياسيد "لورينثو" في إطلاع
صديقي وزميلي على هذا الأمر ، وهو لا يقل عني مروءة أو كتماناً للسر إن
لم يكن يزيد .

- بما أنك قد حملت طواعية على كاهلك قضية شرفي فلك مطلق التصرف
فيها وإخبار من تريد بما تشاء ، لاسيما إذا كان زميلك وموضع ثقتك .

تعانقا ، وألقى كل منهما على الآخر بتحية الوداع بعد اتفاقهما على اللقاء صبيحة
اليوم التالي لامتطاء جواديهما ومغادرة المدينة ملثمين حتى لا يتعرف عليهما أحد .

رجع "دون خوان" إلى البيت وأخبر "دون أنطونيو" و "كورنيليا" بما جرى في
لقائه مع "لورينثو" .

- إنا لله وإنا إليه راجعون ! - قالت "كورنيليا" - إنني لأعجب حقاً من كرمك
الزائد وثقتك العمياء في الآخرين . كيف وافقت بهذه السرعة على تحمل
مسئولية محفوفة بالمخاطر ؟ أوافق أنت مما إذا كان أخي سيأخذك إلى
فيرارا أو إلى أي مكان آخر ؟ ورغم أنني عليمة بأنك ستكون في صحبة
الوفاء ذاته أيًا كانت وجهتكما إلا أن نكبتى الأليمة جعلتني أتعثر في ذرات

الشمس ، وأتوجس خيفة من كل خيال . ألا يحق لى الخوف أياً السيدان ومصيرى - حياة أو موتاً - معلق بإجابة الدوق ؟ ومن أين لى العلم بما ستكون عليه إجابته إذا لم يكظم أخى سورة غضبه ويراعى اللباقة فى مخاطبته ؟ ألا تعرفان أننى سأظل كالمعلقة طوال الأيام التى ستقضيانها فى تلك المهمة ، خائفة ، شاردة اللب ، فى انتظار النتيجة ، سارة كانت أم مفاجئة ؟ ألا تريان أن حبى الموزع بين أخى والدوق سيجعل الشوكة التى يشاكها أحدهما تصيبنى فى القلب ؟

- تفكرين كثيراً وتخافين أكثر ياسيدة "كورنيليا" - قال دون خوان - لكن عليك بإفساح مكان فى مخاوفك للأمل ، ستسعين دون شك بتحقيق رغبتك إذا وضعت ثقتك فى الله ثم فى حسن تدبيرى وصدق عزمى . الذهاب إلى فيرارا لا رجعة فيه ، ولا مفر أيضاً من مساعدتى لأخيك . إننا لا نعرف حتى الآن ما يدور بخلد الدوق ، ولا بمدى علمه لغيابك ، ولا بد أن نسمع الجواب عن هذا من فمه شخصياً ، ولا يوجد أحد فى هذه الأنحاء قادر على سؤاله والتحاور معه غيرى . تقى تماماً من أننى سأحمل سلامة أخيك وسلامة الدوق فى إنسانى عينى اللتين أبصر بهما .

- لو أعانتك السماء يا "دون خوان" على حل هذه القضية الشائكة بسلام سأعتبر نفسى سعيدة الحظ . الآن أنا جد رغبة فى ذهابك وعودتك رغم أن روحى ستكون موزعة - حال غيابك - بين الخوف والرجاء .

أبدى "دون أنطونيو" موافقته التامة على القرار الذى اتخذته "دون خوان" ، وأثنى على موقفه الشجاع الذى جاء معادلاً للفة "لورينثو بنتيبوللى" فيه . قال له أيضاً : إنه يريد الذهاب معهما تحسباً لأى طارئ .

- أما هذا فلا - ردّ "دون خوان" - لكى لا نترك السيدة كورنيليا دون حماية ، وحتى لا يظن "لورينثو" أننى أعتمد على مجهودات الغير .

- لا تقل هذا لأن ساعدى هو ساعدك ، ولكى أعفك من الحرج دعنى أراقبكما من بعيد متخفياً ، لاشك أن هذا سيدخل السرور على السيدة كورنيليا التى لن تعد من يسهر على راحتها ويوفر لها الحماية .

تدخلت عندئذ كورنيليا قائلة :

- سأكون مطمئنة أكثر لو كنتما معاً ، أو على الأقل متقاربين ليعين أحكما الآخر وقت الحاجة ، لا تشغلا بالكما بى لأن احتمال تعرضى للخطر ضئيل بالمقارنة بما يتهددكما من أخطار ، وأرجو منكما حمل هذين الأثرين المقدسين ليكونا لكما بمثابة رقية أو تعويذة .

قالت هذا ثم أخرجت من عبها صليبا من الماس لا يقدر بثمن و"أجنوساً" (٧) من الذهب الخالص . نظرا إلى التحفتين مبهورين لكنهما أعاداهما إليها قائلين : إنهما لو حملا تمائم فلن تكون ثمينة هكذا . أحنزها عدم قبولهما التميمنتين لكنها رضخت فى النهاية لما ذهبإ إليه .

لم تكن مدبرة المنزل تدخر وسعاً فى العناية بكورنيليا وملاطفتها ، وبعد أن عرفت من سيديتها أنهما راحلان (دون أن يذكرأ لها شيئاً عن هدف الرحلة أو وجهتها) تعهدت - رغم جهلها حتى تلك اللحظة باسم السيدة وصفتها - بالتفانى فى خدمتها وصونها . ومع إشراقه صباح اليوم التالى كان "لورينثو" لدى الباب و"دون خوان" متأهباً للقائه وفوق رأسه القبعة الشهيرة التى زينها بريش أسود وأصفر ، وغطى بريق ماسها بشريط من القماش الأسود . ودّع الراحلان كورنيليا التى أجمها الخوف - نتيجة إحساسها بقرب أخيها - فلم تنطق بكلمة .

خرج دون خوان أولاً ، وفى معية لورينثو غادر المدينة ، حين وصلا إلى بستان بعيد بعض الشيء وجدا فى انتظارهما خادمين ممسكين بجوادين رائعين . امتطيا الجوادين ثم يمما - وأمامهما الخادمان - شطراً فيراً من المسالك والدروب الجانبية . كان "دون أنطونيو" على صهوة جواده الربعة ، متخفياً فى ملابس مستعارة ، يتبعهما من بعيد ، ولما أدرك أنهما أحسا به - وخاصة لورينثو - قرر السير فى الطريق العمومى وانتظارهما على مشارف فيرارا .

· لم تطق كورنيليا صبراً ويادرت - بعد مغادرة الإسبانين وأخيها للمدينة - بالكشف عن تفاصيل أزمتها لمدبرة المنزل : لم تخف عنها شيئاً يتعلق بالطفل والديه

(٧) "أجنوس" agnus : عبارة عن قطعة شمع (أو معدن) عليها صورة حمل ، أو صورة من صور القديسين التى باركها البابا . (المترجم)

أو برحلة الإسبانيين إلى فيرارا لمساندة أخيها في تحديه للدوق ألفونسو. سارعت المدبرة فور سماعها للقصة - وكان الشيطان قد تلبسها لتعقيد المشكلة أكثر وعرقلة حلها - بقول ما يلي :

- آه منك ياسيدتي ! أ يحدث كل هذا وأنت هنا رافلة في ثياب الغفلة واللامبالاة ؟ إما أنك بلا عقل أو متبلدة الحس . أعتقدين فعلاً أن أخاك ذاهب إلى فيرارا ؟ لو خامرك هذا الاعتقاد فما أفسد تفكيرك ! ألم يخطر ببالك أنه لجأ إلى هذه الحيلة ليبعد سيدى عن البيت ثم يعود لإزهاق روحك ؟ إنه لن يجد عنتاً في ذلك ، وسيفعله بسهولة ويسر كما لو كان يتجرع شربة ماء ، إذ لا يوجد لحمايتنا سوى ثلاثة غلمان جبنا ، على استعداد لتلبية داعى الفرار فور سماعهم لصغير الصافر . أنا - بصراحة شديدة - لا أملك الشجاعة لانتظار ما يتهدد هذه الدار من خطر . السيد لورينثو إيطالى قلباً وقالباً ، ورغم هذا يثق في إسبانيين ويطلب منهما المساعدة ! كيف ؟ أنا لا أصدق هذه المزحة السخيفة حتى لو حدثت بالفعل وأبصرتها عيناى . لو أردت النصيحة يابنتى سأقدمها لك ناصعة مشرقة تنير لك السبيل .

كانت كورنيليا تستمع - مذهولة ، شاردة اللب - الكلام الذى كانت تلقيه عليها المدبرة بإصرار وخوف شديدين جعلها تعتقد صدقه (وربما تخيلت ساعتها أن "دون خوان" و "دون أنطونيو" قد خرا صريعين ، وأن أخاها يقتحم عليها الباب ويمزقها إرباً بالسكين) ، ولذا فقد سألتها مثلثة :

- ما تلك النصيحة التى ستقذنى وتدرأ عني الخطر الوشيك ؟

- أرهفى السمع جيداً كى تتلقيا : لقد خدمت منذ فترة قسيماً يعمل فى قرية تبعد فرسخين فقط عن فيرارا ، وهو رجل صالح طيب القلب وسيفعل من أجلى كل ما أطلبه منه ، هذا لأن التزامه نحوى يتعدى كونه مخدومى (٨) .

(٨) لا يخفى ما تتضمنه الجملة الأخيرة (هذا لأن التزامه نحوى ...) من تعريض بالعلاقة غير السوية بين الخادمة والقيس ، وقد ثارت الشبهات فى عصر ثريانتس وقبله حول أمثال هذه العلاقة مما أدى فى النهاية إلى منع خدمة المتزوجات للقساوسة بموجب مراسيم ملكية ، ومنها المرسوم الشهير الصادر فى بداية القرن السادس عشر . (المترجم)

إذا قررنا اللجوء إليه سأندبر على الفور عربةً نقلنا إلى هناك ، وسأحضر
مرضعة فقيرة على استعداد للذهاب معنا حتى آخر العالم . وبهذا الشكل لو
افترضنا سلفاً أنهم سيعثرون عليك فمن الأفضل أن يجدوك عند قسيس مسنٍ
يعظ الناس على أن يجدوك في حوزة إسبانيين لا تفوتهما شاردة ولا واردة .
إذا كانا قد احترماك حتى الآن فلأنك عليّة ، والله وحده يعلم ماذا ستكون
عليه العاقبة بعد تعافيك . إنهما لو لم يكونا ينظران إلى بنفور واستعلاء لكانا
قد مرغاً شرفي في الوحل ، إذ ليس ذهباً كل ما يلعب فيهما . لا تظني أنني
سهلة المنال ، بل مأكرة مجربة أشم رائحة الخطر من على مسافة بعيدة ،
وفوق هذا طيبة المنبت ، فأنا من عائلة "كريبيلوس" بمدينة ميلان ، وسان
رمح شرفي يعلو السحاب بما لا يقل عن عشرة فراسخ . إن الأحوال والنكبات
التي مررت بها ياسيدتي هي التي أوصلتني في نهاية المطاف لأكون
خادمة عند إسبانيين ، وإن كانا - - والحق يقال - لم يمسانى بسوء أو
يجرحا مشاعري بكلمة ، فهما طيبان إذا لم يساورهما الغضب ، شأنهما في
ذلك شأن أهل "بيتكايا" التي ينتميان إليها ، لكن من يدري ؟ ربما يتحولان
إلى جليقيين في تعاملهما معك ، وجليقية أمة أخرى يتسم أهلها بالتناول
وعدم الالتزام ^(٩) .

كان لكلام المدبرة السابق - وآخر غيره - أثر السحر في نفس كورنيليا ، وعلى
هذا - ودون أن يظن الغلمان الثلاثة - ففي أقل من أربع ساعات كانتا (ومعهما
مرضعة الطفل) داخل العربة التي ستحملهن إلى قرية القسيس ، أنجزت المدبرة كل
هذا في زمن قياسي وينقودها ، هذا لأنها كانت قد تسلمت منذ أيام قليلة راتبها لعام
من سيديها ، ومن ثم فلم تضطر إلى رهن الأسورة الذهبية التي أعطتها لها كورنيليا .
وبما أن الأخيرة كانت تعرف أن "دون خوان" سيسير مع أخيها في الدروب الجانبية
فقد قررتا استلام ناصية الطريق العمومي والسير بتمهل حتى لا تلحقان بهما ، لم
يمنع الحوذى في ضبط إيقاع خيله على رغبتهما ، وهذا في مقابل سدادهما للأجرة
حسب رغبته .

(٩) تقع Vizcaya في أقصى شمال إسبانيا ، بينما يحتل إقليم Galicia ، جليقية ، الطرف الشمالي الغربي
منها ، وجهل المدبرة هر الذي جعلها تعتقد أنهما أمتان مختلفتان . (المترجم)

لندع هاتين المتجاسرتين تمضيان فى طريقهما الآمن الملىء بالإرشادات، وهيا بنا نتابع ما جرى لدون خوان دى جامبوا والسيد "لورينثو بنتيبوللى" : تقول آخر الأخبار إنهما عرفا فى الطريق أن الدوق فى بولونيا وليس فى فيرارا. وهكذا فقد تخليا عن السير فى الدروب الجانبية وقصدا الطريق العمومى الذى سيسلكه الدوق دون شك لدى عودته. وبعد السير لمسافة قصيرة مَدَّ البصر تجاه بولونيا فشاهدا كوكبة قادمة من الفرسان ، وعندئذ طلب "دون خوان" من "لورينثو" الانتحاء جانباً لأنه ينوى التحدث مع الدوق فى ذلك المكان قبل دخوله فيرارا التى لم تكن تبعد كثيراً. استصوب "لورينثو" رأيه ونقذ على الفور طلبه.

بعد ابتعاد "لورينثو" أزال دون خوان شريط القماش الأسود من على ماسات القبعة (وهذه فكرة صائبة منه ، كما سنعرف بعد قليل) .

اقتربت المجموعة المسلحة ، وفى وسطها ظهرت سيدة فى ملابس السفر على ظهر مهرة شهباء وتغطى رأسها بخمار أو - على الأصح - بقناع واقٍ من الشمس والهواء. وقف "دون خوان" بجواده وسط الطريق ، مكشوف الوجه ليراه القادمون الذين شدهم طول الفارح وحيويته الزائدة وجواده القوى وملابسه الزاهية وبريق قبعته ، وما إن رأى الدوق القبعة حتى أدرك أن الواقف ليس إلا "دون خوان دى جامبوا" الذى خلصه من براثن موت محقق ، ودون أن يفكر كثيراً أطلق لفرسه العنان فى اتجاه "دون خوان" ، ولما اقترب منه نادى عليه قائلاً :

- لا أجهل من أنت أيها الفارس لأن مظهرك الرشيق وماسات هذه القبعة يحدثنى بأنك "دون خوان دى جامبوا" .

- هذه هى الحقيقة التى لا مرأى فيها ، فأنا لا أظن أننى لجأت مطلقاً إلى إخفاء اسمى عن أحد ، لكن أخبرنى من أنت أيها السيد حتى لا يقع منى - عفواً ودون قصد - شئ لا يليق .

- هذا مستحيل لأنك ودمائة الخلق صنوان ، ورغم هذا أقول لك : أنا دوق فيرارا المزم بخدمتك طيلة أيام حياتك لأنك وهبتها لى منذ أربعة ليالٍ فقط .

لم يكد الدوق يفرغ من عبارته السابقة حتى قفز دون خوان - بخفة ورشاقة منقطعتى النظير - من على صهوة جواده ثم اتجه نحوه لتقبيل قدميه، لكنه عندما وصل كان الدوق قد ترجل هو الآخر وتلقاه بين ذراعيه محتضناً إياه .

أما السيد "لورينثو" الذى كان يراقب الموقف من بعيد فقد حسب المراسم التشريعية الجارية بينهما ما هى إلا حركات وإيماءات نابعة من حدة النقاش والغضب ، ولذا همز جواده واقترب راکضاً لكنه توقف فجأة فى وسط الطريق حينما رآهما متعانقين ، شاهده الدوق من فوق كتف "دون خوان" فاعتراه الفزع للحظة وسأل "دون خوان" عما إذا كان "لورينثو بنتيبوللى" قادماً معه ، همس "دون خوان" فى أذنه قائلاً :
- لنبعد قليلاً عن هنا ، وسأخبر سعادتك بأمري جلال .

وما إن انتحى به الدوق جانباً حتى حدثه "دون خوان" بما يلى :

- السيد "لورينثو بنتيبوللى" الذى تراه هناك يشكوك فى مسألة غير هينة . يقول إنك أخرجت منذ أربعة ليالٍ أخته - السيدة كورنيليا - من بيت ابنة عمه وأخذتها بعدما خدعتها واعتديت على شرفها ، وهو يريد معرفة ما تنوى عمله لإصلاح ذلك ورد اعتباره . لقد طلب منى الوساطة والحماية فقبلتهما لأننى استنتجت من الملابس التى حكاها لى عن المعركة أنك صاحب هذه القبعة المتأللة التى خلعتها على كرمًا وفضلاً ، وهذا سيساعدنى دون شك - أكثر من غيرى - على مناقشتك فى الموضوع . لينك تطلعنى على ما تعرفه وتميط لى اللثام عن الحقيقة فى شكوى لورينثو .

- آه يا صديقى ! إننى لا أجرؤ على إنكار دعواه حتى لو نازعتنى نفسى فى ذلك ، ومع هذا فأنا لم أخدع كورنيليا ، ولم أخرجها من بيت ابنة عمه رغم علمى باختفائها منه، لم أخدعها لأنى أعتبرها زوجتى ، ولم آخذها لأنى لا أعرف لها مكاناً ، وإذا كنت لم أعقد عليها قرانى حتى الآن فلأننى كنت أنتظر انتقال والدتى المريضة بمرض لا برء منه إلى الرفيق الأعلى ، وقد كانت مصرّة على زواجى من السيدة "ليبيا" ، ابنة دوق "مانتوا" ، كما أن هناك أسباباً أخرى لا ينبغى ذكرها الآن . كنت ذاهباً فى تلك الليلة التى أعنتنى فيها لأخذها إلى فيرارا كى تضع مولودها هناك لأنها كانت فى

الشهر الأخير من الحمل ، وصلت متأخراً إلى تلك الدار - بسبب المعركة - فوجدت خادمة كورنيليا (الوسيطة بيننا) خارجة منها ، سألتها عن سيدتها فقالت : إنها ولدت طفلاً جميلاً الصورة ثم غادرت البيت بعد تسليمي الطفل لخادمك " فابيو " ، والخادمة التى أحدثك عنها موجودة معنا ، وكذلك " فابيو " ، أما كورنيليا والطفل فلم أعثر لهما على أثر حتى الآن . لقد أمضيت يومين فى بولونيا أتحسس أخبارهما دون نتيجة ، وها أنذا أعود إلى فيرارا خاوى الوفاض .

- يعنى هذا - قال دون خوان - أنك ستعترف بزواجك من كورنيليا وبأبوتك للطفل حين يظهران .

- لا جدال فى ذلك لأننى أعتر بـرجولتى وبمسيحيتى أكثر ، وفوق هذا وذاك فكورنيليا تستحق أن تكون ملكة متوجة . لتظهر حالاً وسأعلن على الملأ - سواء ماتت أمى أو لم تمت - إنها حبيبتى وزوجتى .

- أنت إذن على استعداد لإخبار أخيك لورينثو بما أخبرتنى به الآن ؟

- يوجعنى ألا يعرف هذا فى أقرب وقت ممكن .

وفى الحال أعطى "دون خوان" الإشارة للورينثو كى يترجل ويلحق بهما ، نفذ ما طلب منه دون أن يرد بخاطره أنه ذاهب لتلقى البشرى التى ينتظرها بفارغ الصبر . تقدم الدوق نحوه فاتحاً ذراعيه وناداه بكلمة أختى .

أشكل على "لورينثو" وبالكاد استطاع ردّ التحية المهيبة ، ولما أحس دون خوان أن المفاجأة عقدت لسانه أمسك بدفة الحديث قائلاً :

- الدوق يعترف ياسيد لورينثو بعلاقته بالسيدة كورنيليا ، كما يعترف بأنها زوجته ، وهو مستعد لإعلان ذلك على الملأ . يقر أيضاً بأنه ذهب منذ أربعة ليالٍ لحملها من بيت قريبتك إلى فيرارا لعقد قرانه الذى تأخر لظروف قهرية حكاها لى . يقول كذلك إنه بعد المواجهة الشرسة معك ذهب لأخذ كورنيليا فقابلته خادمتها - الموجودة الآن مع الركب المرافق للدوق - وأخبرته أن سيدتها ولدت منذ أقل من ساعة ثم غادرت المنزل - بعد قيام

الخدمة بتسليم المولود لواحد من خدم الدوق - لاعتقادها أنك عرفت ما جرى منها وستأتى لمعاقبتها. اتضح بعد ذلك أن "سو پلايڤيا" (الخدمة) لم تسلم الطفل لخدم الدوق بل لشخص آخر على سبيل الخطأ. والدوق لا يعرف أين ذهبوا ونادم أشد الندم على ذلك لاعتقاده أنه المتسبب فيه ، لكنه أبدى استعداده لاستقبالها كزوجة فور ظهورها. ألا ترى ياسيد لورينثو أنه لم يبق لنا شيئاً نقوله أو نفعله سوى البحث عن كورنيليا والطفل ؟

أجاب لورينثو على هذا بالانحناء على قدمي الدوق محاولاً تقييلهما ، لكن الأخير بادر بإنهاضه ، وبعد استوائه على قدميه واقفاً خاطب الدوق قائلاً :

- من مروءتك الجمّة وتدينك العميق ، أيها السيد المبجل وأخى بالمصاهرة ، لا يمكن أن ننتظر - أنا وأختي - ما هو أفضل من ذلك : جعلها مساوية لك وجعلى من زمرة أهالك وأصفيائك.

قال هذا ثم طفرت الدموع من عينيه ، وشاركه الدوق متأثراً (أحدهما يبكى على ضياع زوجته والثاني لعتوره فجأة على صهر محترم) ، لكنهما حين تذكر أن التعبير عن المشاعر الفياضة بالدموع يعتبر علامة ضعف كفكفاها وحبسها ثانية فى المآقى .

وفى أثناء هذا المشهد المؤثر ظهر "دون أنطونيو" ، عرفه "دون خوان" من جواده الرّبعة وهو قادم من بعيد ، وما إن اقترب وشاهد جوادى "دون خوان" و "لورينثو" منتحيين جانباً وفى أيدي الخادمين حتى تسمر فى مكانه ، حين رأى "دون خوان" و "لورينثو" واقفين مع شخص ثالث لا يعرفه تحير ، ولم يدر ماذا يصنع ، اتجه إلى حاشية الدوق وسأل إذا كانوا يعرفون ذلك الفارس - مشيراً إلى الدوق - ولما أجابوه زادت حيرته ، وأسقط فى يده ، لكن "دون خوان" أخرجه من الحيرة بالنداء عليه. ترجّل عندئذ - لأنهم كانوا جميعاً كذلك - واقترب منهم ، استقبله الدوق بحفاوة بعدما عرف من دون خوان أنه زميله. وعندما نقل دون خوان لدون أنطونيو كلام الدوق انفرجت أساريه وبادر بتوجيه السؤال التالى لدون خوان :

- لماذا لا تكمل فرحة هذين السيدين ببشرى العثور على كورنيليا وابنها ؟

- لو لم تأت الآن يا "دون أنطونيو" لكنت زففت لهما البشرى بنفسى ، لكن مادمت قد حضرت فهاتها أنت.

حين سمع لورينثو والدوق تلك الكلمات المتبادلة بين الزميلين استفسرا عما حدث لـكورنيليا وابنها.

- وماذا سيحدث غير الخير كله - رد دون أنطونيو - كل ما فى الأمر أننى أود تأدية دورى فى هذه المسرحية المأساوية بالإعلان عن العثور على كورنيليا وطفلها.

ثم قص عليهما ما جرى بالتفصيل فطارا من الفرحة وعانق "لورينثو" "دون خوان" ، بينما عانق الدوق "دون أنطونيو" ، وفى غمرة نشوتهما بالخبر السعيد وعدا بالكثير من الهبات والعطايا. نادى الدوق على "سو پليثيا" - التى ارتعدت فرائصها عند رؤية لورينثو - وسألها عما إذا كانت قد تحققت من شخصية الرجل الذى سلمته الطفل فأجابت بالنفى ثم أضافت قائلة : إننى سألته فقط إذا كان المدعو "فابيو" ، ولما أجابنى بنعم أعطيته - بسلامة نية - المولود .

- هذه هى الحقيقة - قال دون خوان - ولقد قمت بغلاق الباب فوراً بعد توصيتى بحفظه فى مكان آمن والعودة مسرعاً.

- هذا ما حدث بالضبط ياسيدى - ردت الخادمة وهى تبكى .

- لا مجال هنا للبكاء والأحزان - قال الدوق - بل للسعادة والأفراح ، والآن هيا بنا إلى بولونيا لأن هذه الفرحة العارمة ستظل مجرد وهم إلى أن تحولها رؤية كورنيليا إلى حقيقة .

استصوبوا رأى الدوق ولم يعترض عليه أحد منهم ، وهكذا أخذوا طريق العودة إلى بولونيا .

سبقهم "دون أنطونيو" ليخبر كورنيليا بما حدث حتى لا يملكها الفزع عند رؤية أخيها والدوق فجأة ، لكن غيابها عن البيت وعدم قدرة الغلمان على تزويده بشيء مفيد عنها أصاباه بالذهول والحزن العميق ، ولما كانت المدبرة مختفية أيضاً فقد خلص إلى أنها هى التى دبرت عملية الهروب. أخبره الغلمان أن المدبرة اختفت فى اليوم الذى رحلا فيه ، أما بالنسبة لـكورنيليا التى يسأل عنها فلم يسبق لهم رؤيتها . وإزاء هذا الموقف الذى لم يكن فى الحسبان سيطر الوجوم على "دون أنطونيو" وخاف من اتهام الدوق لهما بالغش والخداع ، وقد يبلغ به الظن مداه فيتصور أشياء أخرى

تضير بشرفهما وسمعة كورنيليا . كانت هذه الأفكار تتناوشه حين دخل عليه الدار (قادمين من الشوارع الجانبية ومخلفين وراءهم - خارج المدينة - بقية الركب) كل من الدوق و "لورينثو" و "دون خوان" فوجدوه جالساً على كرسي ، شاحب الوجه ويده على خذه .

سأله "دون خوان" عما أصابه وعن كورنيليا فقال :

- وهل هناك أذى يمكن توقعه أعظم من اختفاء كورنيليا والمديرة التي تركناها لمرافقتها ظهيرة اليوم الذي رحلنا فيه ؟

كان الدوق على وشك مفارقة الحياة ، و "لورينثو" على حافة الجنون فور سماعهما للنبأ الأليم . خلاصة القول أنهم غرقوا جميعاً في بحرٍ من الحيرة والقلق . وبينما هم في ذلك اقترب أحد الغلمان من "دون أنطونيو" وهمس في أذنيه بما يلي :

- سيدي ، سانيستيبان - خادم سيدي دون خوان - يحتجز في غرفته من يوم رحيلكما امرأة جميلة وأعتقد أنها كورنيليا التي تفتشون عنها .

هاج "دون أنطونيو" من جديد وتمنى اختفاءها ، مفضلاً إيّاه على العثور عليها في مثل هذا المكان . لم ينطق بكلمة واتجه صامتاً إلى تلك الغرفة فوجدها مغلقة والغلام خارج البيت ، اقترب من الباب ونادى بصوتٍ خفيض :

- افتحي ياسيدة كورنيليا ، هلمى لاستقبال أخيك والدوق زوجك .

- أتُسَخرون مني ؟ - ردت المرأة من داخل الغرفة - أنا لست دميمة ولا فضالة حتى يعافني "الدوقات" و "الكونتات" ، ومع هذا فقد نلت ما يستحقه كل من يتعامل مع صنف الخدم .

أدرك "دون أنطونيو" عند سماعه لهذه الكلمات أن المتحدث ليس كورنيليا . كان "سانيستيبان" قد قدم في تلك الأثناء مسرعاً إلى غرفته ، ولما وجد "دون أنطونيو" على بابها وبطلب من الآخرين إحضار مفاتيح البيت كلها عسى أن يعينه أحدها على فتح باب الغرفة جثا على ركبتيه ويده ممدودة بالمفتاح ثم قال :

- غياب حضرتكما وسفالتى - وهذا هو اللفظ الذي أستحقه - شجعانى على اصطلياد امرأة وتمضية الأيام الثلاثة السابقة معها . بحق إسبانيا - التي

أتمنى أن تصلك منها أخبار طيبة - أرجوك ألا تخبر سيدي "دون خوان"
بفعلتي المزرية حتى لا يطردني من خدمته.
- وما اسم تلك المرأة ؟ - سأله دون أنطونيو.
- اسمها كورنيليا .

وما أن سمع الغلام - الذي أبلغ عن الواقعة ولم يكن على وفاق مع سانيستييان -
اسم المرأة حتى هبط (لا أحد يدرى إن كان بسلامة نية أم بسوء طوية) إلى حيث
ينتظر الدوق ولورينثو ودون خوان وقال لهم :

- الغوث ! النجدة ! أمسكوا الغلام الذي اعترف باحتجاز السيدة كورنيليا في
غرفته ، إنه لم يكن يتمنى بالتأكيد مجيء السادة طمعاً في امتداد ليااليه
الحمراء لبضعة أيام أخرى .

- ماذا تقول أيها الغلام ؟ أين كورنيليا ؟ سأله لورينثو .
- إنها فوق ، بإحدى غرف الطابق الثاني .

لم يكد الدوق يسمع هذا حتى ارتقى درجات السلم كالبرق متلهفاً لرؤية كورنيليا ،
وفور دخوله الغرفة التي كان بها "دون أنطونيو" سأل :

- أين أنت يا كورنيليا ؟ أين أنت يا حياتي ؟

- أنا هنا - ردت امرأة مستلقية على السرير وملفوفة حتى منبت شعرها
بملاءة - ثم أضافت : سترك يارب ! هل عثرتم على ثور مسروق ؟ هل
نوم امرأة مع خادم شيء جديد لم تسمعوا عنه من قبل فعددتموه من قبيل
المعجزات ؟

تكهرب "لورينثو" ، وبضغينة وغضب شديدين جذب طرف الملاء فظهرت
امرأة شابة على قدر لا بأس به من الجمال ، اعترى المرأة الخجل فغطت وجهها
بكفيها ثم سحبت ملابسها التي كانت تضعها تحت رأسها لأن السرير بلا وسادة ،
وعندئذ اتضح للجميع أنها إحدى الساقطات .

سألها الدوق إذا كانت تُسمى "كورنيليا" فأجابت بنعم ، وبأن لديها أقارب
محترمين في المدينة ، وبأن الأمر لا يستدعي اللوم من أحد لأن الكل في الهم سواء .

اشنات الدوق غضباً ، وكان على وشك الظن بأن الإسبانين يسخران منه ، ولكي لا يفسح المجال أمام هذا الاتهام الخطير أدار ظهره ، ودون أن ينطق بكلمة امتطى صهوة جواده ، ومتبوعاً بلورينثو غادرا المكان ، تاركين "دون خوان" و "دون أنطونيو" أشد هياجاً وغضباً منهما ومصممين على فعل المستحيل للعثور على كورنيليا لأنها ستكون بمثابة الدليل الحى على صدقهما وعلى حسن نواياهما. قاما بعد ذلك بطرد "سانيستيبان" والمتشردة، وفى تلك اللحظة تذكر أنها نسيا إخبار الدوق بأمر الصليب الماسى و"الأجنوس" ليتأكد من أنها كانت فى حوزتهما ، وأن اختفاءها صادف غيابهما عن الدار ولم يكن - بالتالى - لتقصير منهما. ومن أجل هذا الغرض ذهبوا إلى بيت "لورينثو" ، لكن الأخير أخبرهما أن الدوق عاد مسرعاً إلى فيرارا بعد تكليفه بالبحث عن أخته.

حدثنا عندئذ بما كانا ينويان قوله للدوق فأخبرهما بأنه رحل وهو راضٍ عنهما لأن خوف كورنيليا هو الذى دفعها للهروب ولأن الأمل مازال باقياً فى العثور عليها، فالأرض لم تنشق وتبتلعها، هى والطفل والمربية. ابتهجا لما سمعاه من "لورينثو" واتفقا معه على ضرورة البحث عنها سرّاً حتى لا يلوك الناس سيرتها لاسيما وأنهم لا يعرفون ملابسات الموقف ولا نية الدوق تجاهها ، وقطع الطريق على الشائعات بوأدها فى المهد لا يتطلب مجهوداً يذكر بالمقارنة بما يتطلبه الرد عليها وتفتيدها بعد انتشارها.

واصل الدوق رحلته ، وقبل وصوله إلى فيرارا ألهمه حسن الطالع إلى التعرّيج على قرية القسيس الذى استضاف كورنيليا والطفل والمديرة والمرضعة فى بيته ، وكانت كورنيليا والمديرة قد قصتا عليه تفاصيل الأزمة وطلبتا منه المشورة والنصح.

كان القسيس صديقاً عزيزاً للدوق ، وقد أعناد الأخير - فى رحلات صيده المتكررة - المرور بداره الفسيحة المترعة بالتحف والآثار المقدسة النادرة ، وذلك لإعجابه الشديد بظرف صاحبها ومفاجآته العجيبة السارة . لم يضطرب القسيس لرؤية الدوق لأنها لم تكن - كما أشرنا - المرة الأولى ، لكن أهمه رؤية الدوق محزوناً على غير عادته.

حين سمعت كورنيليا صوت الدوق اعتراها الفزع نتيجة جهلها لسبب الزيارة ، راحت تولول بيديها وهى تنتقل من جهة إلى أخرى شاردة اللب ، ألمّت بها رغبة عارمة فى محادثة القسيس بهذا الشأن لكنه كان مشغولاً بمسامرة ضيفه.

قال الدوق للقسيس :

- أتيتك هذه المرة مهموماً حزيناً ولا رغبة لى فى دخول فيراراً ، سأكون ضيفك لهذا اليوم ، مر القادمين معى بمواصلة السير إلى فيراراً وألا يتركوا منهم أحداً سوى " فابيو" .

نَفَذَ القسيس ما طُلب منه ثم اتجه إلى خادمته يأمرها بإعداد ما يلزم لراحة الضيف وإطعامه ، انتهزت كورنيليا الفرصة لتسأله :

- ما وراء الدوق ، وما الداعى لزيارته هذه ؟ حاول - بفطنتك وذكاكك - استدراجه من بعيد للخوض فى قضيتى لمعرفة نواياه حيالى .

- لقد جاءنى اليوم مهموماً - قال لها القسيس - ولم يطلعنى حتى الآن على السبب . ما عليك الآن سوى إلباس الطفل أفخر الثياب وتزيينه بكل ما لديك من حلى - لاسيما التى أهداها إليك الدوق - وترك الباقي على ، قلبى يحدثنى بأن فرج الله قريب .

قَبِلَتْ كورنيليا يده ثم انسحبت لتنفيذ ما كُلفت به . ذهب القسيس لمسامرة الدوق وتسليته انتظاراً لحلول وقت الغداء ، وفى أثناء حديثهما سأله القسيس عما إذا كان بالإمكان معرفة سبب كآبته التى لا تخطئها العيون من على مسافة فرسخ بأكمله .

- من الواضح يابانا أن أحزان القلب يعكسها الوجه ، كما تبوح العيون بأسرار الروح ، لكن المؤلم حقاً أننى لا أستطيع حالياً الكشف عنها لأحد .

- إذا كنت ياسيدى مستعداً لرؤية أشياء تسر الخاطر وتبعث البهجة فى النفوس فلدى هنا إحداها .

- مغفل هذا الذى يرفض مُلَطَّفاً لعلته حين يعرضوه عليه . هات ما عندك يابانا لأنه لا بد أن يكون طرفة من طرائفك ، وكلها بالنسبة لى رائعة وشيقة .

نهض القسيس وذهب إلى غرفة كورنيليا فألقى الطفل على ذراعيها مرتدياً أقصر الثياب ومزيناً بالصليب الماسى و "الأجنوس" وبفلات حلى أخريات (كلها من هدايا الدوق) ، حمله القسيس ورجع إلى حيث ينتظر الدوق ، طلب منه النهوض والاقتراب من الأشعة المتساقطة من إحدى النوافذ ثم أعطاه الطفل ، ذهل الدوق عندما شاهد

الحلى التى أهداها من قبل لكورنيليا ، ولما أنعم النظر فى الطفل وخيلَ إليه أنه يرى صورته فى المرأة اتجه - دهشاً متعجباً - إلى القسيس وسأله عما إذا كان الطفل ابناً لأحد الأمراء ، هذا لأن هيلته وما عليه من ثياب وحلى لا يرشحانه لما هو أقل من ذلك.

- لا أدرى - رد القسيس - كل ما أعرفه أن رجلاً من بولونيا أحضره منذ عدة ليالٍ - لا أدرى كم - وطلب منى تربيته والتفانى فى رعايته لأنه ابن رجل مهم وسيدة نبيلة رائعة الحسن . كان الرجل قد أحضر معه مرضعة ، ولما سألتها بعد ذلك عن أبوى الطفل قالت إنها لا تعرف شيئاً على الإطلاق ، ولو كانت الأم فى جمال المرضعة فلا شك أنها أجمل امرأة فى إيطاليا.

- ألا يمكنى رؤيتها ؟ - سأله الدوق .

- بلى ، تعال معى ياسيدى ، وإذا كان جمال المولود وحليّه قد أثارا - حسبما أعتقد - إعجابك ودهشتك فإن رؤية المرضعة ستثيرها أكثر وأكثر .

هم القسيس باسترداد الطفل من الدوق ، لكن الأخير تشبث به وأمطره بوابل من القبلات . تركه القسيس ثم دخل على كورنيليا وطلب منها الخروج دون تردد أو قلق للقاء الدوق . امتثلت لطلبه ، لكن نوبة الفزع اللاإرادية التى انتابتها لونت وجهها فزادته تألقاً وجمالاً . حين رآها الدوق ترتدى على قدميه محاولة تقبيلهما اعتراه الذهول ، ودون أن يتفوه بكلمة أعطى الطفل للقسيس ثم استدار وغادر الغرفة بأقصى سرعة . التفتت كورنيليا حينئذ للقسيس ووجهت إليه سيلاً من الأسئلة الحائرة :

- ياويلتى ! هل فزع الدوق من رؤيتى ؟ أيبغضنى لهذا الحد ؟ هل أصبحت فى نظره دميمة ؟ هل تناسى التزامه المقدس نحوى ؟ أيصن على ولو بكلمة ؟ هل أعجبه كثيراً حملُ ابنه ليلقى به هكذا من فوق ذراعيه ؟

ألجم لسان القسيس عجباً من الفرار المبالغت للدوق ، لقد حسبه فراراً ولا شيء غيره ، ولم يتصور أنه خرج لينادى على "فابيو" ويأمره بما يلى :

- هيا يا "فابيو" ، سابق الريح عائداً إلى بولونيا لتُخبر "لورينثو بنتيبوللى" والسيدى الإسبانيين : "دون خوان دى جامبوا" و "دون أنطونيو دى

إيسونثا" ، بضرورة ترك ما بأيديهم والمجئ فوراً إلى هذه القرية . لا ترجع بدونهم فالأمر جد خطير ولا يحتمل التأخير .

لم يكن "فابيو" بالغلام الكسول ، ومن ثم فقد بادر بتنفيذ أمر سيده في الحال .
رجع الدوق فوجد كورنيليا تذرف الدموع ، ضمها إلى صدره وشاركها البكاء ، عقدت الفرحة لسانى العاشقين السعيدين والزوجين الحقيقيين فاكثفيا بالآهات والزفرات .

كانت مربية الطفل والمديرة "كريبيللا" - وهو حقاً اسم على مسمى (١٠) - تتلصصان من خصائص باب الغرفة المجاورة على مشهد الحب العفيف بين الدوق وكورنيليا ، ومن فرط البهجة لم تتمالكا نفسيهما وراحتا تضربان رأسيهما في الحائط كأن بهما مساً من جنون . أما القسيس فكان منهما كماً في تقبيل الطفل الموجود على ذراعه الأيسر وفي توزيع البركات على الحبيبين المتعاقبين بيده اليمنى . الوحيدة التى فاتها مشاهدة الحدث العظيم كانت خادمة القسيس لانشغالها بإعداد الغداء ، ولما فرغت منه دخلت للدعاء عليهم فقطعت بدخولها الفاصل الطويل من العناق الحار . أخذ الدوق الطفل من القسيس ليظل فى حجره طيلة الوقت الذى استغرقه تناول الغداء الشهى والنظيف وإن كان عارياً عن الفخامة ، وفى أثناء تناولهم للطعام حكى كورنيليا قصتها من بدايتها حتى مجيئها إلى دار القسيس بناءً على نصيحة "كريبيللا" التى تعمل عند الرجلين الإسبانين اللذين لم يدخرا وسعاً فى خدمتها وصونها وحمايتها بشرف ونزاهة لا يتخيلهما إنسان . كما حكى الدوق ما جرى له حتى لحظة اللقاء التى عاينوها . تلقت المربية والمديرة الكثير من الهدايا والأعطيات ووعدهما الدوق بالمزيد بعد عودته إلى فيرارا . تجددت فرحة الجميع بالنهاية السعيدة للأحداث التى لم يكن ينقص لاكتمالها سوى حضور "لورينثو" و "دون خوان" و "دون أنطونيو" وقد وصلوا بعد ثلاثة أيام تحذوهم الرغبة لمعرفة آخر معلومات الدوق عن "كورنيليا" ، ولم يكن "فابيو" قد أفادهم بشيء لدى استدعائهم لسبب بسيط : وهو أن فاقده الشئ لا يعطيه .

(١٠) كريبيللا cribela يعنى فى اللغة الإسبانية : ناسجة العنكبوت ، ولما كانت المديرة هى التى عقدت المشكلة وتسببت فى تأخير حلها فقد أشار المؤلف إلى أنها تستحق هذا الاسم (اسم على مسمى) .
(المترجم)

خرج الدوق لاستقبالهم فى الصالة المجاورة دون أن تظهر عليه أية علامة للسرور فأشاع بهيئته تلك الحزن فى نفوس الواصلين حديثاً. طلب منهم الجلوس ، وبعد جلوسه مثلهم خاطب لورينثو قائلاً :

- تعلم جيداً ياسيد "لورينثو" أننى لم أسعَ مُطلقاً لخداعِ أختك ، وخير شاهد على هذا الله ثم ضميرى. تعرف أيضاً أننى بذلت قصارى جهدى بغية العثور عليها والزواج منها كما وعدتك ، لكنها لم تظهر حتى الآن ووعدى لن يظل - بالتالى - أبدياً . أنا فى عنفوان الشباب ، ولست زاهداً فى الدنيا حتى أنبذ متعتها المتاحة لى فى كل مكان. وهذا يقودنى إلى الاعتراف بأن الرغبة التى حملتنى على وعد أختك بالزواج هى نفسها التى حملتنى من قبل على وعد إحدى فلاحات هذه القرية بالزواج أيضاً . القروية هى حبيبى الأول ، وإذا كنت قد تركتها معلقة - رغم عدم ارتياح ضميرى لذلك - فمن أجل الظفر بما هو أشهى وأثمن : أى بحب كورنيليا. وبما أن أحداً لا يتزوج بامرأة غير موجودة ، وأنه من غير المعقول بحث المرء عن امرأة هربت منه حتى لا يعثر على ما يرمز لكراميته ، أرجو منك تقدير ما تريد من مال فى مقابل الخسارة التى منيت بها ، ولم أكن المتسبب فيها لأنها لم ترد على خاطرى إطلاقاً ، والسماح لى بالوفاء بوعدى الأول ، أى فى الزواج من تلك القروية وهى موجودة الآن بإحدى غرف هذه الدار.

تلون وجه لورينثو بألوان لم يهدأ ويستقر فى جلسته طوال الحديث السابق للدوق ، وهذه علامات واضحة على تملك الغضب لحواسه جميعاً. الشئ نفسه حدث "لدون خوان" و "دون أنطونيو" اللذين عقدا العزم على عدم تمكين الدوق من تحقيق رغبته حتى لو تطلب الأمر قتله. حين قرأ الدوق نواياهم المسطرة على وجوههم أردف قائلاً :

- هدئ من روعك ياسيد "لورينثو" ، قبل أن تجيبنى بكلمة عليك أولاً رؤية الفتاة ، وأنا واثق من أن طلعتها البهية ستجبرك على الإذن لى بالزواج منها : فمن المعروف أن الجمال الصارخ هو خير شفيع للأخطاء الجسام .

نهض دون أن ينتظر منهم تعليقاً ثم دخل إلى حيث تنتظر كورنيليا فوجدها فى أبهى صورة بعدما تزينت بكل ما لديها من حلّ ومجوهرات ، وما إن استدار الدوق حتى نهض دون خوان ، ومتكئاً بكلتا يديه على حافتي الكرسي الجالس عليه "لورنيثو" همس فى أذنيه بما يلي :

- أحلف بستنياجو جليقية وبالمسيحية التى أدين بها وبشرفى كرجل على ألا أدع الدوق يظفر ببغيته حتى لو جعلونى مسلماً . سأقتله بيديّ هاتين إن لم يف بوعده لأختك كورنيليا أو إذا لم يمهلنا - على الأقل - الوقت الكافى للبحث عنها . لن يتزوج بغيرها طالما لم نتأكد من موتها .
- وأنا أيضاً على هذا الرأى - قال لورنيثو .

وما إن فرغا من حوارهما السابق حتى دخلت عليهم كورنيليا : كان القسيس على يسارها والدوق على يمينها ممسكاً بيدها ، وخلفها فى صفّ تأتى كل من سو پليثيا (التى أمر الدوق بإحضارها من فيرارا) والمرضعة و"كريبيللا" ، مدبرة منزل السيدين الإسبانين .

حين رأى "لورنيثو" أخته تصوّرهما - من هول الصدمة - شبحاً ، وبعد استعادته لتوازنه وتأكده من أنها ليست كذلك هرول متعثراً فى قدميه للانحناء على قدمي الدوق ، لكن الأخير أنهضه وألقى به فى حضن أخته (وإن كان الأصوب القول : إن أخته عانقته بكل أمارات البهجة الممكنة) . قال "دون خوان" للدوق : إن ما شاهدوه الآن يُعد أذكى وأطيب مزحة فى العالم أجمع . كان الطفل على يدي "سو پليثيا" فالتقطه الدوق وقدمه للورنيثو قائلاً :

- مد يدك ياأخى لتتلقى ابنى وابن أختك ، وانظر فيما إذا كنت ستوافق على زواجى من هذه الفلاحة التى وعدتها أولاً بالزواج .

لن أنتهى أبداً لو شرعت فى سرد ما أجاب به "لورنيثو" ، أو بيان مشاعر وأحاسيس "دون خوان" و "دون أنطونيو" ، أو وصف فرحة القسيس ، أو بهجة "سو پليثيا" ، أو حبور المدبرة ، أو غبطة المرضعة ، أو إعجاب "فابييو" ، وأخيراً السعادة العارمة التى رفرت بجناحيها على الجميع .

عقد القسيس قرانهما الذى تولى "دون خوان" وكالته ، اتفقوا بعد ذلك على أن يظل الزواج فى طى الكتمان حتى نفاذ قضاء الله فى والددة الدوق التى كانت فى مرحلة متأخرة من المرض ، وعلى هذا فقد عادت كورنيليا بصحبة أخيها إلى بولونيا. أما ما حدث بعد ذلك فنلخصه فيما يلى :

ماتت والددة الدوق ، دخلت كورنيليا فيراً فسحرت الأبواب بجمالها الطاغى ، وحوّلت المآتم إلى أفراح ، اغتننت المدبرة والوسيطه والمرضعة ، تزوج "فابيو" "سو پليثيا" (الوسيطه) ، سعد الإسبانين سعادة غامرة لمساهمتها فى حل المشكله ، عرض عليهما الدوق الزواج بابنتى عم له ، لكنهما اعتذرا عن قبول هذا العرض السخى والمغرى قائلين : إن أهل "بيثكيا" لا يتزوجون عادة إلا من بنات قومهم ، وإن والديهما لابد أن يكونا قد اختارا لهما العروسين المناسبتين ، وعلى هذا فإن رفضهما ليس تابعا من الازدراء للآخرين بل من منطلق الحرص على الوفاء بالعادات والتقاليد واحترام إرادة الأبوين .

قبل الدوق اعتذارهما المسبب والرقيق ، وبطريقة محترمة لا تخدش الكرامة كان ينتهز فرصة المناسبات المختلفة ويرسل إليهما فى بولونيا بالعديد من الهدايا ، ورغم أنهما كانا يستطيعان ردّها حتى لا يبدوان كمن يتلقى المقابل على ما أسدياه من صنيع إلا إن مرور الزمن كان كفيلاً بإزالة هذه الحساسيه ، وآخر تلك المناسبات مناسبة زيارتهما لغيرآرا لوداع الدوق قبيل عودتهما لإسبانيا . وفى تلك الزيارة وجدا الدوق متبهما بزوجه أكثر مما مضى رغم إنجابه لابنتين أخريين ، وفيها أيضاً أهدت الدوقة (كورنيليا) الصليب الماسى لدون خوان و "الأجنوس" لدون أنطونيو ، ولما لم يكن باستطاعتها الرفض فقد قبلت الهديتين شاكرين .

سافرا إلى وطنهما إسبانيا حيث تزوجا بفتاتين جميلتين تتمتعان بالثراء العريض والأصل العريق ، ولم تنقطع الرسائل بينهما وبين الدوق والدوقة و"لورينثو" ، حامله أسمى معانى التقدير والعرفان من كلا الطرفين .

زواج المصاحبة

من مستشفى المواساة الواقعة خارج أسوار بلد الوليد ، وعلى مَقَرَّة من بَوَابَة "الكامپو" (١) كان ملازم ثانٍ خارجاً ، من نحول ساقبيه واصفرار وجهه وانكائه على سيفه مثل عَكَاز كان يبدو للعيان أن جسده قد تَخَلَّص في ساعة - رغم اعتدال الحرارة - من مخزون عرق أيام طويلة. كان يبدو كالنَّاقِه في مشيته المتعثرة التي تشبه الحَبْو ، وعند دخوله من بوابة "الكامپو" شاهد صديقاً له - لم يكن التقى به منذ أكثر من ستة أشهر - يتجه نحوه ، وما إن اقترب منه هذا الصديق حتى أشار على نفسه بعلامة الصليب كمن يستعِذ من طائف رجيم ثم بادر بسؤاله :

- ما هذا أيها الملازم "كامپوثانو" ؟ أنت معنا في هذه الديار ؟ كنتُ أحسبك في فلانديس تصول وتجول ، فما بالي أراك هنا مجرّراً سيفك ! ما كل هذا الشحوب ؟ وعلام هذا الهزال ؟

ردّ عليه "كامپوثانو" قائلاً :

- كوني في هذه الديار من عدمه تجيبك عليه - ياسيد "بيرالتا" المحامي - رؤيتك لي فيها ، أما بالنسبة للإجابة على بقية الأسئلة فلا أجد ما أقوله سوى أنني خارج للتو من هذه المصحّة بعد جلسات مكثفة في المَعْرِقَة (٢) ابتلّنتي بها امرأة اخترتها شريكة لحياتي ، وما كان ينبغي التفكير في مثل هذه الحماقة .

- تزوجت إذن ؟ - سأل "بيرالتا" .

(١) بالقرب من هذه البوابة El Campo كان يسكن ثريانديس خلال الفترة التي أمضاها في مدينة بلد الوليد . (المترجم)

(٢) المَعْرِقَة في مستشفيات ذلك العصر كانت عبارة عن غرفة ضيقة مُحكمة ، بلا نوافذ ، أرضيتها من الخشب المغطى بالسجاد ، بداخلها موقد مشتعل ومضاء بقليل يعمل بالزيت. كان المريض يرقد فيها على سرير مفروش بالحفا صلبة وهو ملفوف بملاءات ساخنة ، كما كان يتناول دواءً يساعد على إفراز العرق. والعلاج الأمثل يتطلب مكوث المريض ثلاثين يوماً متصلة في تلك الغرفة . (المترجم)

- نعم تزوجت - رد "كامپوثانو" .
- إذا كان عن حب فالندم يأتي عادةً مُصاحباً له .
- لا أزعم أنه كان عن حب ، وفي المقابل أستطيع التأكيد على أنه صدر عن جملة من الأوجاع ، هذا لأننى بزواجى أو بكلالى (٣) جلبت كثيراً منها للروح والجسد : تياريح الجسد كلفنى ترويضها أربعين جلسة فى المعرفة ، أما آلام الروح فلا أجد حتى علاجاً يخفف منها . وبما أن قوى المنهكة لا تتحمل نقاشاً مطوّلاً فى الشارع أستأذنك فى الانصراف ، وفى يوم آخر سأقص عليك - بعد استردادى لبعض العافية - حكايتى العجيبة التى لم تسمع قط بمثلا .
- مادام الأمر هكذا - قال المحامى - تعال معى إلى خانى ، وهناك سنجد متسعاً من الوقت للتكفير سويّاً عن خطايانا ، ورغم أن قدرى لا يتسع إلا لإطعام شخصين فلا بد أن يَفْضَلَ شىء من نصيب خادمى ، وإذا لم يكن هذا كافياً فإن بعض شرائح لحم الخنزير المقدّد ستسد النقص لاسيما إذا كانت مقدمة عن طيب خاطر ، لا لهذه المرة فقط بل لما شئت من المرات .
- لبنى "كامپوثانو" الدعوة شاكراً . اصططحبه صديقه إلى كنيسة "سان لورينثو" لسماع القدّاس ، أخذه بعد ذلك إلى سكنه حيث قدّم له ما وعده به وزيادة ، ثم طلب منه قصّ ما جرى له بعد فراغه من الطعام لأنه متلهف لسماعه . لم يجعله "كامپوثانو" يلحف فى الطلب وشرع فى سرد حكايته على النحو التالى :
- تذكر جيداً أننى كنتُ رفيقاً فى السلاح للنقيب "پدرو إيريرا" الموجود حالياً فى فلاندى .
- نعم أذكر - رد "پيرالتا" .

(٣) بين كلمتى casamiento (بمعنى زواج) و cansamiento (بمعنى تعب أو كلال) جناس ناقص ، وقد استعان الكاتب هنا بخاصية الجناس (المتماثلة فى إبراز التناقض بين معنى الكلمتين) لإضفاء مسحة التهكم والسخرية على النص . (المترجم)

- وفي أحد الأيام - تابع "كامپوثانو" حديثه - وبعد فراغنا من تناول الغداء بخان "لا سولانا" (٤) حيث نقيم دخلت امرأتان حسنتا المظهر بصحبة خادمتين : اتجهت إحداهما إلى النقيب ثم انتحت به جانباً لتحدثه في أمرٍ ما ، وجلست الأخرى على كرسي قريب منى . كان وجه الجالسة إلى جوارى مغطى بوشاح شفاف ، ولما رجوتها بالكشف عنه ولم تستجب تنامت لدى الرغبة في رؤيته . أضاءت النار بين جوانحي حين أخرجت - والاحتمال الأرجح أنه كان متعمداً - يدها البيضاء المطوقة بالأساور الذهبية من تحت العباءة . كنت ساعتها في أبهى صورة : مرتدياً الزي العسكري الملون ، وحول عنقي القلادة الكبيرة - وأنت تعرفها دون شك - وعلى رأسى القُبعة المزينة والشريط الحريري البراق ، ولذا تخيلت أن مظهرى الرائع حريٌّ بلفت أنظار النساء ووقعهن في حبالى . ومن منطلق هذه الثقة التى كانت تغمرنى رجوتها بالكشف عن وجهها فأجابتنى بقولها :

- لكل مقام مقال ، لدى بيت يمكن لغلامك معرفته إذا تبعنى ، ورغم أن شرفى أشد صوناً مما قد توحى به هذه الإجابة فإن رغبتى فى معرفة ما إذا كانت فطنتك تطاول حسن مظهرك تضطرنى لتقديم بعض التنازلات .

قَبَلْتُ يدها امتناناً على المَكْرَمة التى حَبَّتْنِي بها ، ووعدتها فى المقابل بالقناطير المقنطرة من الذهب . وبعد فراغ النقيب من حديثه الجانبى غادرت المرأتان الخان فأمرت خادمى بتقفى أثرهما . أخبرنى النقيب أن السيدة التى تحدثت معه كانت تريد إرسال عدة خطابات لزميل له فى فلاندى مدعية أنه ابن عمها ، وهو يعرف أنه ليس كذلك بل مجرد طالب متعة .. بقيت أنا منظريةً بنار اليد العاجية التى عاينتها ، ومدلّها بالوجه الذى أتمنى رؤيته ، وعلى هذا فقد أرشدنى الخادم فى اليوم التالى إلى مكان بيتها . دخلت البيت دون عوائق فوجدته منمقاً فاخر الأثاث ووجدت امرأة فى الثلاثين من العمر ، لى بيدها سابق معرفة . لم تكن فائقة الجمال ، لكن نغمة صوتها الحالم الناعم كانت تنساب من الأذنين إلى الروح وتشيع جواً معبقاً بالألفة .. امتد

(٤) يقع خان "لا سولانا" فى شرق بلد الوليد ، ويشير النقاد إلى أن صاحبه فى عصر ثريانتس كانت تدعى "خوانا رويث" ، وأنها كانت من صنف القوادة "لا ثيليسينا" . (المترجم)

معها الحوار لساعات طويلة ، وفيه تباهيت وازدهيت ، صُلّت وجُلّت ، ووعدت ، وأُخرجت كُلِّ ما فى جعبتي كي أتجمل فى نظرها وأخطب وذهّا. لكنها لم تلتقط طُعماً واحداً من طعومى وكأنها محصنة بجرعة من الأمصال المضادة لمثل تلك المداهنات والوعود أو لما هو أشد منها فتكاً. خلاصة القول أن محاولاتي المتكررة التى استمرت على مدار زيارتي الأربع لها ذهبت أدراج الرياح ولم أنعم فى النهاية باقتطاف الثمرة المرجوة .

لفت انتباهي خلال زيارتي الأربع أن البيت بلا رقيب وخال من القيود: لم أر فيه صديقة لها ولا حتى قريباً مزيقاً. كانت تقوم على خدمتها فتاة أقرب إلى الدهاء منها إلى السذاجة . ولأننى جلدى على أهبة الاستعداد الدائم للرحيل حين ينادى المنادى فقد حدثت "دونيا استيفانيا" (وهذا هو اسم تلك السيدة) كي تعجل بالمراد ، لكنها قالت لى : "أيها الملازم "كامپوثانو" ، من البلاهة الادعاء بأننى قديسة . كانت لى زلاتى دون شك ، ومازلت متلبسة بإحداها معك ، لكنها لم تصل إلى الحد الذى تلوك فيه ألسن الجيران سيرتى أو يلاحظها البعيدون عنى . لم أرث قطميراً من أب أو قريب ، ورغم هذا فأثاث دارى ومتاعها يقدران - إن حسن التقدير - بألفين وخمسمائة إسكودو ، لا يستغرق تحويلها إلى نقود سائلة سوى الوقت اللازم لعرض تلك المنقولات للبيع . بهذه الثروة أبحث عن زوج أكون طوعً بنانه ، أخدمه بعينى وأبلى كافة طلباته ، إذ لا يوجد فى طول البلاد وعرضها طبّاح - حتى لو كان لأمير - يمكنه الطهى وإعداد الوجبات اللذيذة والشهية مثلى . أنا فى البيت قهرمانة ، وفى المطبخ خادمة ماهرة ، وفى الصالون إحدى الهوانم ، هذا لأننى أعرف حقاً كيف ألقى بالأوامر وأجعل الآخرين يطيعونها . لا أزدري القليل ، ومن الكثير أدخر ، والريال فى يدى ذو قيمة لاسيما إذا أنفق بمعرفتى ، ملابسى البىضاء لا تحصى ولا تعد وذات جودة عالية ، لم ابتاعها من حائوث أو نسّاج لأن أناملى هى التى غزلتها بمعاونة خادماى . أمّا عن الحياكة فحدث ولا حرج لأننى خير من تقوم بهذه المهمة . لقد أثبتت على نفسى بهذه الأشياء حتى لا يكون هناك داع للزم حين تضطرني الظروف لقولها . أنا - باختصار - أبحث عن زوج يحمينى ويسترنى ، يأمرنى ويصون شرفى ، ولست بحاجة لمغازل يغمرنى فى البداية بخدماته ثم يتركنى ملومة

محسورة. لو أردت قبول هذا العرض فأنا رهن الإشارة ، أنا لست للبيع ، ولن أهب نفسي إلا لمن يختارني زوجة ، ومن يفعل هذا لن يندم عليه مادام مستعداً لتقدير مواهبى ولانقيادى التام له" .

لم يكن عقلى وقتئذٍ فى رأسى بل فى عَقْبى ، والسبب فى ذلك نشوة المتعة المتخيلة وأثاث البيت المتحول فى ذاكرتى إلى نفود سائلة ، ولأمور أخرى تثير الشهية. كل هذا شَوْش إدراكى وأفقدنى السيطرة على لسانى فقلت لها : أنا المحظوظ الذى أنعمت عليه السماء - فيما يشبه المعجزة - بتلك الرفيقة كى أملكها زمامى وثروتى ، وهى ليست بالشئ الهين حتى لا تساوى - بالقلادة المتدلية من عنقى والتحف والحلى المخزونة بصندوقى ، والحلل العسكرية التى يمكن الاستغناء عنها - ألفى إسكودو ، وهما بالإضافة إلى ألفين وخمسمائة الإسكودو خاصتها يعتبران مبلغاً لا بأس به للعيش فى إحدى القرى حيث نشأت وترعرعت وتمتد جذورى ، إذ إننا بالترشيد فى الإنفاق وبمزاولة التجارة فى الفواكه الموسمية يمكننا أن ننعّم بحياة رغدة مطمئنة. المهم أننا اتفقنا فى الزيارة الأخيرة على الزواج ، تم إشهار رغبتنا فى الكنيسة لمدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع تزوجنا فى حضور صديقين لى وشاب ادّعت أنه ابن عمها توددت إليه بكلمات معسولة مهذبة - وإن كانت عارية عن الإخلاص - مثلما كنت أفعل فى كل تعاملاتى مع زوجتى الجديدة ، ولا أجدنى مضطراً لإماطة اللثام عن مضمون سوء النية لأنى لست على كرسى الاعتراف حتى أبوح بما فى صدرى كله .

نقل الخادم صندوقى من الخان إلى بيت زوجتى ، وقبل غلقه أمامها على قِلاذتى الرائعة أريتها ثلاث أو أربع حلى أصغر حجماً لكنها فائقة الصُّنْع ، هذا بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة شرائط حريرية مزدانة بفصوص برّاقة ، كما أظهرت لها الحلل العسكرية وريش القبعة الملون ، سلّمتها بعد ذلك أربعمائة ريال التى كانت معى للإنفاق على البيت. تذوقت غسل الزواج وطعمته لمدة ستة أيام عشت فيها متوسّعاً غير مبالٍ كأننى الصهر البخيل الدنىء فى بيت حمويه الغنيين (٥) .

(٥) يُطلق هذا المثل (مثل الصهر البخيل الدنىء ...) على كل من يُسرف فى مال الغير وينفق منه بلا حساب غير مبالٍ بالعواقب . (المترجم)

دُست على البُسط الوثيرة ، وأتلفت الملاءات الهولندية ، ولم أقنع فى الإضاءة
لنفسى بغير الشمعدانات الفضية . كنت أصحو من النوم فى الحادية عشرة ، أتناول
فطورى فى السرير ، وفى الثانية عشرة يحين موعد الغداء ، وفى الثانية بعد الظهر
أمضى القيلولة مستلقياً على زرابى ووسائد قاعة الاستقبال . كانت زوجتى والخادمة
تستبقان لتلبية طلباتى ، وتعملان بجِدِّ واجتهادٍ من أجل راحتى . أما غلامى الذى
عهدته أخرق كسولاً فقد تحول إلى شُعلة من النشاط . حين أتلمس "استيفانيا" ولا
أجدها إلى جوارى تكون فى المطبخ منهمكة فى إعداد الأطعمة اللذيذة الشهية .
ملابسى - بما فيها القمصان والياقات والمناديل - كانت فى عبقتها مثل روضة من
الزهور ، هذا لأنها كانت تغسل بالماء المعطر وترش بالرياحين .

مرّت هذه الأيام سراعاً مثلما تمر السنوات الخاضعة لقانون الزمن ، وفيها - نتيجة
للراحة المطلقة والخدمة الممتازة - أخذت تتحول النوايا الخبيثة التى بدأت بها هذا
المشروع إلى أخرى طاهرة نبيلة . وفى اليوم السادس والأخير ، وكنا ما نزال فى
السرير ، سمعت طرقات عفيفة على باب البيت . أطلت الخادمة من النافذة ثم انسحبت
على الفور وهى تقول:

- رياه ، إنها هى ! لمَ عادت قبل الموعد المحدد فى رسالتها الأخيرة ؟

- من الذى جاء ، أينها الفتاة ؟ - سألتها .

- ومن سيكون غيرها ؟ - ردت الخادمة - إنها سيدتى "دونيا كليمنتا
بويسو" ومعها "دون لوپى ميليندث" وخادمان والقهرمانه "أورتيجوسا" .

- هلمى يافتاة وافتحى لهم الباب - قالت إستيفانيا - ، وأنت ياسيدى -
موجهة كلامها لى - أستحلفك بحبى أن تلزم الهدوء ولا تنفعل إذا سمعت
شيئاً ضدى ولا ترد عليه بدلاً منى .

- من هذا الذى يجرؤ على التطاول عليك فى حضرتى ؟ أخبرينى : من هؤلاء
القوم الذين أقلقك مجيئهم حسبما أرى ؟

- الوقت لا يتسع للرد على تساؤلاتك ، ومع هذا أقول لك إن ما سيحدث الآن
مجرد تمثيلية متفق عليها من قبل ، سأشرح لك تفاصيلها فيما بعد .

ورغم أنى كنت متحفزاً للرد عليها إلا إن دخول "دونيا كليمنتا" الصلاة ألقمنى حجراً. كانت ترتدى فستاناً أخضر من الحرير الأملس المصقول وموشى بقياطين مذهبة ، ومِعطفاً من قماشة الفستان ومزخرفاً مثله ، وقبعة مرصعة بفصوص ذهبية برّاقة ومتوجة بریش متعدد الألوان ، وطُرحة رقيقة متدلّية حتى منتصف وجهها. دخل معها "دون لوپى ميليندث دى ألميندارس" وكان لا يقل عنها وجاهة و"شياكة" فى لباس السفر المزركش . كانت القهرمانه "أورتيجوسا" هى البادئة بالحديث :

- سترك يارب ! فراش سيدتى "دونيا كليمنتا" مشغول ، وبرجل ؟ شىء لا يحتمل التصديق ! أراهن على أن السيدة "إستيفانيا" أحسنت الاستفادة من صداقة سيدتى لها .

- الذنب ذنبى يا "أورتيجوسا" - قالت "دونيا كليمنتا" - أعدك بألا أعذب نفسى من اليوم باتخاذ صديقات لا يعرفن من معانى الصداقة سوى ما يتفق مع مصالحهن .

على كل ما تقدم لم ترد "إستيفانيا" إلا بما يلى :

- هونى عليك يا "دونيا كليمنتا" ، ولا تحملى ما رأيته الآن فى دارك على محمل سوء لأنك عندما تعرفين منى حيثياته ستلتمسين لى العذر بالتأكيد وسيزول باعث الشكوى لديك .

فى تلك الأثناء كنت قد ارتديت على عجل السروال والقميص فأخذتنى "إستيفانيا" من يدى وجرجرتنى إلى غرفة مجاورة ، وهناك أخبرتنى أن صديقتها تلك تريد - من خلال كذبة بيضاء - الزواج من "دون لوپى" القادم معها ، وتكمن الكذبة فى أنها تحاول إفهامه أن الدار وما فيها من متاع يخصانها وسيكونان - بالتالى - مهرها المقدم إليه ، وبما أنها واثقة من شدة هيامه بها فلن يفكر فى طلاقها عند اكتشاف الخدعة .

- سترد إلى بعد الزواج مباشرة ممتلكاتى كلها، ولن يعييبها بعد ذلك - لا هى ولا أية امرأة أخرى - استعانتها بأية وسيلة من وسائل الخداع من أجل الظفر بزوج محترم .

أخبرتها عندئذ بأن ما تنوي عمله لا يندرج تحت أى بند من بنود الصداقة ، وأن عليها التفكير جيداً فيما هي مقدمة عليه لأنها ربما تحتاج بعد ذلك للشرطة والقضاء لاسترداد ما سلب منها ، لكنها ردت على آلاف التعلمات وأفاضت فى تعداد مناقب "دونيا كليمنثا" وفصائلها. لم أجد بداً فى النهاية - رغم استيائى وكدرى - من الرضوخ لـ "استيفانيا" التى حاولت جبر خاطرى بقولها إن الخدعة لن تزيد مدتها عن ثمانية أيام سنحل فيها ضيوفاً على بيت صديقة أخرى لها. أكملنا ارتداء ملابسنا، وفى أثناء دخولها لوداع "دونيا كليمنثا بويسو" و"دون لو پى ميليندث دى ألميندارس" أمرت خادمى بشحن الصندوق والسير خلف "إستيفانيا" التى تبعثها أيضاً دون وداع أحد.

حين وصلنا إلى بيت صديقتها دخلت بمفردها وتركنا - أنا والخادم - أمام الباب، انتظرنا وقتاً طويلاً وفى نهايته خرجت إلينا خادمة وأذنت لنا بالدخول ثم اصطحبتنا إلى غرفة ضيقة بها سريران يبدوان - من شدة تجاورهما وتلامس ملاءتيهما - وكأنهما سرير واحد.

أمضينا بالفعل ستة أيام فى ذلك البيت ^(٦) ، لكنها كانت مشحونة بالشجار المستمر: إذ لم تكن تمر ساعة دون أن ألقى على مسامعها باللوم ووصف ما أقدمت عليه - حتى لو كان لأمرها - بالحق.

ولما كنت أعيد هذا الكلام وأكرره فى الرواح والمجىء فقد انتهزت صاحبة البيت فرصة خروج "إستيفانيا" (للنظر - حسبما أخبرتنى - فيما انتهى إليه أمر صفقتها) وأرادت الوقوف على سبب الشجار المستمر معها ، ومعرفة الخطأ الذى ارتكبته حتى أصفه بالحق. شرعت فى قص الحكاية كاملة عليها، وما إن وصلت إلى الحديث عن زواجى من "دونيا إستيفانيا" والمهر الذى قدمته لى ، وعن سذاجتها فى ترك دارها لدونيا كليمنثا حتى لو كان من أجل غاية سامية مثل الزواج من "دون لو پى" حتى

(٦) يبدو أن المؤلف قد أخطأ فى تقدير عدد الأيام التى أمضتها "دونيا إستيفانيا" وزوجها فى بيت صديقتها الثانية : ففى الفقرة السابقة ورد ما يفيد بأنهما سبتركان البيت الذى تزوجا فيه لمدة ثمانية أيام فقط ، ورغم هذا يقول المؤلف هنا على لسان بطله : "أمضينا بالفعل ستة أيام فى ذلك البيت (أى بيت الصديقة الثانية)" ، والمفروض أن يقول : "أمضينا بالفعل ثمانية أيام ..." (المترجم)

أخذت تشير على نفسها بعلامة الصليب مرات عديدة وهى تقول : "أعوذ بالله من شر تلك الأنثى وخبثها" ، وعندئذ تملكنى الفزع . قالت لى بعد ذلك :

- سيدى الملازم ، لست متيقنة مما إذا كان مخالفاً للضمير التصدى بالكشف عما يبدو أن السكوت عنه خطيئة ، ومهما تباينت وجهات النظر فى هذا الشأن فليس أمامى من خيار سوى الانحياز للمبدأ القائل : فلتحى الحقيقة ، والموت للكذب والخداع ! وانطلاقاً من هذه القاعدة أقول إن "دونيا كليمنتا" هى المالكة الحقيقية للبيت ، ولما يضم من أثاث : أى لما قدم لك على أنه مهر ، أما ما أخبرتك به "دونيا إستيفانيا" فهو الكذب بعينه إذ إنها لا تملك داراً ولا متاعاً ولا لباساً غير الذى عليها . عندما أزمعت "دونيا كليمنتا" القيام برحلة طويلة لزيارة أقاربها فى "بالنثيا" والحج إلى "نويسترا سيورا دى جوادالوبي" وفاءً لما عليها من نذر أوصت "دونيا إستيفانيا" - لأنها حقاً صديقتان حميمتان - بالعناية بدارها فى أثناء غيابها ؛ وإذا كانت "دونيا إستيفانيا" قد استغلت الفرصة للزواج بشخص محترم مثل السيد الملازم فلا تثريب عليها فى ذلك لأن الغاية كانت شريفة .

وما إن فرغت من كلامها هذا حتى بدأت أشعر بسريان القنوط فى أوصالى ، ولو لم يدركنى ملاكى الحارس بإثارة عاطفتى الدينية والإيحاء لى بأن اليأس معصية مغلفة لما يحويه من شر مستطير لكنت فى عداد الهالكين دون شك . لقد خَفَّفَ هذا الهاجس المحمود من قنوطى بعض الشيء وإن كان لم يصل إلى الحد الذى يمنعنى من التقاط عباءتى وسيفى والخروج للبحث عن "إستيفانيا" بذية جعلها عبرة لمن لا يعتبر . شاءت الأقدار - ولا أدرى إن كان من قبيل حسن الطالع أم سوء الحظ - ألا أعثر على "إستيفانيا" فى أى مكان حسبتها فيه ، ولما أعيانى البحث حملتنى قدمائى إلى كنيسة "سان لورينثو" ، وأمام صورة العذراء جلست على مقعد لأشكو لها همى ، ومن شدة الكآبة استغرقت فى نوم لم أكن سأفيق منه فى القريب العاجل لو لم يوقظونى .

ذهبت مثقلاً بالأفكار والهموم إلى "دونيا كليمنتا" فوجدتها متربعة على عرش بيتها ، لم يطاوعنى لسانى على مفاتها فى الموضوع و "دون لوبي" جالساً إلى

جوارها ، عدت أدراجي إلى بيت مضيفتي فأخبرتني أن "إستيغانيا" رجعت أثناء غيابي وعرفت منها أنني اكتشفت الخدعة ، وأنها سألتها عن حالتني بعدها فحككت لها عن اكفهرار وجهي وخروجي المنذر بالشر - حسبما اعتقدت - للبحث عنها. قالت لي في النهاية إن "دونيا إستيفانيا" حين سمعت هذا منها أخذت محتويات الصندوق ولم تترك لي غير لباس السفر ثم فرت هاربة.

- وهكذا أصبحت "على الحديدة" . اقتربت من الصندوق فوجدته مفتوحاً مثل حفرة تنتظر جثة ميت، كنت أنا صاحبها على الأرجح لو كنت متمتعاً بإدراك قادر على الإحساس بحجم المصيبة وتقدير أبعادها.

- إنها بلا شك عظيمة - تكلم عندئذ المحامي "بيرالتا" - لو أخذنا في الحسابان كم الحلي و "الإكسسوارات" التي هربت بها "دونيا إستيفانيا" ، وقد كانت - كما يقال - كل ما يحويه الجراب.

- لم يحزنني إطلاقاً ضياع هذه الأشياء التي ينطبق عليها المثل القائل : "ماذا ستأخذ الريح من البلاط ؟ !".

- ماذا تقصد بهذا المثل ؟ سأل "بيرالتا" .

- أقصد أن الكم الهائل من الحلي و "الإكسسوارات" لا يساوي أكثر من عشرة إسكودو أو اثني عشر على أقصى تقدير.

- هذا مستحيل لأن ما كان السيد الملازم يحمله على عنقه فقط يزن - في عين الرائي - ما لا يقل عن مائتي دوكدوس .

- ما حسبته قد يكون صحيحاً لو أن الحقائق تأتي عادة مطابقة للظواهر ، وبما أنه ليس ذهباً كل ما يلمع فإن القلادة الضخمة والشرائط البراقة وسائر الحلي الأخرى لم يشكون يوماً من معدنهن المصطنع ، لقد كانت محكمة التقليد بحيث لا تبوح بأسرارها إلا للمسمة خبير أو لوهج النيران.

- لقد خرجتما متعادين إذن في سباق الخداع الذي اشتركتما فيه .

- بل ومتعادلين بجدارة لأن النتيجة لم تكن ستتغير مهما وزعت الأدوار بيننا من جديد ، ورغم هذا فإن مصدر تعاستي يكمن في أنها تستطيع التخلص

فى أى وقت تشاء من حاجياتى المغشوشة بينما لا أستطيع - فى المقابل
- التخلص مطلقاً من زيف نواياها ، وما يلتصق بجسد الإنسان كالرداء
يؤذى حقاً.

- احمد ربنا ياسيد "كامپوثانو" أنها كانت رداءً برجلين ، انقشعت عنك ،
ولست مضطراً للبحث عنها .

- معك حق ، لكنى رغم هذا ودون البحث عنها أجدها معششة فى خيالى أينما
حللت ، ومن ثم فالإهانة ماثلة دوماً أمامى .

- لا أجد ما أرد به عليك سوى هذين البيتين للشاعر "بترارك" :

إذا كنت مولعاً بإيذاء الآخرين وخداعهم
فلا تصنع بالشكوى إن أصابتك بعض سهامهم .

- أنا لا أشكر ، بل أتوجع لأن عدم اعتراف المذنب بذنبه لا يستوجب فقدانه
الإحساس بألم العقاب . أعرف أننى أردت الخداع فصرت مخدوعاً ، وأننى
جرحت نفسى بحد السيف الذى سلته لظعن غيرى ، لكن معرفتى تلك لا
تفيد فى تحييد إحساسى بالمرارة . ولكى أضع اللمسات الأخيرة على النهاية
المفجعة لقصتى أقول إننى عرفت أن "إستيغانيا" هربت مع الشاب الذى
حضر حفل زفافنا على أنه ابن عمها ، وإن كان قد تبين أنه عشيقها منذ أمد
بعيد ، وبالطبع فقد أقعدنى الاكتشاف الأخير عن البحث عنها حتى لا أعثر
على خزى جديد أثقل به همى . بذلت بعدها خانى القديم ، ومعه تبدلت
أيضاً سحتتى بسقوط الأهداب والحاجبين ، وشيئاً فشيئاً أخذ يتساقط شعر
رأسى لأصبح أصلع قبل الأوان (وهذا النوع من المرض يطلقون عليه
"لوپيثيا") . وهكذا وجدتنى حليقاً من كل شىء : لا لحية أمشطها ، ولا
مالاً أنفقه . كان المرض يتسارع على إيقاع خطوات عوزى ، ولما كان الفقر
يدهس الشرف ويحمل أصحابه إما إلى حبل المشنقة أو إلى عنابر
المستشفيات أو إلى الاستجداء فى مذلة وهوان على أبواب الأعداء ، فإنه
يعتبر من أقسى أنواع العذاب التى يمكن أن تصيب نساء الحظ . ولكى لا
أنفق فى العلاج الملابس التى ستستر جسدى حال الصحة فقد انتهزت

فرصة فتح مستشفى المواساة لأبوابها ودخلت لأتلقى أربعين جلسة في المعركة. يقولون إننى سأسترد العافية لو حافظت على نفسى ، لم يعد أمامى غير السيف الذى أملكه ، أما الباقي فأمره موكول إلى رب العزة .
أبدى المحامى عجبه من جديد ، وأخذ يضرب كفا بكف .

- هون عليك ياسيد "بيرالتا" وادخر عجبك لما هوأت ، فمازالت جعبتى تحوى أموراً تفوق كل تصور لأنها تتجاوز المألوف وتتعدى نواميس الطبيعة ، وإذا كانوا يقولون "رب ضارة نافعة" فإن أحداثى البائسة قد أفادتني فى دخول المستشفى لأرى ما ساقصه عليك ، ولن تصدقه ، لا أنت ، ولا غيرك .

حين سمع "بيرالتا" هذه المقدمة الملتهبة تأجبت رغبته فى معرفة الأمور المدهشة التى رآها الملازم ، ومن ثم فقد طلب منه - بحرارة مماثلة - قصها عليه فى الحال .

- أظنك قد رأيت الكلبين اللذين يحملان فانوسين ويسيران ليلاً مع الأخوين "كا باتشا" ليضيئا لهما الطريق وهما يتسولان .

- نعم رأيتهما - أجب "بيرالتا" .

- ورأيت أيضاً أو سمعت أنهما يبحثان فى ضوء الفانوسين عن الصدقات التى يلقيها الناس من النوافذ على الأرض ، وأنهما يقفان - دون أمر - أمام البيوت التى اعتاد قاطنوها التصدق على الأخوين ، وأنهما وديعان مثل حملين فى رحلات التسول ؛ لكنهما ينقلبان إلى وحشين كاسرين فى حراسة المستشفى .

- سمعت هذا أيضاً ، لكنه لا يدعو إلى الدهشة ولا ينتمى لخوارق العادات .

- لكن ما سأرويه عنهما الآن أكثر من كاف لإثارة عجبك ، ودون اللجوء إلى الإشارة بعلامة الصليب أو فقدان الاتزان أرجو منك تهينة النفس لقبوله : لقد رأيت بعينى رأسى هاتين - فى ليلتى قبل الأخيرة بالمستشفى - الكلبين (وأحدهما يسمى "ثيبيون" والآخر "بيرجانثا") مستقلين خلف

سريرى فى سَلْتين قديمتين ، وفى منتصف تلك الليلة - بينما كنتُ مستيقظاً فى الظلام أفكر فى أرزائى الماضية ونكبتى الحاضرة - سمعت كلاماً على مقربة منى ، أرهفت السمع لالتقاط الكلام ومعرفة مصدره ، وما هى إلا لحظات معدودات حتى تأكدت من أن المتحدثين هما "ثيبيون" و "بيرجانتا" .

وما إن فرغ "كامپوثانو" من كلامه السابق حتى نهض المحامى "پيرالنا" ثم أخذ يضرب كفاً بكفٍ وهو يقول :

- تصبح على خير ياسيد "كامپوثانو" ، لقد كنت حتى هذه اللحظة متردداً بين تصديق وإنكار ما قصصته على بشأن زواجك ، لكن ما تأتيني به الآن يضطرنى لعدم الاعتقاد فى كلمة واحدة تفوهت بها. بالله عليك لا تقصص هذه الترهات على أى شخص إلا إذا كان صديقاً حميماً لك ، مثلى .

- أتظننى جاهلاً أحمق حتى لا أعرف أن الحيوانات لا تتكلم إلا إذا كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات ، صحيح أن البيغاوات والعقاعق تردد بعض الكلمات لكن دون وعى أو فهم ، أما ما حدث أمامى فيختلف تماماً لأنه صدر عن إدراك وفهم عميقين. أنا نفسى لم أصدق فى البداية وتصورت أننى أحلم رغم استيقاظى التام وصحة الحواس الخمس التى أنعم بها الخالق على. لقد أنصت كثيراً وسمعت وتأملت، وفى النهاية دونت حديثهما بالحرف الواحد ، وهذه كلها مؤشرات ودلائل كافية لحملك على الاقتناع بصدق ما أقول. وعلاوة على ما تقدم فإن الموضوعات التى خاض فيها الكلبان متنوعة وخطيرة ولا تجرى إلا على ألسنة الفلاسفة والراسخين فى العلم ، وأنا بالطبع لست منهم ، ولذا أجدنى مرغماً على الاعتراف بأننى لم أكن أحلم ، وأن الكلام الذى سمعته من الكلبين حقيقة لاشية فيها.

- ياللهول ! هل عاد إلينا من جديد زمن "ماريكا ستانيا" الذى تكلم فيه القرع، أو زمن "إيسوب" الذى تحدث فيه - فضلاً عن حيوانات أخرى - الديك مع الثعلبة ؟

- سأكون بالفعل أحمق لو اعتقدت في عودة تلك الأزمان الغابرة ، ولن أكون أقل حمقاً لو أنكرت ما رأيته عيناى ، وسمعتة أذنأى ، وما أنا على استعداد للحلف عليه بأيمان تعيد الكافر إلى حظيرة الإيمان . وعلى فرض أننى خدعت ، وأن حقيقتى مجرد وهم ، وأن إلحاحى عليها ضرب من الشطط ، فما قولك أيها المحامى إذا رأيت حديث الكلبين مدوناً بخط يدى ؟

- بما أنك مُصرٌّ على إقناعى فلا مناص من الاستماع عن طيب خاطر لهذا الحديث الذى أتوقع جودته طالما كان صادراً عن عبقرية السيد الملازم ومدوناً ببرأعه .

- ثمة شىء آخر جدير بالتنبؤيه - قال الملازم - وهو أن الكلام الذى ستقرؤه يعتبر تسجيلاً حرفياً لما تقوّه به الكلبان ، ولذا ستجده عارياً عن الزخارف اللفظية والصور البيانية ، هذا لأننى كنت صافى الذاكرة منتبه العقل (نتيجة لما أكلته من زبيب ولوز) وتمكنت من نقل كلماتهما دون زيادة أو نقصان ، ولم أعمد بعد ذلك إلى توشيتها بالألوان البلاغية لإضفاء مسحة الجمال على الأسلوب . لقد استمر حديث الكلبين ليلتين متتابعتين ، ورغم أنى لم أسجل سوى ما دار بينهما فى الليلة الأولى والخاص بحياة "بيرجانثا" فمازالت تراودنى فكرة تسجيل قصة حياة "ثيبيون" (التى كانت موضوع حديث الليلة الثانية) . أما ما كتبتة فهو مخبوء فى عبنى ، وقد وضعته فى شكل حوار بهدف التخلص من تكرار : قال ثيبيون وأجاب بيرجانثا لأن هذا التكرار يطيل الوقت ويزيد من عدد الصفحات .

وقبل إكماله لعبارته السابقة أخرج من عبّهِ دفترأ وناولهُ للمحامى فالتقطه الأخير ضاحكاً ، كأنه يسخر من كل ما سمعه ومما هو مقبل على قراءته .

- سأضطجع على هذا الكرسي - قال الملازم - لحين فراغك من هذه الترهات أو أحلام اليقظة التى لا تحوى بين جنبئها سوى ميزة القدرة على التحرر منها حينما تثير غضبك .

- افعل ما يحلو لك - ردّ "بيرالتا" - لأننى سأنتهى منها قبل أن يرتد إليك طرفك.

اضطجع الملازم ، فتح المحامى الدفتر لتطالع عيناه العنوان التالى على الصفحة الأولى :

حوار الكلبين

الحوار الذى دار بين ثيبيون وبيرجانثا ،
كلبى حراسة مستشفى المواساة ، الواقعة
خارج أسوار بلد الوليد ، بالقرب من بوابة
الكامپو ، وهما المعروفان بالمسمى الشائع :
كلبا " ما هو ديس " .

ثيبيون : لندع المستشفى هذه الليلة فى حراسة العناية الإلهية ، وهيا بنا يا صديقى
بيرجانثا ننتحى جانباً بين هذه السلال للتمتع بنعمة الكلام التى أكرمتنا
بها السماء .

بيرجانثا : لا أصدق يا أخى ثيبيون ما يدور الآن بيننا لأنه يتنافى مع النواميس
الكونية .

ثيبيون : صدقت يا بيرجانثا ، ومما يُعَلَى من شأن هذا الإعجاز أننا نتحدث بوعى
كأننا مزودان بنعمة العقل التى تعتبر الفارق الأساسى بين الإنسان والبهائم .
بيرجانثا : رغم سماعى فيما انصرم من حياتى عن ميزاتنا العديدة ، ومنها قدرتنا
على نوع من الفهم والإدراك المحدودين ، فإن حديثك الحالى وفهمى لما
تقول يثير دهشتى واستغرابى .

ثيبيون : جل ما سمعته فى الثناء علينا يتمثل فى الإشادة بذاكرتنا القوية ووفائنا
وامتناننا لما يسدى إلينا من معروف ، وهم يبالغون فى ذلك لدرجة أنهم
يجعلوننا رمزاً للصدقة الحقة ، وهكذا فرما شاهدت - ولو مرة - أنهم
حين يدفنون رجلاً وزوجته فى نعشٍ من الرخام الأبيض لا ينسون وضع
تمثال كلب بينهما ، رمزاً إلى ما كان بينهما فى الحياة من وفاء وإخلاص
شديدين .

بيرجانثا : لا يغيب عن بالى أن هناك كلاباً فى غاية الوفاء والامتنان لأصحابها ، إذ
يوجد من يلقى بنفسه إلى جوار جثة سيده فى النعش ، ومن يظل رابضاً

أمام قبره، لا يفارقه حتى يقضى نحبه جوعاً . ولست أجهل أن الفيل يتمتع بأكبر قسط من الفهم بين سائر الحيوانات ، ومن بعده يأتي الكلب ثم الحصان، وأخيراً القرد .

ثيبيون : ورغم هذا لا تملك سوى الاعتراف بأن الحيوانات التي ذكرتها لم يسبق لها الحديث ، ومن ثم فإن كلامنا الحالي يندرج تحت بند المعجزة التي يشير ظهورها - كما أثبتت التجارب - إلى قرب وقوع كارثة .

بيرجانثا : كلامك هذا يجعلني أسترجع ما سمعته منذ عدة أيام من طالب علم بجامعة "قلعة هنارس" .

ثيبيون : وماذا سمعت منه ؟

بيرجانثا : إنه من بين خمسة أسلاف طالب الذين يدرسون هذا العام بالجامعة المذكورة يوجد ألفان متخصصان في الطب .

ثيبيون : وما دلالة ذلك ؟

بيرجانثا : إن هؤلاء الطلاب سيجدون بعد تخرجهم مرضى يداوونهم (ولن يتأتى هذا إلا في حالة التعرض لوباء عام) أو إنهم سيقضون نحبهم جوعاً، ومما لا شك فيه أن كلا الأمرين يعتبر كارثة بكل المقاييس .

ثيبيون : سواء كان أمر حديثنا من قبيل المعجزة أو لا فإنه واقع ملموس، وإذا كان قضاء السماء لا يمكن تفاديه ولا حيلة لمخلوق فيه فلا داعي إذن للدخول في نقاش حول كلفيته وأسبابه، بل انتهاز الفرصة وقضاء هذه الليلة المباركة بطولها - دون نوم - في تجاذب أطراف الحديث الذي حلمت به خلال ردهج طويل من الزمن .

بيرجانثا : وأنا أيضاً تملكنتي - منذ أن دبّت في أوصالي القدرة على قرص العظام - الرغبة في الكلام لإماطة اللثام عن الأشياء المختزنة في ذاكرتي قبل أن يعلوها الصدا أو يطويها النسيان . وبما أنني مزوّدة الآن بهذه المنة الإلهية فأنا جدّ راغب في الاستمتاع بها واهتبال الفرصة قدر المستطاع

للإفصاح بسرعة عما أتذكره حتى لو كان مشوشاً ودون ترتيب لأننى لا أعلم متى ستفك على هذه الخاصية المستعارة .

ثيبيون : ما دام الأمر هكذا فهيا أخبرنى بقصة حياتك وما تعرضت له من أحداث حتى هذه اللحظة ، وفى الليلة المقبلة أعدك - إن ظللنا هكذا قادرين على الكلام - بسرد حكايتى عليك ، فمن الأفضل تمضية الوقت مشغولين بحياتنا الخاصة بدلاً من التلصص على حيوات الآخرين .

بيرجانثا : لقد اعتبرتكَ دائماً صديقاً عزيزاً وقدرت فيك ذكاءك وفطنتك، وها أنت كصديق تريد أن تخبرنى بسيرتك الذاتية وتسمع منى حكايتى، وقد هدتكَ فطنتك إلى تقسيم الوقت اللازم لذلك مناصفة بيننا، لكنى أرجوك بالنظر- قبل البدء - فيما حولك للتأكد من خلو المكان من غريب يسترق إلينا السمع .

ثيبيون: المكان خالٍ، اللهم إلا من ذلك الملازم الذى أخذ جلسة فى المعرقة وأظن أن حاجته إلى النوم أظهر من قدرته على الاستيقاظ لسماع ما يدور حوله.

بيرجانثا : ما دمت متأكداً من ذلك تهياً إذن لسماعى، وإذا سئمت ما أقول فما عليك إلا أن تنهرنى أو تأمرنى بالكف عن الكلام .

ثيبيون : أنا جدٌ مشتاق لسماعك، ولن أقاطعك إلا إذا دعت الضرورة لذلك، فهياً أتحنفى بما طاب لك إلى أن تشرق الشمس أو ينتبه لوجودنا أحد .

بيرجانثا : يُخيلُ إلى أننى رأيت الشمس لأول مرة فى مجزر إشبيلية الواقع خارج بوابة "لاكارنى" (١) ، ولذا أظن أن أبوى كانا من كلاب الدرواس الكبيرة الموجودة لدى جزارى تلك المنطقة . أول واحد خدمت عنده كان يدعى "نيقولاس الرُومو" ، وهو فتى رُبعة متين البنيان ، غضوب مثل زملائه

(١) أشار المؤرخون إلى وجود هذه البوابة فى إشبيلية ، وقد أطلق عليها هذا المسمى (لاکارنى: La Carne بمعنى اللحم) لأن لحوم المجزر جميعها كانت تنقل عن طريقها للتوزيع على الملاحم الموجودة داخل المدينة . (المترجم)

فى المهنة . دربنى " نىقولاس " هذا ، مع جِراء آخريِن ، لمساعدة الكلاب
المسنة فى تطويق الثيران والقبض عليها من آذانها ، وبعد فترة وجيزة
أصبحت كالعقاب فى هذا المضمار .

ثيبيون : لا يدهشنى نبوغك فى هذا المجال لأن كل كائن حى لا يلد إلا شبيهه .

بيرجانثا : لا أدرى من أين أبدا لأقص عليك يا أخى ثيبيون الوقائع المثيرة التى
عاينتها فى ذلك المجرز: وأول ما يسترعى الانتباه أن العاملين فيه - من
الصغير إلى الكبير - أصحاب ذمم واسعة وقلوب متحجرة، فهم لا يخشون
ملكاً ولا عدالة، وأغلبهم يعاشر امرأة فى الحرام ، إنهم مثل الطيور
الجارحة فى السلب والنهب، معيشتهم - هم وخليلاتهم - تعتمد بصفة
أساسية على حصيلة ما يسرقون . أصبحتهم كلها لحم فى لحم، لا يكاد
ييزغ النهار حتى يفد عدد كبير من النسوة والفتيان إلى المجرز بأوعية
فارغة لكى يعودوا منه وهى مكتظة بقطع اللحم ومتون شبه كاملة . لا
تذبح رأس دون أن يسطوا على عشر ما لذ وطاب من لحمها . ولأن
إشبيلية تخلص من جهاز للرقابة على الذبح فكل واحد يمكنه إحضار ما يريد
من الماشية - سليمة كانت أو مريضة - وبهذا الشكل توجد دائماً وفرة فى
اللحوم . وبالطبع فإن أصحاب المواشى يعهدون بها إلى هؤلاء الجزارين
لذبحها وسلخها وتقطيعها شرائح وتشيبيها، لا لسرقها كما يحدث . ما أثار
حقاً عجبى واشمئزأى من هؤلاء الجزارين هو عدم تفرقتهم فى القتل
بين الإنسان والحيوان، فهم لا يتورعون - ولأتفه الأسباب - عن إغمار
سكينهم الطويل الحاد فى بطن أى شخص وكأنهم يجهزون على ثور . لا
يكاد يمر يوم دون عراك وجروح ، وربما سقوط قتلى؛ يتقمصون أدوار
الشجاعة رغم أنهم مجرد أوغاد وقوادين، ومن ميدان " سان فرانسيسكو "
لا يعدم الواحد منهم الظفر بخيلة مقابل ما يقدمه من متون الحيوانات
والأسنة البقر . لقد سمعت ذات مرة رجلاً حكيماً يقول: لكى ييسط الملك
نفوذه على إشبيلية بكاملها يتعين عليه السيطرة على ثلاث مناطق :
شارع "لا كاثيا" وميدان "كوستانيا" والمذبح .

ثيبيون : إذا كنت ستعرج في حديثك - مثل هذه المرة - على طبائع مخدوميك ومثالبهم في المهن المختلفة ، يلزمنا إذن التوجه إلى السماء بالدعاء كي لا تحرمنا من نعمة الكلام لمدة سنة على الأقل ، وإن كنت أخشى مع ذلك - لبطء إيقاعك حتى الآن - ألا تصل للنصف حكايته . وبهذه المناسبة أود لفت نظرك لأمر هام سأفيد منه حتماً عند قص أحداث حياتي عليك ، إن جمال القصص يكمن أحياناً في كونها مبتورة ، وأحياناً أخرى في طريقة السرد ، بمعنى أن بعض الحكايات تثير الغبطة حين تخلو من المقدمات والزينة اللفظية ، وأن البعض الآخر يعتمد في ملاحظته على جمال الأسلوب والإيماءات المصاحبة لعملية السرد (سواء كانت بالوجه أو اليدين) وعلى نغمة الصوت . أوصيك في النهاية بوضع هذه الملاحظة نصب عينيك وبمحاولة الاستفادة منها فيما بقى لك من حديث .

بيرجانثا : أعدك بالالتزام - قدر استطاعتي وبما تسمح به رغبتى العارمة في الكلام - بتلك النصيحة الصعبة .

ثيبيون : حاول كبح جماح لسانك لأنه المسئول الأول عن معظم المصائب التي تحل بالبشر .

بيرجانثا : واتباعاً منى لنصيحتك أقول إن مخدومي علمنى كيفية حمل السلال بفى والدفاع عنها ضد من يحاول انتزاعها ، كما أرشدنى أيضاً إلى بيت صديقه ، ومن ثم فقد أعفى خادمتها من الذهاب إلى المجزر لأننى أصبحت المسئول ، مع طلعة كل فجر ، عن حمل ما أخفته يداه طيلة الليل . ومع الضوء الأول لنهار أحد الأيام كنت محملاً كالعادة بالحصة المسروقة ومتوجها بأقصى سرعة إلى خليلته عندما سمعت صوتاً ينادى على من نافذة ، رفعت رأسى وشاهدت فتاة رائعة الجمال ، تلكأت قليلاً فسمعت نداءها ثانية من على باب بيتها الذى نزلت إليه . اقتربت منها لمعرفة ما تريد ، ولم يكن ما تريد شيئاً آخر سوى الاستيلاء على محتوى السلة ووضع قبقاب نسائى قديم مكانه . قلت لنفسى حينئذ : " لا ضير فى أن يذهب لحم الحيوان إلى اللحم آدمى البض " . قالت لى فى أثناء

عملية التبديل: "هيا، أيها الباشق، أو أيًا ما يكون اسمك، ارجع لصاحبك "نيقولاس الرومو" وقل له لا تثق بعد اليوم في حيوان حتى لو كان ذئبًا، ولا تنس تسليمه السلّة". لم يكن يشق على استرداد ما سلب مني، لكنني أحجمت حتى لا أضاع فمي الجزاري القذر على اليدين البيضواوين النظيفتين .

ثيبيون : أحسنت صنعاً باحترامك للجمال .

بيرجانثا : هذا ما فعلته لأنني رجعت إلى مخدومي بالقبقاب بدلاً من اللحم . أدهشته عودتي السريعة ، ولما رأى القبقاب وفهم المزحة الثقيلة اسئل خنجرًا ووجه إلى ضرية لو لم يسعدني الحظ بتفاديها لما سمعت مطلقاً ما أقصه عليك الآن . أطلقت ساقى للريح، ومن خلف حي "سان برناردو" (٢) همت على وجهي في أرض الله الواسعة ، مسلماً قيادي لتصاريف القدر . نمت تلك الليلة في العراء ، وفي اليوم التالي أتحنفني الحظ بقطيع من الخراف والنعاج . حين رأيته اعتقدت أنني وجدت ضالتي المنشودة ، هذا لأن المهمة الطبيعية للكلاب تتمثل - على ما أظن - في حراسة القطعان التي تعتبر عملاً سامياً لما فيه من فضيلة الذود عن الضعفاء وحمايتهم من الأشرار المتغترسين . وما إن شاهدني راع من الثلاثة المكلفين برعاية القطيع حتى ناداني قائلاً "تو ، تو !" (٣) ، ولما كنت متيمماً بهذا العمل فقد اقتربت منه مطأطئاً رأسي ومحركاً ذيلي . مسح بيده على ظهرى ثم فتح فمي وتفل فيه ، تفرس في أنيابي وحدد على أساسها عمري ، قال لزميلي : "إن علامات السلالة الأصلية تتوافر جميعها في هذا الكلب" . اقترب على الفور صاحب القطيع [الذي كان يمتطي كخيال صهوة مهرة شهباء ويمسك برمح ودرقة ، كأنه جندي في حرس السواحل لا مربى أغنام] وسأل الراعي: "ما الذي يحملك على الادعاء

(٢) في أطراف إشبيلية ، بين مَرَج سان سبتيان ونهر تاجاريتي، يقع حي سان برناردو . أما المجزر فكان متاخماً لهذا الحي الذي كان معظم مكانه من الجزارين ، ومن بينهم بالطبع نيقولاس الرومو .
(المترجم)

(٣) "تو" TO : صوت للداء على الكلاب . (المترجم)

بتوافر علامات السلالة الأصيلة في هذا الكلب" ؟ . " يمكنك الوثوق فيما ذهبت إليه - أجاب الراعى - لأننى قَلَبْتُ فيه جيداً وشاهدت بنفسى هذه العلامات . لا أعرف من أين جاء، لكنه لا ينتمى بكل تأكيد لأى قطيع من قطعان هذه الناحية" . " ما دام الأمر كذلك - ردَّ صاحب القطيع - ضع فى رقبته طوق ليونثيو ، الكلب المتوفى، واعطه حصته من الطعام مثل الآخرين، لاطفه حتى يألف القطيع ولا يلوذ بالفرار" . قال هذا ثم رحل، وعندئذ قام الراعى بوضع طوق مملوء بنتوءات من الصلب حول رقبتي بعد أن قدَّم لى قصعة كبيرة من اللبن الزاخر بقطع الخبز . أطلق على اسم "بارثينو" ، وفى كنف مخدومي وعملى الجديدين أحسست بالسعادة وشعرت بالامتلاء، ولذا كنت مطيعاً وأحرس القطيع بهمة ونشاط ولا أنفك عنه إلا وقت القيلولة التى كنت أقضيها تحت ظل شجرة أو صخرة أو عشب أو على ضفة جدول من الجداول الكثيرة التى تجرى هنالك.حتى ساعات راحتي لم أكن أقضيها فارغ البال متعطلاً، بل فى تذكر ما مررت به من أحداث، لاسيما تلك التى جرت لى مع سيدى الأول وزملائه المسخرين لتحقيق الرغبات السفيهة لصديقاتهم ... كم من الأشياء التى تعلمتها فى مدرسة الجزارة وبوسعى قصها عليك الآن ! ومع هذا سأحجم عنها مضطراً حتى لا تنهمنى بالإطئاب الفارغ أو الاغتياب .

ثيبيون : بما أننى سمعت أبياتاً شعرية لأحد القدماء يشير فيها إلى صعوبة التخلّى عن السخرية والغيبة فى الإبداع الفنى والأدبى فلن أعترض على المقبول منهما: أى ما يعتمد على التلميح لا التجريح . تباً للسخرية التى تصيب فرداً واحداً فى مقتل رغم إضحاكها للكثيرين ! ولو كنت قادراً على إصفاء البهجة بدونها سأعتبرك فى غاية الفطنة والذكاء .

بيرجانشا : لن أتردد فى الأخذ بنصحك وسأنتظر بفارغ الصبر حلول دورك فى سرد حكايتك لأن من يدرك أخطائى ومواطن اعوجاجى فى القص لن يصدر عنه إلا ما يبهج خاطر ويونس الأريب ويعلم المبتدئ الساذج . ولوصل حبل حديثى المنقطع أقول إننى كنت أمضى فترات راحتي فى تأمل كثير من الأشياء، ومن بينها زيف ما سمعته عن حياة الرعاة، لا سيما ما كانت

تقرؤه زوجة سيدي الجديد من كتب لا تضم بين دفتيها سوى الترويج لمثالية حياة الرعاة التي تكاد تكون موقوفة على الغناء والعزف بالآلات الموسيقية المختلفة مثل المزمار والنّاي والكمان . كنت أنتحي جانباً - حين ذهابي إلى بيتها - لسماع ما تقرؤه فتلقط أذنأي حكايات ما أنزل الله بها من سلطان مثل قضاء الراعي "أنفريسو" للوقت من طلوع الشمس حتى مغيبها - وأحياناً إلى ما بعد نشر الليل الحالك لأجنته السوداء فوق أديم الأرض - في التنقل بين جذوع أشجار جبل "أركاديا" وهو يشدو بصوت ملائكي عذب أحلى قصائد الغزل في "بيليساردا الجميلة" (٤) . لم تنسَ أسطر كتبها أيضاً إبراز سيرة العاشق الخجول إليثيو (٥) الذي أهمل قطيعه ولم يظفر في النهاية ببغيته ، أو سيرة الراعي الأكبر "فيليدا" (٦) بحظه العاثر وثقته الزائدة ، أو إغماءات "سيرينو" المتكررة وندم "ديانا" الموجع للقلوب ، أو العلم اللدني للراعية "فيليثيا" (٧) التي استطاعت بمائها المسحور فك طلاسم آلة التيه العويصة والانتصار على أعنى العقبات . وثمة حكايات أخرى لا تحصى سمعتها منها ، لكن ذاكرتي لم تخزنها لقلة شأنها .

ثيبيون : أراك قد عملت بمشورتي، وعلى هذا فلا ضير في أن تلدغ ساخرًا وتمضي قدماً إلى الأمام ما دمت حريصاً على سلامة النية وإن نطق اللسان بما يخالفها .

بيرجانثا : ألا تدري أن ما توصيني به لا يعلق باللسان قبل تخلّقه أولاً في بوتقة النية، ورغم هذا فلو اغتبت وسخرت دونما قصد أو بسوء طوية سأسارع بالرد على من يلومني بمثل ما أجاب به "موليون" [وهو شاعر أحقق متعالم

(٤) بيليساردا الجميلة Anfrio ، Belisarda : شخصيتان من شخصيات "لا أركاديا" التي كتبها لوبي دي بيجا عام ١٥٩٩ . (المترجم)

(٥) إليثيو Elicio : إحدى شخصيات "لاجالاتيا" التي كتبها ثريانتس عام ١٥٨٥ . (المترجم)

(٦) فيليدا Filida بطل قصة "راعي فيليدا" للكاتب الإسباني "لويس جالبيس دي مونتالبو" والتي ظهرت عام ١٥٨٢ . (المترجم)

(٧) سيرينو Sireno ، وديانا Diana ، وفيليثيا Felicia : ثلاث شخصيات في القصة التي كتبها "خورخي مونتيمايور" عام ١٥٥٩ والتي ظهرت تحت عنوان "كتب ديانا السبعة" ، وتعتبر من أشهر قصص الرعاة الإسبانية . (المترجم)

ينتمي إلى مدرسة المقلدين ^(٨) [على الذى سأله عن معنى هذه العبارة اللاتينية Deum de Deo فقال له : ماذا تعنى بها أولاً لكى أجيبك ؟

ثيبيون : هذه إجابة ساذجة تناسب رجلاً بسيطاً ، أما وأنتك فطن - أو تتوخى الفطنة ، على الأقل - فما أظنك ستجيب بشئ يتعين عليك الاعتذار عنه فيما بعد ، لكن دعنا من هذا لتكمل لنا ما بدأته .

بيرجانثا : أقول إذن إن إعمالى للفكر فى الأشياء التى ذكرتها آنفاً وفى كثير غيرها جعلنى أدرك البون الشاسع بين ما يفعله ويمارسه هؤلاء الرعاة وأمثالهم على أرض الواقع وبين ما سمعته من الكتب التى تخوض فى سيرتهم ، فالرعاة الذين أعرفهم إذا كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء فإنهم لا يشدون بالقصائد العصماء المدبجة بل بمقطوعات شعبية دارجة مثل التى يقول مطلعها " حذار من الذئب ياخوانيكا ، وراقبى وجهته " ، وهم لا يتغنون بهذه السفاسف على أنغام الناي أو المزمار أو الكمان بل على الإيقاع الصادر من ضرب محجن بأخر أو من الصناعات المشدودة إلى الأصابع ، كما أنهم لا يؤدونها بأصوات عذبة رفيقة بل بما يشبه الصياح أو الدمدمة . أما بالنسبة للباقي من يومهم فإنهم يقضونه فى تنقية أجسادهم من الحشرات والهوماء وفى خصف نعالهم الممزقة ، ومن جهة أخرى فلا توجد بين الراعيات واحدة تدعى " أماريلى " أو " فيليدا " أو " جالاتيا " أو " ديانا " ، ولا بين الرعاة من يسمى " ليساردو " أو " لوسو " أو " خائيتنو " أو " ريسيلو " ^(٩) ، بل إن أسماء رجالهم لا تكاد تخرج عن " أنتون " و " دومينجو " و " پابلو " و " يورنتى " ، ومما تقدم ذكره يتضح صدق ما ذهبت إليه وهو أن ما تحويه هذه الكتب عنهم مجرد خيالات جامحة هدفها تزجية أوقات فراغ القراء بحلو الكلام الذى لا يمت إلى أرض

(٨) "موليون" (Maulcon) : شخصية تاريخية ، وقد أثبت الباحثون أيضاً وجود مدارس أو أكاديميات المقلدين فى العصر الذهبى للأدب الإيبانى [أى فى القرنين : السادس عشر والسابع عشر] . (المترجم)

(٩) دأب مؤلفو قصص الرعاة على خلع هذه الأسماء الجميلة على أبطال وبطالات قصصهم المضمخة بالمثالية ، وهى مخالفة تماماً لأسماء الرعاة الحقيقية والتى ذكر الكاتب بعضها فى الجملة التالية (مثل : أنتون ، دومينجو ، پابلو ... إلخ) . (المترجم)

الواقع بصلة ، ولو كان الأمر على خلاف ما ذكرت لأدركنى - خلال
صحبتى للرعاة سادتى - قيس من حياتهم السعيدة ومروجهم الناضرة
وغاباتهم المترامية وجبالهم المقدسة وحدائقهم الغناء وجداولهم الرقاقة
وينابيعهم الصافية ، وما فاتنى شرف الاستماع إلى غزلهم العفيف أو
الوقوف على إغماءاتهم المتكررة من فرط تباريح الهوى أو الاستمتاع
بالألحان العذبة الصادرة عن ناي هذا أو كمان ذاك .

ثيبيون : كفى يا بيرجانثا، استقم على الطريق وامض إلى الأمام .

بيرجانثا : أشكر لك يا صديقى لفت انتباهى فى الوقت المناسب لأن لسانى لو سخن
فلن يتوقف حتى يفرغ من عرض محتوى كتاب كامل من تلك الكتب
التي تذهب عقل الحليم، وإن كنت على ثقة من سnoch الفرصة فى القريب
العاجل لأنقل لك هذا المحتوى بفكر أعمق ولسان أبلغ مما أنا عليه الآن .

ثيبيون : كفالك تبجحاً يا بيرجانثا وانظر إلى موطئ قدميك، وفى كلمات أخرى
أقول: لا تنس أنك حيوان غير عاقل، وأن ما أنت فيه الآن - كما أثبتنا
سلفاً - ينتهى إلى خوارق العادات .

بيرجانثا : إذا كنت أتباهى فذلك دليل على أننى ما زلت سادراً فى غفلتى الأولى،
لكن عذرى فى ذلك يكمن فى تذكرى الآن لما سبق لى قوله فى بداية
حوارنا وهو أن الدهشة التى تملكنى من القدرة على التلفظ لا تدانى
الفرع الذى ينتابنى عند التفكير فيما يمكن أن أتركه دون قص لو اختفت
هذه الملكة على حين غرة .

ثيبيون : ما دام الأمر كذلك، لم لا تخبرنى الآن بما تتذكره وتخشى ألا تواتيك
الفرصة للبوح به لاحقاً؟

بيرجانثا : الأمر يتعلق بما جرى لى مع ساحرة مخضمة تلمذت على يد " كامتشا
دى مونتيا " .

ثيبيون : إلى به قبل انهماكك فى الأحداث المتشعبة لحياتك .

بيرجانثا : لن أقدم على شيء لم يحن وقته بعد . اصطبر، واستمع للأحداث مرتبة
حتى لا تفقد متعتها، هذا إن كان لا يرهقك معرفة أولاهها قبل وسطاهها .

ثيبيون: تَوَخَّ الإيجاز، واحك ما تريد وبالطريقة التي تحبها .

بيرجانثا : أقول إذن إننى كنت مستمتعاً بعملى فى حراسة القطيع، فهو - من جهة - يعصمنى من التعطل والفراغ (وهما أصل ورأس البلايا والرزائل)، ومن جهة أخرى يجعلنى أشعر بلذة الأكل من كذى وعرق جبينى، هذا لأننى إذا كنت أستريح نهأراً فلكى أقضى الليل بطوله فى الجرى هنا وهناك بحثاً عن الذئب، فما إن ينادى الرعاة " عليك بالذئب، يا " بارثينو " حتى أهرع بصحبة باقى الكلاب إلى حيث يشيرون . كنت أمسح الوديان جيئة وذهاباً، وأمشط الجبال، وأخترق الأدغال، قافزاً الوهداث ومجتازاً الطرق، ومع إشراقة الصباح أعود خاوى الوفاض - متعباً، لاهثاً، ممزقاً، دامى اليدين والرجلين - إلى مكان القطيع لأجد نعمة مية أو خروفاً مذبوحاً قد اختفى نصفه، فينتابنى اليأس حينئذ من عدم جدوى يقظتى ونشاطى . وفور ظهور صاحب القطيع كان الرعاة يستقبلونه بفروة الضأن المأكول فيصمهم بالتهاون ويأمر بعقاب الكلاب على تكاسلهم، ثم يتبع هذا فاصل من أنهماز العصى علينا ومن السباب الموجه إلى الرعاة . ولما وجدتني ذات يوم معاقباً دون ذنب أو جريرة، وبعد تأكدي من عدم نفع حرصى وشجاعتي واجتهادى فى القبض على الذئب المزعوم قررت تعديل أسلوبى فى البحث ، فبدلاً من الذهاب بعيداً جداً للبحث والتنقيب - كما جرت العادة - رأيت أنه من الأجدى التوارى فى مكان قريب من القطيع، لأن الذئب إذا كان لا يخلف موعدة فى مهاجمته والفتك بإحدى رءوسه فإننى سأظفر به دون شك من موقعى الجديد . وهكذا فعندما دق ناقوس الخطر الأسبوعى ، ذات ليلة حالكة السواد تصعب فيها الحراسة ، اختبأت خلف شجيرة قريبة وتركت زملائي يمرون من حولى متجهين إلى المهمة المحكوم عليها مسبقاً بالفشل، ومن موقعى هنالك شاهدت راعيين يسكان بخروف من أفضل الرءوس بالقطيع ويذبحانه بطريقة بدت فى الصباح كأنها من عمل الذئب . اعترتنى الدهشة وأصابنى الذهول حين اكتشفت أن الرعاة هم الذئاب، وأن الذين يمزقون القطيع

إرباً هم أنفسهم المكلفون بحمايته . كانوا لا يتوانون صباحاً في عرض الفريسة على صاحب القطيع، مقدمين له جلدها وما فضل من لحمها بعد التهامهم ليلاً لأطيبه . وعندئذ يتكرر المشهد المحفوظ عن ظهر قلب، يعود الرجل لتوبيخهم، وينصب العقاب من جديد على الكلاب .

لم تكن هنالك ذئاب، ورغم هذا فالتناقص الدرامي في أعداد القطيع لم يكن يتوقف . أردت فضحهم وكشف ألاعيبهم فوجدتني أخرس غير قادر على الكلام . ملأني هذا العجز بأسى عميم وكرب عظيم .

"سترك يارب !- كنت أقول لنفسي - . من الذي يمكنه كشف هذه الغمة ؟ من باستطاعته الصياح بأعلى صوته معلناً أن حرية المدافع هي مصدر الأذى، وأن الرقباء هم المقتحمون، وأن الثقة هي الأداة المستخدمة في السرقة، وأن المكلف بالحراسة هو نفسه القاتل ؟ !"

ثيبيون : لا فض فوك يا بيرجانثا، فاللص مهما بلغ دهاؤه لن يكون أذكى من الذي تضمه جدران البيت، ولذلك تجد أن المجدلين من الوائقين غير المحترسين أكثر عدداً من المتشككين الحذرين . لكن المأساة تكمن في استحالة تمتع الإنسان على ظهر الأرض بحياة سوية إذا انتفى منها الوفاء وانعدمت الثقة . ومن الأفضل ترك المسألة عند هذا الحد حتى لا أقلب المواجع، ومن ثم يتعين عليك مواصلة سرد حكايتك .

بيرجانثا : سأمنى قداماً كما تريد وأقول إنني قررت - بعد ما حكيتك لك - تطليق هذا العمل رغم تعلقي الشديد به والبحث عن عمل آخر لا يتسبب في عقابي ولو كان أقل أجراً ، وعلى هذا فقد قفلت عائداً إلى إشبيلية لألتحق بخدمة تاجر واسع الثراء .

ثيبيون : على رسلك يا صديقي، أخبرني أولاً كيف التحقت هكذا سريعاً بخدمة التاجر والناس في أيامنا هذه لا يعثرون على مخدوم محترم إلا يشق الأنفس ! شتان في هذا الأمر ما بين سادة الأرض وسيد السماء ! فبينما يقوم الأولون بالتدقيق في أصل وحسب ونسب المتقدم لخدمتهم، وباختبار مهاراته وقدراته، وبإخضاعه لكشف هيئة صارم، وربما يتمادون في

شروطهم ليدرجوا فيها حصر ما لديه من ثياب، نجد في الالتحاق بخدمة الرب أن الفقير المعدم قد يفضل الغنى واسع الثراء، وأن الأشد تواضعاً هو الأعلى حسباً ونسباً، وأن طهارة القلب وحدها كافية لتسجيله في الكشف الرباني للنعم والعطايا التي يفيض مخزونها عن حاجة الخلق جميعاً، مهما عظمت .

بيرجانثا : ما ذكرته الآن يا صديقي يندرج تحت بند الوعظ والإرشاد .

ثيبيون : أظن أنه كذلك، ولذا سأمسك لسانى وألتزم الصمت .

بيرجانثا : بالنسبة لاستفسارك عن النهج الذى اتبعته للالتحاق سريعاً بعملى الجديد أقول إن التواضع هو منبع الفضائل وسر وجودها، فهو يذلل العقبات ويقضى على العراقيل ويقضى دائماً إلى الخواتيم السعيدة، إنه يجعل الأعداء أصدقاءً ، ويلطف غضب الموتورين، ويفتت عنجهية المتعجرفين، إنه الأب الشرعى للبساطة، والأخ الشقيق للاعتدال، وجائط الصد المنيع الذى لا تقهره الخبائث لأن أسنة رماح الخطايا تلثم وتتكسر عند اصطدامها بطراوته ووداعته . لقد كنت أتخذ التواضع عدتى عندما أريد الالتحاق بخدمة بيت من البيوت، وهذا بعد تأكدى أولاً من قدرة البيت المنشود على كفالة كلب كبير مثلى والوفاء بمتطلباته . كنت أقرب من بوابة البيت الرئيسية، وعندما أشاهد شخصاً غريباً يتجه نحوها أنبج عليه، وما إن يخرج صاحب الدار حتى أطأطئ رأسى وأهز ذيلي مقترباً منه، وبلسانى ألحق حذاءه . وإذا ردونى ضرباً بالهراوة أتحمّل، ثم أعود - بالوداعة نفسها - لمداينة ضاربى . لم يحدث أن عاود أحدهم الكرة بعد رؤيته لإلحاحى وتصميمى المزدوج . وبهذه الطريقة التى يتخللها الإلحاح مرتين أكون قد قدمت أوراق اعتمادى للبقاء فى البيت المختار . كنت أتفانى بعد ذلك فى الخدمة فأجبر قاطنيه على حبى والتعلق بى . لم يحدث أن قام أحد بطردى، بل إننى كنت الذى أبادر بالرحيل متى عن لى ذلك، وإن تصدق إن أخبرتك أننى كنت - فى غيبة الحظ المعاكس - أترك بيتاً لألتحق فى اليوم نفسه بخدمة بيت آخر .

ثيبيون : لقد كنت ألتحق بخدمة سادتي بالطريقة التي تحدثت عنها، يبدو أن بيننا تراسلاً في الأفكار .

بيرجانتا : سأميط لك اللثام في حينه - إن حالفني الصواب - عن سر هذا التوافق بيننا، والآن اسمع ما حدث لى بعد تركى القطيع فى يد تلك الفئة الضالة من الرعاة . لقد رجعت - كما أشرت آنفاً - إلى إشبيلية، وهى ستر غطاء الفقراء المعدمين، وملجأ وملاد المنبوذين، فكبر حجمها لا يتسع فقط لصغار الناس، بل يبتلع أيضاً هالة الأغنياء ويحول بينهم وبين التميز والظهور . اقتربت من بيت كبير لأحد التجار، ثم قمت بمحاولاتى المعتادة، وبعد حرج يسير ظفرت بالبقاء فيه . كانوا يريطوننى خلف الباب نهاراً ويطلقون سراحي ليلاً . كنت أخدم بعناية وهمّة ولا أنام طيلة الليل لأننى كنت أقضيه بين الاختلاف إلى الحظائر والصعود إلى السطح لمراقبة بيتنا والبيوت المجاورة وكأننى ديدبان عمومى . أعجب سيدى بإخلاصى ونشاطى، ولذا أمر أهل البيت بإحسان معاملتى وزيادة حصتى من بقايا الخبز والعظام وفضالة المطبخ، أعريت عن شكرى وامتنانى لذلك بالقفزات المتكررة التى كنت أقوم بها حال رؤيته، لا سيما إذا كان قادمًا من الخارج ، وإزاء ما كنت أبديه من علامات الشكر والعرفان أمر مخدومى بعثقى من القيد ليلاً ونهاراً . وما إن وجدتلى حرًا طليقاً حتى جريت نحوه وطففت حوله متمسحاً فى جسده كله، فيما عدا اليدين لأننى تذكرت وقتئذٍ إحدى خرافات "إيسوب" (١٠) التى يشير فيها إلى الحمار المغفل الذى أراد مداعبة صاحبه بمثل مداعبات قطيظته الناعمة الأثيرة فما كان جزاؤه إلا طحن العظام بالهراوة . يبدو لى أن درس المستفاد من هذه الخرافة يكمن فى أن خفة الظل والظرف يكونان مقبولين من البعض بينما يفقدان بريقهما - وربما يقلبان إلى الضد - إذا صدرا عن البعض الآخر: فمن المقبول تلقب الوغد بالألقاب المزرية، وشقلبة البهلوان، ونهيق الصعلوك، وتقليد أصوات العصافير وحركات

(١٠) الخرافة المذكورة هى الثامنة فى حكايات "إيسوب" التى جرت على ألسنة بعض الحيوانات. (المترجم)

وربما مات الحيوانات والأشخاص من جانب فرد وضيع مهياً لذلك؛ لكن هذه المهارات إذا صدرت عن سيد عظيم فإنها تتلف سمعته وتلخ شرفه .

ثيبيون : كفى يا بيرجانثا، عد إلى موضوعك لأننى فهمت جيداً ما ترمى إليه .

بيرجانثا : ليت الذين أقصدهم بحديثى هذا يفهموننى مثلك ! لا أدرى ما سر هذه الحساسية المفرطة التى تجعلنى أستاذ للغاية عند رؤية سيد عظيم مزدهياً بقمصه لشخصية لاعب ورق محتال أو بمعرفته لأحابيل لعبة أكواب الزهر أو بإجادته لرقصة " لا تشاكونا " الفجة . أعرف نبيلاً من هؤلاء كان يتباهى بصنعه - نزولاً على رغبة أحد السدنة - لأكثر من اثنتين وثلاثين من الأزاهير الورقية، ولصقه إياها على قماشة سوداء لتزيين جدار بالكنيسة، وكان من شدة اعتزازه بما صنع يصطحب أصدقاءه للفرجة عليها وكأنها البيارق والأسلاب التى غنمها من الأعداء ووضعها كنياشين على مدافن آبائه وأجداده .. وعودة إلى موضوعى أقول إن التاجر الذى أحدثك عنه كان له ولدان (أحدهما فى الثانية عشرة من العمر، والآخر فى الرابعة عشرة) يدرسان قواعد اللغة الإسبانية فى مدرسة الرهبانية اليسوعية . كانا يذهبان إلى مدرستهما فى مهابة وتجلة بصحبة مؤدب وخدم وحشم يحملون عنهما الكتب والدفاتر وما يسمى بالمعجم اللغوى .

رؤيتهما وهما ذاهبان على محفّتين إذا كانت الشمس طالعة، وفى عربة فاخرة إذا كان المطر يتساقط، جعلتنى أتعجب من البساطة التى يذهب بها والاهما إلى الغرفة التجارية لإبرام صفقاته، إذ لم يكن يأخذ معه سوى زنجى، ويسير على قدميه، ضارباً صفحاً عن امتطاء ركوبة متواضعة حتى ولو كانت رديئة السرج .

ثيبيون : اعلم يا بيرجانثا أن من عادة تجار إشبيلية - والمدن الأخرى أيضاً - الإفصاح عن نفوذهم ومكانتهم وغناهم من خلال أبنائهم لا عن طريق ذواتهم ، وعلى هذا فعظمتهم لا تتجلى فى شخوصهم بل فى

امتداداتهم .إنهم مشغولون دوماً بتعاقداتهم وصفقاتهم التى يبرمونها فى بساطة وتواضع ، ولما كان الطموح والثروة يموتان حباً فى الظهور فإنهما يلمعان كالبرق الخاطف على أولادهم، ولذا نجدهم لا يدخرون وسعاً فى تدليلهم والإغداق عليهم كما لو كانوا أمراء متوجين، بل إن البعض يكترى لهم القاباً ويضع الشارات على صدورهم لتمييزهم عن أبناء الدهماء والمغمورين .

بيرجانثا : لا شك أنه مكلف وباهظ ذلك الطموح الكلف بالارتقاء دون إلحاق الضرر بالآخرين .

ثيبيون : قليلاً ما يتحقق الطموح، وإن شئت قل إنه لا يتحقق مطلقاً إلا من خلال الإضرار بالغير .

بيرجانثا : ألم نتفق من قبل على ترك الغيبة والنميمة ؟
ثيبيون : بلى، لكننى لا أعتاب ولا أنم .

بيرجانثا : لقد تأكدت الآن من صدق ما سمعته مرات عديدة بشأن المغتاب الشرس الذى لم يكد لسانه يبرد من تقطيع أوصال عشر ذرارى بأكملها والتفوه بافتراءات لا تحصى عدداً، وإذا انتهره أحد على ما صدر منه فى التو يدعى أنه لم يقل شيئاً، أو أنه لم يتفوه إلا بالقليل التافه، ولو كان يتصور أنه سيؤذى مخلوقاً ما تحركت به شفتاه . عليك أن تعى جيداً يا ثيبيون وتذكر تمام الإدراك أنه لا يمكن لحديث الامتداد ساعتين أو أكثر دون التمسح بأهداب الغيبة ، فأنا مثلاً - رغم كونى حيواناً - لا أكاد أنطق بعبارات أربع حتى تتساقط عليها كلمات الغيبة المقيتة مثلما يتساقط الذباب على دنان الخمر، ومن ثم أعود للتأكيد على ما خطر لى من قبل وهو أن فحش القول أو العمل نرثه كإبراً عن كابر ونرضعه من أئداء أمهاتنا، ألا ترى أن الطفل الرضيع يخرج يده من القمط لأول مرة لكى يلوح بها - بطريقة نشى برغبته فى الانتقام - فى وجه من يتوهم أنه يهينه، وأن أول كلمة ينطق بها تكون للتعريض بمربيته أو بأمه نفسها !

ثيبيون : أعترف بخطئي ، وأرجو أن تغفره لي كما غفرت الكثير قبله ، ما فات مات - كما يقول الصبية - وعلينا من الآن فصاعداً الإقلاع عن الغيبة والنميمة . أكمل حديثك الذي توقف عند ذهاب ولديّ التاجر إلى مدرسة الرهبانية اليسوعية محاطين بشتى مظاهر الأبهة والفخامة .

بيرجانثا : لله الأمر من قبل ومن بعد، يهدى من يشاء إلى سواء السبيل ، ولما كان أمر الإقلاع عن الغيبة تكتنفه - بالنسبة لي - صعوبات جمّة فإنني أفكر في الاستعانة عليه بالعلاج الذي اهتدى إليه حلاف مطبوع ، لقد قام الرجل بإعلان ندمه على هذه العادة المستقبحه وعاهد نفسه بقِرْص زراعه أو تقبيل الأرض - تكفيراً عن ذنبه - كلما حلف بعد توبته المعلنة ، ومع هذا فلم يَقلع مطلقاً عن عادته ، وهكذا فإنني سأبادر في كل مرة أخالف فيها - مضطراً - ما اتفقنا عليه بعض لسانى عضّة موجعة تذكرني بذنبي حتى لا أقترفه ثانية .

ثيبيون : إذا تعاطيت هذا العلاج ستعطب لسانك كله من كثرة العض، وستصبح عندئذ عاجزاً - كما أمل - عن الاغتياب .

بيرجانثا : أعدك بالأأدخر وسعاً من جانبى فى سبيل ذلك ، أما ما يفوق الطاقة فلن نحاسبنى عليه السماء . وعودة إلى موضوعي أقول إن ولديّ التاجر نسيا ذات يوم المعجم فى فناء البيت، ولما كنت مدرباً من قبل على حمل سلة الجزار فقد التقطت المعجم وذهبت فى إثرهما عاقداً العزم على عدم التخلي عنه إلا فى داخل الفصل، وقد كان، لأن سيدى حين شاهدانى ممسكاً بالشريط الملفوف حول المعجم أمرا واحداً من خدمهما بانتزاعه منى، لكننى أبيت ولم أتركه من فمى حتى دخلت به الفصل وسط ضحكات التلاميذ . اقترب الولد الأكبر فوضعتة بين يديه في كثير من التجلة والاحترام ثم أفعيت لدى الباب لأختلس النظرات إلى المعلم الواقف على المنصة . لا أدري سبباً لما بين الفضيلة وبينى من جفاء حتى لا يلحقنى من قبسها سوى النذر اليسير أو لا شىء البتة، ورغم هذا فقد استمتعت وتلذذت بأسلوب هؤلاء الآباء المباركين (الجامع بين الحب

والغرام، والتفانى والمهارة) فى تعليم أولئك الصبية، وبالطريقة التى ينتهجونها لتقويم أعرادهم الغضة حتى لا تلتوى أو يصيبها العطب فى مشوار الفضيلة الصعب . رأيت كيف ينهرونهم فى لين، ويعاقبونهم فى رحمة، ويتحملونهم فى سماحة، ويشجعونهم بالأمثلة والنماذج، ويستحثونهم بالجوائز، وكيف يقبحون لهم الرذائل، ويزينون لهم الفضائل ليتمكنوا فى النهاية من تنشئتهم النشأة الصالحة .

ثيبيون : أحسنت قولاً يا بيرجانثا لأنه لا يوجد فى أرجاء المعمورة أناس مثل هؤلاء الآباء المباركين فى الفهم وحسن التقدير، وفى الإرشاد إلى الطريق القويم . إنهم المرايا التى تنعكس على صفحاتها العفة، والعقيدة الكاثوليكية الحقّة، وأخيراً التواضع الجَمّ، وهو الأساس المتين لصرح السعادة الشاهق .

بيرجانثا : ما ذكرته حق لا مرأى فيه، ولمواصله حكايتى أقول إن سيدى راقّت لهما فكرة تكليفى بحمل المعجم يومياً . لم أمانع وامثلت عن طيب خاطر لرغبتهما، وعندئذ وجدتني أعيش مثل ملك - وربما أفضل - هذا لأن التلاميذ تباروا فى مغازحتى فلنّتهم لجاريتهم فيما يفعلون حتى إننى كنت أتركهم يضعون أيديهم فى فمى، وأسمح لصغارهم بامتطاء ظهري . كانوا يلقون بقبعاتهم بعيداً فأعيدنها لهم طافحاً بالبشر والسرور، ولذا لم يخلوا علىّ بما فى حوزتهم من طعام، وكان يعجبهم منظرى وأنا أكسر - مثل القردة - حبّات البندق وعين الجمل وألثهم ما بداخلها . حاول أحدهم ذات مرة اختبار مهارتى بتقديم كمية كبيرة من السلطة على مندبل فتناولتها مثل شخص عاقل . كنا فى فصل الشتاء حيث تنشط فى إشبيلية صناعة الفطائر الساخنة والشطائر اللذيذة التى يصيبنى منها حظ وافر ولو كان على حساب رهن أو بيع كتابين من كتب القواعد . لقد كنت - باختصار - أعيش مثل طالب علم، لكن دون مسغبة أو جرب، وهذا أقصى ما يمكن قوله للمبالغة فى وصف رغد تلك الحياة وهنائها، فحياة الطالب إذا خلت من الجوع والحكة لا تدانيها حياة أخرى فى النعيم والتسلية، لأنها - فى الحالة الأخيرة - تكاد تكون مقصورة على الفضيلة

والمتمتع المتمثلين في التعليم واللهو المباح . من هذا النعيم المقيم وتلك الراحة المطلقة حرمني قانون، الوفاء به يتطلب التنكيل برغبات كثيرة . ولمزيد من الإيضاح أقول إن المعلمين عندما عرفوا أن فترة الاستراحة التالية لكل حصة ، ومقدراها نصف ساعة ، لا يقضيها التلاميذ في مراجعة الدرس بل في اللهو معي أمرا سيدي بعدم اصطحابي إلى المدرسة ثانية ، وهكذا فقد أعاداني إلى موقعي القديم في حراسة بوابة البيت دون أن يتذكرا مني سيدي الكبير بتركي حراً طليقاً أثناء الليل وأطراف النهار، وعلى هذا فقد أسلمت خانعاً رقبتي للطوق وجسدي لحصير وضعا لي خلف البوابة .. آه، يا صديقي ثيبيون ، لو علمت مدى قسوة تبدل الحال فجأة من السعادة إلى الحزن والضيق ! اعلم أن الأمد حين يطول بالبؤس والشقاء المتصلين فمصيرهما لن يتعدى أحد أمرين: إما الانعتاق منهما بالموت ، أو أن تتحول المعاناة منهما إلى عادة، وعندئذ يخفت وقع الإحساس بها . أما إذا انتقل المرء - فجأة ودون سابق إنذار - من وضع فاجعٍ منحوس إلى آخر مشرقٍ باسم ، ثم عاد بعد قليل إلى وضعه الأول المتردى فإن عذابه يتضاعف عندئذ ويحيل حياته إلى جحيم ، لا فكاك منه إلا بالموت .. أقول بعد هذا الاستطراد إنني عدت في النهاية إلى طعمي السالخ الخشن وإلى ما كانت تلقيه حولي خادمة زنجية من عظام ، وما زاد الطين بلة أن العظام لم تكن خالصة لي ، لأن قطين أسودين مطلقى السراح كانا يسلباني ما لم يقع منها داخل الحرم الدائري للسلسلة المشدودة إلى عنقي .. أتوجه إلى السماء بالدعاء كي تحقق آمالك يا أخي ثيبيون، وفي المقابل أرجو ألا تغضب وأن تدعني أتفلس قليلاً ، لأنني لو ضربت صفحاً عن الأشياء التي رأيتهَا آنذاك وما زالت محفورة في الذاكرة فلن تكون لحكايتي أية ثمرة ولأصبحت عقيماً .

ثيبيون : تأكد أولاً أن رغبتك الحالية في التفلسف ليست غواية من الشيطان، فليس ثمة غطاء للغيبة وسر لشرورها أفضل من ادعاء المغتاب بأنه يتفوه بحكم الفلاسفة، وأن قوله الخبيث ما هو إلا زجر، وأن فضح مثالب الغير يندرج تحت الحماسة المحمودة . إنك لو فكرت ملياً في حياة المغتاب

وأنعمت فيها النظر ستجدها مترعة بالردائل والسفاهات . والآن، وبعد معرفتك لوجهة نظرى، تفلسف كما يحلو لك .

بيرجانثا : يبدو أنك واثق من ركونى إلى الخوض فى الغيبة، وهذا بالفعل ما انتويته . لقد كنت أمضى اليوم بطوله فى فراغ تام، وبما أن الفراغ هو الأب الشرعى لتعاطى الأفكار فقد تسليت خلاله باسترجاع الكم الهائل من اللاتينى الذى سمعته فى أثناء اختلافى إلى قاعة الدرس بصحبة ولدى التاجر، ولما أيقنت من تحسن مستواى فيه عزمت على الاستفادة منه فى أول فرصة أتمكن فيها من النطق ، لكن استفادتى منه ستكون مختلفة عما يفعله بعض الجهلاء الذين لا يتورعون عن تزيين أحاديثهم - بين الفينة والفينة - بعبارات لاتينية موجزة لإفهام مستمعهم أنهم أبحار فى تلك اللغة، علماً بأنهم لا يقدرون على اشتقاق كلمة أو تصريح فعل من الأفعال .

ثيبيون : لا يقلّ عن هذا سوءاً ما يفعله العرفاء بتلك اللغة حين يقوم بعض الحمقى منهم بإمطار صانع أحذية أو خياط بسيط بوابل من اللاتينية الصرفة .

بيرجانثا : يمكن أن نستنتج من هذا أن الذى يتحدث باللاتينية أمام من لا يعرفها لا يقلّ سفاهة عن الذى يلوك لسانه بها وهو لا يدري عنها شيئاً .

ثيبيون : أود إضافة شىء آخر إلى الملاحظة السابقة وهو أن الحديث باللاتينية لا يعنى فى حد ذاته علم المتحدث لأنه قد يكون والحمار سواء .

بيرجانثا : وهل فى ذلك شك ؟! وأوضح دليل على ما تقول أن العصر الرومانى الذى كان الجميع فيه يتحدث اللاتينية - باعتبارها اللغة الأم - لم يكن يخلو أيضاً من الأغبياء الذين لم تشفع لاتينيتهم فى إبرائهم من تلك العلة .

ثيبيون : لا شك أن الفطنة لازمة لمعرفة الوقت المناسب للحديث باللاتينية أو الرومانثية (الإسبانية القديمة) ، لأن لكل مقام مقالاً .

بيرجانثا : معك حق، لأن السفاهة تجرى سواءً بسواء على لسان المتحدث باللاتينية أو الرومانثية، وكثيراً ما رأيت متعلمين أغبياء، ونحويين بلهاء،

ومتخصصين فى اللاتينية يخطون بينها وبين الرومانشية بطريقة استفزازية تثير حنق العالم بأسره : لا مرة واحدة، بل آلاف المرات .

ثيبيون : للدع هذا جانباً كى تشنف آذاننا بفلسفتك .

بيرجانثا : لقد فرغت منها .

ثيبيون : وأين هى الفلسفة ؟

بيرجانثا : ما ذكرته عن اللاتينية والرومانشية، أى ما قمت أنا بافتتاحه وتطوعت أنت بإنهائه .

ثيبيون : أنسمى الغيبة فلسفة ؟ فلتقنن آفة الغيبة الملعونة كما يحلو لك، ولتعطها الاسم الذى تريد ، لكن تحايك هذا لن يعفينا من وصمة الاستهتار وخلع العذار . اصمت بالله عليك وأكمل حكايتك .

بيرجانثا : كيف يتسنى لى إكمالها وأنا صامت ؟!

ثيبيون : ما أقصده هو التركيز فيها وعدم الخروج عنها حتى لا تجعلها مثل الأخطبوط لكثرة ما تضيف إليها من أذنان .

بيرجانثا : توخ الدقة فيما تقول لأن زوائد الأخطبوط لا تسمى أذناناً، بل رُجيلات .

ثيبيون : إن خطئى فى هذا مثل خطأ الذى لا يرى فى تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية قبحاً ولا بذاءة، وإن كان الأفضل فى مثل هذه الحالة اللجوء إلى اللف والدوران من أجل تخفيف قبح الكلمات المثيرة للاشمئزاز، وهذا ما فعلته، انطلاقاً من أن الكلمات العفيفة هى خير برهان على عفة ناطقها أو كاتبها .

بيرجانثا : ليتنى أصدقك ! وعودة إلى أحداث حكايتى أقول إن الحظ العاثر الذى حرمنى من الدراسة والحياة الوادعة الهانئة، ورمانى خلف البوابة مكبلاً بالقيود، وأبدلنى بسماحة الطلاب وكرمهم ذلّ الزنجية وشحها، هو نفسه الذى أطلق العنان لفرعى ورعبى من الوضع الجديد . عليك أن تقتنع وتسلم مثلى بأن المصائب تفتش عن التعيس وتعثّر عليه حتى لو كان مختبئاً فى حجر ضبّ بأقصى المعصورة . والدبياجة السابقة لا غنى عنها

لاستيعاب ما يلي من الحكاية: لقد اكتشفت أن الزنجية تحب زنجياً آخر من خدم البيت، ولما كان الزنجى ينام فى الدهليز الكائن بين البوابة الرئيسية والبوابة الوسطى التى أقبع خلفها ولا سبيل إلى اللقاء المحرم إلا بفتحها فقد سرق العاشقان مفتاحها الأصلي واصطنعاً منه نسخة، وعلى هذا فقد كانت الزنجية تهبط معظم الليالى وتسد فمى بقطعة لحم أو جبن- مما تختلسه من خزانة الطعام - ثم تفتح البوابة الوسطى لحبيبها ويقضيان وقتاً سعيداً، معتمدين على صمتى المشتري. أتلفت هبات الزنجية ضميرى لعدة أيام، إذ تصوّرت أن خصرى بدون تلك العطايا سينكمشان وأتحول من درّواس ضخم إلى سلّوقى هزيل . لكن أصلى الطيب ما لبث أن استحثنى على الوفاء بواجبى نحو صاحب البيت الذى أطعم خبزّه وأتمرغ فى خيرهِ، وهذا ما يجب أن يفعله كل العاملين بالخدمة، لا الكلاب الشرفاء وحدهم .

ثيبيون : صدقت، وأعتقد أن هذه الحقيقة لا يخالطها شيء من الفلسفة، والآن استمر فى حكايتك ولا تضيف إليها إيضاحات حتى لا أقول أذنباً .

بيرجانتا : قبل نزولى على رغبتك أرجو أن تخبرنى أولاً - إذا كنت تعرف - بمعنى الفلسفة، فأنا - رغم ورودها المتكرر على لسانى - لا أدرك ماهيتها، ومبلغ علمى عنها أنها شيء محمود .

ثيبيون : سأرضى فضولك فى إيجاز شديد، مصطلح "فلسفة" مركب من كلمتين يونانيتين: Filo بمعنى "حب"، sofia بمعنى "معرفة" وعلى هذا فإنه يعنى "حب المعرفة"، أما "الفيلسوف" فهو محب المعرفة .

بيرجانتا : كلما حادثنى يا ثيبيون كلما زادت قناعتي بعلمك الغزير، من ذا الذى علمك المصطلحات اليونانية ؟

ثيبيون : حقاً إنك لساذج يا بيرجانتا لانبهارك بمثل هذه المعلومات الأولية التى لا تغيب عن صبية المدارس، وبهذه المناسبة يوجد أيضاً - كما هو الحال بالنسبة للاتينية - من يدعى معرفته للغة اليونانية رغم جهله التام بها .

بيرجانتا : أتمنى أن يوضع هؤلاء الأدياء (مثلما يفعل البرتغاليون مع زوج مستعمرتهم فى غينيا) فى معصرة، وأن يستخرج حجرها الدوار عصاره معارفهم السطحية حتى لا يتمادوا بعد ذلك فى خداع العالم ببهرج يونانيته الممزقة ولا تينيتهم المزيفة .

ثيبيون : لا عليك إذا بادرت الآن بعض لسانك أو إذا حذوت حذوك فى العض لأن ما نقوله يندرج كله تحت بند الغيبة .

بيرجانتا : أما أنا فلست مضطراً للإتيان بمثل ما فعله اليونانى القديم " شارونداس " حين سنّ قانوناً يحرم دخول مجلس بلدية مدينة " ثوريوس " بالسلاح، وجعل الإعدام عقوبة لمن يخالف، لكنه نسى قانونه ودخل ذات يوم المجلس متمطفاً سيفه، ولما نبهه أحد الحاضرين إلى المخالفة التى ارتكبها استلّ سيفه وأغمده على الفور فى صدره، فكان بذلك أول المخالفين للقانون الذى سنّه وأول ضحاياه . أما ما قلته عن عض اللسان زجراً للاعتياب فلا يعتبر قانوناً بل مجرد وعد، ومن جهة أخرى فإن الأمور لا تسير فى أيامنا هذه بمثل ما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة من حيث الصرامة والشدة، ولذلك تجد أن القوانين تسنّ اليوم لكى يتم إبطالها غداً . ألا ترى أن الواحد فى أيامنا هذه لا يكاد ينتهى من الوعود بإصلاح عيوبه السابقة حتى يسقط بعد لحظات فيما هو أفدح! الثناء على النظام والطاعة شىء والالتزام بهما شىء آخر، وفى هذا تصدق الحكمة القائلة: " ثمة بون شاسع بين القول والعمل " . ليعض الشيطان لسانه أنى شاء، أما أنا فلست بحاجة إلى العض ، ولا إلى التظاهر بنقاوة الضمير ورقة الحاشية وأنا هنا خلف هذه السلال المهمة حيث لا يرانى من يمكنه الإشادة بمسلكى الشريف .

ثيبيون : لو كنت إنساناً يا بيرجانتا لما برئت من تهمة النفاق، ولما سلمت أعمالك من الزيف والتظاهر لأنك تعتمد - مثل باقى المنافقين - على تغطيتها بعباءة الفضيلة قاصداً الفوز بعبارات المديح والإطراء .

بيرجائنا : لقد حيرتني يا صديقي، ألا ترى أن امتناعي عن عضّ اللسان سببه شدة
خوفي من طلوع الشمس وفقدان ملكة الكلام قبل الانتهاء من سرد
الأحداث الكثيرة الباقية من حياتي !

ثيبيون : وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، استمر في حكايتك ولا تنحرف عن
جادة الطريق باستطراداتك الوقحة، وبهذا الشكل ستنتهي منها سريعاً
مهما بلغت من طول .

بيرجائنا : أقول إذن إنني بعد المعايينة المتكررة لجريمة العاشقين البشعة قررت -
مثل أيّ خادم أمين - منعها بشتى الوسائل الممكنة والفعالة . كانت
الزنجية تهبط - كما سبق وأخبرتكم - للاستمتاع بقاء حبيبها معتمدة
على شرائها لصمتي بقطع اللحم أو الجبن أو الخبز التي تتحفني بها ... يا
لكثرة الأشياء التي تستطيع الهدايا فعلها !

ثيبيون : أعرف جيداً أنها كثيرة؛ لكن لا تشردّ وامض قدماً إلى الأمام .

بيرجائنا : أتذكر أنني عندما كنت أختلف إلى قاعات الدرس سمعت من أحد المعلمين
مثلاً شعبياً لاتينياً يقول: "النصار خير قيد للسان" .

ثيبيون : أية ساعة نحس تلك التي هبط فيها اللاتيني عليك ! . أنسيت ، هكذا سريعاً،
ما قلناه عن الذين يقيمون اللاتيني على حديثهم باللغة الرومانية ؟

بيرجائنا : إنه لم يأت على سبيل الإقحام بل لمناسبته للمقام ، ألا تعلم أن الأثينيين
كانوا يتداولون فيما بينهم إحدى العملات المنقوش عليها صورة ثور،
وعندما كان أحد القضاة يستنكف - لداعي الرشوة - عن قبول أو فعل ما
تقتضيه العدالة فإنهم كانوا يصرخون بعالي الصوت قائلين: "الثور جائم
على لسان هذا" .

ثيبيون : الاستشهاد هنا في غير محله لعدم وضوح التطابق .

بيرجائنا : كيف لا يكون واضحاً وعطايا الزنجية أصابتني بالخرس أياماً عديدة لم
أجرؤ فيها على النباح عند رؤيتها تهبط درجات السلم للقاء عشيقها؟! لا
مفر إذن من العودة إلى التأكيد على أن العطايا تسوى الأهويل .

ثيبيون : وافقتك من قبل على القدرة الخارقة للعطايا، ولو لم أكن حريصاً على عدم الاستطراد لسقت لك الآن ألف مثال على ما يمكن أن تفعله، ومع هذا فربما سردتها عليك كاملة فيما بعد إذا لم تحرمنى السماء من نعمة الكلام وأكرمتنى بالوقت والمكان اللازمين لقص حكايتى .

بيرجانثا : أتمنى أن تحقق السماء ما تصبو إليه، والآن اسمع منى بقية الحكاية ، لقد استيقظ ضميرى فى النهاية وتغلب على إغراءات هدايا الزنجية، وذات ليلة حالكة السواد حينما شاهدتها قادمة لثمضية سهرتها الحمراء المعتادة انقضضت عليها، وفى لحظات مزقت ثوبها إرباً وانزعت قطعة لحم من فخذها أجبرتها على ملازمة الفراش ثمانية أيام تعللت فيها أمام أصحاب البيت بإصابتها بمرض عضال . عاودت الكرة بعد اندمال جرحها لينشب العراك بيننا من جديد، لم أعصها هذه المرة بل أحدثت خدوشاً بجسدها كله وتركتها مثل بطانية مندوفة . كانت معاركنا تتم فى صمت مطبق، وأخرج منها منتصراً دائماً بينما ترجع الزنجية مقهورة كاسفة البال، لكن مقتها الشديد كان يظهر بصورة واضحة على صحتى وشعورى المتساقطة، إذ عمدت إلى حجب حصتى من الطعام وبقايا العظام لكى تبدأ عظامى فى الإشارة - شيئاً فشيئاً - إلى فقرات صلبى . ورغم قوى الخائفة فإنها لم تستطع إخماد نباحى . هدتها فريحتها إلى تدبير مكيدة للخلاص منى دفعة واحدة، ومن ثم فقد قدمت لى إسفنجة مقلية فى الدهن، اكتشفت الوصفة النكراء التى تعتبر أشد سوءاً من عجينة الزجاج المطحون لأن من يتناولها تتورم معدته ولا يفارق علته قبل مغادرته للحياة .. ولما بدا لى استحالة الحفاظ على نفسى من مكائد العدوين الحانقين قررت اتخاذ البعد المكانى حائلاً بينى وبينهما والاختفاء من أمام عيونهما . وعلى هذا فما إن وجدتنى ذات يوم مطلق العنان حتى خرجت إلى الشارع دون وداع أحد . لم أكد أقطع مائة خطوة على الطريق حتى أسعدنى الحظ بقاء شرطى تربطه بمخدومى الأول - نيقولاس الرومو - أواصر صداقة حميمة، عرفنى فور رؤيتى ونادانى باسمى، تعرفت عليه أيضاً، ولذا لبّيت نداءه واقتربت منه بملاطفاتى ومماحكاتى المعتادة .

أمسكنى من عنقى وقال لخفيرين تابعين له: "هذا الكلب مشهور بذكائه وتعاونه، لقد كان لأحد أصدقائي المقربين، خذاه إلى البيت". سر الخفيران وانبرا قائلين: "لو كان كما تصف فسيصيب من تعاونه الجميع". أرادوا ربطى بحبل، لكن الشرطى قال لهما لا داعى لذلك لأنه يعرفنى وسيذهب معكما طائعا مختاراً. نسيت إخبارك أن غجرىاً يعمل بأحد الخانات هو الذى خلصنى قبل ذلك من الطوق الحديدى المديب الذى كان ملتفاً حول عنقى إيان هجرى لقطيع الأغنام، ولما كنت أسير فى إشبيلية بدونى فقد وضع الشرطى حول رقبتى قلادة مورييسكية من النحاس الأصفر المزين بمسامير مفضضة. أدعوك يا صديقى ثيبيون للنظر والتأمل فى عجلة حظى الدوارة: بالأمس كنت طالباً، واليوم مساعدك لشرطى.

ثيبيون: هذا هو حال الدنيا، فلا داعى إذن للمبالغة فى لوم الحظ وكأن ثمة فارقاً كبيراً بين خدمتك لجزار وبين كونك مساعداً لشرطى. لن أرهق نفسى ولن أصطبر على سماع شكاوى أناس غاية همهم الوصول إلى مهنة "وصيف" (١١)، فكم من اللعنات يصبها هؤلاء على الحظ، وكم من الإذاعات التى يلوثون بها سمعته، لا لشيء إلا لإقناع مستمعهم بفداحة ما ملوا به من خسائر رغم تفاهة أحلامهم.

بيرجانثا: معك حق يا ثيبيون، وعودة إلى حكايتى أقول إن هذا الشرطى كان لا يتحرك إلا فى صحبة صديقه كاتب العدل، وأن الاثنين كانا يعاشران بدون زواج امرأتين مشبوهتين ومنحطتين فى كل شيء. صحيح أنهما كانتا تتمتعان بشيء من ملاحاة الوجه، لكن هذا فى مقابل فيض من الوقاحة والعهر الماكر. كانتا ترتديان الملابس الخليعة التى تنم عن شخصيتهما، ولا يخطئ الرأى من على مرمى حجر أنهما من بائعات الهوى. أما الشرطى وكاتب العدل فكانا يستخدمانهما طعماً وشصاً

(١١) "الوصيف" Escudero: "تابع" الفارس الذى يحمل عنه لوازمه وعدته الحربية، ويساعده فى المعركة، ويوقف نفسه على خدمته فى مقابل أجر معين. (المترجم)

لاصطياد الغرياء عن المدينة، لا سيما أولئك التجار الذين رست سفنهم في ميناء قádiz وتوجهوا إلى إشبيلية لإبرام عدد من الصفقات التجارية. لم تكن المرأتان تتركان غريباً دون الاحتكاك به، وعندما يسقط الطير المريش^(١٢) في حبال إحداها تسارع بإبلاغ الشرطى وكاتب العدل بالمكان والموعود المضروبين للقاء الغرامى حتى يضبطاهما متلبسين، لكن عملية الضبط لم تكن تسفر بتاتاً عن عقوبة السجن بتهمة الزنا، وهذا لاستعانة الغريب بالنقود التى يحملها على تبرئة ساحته .

حدث فى إحدى المرات أن اصطادت "لاكوليندرىس" - صديقة الشرطى - غريباً مترهلاً زرى الهيئة، لكن حافظته عامرة بالنقود، وبعد اتفاقها على تمضية السهرة معه فى الخان الذى ينزل فيه أبلغت صديقها، وما إن تعريا حتى اقتحم عليهما الغرفة كل من الشرطى وكاتب العدل وخفيران، وأنا فى أعقابهم، اضطرب العاشقان وأشكل عليهما، بالغ الشرطى فى تضخيم حجم الجريمة ثم أمرهما بارتداء ملابسهما على وجه السرعة لكى يودعهما السجن. اغتم التاجر الغريب، وإزاء إلحافه فى التوسل والرجاء لأن قلب كاتب العدل وخفض العقوبة إلى مائة ريال حالة الأجل. طلب منهم الرجل أن يناولوه الصديرى الشمواه الذى خلعه على الكرسى المجاور للسرير لكى يدفع الكفالة. فتشوا عنه ولم يعثروا له على أثر. وللكشف عن سر اختفاء الصديرى أقول إننى شممت فور دخولنا الغرفة رائحة لحم، ولما تتبععت مصدرها اكتشفت وجود قطعة من لحم الخنزير المجفف والشهير بأحد جيوب الصديرى، لم أفكر طويلاً وجملت الصديرى إلى الشارع حتى أتمكن من إخراج القطعة دون جلبة والاستمتاع بها على هواى، وعندما رجعت بعد فراغى من الوجبة الدسمة اللذيذة كان الغريب يصيح بصوت زانٍ مهتاك - وإن كان مفهوماً - طالباً أن يردوا إليه الصديرى الذى يحتوى على خمسين إسكودو من الذهب الخالص. ساور الشرطى وكاتب العدل الشك فى

(١٢) الطير المريش، كناية عن الزبون الغنى أو الصيد اللعين. (المترجم)

"كوليندريس" والخفيرين ، ولما انتحيا بهم جانباً لاستجوابهم ولم يظفرا
باعتراف ثارت ثائرة الجميع ، حين شاهدت ما يجرى أمامي من فوضى
وبلبلة رجعت إلى الشارع حيث تركت الصديري ناوياً إعادته - إذ لا
حاجة لي بما فيه من نقود - ، لكنني لم أجد ولا حتى ريحه ، كأنه تبخر،
أو أنه - بمعنى أصح - كان على موعد مع أحد المارة المحظوظين . ولما
اكتشف الشرطي إفلاس الغريب تملكه القنوط واتجه تفكيره إلى صاحبة
الخان لتعويضه عن النقود التي لم تدخل جيبه . نادى عليها فحضرت
نصف عارية ، كاد أن يغشى عليها حين سمعت الأصوات العالية و
الشكوى المرة للغريب وبكاء " كوليندريس " العارية تماماً ، ووجدت
الشرطي حانقاً وكاتب العدل ساخطاً والخفيرين منهمكين في سلب ما تقع
عليه أيديهما من محتويات الغرفة . أمرها الشرطي باستكمال ملابسها
لأنه سيودعها السجن بسبب إيوائها للرجال العابثين والنسوة الساقطات .
تعالت عندئذ الأصوات وزادت البلبلة لأن صاحبة الخان انبرت بلسانها
الحاد قائلة : " على رسلك أيها الشرطي ويا كاتب العدل الموقر، لا داعي
لمثل هذه الألاعيب معي، فأنا أعرف خبايا التمثيلية الهزلية وأدرك
أبعادها، اصمتا ومع السلامة، وإلا فلن أتورع - بحق الصليب - عن نشر
غسيلكما القذر على رءوس الأَشْهاد، أنا أعرف جيداً من تكون المِجْلَة
"كوليندريس " ، ولست أجهل صداقتها الحميمة للشرطي منذ عدة أشهر،
لا تجبراني على الإيضاح أكثر من ذلك، وعليكما برد ما أخذتماه من
هذا الرجل المسكين لتنتهي الأزمة بسلام، ويا دارما دخلك شر. أنا امرأة
شريفة، ولدي زوج لا تنقصه - ولله الحمد - شهادة بشرف النسب ، ولا
حليّة بدلايات مباركة من البابا شخصياً، وأمارس مهنتي بنزاهة ودون
الإضرار بجنس مخلوق . قائمة الأسعار معلقة حيث يراها الجميع ، فلا
داعي إذن للمماحكة مع من تعرف كيف تنفض الغبار من فوق
ثيابها . هل تأخذ النساء أوامرهن مني للدخول مع النزل؟ كل
واحد معه مفتاح حجرته ، ولست وشقاً حتى أرى ما يدور خلف سبعة
حوائط " .

اعتري سيدى الذهول بعد الخطبة العصماء التى تلت فيها صاحبة الخان قصة حياتهما، لكنهما عندما أيقنا من استحالة الحصول على المال من أحد سواها تشبنا بقرار إيداعها السجن . ارتفعت عندئذ صيحاتها إلى عنان السماء معلنة تبرمها من الظلم الواقع عليها فى غياب زوجها الشريف، كما حفل المكان بجوار الغريب لفقدانه الخمسين إسكودو، وبأيمان الخفيرين المغالطة لتبرئة ساحتها من سرقة الصديري المزعوم أو حتى رؤيته . لم يكف كاتب العدل فى تلك الأثناء عن التنبيه على الشرطى بضرورة تفتيش ملابس "لاكوليندرىس" لاعتياها على العيب بمتعلقات زبائنها ، أما هى فكانت ترد قائلة : إن الغريب كان سكراناً ولا ينبغى أخذ كلامه عن النقود على محمل الجد . حقاً، لقد كان مشهداً حياً للبلبله والصبراخ والحلف، ولم يكن هنالك من سبيل لإخماد ثورته، بل إنه لم يكن سيخدم فى القريب العاجل لو لم يفتحهم عليهم الغرفة "صاحب الشرطة" (المأمور) ^(١٣) الذى كان فى جولة تفتيشية على الخانات وحمله الزعيق إلى بؤرة الأحداث . سأل عن سبب تلك الأصوات التى قابلته من آخر الشارع، لم تتوان صاحبة الخان وقصت عليه الحكاية بالتفصيل الممل : أخبرته من تكون الحورية "كوليندرىس" (التى انتهت من ارتداء ملابسها)، وأفشت سر علاقتها الحميمة بالشرطى، وأماطت اللثام عن أساليبها فى النصب والاحتيال، كما أبرزت حرصها الشخصى على منع أية امرأة سيئة السمعة من تخطى عتبة خانها، وتحدثت عن نفسها كقديسة ، وعن زوجها كولى من أولياء الله الصالحين، ثم نادى على خادمة لها وأمرتها بإحضار شهادة شرف نسب زوجها من الصندوق حتى يطلع عليها المأمور ويتأكد بنفسه من أن زوجة رجل شريف مثلها لا يسعها الإتيان بما يشين، ولم تكتف بهذا، بل شنت أذنيه أيضاً بالأسباب المطولة لقيامها بهذا العمل الذى تعافه واضطرت إليه اضطراراً من أجل الكسب الحلال للقمعة العيش، واتقاء لذل السؤال . أما

(١٣) "صاحب الشرطة" (المأمور) أو "صاحب المدينة" : هو رئيس جهاز الشرطة فى مدينة ما ، والمسميان مأخوذان من النظام الإدارى الأندلسى . (المترجم)

المأمور الذى أغضبته ثرثرتها ومباهااتها بشهادة شرف زوجها فلم يتمالك نفسه وخاطبها قائلاً : "لاشك عندى فى حيازة زوجك لتلك الشهادة التى تقاعست عن حمّله إلى أبعد من إدارة خان متواضع" . "وهل توجد عراقة أصل فى العالم أجمع خالية، مهما كان مبلغها، من بعض الهنات ؟ - سألت مستنكرة " . "خلاصة القول يا أختاه - رد المأمور - أن عليك ارتداء ملابسك كاملة لأنك ذاهبة إلى السجن" . ما سمعته كان كافياً لطرحها أرضاً وجعلها تصرخ بأعلى الصوت وتخدش بحمّة وجهها ، لكن هذا لم يفلح فى تخفيف الصرامة الشديدة للمأمور الذى أمر بترحيلهم جميعاً إلى السجن ، ونقصد جميعاً : التاجر ، و"لاكوليندرىس" وصاحبة الخان . علمت بعد ذلك أن استرداد الغريب لحريته كلفه عشرة إسكودو - علاوة على الخمسين الضائعة ، كما دفعت صاحبة الخان مثلها ، أما "لاكوليندرىس" فقد خرجت مزهوة من بوابة السجن الرئيسية دون ضمان أو كفالة ، وفى يوم خروجها اصطادت - بالخدعة نفسها - بحاراً تحمّل ما كان على التاجر الغريب دفعه ، أرأيت ياثيبيون الأضرار البالغة التى لحقت بالكثيرين من جرّاء شراهم وشدة تهالكى على الطعام الفاخر !

ثيبيون : بل الأحرى أن تقول بسبب دناءة وخسة سيدى .

بيرجانثا : لقد قلت ما قلته لأنه يحزننى الإساءة إلى رجال الشرطة وكتبة العدل .

ثيبيون : إن اتهام أحدهم لا يعنى إلصاق التهمة بالجميع ، إذ يوجد الكثيرون من كتبة العدل الأمناء المخلصين والمحبين للمتعة لكن دون إلحاق الضرر بالآخرين ، كما أنهم ليسوا جميعاً ممن يعطل سير الدعاوى القضائية ، أو يتصل بأحد طرفيها ، أو يتجاوز حدوده ، أو يتتبع عورات الناس لإثارة الشبهات حولهم ، أو ممن يبرم الاتفاقات مع القضاة لسلب حق هذا وإعطائه لذاك ، ورجال الشرطة أيضاً ليسوا جميعاً من المتواطئين مع المجرمين و المحنّالين والغشاشين ، أو ممن يتخذون الصديقات لتدبير المكائد والمؤامرات ، بل إن منهم الكثيرين من ذوى الأصول الشريفة الذين

ينحلون بالصفات الكريمة . وليسوا جميعاً متهاككين ولا عتاة ولا لصوصاً ولا سيلى التريبة مثل الذين يجوبون الخانات بحثاً عن الغرباء ليقبسوا لهم أطوال سيوفهم ، وإذا وجدوها تزيد شعرة عن الحد القانوني ينكلون بأصحابها ، ولا ممن يعتقلون ويطلقون السراح أنى شاءوا أو ممن ينصبون أنفسهم قضاة ومحامين كلما أرادوا .

بيرجانشا : أما سيدى فلم يكن يمت بصلة إلى تلك الفئة الشريفة، بل يتنكب طريقاً مغايراً لطريقها، فالشجاعة التى كان يتباهى بها فى القبض على عتاة المجرمين مزيفة وغير حقيقية لأنها لم تكن تعتمد على الجسارة والمخاطرة بالنفس ، بل على ما تجود به حافظة نقوده . وإيضاح ما تقدم أقول إنه اشتبك بمفرده ذات مرة عند بوابة "شريس" مع ستة مجرمين معروفين فى كل بقاع الأندلس ، ولم يكن بوسعى يومئذ مساعدته بشيء لأن المعركة جرت نهاراً والكمامة التى يضعها على فمى لا ينتزعها إلا ليلاً . المهم أننى وقفت أقرب بانبهار جرأته وحماسته ومهارته ، إذ كان يدلف بين السيوف وينسل من بينها وكأنها أعواد من الصفصاف . استولى على إعجاب الجميع بخفته فى الانقضاض ، وبالضربات الخاطفة التى يسدها، وبحركاته الدفاعية ، ويقظته التامة لسيوف الأعداء . خلاصة القول إننى وجمهور الحاضرين عددناه "رودا مونتي" (١٤) جديداً حين شاهدناه يجبر "البلطجية" على التقهقر من بوابة "شريس" حتى العتبات الرخامية لمدرسة "ماسى رود ريجو" (١٥)، أى لأكثر من مائة خطوة . ولما احتتموا بالمدرسة تركهم وعاد لجمع الأسلاب التى وصلت إلى ثلاثة سيوف وأغمادها ، حمل الغنيمة ليعرضها على "صاحب الشرطة" وكان وقتها - إن لم تخنى الذاكرة -

(١٤) Rodamonte : إحدى شخصيات "أورلاندو الغضوب" للكاتب "أوريوستو" ، وهى ترمز إلى البسالة والإقدام . (المترجم)

(١٥) عند بوابة "شريس" - بين "القصر" وسور مدينة إشبيلية - كانت ترتفع مدرسة "سانتا ماريا العليا" ؛ ولما كان المعلم "رودريجو فرنانديث دى سانيليا" هو الذى أسسها فقد كانت العامة تطلق عليها "مدرسة ماسى" (أى المعلم) "رودريجو" . (المترجم)

"سارمينتودى بيادارس" ، المشهور بهدمه لحي "لا سوثيدا" (١٦) الذى يقطنه الخارجون على القانون . كانت الجماهير تتأمله وهو يسير فى الشارع متبخترًا ويشيرون إليه بأصابعهم وكأنهم يقولون : "هذا هو الشجاع الذى تجاسر ودخل معركة حامية الوطيس مع زهرة أبطال الأندلس" . أمضي بقية النهار فى الطواف بشوارع المدينة حتى يراه الجميع ، ولما جن الليل اتجهنا إلى "طريانة" ، وفى شارع قريب من طاحونة "لا پولپورا" التفتت حوله للتأكد من خلو المكان من المارة ثم دلف - وأنا من ورائه - إلى أحد البيوت ، وما إن وصلنا إلى فناء الدار حتى وجدنا جباري المعركة مجتمعين عن بكرة أبيهم ومنهمكين فى شرب أنخاب "أخويتهم" بينما يمस्क أحدهم - صاحب الدار ، على ما يبدو - زفًا من اللبىذ بيد ، وبالأخرى كأسًا مترعة يعلوها الزبد . استقبلوه بالأحضان فور رؤيتهم له ، تبادل معهم الأنخاب ، ولو كان هناك غيرهم لما تردد فى التودد إليهم ، هذا لأنه لين العريكة وحريص على ألا يغضب أحدًا لأسباب تافهة .

لو تركت لنفسى العنان لنقل ما رأيته هناك وسمعته [من العشاء الفاخر الذى تناولوه إلى الحكايات المطولة التى قصصوها عن مشاجراتهم وسرقاتهم ، ومغامراتهم النسائية ، والمدائح التى كالمها البعض فى البعض الآخر ، والأسماء التى ذكروها لصناديد "أخويتهم" الغائبين ، أو مهارتهم الفائقة فى تمثيل الحيل التى ترد على خواطهم وتجعلهم يقطعون العشاء لأدائها عمليًا وهم يتسايفون بالأيدى ، أو الكلمات العذبة والتعبيرات الأخاذة التى يستخدمونها ، وأخيرًا القوام الفارغ الضخم لصاحب الدار - المدعو "مونيبوديو" - الذى يحترمه الجميع كأنه سيدهم أو والدهم]

(١٦) باشر "خوان سارمينتودى بيادارس" وظيفة "صاحب الشرطة" (المأمور) فى مدينة إشبيلية عام ١٥٨٩ وظل فيها لمدة عامين ، ويقال إن ثريانتس كان يقيم آنذاك فى إشبيلية أثناء تأديته لوظيفته فى جمع الغلال والمون للأسطول الإشباني . ويرى بعض المؤرخين أن "صاحب الشرطة" هذا لم يهدم - على خلاف ما ذكره ثريانتس هنا - حى "لا سوثيدا" لأن الملك كان قد أصدر عفواً عاماً عن المجرمين المقيمين فيه . (المترجم)

سأدخل في متاهة يتعذر على الخروج منها حينما أريد . لقد تأكدت في النهاية من أن المعركة الأسطورية التي خاضها سيدى معهم كان متفقاً عليها من قبل (بما في ذلك الانسحاب وترك السيوف والأغماد) ، وعلى هذا فقد دفع لهم سيدى - نقداً - قيمة تلك الأسلاب ، بالإضافة إلى التكلفة التي حددها صاحب الدار للعشاء . أما طبق التحلية فكان عبارة عن إرشاد سيدى إلى " بلطجى " غريب دخل المدينة حديثاً ، ويبدو أنه يتفوق عليهم في الإجرام ولذا فقد دفعهم الحقد إلى الوشاية به . وفى تلك الليلة تمكن سيدى من القبض عليه وهو عارٍ فى الفراش إلى جوار " لاكليندريس " ، لأنه لو كان مرتدياً ملابسه ساعتها فما أظن - لما هو عليه من ضخامة وقوة - أن مسأنة القبض عليه كانت ستمر بسلام ودون خسائر لا يعلم مداها إلا الله . وبالقبض على المغامر الغريب ، وبالمعركة التي سبقته ، تعاظمت شهرة الأشد جبناً من أرنب برى ، وأعنى به مخدومى الذى تتغذى شجاعته على الولايم وكئوس الخمر ونقدية حافظته ، وعلى هذا فقد كانت المشاكل والعقبات التي تعترضه فى عمله تتحلل طواعية وتنساب - متلاشية - فى مصرف الشجاعة .

اصبر ولا تملل لتسمع منى وقائع حكاية أخرى وسأقصها عليك كما جرت لسيدى دون زيادة أو نقصان: سرق لسان جواداً رائعاً من بلدة " أنتقىرة " وأحضره إلى إشبيلية بقصد بيعه فيها . ولتفادى المخاطر فى بيعه استخدمنا حيلة لا ترد - حسب تقديرى - على بال الشيطان نفسه، إذ نزل كل منهما فى خان بعيداً عن الآخر ، ثم ذهب أحدهما إلى مخفر الشرطة وقدم بلاغاً يطالب فيه " بدرودى لوسادا " (زميله) برد الأربعمائة ريال التي استدانها منه . بعد اطلاع الضابط على الإيصال الموقع بالمبلغ المذكور أمر كاتب العدل وسيدى بالبحث عن " لوسادا " هذا ومواجهته بالدعوى ، وإذا اعترف يطبقان عليه القانون : إما الدفع أو الحبس . اقتادهما اللص إلى خان زميله ، أقر المدعى عليه بالدين ولم ينكر توقيعه على الإيصال ، ولما خيره بين الأمرين السابقين أبدى رغبته فى بيع الجواد لسداد ما عليه . حين شاهد سيدى الجواد خرجت

عيناه من محجريهما وأضمر النية على الظفر به ، وعلى هذا فقد كلف واحداً من معارفه بشراء الجواد لحسابه . عرض المشتري خمسمائة ريال ، ورغم أن الجواد كان يساوي أضعاف هذا المبلغ إلا إن البائع الشاطر - الحريص على إنجاز المهمة في أقصر وقت - وافق على الثمن . استلم اللص الأول الدين الذي ليس له ، وتسلم الثاني الإيصال الذي لا حاجة له به ، وانتقل إلى حوزة سيدي الجواد الذي كان نذير شؤم عليه . اختفى اللسان فور انتهاء الصفقة ، وبعد يومين لا غير ظهر سيدي في ميدان "سان فرانسيسكو" على متن الجواد - بعد إصلاح سرجه واستكمال طاقمه - مزدهياً منتفح الأوداج كقروى ساذج في ملابس العيد . كان كل من يقابله - وهو منهمك في تدوير الفرس وإرجاعه إلى الخلف والوثب به إلى الأمام ، وكأنه يمثل مأساته على مسرح الميدان المذكور - يبارك له ويثنى على الصفقة الرائحة التي لا تقل عن مائة وخمسين إسكودو من الذهب الخالص . وفي أثناء استعراضه بالجواد اقترب منه رجلان رشيqa القد ، حسنا الهندام ، ثم زعق أحدهما قائلاً : " رياه ! هذا هو " بيدرو إيريرو " ، جوادى الذى سرقه اللصوص من " أنفقيرة " منذ بضعة أيام " . صدق المرافقون للرجل - وكانوا أربعة من الخدم - على كلامه . صعق سيدي ، طالب بالجواد صاحبه ، امتلأ الميدان بالناس ، اتجه الحشد إلى مقر الشرطة للفصل فى القضية ، وبعد التحقق من البراهين القاطعة والأدلة الدامغة التى قدمها صاحب الجواد صدر الحكم لصالحه واسترد ما سرق منه . فهم سيدي المزحة وأدرك أبعاد الحيلة التى لجأ إليها اللسان واستطاعا من خلالها بيع الجواد المسروق على يد العدالة نفسها ، كما اتضح لجمهور الحاضرين أن طمع سيدي هو المتسبب فى تمزيق جنابات جواله .

لم تقف مصيبتة يومها عند هذا الحد لأن المأمور وصلته قبل انتصاف الليل أخبار تنفيد بتسل بعض اللصوص إلى حى "سان خوليان" ، ومن ثم فقد بادر - ونحن معه - بالطواف فى المنطقة المذكورة ، وعند المرور بتقاطع شارعين شاهدوا رجلاً يجرى بأقصى سرعة فأمسكنى المأمور من

الطُّوق واستحثني بنداءاته المتكررة: " عليك باللص، أيها الباشق ! هيا يا بني، عليك باللص، آتني به ". ولما كانت كأسى مترعة بشرور سيدي وآثامه ، وتنفيذاً مني للأمر الصادر بالحرف الواحد فقد هجمت على سيدي فجأة، ودون إمهاله لاستخدام قواه طرحته أرضاً، ولو لم يخلصوه مني لمزقته إرباً، لكنهم أزاحوني من عليه والأسى يعتصر كلينا . تحرش بي الخفراء وأرادوا قتلى ضرباً بالهروات، وكان باستطاعتهم فعل ذلك لو لم يتدخل المأمور في الوقت المناسب - لإدراكه مغزى ما قمت به - ويقول لهم: " اتركوه، لا يلمسه أحد منكم، لقد التزم الكلب بما أمرته به دون تحريف أو زيغ " .

أما أنا، فلم أتوقف لوداع أحد، ومن فتحة بسور المدينة خرجت إلى الفضاء الشاسع ، وقبل طلوع الفجر كنت في "مايرينادل ألكور" (١٧) . شاء طالع السعيد أن أعثر فيها على فرقة من الجنود كانت على وشك الرحيل إلى "قرطاجنة" ، التقيت فيها بأربعة صعاليك من أصدقاء سيدي الشرطي، بالإضافة إلى طبّال كان خفيراً من قبل ومشهوراً - مثل فئة الطبّالين - بالغش في لعب الورق . عرفوني جميعاً وكلموني، وهكذا فقد بادروا - كأني قادر على الإجابة - بسؤالني عن الشرطي، ولما كان الطبّال أكثرهم تدليلاً لي فقد عقدت العزم على الالتحاق بخدمته - إن وافق - للضرب معهم في أرض الله الواسعة حتى لو كانت إيطاليا أو فلانديس، فأنا - وأظنك مثلي في هذا - من المؤمنين بالمثل القائل : "يظل أحرق المدينة على ما كان عليه من حماقة في المحلة القريبة" ، ولأن كثرة الترحال والاتصال بالشعوب المختلفة نصقل مواهب الرجال وتزيدهم خبرة وحكمة .

ثيبيون : ما تقوله هو عين الصواب لأنني سمعت من رجل عاقل خدمته أن سياحة الإغريق الأشهر " أوليس " في أرجاء المعمورة واتصاله بالأمم والشعوب

(١٧) تقع Mairena del Alcor على الطريق المؤدى إلى مالقة، وتبعد عن إشبيلية - من جهة الشرق - بحوالى ٢١ كم . (المترجم)

المختلفة هما السبب الرئيسى فى نعتة بالفطنة والتعقل ، ومن ثم أجدنى مضطراً للثناء على قرارك بمرافقتهم إلى حيث شاءت الأقدار .

بيرجانتا : أعود إلى الطبّال وأقول إنه وجد فى شخصى المتواضع ضالته المنشودة القادرة على إمطة اللثام عن منجم شطارته وأحابيله، ومن ثم فقد أخذ يعلمنى الرقص على أنغام الطبلّة والقيام بأعاجيب أخرى لا يمكن لكلب غيرى - كما سيتضح لك - استيعابها . كانت الفرقة [التى تضم جنوداً معظمهم من العصاة وشذاذ الآفاق، وقائداً فى شرخ الشباب - وإن كان فارساً صنديداً ومسيحياً صادقاً - وملازماً لم يفارق العاصمة وحضن أبويه إلا منذ بضعة أشهر، وجاوبشاً داهية] تتحرك ببطء شديد وعلى هواها من منطقة لأخرى، وذلك لعدم وجود مندوب عام مكلف بتحديد خط السير ومراحله الزمنية، ولم يكن الكثيرون من أفرادها يتورعون عن ارتكاب الأعمال الإجرامية على طول الطريق ، متسببين بذلك فى توجيه لعنات المضارين إلى من لا يستحقها، ولا يستطيع تقاديبها أو دفعها ، هذا لأن الحروب تحمل عادة فى ركابها الفظاظة والقسوة وموت الضمير [يا لشقوة الأمير الطيب الذى يتسبب ظلم بعض رعيته للبعض الآخر فى إثارة السخط عليه والتبرم منه !] . المهم أننى تعلمت فى خمسة عشر يوماً فقط - لعبقريتى وشطارة من اتخذته سيداً - الامتثال للتعليمات الصادرة منه وعدم الالتفات لأحد سواه . علمنى المشى على القائمتين الخلفيتين مثل جواد إيطالى، والطواف الدائرى مثل بغل الطاحونة، هذا بالإضافة إلى عجائب أخرى تنطق جميعها بشيطانية القائم بها، ولو لا خوفى من الاستطراد وفوات الوقت لأخبرتكم بها جميعاً . أطلق على "الكلب الحكيم" ، ولم تكن نصل إلى محلّة سنعسكر فيها إلا ويتلقف طبلته ويمشى منادياً فى أرجاء المنطقة على سكانها لرؤية أعاجيب "الكلب الحكيم" التى ستعرض ساعة كذا وفى المكان الفلانى مقابل ثمانية فلوس أو أربعة (وتحديد قيمة التذكرة كان متوقفاً على أعداد القادمين للفرجة) . كانت بلاغته الفذة فى الإعلان عن مهارتى تدفع الناس دفعاً للذهاب عن بكرة أبيهم لمشاهدة العرض الذى سيخرجون منه مفعمين بالسرور

والإعجاب . كان يكسب المال الوفير وينفق منه بسخاء - كملك - على ستة من زملائه . أيقظ الطمع والحدّ رغبة الأوغاد في تحيّن الفرصة المناسبة لاختطافي ، هذا لأنّ كسب لقمة العيش دون عناء أو تعب له أنصار ومريدون يفوقون الحصر ، وإسبانيا تعج بالبهلوانات المتنطعين من أمثال الذين يسرحون بالصور والأيقونات أو مشابك الغسيل والإبر والفلايات ... إلخ ، ومع أن بضاعة الواحد منهم لا تفي - في حالة بيعها كاملة - بإعاشة صاحبها يوماً واحداً إلا إنّنا نجدهم لا يغادرون الحانات والمواخير طوال العام ، وهذا ما يجعلني أعتقد في اعتمادهم على مصادر أخرى مشبوهة لتغطية نفقات سكرهم وعريدتهم . إنهم جميعاً ليسوا إلا متشردين ، عديمي الفائدة والنفع ، سوساً للخبز وإسفنجاً للبيذ .

ثيبيون : لا تضطرنّي لتكرار تنبيهي بعدم الاستطراد حتى لا تفاجئنا الشمس وأنت لم تفرغ بعد من سرد قصة حياتك .

بيرجانتا : سمعاً وطاعة ، والآن أقول إن سيدي عندما أحس بقدرتي على تعلّم المزيد من فنونه ، وشاهد تقليدي المتقن للجواد الإيطالي ، اتخذ لي لباساً مزركشاً ووضع على ظهره سرجاً صغيراً تعلوه صورة ساذجة لرجل ممسك بحرية صغيرة (رمزاً للعبة الحلقة) ثم علمني الجري من بعيد في اتجاه عصاتين منتصبتين لالتقاط حلقة معدنية مثبتة في طرفيهما . وفور تعلّمي لهذه اللعبة الجديدة سارع بالنداء على الناس لمشاهدتها فلم أخيب ظنه ولم أخذله حتى لا يصموه بالكذب . ولما وصلت الفرقة إلى " مونتيّا " (مدينة المسيحي الصادق والشهير : ماركيز دي برييجو) وعسكرت فيها ، أنزلوا سيدي - بناءً على رغبته - في دار الضيافة والرعاية الصحية ^(١٨) ، قام بعد ذلك بدعايته المعتادة ، ولما كانت شهرتي قد سبقتنّي إلى تلك المدينة قبل وصولنا إليها فقد امتلأ فناء الدار في أقل من ساعة بجمهور المشاهدين . انفجرت أسارير سيدي للحصول

(١٨) في عصر ثريانتس كانت توجد بكل مدينة إسبانية دار - أو أكثر - للضيافة والرعاية الصحية تستقبل الفقراء من أبناء السبيل والحجاج وتستضيفهم مجاناً لفترة محدودة ، كما كانت تعالجهم ، ومنها هذه الدار التي يشير إليها المؤلف . (المترجم)

الوفير وأخرج ما فى جعبته من "تفانين" . بدأ الحفل بفقرة القفز من إطار معدنى يبدو أنه لبرميل: كان سيدى يستحلى ويثير انتباهى عادة بديباجة تناسب الفقرة المقدمة وذوق الجمهور ، كما كان يمك فى يده بعضا من السفر جل ، وإنزالها إلى أسفل يعنى القفز ، أما رفعها إلى أعلى فمعناه التوقف . فى ديباجته لذلك اليوم - الذى لن أنساه ما حييت - قال لى: "هيا يا صديقى، اقفز من أجل ذلك العجز المتصابى المشغول بصبغ لحيته، وإذا كان لا يعجبك فاقفز من أجل أبهة وفخامة السيدة "بيمبيلادى بلافاجونيا" التى كانت زميلة للخادمة الجليقية فى "بلديا ستياس" . ألا يروقك شئ مما ذكرت ؟ اقفز إذن حباً فى "باسياس" الذى يوقع بحامل إجازة الليسانس رغم خلو جرابه من أية شهادة دراسية . يالك من كسول ! لماذا لا تقفز ؟ أه، الآن فهمت ما تحب أن أملكك به: اقفز من أجل خمر "إسكيباس" الذى يضارع فى الشهرة نبيذ "ثيوداد ريال" و "سان مارتين" و "ريبادابيا" . ولما فرغ من ديباجته السابقة أنزل عصاه فقفزت على الفور • توجه إلى الجمهور بعد ذلك وخاطبه قائلاً: "على مجلس الشيوخ الموقر ألا يستهين بما يعرفه الكلب الحكيم: لقد علمته أربعاً وعشرين أعجوبة يطير العقاب من أجل رؤية أصغرها، أى إن أقل أعجوبة فيها تستحق أن يقطع المرء ثلاثين فرسخاً من أجل مشاهدتها . إنه يعرف رقصة "لاثارابندا" و "لاتشاكونا" أفضل من مخترعتهما، وشرب زق من النبيذ دون أن تفر منه قطرة واحدة، وقراءة النوتة الموسيقية مثل سادن الكنيسة ، سترون هذه الأشياء وأخريات غيرها خلال الأيام التى ستقضيها الفرقة هنا، والآن انتبهوا معى لرؤيته وهو يقفز ثانية كى نتفرغ بعد ذلك لما هو أهم وأعجب فى برنامجنا الحافل" . أثار بكلامه السابق شوق الجمهور (الذى خاطبه بمجلس الشيوخ) وأشعل رغبته فى رؤية ما أعرفه . اتجه إلى قائلاً: "هيا، أعد بخفة ورشاقة القفزات السابقة، وعليك أن تفعل هذا إكراماً وتبجيلاً للساحرة المشهورة التى كانت تقيم فى هذه البقعة المباركة" ، ولم يكذ ينتهى من جملة الأخيرة حتى ارتفع صوت المشرفة على الدار (وهى امرأة مسنة

تجاوزت - على ما يبدو - السبعين عاماً) بما يلي من الشتائم: "أيها
الوغد الثرثار، يا بن الزانية، لا توجد هنا أية ساحرة . إن كنت تقصد
"لاكامتشا" فقد انتقلت إلى الدار الآخرة بعد تكفيرها عن ذنبها، وإذا كنت
تقصدينى - أيها القرداتى - فأنا لست بساحرة ولم أشتغل بالسحر فيما
مضى من حياتى ، أما عن ذبوع شهرتى فى هذا المجال فمرجه إلى
الشهود المزيفين والقانون المختلق والقاضى المتهالك الذى يستمد
معلوماته من مصادر مضللة . الناس جميعاً يعلمون أننى أقضى ما بقى
لى من عمر فى التوبة والندم، لكن ليس على السحر الذى لم أمارسه بل
للتكفير عن ذنوب أخرى اقترفتها . ولذا أمرك، أيها المطبلاى سليط
اللسان، بالخروج من الدار، وإلا، فبحق قديستى لن أجعلك تخرج منها
على قدميك" . وفور فراغها من هذا الموشح دوت فى أرجاء الفناء
صرخاتها الهستيرية المختلطة بالسباب المقذع لسيدي الذى أسقط فى
يده واعتراه الفزع والاضطراب، وفى النهاية لم تقبل بأى حال استكمال
الحفل . لم يبتس سىدى لما حدث من هرج ومرج لأنه احتفظ بما حصله
من نقود وأرجأ عرض الفقرات الباقية إلى يوم ومكان آخرين . خرج
الناس وهم يلعنون العجوز، مضيفين إلى نعتها بالساحرة لقب الحيزبون
الملتحية . ورغم ما حدث فقد أمضينا - أنا وسيدى - تلك الليلة فى الدار.
بحثت عنى العجوز، ولما وجدتنى وحيداً فى الحظيرة توجهت إلى بهذه
الأسئلة : "هل أنت مونتيل ؟ ألسنت ابنى الذى أفتش عنه منذ سنين ؟ ألا
تعرف أنك آدمى ولست حيواناً ؟" .

رفعت رأسى ونظرت إليها ملياً، اقتربت منى عندئذ والدموع تنهمر من
عينيهما ثم أمسكت عنقى بكلتا يديها ، ولو تركتها لطبعت قبلة عريضة
على فمى ، لكننى تقززت ولم أسمح لها بذلك .

ثيبيون : حسناً ما فعلت لأن تقبيل العجائز لا يعتبر منة بل بلاء وكرباً عظيمين .
بيرجانثا : والآن استعد لتسمع منى حكاية تلميذة الساحرة "لا كامتشا" التى أشرت
إليها فى بداية حديثى . لقد اقتربت منى العجوز وأسرت فى أذنى بما

يلى: "تعال معى لتعرف مكان حجرتى ، وعندما يجنّ الليل سأنتظرك فيها لأحدثك فى مسألة هامة تتعلق بحياتك" . طأطأت رأسى ، إشارة منى بالطاعة ، وعندئذ دخل فى روع العجوز - كما عرفت بعد ذلك - أننى الكلب "مونتييل" الذى تبحث عنه . انتظرت قدوم الليل مشوشاً حائراً ، مثلهفاً لمعرفة حقيقة المعجزة التى أشارت إليها ، وبما أننى سمعتهم يقبونها بالساحرة فقد كنتُ أُمْنى النفس بالكثير من وراء لقائها . المهم أننى وجدت نفسى أخيراً داخل حجرتها الضيقة الواطئة التى لا يبدد وحشة ظلامها سوى ضوء خافت لقنديل من الطين ، جلستُ على مقربة منى ، ودون أن تنطق بكلمة عانقتنى من جديد ، ومن جديد حاولت ألا أمكنها من تقبيلى . قالت لى بعد ذلك :

"كثيراً ما دعوت السماء كى تمنّ علىّ بلقائك قبل أن تنام عيناى نومتهما الأبدية ، والآن وبعد أن تحققت أمنيّ فأهلاً ومرحباً بالموت لينتشلنى من كبّد هذه الحياة . اعلم يا بنى أنه كانت تعيش فى مدينتنا هذه أعظم ساحرة عرفها العالم وتدعى "لاكامتشا دى مونتيّا" ^(١٩) ، وقد كانت بارعة ومتفردة فى مجالها بحيث لا يدانيها غيرها من الساحرات والسحرة أمثال "لاس إريتوس" و"لاس ثيريث" و"لاس ميدياس" . كان باستطاعتها - أنى شاءت - تجميد السحب وإيقافها ، حاجبة وجه الشمس ، وإعادة الصفاء والسكينة للسماء الأشد هياجاً ، وإلتيان بأى إنسان من أقاصى المعمورة فى طرفة عين ، وإعادة البكارة للفتيات اللاتى تهاون فى الحفاظ على عفتهن ، وتمكين الأرامل من إهراق شرفهن فى خفر واحتشام ، وتطليق المتزوجات وتزويج من تريد . فى شهر ديسمبر كانت حديقته تعج بالورود اليانعة ، وفى يناير يحين موعد حصاد قمحها . أما نمو النباتات على صفحة الماء أو عدم رؤية الشخص لصورته فى المرآة فيعتبران من أقل ما كانت تفعله . اشتهرت بتحويل الإنسان إلى حيوان ، ويعلم الجميع هنا أنها حولت سادن كنيسة إلى حمار

(١٩) فى منتصف القرن السادس عشر كانت توجد ساحرتان بهذا الاسم فى المدينة المذكورة (مونتيّا) ، ولاشك أن ثريانتس قد علم بخبر هاتين الساحرتين عندما كان يعمل بذلك المنطقة عام ١٥٩٢ . (المترجم)

حقيقى ظلت تستخدمه لست سنوات كاملة . ورغم أن القدماء يقولون إن أقصى ما يستطيع السحرة عمله فى هذا المجال هو جعل الشيء يبدو وكأنه شيء آخر (على طريق التخيل) إلا إن ما حدث معك يابنى مختلف بكل المقاييس : فأنا أعرف أنك شخص عاقل ومع ذلك أراك فى صورة كلب . ومهما كانت الحقيقة فما يحزننى ويوجعنى فى الصميم هو عدم وصولنا - لا أنا ولا أمك ، وكنا تلميذتين نجيبتين لكامتشا- إلى مستوى تلك الساحرة الداهية ، وهذا ليس نابعاً من تقصير أو تراجع فى العبقرية والمهارة أو خمول فى الهمة من جانبنا ، بل لخبثها الشديد الذى جعلها تحتفظ لنفسها بالأسرار الكبيرة والضئ بها على تلميذتيها الوفيتين .

أمك ، يا بنى ، كانت تدعى "مونتيللا" وتعتبر خليفة "لاكامتشا" ، أما أنا فاسمى "كانيثاريس" ولست ضليعة مثلها وإن كنت لا أقل عنهما رغبة فى المعرفة . كانت لدى أمك - مثل "لاكامتشا" - القدرة على تحضير فيلق من الجن والتحاور معه ثم صرفه ، أما أنا فأكتفى - لقناعتي - بنصف فيلق منهم ، وإن كنت أبرّ الجميع فى إعداد المراهم التى يدهن بها السحرة أجسادهم . اعلم ، يا بنى ، أننى حين رأيت الحياة تتفككت سريعاً من بين يدي وتمضى منطلقة على جناحى الزمن الرشيقين قررت ترك وحل السحر الذى تمرغت فيه لسنوات طويلة والاقتصار على الأعمال القبيحة للشعوذة لأنها تحولت إلى عادة يصعب الإقلاع عنها . لقد فعلت والدتك الشيء نفسه : تخلت عن كثير من الرذائل ، وقدمت العديد من أعمال الخير ، لكنها ماتت فى النهاية مشعوذة ، ولم يكن موتها نتيجة مرض أو سقم ، بل حسرة على ما فعلته "لاكامتشا" معها بدافع الغيرة والحق من تسلفها لدرج المهارة بقوة . ولإيضاح الأمر الأخير أقول إن أمك كانت حبلى ، ولما دنت ساعة الولادة قامت "لاكامتشا" بدور القابلة ، لكن يديها بدلاً من أن تستخرجا الطفلين اللذين كانا فى بطن أمك تلقيتنا جروين صغيرين . عقدت الدهشة لسانينا - أنا وأمك - وانبرت "لاكامتشا" قائلة : "يا لها من فضيحة ! ما هذا الإفك المبين ؟ لا

تحزنى يا "مونتيلا" لأننى صديقتك ولن أحدث أحداً بما شاهدته ،
اهتمى بصحتك ولا تلقى بالأل لهذه الحادثة البشعة لأنها ستقبر بين ركام
الصمت ، هونى عليك يا أختاه لأنى أعرف جيداً أنك لم تعاشرى مخلوقاً
آخر غير صديقك "رود ريجيث" الحمال ، ومن ثم فإن هذا الوضع
الشاذ يكتنفه الإبهام والغموض . قالت هذا ثم تركتنا وحملت الجروين
إلى خارج البيت . وقبل إسلام "لاكامتشا" الروح لبارئها استدعت
والدتك واعترفت لها بأن الغيرة وحدها هى التى دفعتها لسحر ولديها
كلبين ، كما أخبرتها أنها سيعودان إلى صورتها الآدمية بعد وقت قصير
من سماعهما - أو سماع أحدهما - للتعويذة التالية :

ستعودان حتماً إلى هيلتكما الأصلية
حين تريان المتعجرفين من أصحاب الثراء
ينساقطون سراعاً من عليائهم ،
وارتقاء المنحطين الوضعاء
لاحتلال مكانهم .

دوّنت والدتك التعويذة واختزنتها ذاكرتها ، كما حفظتها عن ظهر قلب
أملاً فى ملاقة أحدهما ذات يوم ، وكلما رأيت كلباً من لونكما وعليه
مخايل الذكاء أنتحى به جانباً وأقرأ عليه التعويذة ، وعندما شاهدت
الأعاجيب التى قدمتها هذا المساء ، وسمعتهم ينادونك بالكلب الحكيم ،
ورأيتك ترفع رأسك منصتاً لحديثى فى الحظيرة ، اعتقدت أنك ابن
"مونتيلا" الذى أبحث عنه لأخبره بماضيه وألقى عليه التعويذة طمعاً
فى عودته إلى هيلته الأصلية . اتجه ، يا بنى ، إلى الله بالدعاء لكى
تتحقق نبوءة "لاكامتشا" وتعود أنت وأخوك - إن كان حياً - إلى الصورة
المبتغاة فى القريب العاجل .

ما يوجعنى ويحزنى هو أن أيامى القليلة الباقية لن تمهلى لرؤية هذا
الحدث الفريد ، لقد حدثتلى نفسى مراراً بسؤال شيطانى الأكبر عن
مصيركما ، لكننى كنت أتراجع فى اللحظة الأخيرة لعلمى أنه لا يجيب
على أسئلتنا مباشرة ، بل يرد بكلام ملتوٍ يحتمل الكثير من التأويلات ،

وعلى هذا فهو يخلط النذر اليسير من الحقيقة بآلاف الترهات . ومن تجاربي الكثيرة معه خرجت بنتيجة مفادها : أنه لا يعرف على وجه اليقين شيئاً عن المستقبل ، ولا يقدم سوى التكهنات والتخمينات . ومن العجب العجائب أننا لا ننفض من حوله رغم علمنا بخداعه المستمر وسخرياته المتكررة . إننا نقابله - نحن معاشر السحرة والساحرات - في فضاء بعيد عن المدينة ، وهنالك يقدم لنا طعاماً مجوجاً مقززاً ، ويجبرنا على الإتيان بأفعال بذيلة مستقبحة يعف لسانى عن تلوّث أذنك بها . لقد اختلفت الآراء حول كيفية حضورنا لولائم الشيطان : فبينما يرى البعض أنها تتم فى الخيال فقط ، يدعى آخرون أنها تتم بالروح والجسد معاً ، ومن جهتى أعتقد أن كلا الرأيين صحيح لأن حالة الوجد التى تنتابنا لا تجعلنا نفرق بين هذا الأمر أو ذاك ، ولأن ما يجرى فى الخيال يكون مكثفاً للغاية بحيث لا يمكن فصله عن الواقع . ولا شك أن وجهة نظرى هذه لا غبار عليها إذا ما أخذنا فى الاعتبار نتائج التحقيقات التى أجراها أعضاء محاكم التفتيش مع زملائنا وزميلاتنا فى السجون .

لقد عقدت العزم يابنى - كما سبق وأخبرتكَ - على الابتعاد عن الآثام وعملت جاهدة من أجل ذلك : التحقت بدار الرعاية الصحية للمشاركة فى علاج الفقراء ، وأسْتَعِين على الحياة بما يقدمه المرضى من توافه الأشياء أو بما يتركه الموتى مخبوءاً فى ملابسهم . أصلى قليلاً ، لكن على مرأى من الناس . أغتاب وأنم كثيراً ، لكن فى الخفاء ، فوصمة المراءاة خير لى من وصمة العصيان الصريح ، ومن ثمار هذا السلوك أن المظاهر الطيبة لأعمالى الحالية أخذت تمحو من ذاكرة الذين يعرفوننى الصورة السيئة لحياتى الماضية ، لا شك أن القداسة الظاهرية المفتعلة لا تلحق الأذى بالغير بل بمن يمارسها فقط . استمع يابنى لهذه النصيحة : كن طيباً قدر ما تستطيع ، ولو كتب عليك أن تكون سيئاً حاول ألا تقترف كل ما تقدر عليه من سوء . لا أنكر أننى مشعوذة ولا أنكر أيضاً أن والدتك كانت ساحرة ومشعوذة ، ورغم هذا فإن المظهر الخارجى لكلايتنا كان بمثابة رخصة لكسب ثقة الجميع . قبل موت والدتك بأيام ثلاثة ذهبنا سوياً فى

لُمة من الصديقات إلى وادٍ بجبال البرانس حيث لهونا وأكلنا وسعدنا ، لقد مانت أمك فى اطمئنان وسكينة ولم يلحق وجهها أى تغيير سوى تعويجة طفيفة قبيل خروج الروح بربع ساعة ، لقد رحلت عن عالمنا وقلبها مكتوب بنار ضياع ولديها ، ولم تغفر - وهى فى النزاع الأخير - لكامتسا فعلتها النكراء ، وهكذا كانت أمك دوماً : ماضية كحد السيف ، وعلى قناعة تامة بما تفعل . أنا التى أغلقت عينيها ، ورافقتها حتى مثواها الأخير ، وتركتها هنالك حيث لا عودة إلى اللقاء ، ورغم هذا فما زال الأمل يراودنى فى رؤيتها ثانية قبل موتى لأن الأخبار تتردد فى المدينة عن رؤية بعض الأشخاص لها ، هائمة على وجهها بين المقابر وعلى مفارق الطرق ، وربما أعرثر عليها ذات يوم لأسألها عن أى شىء يكون قد فاتها فى الدنيا وتريد منى عمله حتى يستريح ضميرها" .

كان كل شىء من الأشياء التى تثنى بها العجوز على التى تعتقد أنها أُمى بمثابة رمح يخترق أحشائى ، وكثيراً ما حدثت نفسى بالانقضااض عليها وتمزيقها إرباً بأسنانى ، ولم يمنعنى من التنفيذ سوى إشفافى من إدراك الموت لها وهى فى حالة أسوأ مما هى عليها . المهم أنها أخبرتنى أخيراً بعزمها على دهن نفسها تلك الليلة للاجتماع بالشیطان ، وإنها تفكر هذه المرة فى سؤاله عن مصيرى ، أردت سؤالها عن تركيبة هذا الدهان ونوعيته ومفعوله ، ويبدو أنها قرأت ما يعتمل فى صدرى لأنها بادرت بالإجابة على ما لم أتلفظ به قائلة :

" لا تظن أننا نستعين فى تحضير هذه المراهم بدماء الأطفال - كما تعتقد الدهماء - بل بخلاصة أعشاب بريّة شديدة البرودة ، ولو كنت تعى وتفكر جيداً لسألت نفسك هذا السؤال ، ما الذى سيجنيه الشيطان من قتل الأطفال حديثى العهد بالولادة ؟ لو حاولت الإجابة لأدركت أن هذا الأمر مخالف تماماً لمهمة الشيطان على الأرض ، فمن المعروف أن هؤلاء الأطفال يرتقون حال موتهم إلى جنة الخلد مباشرة لأنهم أبرياء ولم يرتكبوا ذنوباً أو معاصى ، والشيطان لا يحزنه شىء أكثر من فرار نفس مسيحية من بين برائته ، وفى هذا يصدق المثل القائل : " ما الفائدة التى

ستعود على من فقأ عيني ما دام عدوى سيفقأ عينا واحدة؟! .. ما يهم الشيطان هو اقترافنا لكبائر الذنوب في كل خطوة نخطوها، وبالطبع فإن كافة ألوان الذنوب والمعاصي من خلق الله تعالى ومسطرة في اللوح المحفوظ ، ولو لم يقدرها علينا ما استطعنا إهانة الشيطان ولو بأقل القليل . ومن واقع خبرتي الشخصية أستطيع التأكيد على صدق ما ذهبت إليه : لقد رجوت الشيطان مرة وتوسلت إليه لكي يدمر كرامة عدو لي ، فقال لي إنه لا يستطيع أن يمس ورقة واحدة منها لأن الله لم يرد ذلك ولم يقدره . حين يشتد عودك وتبلغ مبلغ الرجال ستدرك أن كل ما يحيق بالأفراد والأمم والمدن والممالك من كوارث ومحن (مثل الموت المفاجئ أو الغرق أو الأوبئة أو تبدل الأحوال ... إلى آخر قائمة الأضرار التي نعرفها) خاضع لمشيلة الله وقضائه ، أما الأضرار الناجمة عن ارتكاب الذنوب والمعاصي - نتيجة التعدي على حدود الله - فمن صنع أيدينا . الله سبحانه منزّه عن الأخطاء ، خلق الذنب والمعصية ولم يأمر بهما ، ولذا يحاسب على اقترافهما سواء كان ذلك بالنية أو القول أو العمل . لو كنت تفهمني لتساءلت الآن عن علاقة المرأة التي تحدثك باللاهوت وبالخوض في المسائل العقائدية المحضنة ، وربما تماديت إلى ما هو أبعد من ذلك وتساءلت متعجبا : "يا لك من حيزيون خالعة العذار ! تعرفين كل هذا وما زالت متشبثة بمستنقع الشعوذة الآسن ! لم لا تعودين إلى مملكة الرب ، غافر الذنب وقابل التوب ؟! " . وكما لو كنت قد وجهت إلى بالفعل هذه الاستفسارات سأجيبك عنها قائلة : إن الممارسة المستمرة للرذيلة تتحول إلى عادة وجبلة ، والاعتیاد على السحر والشعوذة يستعبد الجسد ويلقي على الروح غشاوة تباعد بينها وبين الإيمان الصادق ، وحين يصل الأمر إلى هذا الحد تتناسى الروح نفسها ولا تتذكر النار التي أعدت للكافرين ولا الجنة التي وعد بها المؤمنون ، إن معاصي الجسد المصحوبة باللذة شديدة الرطأة والإغراء بحيث تستولي على الحواس وتجعلها متبلدة ذاهلة ، وسرعان ما ينعكس تبلد الحواس على الروح فتصبح واهنة سقيمة ، غير قادرة على إعمال الفكر الصحيح ، وبهذا الشكل تغرق النفس البشرية في

خضمت بؤسها وشقائها ولا تلتفت ليد الرب المبسوطه - رحمة وشفقة -
لانتشالها من وهبتها . وروحى من هذا الصنف الذى صورته لك : فمع
أنى أرى بوضوح كل شيء وأفهمه إلا إن اللذة تكبل إرادتى بأغلال من
حديد . ولهذا السبب كنت دائماً سيئة وسأظل هكذا ما حييت .

لندع هذه الاستطرادات جانباً وهيا بنا نستكمل ما بدأناه من حديث عن
المراهم والدهانات ، وعودة منى إلى نقطة البداية أقول إن المراهم تكون
شديدة البرودة بحيث تفقدنا الحواس وتجعلنا نتمدد على الأرض عرايا ،
وعندئذ نرى - كما يقولون - بعين الخيال ما يبدو أنه يحدث فى الواقع .
فى بعض الأحيان ، وبعد فراغنا من عملية الدهان يخيل إلينا أن أشكالنا
تحولت إلى غريان أو ديوك أو هامات ... إلخ لكى تسارع بالذهاب إلى
مكان اللقاء بالشيطان ، وهناك نستعيد صورنا الحقيقة لنستمتع بالذات
التي لم أمط اللثام عنها لأنها شديدة القبح بحيث تستهجن الذاكرة
استحضارها ويعف اللسان عن ذكرها ، ورغم هذا فمازلت مشعوذة
وأستعين بعباءة النفاق على مداراة خطاياى الكثيرة . صحيح أن البعض
يحترمنى ، لكن الأغلبية تلقى على وجهى بأقذع الشتائم ، وهذا بسبب
الصورة الشائنة التى ارتسمت - لى ولأمك - فى أذهان الكثيرين بعد
محاكمة حانقة أجراها لنا منذ زمن بعيد قاضٍ غضوب ثم سلمنا بعدها ليد
جلاد نفذت الحكم بصرامة - لأن صاحبها لم يرتش - وصبت جام
غضبها على ظهرنا . لكن هذه الواقعة قد طوتها الأيام كما تطوى أشياء
أخرى كثيرة : فالذاكرة يجف نبعها ، والحيوات لا تعود ، والألسن ينالها
التعب ، والأحداث الجديدة تغطى على القديمة . عملى فى دار الرعاية
الصحية يكفل لى الاحترام الخارجى ، ودهاننى تنعم على بالأوقات
الهدية ، ومع أننى لا أقوى على الصوم لكبر سنى (الذى يناهز الخامسة
و السبعين) ، ولا أستطيع الصلاة لغيابى عن الوعى فترات طويلة ، ولا
تأدية فريضة الحج لوهن ساقى ، ولا تقديم الصدقات لفقرى المدقع ، ولا
التفكير فى أعمال الخير لأنى صديقة للنفاق والغيبة والنميمة ، إلا إننى لم
أفقد الأمل فى عفو الغفور الرحيم ، الذى خلق الصالح والطالح ويعلم أولاً

من أكون . يكفينى الخوض فى هذا الحديث المؤلم المثير للشجون ، ومن ثم أدعوك لترى بنفسك كيف أستخدم الدهان ، فمن غير المستحب البحث عن مواطن الآلام أو استعداد اليوم الباسم بالبقاء ، ولايضاح ما أعنيه أقول: إن المتعة المتخيلة تفوق فى اللذة - رغم مخالفة هذا للعقل والمنطق- المتعة المحسوسة" .

نهضت بعض فراغها من هذه الخطبة الطويلة ثم أخذت القنديل ودخلت غرفة أخرى أشد ضيقاً . تبعتها وآلاف الأفكار تتناوشنى من كل اتجاه ، مفتوناً بما سمعت وبما أنا مقدم على رؤيته . علقت القنديل على جدار ، تعرّبت حتى القميص ، تناولت من أحد الأركان إبيرقاً زجاجياً ، أدخلت فيه إحدى يديها ، دمدت من بين أسنانها ببعض الكلمات ثم راحت تدهن جسدها من أخمص القدمين إلى أعلى الرأس . قالت لى أثناء عملها : لا تفزع إذا شاهدت جسدى ممدداً دون حس أو إذا اختفى من أمامك ، ولا تبرح المكان قبل انبلاج الصباح لتعرف ماذا سيحدث لك حتى تعود إلى هيلتك الأصلية . ولما أحنيت رأسى - إشارة منى بالطاعة - كانت قد انتهت من عملها . تمددت بعد ذلك على الأرض مثل الموتى . اقتربت من فيها ولم أعثر للتنفس على أثر .

أعترف لك يا صديقى ثيبيون بأن خوفاً شديداً قد اعترانى حين وجدتلى محبوساً فى الغرفة الضيقة مع تلك الشخصية التى سأحاول قدر استطاعتي وصفها لك : جسد فارغ يزيد طوله عن سبعة أقدام ، عبارة عن هيكل عظمى مغطى بجلد مشعر مدبوغ ومغبر ، بطن مثل بطن بدنة تغطى موطن العفة وتتدلى حتى منتصف الفخذين ، نهدان مثل ضرعين جافين متغضنين لبقرة ، شفتان ضاربتان إلى السواد ، أسنان مطبقة ، أنف أفنى ، عينان متباعدتان ، رأس أشعث ، وجنتان غائرتان ، عنق قصير وصدر واطئ . إن جسدها باختصار لم يكن إلا أنموذجاً مادياً لصورة الشيطان القبيحة المخزنة فى الأذهان .وقفت أتأملها وسرعان ما تملكنى دعر مزدوج : من هيلتها القبيحة المائلة أمامى ، ومن روحها الخبيثة الهائمة فى عوالم الشر . أردت عضها لمعرفة ما إذا كانت ستثوب

إلى رشدّها ولم أعرّ على موضع لا يعوقني فيه القرف ؛ ورغم هذا تحاملت على نفسي وأمسكت بأحد أطرافها المكسّة ثم أخرجتها - جرجرة- إلى الفناء ، ومع هذا لم تصدر عنها إيماءة توحى باستردادها للوعي ، وهناك ، في الفضاء الواسع وتحت السماء المكشوفة ، ذهب عني الخوف ، وإن شئت قل خففت حدّته بحيث واتّنى الشجاعة لانتظار ما سيسفر عنه الموقف ، ولمعرفة ما ستخبرني به عن حالى بعد عودتها من الرحلة الشيطانية . كانت الأفكار تتناوشني وأنا واقف إلى جوارها وأنساءل : "كيف أصبحت هذه العجوز حصيفة و سيئة في آن واحد ؟ مالها ومعرفة الفارق بين الأضرار الناجمة عن الكوارث والمحن وبين المتمخضة عن الذنوب والمعاصي ؟ كيف يتفق فهمها العميق للعقيدة وأحاديثها المطوّلة عن الرب مع استسلامها المطلق للشيطان ؟ كيف يتسنى لها اقتراف الإثم عامدة وهى عليمّة بعواقبه الوخيمة ؟" .

مضت الليلة فى مثل هذه التساؤلات إلى أن طلع علينا النهار ونحن فى وسط الفناء : هى سادرة فى غيبوبتها ، وأنا مقع إلى جوارها ، ناظر إلى هيئتها القبيحة . توافد نزلاء الدار ، وحين رأوا ذلك المشهد انبرى بعضهم قائلاً : "إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد ماتت كانيثاريس المباركة ، انظروا إلى ما فعلته التوبة الصادقة فى جسدها من تشويه ونحافة" ، بينما قام أفراد آخرون أكثر تعقلاً بتحسس نبضاتها ولما وجدوها ما زالت تنبض بالحياة عرفوا أنها فى حالة وجد ، غائبة عن الوعي .لم يعدم مسرح الأحداث وجود فريق ثالث أخذ يعلق على ما يراه قائلاً : "لا شك أن هذه العاهرة العجوز تمارس الشعوذة والسحر وفى غيبوبة من أثر الدهان ، القديسون لا تنتابهم مطلقاً حالات النشوى الفاضحة المتهتكة ، المطلعون ممّا على سيرة هذه المرأة يعرفون أن شهرتها فى السحر تفوق حتى الآن شهرتها فى القداسة" . تجرأ محبو الاستطلاع وقاموا برشق جسدها كله بالدبابيس ، ورغم هذا لم تثب الذّاهلة إلى رشدّها إلا فى السابعة صباحاً . حين أحست بوخز الدبابيس وبأثر العضّات والكدمات والرضوض ، وشاهدت عيوناً كثيرة مسلطة عليها اعتقدت - وكانت محقة فيما ذهبت

إليه - أننى المتسبب الأورحد فى فضيحتها ، وعلى هذا فقد اقتربت منى وأطبقت بكلتا يديها على عنقى - محاولة خنقى - وهى تقول : " أيها السافل ، النذل ، البائس ، الخبيث ! أهذا جزاء ما أسديته لأمك من معروف وما قدمته لها من خدمات ، وما كنت بصدد تقديمه لك ؟! " . ولما وجدتنى على وشك الهلاك اجتهدت فى التملص منها ثم أمسكتها من طيات بطنها المتدلّية ورحت أمسح بها أرجاء الفناء ، بينما كانت تصرخ طالبة النجدة لتخليصها من بين براثن الروح الشريرة .

من كلمات العجوز اعتقد معظم الحاضرين أننى أحد الشياطين الذين يَكُونُ العداوة والبغضاء للمسيحيين الأتقياء . كان البعض منهمكاً فى رشّ الماء المقدس تجاهى ، لم يجرؤ آخرون على الاقتراب منى ، بينما انخرط فريق ثالث فى تلاوة التعاويذ بنية " صرْفى " من المكان . كانت العجوز تدمدم وأسنانى تزداد تشبثاً بها ، تعالت الفوضى و عمّت البلبلة ، وسيدى الذى وصل على الجلبة والصياح تملكه القنوط إزاء رميهم لى بالشيطنة . أما الذين لا يعرفون الرقى والتعاويذ فقد بادروا بإحضار ثلاث عصى غليظة أو أربع وأخذوا يرسمون بها علامات متكررة للصليب على ظهرى ، أملتى المزحة السخيفة واحمرّ لها جلدى ، تركت العجوز ، وفى ثلاث قفزات لا غير كنت فى الشارع ، وبعدد لا يزيد كثيراً عن القفزات السابقة خرجت من المدينة متبوعاً بجموع غفيرة من الصبية ، بعضهم ينادى صارخاً : " ابتعدوا عن الكلب الحكيم الذى أصابه السُعار " ، فترد أصوات أخرى مفندة : " لا ، لم يصبه السُعار ، إنه شيطان فى صورة كلب " . وهكذا خرجت مسرعاً وسط هدير الهتافات المحمومة ، والكثيرون يلاحقوننى معتقدين - بسبب ما شاهدوه من أعاجيبى أو لما تقوّلته عنى العجوز بعد إفاقتها من حلمها الملعون - إننى بالفعل شيطان . لم أدخر وسعاً فى الهرب والاختفاء من أمام عيونهم (وربما أعان هذا على ترسيخ اعتقادهم) ، وفى ست ساعات قطعت اثنى عشر فرسخاً وصلت فى نهايتها إلى مخيمٍ للعجر على مقربة من غرناطة . تلكأت قليلاً حين سمعت بعضهم ينادينى بالكلب الحكيم ، استقبلونى بحفاوة بالغة وخبائونى

فى مغارة حتى لا يجدنى من يفكر فى البحث على ، عرفت بعد ذلك أنهم أخذونى لـيتربحوا من ورائى مثلما كان يفعل الطبّال . قضيت فى كنهم عشرين يوماً تعرّفت فيها على حياتهم المثيرة وعاداتهم الغريبة ، ومن ثمّ أرانى مضطراً لسرد بعضها عليك .

ثيبيون : قبل المضى قدماً فى حكايتك دعنا نتوقف قليلاً لاجتلاء وجه الحقيقة فيما قالته الساحرة ، ولتفنيدي فريتها الكبرى التى صادفت هوى فى نفسك . من العتّة ياببرجانثا الاعتقاد أن "لاكامتشا" كانت لديها القدرة على تحويل الإنسان إلى حيوان ، وأن سادناً لكنيسة ظل يخدمها السنوات التى ذكرتها فى صورة حمار . إن هذه الأمور وما شابهها مجرد أباطيل وتخيلات من عمل الشيطان ، أما بالنسبة لما يخصنا حالياً فإذا كنا نشعر بنوع من الإدراك والفهم ونتحدث رغم أننا كلبان أو فى صورة الكلاب ، فهذا يندرج - كما اتفقنا آنفاً - تحت بند الإعجاز الحقيقى ولا يعتبر أمراً طبيعياً قابلاً للحدوث فى كل وقت . ولمزيد من الإيضاح أقول : إذا تدبرت ملياً فيما ساقته "لاكامتشا" كشرط لعودتنا إلى الصورة الآدمية ستجد أنه مجرد لغو فارغ وتلاعب بالألفاظ ، فالتعويذة التى بدت لك وكأنها نبوءة ما هى إلا كلمات للوعظ والإرشاد ، أو من قبيل الحكايات والنوادر التى تتسلى بها العجائز أمام موقد النار فى ليالى الشتاء الطويلة (مثل قصة الجواد مجدوع الرأس أو عصا الساحر الزاخرة بشتى ألوان الفضائل) ، وعلى هذا فمثل هذه الكلمات لا يراد بها المعنى الحرفى وينبغى حملها - كما سمعتم يقولون - على معناها المجازى . وفى ضوء هذا الفهم دعنى أفسر لك هذه الأبيات التى سمعتها منك على أنها تعويذة:

ستعودان حتماً إلى هيتكما الأصلية
حين تريا المتعجرفين من أصحاب الثراء
يتساقطون سراعاً من عليائهم ،
وارتقاء المحططين الوضعاء
لاحتلال مكانهم .

إن الكلمات تشيرنا إلى أننا سنسترد الصورة الآدمية حين نرى الذين كانوا يعتلون بالأمس قمة عجلة الحظ مدعوسين اليوم بأقدام البؤس والشقاء، وحين نشاهد نكرات الأمس يمتطون الآن ظهر الطالع السعيد ولا سبيل لنا إلى اللحاق بمنزلتهم العالية الرفيعة . وإذا كانت عودتنا إلى الصورة التي تقول عنها مرهونة برؤية تلك الأمور فقد رأيناها مراراً وتكراراً ، وها نحن أولاء نشاهدها في كل لحظة ، ورغم هذا فما زلنا كلاباً وأولاد كلاب كما ترى ، ومن ثم لا أجد مانعاً من وصف "لا كامتشا" بالسحر والتزييف ، و "كانيثايس" بالنفاق والرياء ، و "مونتبيلا" - مع خالص اعتذاري لو كانت والدتنا ، أو أمك وحدك لتنازلي عن شرف الانتساب إليها- بالحمق والخبث والقذارة . إن أحوال الناس في الدنيا مثل أحوال اللاعبين في مضمار "البولو" حيث يتهاوى الواقفون على أقدامهم بخفة وسرعة ، وينهض المتساقطون في لمح البصر ، أما الذي يحرك كرات "البولو" الحديدية في لعبة الحياة فهو القادر على كل شيء . أتستطيع إحصاء عدد المرات التي شاهدنا فيها لعبة "البولو" تلك ؟ وهل شفع لنا ذلك في العودة إلى الصورة الآدمية ؟ هذا إذا كنا - أصلاً - من بني البشر .

بيرجانثا : لا فضُّ فوك يا ثيبيون ، إنك أكثر ذكاءً مما كنت أتصور ، وبناءً على تحليلك المنطقي الرشيد لم يعد يخالجنى أدنى شك في أننا من فصيلة الكلاب ، وأن ما يجري لنا حتى الآن مجرد حلم ، ومع هذا لا ينبغي نبذ الاستمتاع بمئة الكلام ونعمة العقل طوال الوقت المقدر لنا ، ومن ثم أهيب بك كي تتحلى بالصبر وألا يعثورك الفتور لسماع ما حدث لي مع الغجر الذين أخفوني داخل مغارة .

ثيبيون : سأقبل مسروراً علي حديثك كي أجبرك فيما بعد على سماع حكايتي إن أمهلتني السماء لقصتها عليك .

بيرجانثا : في الفترة الوجيزة التي قضيتها مع الغجر تعرفت على خصالهم وأساليب مكرهم وخداعهم ، ولا حظت جريان داء السرقة في دمائهم من المهد إلى

اللحد. ألا ترى جماعاتهم المنتشرة فى طول إسبانيا وعرضها ؟! ورغم شتاتهم هذا فما من جماعة إلا وهى على صلة مستمرة بالجماعات الأخرى ، ولهذا السبب لا تستقر مسروقاتهم فى مكان لأنها دائمة التجوال فيما بينهم. ولكل جماعة زعيم تقدم له - كالمملك أو أكثر - فروض الطاعة والولاء ، ويطلقون على الزعيم والمنحدرين من صلبه لقب " مالدونادو " ، وبالطبع فإن اللقب لا يمت بصلة إلى عائلة " مالدونادو " العريقة والشهيرة ، بل لفتى كان تابعا لأحد الفرسان ووقع فى غرام غجرية لم توافق على الزواج منه إلا بعد انخراطه فى جماعتها . ولما تزوجها الشاب- المدعو " مالدونادو " - وعاش معهم أحبوه وأعجبوا بمهاراته ، وعندئذ نصّبوه زعيما عليهم ، وكانوا يقدمون له - كبرهان على الطاعة والولاء - جزءا من سرقاتهم الثمينة . والغجر كما تعرف لا عمل لهم سوى النصب والاحتيال ، وأوقات فراغهم الطويلة يقضونها فى صنع المشغولات الحديدية بهدف التغطية على أنشطتهم الحقيقية ، ولذا تراهم فى الشوارع يبيعون الكماشات والمطارق والمثاقب وحمالات القدر . ونساء الغجر جميعهن يتفوقن على قابلاتنا المتخصصات ؛ إذ لا تستعين الواحدة منهن بأية أدوات لإخراج المولود من بطن أمه ، وفور ولادته يبادرن بصب الماء البارد عليه ، ولهذا السبب تتحمل جلودهم المدبوغة الظروف القاسية للمناخ وتجعلهم مؤهلين للعيش فى كافة الأجواء ، كما تحولهم إلى عدائين وراقصين مهرة ولاعبى أكروبات . ولا يتزوج الغجر إلا من محيطهم الاجتماعى حتى لا تتسرب أسرارهم وعاداتهم السيئة خارج نطاق العشيرة ، وزوجاتهم يحافظن على شرفهن ، ولما تخون الغجرية زوجها مع إنسان آخر. إذا طلبن صدقة فإنهن يحصلن عليها نتيجة للزلف والمراوغة لا من أجل المظهر البائس أو الورع أو لما يحفظن من آيات الإنجيل ، ولا يوجد من يثق فيهن أو يكلفهن بعمل فى مقابل أجر لأنهن والتنطع سواء ، وإذا لم تخنى الذاكرة فلم أقابل فى المرات الكثيرة التى دخلت فيها الكنائس غجرية واحدة تتناول القربان المقدس أمام المذبح ، هذا لأن عقول الغجر تكاد تكون مبرمجة على التفكير فى

النصب والاحتياال ورسم الخطط للإيقاع بهذا أو ذاك ، ولتصريف حصيلتهن من المسروقات . لقد سمعت أحدهم يقص على زملائه كيف باع حماره مرتين لفلاح ساذج ، ولكى أشبع فضولك ياأخى ثيبيون فيها أنذا أعيد عليك تفاصيل الحيلة الشيطانية كما سمعتها : كان لدى ذلك الغجرى حمار مقطوع الذيل فصنع له آخر مشعراً وأوصله بفضالة الذيل الأصلي بحيث يبدو لكل من يراه أنه حقيقى وغير مصطنع . ذهب إلى السوق فابتاعه منه فلاح بعشرة دوكادوس ، بعد أن قبض الغجرى الثمن أخبر الفلاح بوجود حمار مشابه فى مضاربه القريبة معروض أيضاً للبيع ويثمن مغرٍ فأبدى الفلاح استعداده لشراء الحمار التوعم ، وطلب منه إحضاره إلى السوق وانتظاره لحين عودته من إيداع الحمار الأول فى حظيرة الخان الذى ينزل فيه ، تبعه الغجرى دون أن يشعر به واستطاع سرقة الحمار من الخان ، ولما ابتعد به بادر بنزع الذيل المستعار وتغيير البرذعة والشكيمة ، ثم راتته الجرأة للذهاب به ثانية إلى السوق ومقابلة الفلاح المنتظر ، وافق الأخير على الشراء وطلب من الغجرى اصطحابه إلى الخان لاستلام النقود ، ولما وصل الفلاح إلى الخان واكتشف ضياع حماره الأول ساورته الشكوك فى الغجرى وأبى تسليمه ثمن الصفقة الثانية ، أحضر الغجرى موظفى الضرائب الذين حصلوا منه رسوم بيع الحمار الأول وشهوداً آخرين لم يتوانوا جميعاً فى الحلف على أن الحمار الأول كان بذيل طويل مشعر ومخالف تماماً للحمار الثانى ، أما الشرطى الذى تصادف وجوده بالخان فقد أصدر حكمه - بعد سماع الشهود - لصالح الغجرى ، ومن ثم فقد سدد الفلاح ثمن الحمار مرتين .. لقد سمعت منهم أيضاً حكايات أخرى كثيرة يدور معظمها حول سرقة المواشى التى برعوا فيها وتخرجوا من معاهدها العليا بأرفع التقديرات . ودون داع لقص المزيد منها عليك أقول باختصار إن هؤلاء الغجر من أسوأ خلق الله ، وإنه رغم وجود عدد لا بأس به من القضاة الشرفاء الذين لا يدخرون وسعاً فى التنكيل بهم وإنزال أقسى العقوبات عليهم إلا أنهم لا ينصلحون ولا يرتدعون .

قضيت معهم عشرين يوماً قبل اتخاذهم القرار بالرحيل إلى مرسية ،
مررنا في الطريق إليها بغرناطة حيث وجدنا معسكر الفرقة التي ينتمي
إليها سيدى السابق (الطَّبَّال) ، ولما عرف الغجر ذلك حبسونى فى غرفة
بالخان الذى نزلوا فيه ، لم أشأ مواصلة الرحلة إلى مرسية ، وعلى هذا
فعندما لاحت لى الفرصة خرجت مسرعاً من غرناطة واختبأت فى
بستان موريسكى هَشَ لى ويشَ فلم أصدّه ، إذ بدا لى ساعتها أنه لن يطلب
منى شيئاً غير حراسة البستان ، وهى بالطبع أفضل من حراسة القطعان .

وبما أن التعاقد لم يكن بحاجة إلى اللجاجة والتمادى فى المساومة فسرعان
ما عثر الموريسكى على خادم يأمره ، ووجدت - فى المقابل - سيداً
أطيعه . أمضيت فى كنفه شهراً كاملاً ، لا حباً فى شخصه أو فى نظام
حياته ، بل لإشباع فضولى فى معرفة سلوكياته والاطلاع على خباياه ،
وبالتالى فهم طبيعة الحياة المعزولة التى يحياها الموريسكيون الموجودون
على الأراضى الإسبانية . آه ، يا صديقى ثيبيون ، من الكم الهائل من
المعلومات التى كنت ستسمعها منى لو لم أكن خائفاً من عدم الفراغ منها
قبل أسبوعين ، أو شهرين على أقل تقدير إذا تطرقت إليها بالتفصيل ،
ورغم هذا فالواجب يستدعى ذكر جانب ولو يسير مما شاهدته ولاحظته
فى حياة تلك الطائفة الصالحة المبجلة (٢٠) .

سأعتبرك سعيد الحظ لو صادفت من بينهم واحداً يؤمن إيماناً صادقاً
بالمسيحية الغرّاء . إن شغلهم الشاغل يكمن فى جمع المسكوكات الذهبية
وادخارها ، وهم من أجل ذلك يعملون ولا يأكلون ، وإذا وقع ريال صحيح
فى حوزتهم يحكمون عليه بالسجن المؤبد فى غياهب الظلمات ، وبما أنهم
يكسبون باستمرار ولا ينفقون البتّة فهم يضعون أيديهم على القسط الأعظم
من النقد المتداول فى وطننا . إنهم حصالة إسبانيا وعثتها وعقاعها وبنات

(٢٠) من الخصائص الأسلوبية للربانيس استخدام النعت (مثل : صالح ، طيب ، مبجل ، محترم ... إلخ)
فى غير ما وضع له على سبيل التهكم والسخرية ، إذ يطلق عادة ويراد به المعنى المضاد .. وفى هذا
المقام تجدر الإشارة إلى أن الموريسكيين قد تم طردهم من إسبانيا عام ١٦٠٩ . (المترجم)

عرسها ، وكل شىء فيها يذهب إليهم لكى يتم إخفاؤه وابتلاعه . لو أنعمت النظر فى كثرتهم وكنزهم الدائم لما يكسبون - حتى لو كان ضيلاً - لعرفت أنهم مثل الحمى البطيئة التى تفتك بصحة الأمة ، ولا يقل خطرهما - على الأمد البعيد - عن الطاعون . إن تكاثرهم اللامحدود يعنى الزيادة المطردة فى مخابىء الأموال . لا مكان بينهم للعفة والطهارة ، ولا يدينون - رجالاً ونساءً - بأية ديانة . لا تتوقف عجلة الزواج عندهم ولا التكاثر لأن حياة الكفاف التى يعيشونها تغزى بالتناسل . لا تقنيههم حرب ، ولا يعوقهم عائق ، وهم يسرقوننا فى صمت ، ومن ثمار وخيرات أراضينا التى يبيعونها لنا بغتوتون . لا يتخذون خدماً أو أجراً لاعتمادهم الدائم على سواعدهم ، ولا ينفقون درهماً من أجل تعليم أولادهم لأن الدراسة عندهم تقتصر على التفقه فى كيفية سرقتنا . نحن نعرف أنه قد خرج من أصلاب أبناء يعقوب الاثنى عشر - الذين دخلوا مصر بعد إنقاذهم على يد موسى من السبى - ما يزيد عن ستمائة ألف ذكر ، ومع هذا فلا يمكن مقارنتهم فى هذا المجال بالموريسكيين .

ثيبيون : لابد من البحث عن علاج ناجع لتلك الأضرار التى أشرت إليها إجمالاً : فأنا أعرف أن ما سكت عنه أكثر بكثير مما ذكرته ولم توفق فى عرضه العرض المناسب ، لكن جمهوريتنا لا تخلو من الحراس الغيورين عليها والمهتمين بمصالحها ، ولا شك أنهم لن يسمحوا بأن تظل تلك الأفاعى الموريسكية التى لا حصر لها جائمة على صدر إسبانيا ، ويعون الله سيجدون حلاً سريعاً وحاسماً للخطر الداهم الوشيك ، وعلى هذا فلا تشغل بالك والتفت لاستكمال حكايتك .

بيرجانثا : لما كان سيدى شديد البخل والتقتير - مثل بنى قومه - فقد كان يطعمنى من طعامهم الشائع المتمثل فى العصائد بأنواعها والخبز المصنوع من الدخن ، لكن هذا الشخ كان سبباً فى تحليقى - على النحو الغريب الذى ستسمعه منى الآن - بوادى عبقر والارتقاء إلى عنان السماء . كان الفجر يطلع يومياً فيضبط بنوره الخافت شاباً - يبدو أنه طالب - فى لباس صوفى خشن حائل اللون ، جالساً تحت جذع شجرة من أشجار

الزمان التي يغص بها البستان ، منهمكاً في الكتابة في أحد الدفاتر ، ومن حين لآخر كان يضرب جبهته براحته أو يعض أنامله وهو ناظر إلى صفحة السماء ، وأحياناً أخرى كان يستغرق في التفكير بحيث لا يحرك ساكناً - ولا حتى هدباً - كأن به خبل . اقتربت منه ذات مرة دون أن يشعر بي فسمعت يدمدم من بين أسنانه ، وبعد مضي وقت ليس بالقصير صاح بصوت عالٍ : "المجد لرب الأرباب ! وجدتها ، ستكون هذه أفضل مقطوعة شعرية كتبتها في حياتي" ، وفي أثناء كتابته المتسعة كانت تبدو عليه أمارات السعادة العارمة . فهمت من القرائن السابقة أن البائس هو أحد الشعراء . قمت على الفور بملاطفتي المعتادة لأثبت له وداعتي ثم تمددت تحت قدميه ، ولما اطمأن إلى واصل التفكير ، ثم عاد لهرش رأسه من جديد إلى تهويماته ، وتسجيل ما يخطر بباله .

وبينما نحن في ذلك دخل علينا البستان شاب آخر حسن الهيئة ويرتدي ملابس فاخرة . كانت في يده أوراق ينظر إليها بين الفينة والفينة ، ولما اقترب من المكان الذي يجلس فيه الشاعر سأله : "هل انتهيت من الفصل الأول ؟" . "إنني أضع لمساته الأخيرة - أجاب الشاعر - وسيكون أجمل مما تتصور" . "في ماذا ؟" - سأل الوافد الجديد . "في هذا الفصل - أجاب الشاعر - يظهر قداسة البابا مرتدياً ثوبه الاحتفالي ، ومحاطاً باثني عشر "كاردينالاً" عليهم الحل البنفسجية المناسبة للزمن الذي تجرى فيه أحداث المسرحية ، هذا لأنني قرأت كل ما يتعلق بالاحتفالات الدينية الرومانية ووجدت أن حلل الكاردينالات لم تكن حمراء مثل وقتنا الحالي بل بنفسجية ، ومن ثم فإن ظهورهم في اللون البنفسجي أمر لا غني عنه ، توكيلاً للمصداقية" . "ومن أين لمنتج المسرحية الإتيان بحل من هذا اللون لاثني عشر كاردينالاً ؟" - سأل الشاب الثاني . "لواستغني عن واحد منهم - أجاب الشاعر - ستتهوى أركان المسرحية وسيفسد المشهد العظيم . تخيل من موقعك هنا ماذا ستكون عليه خشبة المسرح حين يظهر قداسة البابا مصحوباً باثني عشر كاردينالاً ، وحولهم جميعاً يلتف المساعدون وبقية الحاشية . سيكون مشهداً

غير مسبوق ، ولن تضاهيه فى الروعة مشاهد مسرحية "باقة زهور داراخا" (٢١) .

من الحوار السابق أدركت أن الشاعر يتحدث مع ممثل مسرحى ، نصحه الأخير بتقليص عدد الكاردينالات حتى لا يصعب الأمر على المنتج فقال له إنه يستحق الشكر على عدم وضعه لمجمع الكرادلة بكامل هيئته فى هذا المشهد لكى يظل عالقاً بذاكرة الجمهور. ضحك الممثل ثم تركه وانصرف لحفظ دوره الجديد فى إحدى المسرحيات. بعد فراغ الشاعر من كتابة بعض القصائد فى مسرحيته العظيمة أخرج من جيبه الطويل - بتؤدة وبطء شديدين - عدة لقيمات من الخبز الجاف وحوالى عشرين حبة زبيب (هذا إن لم أكن أخطأت فى عددها بسبب التصاقها بفئات الخبز) ، ثم نفخ فيها مبعداً الفئات وشرع فى ازديادها - حبة حبة - دون أن يلقى بأية بذرة على الأرض (وهذا يعنى أنه كان يبتلعها بما تحويه من بذور) . كان يتبع حبة الزبيب بعدد من اللقيمات التى احمر لونها وأصبحت كالصدئة من جراء التصاقها ببطانة الجيب ، وعلى ما يبدو فقد كانت كسر الخبز شديدة الصلابة لأنه كان يحاول تطريتها ، مقلباً إياها فى فمه مرات كثيرة ، فتذهب محاولاته أدراج الرياح ولا يستطيع النيل من عنادها وشموسها ، المهم أن إخفاقاته المتكررة اتجهت لصالحى فى النهاية لأنه كان يلقىها إلى قائلاً : " خذ تناول هذا بالهناء والشفاء " . " لقد عشت يابيرجانثا - كنت أقول لنفسى - لتتناول الطعام السماوى الخاص بالآلهة وكبيرهم أبوللو " . لم يقلع الشاعر عن زيارته للبلستان طيلة الوقت الذى أمضاه فى تأليف المسرحية ، ولم تنقطع عنى - بالتالى - كسر خبزها التى كان يتقاسمها معى فى أريحية وسخاء ، وبعد فراغنا من ازديادها كيفما اتفق ، كنا نذهب إلى الساقية حيث نطفئ ظمأنا - هو من القادوس ، وأنا مستلقيًا على بطنى - مثل ملكين

(٢١) "باقة زهور داراخا" : مسرحية مشهورة تتناول موضوعاً موريسكيًا ، وقد ضاعت المسرحية ولم يصل إلينا نصها ، ومن ثم فقد أشار إليها كتاب آخرون (من العصر الذهبى) بعنوانين مختلفة عن العنوان الذى ذكره ثريانتس . (المترجم)

مُتَوَجِّين . ولما انقطعت زياراته للبستان برَّح بى الجوع فقررت ترك الموريسكى إلى غير رجعة والتوجه إلى المدينة للبحث عن مغامرة جديدة، وهى لا تتأتى - كما تعرف - إلا لمن يسعى إليها. دخلت المدينة فشاهدت شاعرى خارجاً من دير "سان خيرونيمو" الشهير ، وما إن رآنى حتى أقبل نحوى فاتحاً ذراعيه فاستقبلته بكثير من الحبور. أتحنفى ببضع لقييمات أكثر ليونة من تلك التى كان يحملها معه إلى البستان ، أسكتت اللقييمات نداء الجوع بداخلى ، واستمتعت بها استمتاعاً خاصاً لأن أسنانه لم تعبث بها قبل ولوجها فمى. استلذت من طراوة اللقييمات ومن خروج شاعرى من الدير المذكور أن موهبته متواضعة مثل كثيرين غيره .

انطلق فى شوارع المدينة ، وأنا فى إثره ، عاقداً العزم على اتخاذه سيداً إن أراد ، لأننى تصورت ساعتها أن بإمكانه سد خلتي من فضالة ما يتلقاه من الآخرين ، إذ لا توجد مخللة أفضل ولا أوسع من مخللة الإحسان التى تستدرّ عطف الأيادى الرحيمة ، وفى هذا يصدق المثل القائل : "المتسول الجواد خير وأبقى من الغنى البخيل" . المهم أننا غرزنا السير ، ومن شارع إلى آخر حتى وصلنا لبית المنتج المسرحى الذى يدعى - حسبما أذكر - "أنجولو أالمالو" ، وهو شخص آخر غير "أنجولو" الممثل الكوميدي البارع الذى طبقت شهرته الآفاق. اجتمعت الفرقة بكامل أعضائها لسماع المسرحية من فم الذى اتخذته سيداً ، لكنه لم يكد يصل إلى منتصف الفصل الأول حتى انفضّ الحاضرون من حوله - فرادى وأزواجاً - ولم يبق لسماعه سوى المنتج وشخصى المتواضع. ومع أننى لا أفقه كثيراً فى الشعر إلا أن ما بلغته المسرحية من سوء جعلنى أجزم بأن الشيطان ذاته هو الذى أوحى بها للشاعر قاصداً إيراده موارد الهلاك ، وخير شاهد على هذا حالته المتردية وبلغه المستمر لريقه حين وجد نفسه وحيداً بلا مستمعين ، ولم تكن مصيبته بالهيئة لأن الممثلين - الذين يزيد عددهم عن اثنى عشر - عادوا جميعاً ، ودون التفوه بكلمة أمسكوا بشاعرى ، ولولا تدخل المنتج بالصياح

والتوسلات لكانوا - على وجه اليقين - قد وضعوه فوق بطانية وأشبعوه أرجحة وطيراناً في الهواء . أصابني الموقف بالذهول ، والمنتج بالغم ، والممثلين بالبهجة ، والشاعر بالحزن العميم ، وفي النهاية تحامل الأخير على نفسه - وإن كان بوجهه أثر اعوجاج - ولملم أوراقه ثم خبأها في صدره وهو يغمغم قائلاً: "ليس من المستحسن تقديم الإقحوانات طعاماً للخنازير" ، انصرف بعد ذلك راضياً . أما أنا ، الغارق في بحر من الحيرة ، فلم أستطع ولم أرد اللحاق به ، وحسناً فعلت لأن ملاطفات المنتج المتكررة أجبرتني على البقاء معه ، وفي أقل من شهر أصبحت ممثلاً كوميدياً قديراً للأدوار الصامتة في المقطوعات المسرحية المسماة Entremeses (٢٢) . أوثقوني بكنار وعلموني كيفية الاقتراب على حشبة المسرح من شخص بعينه ، وبما أن تلك المقطوعات الشعبية تنتهي عادة بمشهد الضرب بالنبابيت ، فقد كانت المقطوعات التي تمثلها فرقة سيدى تنتهى بزجرى وضربى وهرولتى واصطدامى بالديكورات والممثلين ، وعندئذ كانت تتعالى ضحكات الجاهل (المتفرجين) ، وضحكاتهم تعنى زيادة دخل سيدى . آه ، يا ثيبيون ! كم كان بودى أن أسرد على مسامعك جميع ما رأيته في فرقة سيدى المسرحية وفي فرقتين أخريين عملت معهما ، لكن الحديث عنهن متشعب وطويل ولا يمكن اختصاره ، ومن ثم فلا مفر من إرجائه إلى يوم آخر ، هذا إن كان تواصلنا سيتمادى إلى أبعد من هذه الليلة . ألا يثير عجبك طول حديثي ، وتنوع الأحداث التي مررت بها ، وكثرة المخدمين الذين عملت في كنفهم ؟ . إن كان ما تقدم يثير عجبك حقاً فاعلم إذن أن ما قصصته عليك حتى الآن ضئيل جداً بالمقارنة بما يمكن أن أحكيه لك عما شاهدته ولاحظته في معاش هؤلاء الناس وأساليب حياتهم وعاداتهم وأعمالهم وأوقات فراغهم ، هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى

(٢٢) Entremes : مسرحية قصيرة ذات موضوع فكاهي ساخر ، ينتقد فيه المؤلف أحد الأوضاع الاجتماعية السائدة ، ويتم خلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية الطويلة . (المترجم)

تفوق الحصر: بعضها لا يُجهر به، والبعض الآخر يستحق الفضح على الملأ من أجل استخلاص العبر وكشف الأدعياء المزيفين المتشحين بعباءة التقوى والصلاح .

ثيبيون : أرى أن النظرة النقدية التحليلية للمواقف التي مررت بها وللأشخاص الذين عايشتهم لا تتناسب مع خوفنا الحالي من فوات الوقت وتحتاج جلسة خاصة ، هادئة ومطمئنة ، ومن ثم فإن سرد ما تبقى من قصة حياتك هو الأولي بحديثك الآن .

بيرجانثا : اقتناعاً منى بوجهة نظرك أقول إننى قدمت مع إحدى الفرق المسرحية إلى هذه المدينة (بلد الوليد) ، وفى أحد العروض تعرضت لضرب مبرح كاد يفقدنى حياتى ، لم أستطع الانتقام فى حينه للقيد الملتف حول عنقى ، ولما وانتنى الفرصة بعد ذلك تراجعت : هذا لأن الانتقام المبيت المقصود ينم عن القسوة وسوء الطوية . أنهكنى هذا العمل ، لا لصعوبة فيه أو مشقة ، بل لما يحوى من أمور تستوجب التقويم والعقاب فى آن واحد ، ولما كنت أكثرى بنارها ولا أستطيع دفعها فقد عزمت على ألا أراها ، وهكذا انتشحت بوشاح القداسة مثل أولئك الذين يبتعدون عن المعاصى والمنكرات لعجزهم عن افتراقها ، وعندما رأيتك ذات ليلة حاملاً المصباح للمسيحى الصالح "ماهوديس" أكبرتك وأثنت على عملك المقدس الجاد وتمنيت الاقتداء بك ، ومدفوعاً بهذا الوازع المحمود عرضت نفسى على "ماهوديس" فاخترنى لصحبتك وأحضرنى إلى هذه المصحّة ، وما جرى لى فيها ليس بالقليل حتى ليستحق تخصيص بعض الوقت لحكايته ، وأخص بالذكر ما سمعته من أربعة مرضى رماهم الحظ وأفضت بهم الحاجة لدخول هذه المستشفى واحتلال أربعة أسرة متجاورة . وقبل أن أقص عليك ما سمعته منهم أطلب منك المعذرة لأن الحكاية قصيرة وتستعصى على الإطالة .

ثيبيون : عذرك معك ، هاتِ ما عندك لأن ضوء النهار يقترب .

بيرجانتا : على الأسرة الأربعة الموجودة فى نهاية هذا العنبر كان يرقد المرضى
الأربعة : الأول كيميائى ، والثانى شاعر ، والثالث عالم رياضيات ،
والرابع مستشار مالى (٢٣) .

ثيبيون : مازلت أذكر أننى رأيت هؤلاء الرجال .

بيرجانتا : إليك إذن ما سمعته منهم : كنتُ ممتدداً فى قيلولة يوم من أيام الصيف
الماضى تحت سرير أحدهم عندما أخذ الشاعر ينحى باللائمة على حظه
العائر ، سأله عالم الرياضيات عن سبب شكواه فأجاب قائلاً : " ولم لا
أشكو ، وقد نفذت بالحرف الواحد تعليمات " بويطيقا " هوراثيو التى تقضى
بضرورة مرور عشر سنوات على تأليف العمل المسرحى قبل عرضه على
الجمهور ! وإيضاح ما تقدم أقول إننى أفنيت عشرين سنة من عمرى فى
تأليف عمل مسرحى ضخم ، به كثير من الابتكارات ، وتنسم أبياته
بالرصانة والوقار وجزالة الألفاظ ، كما يمتاز بحسن التقسيم لأن بدايته
تتفق مع وسطه ونهايته ، إنه باختصار ملحمة شعرية منقطعة النظير ،
ومع هذا فلم أعثر حتى الآن على منتج يحمله إلى خشبة المسرح رغم
مرور اثنتى عشرة سنة على تأليفه . إن ضخامة العمل وأهميته يتطلبان
منتجاً جريئاً وسخياً ، ذكياً ورحب الأفق . يالتعاسة عصرنا وشقوته ! " .
" وما هو موضوع العمل ؟ " - سأل الكيميائى . " إنه يتناول - أجاب
الشاعر - ما نسى أن يذكره أسقف "توربين" عن آرثر ، ملك انجلترا ،
كما أن به ملحفاً يشتمل على قصة الالتماس الذى تقدم به القديس
" بريال " ، وقد جاء كل هذا فى شعر ملحمى رصين ، بعضه عبارة عن
مقطوعات ثمانية الأبيات ، والبعض الآخر عبارة عن شعر مرسل خالٍ
من الأفعال ويعتمد اعتماداً كلياً على الأسماء " . " أنا فى الشعر قصير
الباع - تحدث الكيميائى - ولا أستطيع بالتالى تقدير حجم المصيبة التى
تشكو منها ، وإن كنت أظن أنها مهما بلغت من جسامه لن تضارع بأى
حال أبعاد نكبتى : فانا لا أنصح الآن ذهباً ولا فضة بسبب النقص الفادح

(٢٣) الكلمة الموجودة فى النص الأصلي (الإسباني) هى arbitrista ، وتُطلق على كل من يضع خططاً
غير واقعية لحل المشاكل المالية أو غيرها . (المترجم)

فى الأجهزة والمعدات ، ولخلو الساحة من ممول أوراى ىمد لى ىده بلوازم الكىمىاء" . "هل لىك الخبرة ىأسعاعه الكىمىائى - سأل عالم الرىاضىات - فى استخلاص الفضة من المعادن الأخرى ؟" . "لم أقم حتى الآن بهذه التجربة - أجاب الكىمىائى -، لكنى أعرف أنها تستخلص بالفعل ، أمامى أقل من شهرىن للانتهااء من المعاعلة التى ستؤدى إلى استخلاص الذهب والفضة من الحجارة ذاتها" .

"لاشك أنكما تبالغان فى تصوىر أبعاد محنتىكما - أأأ فى عنأنا عالم الرىاضىات - لأنكما فى نهائة المطاف لم نخسرا الكثرى ، هناك مسرحة بىأ أأكمما ومازال ىراوده الأمل فى عرضها ، والآ فى طرىقه - عاجلاً أو آجلاً - لصىاغة معادلته المبتغاة ، لكن ما قولكما فى مصىبى التى لىس لها شبىه ؟ وتفردها نابع من افتقارها إلى سنا ماأى تركن إلىه : لقا أمضىت اثناىن وعشرىن عاماً فى مطاردة "النقطة الراسخة" وكأنها سراب بقىعة ، أىن ىبأولى أننى ظفرت بها ، وأنها لن تفلت من ىأى بأى حال أكتشف فجأة أنها أاأ بعىة . الشىء نفسه أأأ لى مع "أربىع الأائرة" ، كلما ظننت أنه أصبح فى أىبى ىأضح أن بونا شاسعاً ما زال ىفصل بىنى وىینه . إننى فى عذابى هذا مثل "أانأالو" (٢٤) : ىموت أوعاً ، وهو فى أنة فىأاء أانىة الثمار ، وىأأرق عطشاً وفمه ىلامس الماء الزلال . ىأىل إلى اللحظات أننى أصبأ كبأ الأقىقة ، وبعأ هنىهة أكتشف أنها ما زالت بعىة المنال ، وهكذا أعوا لتسلق الأبل الذى هبطأ من علیه منذ لأىل واطام أهىأى أائماً على ظهرى وكأننى "سىسفىو" (٢٥) أأىأ" .

(٢٤) قام أانأالو Tantalos - طبقاً للأساطىر الیونانىة - بأأأاب العأىأ من الأرائم ، وقأ عاقبته الآلهة بوضعه فى أأىرة ىصل ماأها إلى عنقه ، كما أنبأأ آوله أشجاراً ملآة بالثمار المأألىة فوق رأسه ، ورم هذا فقد كان مأروماً من الماء والطعام لأنه كلما أاأل الشرب ابألعت الأرض الماء ، وكلما أاأل قطف ثمرة من الثمار أبعدأها الرىاح فجأة . (المترأم)

(٢٥) عاقبأ الآلهة - طبقاً للأسطورة - سىسفىو Sísifo بعذاب سرمأى فى الأأىم ىأمل فى أمل صخرة أقىلة إلى قمة أبل ، وكلما رفعها إلىه سقطأ فىعود لرفعها من أأىأ ، وهكذا أوالىك إلى ما لا نهائة . (المترأم)

كان المستشار المالى صامتاً حتى تلك اللحظة ، لكنه ما لبث أن انفجر قائلاً : "مرحى ، مرحى ، أربعة شكّائين جديرين بندب حظ السلطان التركى جمعهم الأقدار فى هذا المستشفى البائس ، ويادئ ذى بدء أقول إننى ضد المهن والأعمال الخالية من التسلية والمتعة ولا توفر حاجة أصحابها من الطعام والشراب. أنا ، أيها السادة ، مستشار مالى وإدارى ، وقد قدمت لصاحب الجلالة - على فترات غير متباعدة - العديد من الاستشارات الفنية النافعة التى تصب جميعها فى مصلحة الوطن ، وتحت يدى الآن دراسة قيمة لا أجد من أتوجه إليه بها لفك رهونه وإصلاح شلونه ، ولذا أعتقد أن مصيرها لن يختلف عن مصير أخواتها السابقات : أى الاستقرار فى حانوت قصاب ليغلف بها بضاعته. وحتى لا تنهمنى بالجمعجة الفارغة سأكشف لكم - مضطراً - عن مضمون هذه الدراسة التى تعتبر سرية حتى الآن ، وأقول بإيجاز إنها تتمثل فيما يلى :

يفرض- بموجب مرسوم ملكى - على رعايا صاحب الجلالة الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين الصوم يوماً واحداً فى الشهر ولمدة عشرين عاماً. وفى ذلك اليوم يمتنع الصائم عن اللحوم والأسماك والبيض والنبيد والفاكهة والبقوليات - إلى آخر قائمة الطعام المعروفة - ولا يتناول سوى الخبز والماء ، ويتم تحويل قيمة ما أُلْقَ عنه الصائم إلى نقود سائلة غير قابلة للحجز أو الرهن ، ثم تسلم كاملة غير منقوصة - بالحيولة بينها وبين عبث محصلى الضرائب - لخزينة صاحب الجلالة. ومن خلال عملية حسابية بسيطة يتضح أن إسبانيا تضم - دون عد المرضى والعجائز والصبية - ما يزيد عن ثلاثة ملايين نسمة فى تلك المرحلة السنّية ، وأن متوسط الإنفاق اليومي لكل فرد من هؤلاء لا يقل بأى حال - حتى لو كان يأكل من خشاش الأرض - عن ريال ونصف ، وحتى لو اعتبرناه ريالاً واحداً ، أُلْسِمَ معى فى أن ثلاثة ملايين شهرية أكثر من كافية لسدّ أوجه الخلل العديدة ؟ ! وبالطبع فإن الصائمين لن يكونوا ملزمين بصوم يوم معين بل ستترك لكل واحد حرية اختيار اليوم الذى يناسبه ، وما من شك فى أن منافع الصيام هنا أوضح من مضاره

لأن ما نتحدث عنه يحقق هدفين في وقتٍ واحدٍ : طاعة الرب وخدمة الملك .

ولضمان التطبيق النزيه لهذه الدراسة النقيّة الخالية من الشوائب أرى ضرورة تكليف الأبرشيات والكنائس بتنفيذها دون تدخل من الوكلاء المفسدين لجمهوريتنا والمكلفين بالإشراف على براءة الإعفاء من الصيام . ضحك الثلاثة من الدراسة والذّارس ، بينما ضحك هو من حماقتهم ، أما أنا فقد اعترتني الدهشة لما سمعت ، وتملكني العجب من لجوء معظم أصحاب الدعابة والعقول النيرة إلى المستشفيات الفقيرة كي يقضوا نحبهم فيها .

ثيبيون : معك حق يا بيرجانثا ، والآن انظر فيما إذا كان لديك شيء تريد إضافته .
بيرجانثا : لم يبق سوى أمرين أود أن أختم بهما حديثي لأن ضوء النهار يقترب . في جولة من الجولات التي يقوم بها "ماهوديس" لجمع التبرعات ، سافقنا أقدامنا ذات ليلة إلى بيت الأمور القضائي لمدينتنا هذه ، وهو - كما تعرف - رجل عظيم ومسيحي ورع ، حين وجدناه بمفرده بدا لي أن الفرصة سانحة لأخبره بالنصائح التي سمعتها من أحد النزلاء المسنين في مشفانا بشأن التصدي لظاهرة الفتيات المتشردات اللاتي تتمادين - نتيجة للبطالة وقلة الطلب على الخادومات - في الفسق والفجور ، وأصبحن يمثلن السبب الرئيسي في اكتظاظ المستشفيات كل صيف بطالبي المتعة الحرام ، إنهن مثل الآفات التي لا يمكن السكوت عليها ، وتتطلب العلاج الناجع السريع . ولما رفعت صوتي - ظناً مني بقدرتي على الكلام - لكي أحدثه بهذا كله وجدتني أنبج نباحاً عالياً بدلاً من الكلمات ، وعندئذ اشتاط الأمور غضباً ونادى على غلمانه أمراً بإياهم بطردى من الصالة ضرباً بالهراوات ، لبي أحدهم النداء - وليته كان أصم ولم يسمع - وأمسك بسحاحة نحاسية وجدها في متناول يده ثم طفق يعنف بها ضلوعى التي مازالت تحتفظ بالآثار المقدسة لتلك الضربات .

ثيبيون : هل توجعت من هذا يا بيرجانثا ؟

بيرجانثا : كيف لا أتوجع والآلام لم تنفك عني حتى الآن ، وكيف لا أضج بالشكوى
ونيتي الحسنة لم تكن تستحق هذا العقاب ؟ !

ثيبيون : اسمع يا بيرجانثا ، لا يحق للمرء التدخل بأى حال فيما لا يعنيه أو إقحام
نفسه فى شأن من شئون الغير . ومن جهة أخرى يجب أن تعلم أن
نصيحة الفقير لا تحظى مطلقاً بالقبول مهما كانت سديدة ، وأن على
الفقير المتواضع ألا يكابر بتقديم المشورة لعلية القوم أو لمن يتوهمون
تمتعهم بنفاذ البصيرة . الحكمة لدى الفقير تكتنفها العتمة وتغشاها الظلال ،
أى أنها محجوبة بالتعاسة ورقة الحال ، وإذا اكتشفت على سبيل المصادفة
ينعنونها بالحمافة ولا يعيرونها التفاتاً .

بيرجانثا : صدقت يا ثيبيون ، ومن الآن فصاعداً سأعمل جاهداً على اقتفاء أثرك
واتباع نصحك ، وعودة منى إلى استكمال بقية حديثي أقول إننى دخلت
ليلة أخرى بيت سيدة أرستقراطية وكانت بين يديها قطيطة من اللواتى
يطلقون عليهن فضالة الثوب ، كانت القطة متناهية الصغر بحيث يمكن
لصاحبتها إخفاؤها - دون عناء - فى صدرها ، حين رأتنى قفزت من
على ذراعى السيدة واقتربت منى مزمجرة ، ولم يهدأ لها بال حتى
انقضت بخفة على ساقى وطبعت عليها آثار أسنانها ، رمقتها فى غيظ
واحترام وقلت لنفسى : " لو قابلتك فى الشارع ، أيها الحيوان النافه اللعين ،
فلن يكون هناك سوى احتمالين لا ثالث لهما : إما أن أمزقك إرباً بين
أسنانى أو لا أعيرك أدنى اهتمام " . ومن هذه الحادثة خرجت بنتيجة
مفادها : عادة ما يتشج الجبناء قليلو الحيلة - حال تمتعهم بالحماية -
برداء الجسارة والوقاحة ، ولا يتورعون عندئذ عن إهانة من يفوقونهم
قيمة وشجاعة .

ثيبيون : وخير شاهد على ما تقول ما نراه من سفالة وتناول الأقدام المستترين
بدروع ساداتهم ومخدوميهم ، وما إن يجتز الموت أو الريح العاصف
للشجرة التى يستظلون بها حتى تنكشف سوءاتهم ، هذا لأنهم لا يتمتعون
بأية مقومات غير تلك المستمدة من رعاتهم وحماتهم . الفضيلة ورجحان

العقل وجهان لعملة واحدة : عارية كانت أو مكسوة ، وحيدة أو فى جيش عرمرم . قد يختلف الناس مع شخص نفيس المعدن ويتسببون بذلك فى معاناته ، لكنهم لا يستطيعون فى النهاية إنكار قيمته وقدره ... وبهذا نختم حوارنا الذى طال لأن شذرات الضوء المتسللة من فجوات الحجرة تنبئ باستواء عود النهار ، وإذا لم تسلب منا نعمة الكلام العظيمة فموعدنا الليلة القادمة لأسرد لك قصة حياتى وما جرى لى من أهوال .

بيرجانثا : اتفقنا ، وستجدنى منتظراً فى هذا المكان .

استيقظ الملازم فور انتهاء المحامى من قراءة الحوار السابق ، وعندئذ قال له الأخير :

- رغم أن هذا الحوار مُختلق ولم يحدث على أرض الواقع إلا إنه بديع التكوين ، ومن ثم فعلى السيد الملازم إتخافنا بِقِسْمه الثانى .

- لاشك أن هذا الإطراء من جانبك - رد الملازم - سيدفعنى دفعاً لكتابة الجزء الثانى من الحوار دونما حاجة لمزيد من النقاش حول إمكانية حديث الكلبين من عدمها .

- سيدى الملازم ، لا داعى لإثارة الجدل ثانية حول هذا الموضوع ، يكفى أنه أمتعننى وهددنى وبث إلى شفرائه . والآن هيا بنا إلى ميدان "إسبولون" (٢٦) لإمتاع عيني الجسد بعد أن شرفت بالمتعة عينا الفؤاد .

- هيا بنا - رد عليه الملازم .

قالا هذا ثم انطلقا سوياً صوب الميدان المذكور آنفاً ...

(النهاية)

(٢٦) فى عصر المؤلف كان هذا الميدان يقع فى فضاء شاسع على مقربة من "سان لورينزو" ، ومن على مقاعده الإرخامية يطل الجالس على مشاهد خلابة : بساتين ، نافورات ، أديرة ، غوطات مكتظة بأشجار الحر إلخ . (المترجم)

المؤلف فى سطور :

- هو الكاتب الإسبانى الأشهر : ميغيل دى ثريانتس سابدرا ، المولود عام ١٥٤٧ فى قلعة هنارس، والمتوفى عام ١٦١٦ م .
- إبداع ثريانتس موزع على الأجناس الأدبية المعروفة فى عصره : القصة والمسرح والشعر ، لكن شهرته العالمية كقصّاص طغت على الجانبين الآخرين .
- من أهم مؤلفاته القصصية : دون كيخوته ، وقصص مثالية ، ولاجالاتيا ، وبيرسيليس ، وسيخيسمونها . ومن أهم مسرحياته : معاهدة الجزائر ، ورحلة إلى نومانثيا ، وتاجر الأعراض المحفوظ ، وقاضى الطلاق ، ولوحة المعجزات ، وكهف شلمنقة ، ... إلخ . ويعتبر ديوانه «رحلة إلى البرناس» أهم مؤلفاته الشعرية .
- أعمال ثريانتس مترجمة إلى كل لغات العالم تقريباً ، ومكانته فى الأدب الإسبانى مثل مكانة شكسبير فى الأدب الإنجليزى ؛ وهو واحد من أفضل المبدعين على مرّ الأزمان والعصور .

المترجم فى سطور :

- على عبد الرؤوف على البمبى (أستاذ فقه اللغة الإسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر) .
- حصل فى ١٩٧٠/٦٩ على الثانوية الأزهرية ، وكان ضمن العشرة الأوائل على جمهورية مصر العربية فى الدفعة المزدوجة لذلك العام .
- حصل فى ١٩٧٤ على الإجازة العالية (الليسانس) من كلية اللغات والترجمة (قسم اللغة الإسبانية) بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف ، وكان ترتيبه الأول على الدفعة .
- حصل فى يناير ١٩٨٧ على الدكتوراه فى فقه اللغة الإسبانية وآدابها من جامعة SALAMANCA (إسبانيا) .
- ترقى إلى درجة أستاذ مساعد عام ١٩٩٣ ، وإلى درجة أستاذ عام ١٩٩٩ م .
- له العديد من الأبحاث (باللغة الإسبانية والعربية) والمؤلفات العلمية والترجمات المنشورة فى مصر وبلدان عربية أخرى .
- شارك فى العديد من المؤتمرات ، وناقش الكثير من الرسائل الجامعية ، وهو مُحَكِّم فى اللجنة العلمية الدائمة المنوطة بترقية أعضاء هيئة تدريس اللغة الإسبانية وآدابها .

المشروع القومي للترجمة

أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا	١-
أحمد فؤاد بلبع	ك. مادمو بانيكار	الوثنية والإسلام (ط١)	٢-
شوقي جلال	جورج جيمس	التراث المسروق	٣-
أحمد الحضري	انجا كاريتكوفا	كيف تتم كتابة السيناريو	٤-
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا في غيبوبة	٥-
سعد مصلوح ووفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللساني	٦-
يوسف الأنطكي	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة	٧-
مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق	٨-
محمود محمد عاشور	أندرو. س. جودي	التغيرات البيئية	٩-
محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي	جيرار چينيت	خطاب الحكاية	١٠-
هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	مختارات	١١-
أحمد محمود	ديفيد براونستون وايرين فرانك	طريق الحرير	١٢-
عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	ديانة الساميين	١٣-
حسن المودن	جان بيلمان نويل	التحليل النفسي للأدب	١٤-
أشرف رفيق عفيفي	إدوارد لويس سميث	الحركات الفنية	١٥-
بإشراف: أحمد عثمان	مارتن برنال	أثنية السوداء (ج١)	١٦-
محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	مختارات	١٧-
طلعت شاهين	مختارات	الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	١٨-
نعيم عطية	جورج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة	١٩-
يمنى طريف الخولي وبدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم	٢٠-
ماجدة العناني	صمد بهرنجي	خوخة وألف خوخة	٢١-
سيد أحمد علي الناصري	جون أنتيس	مذكرات رحالة عن المصريين	٢٢-
سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلي الجميل	٢٣-
بكر عباس	باتريك بارندر	ظلال المستقبل	٢٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	مثنوى	٢٥-
أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	دين مصر العام	٢٦-
نخبة	مقالات	التنوع البشري الخلاق	٢٧-
منى أبو سنة	جون لوك	رسالة في التسامح	٢٨-
بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود	٢٩-
أحمد فؤاد بلبع	ك. مادمو بانيكار	الوثنية والإسلام (ط٢)	٣٠-
عبد الستار الطلوجي وعبد الوهاب علوب	جان سوقاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روس	الانقراض	٣٢-
أحمد فؤاد بلبع	أ. ج. هويكنز	التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	٣٣-
حصه إبراهيم المنيف	روجر آلن	الرواية العربية	٣٤-
خليل كلنت	بول . ب . ديكسون	الأسطورة والحدائق	٣٥-
حياة جاسم محمد	والاس مارتن	نظريات السرد الحديثة	٣٦-

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	واحة سيوة وموسيقاها	٢٧-
أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحداثة	٣٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الإغريق والحسد	٣٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين بارير	عالم ماك	٤٢-
المهدي أخريف	أوكتافير پاث	اللهب المزدوج	٤٣-
مارلين تادرس	ألدوس هكسلي	بعد عدة أصناف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	التراث المغفور	٤٥-
محمود السيد على	يابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جويجاتي	فرانسوا دوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام في البلقان	٤٩-
محمد يرادة وعشاني الليلود ويوسف الأشملي	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا وخ . م بينيا ليستي	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	٥١-
لطفي فطيم وعادل دمرداش	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	العلاج النفسي التديمي	٥٢-
مرسي سعد الدين	أ . ف . ألتجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحي	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقي للمسرح	٥٤-
علي يوسف على	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكي	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطي	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيث	الحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبري محمد عبد الفتى	جوهانز إيتن	التصميم والشكل	٦٠-
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعي .	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض .	آلان وود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض .	برتراند راسل	في مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدي أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات	٦٧-
أشرف الصباغ	فالنتين راسيوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي	عبد الرشيد إبراهيم	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرمي	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	السياسي العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	چين . ب . توميكنز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومي	ل . ا . سيمينوفا	صلاح الدين والمماليك في مصر	٧٤-

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد رويرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسينسكى	سعيد الغامى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بنديكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شبيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنطونى جيندز	أحمد زايد ومحمد محبى الدين
٩٠-	رسم السيف	ميجل دى ثرياتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجرب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانيامركى المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إيوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار قاليط	رشيد بنحو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه أيا	عبد الوهاب المؤذب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتول بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعور
١٠٧-	صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	رول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ليس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	بإشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نورية
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندز فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس يقطر
١٣٢-	ثقافة العولة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريع حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كوتو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيغال	ريشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمري
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروت	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرؤف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد دورست	عبدالغفار مكوى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إميرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراغة	فيولين فاتويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنيال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الإيديولوجية	ديفيد هوكنس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالطيم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوجنا الأسويى	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع	جورن مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتنبيين والطمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق	ميفيل دلبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	الغنف والنوبة	وب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة... حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة	بُرْج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	الفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة	بول دي مان	سعيد الفانمي
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام وأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازي السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوي
١٩٣-	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨-	الاتصال الجماهيري	ادوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة المشاتي	يعقوب لاندواي	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا روس	أحمد الأنصاري
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زلمان شازار	أحمد محمود هويدي
٢٠٥-	الجيئات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولوية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧-	ليل أفريقي	رامون خوتاسنديز	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سناني	سناني الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فريدنان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد الغني
٢١٢-	قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤-	قواعد جنيدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جينز	محمد محمود محي الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوي
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طبيعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوي
٢١٨-	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	علي إبراهيم منوفي
٢١٩-	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولوية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادي
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق	جابريل جارشيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	طاهر محمد علي البريرى

السيد عبدالظاهر عبدالله	موسى مارديا ديف بوركى	المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	٢٢٧-
مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	جانيت وولف	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمرى	نورمان كيچان	مأزق البطل الوحيد	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمى	فرانسواز جاكوب	عن الذئب والفقران والبشر	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	خايمى سالوم بيدال	الدرافيل	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمى	توم ستينر	ما بعد المعلومات	٢٣٢-
طلعت الشايب	أرثر هومان	فكرة الاضمحلال	٢٣٣-
فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمينجهام	الإسلام فى السودان	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومى	ديوان شمس تيريزى (ج١)	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل تود	الولاية	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	روين فيرين	مصر أرض الوادى	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربى مديولى أحمد	الانكتاد	العولة والتحرير	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلرافر - رايوخ	العربى فى الأدب الإسرائيلى	٢٣٩-
صلاح عبدالعزيز محبوب	كامي حافظ	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	٢٤٠-
ايتسام عبدالله سعيد	ج. م كويتز	فى انتظار البرابرة	٢٤١-
صبرى محمد حسن عبدالنبي	وليام إميسون	سبعة أنماط من الغموض	٢٤٢-
على عبدالرؤف البمبى	ليفى بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لاورا إسكيبيل	الغليان	٢٤٤-
توفيق على منصور	إليزابيتا أديس	نساء مقاتلات	٢٤٥-
على إبراهيم منوفى	جابريل جارتيا ماركث	مختارات قصصية	٢٤٦-
محمد طارق الشرقاوى	والتر إرمبريست	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالعليم	أنطونيو جالا	حقول عدن الخضراء	٢٤٨-
رفعت سلام	دراجو شتامبيوك	لغة التمزق	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	دومنيك فينيك	علم اجتماع العلوم	٢٥٠-
بإشراف: محمد الجوهري	جوردين مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٥١-
على بدران	مارجو بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	٢٥٢-
حسن بيومى	ل. أ. سيمينوفا	تاريخ مصر الفاطمية	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروفز	الفلسفة	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروفز	أفلاطون	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وكريس جرات	ديكارت	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلى رايت	تاريخ الفلسفة الحديثة	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزر	الفجر	٢٥٨-
فاروجان كانانجيان	اقلام مختلفة	مختارات من الشعر الأرمي عبر العصور	٢٥٩-
بإشراف: محمد الجوهري	جوردين مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكى نجيب محمود	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إدوارد منوثا	مدينة المعجزات	٢٦٢-
على يوسف على	چون جرين	الكشف عن حافة الزمن	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشلى	إبداعات شعرية مترجمة	٢٦٤-

أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	روايات مترجمة	٢٦٥-
جلال آل أحمد	مدير المدرسة	٢٦٦-
ميلان كونديرا	فن الرواية	٢٦٧-
مولانا جلال الدين الرومي	ديوان شمس تبریزی (ج٢)	٢٦٨-
وليم جيفور بالجريف	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	٢٦٩-
وليم جيفور بالجريف	وسط الجزير العربية وشرقها (ج٢)	٢٧٠-
توماس سى. باترسون	الحضارة الغربية	٢٧١-
س. س. والترز	الأديرة الأثرية فى مصر	٢٧٢-
جوان آر. لوك	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	٢٧٣-
رومولو جلاجوس	السيدة باربارا	٢٧٤-
أقلام مختلفة	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	٢٧٥-
فرانك جوتيران	فنون السينما	٢٧٦-
بريان فورد	الجيئات: الصراع من أجل الحياة	٢٧٧-
إسحق عظيموف	البدایات	٢٧٨-
ف.س. سوندرز	الحرب الباردة الثقافية	٢٧٩-
بريم شند وآخرون	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	٢٨٠-
مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	الفردوس الأعلى	٢٨١-
لويس ولبيرت	طبيعة العلم غير الطبيعية	٢٨٢-
خوان رولفو	السهل يحترق	٢٨٣-
يوريبیدس	هرقل مجنوناً	٢٨٤-
حسن نظامى	رحلة الخواجة حسن نظامى	٢٨٥-
زين العابدين المراغى	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	٢٨٦-
انتونى كنچ	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	٢٨٧-
ديفيد لودج	الفن الروائى	٢٨٨-
أبو نجم أحمد بن قوص	ديوان منجوهري الدامغانى	٢٨٩-
جورج مونان	علم اللغة والترجمة	٢٩٠-
فرانشيسكو رويس رامون	المسرح الإسباني فى القرن العشرين (ج١)	٢٩١-
فرانشيسكو رويس رامون	المسرح الإسباني فى القرن العشرين (ج٢)	٢٩٢-
روجر ألن	مقدمة للأدب العربى	٢٩٣-
بوالو	فن الشعر	٢٩٤-
جوزيف كامبل	سلطان الأسطورة	٢٩٥-
وليم شكسبير	مكبت	٢٩٦-
ديونيسيوس ثراكس ويوسف الآه وانى	فن النحو بين اليونانية والسريانية	٢٩٧-
أبو بكر تفاعيليوه	مأساة العبيد	٢٩٨-
جين ل. ماركس	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	٢٩٩-
لويس عوض	أسطورة برومبوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج١)	٣٠٠-
لويس عوض	أسطورة برومبوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج٢)	٣٠١-
جون هيتون وجودى جروفز	فنجنشتين	٣٠٢-
لويس عوض		
عادل عبد المنعم سويلم		
بدر الدين عرودىكى		
إبراهيم الدسوقي شتا		
صبرى محمد حسن		
صبرى محمد حسن		
شوقى جلال		
إبراهيم سلامة		
عنان الشهاوى		
محمود على مكى		
ماهر شفيق فريد		
عبد القادر التلمسانى		
أحمد فوزى		
ظريف عبدالله		
طلعت الشايب		
سمير عبد الحميد		
جلال الحفناوى		
سمير حنا صادق		
على اليمبى		
أحمد عثمان		
سمير عبد الحميد		
محمود سلامة علاوى		
محمد يحيى وآخرون		
ماهر البطوطى		
محمد نور الدين عبد المنعم		
أحمد زكريا إبراهيم		
السيد عبد الظاهر		
السيد عبد الظاهر		
نخبة من المترجمين		
رجاء ياقوت صالح		
بدر الدين حب الله الديب		
محمد مصطفى بدوى		
ماجدة محمد أنور		
مصطفى حجازى السيد		
هاشم أحمد فؤاد		
جمال الجزيرى وبهاء جامين وإيزابيل كمال		
جمال الجزيرى و محمد الجندى		
إمام عبد الفتاح إمام		

٢٠٢- بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤- ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥- الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧- الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٢٠٨- علم الوراثة	ستيف جونز	ممنوح عبد المنعم أحمد
٢٠٩- الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	جمال الجزيرى
٢١٠- يونج	ناجى هيد	محبى الدين محمد حسن
٢١١- مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٢١٢- روح الشعب الأسود	وليم دى بويرز	أسعد حليم
٢١٣- أمثال فلسطينية	خايبير بيان	عبدالله الجعدي
٢١٤- الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٢١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٢١٦- محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧- بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨- الادب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٢١٩- صور دريدا	جايتير ياسبيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠- لعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، ج١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٢٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	خالد مقلح حمزة
٢٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٢٢٤- اللعب بالتار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٢٢٥- عالم الآثار	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦- المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧- مختارات شعرية مترجمة (ج١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨- يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٢٢٩- رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٢٣١- عندما جاء السرددين	ستيفن جراى	سامية دياب
٢٣٢- القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣- الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر س كلارك	مصطفى فهمى
٢٣٥- عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحي العشرى
٢٣٦- متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٢٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨- نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٢٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيريبولوجو	فخرى لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمي
٢٤٢-	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٢٤٧-	الصبية الطانشون	جان كوكتر	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٢٥١-	ميادئ المنطق	جوزايا روس	أحمد الانصاري
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٢٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٢٥٥-	التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧-	متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩-	محاورات بارمنديس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركا	ليلى الشربيني
٢٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٢٦٢-	تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤-	حدائق شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سام باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئب	كلاريسا بئكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجرىء	نخبة	البراق عبدالهادى رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كلير لا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤-	اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	ملك في الحديقة	٢٧٩-
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	حديث عن الخسارة	٢٨٠-
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	أساسيات اللغة	٢٨١-
أحمد محمد نادی	بهاء الدين محمد إسفنديار	تاريخ طبرستان	٢٨٢-
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	هدية الحجاز	٢٨٣-
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	القصص التي يحكيها الأطفال	٢٨٤-
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	مشتري العشق	٢٨٥-
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي	٢٨٦-
بهاء جاهين	چون دن	أغنيات وسوناتات	٢٨٧-
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	مواعظ سعدى الشيرازي	٢٨٨-
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	من الأدب الباكستاني المعاصر	٢٨٩-
عثمان مصطفى عثمان	نخبة	الأرشيفات والمدن الكبرى	٢٩٠-
منى الدروبي	مايف بينشى	الحافلة الليكيتية	٢٩١-
عبداللطيف عبدالحميد	نخبة	مقامات ورسائل أندلسية	٢٩٢-
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	في قلب الشرق	٢٩٣-
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	القوى الأربع الأساسية في الكون	٢٩٤-
سليم حمدان	إسماعيل فصيح	آلام سياوش	٢٩٥-
محمود سلامة علاوى	تقى نجارى راد	السافاك	٢٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين	نيتشه	٢٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى	سارتر	٢٩٨-
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتس	كامى	٢٩٩-
باهر الجوهري	مشتياثيل إنده	مومو	٤٠٠-
ممدوح عبد المنعم	زيادون ساردر	الرياضيات	٤٠١-
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك ايفوى	هوكنج	٤٠٢-
عماد حسن بكر	تودور شتورم	ربة المطر والملابس تصنع الناس	٤٠٣-
ظبية خميس	ديفيد إبرام	تعويذة الحسى	٤٠٤-
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	إيزابيل	٤٠٥-
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	المستعربون الإسبان في القرن ١٩	٤٠٦-
طلعت شاهين	أقلام مختلفة	الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	٤٠٧-
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	معجم تاريخ مصر	٤٠٨-
إلهامى عمارة	برتراند راسل	انتصار السعادة	٤٠٩-
الزواوى بغورة	كارل بوير	خلاصة القرن	٤١٠-
أحمد مستجير	جينيغر أكرمان	همس من الماضي	٤١١-
نخبة	ليفى بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)	٤١٢-
محمد البخارى	ناظم حكمت	أغنيات المنفى	٤١٣-
أمل الصبان	باسكال كازانوف	الجمهورية العالمية للأدب	٤١٤-
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورنيمات	صورة كوكب	٤١٥-
مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	٤١٦-

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جده)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مايو	نسليم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	نخبة	عبد الله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود سلامة علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ثرثيا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كليموه كى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزودان جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكياثلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل قلنت	حمدي الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وچودن بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق	شيلبي النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيررس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستينغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاورى سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز نائل خانبرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ممدوح عبد المنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبد المنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبيرون ويون فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محبي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولار أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريסקيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكان	داريان لينر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود
٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصرص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كىخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كىخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسي	مارلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أنشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	عبادة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالطيم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسُرُل: الفلسفة علماً دقيقاً	هُسُرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب غلوب
٤٩١-	نصرص قصصية من روائع الأدب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت عواد

خطابات إلى طالب الصوتيات	٤٩٢-	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	٤٩٤-	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
اللوى	٤٩٥-	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج١)	٤٩٦-	إكوانو بانولى	نخبة
العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	٤٩٧-	نادية العلى	مصطفى رياض
النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	٤٩٨-	جوديث تاكر ومارجريت مريود	أحمد على بدوى
تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	٤٩٩-	نخبة	فيصل بن خضراء
فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية البرية)	٥٠٠-	تيتز روىكى	طلعت الشايب
تاريخ النساء فى الغرب (ج١)	٥٠١-	آرثر جول هامر	سحر فراج
أصوات بديلة	٥٠٢-	هدى الصدة	هالة كمال
مختارات من الشعر الفارسى الحديث	٥٠٣-	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
كتابات أساسية (ج١)	٥٠٤-	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
كتابات أساسية (ج٢)	٥٠٥-	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
ربما كان قديساً	٥٠٦-	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
سيدة الماضى الجميل	٥٠٧-	بيتر شيفر	شوقى فهمى
المولوية بعد جلال الدين الرومى	٥٠٨-	عبدالباقى جلبانلى	عبدالله أحمد إبراهيم
الفقر والإحسان فى عهد سلطين المالك	٥٠٩-	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
الأرملة الماكرة	٥١٠-	كارلو جولونى	عبدالرازق عيد
كوكب مرقع	٥١١-	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
كتابة النقد السينمائى	٥١٢-	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
العلم الجسور	٥١٣-	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
مدخل إلى النظرية الأدبية	٥١٤-	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
من التقليد إلى ما بعد الحداثة	٥١٥-	فدوى مالتى دوجلاس	فدوى مالتى دوجلاس
إرادة الإنسان فى شفاء الإيمان	٥١٦-	أرنولد واشنطن وودونا باوندو	صبرى محمد حسن
نقش على الماء وقصص أخرى	٥١٧-	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
استكشاف الأرض والكون	٥١٨-	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
محاضرات فى المثالية الحديثة	٥١٩-	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	٥٢٠-	أحمد يوسف	أمل الصبان
قاموس تراجم مصر الحديثة	٥٢١-	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
إسبانيا فى تاريخها	٥٢٢-	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	٥٢٣-	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
الملك لير	٥٢٤-	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	٥٢٥-	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
علم السياسة البيئية	٥٢٦-	ستيفن كرويل ووليم رانكين	محى الدين مزيد
كافكا	٥٢٧-	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كز ب	جمال الجزيرى
تروتسكى والماركسية	٥٢٨-	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيرى
بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	٥٢٩-	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	٥٣٠-	رينيه جينو	عمر الفاروقى عمر

٥٣١-	ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيثرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتجتون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية	نخبة	عبدالفار مكاوي
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانييل	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلاني كلاين	نخبة	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	علم العلامات	بول كويلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	على عبد الرؤف البمبي

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٨٥٩١

I. S. B. N.

977 - 305 - 819 - 0

مطابع المجلس الأعلى للآثار